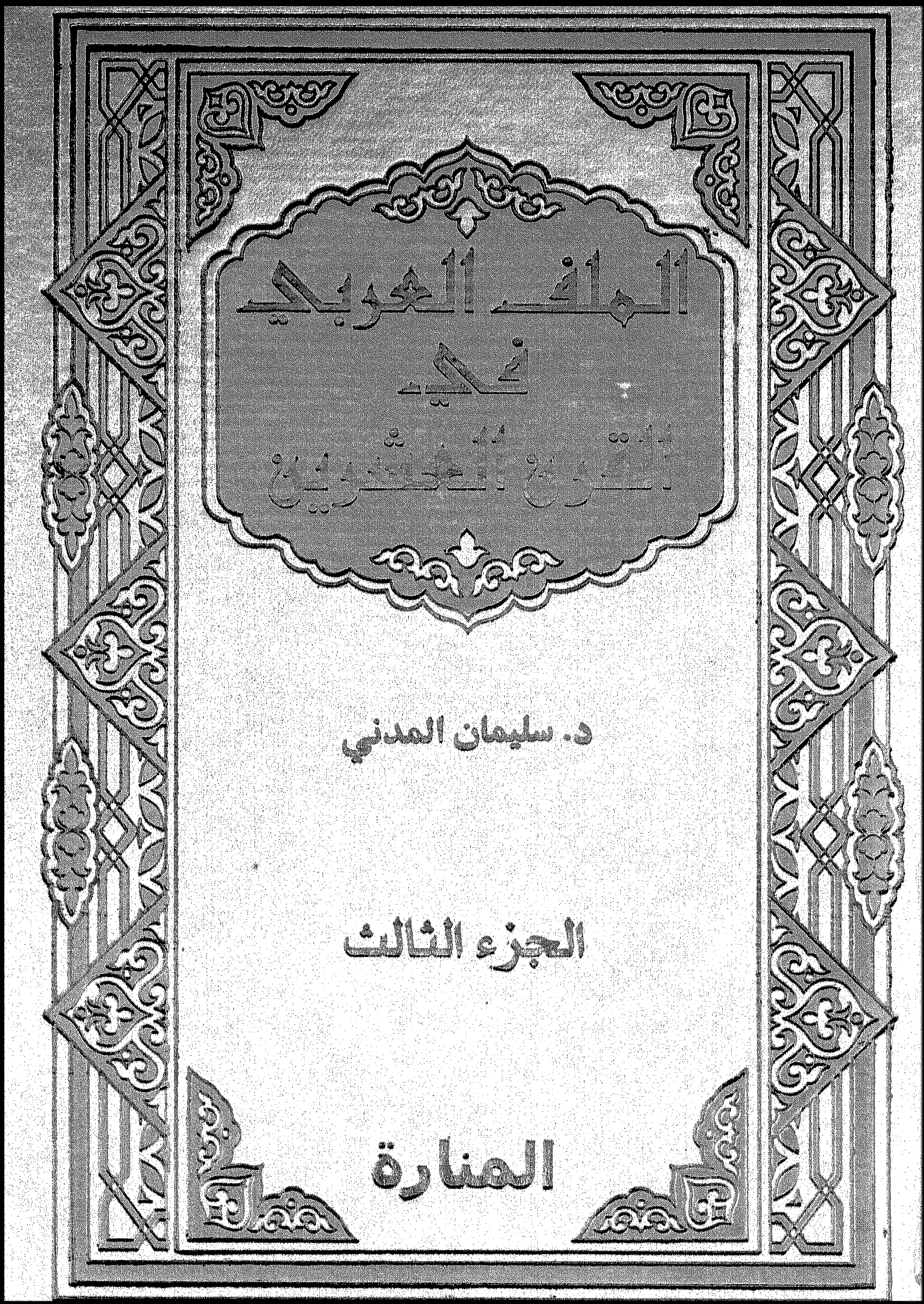


المثقف العربي في التاريخ العثماني

د. سليمان المدني

الجزء الثالث

المنارة

الملف العربي في القرن العشرين

الجزء الثالث

د. سليمان المدني

المنارة

الطبعة الأولى

١٩٩٨م - ١٤١٩ هـ

المنارة

للإنتاج الإعلامي والفني

بيروت : الحمراء - ص .ب ١١٣/٥٧٢٠

دمشق : ص .ب ٧٨٧ - هاتف: ٢٢١٢٩٦٧ -

فاكس :٢٢٣٤٣٣٦ - ١١ - ٩٦٣

مقدمة

تتوالى المأساة العربية عبر التاريخ جيلاً بعد جيل. ونتابع في هذا الجزء صورة جديدة من صور المأساة. حيث سنرى الإستعمار الفرنسي كعادة الإستعمار أينما وجد، يمارس عملية الإتجار بمصائر الشعوب ومقدراتها وفقاً لمشيئته وأهوائه. حيث يجد دائماً وبكل أسف العديد من ضعاف النفوس الذين يرتضون أن يكونوا مطية له. يبيعون أنفسهم وعزتهم وكرامتهم وحتى أوطانهم من أجل حفنة من المال، أو سعياً وراء منصب سياسي وهمي يعتقدون أنه مخلداً.

وهذا ما حدث تماماً عندما دخلت القوات الفرنسية إلى دمشق بعد معركة ميسلون الخالدة، وفوق جثث القتلى والجرحى الذين فضلوا الموت على رؤية المستعمر يعبث بأرضهم وديارهم ولكن ما حدث أنه لم يكد غورو يدخل إلى دمشق حتى التف حوله العديد من المتملقين والساعين إلى المناصب السياسية. ضاربين عرض الحائط بكل القيم الإنسانية والمشاعر النبيلة التي يفترض فيهم أن يراعوها خاصة وأن دماء الشهداء ما كانت لتجف بعد عندما استسلموا للإرادة الفرنسية وارتضوا أن يكونوا دمى في هيكل الوزارة الجديدة كما سنرى لاحقاً.

ولكن شيئاً هاماً يبدوا أن الجميع قد أسقطوه من حساباتهم، أو أنهم لم يكونوا ليقدروه حق قدره. إنه إرادة الشعوب في التحرر والإستقلال تلك الإرادة التي سنشهد في هذا الجزء من كتابنا فصلاً رائعاً من صورها التي تجلت في الثورات الشعبية المسلحة ضد قوات الإحتلال الفرنسي. والتي لم يكن لأي

واحد من القائمين بها أي مطمــح شــخصي، إلا طــرد الإســتعمار الفرنســي عــن كامل ترابه الوطني على أمل أن يعيش أبناءه من بعده بعزة وشموخ وكبرياء. نعم هذه الإرادة الحرة هي التي أورثها لنا الآباء فهل ترانا قدرناهــا حــق قدرهــا نحــن الأبناء؟.

سوريا في العهد الانتدابي الأول

بعدما تمكنت فرنسا من احتلال سوريا الداخلية وهدم العهد الفيصلي كما ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الملف قررت فرنسا مضاعفة جهودها بدون تريث في محاربة الفكرة العربية وشلها ولو بقوة الحديد والنار لأنها لم تكن تجهل ان عهد فيصل ليس إلا مظهراً للفكرة، وان سوريا وخاصة دمشق كانت من أهم المراكز التي نشأت وترعرعت فيها هذه الفكرة، كما لم تكن تجهل ان عهد فيصل قد وسع انتشارها وقواها حتى صارت دمشق تغلي بها في كل مناسبة وفرصة، ولاسيما ان سوريا قد تمتعت بالكرامة والعزة القومية بكل معانيهما في هذا العهد، ولم تكن تجهل كذلك ان اخماد الشعلة وتعطيل الحركة لا بد منهما لتحقيق مطامعها الاستعمارية في القطر السوري مما املته عليها تجاربها الباغية في المغرب العربي.

ومن أول ما فعلته انشاء محكمة عسكرية في دمشق استمرت قائمة الى آخر ايامها في سوريا، ومحاكمة عدد كبير من رجال الحركة السوريين والفلسطينيين واللبنانيين الذين غادروا دمشق غيابياً والحكم عليهم باحكام الاعدام والحبس الطويل متوخية بذلك نشر الارهاب في جو سوريا اولاً وسد باب الرجوع ثانياً أمام من تعرف فيهم قوة العقيدة القومية والنشاط والنضال. اما الذين بقوا في سوريا من الذين يمتون الى عهد فيصل وروحه ولم يكونوا بارزين بروز اولئك فقد اصلتت فوق رؤوسهم السيف ووقفت لهم بالمرصاد تحصي عليهم الانفاس وتسارع الى اخماد كل نشاط وحركة منهم بالتشريد والنفي والمحاكمات العسكرية في خطير المناسبات وتافهها.

وكذلك كان من اول ما فعلته إعلان حل الجيش العربي ووضع اليد على مخازن السلاح وجمعه باقسى الوسائل من ايدي المسرحين والمتطوّعين والاهلين عامة، ونقل عدد غير قليل من كبراء ضباط الجيش المنحل الى جزيرة ارواد معتقلين تحت رقابة صارمة وفرض غرامة حربية مقدارها مئتا الف جنيه ذهبية وجبايتها بالحديد والنار.

ولقد جهزت سبع حملات عسكرية على جبال اللاذقية وحملتين على جبل عامل وحملة على منطقة حصن الاكراد واخرى على حوران، وحملات عديدة على المنطقة الواقعة بين اسكندرونه غرباً وحماه شرقاً وجسر الشغور شمالاً فهاجمت هذه الحملات القرى، واحرقت ودمرت منها اكثر من ثلاثمائة، وصادرت ما وجدته فيها من اموال واعلاق وباعته علناً واعتقلت عدداً كبيراً من سكانها حتى لقد شمل الاعتقال عدداً غير يسير من النساء بحجة ايواء الثوار واعدمت عدداً كبيراً من المعتقلين.

البعثة الانتدابية :

وقد ابقت الحكم صورياً بيد حكومة علاء الدين الدروبي التي كانت مؤلفة من المعتدلين والمستسلمين، وسارعت في ذات الوقت الى انشاء بعثة انتدابية في دمشق باشراف مندوب المفوض السامي جعلتها ناظمة لجميع السلطات


علاء الدين الدروبي

والاعمال الحكومية والتشريعية والادارية والاقتصادية والأمنية وانشأت هيئة مصغرة لهذه البعثة في حلب باشراف معاون مندوب المفوض، وهيئات مصغرة اخرى باشراف معاونين في مركز المحافظات. وأقامت بالاضافة الى ذلك مستشاراً الى جانب كل وزير وكل محافظ وكل قائمقام مع ما يحتاج اليه من مساعدين وتراجمة جعلت اليهم الامر والتوجيه والحل والعقد.

ولقد لفت هذا الاسراف في الوظائف وتعقيداتها نظر موسيو جونار أحد رجال مجلس الشيوخ فوصفه وصفاً تهكمياً لاذعاً امام مجلسه في جلسة ٦ نيسان ١٩٢١ حيث قال:

«عندما يصل المسافر يشعر ان في المفوضية الافرنسية مصالح عديدة مهمة وحالما يدخل السراي يخيل اليه انه منتقل الى اعظم وزارات باريس بعدد موظفيها والى جانب معاون المندوب السامي مستشارون يوازي عددهم عدد الوزراء ومعاونيهم في فرنسا. ويريد كل مستشار أن يكون له مكتب خاص. وحيثما التفت ترى معاوني مستشارين ومستشارين متدربين وموظفين وكواتب ـ وما اكثر الكواتب ـ وترى الى جانب هؤلاء اركان حرب الجنرال غورو وغرفته السياسية ومصلحة الاستعلامات وبالاختصار موظفين كثيرين يخطئهم العدد. ففي المفوضية اذن عدد يزيد كثيراً على ما ينبغي ولا تكاد تجد رابطة في ما بينهم ويكاد كل منهم يجهل الآخر ويتصرف منفرداً بنفسه. واذا نظرت الى شكل الادارة في الحكومات الاربع التي احدثت اخيراً وهي لبنان الكبير ودمشق وحلب والعلويين رأيت استشارين مرة اخرى حول كل حاكم من حكام هذه الاقطار في كل منها حكام فرنسيون ما عدا دمشق وترى مستشارين الى جانب الرئيس في كل متصرفية واظن ان في جانب هؤلاء المستشارين مستشارين مساعدين ايضاً...».

المفوض السامي :

اما المفوض السامي فقد كان بمثابة الملك بما كان يحيط به نفسه من مظاهر الابهة والسلطان، واصبح مصدر السلطات ورئيسها جميعاً، يسير في نظام فردي ديكتاتوري لايبالي بما يصنع ولا يرى انه مسؤول عنه امام احد، ويمنح نفسه ما شاء من صلاحيات تشريعية واجرائية وقضائية، ويصدر ما يشاء من قوانين ولوائح، ويلغي بجرة قلم ما لايروقه من انظمة وقوانين موجودة(١) .

وقد ابعد كل صالح سليم العاطفة عن الوظائف وخاصة عن الرئيسية منها وقصرت هذه على المائعين والمستسلمين والمتآمرين الذين كانوا على صلة ما بالفرنسيين ووكلائهم.

ومثل هذا فعل في الشرطة والدرك وكتائب الجيش المحلي التي انشئت بعد قليل بحيث كانت هذه القوى وسائل طيعة لتنفيذ كل ما ترسمه السلطات الفرنسية من خطط، والتفنن في التزلف الى هذه السلطات بما يتسق مع ما تبيته من مقاصد مع الاحتفاظ بقياداتها العليا والثانوية للضباط الافرنسيين.

المصالح المشتركة :

ثم سلخت عن الحكومة السورية مصالح كثيرة جداً وانشأت لها ادارة خاصة سمتها المصالح المشتركة وجعلتها مرتبطة مباشرة بالمفوضية العليا وتدار

---

(١) أنتفخت هذه التصرفات والصلاحيات السلطانية الواسعة الى ان اصبح المفوض السامي يلغي دولة ودستوراً ومجلساً نيابياً ويعتقل رئيس جمهورية ورئيس وزراء ويعزلهم وينشيء دولة ودستوراً ومجلساً نيابياً ويعين رئيس جمهورية ورئيس وزراء بجرة قلم ايضاً كما فعل في سنتي ٩٣٠ و٩٤٣ في سوريا ولبنان.

بواسطة رؤساء وموظفين افرنسيين مع مساعدين من اللبنانيين في الدرجة الأولى والسوريين في الدرجة الثانية من تلك الطبقة التي ذكرناها آنفاً متذرعة الى ذلك باشتراك هذه المصالح بين سوريا ولبنان؛ فكانت هذه الادارة حكومة داخل حكومة، مع الامتياز الكبير لها دون مصالح الحكومة السورية العادية. وقد كانت تشمل الجمارك والبرق والبريد والهاتف والسكك الحديدية والموانىء والمطارات والمنائر والمحاجر ومراقبة الشركات والامتيازات والاحتكارات والملكية الفنية والتجارية والصناعية والأمن العام والجوازات وكتائب الجيش المحلي وشؤون العشائر الخ..

وكانت ايرادات هذه المصالح تجبى من قبل ادارتها الافرنسية وتجعل لها ميزانية خاصة ينفق منها على المفوضية السامية وملحقاتها وعلى الجيوش المحلية بالاضافة الى مرتبات موظفي هذه المصالح ونفقاتها وكانت تبلغ احياناً ضعفاً ونصفاً من مرتبات ونفقات الحكومة السورية برمتها.

الموظفون الافرنسيون :

وعين بالاضافة الى كل هذا عدد كبير من الافرنسيين في المصالح الحكومية السورية وخاصة ما يسمى بالمصالح الفنية كالمعارف والري والاشغال والتجارة والصناعة؛ كثير منهم لا مؤهلات لهم إلا فرنسينهم، وتظاهرهم بالنفخة الكاذبة والشعوذة المشكوفة، وكان في مرؤوسيهم من يفوقونهم كفاءة وعلو شهادة.

المصرف السوري اللبناني وعملته الورقية :

وكان من اول الاعمال التي بادرت اليها السلطات الافرنسية انشاء فرع للمصرف السوري اللبناني الذي كان قد انشىء في لبنان في العهد الفيصلي

ومنح امتياز اصــدار العملـة الورقيـة، واصـدار تشـريع بتـداول هـذه العملـة في سوريا. وجلّ رأس مال هذا المصرف افرنسي كان في بدئه عشرة ملايـين فرنـك ثم رفع الى عشرين مليوناً ومنـح الامتيـاز مقـابل سـندات الدفـا ع الوطـني علـى الخزينة الافرنسية. وقد اشترى في البدء سـندات بقيمـة خمسـة وعشـرين مليـون ليرة سورية اصدر مقابلها بنفس القيمة عملة ورقيـة. ولم يكـن لتلـك السـندات قيمة وثيقة كما انه لم يكن من الضمانة الذهبية لهذه العملة إلا قدر زهيـد جـداً؛ فغدت هذه العملة نافذة في سوريا ولبنان تؤخذ بها سلعهما وذهبهما آخذاً أشبه بالسـلب ولقـد خلـف المصـرف السـوري اللبنـاني المصـرف العثمـاني، وكـان للسوريين واللبنانيين فيه ودائع بقيمة مليوني جنيه ذهباً فأصدر المفـوض السـامي تشريعاً اعيدت الودائع بموجبه إلى اصحابها من تلك العملـة الورقيـة فعـاد علـى المصرف من هذه العملية وحدها ربـح يـوازي رأس مالـه علـى حسـاب خسـارة اصحاب الودائع من أهل البلاد! وكثيراً ما بلغت ارباح هذا المصـرف ١٠٠٪و ١٥٠٪ بسبب ما كان يناله من امتيازات ويصدر من اجله من تشريعات ويغرق السوق بعملته التي يسحب منه مقابلها الذهب والسلع!.

ضباط الاستخبارات :

ومن جملة ما كان إقامة ضباط بإسم ضباط الاستخبارات في مختلـف مـدن سوريا وقبائلها؛ فأنشأوا شبكة جاسوسية واسعة حشدوا فيها كل حـاقد وفاسـق وفاسد، واخذوا يستعينون بهم علـى اثـارة النعـرات والتفرقـة والوشـايات الـتي كانت وسيلة من وسائل الكيد والمكر والارهاب والارهاق، وقد كان من امرهم في ما بعد أن كانوا يؤلبون الاشرار على الاخيار، ويوجهون مـا كـان يجـرى مـن معارك انتخابية في المجرى الذي ترسمه السياسة الافرنسـية؛ ثـم وصـل امرهـم الى

تأليب انصارهم ومواليهم على الحركـات الوطنيـة والأهـداف الوطنيـة والعهـود الوطنية ورجالاتها.

ومما كان كذلك وضع الاوقاف الاسلامية تحـت اشـراف مفتـش إفرنسـي يأتمر بأمر البعثـة الافرنسـية، وتوسـيد المنـاصب والوظـائف الوقفيـة والدينيـة الى الانصار والمنزلفين والمنافقين ليكونوا وسيلة من وسائل دعايتهم.

كذلك اسرع الافرنسيون الى تعديل مناهج التعليـم في مختلـف الدرجـات الدراسية، وجعلوا للغة الافرنسية والثقافة الافرنسية المركز الممتاز فيها ليضمنـوا نشوء الجيل السوري الجديد نشأة افرنسية موالية.

ولم يغفلوا البدو والبادية السورية في منهجهم فأنشأوا الصلات بينهم وبين مشايخها واستبدلوا بمن اشتبهوا فيه من هؤلاء المشايخ اشخاصاً آخرين واغدقـوا عليهم المرتبات والمنح ليضمنوا طاعتهم وهدوءهم.

استغلالهم الحالة الطائفية في الدروز والنصيرية في سبيل توطيد استعمارهم :

كذلك عمدوا إلى استغلال الصفة الطائفية الخاصـة في الـدروز والنصيريـة والشـركس والأرمـن. هـادفين بذلـك الى جعـل جبـل الـدروز وجبـال اللاذقيـة حصنين عسكريين واسـتعماريين لهـم، تحـت اشـرافهم او حكمهـم المباشـر، والى جعل الـدروز والعلويـين والشـركس والأرمـن عـدة لهـم في الأزمـات والمواقـف العصبية.

لقد كان للدروز تقاليد وعادات واعتبارات وزعامات، وكانت احداث تاريخية وثورية في زمن الدولة العثمانية تمت الى هذه التقاليد والعادات والاعتبارات والزعامات بصلة؛ ولقد جرت التقاليد الجاهلية على ان ينظر السنيون اليهم بشكل غير مستحب من ناحية العقائد والطقوس الدينية مما ادى الى انقباضهم عن اخوانهم في العروبة انقباضاً فيه شيء من الحذر والتكتم والخصوصية.

وحالة الدروز هذه انطبق برمتها على النصيرية الذين سموا بالعلويين أيضاً وسميت منطقتهم اللاذقية ببلاد العلويين وجبال العلويين لانهم فيها اكثرية.

ولقد استغل الافرنسيون هذه الحالات الطائفية الخاصة واخذوا يبثون في رؤوس الطامعين والطامحين من الزعماء المخاوف من السوريين والوحدة السورية وانها وسيلة لابتلاعهم وغمرهم بالاكثرية السنية وحرمانهم من الوظائف والمناصب والمنافع.

ولقد كانوا مهدوا لهذه في المنطقتين منذ عهد فيصل؛ فاستطاعوا أن ينشئوا بينهم وبين بعض زعماء الدروز ومتزلفيهم وطامعيهم الصلات وان يوجدوا لهم فيهم الانصار والاعضاد. وكانت مهمتهم في النصيرية اسهل لان منطقة اللاذقية كانت تحت احتلالهم منذ انتهاء الحرب. ومما عمدوا إلى بثه فيهم بصورة خاصة انهم ليسوا عربا وانهم من بقايا الصليبيين دماً وروحاً وان تسمية النصيرية هي معدلة او محرفة من كلمة النصرانية، واستغلوا ما كان من اختصاص السنيين في المنطقة نفسها وخاصة في مدينة اللاذقية وهم اقلية بالنسبة اليهم بالمناصب والرعاية في زمن الدولة العثمانية؛ وعينوا بعض نابهيهم ومتحركيهم في المراكز والوظائف وصاروا يقدمونهم على السنيين؛ مما ساعد

على إتيان هذه الحركة بثمرتها العاجلة حيث اصبح النصيرية او بالاصح الطامحون والطامعون والمتحركون منهم يشعرون بشخصيتهم الخاصة ويرون هذا مفيداً لهم مادياً ومعنوياً، ويؤثقون صلاتهم بالافرنسيين ويتقربون اليهم ويتمسكون بهم ويظهرون لفرنسا الاخلاص في سبيل الاحتفاظ بما صار لهم؛ ولا سيما أنهم قد تمكنوا بذلك من رقاب سوادهم وتسخيرهم لمصالحهم ومنافعهم تسخيراً قويا فشت فيه السخرة والرق والرشاوى والغرامات وابتزاز الاموال والاملاك فشواً عظيماً اصبح الشعب به بعد قليل من الزمن يعاني شدائد الضنك والفقر.

وقد جند الافرنسيون عدداً كبيراً من شبان المنطقتين في كتائب الجيش المحلي التي انشأوها بعد قليل وعينوا بعض نابهيهم وابناء اسرهم المتزعمة ضباطاً؛ فكان ذلك وسيلة من وسائل توثيق الارتباط ونجاح الخطة المرسومة.

وبثوا كذلك المخاوف من السوريين في الجاليتين الشركسية والارمنية وجعلوهم يرون فيهم حماتهم وفي الارتباط بهم فائدتهم. وجندوا منهم عدداً كبيراً في كتائب الجيش وعينوا بعض نابهيهم ضباطاً فكان هذا كذلك وسيلة من وسائل توثيق الارتباط ونجاح الخطة المرسومة.

بل لقد حاولوا أن يفعلوا شيئاً من هذا في حلب وحمص وحماه ويثيروا الطامعين المائعين على العاصمة والتمرد عليها استهدافاً لتفريق الكلمة وتأريث البغضاء بين اهل الوطن الواحد والامة الواحدة.

وهكذا قامت في سوريا إدارة استعمارية شديدة اكبر همها ان تحول دون اي تقدم جدي وان تصد أي حركة قومية، وان تعطل اي حيوية ونشاط، وأن

تبث روح التفرقة بين مختلف الفئات والطوائف والمقاطعات، وان تشغل الناس بمشاكل ومشاغل توهن قواهم وتعطل نشاطهم، وان تستغل خيرات البلاد وثرواتها وتجارتها اوسع استغلال وابشعه.

تجارب الحكم الهزيلة :

ولم تلبث هذه الخطط الماكرة الخبيثة ان اخذت تؤتي اكلها بسرعة، وفي ميدان الحكم والادارة اولاً حيث اخذت اصوات الطامعين في المراكز والمناصب المتآمرين مع السلطات الافرنسية والمندمجين في توجيهاتها في حلب وجبال اللاذقية والدروز ترتفع ضد حكومة الشام التي كانت حكومة سوريا الداخلية جميعها. وتظاهر المفوض السامي بالاستجابة الى رغبات السكان فخلق من حلب دولة ومن منطقة اللاذقية دولة ومن جبل الدروز دولة ومن دمشق دولة؛ وذلك بعد اسابيع معدودة من الاحتلال، وأزال بذلك مظهر الحكومة السورية الواحدة الشاملة، وتوارى شكل الوزارة ليحل محله شكل الحاكم العام في عواصم هذه الدويلات.

وقبل الخوض بتفاصيل تلك الدويلات نرى لزاماً علينا أن نسرد هنا بنود الإتفاق الفرنسي الإنكليزي على الحدود بين كل من الإقليم السوري ولبنان وفلسطين والعراق.

فقد انابت الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية الوزيرين المفوضين الواضعين اسميهما ادناه ليحلا جميع الامور التي لها علاقة بالانتداب الذي منح لبريطانيا العظمى على فلسطين والعراق ولفرنسا على سورية ولبنان في المجلس الاعلى الذي اجتمع في سان ريمو وقد اتفقتا على الشروط الآتية:

١ ـ تعينت حدود المناطق التي شملها الانتداب الفرنسي اي سورية ولبنان وحدود المناطق التي شملها الانتداب البريطاني اي فلسطين والعراق كما يلي:

من الشرق نهر الفرات وجزيرة ابن عمر الى حدود ولايتي ديار بكر والموصل القديمة ومن الجنوب الشرقي حدود هاتين الولايتين القديمة الى غاية رومالين كوكي ومن هنا خط يمتد من المنطقة التي يشملها الانتداب الفرنسي فيترك فيها جميع الاراضي الواقعة في حوض نهر الخابور الغربي ويمر باستقامة نحو الفرات فيجتازه بالبوكمال ويمتد باستقامة الى امتار فجنوب جبل الدروز ومن هنا يمتد الى جنوب نصيب الواقعة على خط حديد الحجاز فسمخ الواقعة على بحيرة طبرية سائرا الى جنوب خط السكة الحديدية وموازيا لها. وتبقى درعا وما حولها في المنطقة التي يشملها الانتداب الفرنسي ويبقى ذلك الخط في وادي اليرموك ضمن المنطقة الفرنسية ويسير بصورة ملاصقة وموازية لخط السكة الحديدية كي يصبح في الامكان ان يمد في وادي اليرموك سكة حديدية واقعة في الاراضي المشمولة بالانتداب البريطاني وستوضع التخوم في صمخ بصورة يمكن معها للفريقين المتعاقدين الساميين ان يبنيا مرفأ ومحطة للسكة الحديدية. ليتمكنا من استعمال بحيرة طبرية بحريا.

ومن الغرب يسير الخط من صمخ ماراً داخل بحيرة طبرية فأول وادي المسعدية حيث يسير مع مجرى هذا النهر في وادي جرابا، الى نبعه، ومن هنا يتصل بطريق القنيطرة وبانياس بالمكان المعروف بالسكيك فيسير مع الطريق التي تبقى في المنطقة الفرنسية لغاية بانياس ومن هنا يسير نحو الغرب حتى يصل الى المطلة وتبقى المطلة في المنطقة البريطانية.

ويضع لهذا الجزء من الحدود تفصيلات دقيقة يمكن معها تسهيل المواصلات بين جميع اطراف البلاد المشمولة بالانتداب الفرنسي كصور وصيدا والمناطق الواقعة في الغرب الى الشرق من بانياس.

وتفصل التخوم المطلة بمفرق الماء في وادي الاردن وحوض نهر الليطاني وتسير جنوباً مع وادي الاردن فوادي فرعم ووادي كركره اللذين يبقيان في المنطقة البريطانية فوادي اليلاونة ووادي العيون والزرقاء التي تبقى في المنطقة الفرنسية ويصل الحد الى شاطيء البحر المتوسط في ميناء راس الناقورة وتظل في المنطقة الفرنسية.

٢ ـ تؤلف بعد التوقيع على هذه المعاهدة بثلاثة اشهر بعثة لتدرس الحدود بين المناطق المشمولة بالانتداب الفرنسي والمناطق المشمولة بالانتداب البريطاني التي بيناها في المادة الأولى وتتألف هذه البعثة من اربعة اعضاء تعين الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية اثنين منهم وتعين الاثنين الاخرين الحكومة المحلية المشمولة بالانتداب الفرنسي والحكومة المحلية المشمولة بالانتداب البريطاني بعد مشورة الحكومتين المنتدبتين.

اذا وقع خلاف بين اعضاء هذه البعثة يعرض على مجلس الامم ويكون قراره قطعيا.

وتقدم تقارير البعثة النهائية عن الحدود الثابتة التي عينت اخيراً وتربط معها المصورات الضرورية الموقع عليها من قبل اعضاء البعثة. وتوضع ثلاث نسخ من هذه التقارير والمصورات تحفظ النسخة الواحدة بين سجلات مجلس جمعية الامم وتحفظ النسختين الاخريين الحكومتان المنتدبتان.

٣ ـ توافق الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية على ترشيح لجنة خاصة مهمتها درس الخطط التمهيدية التي تعينها الحكومة الفرنسية المنتدبة لاجل مصلحة الري في البلاد المشمولة بانتدابها لئلا يقلل ابرازها لحيز الفعل ماء دجلة والفرات في الموضع الذي يدخلان به المنطقة العراقية المشمولة بالانتداب البريطاني.

٤ ـ توافق الحكومة البريطانية بالنظر الى مكانة جزيرة قبرص من الوجهة الجغرافية العسكرية بالنسبة الى خليج الاسكندرونة على ان لاتفاوض احدا بخصوص التنازل عنها او تسليمه اياها قبلما توافق فرنسا على ذلك.

٥ ـ توافق الحكومة الفرنسية على وضع ترتيب حر يبين كيفية استعمال خط السكة الحديدية الواقع بين طبرية ونصيب استعمالا مشتركاً.

تضمن سير هذا الترتيب وانتظامه ادارتا السكة الحديدية المؤلفتان في منطقتي الانتداب البريطاني والفرنسي بأسرع ما يمكن اي بعد تنفيذ الانتداب على سورية وفلسطين وتسمح هذه الاتفاقية ذهابا وايابا بين هاتين المنطقتين وفقاً لمصالحها. وتنقل البضائع التجارية الى المنطقة المشمولة بالانتداب الفرنسي بواسطتها، وتعين هذه الاتفاقية الشروط المالية والادارية والفنية اللازمة لسير القطارات البريطانية، اما اذا لم يتم الاتفاق خلال ثلاثة أشهر من تنفيذ الانتداب بين الادارتين المذكورتين اعلاه فستعين جمعية الأمم حكما يفصل الخلاف وعندئذ تنفذ شروط هذه الاتفاقية التي حازت رضا الطرفين.

يعمل بموجب هذه الاتفاقية الى اجل غير مسمى وتصحح احيانا بمقتضى الاحوال.

ب ـ يمكن للحكومة البريطانية ان تمد خطاً من الانـابيب الحديديـة بجـانب السكة الحديدية ولها الحق في نقل جنودها على هذه السكة الحديدية دائما.

ج ـ توافق الحكومة الفرنسية على تعيين بعثة خاصة تدرس الاراضي وبعد در سها اياها تعين الحدود من وادي اليرموك حتى نصيب بطريقة فنية يمكن معهـا بناء الخط الحديدي البريطاني وخط الانابيب الموصـل بـين فلسـطين وبـين سـكة الحجاز ووادي الفرات في المنطقة المشمولة بالانتداب البريطـاني. وتبقـى السـكة الحديديـة الحاليـة المـارة بـوادي الـيرموك داخـل الاراضـي المشـمولة بـالانتداب الفرنسي، ويجب على بريطانيا العظمى احقاق حقها هذا في مدة لا تتجاوز عشر سنوات.

د ـ تتألف البعثة التي ذكرناها اعلاه من عضـو بريطـاني وعضـو فرنسـي ويضاف اليهما نواب عن الحكومات المحلية بصفة مستشارين فنيين هـذا إن رأت الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية لزوما لذلك.

هـ ـ اذا اقتضـى الامـر لاسـباب فنيـة ان يمـر خـط السـكة الحديديـة ـــ البريطانية ببعض الاماكن المشمولة بالانتداب الفرنسي توافق الحكومة الفرنسـية على مـرور هـذا الخـط بتلـك المنـاطق وتقـدم للحكومـة البريطانيـة او لعملائهـا المساعدات اللازمة.

و ـ اذا شاءت الحكومة البريطانية العمل بموجب الحق الممنوح لها بـالفقرة الثالثة من هذه المادة اي ان تمد سكة حديديـة في وادي الـيرموك تنفـذ الحكومـة الفرنسية الشروط التي اشترطتها علـى نفسـها بـالفقرة الاولى والثانيـة مـن هـذه المادة غب مرور ثلاثة اشهر من انشاء السكة.

ز ـ توافق الحكومة الفرنسية على اتخاذ التدابير الفعالة لحمل الحكومات المحلية المشمولة بالانتداب الفرنسي لتصادق على هذه الحقوق الممنوحة للحكومة البريطانية.

٦ ـ تم الاتفاق على هذه الشروط التي تسهل اعمال الحكومة البريطانية مقابل عقد الاتفاقية الفرنسية البريطانية بخصوص الزيت في سان ريمو.

٧ ـ لا تضع الحكومة البريطانية ولا الحكومة الفرنسية موانع في منطقتي انتدابهما لجمع الموظفين اللازمين لادارة خط السكة الحجازية او لاستخدامهم.

تمنح جميع التسهيلات الضرورية لمرور جميع الموظفين المستخدمين في الخط الحديدي الحجازي بمنطقتي الانتداب البريطاني والفرنسي لئلا تتأخر اعمال هذا الخط.

توافق الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية عند اللزوم على أن تعقدا اتفاقية مع الحكومات المحلية خلاصتها استثناء جميع مهمات هذا الخط ومعداته من الرسوم الجمركية عندما تمر باحدى مناطق الانتداب.

٨ ـ يعين خبراء واختصاصيون من قبل حكومة سورية وفلسطين غب بمرور ستة أشهر من أمضاء هذه المعاهدة مهمتهم فحص مياه نهر الاردن الاعلى ونهر اليرموك وتوابعهما لاستخدامهما لاجل الري ولاجل توليد الكهرباء وتعيين المقدار اللازم للاراضي والواقعة تحت الانتداب الفرنسي.

تزود الحكومة الفرنسية الاخصائيين الذين تعينهم لدرس هذا المشروع بالتعليمات اللازمة لمنح فلسطين الماء الزائد خدمة لمنافعها العامة.

اذا لم يحصل الاتفاق المطلوب بنهاية هذا الدرس تعرض المسألة على الحكومتين البريطانية والفرنسية لتدرساها وتقررا فيها قرارا نهائياً.

تشترك ادارة فلسطين بقادر انتفاعها من هذه الاعمال في دفع نفقات بناء الترع والخلجان والسدود والخزانات والاحواض والاقبية وخطوط الانابيب الحديدية الخ... وتشترك في جميع الاعمال التي من شأنها انبات الحراج وتنشيط تربيتها.

٩ ـ توافق الحكومتان البريطانية والفرنسية عملا بنص المادة «١٥» والمادة «١٦» من نظام الانتداب الفلسطيني وعملا بنص المادة الثامنة والمادة العاشرة من نظام الانتداب العراقي وعملا بنص المادة الثامنة من نظام الانتداب اللبناني السوري وعملا ايضا بموجب الحق العام المعطى من قبل الحكومات الوطنية للمدارس المحلية بخصوص التربية والتعليم على السماح للمدارس التي تخص اناساً من التبعة الفرنسية او من التبعة البريطانية على المثابرة في ادارة هذه المدارس في منطقتي انتدابهما، ويسمح بتعليم اللغة الفرنسية واللغة الانكليزية في هذه المدارس.

لا تعني هذه المادة بحال من الاحوال منح رعايا احدى الدولتين المشار اليهما حق فتح مدارس جديدة في الوقت الحاضر في منطقة انتداب الدولة الاخرى.

لقد جعلت الدولة الفرنسية من هذه الولاية الصغيرة «سورية» على عهد العثمانيين والتي كانت تترامى اطرافها كما ذكرنا دول القت عليها الاسماء الضخمة والالقاب الفخمة والملاكات الواسعة فجعلت منها دولة لبنان الكبير

«جمهورية لبنان اليوم» من بعد ان الحقت فيها اقضية بعلبك والبقاع وحاصبيا وراشيا فتألفت هذه الدولة من لبنان القديم ولواء بيروت الذي هو عبارة عن أقضية صيدا وصور ومرجعيون وطرابلس الشام مع قضاء عكار والاقضية الشرقية وهي بعلبك وحاصبيا وراشيا والبقاع وجعلوا العاصمة بيروت وقد أعلن الجنرال غورو بقصر الحرش استقلال لبنان الكبير تحت حماية فرنسا في اول ايلول ١٩٢٠ فاحتجت الحكومة السورية حينئذ على سلخ الاقضية الاربعة والحاقها بلبنان من غير مسوغ شرعي.

ودولة حلب: بقرار اعلنه الجنرال غورو في ٨ ايلول سنة ١٩٢٠ وجعل منها دولة مستقلة بهذا الاسم رغم ضآلة حدودها وقلة موازنتها.

ودولة العلويين: التي اصدر المفوض السامي قرارا بتأليفها في ٢٣ ايلول سنة ١٩٢٠ من لواء اللاذقية القديم بما فيه اقضية صهيون وجبلة وبانياس وقضاء حصن الاكراد وصافيتا من لواء طرابلس الشام القديم وناحية طرطوس وقضاء مصياف من اعمال حماه.

ودولة دمشق: التي اصدر نفس المفوض في ٢ كانون الاول سنة ١٩٢٠ قراره بجعلها دولة مستقلة وبإبدال الوزارات بمديريات عامة وجعل حاكم لهذه الدولة بدلا من رئيس وزراء ففقدت ما تمتاز به هذه المدينة من المميزات الطبيعية واصبحت كغيرها من العواصم التي احدثت والتي هي اقل شأناً منها بكثير.

ودولة جبل الدروز: التي اعلنت السلطة الفرنسية بتاريخ ٢٠ نيسان سنة ١٩٢١ بلسان الجنرال غورو انشاء الحكومة الجديدة فيها تحت امرة الامير سليم الاطرش وذلك بعد مفاوضات جرت فيما بينها وبين الشعب الدرزي

العربي على اثر المؤتمر الذي عقده الدرزيون في السويداء في ٢٠ كانون الاول سنة ١٩٢٠ فقرروا فيه ما يلي وقدموا هذه المقررات الى السلطة لتنفيذها:

١ ـ حكومة جبل الدروز هي حكومة سورية مستقلة استقلالاً داخلياً.

٢ ـ تقبل حكومة الجبل الانتداب الفرنسي بشكل لا يمس استقلالها.

٣ ـ تسمى هذه الحكومة «مشيخة جبل حوران» ويدخل ضمنها كامل وعرتي اللجه والصفة وتمتد الى حدود الدير علي من الجهة الشمالية والى حدود الازرق من الجهة الجنوبية.

٤ ـ يرأس هذه الحكومة حاكم أهلي، ينتخبه الاهالي، وفقا لقانون خاص مرة كل ثلاث سنوات ويكون لها مجلس استشاري كبير ينتخب اعضاؤه وفقا لقانون خاص مرة كل ثلاث سنوات ايضا.

٥ ـ يقوم هذا المجلس مقام المجلس الملي يقل اعضاؤه عن الثلاثين عضوا.

٦ ـ تحديد وتعيين صلاحية ووظيفة كل من الرئيس والمجلس بقانون خاص يوافق عليه اهل البلاد بجمعية عمومية.

٧ ـ تستمد حكومة الجبل ما تحتاج اليه من المساعدة المالية والفنية والاقتصادية من الحكومة المنتدبة.

٨ ـ لايحق للحكومة المنتدبة المداخلة بأمور الجبل الداخلية، ولاتجنيد أهالي جبل حوران ولا نزع الاسلحة منهم ضمن المنطقة الفرنسية.

٩ ـ يعهد بأمور الجبل السياسية الخارجية لمأموري الحكومة المنتدبة

السياسيين ولا يكون للحكومة الوطنية مأمورون سياسيون الا في دمشق وفلسطين وجبل لبنان.

١٠ ـ واردات هذه الحكومة تكون اولا مما يصيبها من حصة الجمارك السورية الفلسطينية. وثانيا مما يصيبها من واردات مما لح اتري وكاف وثالثا من دخل املاك الدولة التي ستدخل ضمن حدود حكومة الجبل ورابعا مما يطرحه المجلس الملي من الاموال عند الاحتياج المبرم على انه لايحق لهذا المجلس أن يقرر استيفاء ضريبة الاعشار من حاصلات الاراضي انما الاموال التي يجوز له ان يقرر استيفاءها من الاراضي يجب ان تكون مقطوعة ومصدقا عليها من عموم اهل البلاد بجمعية عامة.

١١ ـ اذا خالف رئيس الجبل منافع الجبل العامة ومنافعه الحيوية وأخل بالقوانين الاساسية الموضوعة وقرر المجلس تنحيته واستحصل على فتوى من مشايخ العقل بذلك فحينئذ ينحى وينتخب خلافه.

١٢ ـ ينصب مشايخ العقل مدى الحياة ولا يعزلون ولا يحق للحكومتين الوطنية والمنتدبة التدخل بوظائفهم الدينية.

واليك نص الاتفاق الذي جرى فيما بين الشعب الدرزي العربي والسلطة يوم ٤ مارس سنة ١٩٢١:

١ ـ تنشأ في جبل الدروز وحوران حكومة وطنية مستقلة استقلالاً ادارياً واسعاً تحت الانتداب الفرنسي وتعين حدود هذه الحكومة لجنة ثم تقرها الدولة المنتدبة.

٢ ـ تكون هذه الحكومة وطنية ويعين موظفوها من ابناء البلاد ويكون طراز ادارتها منطبقاً على العوائد المحلية وتقدم الحكومة المنتدبة مستشارين فرنسيين يقيمون عند الحكومة الوطنية لتدريبها على الامور القانونية والادارية ويرجعون الى رئيس البعثة بدمشق. اما اسم هذه الحكومة فيحتفظ به الآن ريثما يتفق عليه مع المندوب السامي.

٣ ـ يرأس هذه الحكومة حاكم اهلي ينتخب بواسطة ممثلي الشعب القانونيين لمدة اربع سنوات بموجب قانون خاص يسن فيا بعد ولا يصح انتخابه نهائياً الا بعد مصادقة الدولة المنتدبة.

٤ ـ يساعد الحاكم في مهامه مجلسان يدعى الاول مجلس الحكومة لمدة ثلاث سنوات ممثلوا الامة الشرعيون وفقا لقانون خاص يوضع فيما بعد ويلتئم هذا المجلس مرة في السنة لتدقيق ميزانية الحكومة والموافقة على الحسابات الماضية ويقدم اقتراحات فيما يتعلق بالمصالح العامة كالاشغال العمومية والصحة والاسعاف والمعارف الخ... اما اللجنة الادارية فيكون اجتماعها بصورة دائمة وتكون مؤلفة من موظفين يعينهم الحاكم ومندوبين ينتخبهم مجلس الحكومة.

٥ ـ ينظم قانون خاص تعين به وظائف وصلاحيته وصلاحية مجلس الحكومة واللجنة الادارية وكيفية تأليفهما ويعهد بتنظيم هذا القانون الى لجنة خاصة ولا يصبح نافذا الا بعد مصادقة الدولة المنتدبة عليه.

٦ ـ ان الحكومة المنتدبة وحدها دون سواها تقدم لحكومة جبل الدروز المساعدة الفنية والمالية والاقتصادية والعسكرية التي قد تحتاج اليها.

٧ ـ تتعهد الحكومة المنتدبة باستثناء سكان جبل الدروز من الخدمة

العسكرية الاجبارية، اما قوات الدولة والشرطة اللازمة لحفظ النظام العمومي فيصير تشكيلها بطريقة التطوع ويسمح لسكان الجبل بابقاء الاسلحة بين ايديهم داخل حدود الحكومة الدرزية. أما في خارج هذه الحدود فيجب على السكان المذكورين الخضوع للاحكام الموضوعة بخصوص حمل السلاح.

٨ ـ ان الحكومة المنتدبة هي موجهة وحدها في مصالح الحكومة الدرزية وتمثيلها في الخارج اما في داخل المنطقة الفرنسية فتقبل الحكومة المنتدبة معتمدين لحكومة الجبل لاجل المصالح الاقتصادية.

٩ ـ تتعهد الحكومة المنتدبة بعدم اجبار حكومة جبل الدروز على الدخول في الوحدة المحتمل حصولها فيما بعد بين الاقليم السوري الا فيما يختص بالمسائل الاقتصادية العائدة منفعتها على الحكومة الدرزية وسائر مقاطعات الاقليم السوري.

١٠ ـ مصادر الايراد لميزانية جبل الدروز هي الآتية:

١ ـ الضرائب والرسوم المختلفة التي يفرضها مجلس الحكومة.

٢ ـ الرسوم التي تفرض على المناجم المعدنية المحتمل اكتشافها في اراضي هذه الحكومة.

٣ ـ واردات اقسام الاراضي السنية العائدة للحكومة العثمانية والمحتمل ادخالها ضمن منطقة جبل الدروز الجديدة ولا يصير دفع أعشار في هذه الحكومة.

١١ ـ لا تصبح ميزانية جبل الدروز نافذة الا بعد مصادقة المندوب السامي للجمهورية الفرنسية في الاقليم السوري عليها.

١٢ ـ لا تقام حواجز جمركية بين حكومة الجبل وحكومة مقاطعة دمشق انما يحق لحكومة جبل الدروز ان تأخذ حصتها من واردات الجمارك السورية فيما لو ترتبت حصص لباقي مقاطعات الاقليم السوري.

١٣ ـ يمكن لمجلس الحكومة ان يطلب من الدولة المنتدبة في الاحوال المذكورة في القانون الخاص المتعلق بصلاحية الحاكم ووظائفه اقالة الحاكم وتتخذ الحكومة المنتدبة قرارا بهذا الشأن بعد استشارة رؤساء الدين.

١٤ ـ ان الحكومة المنتدبة ومجلس حكومة الجبل واللجنة الادارية لا تتدخل على الاطلاق في الامور الدينية ولا يجوز للسلطة المدنية عزل او تنحية رجال الدين.

١٥ ـ تتعهد الحكومة المنتدبة وحكومة الجبل المحلية بالمحافظة على حقوق الاقليات داخل حكومة الجبل هذه.

«فضل ا لله هنيدي. نسيب الاطرش. سليم الاطرش. توفيق أو عساف. عقلة القطامي. قفطان عزام. فخر الدين الشعراني. مسعود غانم. جبر شلغين. نايف أبو فخر، ضمري شلفين. دخل ا لله ابو فخر نسيب الحسيني. حسين ابو فخر.

بالأصالة والنيابة عن المشايخ الروحانيين اقر واعترف بذلك.

محمود ابو فخر ـ والرئيس الروحي

مصدق: روبيردي كيه

المفوض السامي في سورية وكليكيا بتاريخ ٤ مارس سنة ١٩٢١.

لواء اسكندرون :

أما لواء الاسكندورن الذي ظل حتى صيف ١٩٢٤ جزءاً من دولة حلب فقد أصدر المفوض السامي قراراً حوله قال فيه:

«يتمتع لواء اسكندرونة مع بقاءه تابعا للدولة السورية بنظام اداري ومالي خاص وتعتبر اللغة التركية لغة رسمية كالعربية والفرنسية ويعين متصرف لواء اسكندرون من قبل رئيس الدولة السورية بناء على اقتراح مندوب المفوض ويكون له كل السلطة المخولة لمتصرفي الالوية وله علاوة على ذلك النظر في شؤون المعارف والاشغال العامة».

على ان الانتخابات التي جرت على قاعدة اللواء في عهد المسيو دي جوفنيل كما سيأتي تفصيله جعلت هذا اللواء منفصلاً بصورة ادارية عن سورية ومربوط بالمفوضية العليا رأسا مع توسيع سلطة مندوب المفوض السامي فيه ثم انهم ما غنموا ان عادوا عن ذلك بتاريخ ١٢ حزيران سنة ١٩٢٦ فقرروا الغاء استقلاله وادخلوه على قاعدة اللامركزية للبلاد السورية على ان يكون التعيين راجعاً الى المرجع المختص على شريطة التفاهم مع المفوض السامي.

ويتألف هذا اللواء من مدن اسكندرونة وانطاكية وبيلان وقرقخان وهو متاخم لتركيا.

وفي الرابع عشر من شهر مايس سنة ١٩٢٠ اذاع المفوض السامي مجموعة الدساتير التي وضعها للدولة السورية كجمهورية دمشق وجمهورية لبنان وحكومة جبل الدروز وحكومة العلويين ولواء الاسكندرون وبعث بها الى جامعة الامم عن طريق وزارة الخارجية الفرنسية فأقرتها.

ان هذه التجزئة المريرة التي اقدم الفرنسيون عليها قد قوبلت من عرب سورية بأشد الاستياء والاستنكار وقد ادرك الشعب أن المستعمر ما أقدم على ذلك الا لترسيخ اقدامه في هذه البلاد ولإنهاكه قواها بالموزنات الفضفاضة وبالاثواب الحكومية الواسعة التي القاها على اجسام هذه الدول النحيلة الهزيلة لكي يرهق كاهلها بما لا تطيق.

أدرك الجنرال غورو عقم وفساد ما صنع فشاء ان يتلافى ما فعل بتعديل مشروع التجزئة تعديلا بسيطا ظناً منه أنه يسترضي الشعب به نوعاً ما فأصدر بتاريخ ٢٢ حزيران سنة ١٩٢٢ قرارا بانشاء اتحاد بين دول دمشق وحلب والعلويين مواده ما يأتي:

١ ـ انه قد انشيء اتحاد بين الدول السورية المؤلفة من دولة حلب. ودولة دمشق واراضي العلويين المستقلة.

٢ ـ ان من اراد الانضمام الى هذا الاتحاد من الدول او الاراضي الاخرى الواقعة تحت الانتداب الفرنسي يجب عليه قبول الشروط المدرجة في هذا القرار ثم يتخذ رئيس الاتحاد قراراً يصادق به على هذا الانضمام. ويحدد عدد الممثلين الذين تنتدبهم عنها لدى مجلس الاتحاد الدولي التي قبل انضمامها.

٣ ـ ان الدول الواقعة تحت الانتداب الفرنسي داخلة كانت في الاتحاد ام لم تكن يكون لها عين النظام فيما يتعلق بالنقود والمعاملات الجمركية ولا يمكن ان يفصل بينها بأدنى حاجز جمركي.

٤ ـ ان السلطة التنفيذية تخول لرئيس الاتحاد الذي يمكنه تكليف حكام

الدول بالنيابة عنه تنفيذ قرارات المجلس الاتحادي وان هذا الرئيس ينتخب من جانب المجلس بالاكثرية المطلقة ويكون انتخابه لسنة كاملة.

٥ ـ يساعد رئيس الاتحاد في مهام وظيفته مديرون من الدول المتحدة ومجلس الاتحاد وهذه المديريات المشتركة بين الدول تكون بصورة موقتة كما يأتي: مدير المالية ومدير الاشغال العامة ومدير العدلية ويرشد هؤلاء المديرين مستشارون افرنسيون.

٦ ـ ان قرارات رئيس الاتحاد لا تنفذ الا بعد مصادقة المفوض السامي عليها.

٧ ـ يؤلف المجلس الاتحادي من خمس ممثلين لدولة دمشق وخمسة لدولة حلب وخمسة لبلاد العلويين وينتخب هؤلاء الممثلون لمدة سنة من قبل مجالس الحكومات حينما تؤلف عى الطريقة الانتخابية على انه لا يجب ضرورة أن يكون اعضاء المجلس الاتحادي من اعضاء مجلس الحكومة الذين ينوبون عنها بل يجري تعيينه موقتاً من قبل حكام الدول.

٨ ـ يلتئم المجلس الاتحادي بالمناوبة تارة في دمشق وتارة في حلب في كل منهما سنة واحدة وتؤلف دائرة تمثل فيها كل بعثة مؤلفة من رئيس أول ورئيسين ثانيين».

وفي ٢٨ من الشهر المذكور من العام الملمع اليه اجتمع اعضاء المجلس الاتحادي في حلب وكان من جملة الحضور الجنرال غورو الذي أعلن انشاء هذا الاتحاد رسميا وقال في مستهل خطابه ما معناه: «انا اعلن ان هذا الاتحاد لم يقابله

الاهالي في كل مكان بعواطف واحدة غير انه من المحتمل ان لايكون القرار الذي اوجده قد اعرب على وجه الصحة او نقل بالضبط، لذلك أراني مضطراً لأن اتلوه بنفسي عليكم». وبالفعل فقد تلاه وهنا لا نرى بداً واتماما للفائدة من ان نأتي على ذكر الانتداب وصكه وكيف كان اقراره على هذه البلاد.

اقر مجلس عصبةالامم في الرابع والعشرين من تموز سنة ١٩٢٢ صك الانتداب على سورية الذي وضعته الحكومة الفرنسية لسورية ولبنان بناء على قرار مجلس الحلفاء الاعلى الصادر في سان ريمو بتاريخ ٢١ نيسان سنة ١٩٢٠ بانتداب فرنسا على سورية ولبنان وها هو نص الصك:

«مجلس جمعية الأمم:

لما كانت دول الحلفاء العظمى متفقة على ان أراضي سورية ولبنان التي كانت فيما مضى جزءاً من السلطنة العثمانية يعهد بها ضمن حدود تعينها الدول المشار اليها الى دولة منتدبة موكول اليها نصح الاهالي ومعاونتهم وارشادهم في ادارتهم وفقاً لنص الفقرة الرابعة من المادة «٢٢» من عهد جمعية الأمم.

ولما كانت دول الحلفاء الرئيسية قد قررت ان الانتداب على البلاد المذكورة يعطى لحكومة الجمهورية الفرنسية التي قبلته.

ولما كان صك هذا الانتداب المبين في المواد المذكورة فيما بعد قد وافقت عليه حكومة الجمهورية الفرنسية وعرض للتصديق على مجلس جمعية الأمم.

ولما كانت حكومة الجمهورية الفرنسية تتعهد باجراء هذا الانتداب باسم جمعية الأمم طبقا للمواد المذكورة.

ولما كانت نصوص المادة الثانية والعشرين الآنفة الذكر «الفقرة الثانية» تقضي بأنه لما كانت درجة السلطة والمراقبة والادارة التي تجربها الدولة المنتدبة لم يتفق عليها سابقا بين اعضاء جمعية الأمم فالمجلس هو الذي ينظم ذلك.

يضع نصوص الانتداب كما يلي موافقاً عليه:

١ ـ تضع الحكومة المنتدبة في برهة ثلاث سنوات اعتبارا من تاريخ تنفيذ هذا الانتداب دستوراً نظامياً لسورية ولبنان.

يصاغ هذا الدستور بالاتفاق مع السلطات الوطنية وتراعى فيه حقوق عموم السكان القاطنين في هذه البلاد ومصالحهم وستشرع الحكومة المنتدبة في ايجاد الوسائل التي من شأنها ان تسهل تقدم سورية ولبنان ورقيهما كحكومتين مستقلتين وتسيرهما بموجب روح هذا الصك الى ان يتم الشروع في تنفيذ ذاك الدستور.

ويجب على الدولة المنتدبة ان تنشط الاستقلال المحلي قدر ما تسمح به الاحوال.

٢ ـ يمكن للحكومة المنتدبة ان تبقي جنودها في البلاد للدفاع عنها وقد خولت حق تنظيم جند من المليش المحلي قصد المحافظة على الامن والدفاع عن البلاد كما تقتضيه الاحوال وذلك حتى تنفيذ الدستور واعادة الامن الى نصابه وتنظيم جنود المليش المحلي من سكان البلاد فقط.

ترتبط هذه الجنود فيما بعد بالادارات المحلية تحت اشراف الدولة المنتدبة

ولا يجوز استخدامها لاغراض اخرى سوى الاغراض المعينة فيما تقدم الا بعد موافقة الدولة المنتدبة.

لا مانع يمنع سورية ولبنان من الاشتراك في نفقات القوات التي تضعها الدولة الممنتدبة في البلاد.

يحق للدولة المنتدبة في كل حين ان تستعمل الموانيء والخطوط الحديدية ووسائل النقل الموجودة في سورية ولبنان لسوق جنودها ونقل جميع المواد والمهمات والوقود اللازمة لها.

٣ ـ يعهد الى الدولة المنتدبة بالسيطرة على جميع علاقات سورية ولبنان الخارجية ولها حق اصدار البراءات الى القناصل الذين يعينون من قبل الدول الاجنبية، وتشتمل الدولة المنتدبة بحمايتها السياسية والقنصلية الرعايا السوريين واللبنانيين الذين يعيشون خارج هذه البلاد.

٤ ـ الدولة المنتدبة مسؤولة عن عدم التنازل عن أي جزء من اجراء سورية ولبنان وعن عدم تأجيره أو وضعه تحت تسلط دولة اجنبية.

٥ ـ ان اعفاء الاجانب من الامور الواجبة وتمتعهم بالامتيازات الاجنبية وبقضاء القنصلاتو وحمايته التي كانوا يتمتعون بها ايام الدولة العثمانية لا تطبق في سورية ولبنان، غير ان محاكم القنصلاتو الاجنبية تداوم على القيام بوظيفتها الى ان يتم تنفيذ النظام الجديد المنصوص عنه بالمادة السادسة.

ان الدول التي كان اتباعها يتمتعون بالامتيازات الاجنبية المبينة اعلاه لاول اغسطوس سنة ١٩١٤ والتي لم تتنازل عن هذه الامتيازات او توافق على

عدم تطبيقها، لأجل محدود ستمنح ثانية جميع الامتيازات او بعضها بعد انقضاء امد الانتداب بالصورة التي يتم عليها الاتفاق بين الدول ذات الشأن.

٦ ـ تضع الحكومة المنتدبة في سورية ولبنان نظاماً يصون حقوق الوطنيين والاجانب على السواء.

يحافظ على احوال الناس الشخصية وعلى مصالحهم الدينية وخصوصا ادارة الاوقاف التي تدار وفقاً للشريعة ولادارة الوقف.

٧ ـ تكون معاهدات تسليم الرعايا الاجانب بين الدولة المنتدبة وبين سائر الدول الاجنبية مرعية في سورية ولبنان الى ان يتم عقد اتفاقات خاصة بهذا الشأن.

٨ ـ تضمن الدولة المنتدبة للجميع حرية المصير وحرية القيام في جميع شعائر العبادة التي لا تخل بالامن ولا بالآداب العامة ولا يكون تمييز من أي نوع بين سكان سورية ولبنان بسبب الجنس او الدين او اللغة.

تنشط الحكومة المنتدبة التعليم العام ويكون هذا التعليم بلغة البلاد المحلية، لا تحرم جميع الطوائف حق المحافظة على مدارسها وتعليم ابنائها بلغتها متى كان ذلك مطابقا لقانون التعليم العام الذي تعينه الحكومة.

٩ ـ تتجنب الحكومة المنتدبة التدخل في أعمال المجالس الادارية وفي ادارة الطوائف الدينية وفي ادارة المعابد المقدسة التي تخص احدى الطوائف وقد تكفلت بالمحافظة على هذه المعابد.

١٠ ـ تحدد سلطة الدولة المنتدبة في مراقبة البعثات الدينية في سورية

ولبنان لاجل محافظتهم على الامن وعلى الحكم بطريقة مرضية، ولا تحصر الدولة المنتدبة مساعي هذه البعثات بصورة من الصور ولا تقيد اعضاءها بقيود بسبب قوميتهم ما لم تخرج اعمالهم عن اصول الدين.

يمكن لهذه البعثات الدينية ان تشتغل بأمور الاسعاف والتعليم تحت مراقبة الدولة المنتدبة او الحكومة المحلية.

١١ ـ يجب على الحكومة المنتدبة ان لا تميز بالمعاملة في سورية ولبنان بين اتباعها وبين اتباع غيرها من الدول الداخلة في عضوية جمعية الأمم وتشمل هذه المعاملة الجمعيات والشركات الاجنبية على اختلافها، وان لا تميز ايضا بين اتباع اي دولة اجنبية وبين اتباعها في الامور التي لها مساس بالضرائب والتجارة والملاحة وتعاطي الحرف والمهن او في معاملة السفن البحرية او الوسائط الهوائية وكذلك الامر يجب ان لا يكون تمييز في سورية ولبنان بين البضائع التي يكون مصدرها او محط رجالها بلاد تلك الدول المذكورة ويجب اطلاق حرية المرور والتجارة عبر المنطقة المشار اليها بشروط عادلة.

يمكن للحكومة المنتدبة بعد مراعاة ما ذكر اعلاه ان تفرض الضرائب والرسوم الجمركية التي تراها ضرورية او توعز للحكومات المحلية ان تفرضها، ويمكن للدولة المنتدبة او الدولة المحلية التابعة لمشورتها ان تعقد لاسباب جوارية اتفاقا جمركياً خاصاً مع البلاد المتاخمة لها.

ويمكن للحكومة المنتدبة عملا بشروط البند الاول من هذه المادة ان تتخذ الوسائل الفعالة التي تعتقد صلاحها لترقية موارد البلاد الطبيعية مع المحافظة على مصالح السكان.

تمنح الامتيازات لترقية هذه الموارد الطبيعية لمن شاء دون تمييز في تابعية الاشخاص الداخلة دولهم في عداد اعضاء جمعية الامم بشرط ان لا تمس هذه الامتيازات بسلطة الحكومة المحلية، ولا تمنح الامتيازات بصفة احتكار عام. لاتمس هذه الفقرة بتحديد سلطة الدولة المنتدبة في ايجاد الاحتكارات المالية التي من شأنها ان ترقي مصالح سورية ولبنان وتحفظ مواردهما المالية والمحلية، ويمكن للحكومة ان تسعى لترقية هذه الموارد الطبيعية مباشرة او بواسطة شركة خاصة تعمل تحت اشرافها بشرط ان لا يوجد هذا العمل لاعمداً ولا بالواسطة احتكاراً خاصاً بالدولة المنتدبة او برعاياها، او يمنحها ميزة من الامور الاقتصادية والتجارية والصناعية التي تقرر فيها المساواة بين الجميع.

المادة ١٢ ـ تحافظ الدولة المنتدبة بالنيابة عن سورية ولبنان على كل اتفاق دولي عام عقد حتى الآن او ربما يعقد فيما بعد بموافقة جمعية الامم بخصوص الاتجار بالرقيق، والعقاقير وبالسلاح، والمعدات الحربية، وبالمساواة التجارية، وحرية العبور، والملاحة والطيران، والمواصلات البريدية والبرقية واللاسلكية، وباتخاذ الوسائط اللازمة لحماية المصانع والآداب والفنون.

المادة ١٣ ـ تصون الدولة المنتدبة بقدر ما تسمح لها الاحوال الاجتماعية والدينية اتحاد سورية ولبنان في الامور ذات الفوائد العامة التي تقرها جمعية الامم لمنع الامراض ومقاومتها وفي جملتها امراض الحيوان والنبات.

المادة ١٤ ـ تتضمن هذه المادة بحثاً طويلاً في قانون الآثار لا فائدة من نشره وهو شبيه بالمادة الخاصة بالآثار في صك الانتداب لفلسطين.

المادة ١٥ ـ عندما يتم تنفيذ الدستور المنصوص عليه في المادة الاولى

يوضع ترتيب بين الحكومة المنتدبة والحكومتان المحلية تدفع بموجبه هذه الحكومات جميع النفقات التي انفقتها الحكومة المنتدبة لاجل تنظيم الادارة وترقية الموارد المحلية والقيام بالمشروعات العامة التي افادت البلاد افادة خاصة وترسل نسخة عن هذه الترتيبات الى مجلس جمعية الامم.

المادة ١٦ ـ تكون اللغة الفرنسية واللغة العربية اللغتين الرسميتين المستعملتين في سورية ولبنان.

المادة ١٧ ـ تقدم الدولة المنتدبة لمجلس جمعية الامم تقريراً سنوياً حسب طلبه تبين فيه التدابير التي اتخذتها اثناء السنة لتنفيذ شروط صك الانتداب ويرسل مع هذا التقرير نسخ عن جميع القوانين والانظمة التي تسن سنوياً.

المادة ١٨ ـ يجب أن يوافق مجلس جمعية الامم على كل تعديل يحصل في شروط هذا الصك.

المادة ١٩ ـ يستعمل مجلس جمعية الامم نفوذه عندما تنتهي مدة الانتداب لتحافظ حكومة سورية ولبنان في المستقبل على علاقاتهما المالية ومنها الرواتب القانونية التي منحتها ادارة سورية ولبنان ايام الانتداب.

المادة ٢٠ ـ توافق الدولة المنتدبة اذا حصل نزاع بينها وبين دولة ثانية داخلة في عضوية جمعية الامم بخصوص تفسير شرط في صك الانتداب او تطبيقه على عرض هذا النزاع على محكمة العدل الدولي الدائمة المنصوص عليها في المادة الرابعة عشرة من عهد جمعية الامم، هذا اذا لم يمكن حل النزاع بين الدولتين بواسطة المفاوضات.

لا بد لهذه الدول التي انشئت من مجالس تمثلها امام دولها لهذا اصدر المفوض السامي في اغسطس سنة ١٩٢٣ قراراً بإنشاء مجلس تمثيلي لدولة دمشق قوامه ٣٠ عضواً على أن تكون صلاحيته محدودة للنظر في الميزانية والضرائب والتشريع والادارة وعلى أن يكون له الحق في تعيين ممثلي الدولة في مجلس الاتحاد وعلى ان يكون له ايضاً حق طرح الاسئلة على الحاكم وابداء الرغبات.

كما انه قد اصدر المفوض ايضا قرارات بإنشاء مجلس مثله لدولة حلب وآخر شبهه لدولة العلويين.

اما في لبنان وجبل الدروز فقد انشيء في كل منهما من نظير هذا المجلس مجلساً من قبل.

فدمشق التي ما أخلدت لضيم ما رفعت عقيرتها بالشكوى والاحتجاج على انشاء مجلس كهذا ضيق الصلاحية محصور الاختصاص لا يمثل الشعب بشيء وقاطعت انتخاباته ولم تعترف على القرار الذي صدر بشأنه واضربت المدن عشرة أيام احتجاجاً على هذا الانشاء والتأسيس وان كان كل ما قام به الاقليم السوري من الواجب لم يزحزح السلطة شعرة عما صممت على عمله. فهي قد اتمت الانتخابات واخرجت النواب الذين انتخبتهم والذين قاطعهم الشعب ولم يتعرف اليهم والذين كانوا يمثلون انفسهم فحسب والذين لولا ان تحرسهم الحكومة برجالها ما كانوا احياء بالغين مجلس الاتحاد.

واتحاد كهذا تحميه الحراب، وتحرسه البنادق ورجال الانتداب من الطبيعي ان لا يعيش طويلا وان يلغى سريعاً لأن ما لا يرضى الشعب عنه لايمكن ان يكتب له البقاء وان كتب فالى زمان معلوم ووقت محدود.

وتابع الشعب السوري العربي احتجاجه فلم يفتر ولم يهدأ ولم يسكن مما دفع بالجنرال ويغاند «خلف الجنرال غورو» لأن يصدر في الخامس من كانون الاول عام ١٩٢٤ قراراً بإلغاء الاتحاد وابداله بوحدة تجمع بين دولة دمشق ودولة حلب عدا حكومة العلويين ونص القرار ما يلي:

١ ـ تتحد دولتا حلب ودمشق اعتباراً من اول يناير سنة ١٩٢٥ وتؤلفان دولة واحدة تسمى ـ الدولة السورية ـ .

تؤلف الدولة السورية ضمن الحدود الحالية لدولتي دمشق وحلب دولة مستقلة عاصمتها دمشق على ان يحتفظ بحقوق وواجبات الحكومة المنتدبة.

يتولى السلطة التنفيذية رئيس حكومة يسمى «رئيس دولة سورية» وينتخبه المجلس التمثيلي بأكثرية الآراء المطلقة وان كان من اعضاء المجلس التمثيلي تزول منه هذه الصفة يوم انتخابه. ويتحتم استبداله بغيره.

٣ ـ يتولى رئيس دولة سورية القيام بوظائف رئيس الاتحاد للدول السورية وبوظائف حكام الدول وفقاً للقرارات المعمول بها.

وهو يعين كبار موظفي الدولة وفقاً لاحكام القوانين والانظمة التي يتعين بها دستور هؤلاء الموظفين وسيصدر فيما بعد قرار للتمييز بين كبار الموظفين وغيرهم لتعيين سلسلة مراتبهم.

٤ ـ يؤازر رئيس الدولة وزراء يناط به امر نصبهم واستبدالهم وتعود الى الوزراء الادارة العليا لجميع مصالح الدولة المربوطة بدائرة كل واحد منهم ويضمن كل بما تعلق به تطبيق احكام القوانين والانظمة ويسمون الموظفين الذين

لا يعود امر تسميتهم لا الى رئيس الدولة كما نصت عليه المادة الثالثة من هذا القرار ولا الى المتصرف او الوالي وفقاً لاحكام القوانين المعمول بها.

٥ ـ الوزارات خمس ـ وزارة الداخلية: وبها تربط مصالح الشرطة المحلية ومديرية الدرك الثابت ومديرية الصحة والاسعاف العام.

وزارة العدلية: -

وزارة المالية: وبها تربط مديرية المصالح العقارية ومديرية اراضي الدولة.

وزارة المعارف العامة: ـ

وزارة الاشغال العامة والزراعة والاصلاح الاقتصادي: وبها تربط مديرية البرق والبريد.

٦ ـ تبقى على حالها ادارة الالوية والاقضية والنواحي والبلديات ويسمى لواء حلب «ولاية حلب» ويقوم واليها بوظائف المتصرفين وفقاً للقوانين والانظمة المعمول بها.

٧ ـ ان وظائف مجلس كل من دولتي حلب ودمشق التمثيليين ووظائف المجلس الاتحادي يقوم بها في الدولة السورية مجلس يطلق عليه اسم «المجلس التمثيلي لدولة سورية».

والقواعد التي اتبعت في انتخاب أعضاء المجالس التمثيلية لدولتي حلب ودمشق هي القانون المرعي في انتخاب أعضاء المجلس التمثيلي لدولة سورية ما لم يصدر قانون انتخاب جديد.

٨ ـ تقوم بالسلطة القضائية المحاكم البدائية والاستئنافية ضمن الشروط المنصوص عليها في القوانين الاتحادية المحددة ووظائف هذه المحاكم وكيفية تأليفها وسير اعمالها.

٩ ـ ينتهي ارتباط لواء اسكندرون بولاية حلب وتبقى ادارته جارية وفقاً للاحكام الخاصة المنصوص عليها في القرار رقم ٩٨٧ المؤرخ في ٨ اغسطس سنة ١٩٢١ والقرار رقم ١٨٨١ المؤرخ في ٤ مارس سنة ١٩٢٣ وتناط برئيس الدولة السورية وظائف حاكم دولة حلب فيما يتعلق بإدارة هذا اللواء.

١٠ ـ تتمتع ولاية حلب بالامتياز المالي المحدد كما يلي:

تجمع الواردات التي تجبى في اراضي الولاية بإسم ضرائب بلا واسطة «مباشرة» وضرائب بالواسطة «غير مباشرة» ورسوم وكل دخل من أي نوع كان مما اجيزت جبايته وفقاً للأصول وكذلك كل المبالغ المخصصة للولاية باسم الأموال التابعة للتوزيع.

وتجمع أيضاً:

١ ـ النفقات التي تصيب الولاية من اعباء الادارة المركزية للدولة.

٢ ـ كل النفقات التي تستوجبها رسمياً مصالح الدولة الكائنة في اراضي الولاية.

٣ ـ النفقات المتآتية عن القيام في اراضي الولاية بأشغال عامة او ذات نفع محلي او النفقات التي تستلزمها اعمال الاصلاح من الوجهة الزراعية والإقتصادية او الإجتماعية مما له فائدة محلية.

٤ ـ ما يصيب الولاية من النفقات التي يستوجبها القيام بأشغال عامة ذات نفع عام أو بأعمال الاصلاح من الوجهة الزراعية والاقتصادية او الاجتماعية مما له نفع عام تكون قد استفادت منه الولاية ويخصص الزائد من المداخل لاشغال عامة ذات فائدة محلية او لاعمال لها ذات الفائدة من شأنها تحسين الزراعة والاقتصاد والاحوال الاجتماعية.

١١ ـ يمثل المفوض السامي لدى الدولة السورية مندوب يساعده مندوبون معاونون.

١٢ ـ ان سلطة المفوض السامي وممثله هي التي نصت عليها القرارات والتعاليم المعمول بها وان المقررات التشريعية والتنظيمية التي يصدرها رئيس دولة سورية تعرض للتصديق على المفوض السامي. وكل تعيين يجريه رئيس الدولة ينبغي تصديقه من المفوض السامي.

وينبغي ان يقرر المفوض السامي انتخاب رأس الدولة وله ان يعلن زوال سلطته لاسباب تتعلق بالمصلحة العامة.

١٣ ـ ينبغي ان تصدق اعمال رئيس الدولة السورية من قبل المندوب لدى حكومته متى كان التصديق غير عائد للمفوض السامي او متى خول المفوض السامي مندوبه حق التصديق.

وكل تعيين للوظائف التي يتقلدها الوزراء والمديرون ينبغي تصديقه من مندوب المفوض السامي.

وفي الملحقات حيث يكون مندوب معاون تصدق مقررات الحكومة المحلية من قبله.

١٤ ـ يتألف اول مجلس تمثيلي للدولة السورية من اجتماع اعضاء المجلس التمثيلي لدولتي حلب ودمشق.

١٥ ـ رئيس دولة سورية هو الرئيس الحالي لاتحاد دول سورية الذي انتخبه مجلس الاتحاد في ١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٣ وسينتهي عهده قانوناً في ٢١ ديسمبر سنة ١٩٢٧.

١٦ ـ تقوم الدولة السورية مقام دولتي حلب ودمشق فيما يختص بالحقوق والواجبات المتعلقة بهاتين الدولتين وتقوم مقام الاتحاد دول سورية بقسم يعين فيما بعد من الحقوق والواجبات المتعلقة بذاك الاتحاد.

ما كانت لتنطلي حيل الفرنسيين على الشعب العربي السوري وما كانت هذه القطرة من الماء لتروي ظمأه من بعد ان اصبح على عطش مميت للحرية فأدرك ان هذه الاسرية التي تلوح بها السلطة من حين الى حين من ضم بلد الى بلد واسترضائه بمعسول الكلم من وقت الى وقت ما كانت لتقنع منه الغلة او لتشفي العلة وأنها بالحقيقة كانت كلا شيء بالنسبة الى ما تتمتع به من قبل كما رأينا من أيام ذاق فيها طعم السعادة طلباً ورتع في بحبوحة من العيش السياسي المشرف السامي عقيب نصر الحلفاء وأيام العهد الاستقلالي الذهبي.

وبحق نقول أن الفرنسيين قد سلكوا كل سبيل لخدمة امتهم على زعمهم فأتوا الى هذه البلاد بالضربة القاضية القاسية، ضربة التقسيم ثم أخذوا يرتدون عنها فيلهون الشعب العربي السوري كلما رأوا منه حركة نشاط أو هزة عنف بضم جزء الى جزء ليروا مفعول هذا المخدر البسيط فيه وليقدروا مبلغ تأثيره عليه حتى اذا ما شعروا انه كان كافياً لاخلاده للسكينة وقفوا عند هذا الحد فلا يبلغوه امانيه كلها.

على أن الشعب السوري العربي الذكي قد ادرك ذلك منهم فلم يقنع بما فعله الجنرال ويغاند وظلت مراجل الفتن تضطرم على هدوء وسكون الى ان تجد المنقذ الذي تنفجر منه فتدل على ما كان يزكيها من بواعث واسباب.



محمد العابد رئيس الجمهورية السورية في عهد التقسيم الفرنسي

شعلة الثورة

عودة الى عام ١٩٢٠ والى صباح الواحد والعشرين من اغسطس ترينا أن الشعب العربي السوري لا يؤخذ بالاشراك والحبائل مهما أحكم امرها ومهما دبر اقرارها بليل. ففي هذا اليوم المشهود غادر وفد من دمشق يؤم حوران لا لكي يحمل اليه الحرية والحياة والاستقلال بل ليحمل له الرضوخ والذل ويحسن امامه العبودية والاضطهاد ولكي يوقعه في الغل والاسر والقيد واخيراً لكي يجبي منه الغرامة التي فرضتها عليه السلطة الفرنسية عقيب فاجعة ميسلون. ورجال هذا الوفد هم: علاء الدين الدروبي رئيس الوزارة اذ ذاك وعبد الرحمن اليوسف رئيس مجلس الشورى في ذاك العهد وعطا الايوبي وزير الداخلية في تلك الدولة والشيخ عبد القادر الخطيب والشيخ عبد الجليل الدرا.

وما ان وصل هذا الوفد محطة خربة الغزالة التي تبعد خمسة وعشرين كيلو متراً عن درعا حتى داهم القطار الذي يقله رجال حسبهم اعضاء الوفد انهم اتوا لاستقباله لما كانوا يسمعونه من اهازيجهم وصياحهم ولكن سرعان ما ذعروا واسقط في ايديهم عندما رأوا هذا الجمع الحاشد قد انقلب عليهم وأخذ يتحراهم ليوقع فيهم، فكان موقف عصيب رهيب لاقى فيه هذا الوفد ما لم يخطر له في بال واضطرب اي اضطراب ، وأخذ كل منهم يفتش عن مخبأ يفر اليه من موت اكيد فاهتدى الجمع الى الدروبي وكان مندساً في قاطرة الدرجة الثالثة فقتلوه وانهزم عبد الرحمن اليوسف الى دار المحطة فلحق به الرجال، وهناك ذبحوه بعد أن اطلقوا الرصاص عليه وقد نهبوا جميع ما في القطار وقد لاذ باقي الوفد بالفرار.

على أثر ذلك جهزت السلطة حملات على اهالي حوران انتقمت بها منهم انتقاماً فظيعاً اذ اعملت فيهم النار والدمار فلم يستطيعوا ان يقفوا في وجه الحديد والرصاص رغم ما انضم اليهم من قبائل بني نعيم والفضل والسلوط وغيرهم، وفي اوائل تشرين الاول سنة ١٩٢٠ اشترط الفرنسيون الغرامات الباهظة التي كان قدرها آلاف من الليرات العثمانية الذهبية لقاء ما كان من أهالي حوران يوم ٢١ اغسطس على ان الطائرات الفرنسية قد فتكت في قرى حوران فتكاً ذريعاً فلم تبقى فيها حجر، واحرق الجيش البيادر والبيوت بعد نهبها، فأرسلت لجنة الاتحاد السوري في مصر بتاريخ ٢٣ ايلول سنة ١٩٢٠ الى رؤساء حكومات الحلفاء ومجالسها النيابية ورئيس الولايات المتحدة ومجلس الشيوخ فيها والى كبريات الصحف في العالم ومشاهيرها الاحتجاج الآتي:

ذهل السوريون لقراءة البلاغات الفرنسية الصادرة بتاريخ ٣٢ اغستوس وأول سبتمبر سنة ١٩٢٠ المنبئة بتدمير الجيش الفرنسي تدميراً منظماً لمقاطعة حوران الزراعية التي هي اهراء سورية. الطيارات تخرب القرى بأكملها قاتلة للنساء والأولاد بلا رحمة. نحن نستصرخ الامم المتمدنة ومنها الامة الفرنسية ضد هذه الاعمال الوحشية التي يعجز عنها الوصف وتورث الاحقاد باطالة زمن القتال».

وفي العشرين من أيلول سنة ١٩٢٢ اعدمت السلطة كلا من السادة عوض صلاح الدين المصري وحسين الحاج ويوسف عيسى وزعل يوسف بتهمة اغتيال الوزراء يوم حادث خربة الغزالة.

هذا ما كان في حوران وأما ما جرى في شمالي الاقليم السوري فإن الزعيم

الكبير المغفور له ابراهيم هنانو قام بالواجب المقدس فألف العصابات وجاهر بمقارعة الفرنسيين ومقاتلتهم وأعلن العصيان عليهم وأخذ يضرم نار الثورة في جهات حلب وضواحيها فانتشرت وتفشت في انطاكية وحارم والعمق وادلب والمعرة وجسر الشغور، وقد ساعده في عمله الشريف وجهاده الاقدس بعض من ضباط العثمانيين فانهزم الفرنسيون في معارك شتى واستطاع هذا الزعيم الباسل ان يتصل بالمجاهد الكبير الشيخ صالح العلي الذي طالما اصطدم مع الفرنسيين في منطقة اللاذقية فصدمهم وهزمهم شر هزيمة وحتى انه استولى على معظم القرى والدساكر هناك فهدد نفس اللاذقية فأوجس الفرنسيون منه خيفة، وباتوا يحذرون هنانو في الشمال والشيخ صالح العلي في اللاذقية وستروا عديد انهزاماتهم بالكتمان فلم يطلعوا ابناء البلاد عليها فجهزت السلطة الفرنسية قوات كبيرة لملاحقة العصابات ومطارداتها، واصدر الجنرال غورو بلاغاً بالفرنسية في ٢ ايلول سنة ١٩٢١ بالنص التالي:

«منذ شهر مارس حتى شهر يوليو سنة ١٩٢١ كان عدد كبير من الكتائب يعمل بملء النشاط ويقاوم بدون انقطاع عدداً شديد المراس من العصابات مسلحاً في اراضي جبلية وينازله في معارك كبيرة تنتهي بالانتصار حتى استتبت السكينة وانتظمت الامور الادارية وطاردت الجيوش بين ٦ ابريل و٢٣ مايو سنة ١٩٢١ عصابتي ابراهيم هنانو والشيخ صالح العلي وكانتا متحالفتين ولم تدع لها وقتا للراحة فتفرقت العصابتان منسحبتين لحو الشرق، وقد أفضت هذه المعارك الشديدة الى احتلال البلاد وانشاء مراكز ثابتة في كفر تخاريم ودركوش وجسر الشغور ومعرة النعمان ومن ثم زحفت قوى الكولونيل نيجر العديدة بعدما وضعت الحواجز من البحر الى نهر العاصي وطافت بلاد العلويين

من الشمال الى الجنوب واشتبكت في معارك طويلة من ١٠ مايو حتى ١٩ يونيو حيث نشبت معركة بالقدموس وانتهت هذه المعارك العنيفة بطاعة العلويين وهزيمة الشيخ صالح العلي وقد تخلى عنهُ معظم أعوانه».

وأصدر نفس الجنرال بلاغاً آخر نصه ما يلي:

«في ١٢ مايو خرجت حملة من اللاذقية بقيادة الكولونيل نيجر فتوجهت الى جبلة والمرقب حيث مركز العصابات وفي يوم ١٣ منه زحفت حملة اخرى من محردة «محطة من محطات سكة الحديد بين حمص وحماه» بقيادة الكولونيل دوم وسارت في الوقت نفسه حملة ثالثة من الحمدانية «محطة من محطات سكة الحديد بين حماه وحلب» بقيادة الكولونيل فيك ومشى الجنرال غوو قائد اللواء الثالث من حلب على رأس لوائه لتأديب العصابات فبلغ معرة النعمان يوم ١٥ منه ودخلت قوة الكولونيل فيك في اليوم التالي الى حبيط وتقدمت قوة الكولونيل دوم فاستولت على جسر الشغور وزحفت قوة اخرى بقيادة الكولونيل فونيه على قلعة المضيق فاحتلتها ودارت معركة عنيفة في جسر الشغور بين الثوار وحملة الكولونيل جران كور انتهت بانسحاب الثوار والاستيلاء على البلدة وقد ارتدت العصابات امام هذه القوات العظيمة ولا يقل عدد رجالها عن ثلاثين الف مقاتل فغادر ابراهيم هنانو مقره في جبل الزاوية يوم ١٢ يوليو سنة ١٩٢١ ومعه ٥٥ جندياً وضابطاً قاصداً عمان فلاقاه الفرنسيون شرقي سلمية يؤيدهم اسماعيليوٌن ودارت معركة بينه وبينهم انتهت بأسر اربعة من ضباطه اما هو فواصل السفر فوصل الى عمان يوم ٣١ منه».

يمم الزعيم هنانو وجهه شطر فلسطين لزيارة القدس فاعتقلته السلطة البريطانية هناك فاهتاج العرب وماجوا واعتدوا على قائد الدرك البريطاني واحتج

رجالات العرب هناك وطلبوا اطلاق سراحه فما افادت هذه الصيحات ولا أثرت تلك الاحتجاجات وأرسل الزعيم مخفورا الى بيروت حيث سلم للسلطة الفرنسية وحوكم في حلب الشهباء امام المجلس العسكري الفرنسي الذي برأه واطلق سراحه. أما الشيخ صالح العلي فقد ظل متوارياً عن الانظار حتى اذاعت السلطة الفرنسية بلاغاً في السادس من تموز سنة ١٩٢٢ تعلن استسلامه لها.



حقي العظم

الاغتيالات والعصابات :

لا بد وأن يكون المطالع الكريم قد ادرك مما مر من الحوادث التي أتينا على وصفها والتي سنبسطها اليه فيما يلي مبلغ امتعاض السوريين العرب من الانتداب الفرنسي ومبلغ نفورهم منه واستنكارهم له وقد ذكرنا فيما مضى سوء تصرف السياسة الفرنسية وما قام به مندوب الفرنسيين السامي الجنرال غورو من سوء تصرفه ومن خطأ سياسته ومن قصر نظره في ادارة البلاد مما اهاب بالكثير من الناس لاظهار هذا المقت والالم في كل فرصة وفي كل سانحة وقد دل على ما ذكرنا بصورة صريحة الحادثة التي وقعت الى المندوب السامي الجنرال غورو في ٢٣ حزيران سنة ١٩٢١ ابان مجيئه لزيارة الامير محمود

الفاعور قريباً من القنيطرة اذ انه ما أن بلغ تلك الناحية حتى انهال عليه الرصاص كالوابل المدرار من قبل رجال اقتعدوا مقعدة له عندما علموا بأنه سيمر من هنالك، وفي هذه الواقعة نال حاكم دمشق اذ ذاك حقي العظم بضع رصاصات في فخذه وذراعه وشفته جزاء دفاعه عن المندوب السامي غورو ونال نفس الجنرال شيئاً من هذه الحادثة في كم بذته من ناحية اليد المبتورة فيها على ان مرافق الجنرال قد قضى في هذه المعركة.

وكان شأن الفرنسيين عقيب هذا الحادث شأن المتشفي المنتقم ممن لم يجترح سيئة ولم يقترف إثماً وولى وجهه شطر العزل الآمنين من الاهلين اذ عجز عن الانتقام ممن اوقعوا به وبمن معه هناك. فكم عذب من ابرياء ونكل بودعاء واعمل الاذى والظلم والتعذيب بأناس لا ناقة لهم في ذلك الحادث ولا جمل. لقد جرد الحملات على كل ما يتبع القنيطرة من قرى ودساكر وأعمل النار فيها يدمرها بقنابل المدافع مرة وبقذائف الطائرات اخرى ويسوم ذويها سوء العذاب بفرض الغرامات تارة وبزج الزعماء في السجون طوراً كما فعل بقرى جباتة الخشب والعوفاني وطرنجه والاحمر وتل الشيخة ومجدل شمس وجباتة الزيت مما لا يقره عقل ولا يرضى به منطق ومن المؤكد أن معاملة الفرنسيين للشعب السوري بمثل هذا الأسلوب من القهر والتسلط سيشعل فتيل الثورة المسلحة في كل مكان. وهذا ما حدث بالفعل حيث اندلعت الثورات في كل محافظات القطر حيث يجدر بنا أن نتحدث بالتفصيل عن أهم الثورات التي اندلعت ضد الإستعمار الفرنسي. ولكننا سنبدأ بالحديث عن ثورة صالح العلي لأنها أكثر قدماً من سواها. بل أنها اندلعت أولاً ضد العثمانيين ثم امتدت لمقاومة الفرنسيين.

ثورات صالح العلي[1]

ـ في سنة ١٩١٥ شكل السفاح جمال باشا الوالي التركي في بلدة «عاليه» في لبنان محكمة عسكرية عرفية لمحاكمة أحرار العرب الذين يطالبون بالاستقلال الذاتي لوطنهم.

ـ وفي آب ١٩١٥ اصدرت هذه المحكمة حكماً بالاعدام على القافلة الأولى من الشهداء، وأعدموا شنقاً في بيروت.

ـ وفي ٦ أيار ١٩١٦ أعدمت القافلة الثانية من الشهداء في ساحة المرجة بدمشق.

ـ وفي ١٠ حزيران ١٩١٦ ثار الحسين بن علي في الحجاز على الاتراك بعد ان قطع له الحلفاء بلسان السير مكماهون نائب ملك بريطانيا في مصر عهوداً ووعوداً بتوحيد البلاد العربية وتنصيبه ملكاً عليها، فأرسل رسله ودعاته الى البلاد العربية يحضونها ويحرضونها علىَ الثورة ضد الأتراك، وقد ضج العرب من عسفهم وجورهم، وصلفهم وغرورهم، وعنصريتهم، وتنكيلهم بأحرارهم، وتعليقهم على أعواد المشانق.

ـ وفي تلك الفترة ثار صالح العلي على الاتراك عام ١٩١٨ بعد أن اتصل به رسل الشريف حسين، وبدأ اصطدامه معهم عندما حاول بعض جنودهم

(١) صالح العلي ثائراً وشاعراً ـ حامد الحسن

اقتحام بيته في قريته «كـاف الجـاع» بناحيـة القدمـوس، باعتبـاره ميـالاً ومؤيـداً لسياسة الشريف حسن، فاتخذ من هذه المناسـبة وسـيلة وذريعـة، وأطلـق عليهـم الرصاص فقتل منهم اثنين.

وحاولت السلطات التركية بعد هـذه الحادثـة اعتقالـه ومحاكمتـه، فـامتنع واستعصى، وحمل السلاح،وثار.

ـ ترصد صالح العلي من معقله في الشـيخ بـدر جنـود الاتـراك وقوافلهـم العابرة على طريق حماة ـ طرطوس مروراً بالشيخ بدر.

وفي منتصف هذه الطريق، وفي الموقع المعروف بـ «النويحة» والواقـع علـى مسافة ٥ كيلو مترات في الجهة الشرقية من الشيخ بدر نشبت أول معركـة بينـه وبين رجال القوافل وحماتها من الجنود الأتراك، حيث هـاجمهم برجالـه، وتغلـب عليهم، وهزمهم، وغنم سلاحهم ومعداتهم، وحمولة قافلتهم.

ـ ولعل أكبر معركة بين ثوار صالح العلي وبين الأتراك هي معركة «وادي العيون» حيث تصدى الثائرون لمجموعة كبيرة من الجند التركي تعبر الجبال باتجاه الشمال مجهزة بكل وسائل الدفـاع وأنـواع الأسـلحة، فاشـتبكوا معهـا ودارت معركة اسفرت عن مجزرة رهيبة بلغ فيها عدد القتلى مـن الأتـراك ثمـانين قتيـلا، وهرب الباقون، وغنم الثوار كل سلاحهم وعتادهم، وسقط من الثوار عدد مـن القتلى وفيهم بعض النساء.

وظل صالح العلـي ورجالـه يتعقبـون الجنـود الاتـراك، ويلاحقونهـم حتـى اضطروهم الى تحويل طريقهم عن منطقة الشيخ بـدر ـ طرطـوس ـ الى حمـص ـ طرطوس. واصبحت المنطقة نظيفة من ظل جنودهم البغيض.

ـ في أول تشـرين الأول ١٩١٨ دخلـت جيـوش الحلفـاء سـورية بقيـادة الجنرال اللنبي قائد الجيوش المتحالفة، وفيصل بن الحسـين قـائد الجيـش العربـي، والضباط الفرنسيين، و... لورنس ملك العرب غير المتوج[١] ونوري السعيد.

ـ كان نوري السعيد يحمل رتبة جنرال في الجيش العربي، وكـان تومـاس لورنس مستشـاراً سياسياً لفيصـل، وضـابط ارتبـاط بـين قيـادة جيـوش الحلفـاء والجيش العربي لأنه يجيد العربية.

ـ في الأول من تشرين الأول ١٩١٨ هبت دمشـق بغوطتهـا، وانهارهـا، بكنائسها، ومآذنهـا بلغتهـا العربيـة، وأحجارهـا الأراميـة، هبـت أقـدم مدينـة في التاريخ بشيبها وشبابها، ونسائها ورجالها، كهولها وأطفالها، لتستقبل الوافـد مـن الصحراء من مكـة مهـد الاسـلام الحـامل في برديـه تـاريخ العروبـة، فيصـل بـن الحسـين، ليقيـم صـرح الدولـة العربيـة الواحـدة، ترفـرف عليهـا الرايـة العربيـة الواحدة، بعد استعمار تركي بغيض جثـم علـى صـدر الامـة طيلـة اربعـة قـرون ١٥١٦ ـ ١٩١٨.

ـ في ٥ تشرين الأول ١٩١٨ اذاع فيصل على الشعب العربي في سورية بياناً يطلب فيه من الشعب التضامن والاتحاد لانشاء الدولة العربية الواحدة.

ـ في ٨ تشرين الأول ١٩١٨ أي بعد سـبعة أيـام من دخـول فيصـل الى

---

(١) قال السير مكماهون نـائب ملـك بريطانيـا في مصـر لتومـاس لورنـس عندمـا عينـه مستشاراً للأمير فيصل بن الحسين: لقد تأكد لنا من أن فكرة ما أخذت تتغلغل بـين العرب في جميع الاقطار التي يسكنونها. وعرفنا بأن سورية ـ أو دمشق على الأصـح ـ اضحت البؤرة الاساسية لتلك الفكرة (يقصد فكرة القومية العربية).

سورية نزلت الجيوش الفرنسية على الشواطىء السورية، وانزلت العلم العربي عن الدوائر الرسمية، ورفعت العلم الفرنسي مكانه، وأظهرت بذلك نواياها، ونوايا الحلفاء وانهم وضعوا معاهدة سايكس ـ بيكو الفرنسية البريطانية السرية موضع التنفيذ، ساخرين بالوعود، هازئين بالعهود.

ـ في ٨ تشرين الثاني ١٩١٨ وبعد هدنة «مودروس» اذاعت فرنسا وبريطانيا بياناً مشتركاً صرحتا فيه: ان ماهدفناه اليه من الحرب ـ وهو تحرير الشعوب الخاضعة للنير العثماني ـ قد تحقق الآن، وانهما مستعدتان منذ اليوم لاقامة حكومات مستقلة في سورية، والعراق تكفل لهذين القطرين تطوراً سياسياً حراً.

ـ وكان قد سبق هذا التصريح معاهدة سايكس ـ بيكو السرية[١] كما سبقه وعد بلفور في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ بإنشاء الوطن اليهودي في فلسطين.

ـ في ١٥ كانون الأول ١٩١٨ عقد صالح العلي مؤتمراً ضم عديداً من شيوخ الجبل وزعمائه، وأسفر هذا المؤتمر عن:

١ ـ عدم الاستسلام للفرنسيين.

٢ ـ الدفاع عن الوطن وعن الحرية.

٣ ـ مبايعة صالح العلي بالقيادة.

---

(١) تمت هذه المعاهدة بين فرنسا وبريطانيا في ٢٦ ايار ١٩١٦.

ـ بلغت انباء هذا المؤتمر الفرنسيين بواسطة عملائهم، فدعوا صالح العلي للاجتماع بهم فأبى، فجهزوا عليه أولى حملاتهم التي تحركت من بلدة القدموس، وهاجمته من الشرق فانقض عليها برجاله وهزمها شر هزيمة مخلفة وراءها ٣٥ قتيلا، وعدداً من الاسرى والجرحى، وعديداً من الاسلحة والعتاد والذخيرة.

ـ يقول الفرنسيون في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق:

احتلت جيوشنا مدينة اللاذقية في أوائل عام ١٩١٨ وعلى الأثر انتفض العلويون علينا واعلنوا العصيان بقيادة احد الاقطاعيين الشيخ صالح العلي، وقد استطاع ذلك الطاغية وانصاره ان يحتفظ بالجبل حتى غاية ١٩٢١ وقد استطاع العصاة ان يقلقوا أمننا، ويهاجموا كتائبنا، ومراكز جيوشنا ومعسكراتنا طوال هذه المدة.

ـ وفي ٢ شباط ١٩١٩ أعاد الفرنسيون هجومهم على مقر الثورة، فهزمهم الثائرون وكبدوهم عشرين قتيلاً، وبعض الجرحى والأسرى.

ـ ويقول الكتاب الذهبي: (ان هؤلاء الثوار يشبهون الجان بظهورهم المفاجيء، وبمناوراتهم الشيطانية، فقد بلغت الجسارة بالثوار مبلغاً عظيماً، ازاء ضعف القوات الفرنسية المعسكرة في المنطقة، وبات الخطر يهدد المدن الساحلية مباشرة، وقد حدثت عدة هجمات عنيفة على جبلة، وبانياس، وطرطوس، ولولا تدخل اسطولنا لتمكن الثوار من التمركز في هذه المدن).

ـ ويقول الكتاب عن صالح العلي: (لقد اضطرب العدو بعد احتلال بلاد الشام وملحقاتها، وقطعت عنه الامدادات، ولكن عناد الشيخ صالح العلي

وشراسته، لاتزال تصلي من حولنا النـار، إن هـذا الرجـل خطـر، ومخيـف، وقـد تشرب مباديء الملك الهارب فيصل، فأصبح يحارب بدون عقل، انه رجـل عنيـد حقاً، وهو يحارب بدون أمل).

ـ نظم صالح العلي ثورته فانشأ:

١ ـ قيادة تنظيمية ادارية برئاسته، يعاونه فيها العقداء.

٢ ـ انشأ نظام العقداء، والعقيد شخصية تتحلى بالشجاعة والخبرة وتتمتع بالطاعة من اتباعها.

ومن كل عشيرة شكل عقيـداً أو اكـثر ليحصـل نـوع مـن التنـافس علـى التفوق في المعارك.

٣ ـ ديواناً للبريد يصله بدمشق ومناطق الثورة.

٤ ـ ديواناً للمجاهدين تحفظ فيه اسماؤهم وكتائبهم وأسلحتهم.

٥ ـ ديوانـاً لبيـت المـال تثبـت فيـه الاعانـات والتبرعـات، والاعطيـات والمكافآت.

٦ ـ كتيبة للتفتيش وضبط الأمور.

٧ ـ هيئة للأمن، والرقابة والاستطلاع.

٨ ـ فرقة للدعاية للثـورة، وقـد بـث رجالهـا في القـرى والدسـاكر، وبـين الجنود.

٩ ـ محكمة عسكرية للثورة(١) .

وبهذا الجهاز اصبح للثورة كياناً تنظيمياً، ووضعاً منسقاً، واصبح تحركها سليماً ومأموناً، وازدادت قوة وحيوية.

ـ وفي ٢٥ ايار ١٩١٩ توسط الفرنسيون الجنرال اللنبي البريطاني للتدخل، فطلب الى صالح العلي ان يسمح للقوات الفرنسية المعسكرة في القدموس ان تعبر الطريق المارة بالشيخ بدر الى طرطوس، (٢) فأدرك المكيدة ولكنه اجاب الطلب ليقطع على البريطانيين ـ الوسطاء الطريق ثم تهيأ للمفاجأة، واستعد للمجابهة.

وكانت المفاجأة، ووضحت المكيدة.

نصب الفرنسيون مدافعهم فور وصولهم الى الشيخ بدر، وصبوا نيرانها على قرية صالح العلي مباشرة، وبدون سابق انذار، فأطبق عليهم الشيخ واعوانه من كل الجهات، فقتلوا وأسروا عدداً كبيراً منهم، وفر الباقون.

ـ وفي ١٥ حزيران ١٩١٩ اعاد الفرنسيون الهجوم على مقر الثورة، فنظم الشيخ خطة محكمة، وكمن للجيش الزاحف في مرتفعات «وادي ورور»

---

(١) كانت هذه المحكمة برئاسة المجاهد علي زاهر من «حمام واصل» وعضوية كل من محمود اسماعيل (الحطانية) ومحمود ضوا «العصيبة».

(٢) جاء في رسالة الجنرال اللنبي الى صالح العلي قوله: ان الحلفاء الذين قدموا لتحرير سورية من ظلم العثمانيين واعطائها الحرية والاستقلال لا يلقون منكم التكريم والحفاوة اللائقين. وان موقفكم من القوات الفرنسية يدعو الى الخيبة والعجب.

و «بيدر غنام» وادغالهما، ولما توسط الجيش الفرنسي الوادي، واصبح ضمن حلقة الثائرين المحكمة، وفي متناول رصاص بنادقهم، انقضوا عليه من المرتفعات المحدقة بالوادي، ودارت معركة كبرى اسفرت عن مقتل وجرح /٨٠٠/ ضابط وجندي فرنسي، كما تم اسر ستة عشر جندياً، وتشتت من نجا من رصاص الثائرين، تاركاً في أرض المعركة سلاحه وعتاده غنيمة سائغة للمناضلين، واستشهد بعض الثوار.

ـ وفي منتصف شهر تموز وقعت معارك في «عقرزتي» الواقعة على مسافة ٢٠ كم شمال شرقي طرطوس، ومعارك في جوارها في نهر الاسماعيلية، واضطر الجيش الفرنسي الى الانسحاب الى بلدة طرطوس ليحتمي بالأسطول.

ـ بعد هذه الهزائم المتكررة التي أنزلها الثائرون بالفرنسيين، لجأوا الى المفاوضات وطلب المصالحة، وانهاء الاعمال الحربية، فقبل الشيخ بالدخول في المفاوضة على الاسس الآتية:

١ ـ ان يكون الاجتماع في مقر الثورة ـ الشيخ بدر.

٢ ـ ان لايزيد مرافقو القائد الفرنسي المفاوض عن ثلاثة.

٣ ـ ان يكونوا عزلاً من السلاح.

٤ ـ الموافقة على ضم الساحل الى سورية وجلاء الفرنسيين عنها.

٥ ـ اطلاق سراح الأسرى.

٦ ـ دفع تعويضات عن كل لاضرار التي ألحقتها الأعمال الحربية بالأهلين وممتلكاتهم.

نقل الوسيطان(١) هذه الشروط للقادة الفرنسيين فوافقوا عليها ـ على ما فيها ـ وطلبوا الاجتماع المباشر بالرجل الثائر، لوضع الصيغة النهائية للاتفاقية فوافق.

ـ كان الفرنسيون يبيتون الغدر، مستفيدين مِن الهدنة التي اشيعت في أوساط الشعب، فاغاروا على بعض القرى الغربية وأحرقوها، وتمركزوا في قلعة القدموس، ثم تحركوا من الجهة الغربية باتجاه مقر الثورة.

ـ استقدم الفرنسيون فرقاً من المستعمرات مدربة على تسلق الجبال، وحرب العصابات، وتمركزت في القدموس على ميمنة الثوار.

ـ في ١٦ تشرين الأول ١٩١٩ أرسل فيصل ابن عَمه الشريف عبد الله الى صالح العلي ومعه الذخيرة والأسلحة والأطعمة والملابس.

ـ كان رشيد طليع حاكم حماه(٢) من قبل فيصل سنداً ودعامة لثورتي صالح العلي في الجبال الغربية، وثورة ابراهيم هنانو في الشمال، وضابط ارتباط بين قادة الثورتين وبين فيصل في دمشق.

ـ كان عبد الرزاق المحمود سكرتيراً لثورة صالح العلي، ومشرفاً على «الشيفرة» والمراسلات التي ترد من فيصل وغيره الى صالح العلي، ومسؤولاً عن الاجابة عليها(٣) .

---

(١) كان الوسيطان احمد الحامد واسماعيل الطاهر الحامد.

(٢) في مذكرات الشيخ يوسف السعدون ان رشيد طليع كان حاكماً لمدينة حلب فهل انتقل الى حماة بعد احتلال مدينة حلب؟ وقد احتلت حماه بعد احتلال حلب بمدة ثلاثة شهور.

(٣) يقال: ان في حوزة ورثته الكثير من هذه الوثائق.

ـ هاجم الثائرون مقر الجيش الفرنسي في طرطوس، ودارت المعارك على ابواب المدينة ومداخلها، واستعمل السلاح الابيض في الالتحام، ولولا تدخل الاسطول المرابط في عرض البحر باتجاه المدينة لسقطت في ايدي الثائرين، ثم اسنحب المجاهدون بعد ان استولوا على بعض مستودعات السلاح والذخيرة.

ـ في ٣ اذار ـ ١٩٢٠ زحف الثائرون على قلعة القدموس وحاصروها مدة فاستسلمت حاميتها، ونزح الاهلون الى مصياف تحت حماية رجال الثورة حذراً من وقوع الحوادث والاعتداء على النازحين(١) .

ـ في ٨ اذار ١٩٢٠ عقد المؤتمر الوطني بدمشق واعلن فيه فيصلاً ملكاً على سورية.

ـ في ١٥ اذار ١٩٢٠ ارسل الملك فيصل القائد غالب الشعلان لمعونة صالح العلي في قيادة الثورة وتنظيمها.

ـ ثم شكل عزيز هارون من اللاذقية «الفوج الملي» من ابناء اللاذقية وحمص وحماة، والحفة، وجبلة، وبانياس، وارسل الملك فيصل الضابط جميل ماميش ليقود هذا الفوج، وشكل فيه مجموعة من الفدائيين.

---

(١) يقول محمد امين غالب الطويل في كتابه تاريخ العلويين: ان صالح العلي اشترط على اهالي القدموس اثناء حصارها ان يعيدوا اليه كتاب النسب ـ نسب المحرزيين ـ وسيف الامام الحسين ويظهر من سياق الحديث ان هذين الاثرين فقدا من المحرزيين واستقرا في حيازة ساكني قلعة القدموس الاسماعيليين.
ومن دراسة التاريخ العام يظهر ان المحرزيين والاسماعيليين في العهد الفاطمي حكموا مصر حكماً مباشرا ومشتركا.

ـ وخلال شهر اذار ١٩٢٠ وقعت معارك «السودا» على بعد ١٢ كم شمال شرقي طرطوس، ومعارك في بعض القرى الواقعة غربي الشيخ بدر، واضطر الجيش الفرنسي الى الانكفاء الى ثكناته في طرطوس امام المقاومة الباسلة، واحتمى بالأسطول.

ـ في ٢٥ نيسان ١٩٢٠ عهد مؤتمر «سان ريمو» الى فرنسة بالانتداب على سورية كلها، اي بعد اعلان فيصل ملكاً عليها بـ ٤٧ يوماً.

ـ وفي ١٤ تموز ١٩٢٠ وبناء على مقررات مؤتمر «سان ريمو» وجه الجنرال غورو انذاره المعروف الى الملك فيصل يطلب اليه فيه:

١ ـ الاعتراف بالانتداب الفرنسي وفقاً لمقررات مؤتمر سان ريمو.

٢ ـ افراد الورق النقدي الذي اقرته فرنسة نقداً للبلاد.

٣ ـ تسريح الجيش السوري.

٤ ـ معاقبة الثوار.

٥ ـ وضع الخطوط الحديدية تحت الرقابة الفرنسية[١] .

ـ في ٢٥ ايار ١٩٢٠ زحف الفرنسيون على قرية «كوكب» ٥ كم غربي الشيخ بدر واحرقوها، ولكن الثوار هاجموهم، وأجلوهم عنها.

---

(١) من الوسائل التي تذرع بها كليمنصو رئيس الوزراء الفرنسية عندما ابرمت معاهدة فيصل ـ كليمنصو في ٦ ك ٢ ١٩٢٠ انه اي فيصل يساعد ثورة صالح العلي ولذلك فحكومته ترى وجوب وضع الطرق الحديدية في سورية تحت اشرافها ورقابتها.

ــ هاجم الفرنسيون قلعة الخوابي مقر آل المحمود واحرقوها، ولكن الثوار استرجعوها منهم.

ــ ارسل يوسف العظمة وزيـر الحربيـة السـورية دعـوة الى الشـيخ صـالح العلي للاجتماع به. لتدارس الأمور، واجتمعا بقرية «السويدة» شرقي مصياف، وتعاهدا على الاستمرار في الكفاح.

ــ في ١٢ حزيران ١٩٢٠ طلب الفرنسيون ــ وللمـرة الثالثـة ــ المهادنـة واعلنوا قبولهم شروط الثائر بدون شرطاً وقيد، ولكن الشـيخ رفـض طلبهـم لما يعلمه من غدرهـم، وفي الوقت الذي كـان الوفـد يفـاوض فيـه كـان الفرنسـيون يهاجمون قرية «كوكب» ويحرقونها للمرة الثانية.

ــ وهاجم الثائرون قلعة المرقب واحتلوها ليتحكموا بطريق السـاحل، بعـد ان اسروا حامية القلعة.

ــ وفي هـذه الاثنـاء جـرت تعديـلات في القيـادة الفرنسـية، واسـتلم «بولونجيه» قيادة القوات الفرنسية في سورية ولبنان، وتلقى الأوامر المشددة من وزارة الحربية الفرنسية بوجوب القضاء على ثورة صالح العلي مهما كلفه ذلـك من جهد وثمن ودماء.

ــ زحـف «بولونجيـه» باتجـاه الشـيخ بـدر بثلاثـين الفـاً معززيـن بـالمدافع والطائرات، وأخذ يحرق في طريقه القرى والمزارع.

وأعد الشيخ صالح العلي واركان حربه خطة لاصطيـاده، وأرسـل طلائـع من الثائرين يشاغلونه، ويتراجعون أمامه، وهو يلاحقهم ظناً منه انهم يـتراجعون

هرباً، حتى وصل الى «وادي العيون» حيث كمن الثائرون في شعاب الجبال وسفوحها، وقممها المحيطة بالوادي. وما كاد الجيش يحط رحاله، ويشرع في نصب خيامه، حتى فاجأه المجاهدون بالرصاص من كل الجهات، فاضطرب أمره لهول المفاجأة، وحاول الانسحاب باتجاه الغرب ـ الشرق ـ الشمال ـ الجنوب، فوجد أن كل الطرق مسدودة، فتفرق بدداً تاركاً عتاده وزاده، وكانت خسائره بالأرواح والمعدات كبيرة جداً، واسقط المجاهدون في هذه المعركة طائرتين.

ـ بعد هذا الخذلان اقصت القيادة «بولونجي» وأحالته الى محكمة عسكرية.

ـ وتوسط الفرنسيون الانكليز بعد هذا الاندحار والعار، فاتصل الجنرال اللنبي قائد جيوش الحلفاء بقائد الثورة طالباً اليه ان يجتمع معه بطرطوس فرفض الشيخ هذا الطلب، واشترط الاجتماع في مقر الثورة.

وجاء ضابطان برتبة جنرال احدهما فرنسي، والثاني انكليزي، ومعهم بعض الزعماء الموالين للفرنسيين، ليعلنوا لاتباعهم في الثورة عن موالاتهم للفرنسيين، وشعر الشيخ بالمكيدة فانسحب من الاجتماع، ولحق به المجاهدون من مختلف الفئات، ووقف الزعماء المتآمرين واجمين مخذولين وباءت خطتهم بالفشل.

ـ بعد فشل الاجتماع توسل الضابط الانكليزي ان يجتمع بالشيخ في بيته فوافق، وأملى الشروط التالية:

١ ـ ضم الساحل السوري والجبل الى دمشق.

٢ ـ ان تجلوا القوات السورية خلال ستة شهور.

٣ ـ يسمح للقوات الفرنسية بنقل المؤن عبر الساحل السوري للقوات المرابطة في كيليكيا على ان لاتكون مخفورة، وان لا تتوقف أثناء مرورها.

٤ ـ اطلاق سراح الأسرى.

٥ ـ دفع التعويضات عن الاضرار التي لحقت بالأهلين.

٦ ـ يسمح للبعثات الفرنسية بمزاولة النشاط الثقافي تحت اشراف السلطة الوطنية.

٧ ـ تعلن الهدنة فوراً.

واعلنت الهدنة ... وسافر وفد لدمشق لاطلاع الملك فيصل حاملاً اليه صورة عن الاتفاقية.

ـ وتشكلت لجنة من المجاهدين والفرنسيين والانكليز لتقدير الاضرار، وطافت القرى ومواقع المعارك، وبلغت الأرقام الملايين.

ـ ولعب الانكليز لعبة المكر والمراوغة، فكانوا يدفعون الفرنسيين للتشدد، ويظهرون العطف على الأهلين، والرغبة في مساعدتهم، ومساندة الثائرين.

ـ ونقض الفرنسيون الهدنة بعد ثلاثة اشهر من اعلانها. حيث كان احد قادتهم المتمركز في قرية «عقر زيتي» يتبجح وينال من الاسلام والدين

الاسلامي، والرسول الكريم، فأرسل اليه الشيخ صالح العلي انذاراً مع رجل يدعى «حسن أبا النصر» فأعدمه الضابط فوراً رمياً بالرصاص[1] .

ثار الشيخ للكرامة المهانة، فأرسل بضعة من رجال كمنوا للضابط في طريقه المعتادة لطرطوس في موقع جسر نهر الحصين على بعد ٦ كم من شمال طرطوس، وما ان عبر في المكمن حتى انهمر عليه الرصاص فقتل مع رفاقه العشرة شر قتلة[2] .

ـ وحاول الفرنسيون تطويق الثورة من الجنوب، فاغاروا على قرى «حبسو» و «خربة الريح» و «الحقبانية» واحرقوها.

ـ وحاول الفرنسيون استعادة قلعة المرقب لتأمين طريق مواصلات الساحل، وتجمعوا في بانياس فادرك الشيخ قصدهم، فهاجم المدينة، ودارت المعارك حول ثكنات الجيش الفرنسي وتدخل الاسطول فانسحب الثوار.

ـ وفي ٢٣ تموز ١٩٢٠ سقطت حلب[3] وانتظر فيصل تدخل بريطانيا

---

(١) في رواية «الراية الثالثة» لعبدالرحمن الباشا: ان الرسول الذي اعدمه الضابط الفرنسي في قرية «عقر زيتي» اسمه احمد وهو الذي اعتمده المؤلف بطلا لروايته. ويذكر معه رفيقاً آخر اسمه عمر وهو الذي نجا من الموت لينقل النبأ للشيخ صالح بعد ان عذبه الفرنسيون عذاباً مريراً.

(٢) اقام الفرنسيون نصباً تذكارياً لهذا الضابط مكان مقتله وهو عبارة عن قبر تعلوه شاهدة صغيرة. ويقع هذا القبر على المنعطف الكائن قبل جسر الحصين بمئة متر على يسار الطريق المتجه من طرطوس الى اللاذقية.

(٣) مذكرات لجيب عويد ـ المتحف الحربي ـ دمشق ـ قاعة الوثائق.

بالأمر، ولكن بريطانيا مرتبطة بمعاهدة سايكس ـ بيكـو، اما اتفاقاتها ووعودها لأبيه فيسهل عليها التحلل منها.

ـ وفي ٢٤ تموز غادر الملك فيصل دمشق يصعد الزفرة ويسكب الدمعة ويجرع المرارة واللوعة.

ـ وفي ٢٥ تموز سقطت دمشق ودخلتها الجيوش الفرنسية بعد معركة ميسلون مزهوة مختالة[1] .

ـ عقب دخول الفرنسيين لدمشق اقام رئيس الوزارة علاء الدين الدروبي مأدبة على شرف الجنرال غورو، واذاع بياناً على الشعب السوري يبرر فيه اعمال لفرنسيين وبعدد مناقب فرنسة في تحرير الشعوب[2] .

ـ في ٧ أيلول ١٩٢٠ عقد اتفاق بين ابراهيم هنانو ومصطفى كمال على مده بالسلاح، وكان هنانو بدوره يمد صالح العلي، وكان هناك تنسيق بين ثورتي هنانو والعلي حيث تنسق الخطط، ويتم تبادل المعلومات، وترصد

---

(١) يقال ان عريضة نظمت قبل احتلال دمشق ووقعت من بعض الاسر في دمشق وارسلت الى الجنرال غورو في بيروت يطلب موقعوها منه انقاذهم من حكم الملك فيصل ويستعدونه على احتلال دمشق.

(٢) موقف علاء الدين الدروبي رئيس الوزارة السورية يومئذ من الاحتلال والمحتلين يعطينا تفسيراً ودليلاً على وجود تلك العريضة التي تستعدي الفرنسيين على الملك فيصل وتزين لهم احتلال دمشق، ولقد لقي علاء الدين هذا مصرعه على يد الثائرين من ابناء وطنه في خربة غزالة في حوران عندما اندلعت الثورة هناك واراد ان يتدخل شخصياً مع الفرنسيين لاخمادها.

تحركات الفرنسيين، وتراقب حركات عملائهم، ولم يستطع الفرنسيون ايجاد اية ثغرة بين الثورتين الى ان القى هنانو السلاح، وانسحب من الساح(١) .

ـ لم ينسحب هنانو من المعركة الا بعد ان اخلف مصطفى كمال وعوده، وقطع عنه الذخيرة والسلاح وذلك بعد ان اتفق مع فرنسا على جلاء قواتها عن كيليكيا، واصبح يطارد السوريين الذين يعبرون الحدود لتركيا وبهذا تجلى حقد الاتراك على العرب(٢) .

ـ وقرر صالح العلي متابعة النضال بعد مغادرة الملك فيصل دمشق.

ـ هاجم القائد «رساك» الشيخ بدر عن طريق جبل «القليعات» الواقع

---

(١) اتفق ابراهيم هنانو مع الاتراك على:

١ ـ ان تدفع الحكومة التركية الى السوريين ما يحتاجونه من الخرطوش، ومدفع جبلي واحد. او اكثر حسب اللزوم.

٢ ـ شكل العلم يكون ذا وجهين: الاول عربي. ويكتب عليه انما المؤمنون اخوة... والثاني تركي ويكتب عليه فاصلحوا بين اخويكم.

٣ ـ لاتحدد حدود سوريا وتركيا الا بعد جلاء العدو. وحصولهما على الاستقلال التام.

٤ ـ هذه الاعانة التي تقدمها تركيا لسورية هي اعانة الاخ لأخيه.

٥ ـ تقدم الحكومة التركية بعض الجنود المدربين على المدفعية لتدريب الثوار على المدافع والرشاشات والقذائف.

ووقع هذه الاتفاقية في مرعش عن الحكومة التركية الوالي التركي صلاح الدين عادل. (من مذكرات ثورة هنانو).

(٢) راجع مذكرات يوسف السعدون.

في الجهة الجنوبية من الشيخ بدر، وصب عليها نيران مدافعه، فتصدى له ولحملته الشيخ سليم صالح (ابن عم صالح العلي) ومعه اربعة رجال من الثوار واستطاعوا ان يعبروا وادي النهر السحيق تحت وابل من الرصاص والقنابل، وينقضوا على الجنود الفرنسيين في «متاريسهم» فهرب القائد «رساك» وجنوده وتركوا ماكان ما في حوزتهم من سلاح وعتاد ومدافع، ولحق به الثائرون حتى قرية «بقعو».

ـ اكتشف صالح العلي بعد معركة «القليعات» ان الجهة الجنوبية تحتاج لحماية، فجرد حملة تمركزت في الدريكيش بقيادة الثائر المناضل اسير زغيبي.

ـ في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٢٠ نظم الجنرال غورو خطة لمهاجمة الثورة من الشرق بعد ان احتل حماة ومصياف، فدرس الشيخ واركان حربه الخطة، وسير فرقاً لتشاغل الجيش الزاحف وتتراجع أمامه، وتجره الى الجبال حيث يسهل اصطياده، والقضاء عليه فهاجمت فرق المجاهدين مؤخرة الجيش فتحول الى المؤخرة فاطبق عليه الثائرون فتراجع متقهقراً الى مصياف بعد ان استمر العراك ١٥ يوماً.

ـ لعب عملاء الفرنسيين المندسين في صفوف الثورة دوراً خبيثاً بارعاً حيث رجع بعضهم من منطقة المعارك في جبهة مصياف، واذاع في الشيخ بدر بين الحامية التي تركها الشيخ صالح العلي للدفاع عن مقر الثورة بأن اخوانهم المجاهدين محاصرون في الجبهة الشرقية، وانهم بأمس الحاجة الى مساعدتهم لفك الحصار عنهم.

وجازت هذه الحيلة على رجال الحامية، فأسرعوا مندفعين باتجاه الشرق تاركين مقر الثورة بدون حماية.

ووفي الوقت ذاته اتصل العملاء بالجيش الفرنسي المرابط في طرطوس فزحف على الشيخ بدر واحتلها بدون أية مقاومة بواسطة هذه المكيدة.

ـ في كانون الأول ١٩٢٠ اغار المجاهدون على مقر الجيش الفرنسي في مصياف وحوصرت البلدة مدة وجاءت الامدادات للجيش الفرنسي من حماة. وعلم الجيش الفرنسي المرابط بالساحل بواسطة عيونه وعملائه ان الثوار اتجهوا الى الشرق فزحف الى موطن الثورة وتم له الاستيلاء عليها.

ـ أدرك الشيخ ان العودة الى مقر الثورة اصبحت مستحيلة، فاتجه الى الشمال يصحبه بعض المجاهدين، وقبل ان يغادر المنطقة ودعه غالب الشعلان بعد ان طلب اليه ان يصحبه الى البادية حيث يتوفر المأمن والامتناع على الفرنسيين، ولكنه رفض ان يغادر ساح الكفاح.

ـ استقر الفرنسيون في منطقة الثورة، وشكلوا محكمة عسكرية، اخذت تصدر الاحكام بالاعدام على قادة الثورة، وتعدمهم فوراً.

ـ استقر صالح العلي في قرية «بشراغي» في جرد جبلة، فأرسل الفرنسيون حشداً من جنودهم لاعتقاله حيث يقيم في الموقع المعروف بموقع الشيخ حيدر الضهر (وهو أحد اجداده) فاستنفرت القرى، وقاد الشيخ الجماهير، وهاجم الفرنسيين في «وادي فتوح» فقضى على معظمهم، وهرب من سلم منهم، واستولى المجاهدون على كثير من العتاد، وتعتبر هذه المعركة من المعارك الكبرى في تاريخ الثورة.

ـ وشكل الشيخ قوات جديدة، وانطلقت الثورة من جديد، وحاول

الفرنسيون تطويقه من الشرق والغرب، والجنوب، فكانت موقعة «وادي جهنم» قرب قرية «ابي قبيس» وكانت لاتقل عنفاً وضراوة ودماء وعتاداً عن معركة «وادي فتوح» وقد توفر السلاح والذخيرة في هاتين المعركتين للثوار الجدد.

ـ ونشبت بعد ذلك معركة «قرفيص» واشتركت فيها المدفعية والطائرات على أوسع مدى. وكذلك وقعت اصطدامات دامية وعنيفة في جب عسعوس، شمال نهر السن، والدويلية، وتل صارم، وبارمايا ـ شرقي بانياس، والبودي، وجور البقر، ومن أعظم معارك الشمال معركة «راس ملوخ» ويقع بجانب «السخابة» من الناحية الشرقية، ومعركة «الاجرد» أو «بسوطر» ويقع على بعد ٣ كيلو مترات شرق السخابة، واستشهد في هذه الموقعة احمد عبدالحميد احد قادة الثورة، وأربعة من رفاقه، وقد حاول الفرنسيون في هذه المعركة رد اعتبارهم، والانتقام لضحاياهم في «وادي فتوح» و «وادي جهنم».

ـ ونشبت معركة جبلة حيث اجتاز الثوار الاسلاك الشائكة والتحموا بالسلاح الابيض وخسروا عدداً من الشهداء.

ـ كانت الثورة تمول من قبل الملك فيصل، ولما غادر دمشق واحتلها الفرنسيون انقطع المدد.

ـ وكان ابراهيم هنانو يزودها من الشمال، ولما القى السلاح في ١٢ حزيران ١٩٢١ امتنع هذا الزاد والمدد.

ـ احتل الفرنسيون شرق الثورة، وشمالها الشرقي، وجنوبها كما كانوا ينطلقون من الساحل الغربي، وبذلك استطاعوا تطويقها من كل الجهات، ولم

يبق للثائرين مصدر للتمويل بالذخيرة والسلاح الاما ينتزعونه من العدو، وادرك الفرنسيون ذلك، فأوعزوا الى جنودهم الا يتركوا وراءهم اي شيء ينتفع به الثوار.

ـ لم يكن ينقص الثورة المال فقد كانت التبرعات السخية تصل الى قيادتها بشكل كثير وفير من الاهلين في الوطن والمهجر، ولم تكن تنقصها الإدارة الحكيمة الحاذقة، ولا الرجال الاشداء ولكن... كيف الحصول على السلاح وقد سدت المنافذ؟؟

ـ تطوع احد المجاهدون واسمه «محمد الارناؤوط» للمغامرة، واستيراد السلاح والذخيرة من فلسطين عبر الاراضي اللبنانية، وحالفه التوفيق في المرة الأولى.

ـ وعاود الكرة، ولكن عيون الفرنسيين وعملاءهم المنبثين في كل مكان كانوا له بالمرصاد، فكمنوا له في قرية «تل وعاوي» الواقعة جنوب صافيتا، وصادروا القافلة الأولى وعددها ١٤ جملا، وتتابعت مصادرة القوافل الاخرى.

ـ وفي ١٥ حزيران ١٩٢١ امر الجنرال «نيجر» القوات الفرنسية ان تهاجم مقر الثورة في «بشراغي» على جبهة طولها مئات الكيلو مترات، فتوزع الثائرون على هذه الجبهة الواسعة واستماتوا في الدفاع، وظلت كل فئة تدافع حتى آخر رصاصة تملكها، ووقع الانفصال بين الثورة وعناصرها، ونفذت الذخيرة، وظل الثائرون يتطلعون الى النجدة والامداد ولم يكونوا شعروا بالمكيدة التي دبرها اعداء الثورة.. ولما نفذت الرصاصات الاخيرة تفرق الثائرون.

ـ ومارس الفرنسيون أبشع الانتقام، فاقتيد الرجال والنساء والاطفال كرهائن، وفرضت الغرامات الباهظة، وشكلت المحاكم، فاعدمت، وسجنت، ونفت، ومارست كل ألوان التنكيل.

ـ وطلب الفرنسيون صالح العلي، وفتشوا القرى والاودية، والجبال، والمغاور، والغابات والكهوف، وبثوا العيون والعملاء؛ ولم يعثروا له على أثر وكانوا يشعرون ان كل ما احرزه من انتصار لاقيمة له ان لم يستسلم صالح العلي. وظلوا زمناً يشقون الطرقات في الجبال، ويقيمون التحصينات متوهمين هبوطه عليهم بين الحين والحين، متوقعين ان يداهمهم في حلكة الليل، او في لألأة النهار.

ـ ورصد الفرنسيون مئة الف فرنك فرنسي مكافأة لمن يلقي القبض عليه، أو يدل على مخبئه، ووعدوا، وتوعدوا، واغروا؛ وهددوا ولكن بدون جدوى.

ـ واصدرت محكمتهم حكما بأعدامه، وألقت الطائرات صورة الحكم على مختلف قرى الجبل ومدنه الساحلية.

ـ اختبأ صالح العلي عاماً كاملاً، وأخيراً أصدر الفرنسيون قراراً بالعفو عنه، ووزعته الطائرات، وكان بتوقيع الجنرال غورو.

ـ قرر صالح العلي الاستسلام ليرفع العسف والتعذيب عن المواطنين، وأرسل الى مدينة جبلة يخبر المستشار بقراره، ويدعوه للحضور اليه في قرية «بشراغي» فأسرع الى مقره وما ان وقف امامه حتى رفع الجنرال يده بالتحية العسكرية منحنياً بكل احترام، واصطحبه لمقابلة الجنرال «بيلوت» في اللاذقية.

ـ وكان صالح العلي مثار اعجاب الضباط الفرنسيين بشجاعته وجرأته وصراحته، وقوة عارضته، وعرض عليه الجنرال ان يشاطر حكم البلاد .فأبى .. وأن يتسلم أكبر المناصب فرفض.. وان يتقبل راتباً من المال فأنف، واخيراً سأله الجنرال: اذن لماذا حاربتنا؟؟ فأجابه بهدوء: لأجل الوطن.

ـ ورجع الشيخ الى بيته، وفرض على نفسه عزلة صوفية.

ـ ولما اعتدى الفرنسيون على دمشق عام ١٩٤٥ أبرق صالح العلي البرقية التالية:

سيوف المجاهدون تتململ في الاغماد، ونفوسهم في غليان واضطراب لاتقبل امتهان الأمة، ولا أن تخرق حرمة الاستقلال ، انا للمعتدين بالمرصاد، وسيعلم الظالمون اي منقلب ينقلبون.

وهزت هذه البرقية البلاد واوقعت الفرنسيين بحيرة وقلق، وخوف وارتباك، وأرسل اليه سعد الله الجابري رئيس مجلس الوزراء يومئذ برقية يقول فيها:

برقيتكم هزت الضمير الوطني، وايقظت الشعور القومي، وهيجت في نفوس المخلصين حب الجهاد، والرغبة في الاستشهاد.

وفي مطلع العهد الوطني تنادت البلاد حكومة وشعباً لتكريمه واقيمت الحفلة في اللاذقية، وشهدها كل السياسيين والمجاهدين، والادباء ورجالات الدولة، وعدد كبير من ابناء الشعب العربي في سورية وخارجها.

ـ وفي ١٣ نيسان ١٩٥٠ اسلم صالح العلي روحه الطاهرة لبارئها، بعد مرض دام شهراً، مخلفاً تاريخاً حافلاً بالمآثر مليئاً بالأمجاد والمفاخر، وشيع الى مقره الاخير في الشيخ بدر، تاركاً وصية نادرة بين الوصايا، واربع وزجات، وثلاث بنات.

ـ وهكذا تعتبر ثورة صالح العلي ام الثورات السورية، لأنها أولاهن وأطولهن وأعنفهن انطلقت في ربيع الأول سنة ١٩١٨ على الاتراك، ثم استمرت ضد الفرنسيين حتى أواخر حزيران سنة ١٩٢١.

الثورة الكبرى ومقدماتها واهدافها وادوارها

وفي صيف عام ١٩٢٥ انفجرت الثورة السورية الكبرى واستمرت الى صيف عام ١٩٢٧، ومع انها بدأت في جبل الدروز ضد تصرفات حاكم الجبل الافرنسي وكان لها مقدمات أثارت النفوس وهيأتها لها، فانها كانت في سيرها واتساعها واهدافها مظهراً للاباء القومي ضد الاستعمار الافرنسي الذي كان يهدف الى اخماد الروح القومية وفرض السيطرة على البلاد وبث الفرقة بين اهلها وتوهين قواهم وكيانهم، وامارة قوية على استمرار اتقاد الشعلة الوطنية والحركة العربية وجيشانهما وبسبيل ميثاق الاستقلال التام والوحدة الطبيعية السورية الذي كان نتيجة من نتائج هذه الحركة والذي قرره المؤتمر السوري العام، مما سجله قرار زعماء الدروز ومناشير سلطان الاطرش قائد الثورة العربية، ثم مذكرة رجال الحركة القومية في مصر المقدمة للمندوب السامي جوفنيل الذي خلف سراي الذي انفجرت الثورة في عهده، وما صدر بعد ذلك من مذكرات ومفاوضات ومناشير من زعماء الثورة ورجال الحركة ووفودها داخل البلاد وخارجها.

وكان من امر بدئها ان الحاكم الافرنسي العام في الجبل كاربيه اخذ يسير في سياسة شاذة من القسوة والارهاب ونشر جو الجاسوسية والوشايات، ولم يتورع عن الضرب والصفع والاهانات المتنوعة للبارزين من ابناء الجبل زعماء وموظفين حتى بلغت تصرفاته حداً لا يطاق، فأخذ الزعماء يرفعون اصواتهم بالشكوى والتذمر، وألفوا لجنة وطنية برئاسة سلطان الاطرش وارسلوا وفداً الى

سراي يطالبون بالحكم الوطني الذي كان الافرنسيون عاهدوهم عليه، ويسردون ما يقاسونه من الحاكم الافرنسي، فكانت مقابلة سراي للوفد ومطالبه فظة، وهددهم بالنفي والتنكيل، فزاد هذا من التذمر، وازداد الافرنسيون شدة في قمع التذمر بالاعتقالات والغرامات والاعتداءات المتنوعة الاخرى لانهم رأوا في الحركة قضاء على السياسة التي ترسموها وساروا فيها خطوات غير يسيرة، ثم احتالوا على جلب جماعة من زعماء الجبل إلى دمشق بصفة وفد واعتقلوهم ونفوهم الى تدمر والحسكة واعتبروا رهينة على تخفيف الجبل غلواء شكاويه وتذمراته والجنوح الى خطة الخضوع والرضاء التي ساروا عليها من قبل، ثم حاولوا ان يحتالوا على سلطان رئيس اللجنة الوطنية فأخفقوا، وقام هذا بحملة تحميسية في قرى الجبل، فبادر الافرنسيون الى قمع الحركة بالشدة، وسيروا سرية بسبيل ذلك فقابل سلطان ورجاله المبادرة بمثلها، وكان من نتيجة ذلك إحراق دار البعثة الانتدابية في صلخد والقضاء على أكثر أفراد السريّة. وكان هذا في أواخر شهر تموز ١٩٢٥، فهال الأمر الافرنسيين وأرسلوا حملة كبيرة قوامها ثلاثة آلاف فقابلها الدروز وكانت معركة كبرى عرفت بمعركة المزرعة دحرت فيها الحملة وقضي على نصفها واستولي على أثقالها وسلاحها وعتادها ومؤنها. وقد كان زعماء الدروز اتصلوا من قبل بز عماء حزب الشعب في دمشق وتعاهدوا على التضامن؛ فلما قويت الحركة واشتدت جنح الافرنسيون الى الملاينة والمراوغة فذهب وفد من حزب الشعب الى الجبل لتوكيد التواثيق وتحذير الدروز من الانخداع، وتعاهدوا من جديد على عدم عقد صلح منفرد والاستمرار في الحركة إلى أن يتحقق الميثاق القومي، ووعدت دمشق بتهيئة القوى الثورية للاشتراك في العمل وتخفيف العبء عن الجبل؛ وشعر الافرنسيون بالأمر فاعتقلوا فريقاً من أركان حزب الشعب منهم فوزي الغزي وفارس

الخوري وإحسان الشريف وعبدالمجيد الطباخ وتوفيق شامية وعثمان الشرباتي ونفوا بعضهم إلى إرواد وبعضهم الى الحسكة. ونجا الباقي والتحق بالجبل ومنهم جميل مردم والدكتور شهبندر وحسن الحكيم وسعيد حيدر ونسيب البكري. وهنا تقررت الخطوات الحاسمة فوسدوا قيادة الثورة العامة لسلطان الأطرش والتفوا حوله يسندونه ويعاونونه؛ وصدر أول منشور يحمل لقب القائد العام للثورة السورية الكبرى بتاريخ ٢٣ آب ١٩٢٥ يدعو فيه السوريين إلى السلاح والجهاد في سبيل ميثاقهم القومي وكرامتهم وعزتهم الوطنية، وأخذت الثورة تشتد وتتسع فكانت المعارك المهمة التي عرفت بمعارك المسيفرة والسويداء وعرى ورساس في حوران واستبسل بنو معروف وكبدوا الافرنسيين الخسائر الجسيمة رغم توالي النجدات وعدم تكافؤ المعدات. ثم تعدت الثورة الجبل الى حماه حيث ثار مجاهدوها بقيادة فوزي القاووقجي الذي كان ضابطاً في الجيش المحلي فإقليم البلان ووادي التيم؛ وكانت دمشق مسرحاً من مسارحها حتى لقد جاء وقت كانت أحياؤها ومخافرها الداخلية تحت سيطرة المجاهدون التامة، وحتى كاد مجاهدوها يعتقلون سراي فيها.



جميل مردم بك



فارس الخوري





حسن الحكيم

وقد جنّ جنون الافرنسيين فسلطوا فصائلهم وفصائل السنغاليين ومتطوعة الشراكسة ليعملوا النهب والتحريق والتدمير وقتل الناس بدون تفريق بين الثوار وغير الثوار وتشهير المقتولين وجرجرتهم في الأزقّة في دمشق، وقصفوها وقصفوا حماة أيضاً وأوقعوا فيهما دماراً واسعاً كما قاموا بحملة تحريق وتدمير على كثير من قرى غوطة دمشق وحماه والجبل. ولكن كل هذا لم يكن ليزيد النار إلا شدة وضراماً. ومثل أبطال الجبل ودمشق وحماه والغوطة والبلان ووادي التيم أدواراً رائعة من الجرأة وقوة الشكيمة والتصميم؛ وراح منهم عدد كبير وضحايا غالية؛ وعمت الثورة مختلف الطبقات، وعلى مختلف الوجوه من مقاتلين ومعاونين ومؤازرين ومخبرين وممولين وممونين؛ وقد نشط رجال الاحزاب والحركة القومية الذين كانوا خارج البلاد فاشترك بعضهم في الثورة وقيادتها كما فعل ذلك بعض من بقي في البلاد، وقام باقيهم بجهود ضخمة في جمع التبرعات وتنظيم الحملات وتزويد الجبهات بالسلاح والعتاد والمؤن والكساوي وبث الدعايات في مختلف الأوساط الشرقية والغربية والأوروبية والأميركية.

ولقد عمد الافرنسيون إلى بث الخوف في نصارى جبل عامل وراشيا وحاصبيا وتسليحهم وتحريضهم ومدّهم بعصابات من الموارنة ودفعهم جميعاً إلى القتال في جانبهم كما أخذوا يجمعون السلاح من مسلمي لبنان سنييهم وشيعييهم ودروزهم بقصد إرهابهم وإرهاب الثوار معاً في جعلهم تحت رحمة الذين سلحتهم من النصارى وخاصة من الموارنة، وحذراً من امتداد نار الثورة وسريانها فيهم في آن واحد.

وقد فطن زعماء الثورة إلى هذا المكر اللئيم فأذاعوا المناشير المنبهة لسوء نوايا الافرنسيين والمطمئنة للنصارى والمتضمنة توكيد سمو أهداف الثورة ونوايا

القائمين بها. ومع ذلـك فلـم تذهـب هـذه الحركـة سـدى حيـث وقعت بعض الحوادث المؤسفة بين النصارى والثوار في مناطق راشيا وحاصبيا وجبل عامل مما تعمده الافرنسيون بسبيل تحقيق خططهم في التفرقة وإثارة الخـوف والعـداء بـين طوائف البلاد وطبقاتها.

جوفنيل وبهلو انياته :

على أن فجائع الثورة وأخبارها أثارت قلق فرنسا واضطرتها بعد انفجارها بثلاثة أشهر إلى سحب سراي وتعيين جوفنيل مكانه، وهو سياسي محنك أمّل الافرنسيون فيه القدرة على تهدئة الأمور. وكان هذا أول مفوض سياسي حيث كان أسلافه من العسكريين.

ولقد كان سراي يتهم الانكليز بتعضيد الثورة، ويرى من أدلة ذلك اتخاذ الثوار فلسطين وشرق الاردن مراحاً ومنتجعاً ومصحاً. وقد كان رجال الحركة القومية الذين تولوا تنظيم شئون الثورة وتمويلها وتموينها من الخارج يقيمون وينشطون في البلدين بحرية نسبية؛ فرأى جوفنيل أن يزور لندن للتفاهم على ما ينبغي من تدابير في هذا الصدد. ويظهر أنه كان للانكليز مطالب متصلة بالحدود السورية الفلسطينية والعراقية فتم التفاهم في هذه الزيارة على تحديد جديد يرضي الانكليز ويضمن عونهم المطلوب. ثم قدم جوفنيل الى القاهرة وأخذ يتصل برجال اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني؛ وقد جنح في بدء الاتصال إلى التوافيق مع ميشال لطف الله على تحديد العلاقات بين سوريا وفرنسا بمعاهدة تتضمن الاعتراف باستقلال سوريا وقيام حكم وطني دستوري وإصدار عفو عام؛ ثم عقد رجال الحركة والأحزاب اجتماعاً تدارسوا فيه

الموقف وتقدموا بمذكرة مفصلة ضمنوها أهداف الحركة ومطالبها وكانت مصوغة بقالب قوي اتخذه جوفنيل وسيلة للاحتجاج والتوقف عن المفاوضات، وغادر القاهرة إلى سوريا حيث أخذ يطلب إلقاء السلاح قبل الدخول في أي مفاوضة، والاعتماد على العدالة الافرنسية بكلمات طنّانة مبهمة. والحق إن جوفنيل حاول أن يلعب دوراً بهلوانياً بثرثرته وتصريحاته ووعده ووعيده، ولكنه لم يكشف عن أية رغبة صادقة عنده أو عند حكومته في الاستجابة لصوت الحق؛ وظهر أن ما كان منه إنما كان مراوغة وتخديراً وكسباً للوقت إلى أن تصل الحملات الكبرى التي أزمعت فرنسا على ارسالها للقضاء على الحركة والاستمرار في ما رسمته من منهج باغ، وفرض الحلول الهزيلة الخداعة.

على أن زعماء الثورة ورجال الحركة لم ينخدعوا فظلوا من ناحيتهم يصرون على تأليف حكومة يرضون عنها، وإعلان العفو والموافقة على معاهدة تتضمن الاعتراف بالاستقلال والوحدة والحكم الدستوري النيابي قبل إلقاء السلاح.

وفي مكان آخر من دمشق الشام اندلعت ثورة أخرى، كانت صغيرة في بدايتها. ولكنها أصبحت قوة يحسب لها الحساب ومع ذلك فقد أهملها المؤرخون لغاية في نفس يعقوب ولكننا، وإنصافاً منا لكل نقطة دم أريقت في سبيل تحرير قرى هذا الوطن، نجد لزاماً علينا أن نتحدث عن تلك الثورة بكل ابعادها وتفاصيلها إنها ثورة أبناء عكاش.

بداية ثورة أولاد عكاش[1]

إن أول إشارة رسمية إلى بداية ثورة أولاد عكاش في منطقة دمشق بعامة ومنطقة دمر ووادي بردى خاصة هي البرقية التي ارسلها القنصل البريطاني بدمشق السيد سمارت إلى وزير الخارجية الإنكليزي السيد تشامبرلين في ٢٩ تشرين أول ١٩٢٥ وتقول البرقية:

إن السيد بورلاند البريطاني الجنسية والذي يعمل مديرا لشركة البترول الأسيوية في بيروت أتى إلى دمشق في زيارة عمل بسيارة خصوصية وعندما حاول العودة في الساعة الثامنة من يوم ١٣ تشرين الأول مع سائق السيارة حدث معه:

عند وصوله إلى الهامة الضاحية التي تقع في نهاية بساتين والتي هي جزء من دمشق تبعد عن المدينة سبعة أميال... عند وصول السيارة إلى هذا الموقع محطة الهامة ـ كانت هناك عدة شاحنات على الطريق في المحطة كما يقف بعض الرجال المسلحون ويحتمل أنهم تورطوا في سلب محتويات الشاحنات.

فتح هؤلاء النار من الشاحنة على السيارة التي حولها السائق إلى زاوية ميتة وقفز السائق والسيد بولاند خارج السيارة وهربا على مرأى المهاجمين وأخيراً قابلوا سيارة قادمة خارج المدينة وأوقفوها وقدموا بها إلى القنصلية البريطانية.

---

(١) عن ثورة الحرية ـ لعدنان عطار. وقد أعد جميع وثائق الكتاب السيد حسن عكاش ابن قائد الثورة سعيد عكاش.

إن الشاحنة كانت تبدو مدنية وبها شخصان أحدهما دركي جريح وكان عائداً بإجازة وكما فهمت تعرض للقتل...

كان المهاجمون من عصابة عكاش التي ارتكبت الهجوم المشار إليه في شهر تشرين الأول.. إن جرأة المهاجمين يمكن أن تستند إلى حقيقة كونهم متورطين بعملية سلب الشاحنة قرب مدخل المدينة وكذلك لوجود وقت كاف خلال عملية السطو للقيام بعملية أخرى.

إن سائق الشاحنة والتي كانت شاحنته قد أصيبت بتلف كبير غير قابل للاصلاح... احضر الدركي الجريح ومعه سيارة السيد بورلاند بعد أن أفرغها المهاجمون من كل محتوياتها ... لقد قمت بمعاينة السيارة فوجدت وساداتها مبتلة بدماء الدركي الجريح وكذلك غطاء السيارة مثقوب بالرصاص ... لقد كان أشبه بالمعجزة نجاة السيد بورلاند من تلك الرصاصات مع سائقه.

يقول السيد بورلاند والذي كان مضطرباً لتعرضه للخطر إني لو أعلم بحالات الخطر هذه على طريق دمشق بيروت لما حضرت بواسطة السيارة وهذه الحادثة نتجت عن محاولة السلطات الفرنسية إخفاء حقيقة حالة الخطر عن الشعب والقنصليات... ولو حذرت السلطات الفرنسية لنبهت (القنصلية على الرعايا البريطانيين حتى لايتعرضوا للأخطار. وهكذا فالسلطات الفرنسية التي أخفت كل حوادث ثورة أولاد عكاش وذلك في كتابها السجل الذهبي لجيش فرنسا في الشرق ولم تذكر عنهم شيئاً كذلك أخفت حقيقة الثورة في وادي بردى عن قناصل الدول في دمشق مما سبب بحوادث مؤسفة ولكن كيف ابتدأت ثورة أولاد عكاش... إن تاريخ بدء الثورة يعود إلى شهر آب ١٩٢٥.

يقول السيد المجاهد مصطفى عبدالرزاق من مواليد ١٩٠٠ من مجاهدي ثورة عكاش بوادي بردى ودمر ما يلي:



المجاهد سعيد عكاش من دمر

تنادى أهالي دمر إلى اجتماع عقد في جبل قاسيون المشرف على دمر وحضر، رجال كثر من قرية دمر وصاروا يحثون الناس على الثورة ضد الفرنسيين والمساهمة بالنضال إلى جانب أبناء جبل العرب والغوطة وحماة وحمص والقلمون والحرمون ودير الزور وغيرها... وبعد استعراض حوادث الثورة بدأ النقاش في كيفية القيام بهذا الواجب الوطني وتطوع البعض بأنفسهم للجهاد في سبيل الله ضد المستعمر وتبرع الأخرون، وكان أول المتبرعين السيد حسن عساكر أبو حمدي الذي قدم بارودة، ودفع مبلغ من المال كما تبرع آخرون بالمال فاشتروا ثلاثة بنادق عثمانية وتطوع مع أولاد عكاش كثير من شباب دمر حيث كانوا مزارعين أو يعملون بتربية المواشي، ولا يمكن أن يجودوا بأكثر من جهدهم.بدمائهم في سبيل الوطن.

وفي الاول من أيلول قام سعيد عكاش بضرب مخفر دمر وقتل أحد أفراده

وأخذ جميع السلاح والذخيرة الموجودة به (تسعة بواريد) عند ذلك انضم لهم أحمد عثمان الداري ومحمود متاعة الشيخ خالد وأحمد بدران ومحي الدين خضير ومصطفى عبدا لله ومحمد ماليل عبدالعال وعلي عبدالرزاق ... وكانوا قد قاموا بالاغارة على قرية دير مقرن حيث استولوا على سبعة بنادق وبذا أصبح لدى الثوار بنادق كافية إضافة إلى الذخيرة ... عندما علمت السلطات الفرنسية بهاتين الغارتين علي مخفري دمر ووادي بردى (دير مقرن) قامت بمهاجمة قرية دمر وتفتيش منازلها بحثاً عن الثوار دون فائدة لأن الثوار كانوا في المغر الكثيرة في جبل قاسيون وقام الفرنسيون بحرق بيوت الثوار ومصادرة ممتلكاتهم في دمر والهامة وجمرايا...

في ٢٣ تشرين الثاني قتل الثوار مأمور محطة دمر إبراهيم الجوخدار (اميربلاما) وقطعوا اسلاك الهاتف المتصلة بدمشق وهربوا الى المغر في الجبال بعيداً عن أعين الفرنسيين من الرجال الذين باعوا ضمائرهم إلى السلطات الفرنسية في سبيل المال عندها قام الفرنسيون بمهاجمة قرية دمر ثانية وحرقت وهدمت بيت القائد سعيد عكاش فانتقل مع عائلته إلى قرية الأشرفية. وقد كتبت السيدة أليس بولو حول الحادثة: ص ١٥٤ الترجمة العربية علمت اليوم من مصدر موثوق أن جميع ضواحي دمشق بما فيها البساتين محتلة من قبل الثوار. وقد تعرض أحد أصدقائنا ممن يعملون بخدمة الفرنسيين برصاص غزير وهو يطوي الأرض بسيارته. فقص علينا ذلك وقطرات العرق لاتزال تلمع على جبهته إضافة إلى مظاهر القلق. وأضاف أنه أصبح من المستحيل الخروج من دمشق بعد الآن وقد قتل رئيس محطة دمر وهو شخص لطيف اسمه أمبربلاما كان يؤنبني بود على جولاتي التي أقوم بها لوحدي وبعد قتله نهبت المحطة والقرية نفسها.

كما أن المضائق التي يمر منها نهر بردى إحتلتها عصابات الثوار التي ازداد عددها بصورة ملحوظة من جراء إنضمام أهالي الشاغور الذين أصبحوا بدون مأوى. وكذلك سكان القرى التي أحرقت في منطقة الغوطة. بل حتى الطلاب والمثقفين أيضا كما يقال. لم يمكننا إخافة كل هؤلاء الناس إذن؟ لم يستفيدوا مطلقاً من درس دمشق الذي لقناهم إياه بطلقات المدافع.

اذن من هو المخدوع في هذه القضية؟

بعد هدم بيوت الثوار في دمر تقول السيدة ديبة الموازيني زوجة الثائر سيعد عكاش مايلي:

قام زوجي سعيد عكاش مع رجاله بعدة هجمات على محطة القطار في دمر ومخافر المهاجرين ووادي بردى استهدف فيها قتل وأسر بعض جنود الجيش الفرنسي ومصادرة اسلحة رجال الدرك السورية واستطاع تسليح جميع رجاله. بعدها قامت السلطات الفرنسية بملاحقة ومداهمة بيوتنا في قرية دمر وسلبوا متاعنا وحرقوا المنازل ودمروها وشردونا من دمر فذهبنا إلى أهلي في قرية الأشرفية. وهناك قام زوجي بتأسيس قيادة جديدة للثورة في منزل والدتي (وردة الموازيني).

فخصص عنابر لجمع الطحين والحبوب وخصص مطبخ لأكل الثوار وسلامة طعامهم وكانت تشرف على طهي الطعام والدتي وردة وقد قام بطبع إيصالات لجمع أموال المنطقة من ضرائب وعشر المال أي ضرائب الماعز عوضاً عن الدولة التي كانت تجمعها اذ ذاك وهذه الايصالات ممهورة بخاتم الثورة. وقد وضع هذا باسم شقيق زوجي المجاهد محمد عكاش أحد فرسان أولاد عكاش الثلاثة الذي كان مكلفاً بدفع الرواتب للثوار وصرف المؤونات والذخيرة.

وبعد أن نظمت قيادة الثورة تماماً قام زوجي وإخوته محمد وعبدو عكاش بزيارة جميع قرى المنطقة من أجل جمع الأموال وخاصة من بيوت الأغنياء ومنهم الأمراء ـ ومن يملكون الماعز. وبهذه الأثناء ذاع صيت زوجي سعيد عكاش وكبر شأنه بين أوساط الثوار واتصل به القائد الفرنسي للمفاوضة وعرض عليه الكثير من المال والمناصب الرفيعة ولكنه كان يصر على استقلال البلاد وعدم التعاون مع فرانسا.

وقد كانت الصحف والمجلات السورية واللبنانية تتحدث وتنشر عنه وعن بطولة رجاله الأشاوس وبدأت النساء تتغنى في الأفراح باسمه.

ومن خوف الفرنسيين وقسوتهم هاجموا قرية الأشرفية وأحرقوا القرية ومنازلنا وألقوا القبض علي وعلى ولدي الصغير حسين ووالدتي وردة وسجنا في قلعة دمشق وأعلن الفرنسيون في الصحف أن على سعيد عكاش أن يسلم نفسه مقابل اطلاق سراح زوجته وولده.

وتصادف أن قام زوجي ورجاله بضرب قطار مصفح في منطقة دمر وأسر بعض الضباط الفرنسيين وعائلاتهم... وعندها قام بالمساومة على اطلاق عائلات الفرنسيين الموجودين بالقطار.

معارك وادي بردى الأولى :

بعد ان اكتمل تنظيم المجموعة الثورية المعروفة بثورة أولاد عكاش وهاجمت مخافر المهاجرين والهامة ودمر والفيجة ودير مقرن. وجمعت سلاحا وعدداً، قامت بفرض الضرائب والمساعدات على سكان منطقة وادي بردى

والقرى المجاورة لها. وقد ذكرت الصحف الصادرة في تلك الفترة، خاصة جريدة المقتبس اخبار تحركاتها، وحاول الفرنسيون واعوانهم ملاحقة العصابة فقبضوا على يوسف غرة وتشير الجريدة الى اعتقال غره بحيث اصبح عدد المقبوض عليهم ثلاثة ومن هذه الاخبار.

بعد أن اجتمع مقاتلوا ثورة سعيد عكاش في منطقة وادي بردى، اتصلوا بجميع القرى لامداد الثورة، ففرضت المجموعة الضرائب على المنطقة، لإطعام الثوار، وكانت القرى التي تتمرد وتصر على دفع الضرائب والأموال للفرنسيين، تتخذ بحقها إجراءات تجبر زعماءها على إمداد الثورة، كما حدث في قرية يعفور ... ويدل على كلامنا هذا ما نشرته جريدة المقتبس الموالية لفرنسا ففي عدد ٤٤٠٧ ٨ك ٢ - ١٩٢٦ ذكرت الخبر التالي:

علمنا أن عصابة عكاش جاءت إلى الأشرفية، بعد أن فعلت ما فعلت بمنطقة يعفور واتينا على ذكره في إعدادنا الماضية.

وفي العدد ٤٤٠٩ ١١ك ٢ ١٩٢٦:

ترامى لمخبرنا أن عصابة سعيد عكاش جاءت إلى قرية الأشرفية وأخذت منها طعاماً وعلفاً للخيل، وأن رجال هذه العصابة هم من أهالي الأشرفية وبسيمة والهامة والجديدة.

وفي العدد ٤٤٠٦ تاريخ ٢٠ كانون ثاني تحت عنوان: في طريق بيروت وفي الأنباء الواردة إلى مقام رسمي أنه انضم إلى الثوار بعض أهالي بسيمة والأشرفية وقد اتخذت التدابير اللازمة لمطاردتهم.

وفي العدد ٤٤٠١ - ١ - كانون الثاني ١٩٢٦.

عصابة عكاش: جاءت عصابة عكاش إلى قرية الهامة وطلبت دراهم من اهاليها، ولم نعلم بعد ذلك ما جرى بينها وبين الأهالي وفي العدد ٤٤١٠ تاريخ ١٢ كانون الثاني ١٩٢٦، أمست عصابة أولاد عكاش قرية قدسية وفرضت عليها غرامة ولم يعلم مخبرنا ما تم بين العصابة والاهلين، وفي العدد ٤٣٦٤ تاريخ ٥ كانون الثاني ١٩٢٥ ذكرت الجريدة انه القي القبض في دمشق على يوسف غرة من أهالي الهامة المنضم بعصابة عكاش وقد اضحى بذلك عدد المقبوض عليهم من هذه العصابة ثلاثة.

بعد أن اكتمل التجمع من الهامة ودمر وقدسياً ويعفور والأشرفية وبسيمة والجديدة كما مر في أخبار الصحافة المذكورة توجه الثوار إلى قرية عين الفيجة.

ففي ١٩ كانون الأول توجه الثوار إلى دير مقرن حيث عقدوا اجتماعاً بدار الوجيه محي الدين عرفات، أبونايف؛ ثم توجهوا إلى قرية عين الفيجة وقد حاصر الثوار المحطة ثم هاجموها وقتلوا كل الجنود المتمركزين في المحطة، وعلى أثر هذا العمل أرسلت السلطة الفرنسية إلى المنطقة حملة كبيرة من الخيالة، مدعومة بالمصفحات لضرب الثوار ولما كانت اعداد الحملة تفوق قوة الثوار كثيراً وذخائر الثوار قليلة بعد معركة المحطة لذلك انسحب الثوار إلى منطقة افرة في اعالي جبال القلمون المثلجة ونزلوا بضيافة السيد يوسف عباس مختار افرة وكان على صلة وطيدة معهم، ويؤيد الثورة لوطنيته وكرهه للمستعمر، ولكن الحملة الفرنسية لحقت بهم رغم البرد والثلوج فالتجأ الثوار إلى مكان يسمى الثلاجة وهو مكان مخصص لجمع الثلج في الشتاء وضغطه حتى يبقى لفصل الصيف... وقد علم مخبرو السلطة الفرنسية بمكان وجود الثوار فقام

الجنود الفرنسيون بتطويق المنطقة واشتبكوا بمعركة كبيرة، استمرت حتى اليوم التالي، وأدرك الثوار الوضع الحرج فقاموا بعملية مدروسة حيث انقسموا إلى مجموعات هاجموا الممرات المؤدية إلى الثلاجة بعنف دفعة واحدة اذهلت الجنود الفرنسيين الذين تخلوا عن مواقفهم، فاستطاع عندها الثوار كسر الطوق المضروب حولهم والإفلات من الفخ وقد قتل قائد الحملة الفرنسية وهو الضابط فارس نعمو في هذا الهجوم مما جعل الفزع يدب في صفوف الجنود الفرنسيين.

وقد أفاد السيد أبو نايف عرفات أن «٢٠٠» مواطن من قرى دير مقرن وكفير الزيت ودير قانون وبرهليا وسوق وادي بردى والحسينية اجتمعوا بعد نداء في المآذن وذهبوا إلى مكان مخصص فوق السوق في فم القبو «النفق تحت الأرض، وهناك قاموا بفك الخط الحديدي للقطار بينما كانت قوات سعيد عكاش مرابطة حول المنطقة، لحماية الأهالي وما أن وصل القطار إلى مدخل النفق قادما من الزبداني... حتى تدهورت المقطورات حيث أن القطار كان معكوساً القاطرة في المؤخرة خوفاً من الاعتداء عليها... فقام قائد القاطرة بفصلها عن المقطورات وهرب عائداً إلى الزبداني لأخبار السلطة...

أما المقطورات فكان بها كثير من الجنود الفرنسيين فنشبت معركة حامية دامت ساعتين بينهم وبين الثوار من رجال سعيد عكاش، وقام اهل المنطقة بجمع الأسلحة والغنائم بعد إبادة القوة الفرنسية، ولكن الفرنسيين اعدوا حملة ثانية في نفس اليوم حضرت من الزبداني ولكن مقاومة الثوار منعت الحملة من تحقيق اهدافها لأن الثوار كانوا مرابطين في اعمالي الجبل بمواقعهم الحصينة، اما الأهالي فقد اختباؤا في المغر المعروفة في بطن الجبل ـ وانسحبت الحملة دون ان تحقق أهدافها.

بعد ذلك عاد سكان القرى إلى قراهم، وقدموا للثوار الأطعمة والماء، ولكن الفرنسيين جمعوا فلولهم وأحضروا مدفعية نصبت على قمة جبل هابيل، وأخذت تضرب بقنابلها قرى وادي بردى وتدمر المنازل، كما حضرت الطائرات وبدأت بقصف المنازل وبقيت المعركة لمدة اسبوع.

وقد ذكرت السيدة اليس يولو في ١٩ كانون الأول ما يلي:

قام الثوار بالسطو على صندوق سرية الجيش المتمركزة في عين الفيجة، وقد ادعى مستخدم ارمني هناك انه ايطالي، لكي ينجو بنفسه، وأعلن عكاش رئيس العصابة انه بحالة حرب مع الفرنسيين فقط ومع العسكريين منهم بشكل خاص.

وقد صرح السيد ابو نايف عرفات فقال: كان الجنود الفرنسيون المرابطون في منطقتنا يعتدون على الأهلين، بينما كانت معاملة الثوار للأهلين حسنة، لذلك كان السكان يؤيدون الثورة، ويساعدون الثوار، سواء بالحرب والعمل أو بتقديم الأطعمة لهم والأعلاف لخيولهم.

وكان الثوار يحافظون على النساء وممتلكات المواطنين، بينما السلطة تنصب المدافع التي تطلق حممها على كل المنازل، دون تفريق حتى على منازل اعوان السلطة، وكذلك الطائرات.

وكانت النساء لاتخرج للعمل الزراعي في الأراضي إلا إذا كانت ثورة عكاش موجودة خوفاً من اعتداء الجنود لذلك كان الثوار مقربين من السكان، وبعد المعركة حضر إلى منزلنا (عرفات) في دير مقرن ضباط من المتطوعين مع

السلطة وهم مدحت بك وعادل بك وتوفيق بك، واخذوني مع مخاتير قرى المنطقة وذهبوا بنا الى الزبداني عند المستشار الفرنسي وقاموا بالتحقيق معنا بواسطة ـ الياس جهامي ـ الترجمان وهددونا بالقتل طالبين منا اعلامهم كلما أتى الثوار إلى عندنا ثم اطلق سراحنا.

ويذكر بعض الثوار أن أول معركة لقطع الطريق بين دمشق ورياق كانت بتاريخ ١٤ ـ ١٠ ـ ١٩٢٥ عندما وصل الخبر إلى قيادة الثورة أن قطارا مصفحاً حاملاً ضباط وجنود فرنسيين، سيمر باتجاه رياق في ذلك التاريخ، ووصل إلى دمر الثائر حسن الخراط أبو محمد على رأس قوة من رجاله، واجتمع بالثائر سعيد عكاش واتفقا على ضرب هذا القطار. وفي اليوم المحدد ذهب الثوار إلى قصر خالد العظم، ورابطوا قرب القصر، وعلى جانبي الخط الحديدي، وعند وصول القطار، وفي مقدمته عربة مصفحة، وأكياس من الرمل لحمايتها من بنادق الثوار، وقد ركبت في مقدمتها مدفع رشاش هوتشكيس أقول عند وصول القطار، أطلق الثوار النار عليه، فوقف، ونزل منه الجنود، وردوا على إطلاق النار بالمثل، وتبادل الطرفان الرمي، واحتدمت المعركة لمدة ساعة تقريباً سيطر بنتيجتها الثوار على القطار وغنموا ما به من أسلحة وذخيرة، جاء إلى سعيد عكاش الثائر حسن الخراط ومعه فتاة أرمنية، وبيده وسام، وقال موجها الكلام الى سعيد عكاش: شوف عمي ابو دياب هذا الوسام لقد قتلت صاحبه. فقال سعيد عكاش: هذا الوسام صاحبه برتبة باشا وعلقه على صدر حسن الخراط، وقال له من الآن فصاعد اسمك حسن باشا الخراط وأثنى على بطولته وشجاعته ورجولته.

أما الفتاة الأرمنية واسمها روزين وكانت تقطن في دمشق حي باب شرقي،

زقاق الزيتون، فقد استلمها سعيد عكاش وسلمها لزوجته دية الموازيني فنقلت بإشرافها إلى قرية الأشرفية. وبقيت في ضيافتها ما يقارب العشرين يوماً، بالأمان إلى أن حضر أهلها بعد ذلك واستسلموها وهي بنت باكر. وشكروا الثوار على حفظهم لابنتهم من أي اعتداء. وقدموا مكافأة مالية كبيرة مساعدة للثورة.

بعد مضي أربع سنوات، وكان الثائر سعيد عكاش مع أخيه في القاهرة، وصلته رسالة مع اسطوانة من هذه الفتاة الأرمنية، وعلى الأسطوانة أغنية بصوتها، تقول كلمات الأغنية، أوف سعيد عكاش بالحرب ما خاب ـ مثل صقر يوم الحرابي بطل حامي الشرف والعرض بحد النصاب ـ يوم الوغا مثل مفرج الكرابي ويذكر مختار قرية عين الفيجة عن هذه المعارك فيقول: التحق المجاهد مسعود ناصر بثورة اولاد عكاش، واشترك في أكثر المعارك التي جرت في الزور والغوطة، كما اشترك في خلع السكه الحديدية وضرب القطارات في قريتنا، وضرب قلعة بعلبك وقد كان بين رفاقه الثوار من المشهورين بالعمليات الانتحارية ... وبعد معركة عين الفيجة ودير مقرن وانسحاب الثوار الى إفرة التجأ المجاهد مسعود ناصر سراً الى أحد بيوت القرية ليأخذ قسطاً من الراحة...

فقام العملاء بإعلام السلطة الفرنسية بأن المجاهد مسعود ناصر الدين في أحد بيوت القرية، فحضرت حملة قوية مقدرة بأكثر من الف جندي وحاصرت المنزل ثم كسر الجنود الباب ودخلوا البيت فوجدوا مسعود ناصر نائماً من شدة التعب وما أن فتح عينيه على صوتهم العالي، حتى رأى عشرة بنادق مصوبة عليه بعد تجريده من سلاحه وذخيرته، أخذوه الى قيادة الدرك في الزبداني وقيدوه بالجنازير ونقلوه الى قلعة دمشق حيث التحقيق والتعذيب من السلطة الفرنسية. وقد طلب منه الفرنسيون أن يتعاون معهم لقتل الثائر سعيد

عكاش أو إعلامهم عن الأمكنة التي يتردد عليها ليقبضوا عليه حيا وأغروه بالمال الكثير فرفض ذلك بإباء... وظل في المعتقل تحت ظلم وتعذيب الفرنسيين... وكان والده ووالدته كلما زاروه يشاهدون ما عليه من العذاب فيتألمون لذلك..

وأخيراً قام والده مع وجهاء المنطقة، بالذهاب الى الزبداني للتوسط مع توفيق الشماط من قرية سرغايا المقرب من السلطة الفرنسية للتوسط لديهم لإطلاق سراحه على ان يتعهد والده بعدم التحاقه بالثورة ... فكان له ما يريد وبعد أيام قليلة خرج المجاهد مسعود ناصر الدين من معتقله بدمشق واقيمت له الأفراح في عين الفيجة ولكنه بعد عدة ايام التحق بالثورة من جديد...

معركة الزور الاولى :

شارك سعيد عكاش في أهم معركة وهي معركة الزور الاولى، في الغوطة الشرقية حيث ذكر لنا فهمي المحايري في مذكراته ما جرى قبل نشوب المعركة وما هي اسبابها بالتفصيل: بأنه في يوم الجمعة ٩ تشرين الأول سنة ١٩٢٥ ذهبت مفرزة من رجال الدرك للتجول في منطقة الغوطة، ذلك على اثر استفحال أمر عصابة الخراط فباتت تلك الليلة في قرية المليحة وحسب العادة توزع الجنود على بيوت أهل القرية، كل واحد أو أثنان في بيت وكذا ضباطهم. كانت هذه المفرزة تتألف من اثنين وستين جندياً فارساً وخمسة ضباط يرأسهم ضابط برتبة رئيس هو رفيق بك العظمة والاخرون الرئيس أديب من كفر بطنا والملازم أحمد يغمور والمرشحان عبدالرحيم الداعستاني وابراهيم الايوبي، ولما أنتصف الليل جاء حسن الخراط على رأس عصابة قدرت بمائة وخمسون رجلاً أكثرهم بدون سلاح وكان معه (أبو عبدو ديب الشيخ وابو صلاح العرجا

والشيخ نديم، فطرقوا الباب على الضباط وطلبوا إليهم التسليم فأبوا فأقتادوهم قسرا وصاروا يأتون الى كل بيت فيه جنود فيطرقون الباب ويقولون لهم الضابط يريدكم: فيقبضون على الواحد تلو الاخر ويجردونه من سلاحه وملابسه ويطلقونه حتى اذا أتموا عملهم هذا اصطحبوا الضباط الخمسة وساقوهم الى جبل العرب حيث المقر العام للقيادة العليا للثورة وقد كتبت الجرائد في يوم الاحد ١١ من تشرين الأول سنة ١٩٢٥ بأن الحكومة بدأت بالتلاش واختل الأمن، وازداد عنفوان الثورة السورية في دمشق والغوطتين ونتيجة للهجمات التي قام بها سعيد عكاش ورجاله في الغوطتين قام الإفرنسيون بمبادرة مفاوضة صلح مع عكاش وقد قام بهذه الوساطة مدير شركة الترام بدمشق وهو بلجيكي والسيد أنور البكري بالتشاور مع الثائر سعيد عكاش عدة مرات، فبعد دراسة الوضع بين أولاد عكاش الثلاثة وأخذ الرأي على الموافقة على هذا اللقاء، واتفقوا على أن يكون الاجتماع في جسر الغيضة في الغوطة الشرقية، وكان ذلك يوم ١٣ تشرين الأول ١٩٢٥، ولما وصل سعيد عكاش إلى الغوطة وجد هناك زعماء الثورات الاخرين أمثال الثائر ديب الشيخ أبو عبدو سكر أبو ياسين الزيبق وابو محي الدين شعبان الشيخ حجازي الكيلاني والشيخ محمد الأشمر سعيد العاص وبعد الاجتماع إتفق زعماء الثوار، وفوضوا جميعهم سعيد عكاش وإخوته لينوبوا عن الجميع بالمفاوضة وعند وصول الضباط الإفرنسيين حسب الموعد المتفق وبرفقتهم السيد أنور البكري ومدير حافلات الترام البلجيكي، جرت المحادثة بين الطرفين للموافقة على الصلح، وقدمت السلطة الفرنسية شروطا مالية مغرية لترشوا الثوار، ولكن المحادثات فشلت وفي يوم الثلاثاء ١٣ تشرين الأول ١٩٢٥: على أثر اضطراب الأمن الداخلي والخارجي، أرسلت فرنسا ألف جندي إفرنسي للمحافظة على قضاء القنيطرة

وقطنا وانسحب على الأثر الدرك الأهلي. ويفهم من الأخبار الواردة من غوطة دمشق أن عصابة حسن الخراط تتزايد يوماً عن يوم وقد اتخذت لنفسها مركزا في غابات الزور حيث يتعذر جدا على القوى العسكرية أن تقاومها هناك بالنظر لصعوبة التنقل بالمنطقة.

وتحت عنوان «تفاقم الحال واشتباك الجيش لأول مرة مع ثوار دمشق» نشرت جريدة ألف باء بعددها (١٥٤٩).

الثلاثاء ١٣ تشرين الأول ١٩٢٥: زحفت الحملة في الساعة الثانية بعد منتصف ليل الثلاثاء بقيادة الكابتين بورو ويساعده الكابتين ثيريه مزودة بالتعليمات اللازمة وهي مؤلفة من فوج (طابور) فرسان وألاي (بلوك) من مشاة المغاربة ومفرزة من فرسان الشركس و (١٢) دركياً يصحبها بطاريتان رشاش وست سيارات مدرعة فوصلت في الساعة السابعة قبل ظهر الثلاثاء إلى جهات الزور «والزور هو غاب كثيف يحيط ببردى في وسطه غوطة دمشق» فلما اقترب الجند من هناك بدأ العصاة بإطلاق الرصاص من داخل الزور فأمر قائد الحملة جنوده بتطويق المكان من جهاته الأربع وذلك بوضع مخافر يبعد الواحد عن الآخر (٥٠٠) متر ثم انقسمت القوة إلى ستة أقسام وعندها بدأت الطيارات ترمي قذائفها بكثرة على الزور من كل جهاته حتى الساعة العاشرة زوالية. وبعد ذلك أعطي الأمر إلى الجند بالهجوم فتوغلت قوى الجيش في الزور من جميع أطرافه وكان العصاة يقابلونهم ببسالة ونار حامية ودامت المعركة على أشدها بين الفريقين حتى الساعة الرابعة بعد الظهر وسقط فيها من رجال الثوار ما يبلغ عدده (١٠٠) قتيل وكان عددهم يقدر بـ (٣٠٠)، لكن قسم قليل منهم لم يستسلم مطلقاً، وقد صرح لنا قائد الحملة أن الرصاص كان يمطر عليهم

من كل جهة وأن رجال الدرك السوري الذين رافقوا الحملة استبسلوا وكانوا يقاتلونه بشجاعة أدهشت جميع القواد فهنأهم قائد الحملة بعد أن تمت المعركة. وفي اليوم الثاني ترك الجيش قوة تعقب العصاة وعاد إلى دمشق ومعه قسم من القتلى عدده (٣٤) قتيلاً وعدد كبير من الموقوفين يبلغ عددهم (١١٥) شخصاً وهم خلاف الذين اعتقلوا قبلا وجيىء بهم من معمل الزجاج وهؤلاء من القرى المجاورة ولقد عرض القتلى والموقوفين في ساحة المرجة أمام جمهور كبير من الناس فعرف ذووهم خمسة منهم (٣) من دمشق وواحد من العقيبة وإثنان من محلة الميدان وإثنان من قرية بيت سحم.

وقد سألنا قائد الحملة لماذا ضربوا (أي الجيش) قرية المليحة فأجاب أن أهلها قابلونا بالرصاص فقتل من الجند واحد وجرح بضعة جنود وعن قرية (جرمانا) قال لأن أكثر أهلها وفدوا من جبل العرب واشتركوا مع ثواره.

وعن قرية (جسرين) قال أن رجلاً من دار هناك أطلق رصاصة أصابت جندياً فحرقوا الدار المذكورة فقط.

وصرح لنا أيضاً أن الجيش جمع القتلى ووجد معهم متراليوز وأخبرنا الكابتين (كاربيه) أنه فحص الموقوفين في معمل الزجاج فعرف منهم (٢٢) درزياً من الجبل وعرف الدركي بدر الدين رقم (٣٥) وثلاثة من القتلى كانوا مع العصابة التي هجمت عليهم في المليحة هذا ما اتصل بنا من أخبار الحملة على العصاة أخذناه من أفواه الذين رافقواها ونشروه كما ذكروا، وكنا نود ولو غطت حوادث الدهر من ذيول هذه المأساة التي شاهدناها أمس ولكن لكل أجر كتاب.

أما حسن الخراط زعيم العصابة فلم يثبت قتله ولا أسره. هذا ما جاء في جريدة ألف باء. أما الحقيقة كما يقولها فهمي المحايري في مذكراته فمختلف كثيراً عن هذه الرواية ومن نقض بعض جمل جاءت في أقوال الحملة يعلم ما أخفى وما ظهر.

١ ـ العصابة لم تكن مؤلفة من ثلاثمائة شخص كما قدر (القائد) إذ أنها كانت في بداية تشكلها وعرفنا ذلك بعد حوادث دمشق من أحد أفرادها. قال: إن الأشخاص الذين كانوا يحملون البنادق في وقعة (الزور) هم من «٤٥ ـ ٥٠» شخصاً على أكثر تقدير ومثلهم أو أقل ينقلون من أسلحة عادية. فمن هنا يتضح لنا أمرين الأول كون الأسرى المزعومة ليست من أفراد العصابة وكذلك القتلى.

لأن عدد الأسرى المذكورة في إفادة القائد تفوق مجموع أفراد العصابة وكذلك القتلى فمن أين أتت هذه الزيادة؟

هذا فضلاً عن المائة قتيل الذين ادعى القائد قتلهم في أبان المعركة كذلك (٣٥٠) قتيلاً الذين جيء بهم إلى ساحة دمشق. والحقيقة التي لامرية فيها أن الحملة المذكورة عندما تغلبت عليها تلك العصابة الصغيرة بالنظر لموقفها الطبيعي، أخذ الجيش ينتقم من القرى المجاورة فقال الأسرى هم شيوخ تجاوزوا سن الثمانين أو فتيان لم يبلغوا الثالثة عشر من العمر جيء بهم من حقولهم ومن وراء محارثهم كما شهدت بذلك أهل الأرض والسماء فقتل من قتل منهم ظلماً وعدواناً والباقين أخذوا بصفة أسرى اليها كالأهالي في دمشق. ولكن الحقيقة لا تخفى مهما كان مخفيها بارعاً.

٢ ـ يدعي القائد بأنه جمع سلاح العصابة مع متراليوز واحد ولكنه لم يبين عددها ثم لم نرى أهل دمشق وأنا واحد منهم مع الجيش الراجع ولا بندقية واحدة زيادة أولا نعرف لماذا لم تعرض في الساحة العامة إن كان ذلك صحيحاً كما عرضت جثث الأبرياء من المزارعين؟؟؟

٣ ـ يذكر القائد أنه عرف بين القتلى خمسة أو ثلاثة أشخاص من دمشق واحد من العقيبة وإثنان في الميدان وإثنين من بيت سحم فإن كان الأمر كذلك لماذا لم يذكر أسماءهم..؟.

٤ ـ يقول أنه أحرق القرى لأن أهلها أطلقوا على الجند النار، ترى لماذا بعد أن قضى على العصابة وقتل منها (١٣٥) شخصاً تعرض إلى القرى؟ والمعروف أن العصابة ليست من إحدى هذه القرى بل إنها من حرج الزور. إذن لقد تعمد حرق قرية المليحة التي طوقتها العصابة منذ أيام وسلبت مفرزة الدرك أسلحتها فما ذنب القرويين.

ويقول أنه ترك قسم من الجيش يتعقب العصاة! وأين هو هذا القسم ولماذا لم يعد أبدا ثم أنه لم يعين أنواع الجند الذين تركوا الى التعقب! وهل هم من الجراكس أم من المغاربة أم من غيرهم فالمعروف أن الحملة رجعت ناقصة! ومساء الثلاثاء أغلقت أفراد الشرطة المدينة من الغروب، ولماذا رؤوى سيارات الجرحى تنقل جرحى الجيش الى منتصف الليل فمن أين هؤلاء. ولم يذكر القائد خسائر الحملة إلا أنه جاء عرضا على ذكر بعض الجنود الذين قتلوا من القرى التي أحرقت من أجلهم إذن ففي المصادمة مع العصاة لم يقتل أحد من الجيش على ما أعتقد! ولكن من اين الجرحى وجدت أمن المريخ؟

٦ ـ قال أن الدرك السوري استبسل في هذه المعركة ماذا يريد أن يفهمنا: أن السوريين غير راضين على أعمال الثوار (هذا حق) ومن يرضى عن أعمال عصاة من المسلحين السلابين!!

إثني عشر دركياً ستماية من رجال الجيش لم ير القائد استبسال غير هؤلاء با لله ألهذه الدرجة بلغت التمويهات.

الخلاصة أن العصابة لم تصب بأذى كما عرف بعد بضعة أيام من هذه الحملة إذ أنها بدأت تهدد دمشق فتخطف زيدا تارة وبكرا تارة أخرى حتى أفضى الأمر بدخولها الى دمشق ووقوع الكارثة.

ونتيجة لما قام به الفرنسيين في قرية المليحة من نهب وقتل وحرق القرى والتنكيل بالفلاحين وتعذيبهم حيث عملت على توثيق أيديهم بالحبال الى وراء ظهورهم وسيرت خلفهم بعض الجمال والعربات المحملة بجثث القتلى المتقطعة الأوصال وعرضهم جميعاً في ساحة المرجة وقعت في صباح يوم الأربعاء الرابع عشر من شهر تشرين الأول ١٩٢٥ معركة الزور الأولى حيث قام المجاهدين بترتيب جبهة واستحكموا وراء الأشجار والدكوك ومجاري نهر بردى ولما دنت الوحدات العسكرية منهم بادرت باطلاق النار من أسلحتها المتنوعة بشدة هائلة وجرت معركة حامية صمد فيها المجاهدون ومنعوا الحملة الفرنسية الكبيرة من التقدم، فقد تدخل سلاح الطيران الفرنسي في هذه المعركة الرهيبة فحلقت أربع طائرات فرنسية على علو منخفض وقذفت قنابلها المدمرة على منطقة الزور فأسقط المجاهدون واحد منها ولما أوشك عتاد المجاهدون على النفاذ انسحبوا من الزور وقام بحماية عملية الانسحاب المجاهد ديب الشيخ وبعض إخوانه ثم لحقوا بهم إلى أرض المرج.

وقد بدأت هذه المعركة من الساعة التاسعة والنصف صباحاً حتى المساء وانسحب أكثر المجاهدين لنفاذ ذخيرتهم وأتخذوا خيول رفاقهم. وقد صمد في وجه هذه الحملة محمد حجازي الكيلاني وإخوته ومحمود الأغواني وحسن الخراط ومنير خطيب وابراهيم الطناني وقد أصيب حسن الخراط في هذه المعركة في كتفه فحمله رسلان حجازي على ظهره حتى قرية حمورية وكان معه ابن أخيه سعيد الخراط.

معركة مسرابا :

وقعت معركة مسرابا في يوم الأربعاء ١٨ ايلول ١٩٢٦ وقد اشتبك المجاهدون مع الكوكبات الشركسية بجوار قرية مسرابا بمعركة دامية أسفرت عن تكبيد عصابة الأمير عز الدين الجزائري وعصابة سعيد عكاش ووإخوته خسارة فادحة.

معركة جنوب حوران في ١١ اكتوبر ١٩٢٥:

هذا وبعد عودة سعيد عكاش من جبل العرب وأثناء مروره في الأراضي الشرقية لحدود حوران اشتبك مع متطوعة من الشركس في معركة دامية دامت عدة ساعات استبسل فيها رجال ثورته الأبطال وأبدوا بطولة نادرة في هذه المعركة وتغلبوا على المتطوعة وهزموهم بعد أن قتلوا منهم حوالي (٤٠) أربعين قتيلا مقابل ثلاثة شهداء من الثوار وهذه المعركة أيدتها الصحف اللبنانية في بيروت بتفاصيلها إلا فيما يتعلق بقتلى المتطوعة فقد قالت إن عدد قتلاهم مجهول وذلك تفاديا لاستهداف العقوبة والاغلاق كما جاء في الوثيقة المصرية هذا وقد

صرح علـى أحـداث هـذه المعركـة مكتـب الاسـتعلامات السـوري بالقـاهرة في الوثيقة رقم (٥٤) تاريخ (١١) اكتوبر تشرين الثاني ١٩٢٦ والنشرة ٢٣٦..

معركة معربا في (٠٥) ايلول ١٩٢٦ :

وقعت أحداث هـذه المعركـة صبـاح يـوم الأربعـاء الواقـع في (٥) أيلـول ١٩٢٦ بين سـعيد عكـاش ورجالـه والقـائد سعيد العـاص وثورتـه وبـين بضـع كتائب من الجيش الفرنسي بقيادة الكابتين (كوك) وقد اسـتمرت هـذه المعركـة ساعتين متواليتـين وكـان موقـع الثـوار حصينـا تسـتره الغابـات والأدغـال أثنـاء الثـورة، استعمل العـدو في هـذه المعركـة جميـع أصنـاف الأسـلحة مـن مدفعيـة ورشاشات ومصفحات وطائرات وقد استبسـل الثـوار في هـذه المعركـة القاسـية وقاتلوا قتالاً مستميتاً لم يعهد لهم من قبل حتى سيطروا على المعركة تماماً بعـد أن قتلوا وجرحوا من الجنود الفرنسيين قرابة ثلاثمائة عسكري ومتطـوع وغنمـوا الأسلحة والذخيرة وقد شوهدت طيارات الإسعاف تغدو وتروح في سماء دمشق محلقة تنقل الجرحى من الضباط والسيارات الصحية تتوافد أرتالاً، وكان الجنرال (فاليبر) يراقب المعركة من موقعه حوالي نهر تورا. ويقدر المجاورون لمكان الواقعة بأن الخسائر الفرنسية كبير جدا وفادحة لاتقدر.

معركة حمورية :

في ٢٢ تموز ١٩٢٦ وقعت هذه المعركة في أرض حمورية يوم الخميس في ٢٢ تموز ١٩٢٦ فقد خرج سلاح الفرسان التابع للواء الصباحين والمراكشـيين إلى ارض حمورية تدعمهم سرية من الدبابات والمصفحات وحلقت خمسـة عشـرة طائرة فوق مواقع المجاهدين وقذفتهم بقنابلها المتفجرة زهاء سـاعة تمهيداً لهجـوم

الحملة وفي هذه الفترة جاءت عصابات حرستا وجوبر يتقدمها عبد الحكيم جلال الهندي وأبناء القطاط وأحمد الخباز وأعلموا المجاهدين المرابطين في أرض حمورية بزحف الحملة نحوهم وانها وصلت قرية مديرة في طريقها إلى مواقع المجاهدين فأرتاى الثوار أن يهاجموا الحملة قبل وصولها فأسرعوا نحوها حتى التقوا في آخر قرية مديرة من جهة الشرق.

وقد حضر هذه المعركة القادة فوزي القاوقجي وذكي الحلبي وشوكت العائدي والامير عز الدين الجزائري وآل ديبو وأبناء عكاش الثلاثة وهم سعيد عكاش وإخوته محمد وعبدو وأبناء عليكو الثلاثة وعلي وتوفيق وعز الدين والشيخ محمد حجازي الكيلاني وحسن الزيبق وتوفيق سوقية. وكان عدد المجاهدين خمس مائة مقاتل وانضم إليهم بعض ثوار الغوطة ووجه المجاهدون نيران بنادقهم على الطائرات وهي على علو شاهق.

بدء المعركة :

تقدم سلاح الفرسان المراكشي أمام الحملة فصدهم الثوار حتى أرغموهم على التراجع، وهم يضربون في أعقابهم إلى أن دخلوا الطريق العام أمام قرية حمورية التي ترابط فيها الحملة فاحتموا بالدبابات والمصفحات التي كانت تقصف نيران مدافعها ورشاشاتها على المجاهدين واستمرت النيران حامية بين الفريقين إلى الليل حيث نفذت ذخيرة المجاهدين فأسرعوا بالانسحاب ليلاً.

معركة جسر تورا :

بعد تتالي هجمات الثوار على طريق دوما والنبك وحوران والجبل،

وتطهير منطقة الغوطة من الفرنسيين وأعوانهم، قررت القيادة الفرنسية أن تعيد تسيير خط دمشق حمص البري سواء كان للقطار أو للسيارات.

يذكر عبد الوهاب الداري، أحد رجال ثورة سعيد عكاش ما يلي:

في بداية شهر تشرين الثاني جاء مراسل من قبل الاخوة الثوار في منطقة الطريق الممتدة من جسر تورا إلى عربين وحرستا حتى دوما... أمثال أبو عمر ديبو ومحمد خيتو وعلي مكية يونس الخنشور والأمير عز الدين الجزائري اقول جاء مراسل الى سعيد عكاش يطلب منه المؤازة، لان حملة افرنسية قوية تريد أن تدخل دمشق لدعم حمايتها....

عندها جمع سعيد عكاش رجاله، وقرر الذهاب الى الغوطة، لمؤازرة الثوار هناك. وتم عقد اجتماع لزعماء الثوار قرروا فيه أن يقيموا كميناً للقوات الفرنسية عند جسر تورا، وخوفا من القصف بالقنابل. طلب إلى النساء والأطفال والعجز في كل القرى المشرفة على الطريق أن تتجمع في المساجد وتأخذ معها المؤون. والأطعمة...

في يوم (١٥ تشرين الثاني ١٩٢٥) وعند وصول الحملة إلى جسر تورا المؤدي إلى دمشق. وهو جسر ضيق، والمرور عليه إجباري... فعندما تتجاوز القوات منطقة الجسر وتصبح ضمن مرمى أسلحة الثوار، يبدأ سعيد عكاش بالرمي أولا، ثم باقي الجماعات. وفعلا بدأ الضرب على الحملة من كل جانب، وأصيبت المصفحة الأولى فوق جسر تورا، فتعطلت وتوقف الرتل... واستمر تبادل النيران، من التاسعة صباحاً حتى الثانية عشر ظهراً... واشتد الرمي على الثوار من مختلف أسلحة الدبابات والمصفحات فطلب عبدو عكاش من أخيه

سعيد أن يغطيه بالنيران، ليهاجم بداية الرتل... وقام من منطقة تمركزه، وهجم على الدبابة، وقتل الرامي العامل على الرشاش الكبير فوق البرج وصعد البرج واقتلع الرشاش والقى بقنبلة إلى داخل الدبابة فانفجرت داخل الدبابة، وقتل كافة أفراد طاقم الدبابة، وعاد عبدو عكاش إلى خندقه، تحت حماية رفاقه الثوار ولما بلغ مجموع الدبابات والمصفحات المعطلة أكثر من عشرين.

بدأت الطائرات تقصف القرى والمتاجر والجوامع، لارهاب الثوار والاهالي، وتصدى الثوار ببنادقهم للطائرات واسقط سعيد عكاش طائرة في منطقة (عين الفاتر) عين الساخنة بجوار دوما.

وبعد هذا القتال العنيف، اضطرت الحملة للتوقف.. ثم انسحبت تاركة في أرض المعركة آلياتها المحترقة، والدخان الاسود يتصاعد منها.. وكان عدد قتلى الفرنسيين على أرض المعركة كبيرا، وشاهد سكان باب توما ومسجد الأنصار، الدخان يتصاعد من الآليات الفرنسية المحترقة.

وقد أسرت جماعة سعيد عكاش اثنين من الجنود الفرنسيون مع مدافعهم وذخيرة المدافع، اضافة الى كثير من الغنائم والاسلحة، وقد نقلت المدافع الى قرية الأشرفية مع الجنود ونصبت على بيادر الاشرفية التي تظهر حتى من جديدة الشيباني، وفي اليوم الثاني قامت القوات الفرنسية بمهاجمة الأشرفية، انتقاما لمعارك جسر تورا. وعند وصولها الى مشارف قرية الجديدة شاهد الثوار بالمنظار مقدمات الحملة. فأحضر سعيد عكاش الأسيرين وأمرهم بان يضربوا الحملة بالمدافع تحت التهديد بالقتل... فوافق الاسيران على ذلك واطلقت القنبلة الاولى فاصابت بداية الحملة اصابة مباشرة، وكانت مفاجأة أجبرت الحملة على التوقف... ولما حاولت الحملة التقدم ثانية ضرب الجندي قنبلة ثانية فاصابت

الحملة اصابة مباشرة أوقفتها مرة ثانيـة، وبعـد نصـف ساعة عـاود الفرنسـيون التقدم وهنا رفض الأسيران اطلاق المدافع بعـد محادثـة بينهمـا باللغـة الفرنسـية، وأمر سعيد عكاش باعادتهم الى السجن وعندما تقـدم احـد الثـوار ليعمـل علـى المدفـع، واذا بـه يتوقـف لان احـد الاسـرى قـد عطلـه... وتقدمـت الحملـة واصطدمـت بـالثوار، وكـانت معركـة مطلات الجديـدة قاسية ذهـب ضحيتهـا عشرون جنديا فرنسيا وتعطلت مصفحة واحدة وتقدمت القوات الفرنسية حتى الاشرفية.

انسحب الثوار من قرية الاشرفية حفاظا عليها من الدمار، كما حـدث في قرية المليحة في الزور ـ وقد قتل في هذه المعركة ثلاثة من الثوار ... بعـد دخـول الفرنسيون بلدة الاشرفية حرق الفرنسيون القرية واعتقلوا زوجة سـعيد عكـاش ووالدتها وردة الموازيني وأولاده الصغـار محمـود وحسـين واخذوهـم الى سـجن القلعة.

فرض الحصار على دمشق :

بمـا أن منطقـة دمـر والهامـة وجمرايـا مشـهورة بزراعـة الزيتـون مـن قديـم الزمان، حيث يمر نهر بردى، وخط قطار دمشق بيروت، وخط سيارات البقـاع دمشق، ومع بداية شهر كانون الثاني جمع عكـاش رجالـه مـن قـرى دمـر الهامـة الجديدة الأشرفية بسيمة عين الخضـراء عيـن الفيجـة جمرايـا، ووصـل إلى المنطقـة مجموعة مـن ثـوار جبـل الصالحيـة حـارة الأكـراد بقيـادة أبوديـاب السبرازي... وتمركز المقاتلون في وجه الجديدة والبساتين المتواجـدة علـى طـرفي خـط القطـار حتى قرية الأشرفية وهناك قاموا بفك الخطوط الحديدية التي تؤلف سكة القطـار

مسافة خمسة كيلو مترات وسحب قضبان السكة الحديدية الى الجبل، وإلقاء البعض الآخر في قاع مجرى النهر...

وعند قدوم قطار الزبداني ووصوله إلى منطقة التخريب، بالقرب من قرية الأشرفية تدهور القطار بخروجه عن الخط، ووقع في كماشة الثوار المتوجدين بين البساتين وجرت معركة قوية بين الثوار والجنود الفرنسيين المكلفين بحماية القطار... وبعد ثلاث ساعات، وصل القطار ثان قادم من دمشق مملوء بالجنود نجدة للجنود الفرنسيينن وفي مقدمته عربة مصفحة، وعند وصوله إلى منطقة التخريب خرج على الخط وتدهور، وجرت معارك وإطلاق رصاص وقنابل من قبل الطرفين، ولكن القوات الفرنسية خافت وانسحبت وبقيت الطريق مقطوعة لمدة اسبوع، وقد أمر القائد عكاش رجاله بالمرابطة أيضا على الطريق البرية بين الصحراء ودمر لمراقبة خطوط السيارات المتجهة من دمشق الى بيروت والعكس ويجري قطع الطريق على الفرنسيين فقط، أما الموطنين من أبناء البلاد فلا حرج عليهم.

وبهذه الطريقة تكون دمشق قد قطعت عن لبنان والمناطق الأخرى علما بأن طريق حمص مقطوعة من قبل ثوار القلمون، وكذلك طريق القنيطرة التي تصل دمشق بلبنان مقطوعة أيضا، بسبب قوات الثورة بقيادة زيد الأطرش.

كان من أثر انقطاع الطرق عن القوات الفرنسية وإمداداتها غلاء السكر والرز وجميع السلع التموينية المستوردة عن طريق البحر، وصار غليان بين العائلات الفرنسية في دمشق، حيث البريد لم يصل وظنوا أنهم إذا استمر هذا الحصار سيفقدون أرواحهم، وبدأوا يفتشون عن طريقة لإنقاذ أرواح عائلاتهم،

التي تسكن في دمشق وشعروا أن السيطرة على الحالة غير مكنة، وقد يفقدون السيطرة على دمشق ذاتها وفكر القائد اندريه والقائد كوليه بضرب دمشق مرة ثانية...

..

أرسلت القوات الفرنسية قطارا من بيروت مصفحاً وعليه قضبان سكة حديدية لإصلاح الخط كما صادرت من الخط الحديدي الحجازي قضبانا، وأرسلتها بقطار آخر من دمشق ولكن القطارات جوبهت بمقاومة قاسية اضطرتها للعودة، وتصاعدت هجمات الثوار على المناطق العسكرية في مدخل دمشق طريق الربوة، مما حدا بالكولونيل فيرجيني الذي كان يقود عملية التمشيط في الميدان والشاغور إلى أرجاء أعماله والتوجه بجنوده إلى منطقة الجديدة، حيث اشتبك مع الثوار مدة ست ساعات، وقد رمت المدفعية خلالها الحمم على الثوار فاضطروا للانسحاب باتجاه الجبال. عند ذلك تمكنت السلطة الفرنسية من إعادة وصل خط السكة الحديدية وقامت بعدها بحرق قرى الجديدة والأشرفية وبسيمة وهرب السكان عن طريق الجبال باتجاه دمشق حيث وصلوها في شهر كانون الثاني نصف عراة. كما أحرقت قرية جمرايا، وألقت السلطة القبض على محمد علي مهرة ومصطفى يوسف سفر وأحمد حسن نمورة وعلي محمد الترك واعدموا رميا بالرصاص لأن أولادهم من رجال الثورة، وتؤيد وثائق الخارجية البريطانية هذا الأمر حيث نعثر بين وثائقها على الوثيقة رقم (٨) أرشيف وهي موجهة من القنصل سمارت إلى السيد أوسين تشامبرلين في شهر كانون الثاني «استلمت ٢٨ كانون ثاني وكتبت في ١٩ كانون ثاني ١٩٢٦» حيث تقول:

لي الشريف أن أعلمكم أن الخط الحديدي بين دمشق ورياق قد قطع لمدة

أسبوع في ليلة ١٢ ـ ١٣ من كانون الثاني ١٩٢٦ فإن جماعة عكاش التي كبرت بانضمام الجندين الأكراد أليها تحت إمرة أبو دياب، وهو قائد جديد انضم إلى قيادة الثوار قد أوقفوا في نقاط متعددة وقطعوا حوالي «٥» كيلومترات من الخطوط الحديدية بين محطات الهامة «على بعد ١٠ كيلومتر شمال دمشق والتكية» «٣٠ كيلو متر شمال دمشق» وقذفوا بكمية لا بأس بها من الخط الحديدي بنهر بردى تحت الضفة. وقد خرج قطار شحن بضائع آت من رياق بين الجديدة «١٤كم شمال دمشق» والهامة وسلب من قبل العصابة. وقد أخرج عن الخط قطار إغاثة آت من رياق بالعمال لإصلاح الخراب في الكفر بين سوق وادي بردى؛ ٢٩ كيلومتر شمال دمشق» والفيجة؛ ٢١ كيلومتر شمال دمشق» وقد سحبت الخطوط الحديدية هناك بعد رحلة قطار الإغاثة الذي جاء من دمشق وكان مسلحا، أخرج عن الخط شمال الهامة مباشرة وعلى بعد كيلومتر واحد فقط عن النقطة التي أخرج فيها قطار البضائع عن الخط ٣ ـ ومن محادثة مع الكومندان دوفوكس من الخدمات، ومن مصادر أخرى فقد تبين لي أن السلطات العسكرية قد أظهرت استهتارها بالعهود. ومن الواضح أنهم عرفوا صباح ١٢ من الشهر الجاري بأن هذه العصابة كانت تتحرك باتجاه الخط الحديدي لكنهم لم يتخذوا خطوات للحيلولة دون الخطر. وبعد أخراج قطار البضائع عن الخط الحديدي أعلموا بأن الخط كان قد أصيب بخراب واسع، ومع ذلك فقد سمح لقطار الإغاثة من رياق والقطار المسلح من دمشق للتقدم بحذر في المناطق المخربة وكانت النتيجة أن كليهما أخرجا عن الخط.

٤ ـ في صبيحة اليوم التالي، في «١٢» الشهر الجاري، أرسل عمال من دمشق بدون أي حماية عسكرية لإصلاح الخط. وجدوا الجماعة «العصابة» عند

الخط قرب الجديدة وكان طبيعياً أن يرجعوا الى دمشق، لكنهم هوجموا هجوما مكثفاً من قبل العصابة بين الجديدة والهامة وكان عليهم الانسحاب إلى دمشق.

٥ ـ في اليوم التالي، أي في «١٤» منه، قام الفرنسيون أخيراً، بما كان يتوجب عليهم القيام به في «١٢» منه، عندما تلقوا نبأ الحركة الثورية وقبل حدوث الخراب، الذي كان يقود جميع عمليات التمشيط في المناطق المجاورة لدمشق.

وقام هذا الرتل بدحر العصابة وإبعادها وأحرق قرى الأشرفية والجديدة وقد هرب السكان إلى الجبال. كما أن الذكور بدون شك سيصبحون من مجندي العصابات كما أن هذا الرتل على ما يبدو سيهدد الفيجة وبسيمة وهي قرى مجاورة مهددة بنفس المصير.

٦ ـ كان هناك مواطن هندي بريطاني، يسمى الحاج محمد كمال الهندي، الذي كان يعمل بمطحنة الدقيق في الجديدة ولم يهرب مع سكان القريتين. يبدو انه قد نجا بأعجوبة واعتمادا على القصة التي رواها بنفسه، فقد دفعه الجنود الى داخل الطاحون وبعد إغلاق الباب أضرموا النار بقصد إحراقه حيا. ويقول أنه قفز من الشباك وهرب حتى وصل المحطة، حيث أن مدير المحطة، الذي كان يعرفه جيداً، قد تدخل لأجله وخلص حياته من موت محقق.

٧ ـ وبالمناسبة يبدو أن من المدهش بأن سلطات الانتداب التي يجب عليها في فترة ما ان تزود المنطقة بالمواد النادرة الضرورية للحياة، قد اهملت هذا الواجب، وفي نفس الوقت أحرقت طاحونة كبيرة تزود مدينة دمشق ببعض طحينها.

٨ ـ وقد أدى قطع الخط الحديدي للمواصلات مع بيروت لأرتفاع أسعار الخبز والشاي والسكر. وقد كان الاتصال البري عن الطريق العام قد قطع منذ فترة طويلة. وبما أن دمشق الان تعتمد الى حد كبير على الطحين المستورد عن طريق بيروت فان أي القطاعات طويلة الأمد للمواصلات مع الساحل لابد وان يكون لها أثار خطيرة على المدينة. وقد عمت معاناة سكان المدينة وانتشرت.

أما اليس باولو فقد ذكرت في كتابها في ١٣ كانون الثاني:

لقد عطل الثوار الخط الحديدي الذي يصل بيروت بدمشق ذلك بين قريتي الجديدة والاشرفية ولم يكن هذا العطل ظاهراً البته مما جعل احدى القاطرات تخرج عن الخط ولم ينتظر الثوار اكثر من ذلك اذ ذهبوا فورا ليطبقوا الخطة نفسها في الخلف مع قطار مصفح جاء لنجدة الاول، ونجحت الخطة وخرج القطار الثاني عن الخط ثم تدهور. وقامت السلطات كالمعتاد بحرق قريتي الاشرفية والجديدة أخذاً بالثأر وقد وصل الفلاحون من هناك إلى دمشق نصف عراة.

وفي هذا الوقت تدور في المنطقة معركة حامية بين الوحدات العسكرية وعصابات الثوار.

وقد بدأ الإعتقاد يسود بأن خط حديد بيروت دمشق لم يعد مضمونا أبدا بعد هذه الأحداث المفجعة، وهذا ما يجعل المدينة بحالة حصار، وهذا دفع الناس في كل مكان إلى تأمين مؤونتهم من الطحين.

وبينما قام بعض الثوار بتعطيل سكة بيروت الحديدية قام بعضهم الآخر بقطع سكة الحديد التي تصل رياق وحلب...

معارك الهامة في شهر شباط ١٩٢٦ :

ولكن اصلاح خط سكة حديد قطار دمشق بيروت، الذي تم تحت سيطرة القوات الفرنسية بعد حرقها قرى جمرايا والجديدة والأشرفية وبسيمة لم يفد السلطات الفرنسية شيئاً، فنشاهد في البرقيات المرسلة من قيادة الجيش الفرنسي إلى باريس ما يلي:

في ١٤ شباط ١٩٢٦ رقم ٩٤.

من الجيش الفرنسي في الشرق إلى وزارة الحرب.

دمشق في ليل «١٣» شباط قطع أفراد العصابة خط حديد دمشق بيروت في منطقة دمر والهامة القطار خرج عن خطه وتعرض الركاب والبضائع للنهب والسلب.

برقية أخرى بيروت في ١٤ شباط ١٩٢٦ رقم ١٤٧.

نهار ١٢ شباط قصفت قرية مجاورة لدمشق بعد أن شوهد فيها بعض أفراد العصابات، وفرقة الخيالة من الشركس فقدت خمسة قتلى من عناصرها بعد قتال عنيف. ولكنها استطاعت أن تطرد عصابة قوية من قرية حلوة من طريق بيروت وقد بقيت سبع جثث على أرض المعركة.

وفي ١٨ شباط جاء في البرقية «٢٠١ ـ ١٩٢٦» ما يلي:

عصابة قطعت خط حديد دمشق رياق بين محطة دمر والهامة التصليحات مهمة كما تحدثت البرقية عن قطع خط القنيطرة والمعارك في راشيا...

وفي نفس الوقت نشرت جريدة أم القرى في مكـة المكرمـة العـدد «٥٩» ١٢ شباط انقطع الطريق بين الشام وحمص وحلب لم تقبل الحكومة قطع تذاكر السفر لحمص أو حلب بسبب تخريب السكة الحديدية عند رأس العين قرب بعلبك من قبل عصابة عكاش.

كما نشرت في ١٩ شباط الخبر التالي:

في عين الفيجة تمكنت عصابة عكاش من قطع الخط الحديدي على مقربة من عين الفيجة واستولت على قطار شحن مؤلف من مركبتين من الطحين ومركبة من السكر وثلاث مركبات محملة بالأغنام أخذت العصابة جميع ما فيه. بعد أن وضع الثوار كثيراً من الصخور في طريق القطار فمنعوه من الحركة. وقد كتبت اليس بولو في كتابها دمشق تحت القنابل ما يلي: ٢٢ شباط ص ٢٩٥ ٢٩٦.

علمت اليوم بالتفصيلات التكميلية الشيقة لحوادث قطع الخطوط الحديدية التي تذكرها بقصة (ملك الجبال) ولما أبديت دهشتي من وقوع جميع الحوادث في منطقة دمر ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه من كان يحدثني، وأكد لي أنه قد تم توزيع اكراميات بصورة سرية على رؤوساء القرى وبعض رؤوساء العصابات في بقية المناطق لكي يبقى الخط سليما والشخص الوحيد الذي رفض هذه التطبيقة هو عكاش الذي يشبه أحد لصوص كورسيكا، ولقد أسر أحد أقاربه ثم قتل، فوجدت معه لائحة تحوي أسماء جميع ضباط عصابته وعددهم وأسماء من يمكن تطويعهم من الدمشقيين فقبض على هؤلاء الاخيرين من قبل الاحتراز.

وحسب التفصيلات التي وصلتني يكون الخط قد قطع ليلة ١٤ شباط قرب طاحونة دمر وتكون محطة الهامة قد نهبت ثم أحرقت بكاملها... وفي الساعة الثانية وصل قطار حلب قادما من دمشق، فسرقت محتوياته وقد أصيب رشاش العربة المصفحة في هذا القطار باستعصاء جعل سدنته غير قادرين على حماية أنفسهم ... وقاد هذه العملية وجيه دمشقي معروف كان منذ ستة أشهر، يقوم بأي عمل ولو على حساب كرامته ليرضينا... وقد ذكرت جريدة أم القرى العدد ٥٦ تاريخ ٢٦ آذار ١٩٢٦ دخل الثوار ليلة أمس دمشق وإلى منازل عديدة واختطفوا سعيد الميداني ودخلوا إلى دار ياسين الحواصلي واختطفوا نسيب بهاء الدين الصوفي ثم انسحبوا إلى الصالحية.

وهاجمت عصابة عكاش محطة دمر واختفطت المفتاحجي وتصادمت مع الجند في طري الحواكير في حي المهاجرين وشاع يومها أن قناصل الدول في دمشق انذروا رعاياهم بإن من يشاء منهم ان ان يغادر المدينة فليغادرها...

وفي ٢٩ شباط نعثر على برقية رقم ١٣٩ تقول: في ٢٥ شباط قامت فرق الشركس التي ساهمت في عملية حرمون الشمالي بمهاجمة عصابة عكاش بالهامة - ١١ قتيل من الأعداء على أرض معركة ـ خسائرنا ثلاثة قتلى من الشركس وجريحان.

ضرب القطار بالهامة :

إننا ضربنا قطار دمشق بيروت في منطقة وادي بردى بدأ من دمر وحتى تكية الزبداني أكثر من خمسة عشرة مرة خلال شهرين أما عن معركة الهامة فإننا في يوم ٢٥ شباط وصلت إلى الثوار أخبار تفيد أنه قد يصل إلى دمشق قطار

مصفح قادماً من لبنان يحمل جنوداً فرنسيين ومواد تموينيـة فذهبنا جميعاً بقيـادة سعيد عكاش زعيم ثورة دمر إلى منطقة الهامة...

وقمنا بفك سكة القطار بواسطة مفاتيح خاصـة عثرنا عليها مـن إحـدى ورشات اصلاح الخط في المرة الماضيـة. وقلعنـا سـكة الحديـد وحولناهـا إلى نهـر وادي بردى المار بجـانب القطـار. وعنـد آذان الظهـر تقريبـاً وصـل القطـار وفي مقدمته عربة مصفحة خوفاً من مهاجمة الثوار له. وإذا بالقطار يتدهور منه عربتان والقاطرة خرجت عن الخط وصارت الدواليب تحفر الارض وعندها بدأ الضرب من الثوار المتمركزين على جانب الخط واقتحموا العربات وجرت معركة عنيفـة وقاسية، دامت حوالي ساعتين قاتل الثوار قتالاً مستميتاً وأظهـروا بسـالة نـادرة، وانتهت العركة بالسيطرة على جميع عربات القطار، وقتـل جنـود الحمايـة. وقـد شاهد المواطن محمد أبو رسلان من قرية الهامـة ١٢ سـيارة ناقلـة جنـود فرنسـية مملوءة بالقتلة من جراء هذه المعركة كما شاهد بأم عينه الدم ينزل من السيارات على الأرض أثناء مرورهم فوق جسر الهامة بالقرب مـن الطـاحون. وقـد أسـرنا سائق القطار واسمه نخلة برغوت من لبنان وأصيب مساعده في ساقه، وفـر هاربـاً أثناء المعركة.

وقد أخذنا نخلة برغوت الى قرية الأشرفية ووضع في منزل هناك حتى أتـي أهله وتوسطوا لدى القائد سعيد عكاش فـأطلق سـراحه.. أمـا أليـس يولـو فقـد ذكرت في ١٥ كانون الثاني ١٩٢٦م:

قام أحد أصدقائنا للمرة الأولى منذ ثلاثـة أشـهر بتعريـض نفسـه للخطـر وذلك بالخروج بدراجته الى مسافة سبعة كيلومترات من دمشـق. وقـد تنبأنـا لـه

برصاصة تخرق رأسه، ولكنه عاد سليما معافى بعد أن رأى في جولته ـ حسب قوله ـ واحة الربوة التي كانت واحتي المفضلة منذ ستة أشهر، وقد أصبحت الآن صحراء قاحلة، ورأى الخراب على طول الطريق. لم يكن هناك رجل أو منزل مفتوح ولم يرى في دمر جنة عدن الصغيرة بالنسبة لنا. إلا علماً يرفرف بحزن وحارس حقول لم يبق عنده ما يحرسه فسكن لوحده في القرية، ومن الجائز أن يكون قد انخرط في إحدى عصب الثوار.

وعلى طول الطريق كانت تسير أرتال محزنة من النساء والأطفال تتوجه من القرى التي تم إحراقها الى دمشق التي أصبحت مكتظة بالسكان.

وقد أعطيت تفصيلات جديدة، عن اصطدام مسلح حصل البارحة، فقد قامت عصابة من "المارقين" باقتلاع قسم من خطوط السكة الحديدية، ونقلته على ظهور الجمال حتى الجبل، وهذا ما سبب خروج القطار عن الخط وسقوطه في الوادي المجاور للسكة، ونهب ما فيه من قبل القرويين الذين تزودوا من البرتقال وصفائح البترول بما يكفيهم لمدة طويلة.

وقد كانت البيانات الموجودة في المحطة بخصوص أبعاد الحادث خاطئة، ولذلك سارت القاطرة المصفحة بدون أن تصطحب معها (جهاز حماية) وهذا ما جعل القضية عويصة تماماً.

وكان أحد الميكانيكيين المرافقين للقطار سوريا، ولهذا اقتاده الثوار الى القرية، أما الثاني فقد سقط تحت القاطرة، ولكنه تخلص من تحتها ليلاً وهو يحمل جرحاً خطيراً في رجله، ثم تحامل على نفسه وابتدأ المسير باتجاه قرية جديدة بدون أن يتبادر إلى ذهنه أنه سيقع في أيدي الثوار.

ولقد أراد رئيس العصابة ـ وكان يعرف الفرنسية صدفة ـ أن يقتله ولكن زميله السوري أكد للرئيس أن الجريح من المدنيين وأنه ايطالي لا فرنسي.

وبناء على هذه التأكيدات، أوثقه الثوار بعد أن هددوه بأنهم سيخلصون منه فيما إذا ظهرت إحدى الطائرات أو الوحدات العسكرية، ولكن الثوار لم يحرسوه جيداً ولذا تمكن من فك قيوده والهرب وقد سار حوالي ثمانية كيلومترات على رجله المصابة حتى وصل الى دمشق وهو طريح الفراش في مستشفى القديس لويس الآن (المستشفى الفرنسي).

معارك المهاجرين والصالحية وشمال دمشق

إن القسم الممتد من سوق ساروجة وبساتين الصالحية وحارة الاكراد وكيوان والمزة إضافة إلى وادي بردى يقع ضمن المنطقة السادسة، بقيادة سعيد عكاش لذلك لابد من أفراد بحث خاص للنضال الشعبي في هذه المنطقة، ضد الحكم الفرنسي باعتبار أن العائلات الفرنسية لم تكن تستطيع السكن في وسط مدينة دمشق القديمة. وإنما كانت بحماية الثكنات الفرنسية المنتشرة على جانبي الطريقين الرئيسين من المزة حتى دمشق مروراً بالفتالة من الربوة حتى جسر فيكتوريا ــ فكانت عائلات الضباط الفرنسيين تسكن شمال هذه المنطقة في الشعلان خاصة وزقاق الصخر وطريق الصالحية حيث قيادة الجيش الفرنسي العليا في حي الوز البرلمان اليوم.

ورغم أن الثوار كانوا يتمتعون بالفروسية الكاملة لم يكونوا يهاجمون النساء أو يعتدون عليهم وكذلك الأطفال، كما كانت أعمال ما يسمى بالمثقفين ضباط الجيش الفرنسي ... ومن أهم الأعمال الثورية التي وقعت في شمال المدينة ما يلي:

أذيع بين الناس أن عصابة عكاش ستهاجم مقر المندوب السامي في العفيف، وهو الآن مقر السفارة الفرنسية، والقصر كان قصر الملك فيصل الأول ملك سورية ـ ١٩١٨ ـ ٩٢٠ ـ وذلك خلال عهد الإستقلال في سورية، هو وأثاثه الجميل ومبنى على الطريقة العربية، فاغتصبته فرنسا واعتبرته غنائم

حرب، بعد معركة ميسلون. ولا يزال بملكيتها إلى اليوم فانتقل المفوض السامي إلى قصر العظم ليعيش في أجواء الف ليلة وليلة وليتهتك بعيداً عن الثوار المناضلين من أبناء سورية، ولذلك قام ثوار الشاغور باحتلال دمشق ومحاصرته في قصر العظم، مما أدى إلى هربه بلباس إمرأة مسلمة وأختبأ تحت الجلباب الأسود ليستطيع الهرب إلى قصر الملك السوري المصادر في العفيف.

واستمرت سيطرة سعيد عكاش ورجاله على منطقة الصالحية والمندوب السامي يعيش ضمن الخوف، واشارة الى ذلك يمكن ذكر الحوادث التالية:

نشرت جريدة المقتبس في عدد ٤٤٣ تاريخ ١٠ شباط ١٩٢٦، ما يلي: في الساعة الثامنة من مساء أمس، جاءت شرذمة من الثوار إلى حي الصالحية فصادفت مأمور مخفر ابي جرش في قهوة هناك فاعتقلته كما أعتقلت الحارس أحمد شعبان وذهبت بهما إلى سهل القابون، وهناك سرحتهما بعد أن أخذت سلاحيهما.

والواقع أن المخفر يقع بين الشركسية وجامع الشيخ محي الدين ضمن سوق شعيب كما كان يسمى قديما وهذا الشارع امتداد لشارع الشيخ محي الدين ابن عربي أما منزل أجليقين فيقع في نهاية أبي جرش عند الاقواس في رأس الطلعة طلعة الحلالات أما أولاد شعبان فلا يزالون حتى الآن يشرفون على فرن الحلالات في المنطقة.

وتضيف الجريدة فتقول:

وقد علمنا انها رأت السيد عبد الكريم شقيق المفوض، فاخذته وأخذت

ثلاثة اشخاص وسرحتهم قرب بستان قمر الدين والحارس وشقيق المفوض عند بستان القصر.

وتقدر هذه العصابة بأربعين ثائراً وهي بقيادة عبدا لله عكاش وهذه الحوادث جرت في نفس الوقت عندما كانت القوات الفرنسية تحتل دمر.

وذكرت الجريدة ما يلي:

عادت حملة الشركس التي ذكرنا في عدد أمس خبر خروجها من دمشق وقد علمنا أن معركة وقعت بينها وبين عصابة عكاش في اطراف قرية دمر أسفرت عن أسر ثائر يدعى أبو عبدو الدمراني.

وفي نفس الوقت يمكن أن نذكر أن الحادثة التالية التي وقعت في ٦ نيسان وذكرتها اليس يولو في العفيف وبجانب دار المندوب السامي قام عبده عكاش بإيقاف الترام المتجه إلى وسط دمشق وافرغه من الركاب ثم حل الشكائم (الفرامات) وترك الترام يهوي بإتجاه الجسر الأبيض حيث خرج من الخط واصطدم بجدار طاحونه الجسر التي كانت على الجانب الشرقي لطريق الصاحلية وهدم الجدار.

على إثر هذه الحوادث ارسل المندوب السامي حملة لتطهير منطقة الصالحية، ودفعت الأموال لآل بوظو وعمر أغا شمدين لايقاف ثورة الاكراد، وقد تعهد الجنرال كوله لهم بتنكة مملوءة بالذهب الأحمر اذا استطاعوا مقاومة الثورة وإيقاف ثورة الأكراد وإعادة الأمن إلى شمال دمشق وذلك على إثر مقتل ضابط فرنسي في منطقة الكركة واقام له نصباً وقبراً في وسط ساحة سبع بحرات وقوس يشبه قوس النصر الفرنسي في باريس.

وقد هدم هذا القوس وأقيم مكانه حديقة فيها بحرات عديدة ويجب أن يقوم في وسط هذه الحديقة نصباً للثوار الأحرار بدلا من النصب الفرنسي الذي هدم وعندها تحدى سعيد عكاش ورجاله المندوب الفرنسي فقد ورد في الصفحة ٢٧٥ من كتاب دمشق تحت القنابل للصحفية أليس بولو، ذهب ده جوفينل فجأة كما جاء فهل يستطيع أن يتخذ قراره هذا بعد الانفجارات التي سمعت ليلة البارحة حين قام الثوار بأربع هجمات كانت أحدها في حي الصالحية على بيت المسيو (بير آليت). الذي كان ينزل فيه المفوض نفسه لا أحد يعلم ولكن يظهر أنه قد قلق من مثل هذه الجرأة فغادر بدون طبل ولا زمر..

ولقد حصلت هجمة أخرى على مخفر شرطة المهاجرين لكي يتم إخلاء مخفر الجسر الأبيض من عناصره المؤهلين لنجدة المخفر الأول. وحصلت الهجمة الثالثة على بيت رضا سعيد وهو وزير قديم من أصل تركي حيث طلب منه الثوار منحة على شكل دراهم وبطاطين فرفض، وهاجم الثوار منزله فأختبأ في أحد الأمكنة ثم قدم استقالته من الحكومة إثر هذا الحادث ولقد كان رضا سعيد وزيراً للمعارف شكلاً لافعلا لأن مستشار المعارف كان يمارس مسؤولية الوزارة دون أن يعلم رضا سعيد عنها شيئاً..

بعد ذلك قام الفرنسيون بهدم بيوت وبساتين الصالحية وسوق ساروجة وكذلك الجدران التي تفصل بين البساتين قام سعيد عكاش من منطقة المزة بمهاجمة محطة البرامكة وثكنات البرامكة، ووصل حتى ثكنة الحميدية مكان جامعة دمشق اليوم وبعدها في ١٥ شباط ذكرت أليس بولو:

قمت اليوم بزيارة بعض الأصدقاء الذين يقطنون منطقة الصالحية بين البرلمان والعفيف، فقالوا إنهم قد تعرضوا في الليلة الماضية لمعركة حقيقية حين

هاجمت العصابات المسلحة بالرشاشات كل الشوارع المحيطة بهم حتى وصلت الجسر الأبيض، وقد برهن الضباط عن شجاعتهم وهم في بيوتهم حيث أن الأحداث جعلتهم يتخيلون أموراً كثيرة فلقد رأى أحدهم صليباً أزرق على باب بيته فظن أن عصابة اليد السوداء هي مجموعة من الشباب في دمشق قررت الانتقام من الضباط الفرنسيين بعد أن اعتدو على النساء والأطفال وهدموا البيوت وسرقوا الأثاث.

وتأكيداً على هذه الأقوال فقد ذكرت أليس بولو ما يلي يوم ١٤ شباط ١٩٢٦ كان نفر من الضباط الفرنسيين يتحدثون في مواضيع عائلية مماثلة مع أحد الرهبان الأذكياء المتمرسين بقضايا البلاد، ويذكرون شجاعتهم وفروسيتهم فقال لهم الراهب إن بيته الريفي نهب من قبل الجنود الفرنسيين فقالوا له بحزم إذن لم يكن على رأسهم قادة فأجابهم الراهب مبتسماً بلى ولكنهم لا يطيعونهم ـ ونظر الضباط إلى بعضهم بخجل وارتباك قبل أن يتقدم أحدهم ليقول: إذن ترسل جنوداً لحراسته. فرد عليهم الأب سيزيد الطين بلة في هذه الحالة..

إقترح احدهم؛ يمكن إذن حراسة البيت بمفرزة من الجند ـ ويمكن تصور حالة المنطقة السادسة من الحادثة التالية: لم يعد مدير الاستخبارات الفرنسية الكومندان يشعر بالأمان فقد نقل منزله من طريق الصالحية إلى منزل بأحدى الثكنات وتذكر أليس بولو أن كل الفرنسيين لم يعودوا يشعرون بالأمان حتى أن دمشق أصبحت تشبه المدن التي تقع على مقربة من جبهات القتال في حالة الحرب.

في تاريخ ١٠ نيسان تذكر أليس بولو ما يلي: إن حي المهاجرين قد امتلأ بثوار جبل قاسيون ولذا فإن الميادنة الهاربين من رمي القنابل الفرنسية على حي

الميدان وجدوا أنفسهم مجبرين على العودة الى المدينة. وبعد احتلال القوات الفرنسية لشمال دمشق مرة ثانية طوقت جبل قاسيون وحاولت احتلاله ... ولكن التقدم على مشارف الجبال صعب. وكان سعيد عكاش يتخذ من مغارة كبيرة وسط الجبل، في قلبه مكاناً لقيادته ــ وجرت معركة عنيفة على سفوح الجبل قتل فيها المجاهد محمود عنتر، كما ذكرت ذلك جريدة المقتبس دون أن تستطيع القوات الفرنسية احتلال الجبل... ولكنها منعت المجاهدين من عودتهم الى مهاجمة منطقتي المهاجرين والعفيف.

وكانت السلطات العسكرية الفرنسية قد حاولت تطويق جبل قاسيون من الشمال وجرت معركة حلبون في بداية شهر كانون الأول ١٩٢٥ وذلك بعد معركة الزور القاسية التي حرق الفرنسيون فيها قرى الغوطة وساقوا كثيراً من سكانها إلى السجون واعدامهم كل هذا زاد في عدد الشباب المشتركين بالثورة حقداً على الفرنسيين وذلك لأن الفرنسيين قتلوا آباءهم واخوتهم الاطفال وهدموا بيوتهم وسرقوا متاعهم وقطعوا اشجار مزارعهم، ولم يبق لهم إلا أن يقاتلوا الفرنسيين.

وكان الثوار يقدمون لهم السلاح من الغنائم، أسلحة الفرنسيين، والمال من الضرائب التي يجمعونها من السكان، واهمها عشر حيوانات الماعز والأغنام والبقر والدواجن .. مقابل ايصالات ممهورة بخاتم خاص، و كان الختم باسم الغازي محمد سعيد عكاش وكتب في أعلاه ـ نصر من ا لله وفتح قريب، وبشر المؤمنين بمحمد. كما تقدم الأطعمة والألبسة وكل ما يلزم الثوار المجاهدين اقول بعد المعارك العنيفة في الغوطة وجسر تورا، قررت ثورة سعيد عكاش اخذ استراحة لها في جبل القلمون فانتقل الثوار من معربا الى قرية حلبون حيث كان

أولاد الحلال وأولاد عبدالعظيم، وبعد الإقامة في حلبون قام الخونة الحاقدون على أصدقاء الثورة لأن الثوار كانوا يدفعون ثمن طعامهم وشرابهم ــ اقول قام بعض الخونة بإخبار الفرنسيين فأرسل الفرنسيون قوة كبيرة معززة بالطائرات والمدفعيةالجبليةالتي تجرها البغال وعجلات مدافعها تشبه عجلات الطنابر ... باعتبار أن الطرق في جبال القلمون لم تكن جيدة وإنما ممرات للعربات فقط.

وفجأة شعر أهالي حلبون بالقوات الفرنسية تطوق البلدة وتضربها بالمدافع.

معركة حلبون :

جمع سعيد عكاش رجاله واعطاهم التعليمات اللازمة واخرج رشاشاً كبيراً وبدأ يضرب القوات الفرنسية، واشتد الرمي وأصيب، ولكنه كان لايبالي للاصابات الطفيفة لشدة بسالته وقوته وعزمه القوي وقد أصيب حصانه الأزرق في فخدة من شظايا القنابل، بعد ذلك فك الطوق عن القرية وانسحب مع رجاله إلى قرية افرة للتداوي والراحة ودخل الجنود قرية حلبون وأحرقوها وقتلوا من كان يتعاطف مع الثوار، وفي قرية أفرة، أقام الثوار خمسة أيام لمداواة الجرحى وانسحبوا بعدها إلى الأشرفية وعين الفيجة. كل هذه الاعمال الفرنسية الخالية من الأخلاق والفروسية مع السكان الابرياء من سرقة وقتل وتدمير واعتداء على النساء والاطفال وقتل الشيوخ بالادعاء بأنهم ثوار نجد اخلاق الفروسية والثقة عند الشعب السوري وتعاونه في الحادثة التالية وقد ذكرتها ديبة الموازين والدة سعيد عكاش: نزلت إلى دمشق واشتريت ادوية وشاشا وأطعمة واردت أخذ سيارة لنذهب بها إلى قرية الاشرفية مكان قيادة الثوار وكانت السيارات في دمشق قليلة وتعد على الاصابع وطلبت من قائد سيارة ان يوصلني إلى قرية الأشرفية فلم يقبل وتمنع بسبب وجود كمائن للثوار على جانبي الطريق

ـ وكان يوجد في دمشق صديق حميم لزوجي سعيد عكاش له متجر بسوق العتيق يدعى أبو أديب حسن الشطا ـ يسكن الآن في حي المهاجرين وله أراض في الديماس وجديدة يابوس ـ فتوسط عند بعض السائقين وتعهد له بأن لا يخاف وإذا أراد ثمن سيارته سيدفع له ثمنها لو حصل أي مكروه أو ضرر، فقبل السائق وأخذ كلام الوسيط ثقة وذهب معي بدون أن يعرف أني زوجة سعيد عكاش ـ وفي طريقنا الى الأشرفية صار يقول إن شاء ا لله لا يواجهنا احد من الثوار ـ ويدعو ا لله ان لا يقبضوا عليه وعلى سيارته لانه لايملك غيرها وهو يعتاش منها. وأنا اقول له لاتخف من الثوار اللهم نجينا من الجنود الفرنسيين.

وعندما وصلنا إلى أول نزله جديدة الشيباني (واسم المكان جبل وردي شان) وكانت الساعة حوالي العاشرة ليلاً فوجيء السائق بطلقات نارية كثيفة على جوانب السيارة وطلب من السائق ان يقف ـ فبدأ يبكي ويندب حظه وقال لي علقنا ـ أنا قلت لك اني لا أرغب في هذه السفرة رحنا نحن والسيارة، فقلت له لا تخف ولبي جميع طلباتي ولا تتكلم فوقف السائق وقد طلب منه كمين الثوار اطفاء الأنوار والترجل من السيارة لمشاهدة من في السيارة من الركاب، فخرجت من السيارة وبدأت أوبخ الرجال فلما سمع الرجال صوتي عرفوه جيداً، حاولوا الاعتذار وتصليح الخطأ الذي حصل وقالوا اننا نبحث عن الجنود الفرنسيين الهاربين إلى بيروت لنبادل بهم بعض الأبرياء المساجين في سجن القلعة قبل ان يعدمهم الفرنسيون ولا ذنب لهم... فطلبت منهم مرافقتي في السيارة إلى الأشرفية مكان قيادة الثورة وعند وصولنا قاموا باكرام السائق وضيافته وشكروه على توصيلي.. وعندما شاهد السائق ذلك قال وا لله لو أعلم انك زوجة سعيد عكاش واتية إلى مكان الثوار لنقلتك بدون مقابل... وكان

يروي هذه القصة على المسافرين من دمشق إلى عمان حيث يعمل بين دمشق وعمان والقدس.

ويمكن ذكر الحادثة التالية التي رواها مختار ناحية عين الفيجة سعيد عبدالواحد عن اعتقال المجاهد مسعود ناصر الدين.

داهمت القوات الفرنسية قرية عين الفيجة واعتقلت سبعة من السكان باعتبار انهم يبيعون الطعام إلى رجال ثورة عكاش، وقادتهم الى دمشق وفي الطريق بالقرب من قرية بسيمة التقى بهم سعيد عكاش فأوقف السيارة واعتقل الجنود الفرنسيين واطلق سراح المعتقلين. يقول وكان مسعود ناصر قد قبضت عليه السلطات الفرنسية وعذب خلال التحقيق كثيراً، طلب منه التعاون مع الفرنسيين لقتل الزعيم سعيد عكاش، ومساعدتهم لإلقاء القبض عليه. مقابل تنكة من الذهب وكانت والدته تذهب إلى القلعة لتقديم الطعام له فتشاهد ولدها مقيداً بالسلاسل فيحز الألم في قلبها على ولدها، وتخشى اعدامه... بعد ذلك ذهب والده إلى الزبداني للتوسط لدى توفيق الشماط. الذي وعدهم باخلاء سبيله فيما لو تعهد والده بعدم التحاقه في الثورة فكان أن وقع والده التعهد وخرج مسعود ناصر الدين من السجن إلى قرية عين الفيجة فقامت الافراح وزغردت النساء وذبحت الذبائح.

معركة برزة :

ومن معارك المنطقة السادسة معركة برزة في تشرين الثاني ١٩٢٥ يقول عنها المجاهد أبو سليم حنين من مجاهدي حي الميدان بدمشق. إنها أهم معركة أشتركت بها ١٩٢٥ ـ فقد كنا في قرية الست زينب ويقدر عددنا ١٦٠

مجاهداً فجاءنا أبو قاسم الدرخباني واخبرنا بوجود حملة فرنسية متجهة عن طريق الجبل إلى دوما..

فركبنا خيولنا إلى جوبر ومنها انطلقنا إلى برزه حيث قضينا ليلتنا هناك واجتمعنا بسعيد عكاش ورجاله... وعند الصباح تجمعنا ما بين برزه وجبل الأكراد أمام النهر حيث أخذنا الاستحكامات اللازمة بانتظار قدوم الحملة من دوما... وعند الظهر بدت علينا طلائع الحملة قادمة من دوما وكانت كبيرة تقدر بحوالي تسعة آلاف رجل. وفي اللحظة المناسبة فتحنا عليها النار لمدة ساعة تقريباً وبشكل مفاجئ .. لم تكن تتوقعه.. فقتل من أفراد الحملة أعداد لاتقدر، ولم يفقد من المجاهدين أحدا... ولما جاءت الدبابات لمساندة الحملة أخذنا بالانسحاب بشكل غير نظامي بعد أن ثقلت علينا وطأة النيران ومن أبرز المجاهدين الذين اشتركوا في معركة برزة.

سعيد عكاش ورجاله ـ أبو دياب البرازي ورجاله أبو قاسم الدرخباني ـ أبودياب سعيد كريشان ـ ومن مجاهدي الميدان والقيمرية حسني الحلاق (أبوعزو) رشدي عريضة ـ رسمي المهايني ـ جميل كدو محمود الهندي ـ خيرو الأشمر بشير القاق... حسن حمية، مصطفى وحسين حيدر، وبعض وجوه من آل دندش، فبلغت القوة التي تجمعت لديهم نحو مائة وخمسين مجاهداً، بين مشاة وفرسان.

وبعد أن تدارسو خطة احتلال المواقع العسكرية في بلدة بعلبك، تقرر أن يبدأ الهجوم عليها بعد غروب الشمس، فقسموا أنفسهم إلى عدة فئات مقاتلة، خاضت في وقت واحد معركة عنيفة، تمكنوا على إثرها من السيطرة عليها واضرام النار بدار الحكومة فيها، واخراج المعتقلين من سجنها والإستيلاء على

كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة. ثم سارعوا إلى الإنسحاب منها في الليلة ذاتها، ليذهبوا إلى الجرود المجاورة، تحسبا من الغارات الجوية على البلدة في صبيحة اليوم التالي.

ومن المعارك التي شهدتها المنطقة أيضا، معركة «اللبوة» الشهيرة، التي قاوم الثوار فيها جيشاً فرنسياً كبيراً تسانده الطائرات والاليات المدرعة والقطارات المصفحة، وكبدوه خسائر فادحة بالأرواح والمعدات، مما أثار حفيظة الفرنسيين وجعلهم يقدمون على تدمير القرى الثائرة وارتكاب الجرائم البشعة فيها.

وقد قامت السلطات الفرنسية في اليوم التالي باعتقال بعض المواطنين في بعلبك ولما لم تستطع اعتقال توفيق هولو حيدر اعتقلت زوجته... جاء في نشرة مكتب الاستعلامات السوري في القاهرة ما يلي:

وجهت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني بالقاهرة إلى جمعية الأمم في جنيف البرقية التالية:

احتجاج سجن المخدرات :

ما كفى السلطة الإفرنسية في سورية فظائعها المتتابعة وزجها رجال البلاد في السجون التي غصت بهم حتى بدأت بالقبض على النساء المخدرات من فضللى العائلات السورية المعروفة وفي مقدمتهن السيدة والدة توفيق بك هولو حيدر من الأسر الوجيهة في بعلبك وسورية، ونحن نكرر شكوانا إلى العالم المتمدن الممثل بشخصكم الموقر من هذه المظالم التي لا تطاق.

غادر الثوار بعد معركة النبك والقلمون إلى الغوطة وعندما وصلنا إلى قرية زبدين حضر في اليوم التالي بعض وجهاء قرية عين ترما واصطحبوا معهم الشاب السيد محمد الحمزاوي وأعادوه إلى والده بناء على طلبه.

بتنا ليلتنا دن أن ينزع أحد حذائه حتى الصباح، وقد حضر أبو أحمد محمد عكاش وبرفقته أخواه سعيد وعبدو وخاله وشاب آخر وكان عددهم خمسة أشخاص وكانوا مدججين بالسلاح الحربي، وكان مع أبوصياح عبدو عكاش رشيش في مخزنه بكرة محشوة بالفشكوقد اجتمعنافي المساء وقص علينا السيد سعيد عكاش ما فعله في القلمون واجتماعه مع أبناء طيفور، وجمعة سوسق ورجاله ومهاجمتهم الحامية في قلعة النبك واستسلام جميع أفرادها وإن القلمون قد انضم رجاله إلى صفوف الثورة وقد قاد مئة من أهالي جيرود سليم دعاس آغا الجيرودي كما قاد شباباً من أهالي الجودة في تلك المنطقة رمضان باشا شلاش وطهرت المنطقة من الإفرنسيين، توزع رجال الثورة على بيوت قرية زبدين وكان عددهم ثمانية وثلاثين ثائراً وفي اليوم الثاني سرنا من قرية زبدين في هاجرةالنهار إلىقرية سقبا وتخلف عن الركب كل من أبو دياب محمد البرازي وسعيد عدي، وحسن الزيبق، وسعيد عكاش وعبدو عكاش في دار أبو علي المطاوع ومكثنا في سقبا مما يقارب أربع ساعات.

فورد إلينا نبأ من أحد القرويين أنه شاهد حملة إفرنسية كبيرة تضم فئة من المدرعات والمدافع والرشاشات الكبيرة متجهة نحو أرض الزور وقد، انطلقت من شارع باب شرقي فنهضنا فوراً وأسرعنا إلى رواحلنا وسرنا بإتجاه قرية جسرين للوصول إلى قرية زبدين قبل أن يصلها الجيش الإفرنسي لم سراج السادة: البرازي والزيبق ووعدي والأخوين سعيد وعبدو الأغواني ومستو

الأغواني قد وصلوا أرض الزور قبل أن نصل جسر الغيضة لأننا بيننا مشاة ليس لديهم ما يركبون، وكان هذا من حظهم ومن حسن حظ البقية الذين تأخروا بالسير عن الطلائع.

معركة بسيمة في ١٥ كانون الثاني ١٩٢٦ :

بعد معركة الأشرفية والجديدة وبسيمة وسوق وادي بردى وكفير الزيت التي امتدت إثنا عشر يوما وقطع بها الخط الحديدي الواصل بين دمشق وبيروت ورياق وحلب قامت القوات الفرنسية بحرق القرى ومصادرة الأموال واعتقال النساء والمسنين من السكان حتى الأطفال، وقد حضر إلى قرية بسيمة عن طريق حلبون بعض مجموعات الثوار - البرازي والزيبق وسكر والملا – يريدون مجابهة القوات الفرنسية وكان في قرية بسيمة ثمانية من الثوار من مجموعة عكاش أتوا لمشاهدة أهلهم بعد معركة الجديدة والأشرفية وهم: محي الدين القادري، علي قاسم نصر الله وعباس علي عباس ومحمود القادري ومحمد حسن مهرة علي حسن عوض ومصطفى محي الدين القادري ومحمود محي الدين القادري.

خرج هؤلاء لملاقاة المجموعات الأربعة التي وصلت بعد انتهاء المعركة ورافقهم عبد الغفور القادري من قرية بسيمة وهو رجل موصوف بالرجولة والشجاعة وقد رحب بالثوار وقال لهم يا أصحابي ماذا تريدون ألا يكفي المنطقة، حرق الجديدة والأشرفية، أنا أريد المحافظة على قريتي، فرفضوا وأصروا على الاشتراك في مقاومة الفرنسيين عندها رفع بندقيته وصاح:

العز بضهور التنايا   والعمر عند الله وديعه
يا حاضر سوق المنايا   عار على اللي ما بيع

ومشى معهم إلى منطقة تدعى النقب بين الأشرفية وبسيمة.

ولما وصل إلى هناك لم يشاهد أحدا منهم فجلس مع رفاقه من ثوار سعيد عكاش ينتظر.

في الثانية بعد الظهر وصل إليهم خبر يفيد بأن حملة من الفرنسيين قادمة من وادي بسيمة من ظهر الجبل فأرسل محمد حسن مهره لاكتشاف الخبر ولما عاد أخبرهم أن أبو دياب البرازي مرابط في الجبل بين الصخور ويستعد لملاقات الفرنسيين، في الوقت الذي كان سعيد عكاش ورجاله مرابطين في منطقة دير مقرن خوفاً من نجدة تأتي عن طريق قطار الزبداني من البقاع وبيروت لأن خبرا وصله أن ٢٠ ألف جندي فرنسي تقدموا باتجاه الأشرفية لضرب رجاله.

المعركة في بسيمة :

عندها جمع عكاش رجاله واعترض الحملة، تقدم إلى المرتفعات المطلة على وادي الأشرفية من الجهة الغربية وذلك لمساعدة أبو دياب البرازي والرجال الثمانية الموجودين على المرتفعات الشرقية.

عند مشاهدة الحملة الفرنسية للثوار قصفت الأراضي المنتشرة عليها بالمدفعية المتمركزة على بيادر الجديدة ثم تتالت الإشتباكات في كل مكان على طرفي الوادي ولم تستطع القوة الفرنسية التقدم لصمود الثوار في كل مكان وقتالهم قتالاً مستميتاً.. ولما حان وقت الغروب خاف الفرنسيون من أن يقوم الثوار العارفين بطبيعة الأرض بتطويقهم وإبادتهم خلال الليل فانسحبت الحملة الفرنسية تاركة ٦٠ قتيلا في أرض المعركة وغنم الثورا سلاحهم وذخائرهم وقد جرح سعيد عكاش خلال المعركة من زنده.

وقد جاء في برقية القيادة الفرنسية عن هذه المعارك ما يلي:

بيروت ١٤ كانون الثاني ١٩٢٦

من الجيش الفرنسي في الشرق

عدة تدميرات نفذتها بعض العصابات بين الهامة والتكية وهي تتطلب عدة أيام من العمل ـ أفراد العصابة كانوا يستخدمون الأسلحة الرشاشة. وقد نفذت هذه العمليات وللمرة الأولى بمعارف فنية تدل على وجود عناصر غريبة الاتصالات الهاتفية مقطوعة.

طابور فيرجين وصل الى الهامة مساء ١٣ كانون الثاني.

وبعد يومين من المعركة داهمت القرية أي الأشرفية قوة كبيرة من السلطة من أجل إلقاء القبض على زعيم هذه الثورة سعيد عكاش ولما دخلوا قرية الأشرفية ولم يجدوا أحد من رجال الثورة قاموا بضرب الأهالي وملاحقة الذين فروا من القرية، وبعدها ألقوا القبض على ثمانية من وجهاء قرية الأشرفية وهم مختار الأشرفية أحمد علي اسماعيل الموازيني ـ علي بن محمد حمد ـ علي بن الشيخ عبد الرحيم القادري ـ الشيخ مصطفى كريكر ـ حسين أبو حطب ـ محمد أبو حطب ـ حسن محمد الخطيب ـ حسن رضا ـ وذهبوا بهم وهم في طريقهم الى دمشق، وبينما كان المجاهد محمد حسن مهره من قرية الأشرفية ذاهباً إلى قرية جمرايا عن طريق الجبل أعلم زعيم الثورة سعيد عكاش الموجود في الهامة بدار (مصطفى قمر) بالحادث فقام سعيد عكاش فورا مع رجال ثورته ورابط على الطريق بالقرب من الجديدة في منطقة (يقال لها جبل وردي شان) وعند قدوم السيارة المقلة للمعتقلين أطلقوا النار عليها وأسروا من فيها من متطوعين وانقذوا

جميع أهالي الأشرفية المعتقلين وكان اسم السائق (فؤاد السادات) وقد أخذوا المتطوعين الى قرية الأشرفية وأخذوا سلاحهم وفي اليوم الثاني اطلقوا سراحهم بعد أن أوصلوهم الى مطلات قاسيون.

أما عن معركة بسيمة فيقول محمد ماليل أحد رجال ثورة عكاش ما يلي:

في أوائل شهر شباط ١٩٢٦ كنا مرابطين في قرية الأشرفية حيث قيادتنا ومكان تموييننا وكان مجموع القوة، يعادل ٥٠ ثائراً ووصل إلينا أبو عبدو سكر من زعماء المجموعات الثائرة في الميدان وجماعته وأحمد الملا من زعماء المجموعات الثائرة في أكراد الصالحية وجماعته. فاستقبلناهم بالترحيب وتبين أنهم حضروا لمساعدتنا على قطع طريق دمشق بيروت حسب أوامر القيادة لحفظ ومساندة القوات الثائرة بقيادة زيد الأطرش التي تقاتل في سفوح الحرمون الشرقية واقليم البلان تحت راشيا حتى لايطوقوا ويضربوا من الخلف...

فذهبنا جميعاً إلى مكان يدعى المقبسم بين بسيمة والأشرفية... حيث قمنا بخلع السكة الحديدية، ورابطنا بين الصخور والأشجار حتى موعد وصول القطار. ولما وصل القطار وخرج عن الخط وتدهور، جرى إطلاق النار من الحامية المتمركزة في عربات القطار المصفحة، فرد الثوار على النار بالمثل. استبسل الثوار خلال ساعة وقتلوا جميع جنود الحماية وعددهم أكثر من ٤٠ جندياً وفر الباقون الى دمشق خلال البساتين وقد غنم الثوار خلال هذه المعركة أسلحة الجنود والسكر والرز والشاي أخذها أبو عبدو سكر وأحمد الملا، أما الأغنام فقد كانت من نصيب أولاد عكاش حتى جاء أصحابها من دمشق وصالحوا عليها.

بعد هذه المعركة توجه سعيد عكاش ورجاله إلى قرية حلبون عن طريق وادي بسيمة، والقسم الآخر عن طريق الدريج، وفي هذه المعركة سرقت فرس أبو عبدو سكر وعندما سأل عنها قيل له إن أولاد عكاش سرقوا الفرس ـ فذهب أبو عبدو سكر ورابط في عين الصاحب منتظراً مرور أولاد عكاش في طريق عودتهم الى الغوطة، ولما مر أولاد عكاش من عين الصاحب لم يشعروا إلا وهم محاصرين من رجال الميدان بقيادة ابو عبدو سكر، فسأل محمد عكاش عن الموضوع فقال فرسي، فقال لنذهب الى حلبون سعيد عكاش في حلبون وفي بيت الحلال بالذات اجتمع أبو عبدو سكر مع سعيد عكاش وعاتبه على سرقة الفرس.. فضرب عبدو عكاش بوق الاستنفار فاجتمع رجاله ما عدا إبراهيم الصالحاني... فأمر حالا الثوار بجلبه فأحضروه فكانت الفرس معه فاستلمها أبو عبدو وعانق أولاد عكاش وتمت المصالحة.

لم يقبل أولاد عكاش بما جرى لأنه مخالف للفروسية العربية وهو وصمة عار بجبين ابراهيم الصالحاني لذلك ضرب ووبخ وسحب سلاحه وفصل من ثورة أولاد عكاش فالتحق بثورة الاكراد (أحمد الملا) وصار ابراهيم صالحاني يتوعد سعيد عكاش وحاول اعتراض رجال ثورة عكاش عندما كانوا مرابطين في عين الصاحب وخاصة خلال محاولاتهم جلب التموين والاطعمة مما أدى الى مضاعفات خطيرة كما أن عصابة الملا صادرت بغلا محملا بالذخيرة مرسلا من وادي بردى الى حلبون وعين الصاحب فغضب سعيد عكاش وتوالت الخلافات وكان ابراهيم الصالحاني يقبض المال من الفرنسيين ليوقع بين المجموعتين الثائرتين وكل هذه الحوادث أدت الى مقتل أحمد الملا ثم قتل سعيد عكاش كما ورد عام ١٩٣٨ بعد عودته من مصر.

معركة عربين :

في صباح يوم الخامس من آذار اشتعلت معارك الثورة من جديد في منطقة عربين تقول أليس بولو في كتابها دمشق تحت القنابل ص ٣٠٣ ـ بين الساعة السابعة والعاشرة من صباح هذا اليوم عاد قصف القنابل مشابهاً لما جرى يوم ١٨ تشرين أول... «أي مثل يوم ضرب دمشق عندما احتلها الثوار».

وقال لنا جندي عاد لتوه من منطقة الإشتباكات إن معركة عنيفة تدور رحاها الآن في منطقة عربين على بعد خمسة كيلومترات من المستشفى الإنكليزي. ومكان المعركة هو المطارح ويحدثنا المجاهد سعيد عبد العال من أبناء الميدان بدمشق عنها فيقول هي واحدة من المعارك التي اشترك فيها ضد جنود الإحتلال وحدثت في عربين على الطريق بين دمشق والقطيفة.

فقد أرادت قوات الاحتلال الفرنسية استبدال حاميتها في دوما بحامية جديدة قدر عدد جنوها بـ (٤٠٠٠) جندي وقد وصلت معلومات حول هذه الحامية من الكابتين عطاف باشا أحد الضباط الجزائريين في الجيش الفرنسي الذي كان متعاطفاً مع الثوار السوريين...

قبل عدة أيام من الحادثة كان سعيد عكاش ورجاله قد زحفوا إلى مسرابا وجوبر وهاجموا الجنود القائمين بقطع أشجار الغوطة بالقرب من الطريق العام لتوسيع دائرة الرؤية، وإبعاد الثوار عن الأشجار التي يحتمون بها. وقد اشترك معهم أهالي جوبر. فقد كانوا يريدون المحافظة على سلامة أشجار الجوز في بساتينهم، وقتلوا بعض الجنود الفرنسيين ثم ساروا مع قوة من رجال حسن الخراط باتجاه باب شرقي حيث كان الجنود الفرنسيون يعتدون على سكان

الغوطة الذين يحملون نتاج حقولهم إلى دمشق من مركزهم في معمل الزجاج وقد أوقفه الفرنسيون عن العمل واستعملوا المعمل كثكنة عسكرية لمضايقة السكان ولكن الثوار لم يستطيعوا احتلال المعمل لارتفاع اسواره فذهبوا إلى المبيت في قرية بيت سحم...

في اليوم التالي هاجم الثوار مغافر الشرطة في السنانية والدرويشية والمسلخ وطريق الشاغور وعادوا إلى زبدين.

ومن زبدين انتقل عبدو عكاش مع رجاله إلى عربين برفقة أبو دياب البرازي ورجاله بناء على إخبار الكابتين عطاف باشا وقد حمل المجاهدون معهم مدفعاً أرسل إليهم من قبل قائد الثورة سلطان باشا فسحب على بقرة من سقبا والمدفع من عيار «٣,٥» انش ولما علمت السلطة الفرنسية بخروج الثوار لملاقاة الحملة ارسلت مدرعات لنجدة الحملة...

وقد وضع الثوار المدفع تحت الأشجار وتم تجهيزه وعندما هموا بإطلاق النار على المدرعات لم ينطلق بسبب أن بعض البراغي قد احتفظ بها السيد خليل ملحس وهكذا فقد مرت المصفحات دون أن يتمكن الثوار من إبادتها.

نزل بعض الجنود من سيارة عسكرية لمعاينة العبارة التي على الطريق بالقرب من عربين ولما وجدوها مخربة حاولوا وضع بعض ألواح الخشب لتسهيل مرور المصفحات ففتح الثورا عليهم النار، واحرقوا الجنود ولكن المصفحات ردت على النار بنيران غزيرة من مدافعها ورشاشاتها ... وكانت القنابل تتساقط في منطقة تمركز المجاهدين كالبرد والمطر... وبعد معركة عنيفة امتدت حتى غروب شمس يوم (٥) آذار أرغمت المدرعات على التراجع وأسرع محمد

أبو يحي بمطاردة المدرعات ممتطياً جواده حتى وصل إلى شارع القصاع بجوار المشفى الإنكليزي.

أما أولاد عكاش ورجالهم فإنهم غادروا عربين واشتبكوا بحرستا مع المدرعات التي اجتازت القناة في منطقة حرستا وكان هدفهم منع وصول الحملة إلى دوما وبالفعل حوصرت المدرعات السبع في حرستا من قبل الثوار وقتل في المعركة محمد بن حسن اسماعيل وابراهيم من قرية هريرة وجرح الطناني ... وقد استمرت المعركة حتى فرت المدرعات فانسحب الثوار حتى لاتلحق بهم القوات الفرنسية التي أرسلت من دمشق...

عند وصول حملة المشاة إلى فكي الكماشة على طرفي الطريق من المجموعتين من الثوار المرابطين بدأ الثوار باطلاق النار والاشتباك معهم واستمرت المعركة ثلاث ساعات حشر بها الفرنسيون قرابة ٨٠٠ جندي وتم تعطيل عدة مصفحات وغنم الثوار بعض الأسلحة والذخائر وخسر الثوار شهيداً واحداً وفرساً وأصيب عدد قليل من الثوار بجروح... وإن المجاهد الذي استشهد في هذه المعركة هو من عداد رجال ثورة سعيد عكاش واسمه ديب علي بكري ودفن في قرية عربين ـ ومجاهد آخر توفي لاصابته بعد المعركة هو اسماعيل حسين الموازيني من قرية الأشرفية.

وعند انتهاء ذخيرة الثوار انسحبوا الى مواقعهم في الزور وتابعت بقايا الحملة طريقها الى دوما...

ولو كان التعاون في ذلك الوقت بين فئات الثورة كاملاً لأبيدت القوة بكاملها... ولكن التعاون كان بين مجموعة أبو دياب البرازي ومجموعة سعيد

عكاش كاملاً حتى في معارك وادي بردى لضرب القطارات بين دمشق وبيروت كما حدث في معركة الجديدة بتاريخ ٢٥ كانون الثاني ١٩٢٦ وبينما كنا نخرج من قرية عربين الى المقبرة (المدفن) إذ حلقت إحدى الطائرات الفرنسية فوق القرية فأسرعنا بالتواري عن أنظار الطيران ودخلنا الحقول تحت شجر الزيتون فاتجهت الطيارة نحو البساتين وحلقت على علو منخفض تفتش عن فريستها فصوب الثوار بنادقهم عليها وأصلوها بوابل من الرصاص وقد ألقت حمولتها من القنابل في الحقول بدون تعيين وقد شاهدناها وهي تهبط على الأرض فلحقنا بها إلى أن وجدناها تحترق بجانب مزرعة نصري القريبة من مدخل باب توما وكان فرح المجاهدين عظيماً فوقفوا صفا واحدا تحت شجر الزيتون وكان قسم منهم يحمل بعض الآلات الموسيقيه التي أحضروها من القلمون فعزفوا بأبواقها ودقوا في طبولها على قدر الإمكان واستعرض السيد حسن الخراط صف الثوار فسلم عليهم وهو يضحك...

وفي هذه الأثناء حلقت بعض الطائرات في سماء الغوطة وخرجت قوة من الجيش الفرنسي لاحضار الطيار وطائرته المصابة فأسرع الثوار لملاقاة الجنود على الطريق العام وبقيت مع أبو أحمد محمد عكاش في أرض مسورة بالدكوك وهي عبارة عن جدران من التراب تفصل الحقول بعضها عن بعض حسب ملكيتها وهذه الدكوك ساعدت الثوار في القتال ضد الفرنسيين.. وطلب محمد عكاش من أخيه عبدو أن يكون بجانبه فلم يقبل إلا الإلتحاق بالمجاهدين على الطريق العام، وكلمة حق سجلها حيث هي: أن البطولة والفروسية والرجولة التي كانت تصدر من هذا الشاب في العقد الثاني من عمره كانت منقطعة النظير إذ كان يطلب الموت ولا يهاب أحداً. وقال مخاطباً أخاه محمد: أنا لا أريد أن

يقال عني بأنني قد تواريت عن القتال ومكثت وراء الدك أراقب الخيل المرابطة في هذا الحقل، نهض واقفاً وبسرعة البرق متحدياً قول أخيه والتحق بإخوانه المجاهدين على الطريق العام ولحقت بأثره بعدما سمعت منه قوله.

معركة النبك :

ثار القلمون مثل باقي المناطق في سورية وخاصة سورية الجنوبية، حوران ودمشق وجبل الدروز وتبعته منطقة القلمون رغم جردها وخلوها من الشجر. وقد تزعم الثورة في القلمون:

١ ـ جمعة سوسق من قرية رنكوس قام مع مجموعة من المجاهدين واتصل بسعيد عكاش وتعاون معه، اتصلت ثورته بثورة وادي بردى كما تعاون مع رجال باقي المناطق الثائرين في القلمون وباقي مناطق القلمون.

٢ ـ أحمد طيقور وخالد النفوري وغيرهما من وجهاء النبك، تزعموا رجال النبك الثائرين وقادوهم في المعارك.

٣ ـ مجموعة محمد محسن من قرية الجبة غربي النبك.

٤ ـ آل دعاس أبو سلطان من جيرود وكان عملهم قطع خط تدمر على سرية من الهجانة المتمركزة في تدمر ومعها عدة طائرات وقد استطاع البدو من آل الملحم والشعلان حصار المنطقة وتجميد هذه القوة لمدة تفوق الشهر وتجويعها.

٥ ـ اتصلت هذه المجموعات الثائرة وساندت المجموعات التالية:

١ ـ توفيق هولو حيدر في بعلبك التي ساهمت مع القلمون في السيطرة

على مدينة بعلبك وإخراج السجناء من قلعتها بتعاونها مع مجموعة الثائر سعيد عكاش كما ساهمت بقطع خط التموين في طريق القلمون عن القوات الفرنسية في مدينة دمشق.

٢ ـ مجموعة حسن الخراط وقد خرجت من الغوطة بعد توقف معارك جسرتورا بسبب الحصار المضروب على طريق وادي بردى من مجموعة عكاش.

٣ ـ مجموعة سعيد عكاش والتي كانت مسؤولة عن المنطقة السادسة، المهاجرين ووادي بردى حيث انتقلت عن طريق الجبال إلى رنكوس ثم معلولا إلى النبك والتقت بمجموعات الثوار في غوطة دمشق لمنع امداد القوات الفرنسية المحاصرة في المدينة.

عن المعركة يقول السيد محمد حسن مهرة أحد رجال ثورة سعيد عكاش بعد أن حضر المعركة بقينا في النبك ثلاثة أيام ونحن نتربص للحملة الفرنسية المتقدمة من حمص، وفي اليوم الثالث جاءت أخبار تفيد عن تقدم الحملة ـ فذهبنا ورابطنا على جوانب الطريق العام شمال قرية النبك. وصدرت الأوامر من سعيد عكاش بعدم اطلاق النار حتى تدخل الحملة في النطاق المجدي للأسلحة الموجودة معنا... وبقينا متربصين حتى وصلت الحملة وفي مقدمتها ثلاث مصفحات ... ولما وصلت المصفحات إلى نهاية كماشة الثوار أمر سعيد عكاش بإطلاق النار وبدأت المعركة، وأخذ جميع الثوار يطلقون النار على الفرنسيين وكان معنا رشاش كبير غنمناه من قطار بيروت يطلق النار بغزارة ـ ولكن الجنود الفرنسيين المحمولين على السيارات نزلوا إلى الأرض وبادلناهم اطلاق النار.

وتقدم المجاهد محمود متاعة الملقب بالشيخ خالد وقبض على رامي

المصفحة وضربه في رأسه حتى قتله... وكانت المعركة عنيفة جداً استبسل فيها الثوار وقتلنا جميع جنود الحملة الفرنسية وغنمنا نحن مجموعة سعيد عكاش رشاشاً كبيراً بقي بحوزتنا حتى نهاية الثورة وقد حضر أهالي النبك بعد انتهاء المعركة وأخذوا حمولة السيارات.

وقد أقيم بعد الاستقلال نصب يخلد هذه المعركة من معارك الحرية والاستقلال في سورية لايزال إلى الآن غرب الطريق من حمص إلى دمشق شمال النبك عند منعطف الطريق حيث جرت المعركة...

وبعد انتهاء المعركة عدنا إلى منطقة دمشق. وذلك خلال الليل خوفا من الطائرات الفرنسية التي حضرت إلى أرض المعركة وبدأت بملاحقتنا ـ ونزلنا في قرية زبدين. وفي اليوم التالي حضر وجهاء قرية عين ترما واصطحبوا معهم الشاب محمد الحمزاوي وأعادوه إلى والده بناء على طلبه. بتنا ليلتنا دون أن ينزع احد أحذيته إلى الصباح، وقد حضر إلينا أحمد عكاش وإخوته وكان معهم رشيش في مخزنه بكرة محشوة بالفشك. وقصوا علينا تعاونهم مع ابناء طيفور وجمعة سوسق.. ومهاجمتهم الحامية العسكرية في قلعة النبك وانضمام مائة من أهالي جيرود بقيادة سليم الدعاس إلى الثوار كما اشترك شباب كثر من أهالي المنطقة في تلك المعركة وكذلك رمضان باشا شلاش. في اليوم التالي توجهنا إلى قرية سقبا، وتخلف عن الركب الثوار أبو دياب البراري وسعيد عكاش وإخوته ورجاله.

معركة بعلبك

يقول المجاهد محمد ماليل من رجال سعيد عكاش

قام الفرنسيون في منطقة البقاع المجاورة لمنطقتنا بالضغط على الأهلين

واعتقال كافة الرجال الوطنين في منطقة بعلبك فوجه هولو حيدر نداء استغاثة إلى المجموعات الثورية في منطقة دمشق والقلمون لإنجاده وتخليص الوطنيين المسجونيين في قلعة بعلبك وعندما وصلت الرسالة إلى سعيد عكاش قرر الذهاب إلى بعلبك واستدعى رجاله المجاهدين للإجتماع في قرية الأشرفية، وحضر أكثر من مائة فارس من خيالة ومشاة منهم عبد الجليل العيطة فارس خضير يوسف المعضماني ومحمد ماليل خليل الحطب عبد العال المصري حسن الخواجة وعبد الوهاب حسون الداري وحسين الجوخدار واسماعيل الجوخدار وسعيد المدني وأحمد عثمان ومحمد الكحيل عبدالمالك حمزة مسلم عرموش أحمد مسعود الحناوي مسعود ناصر الدين وأحمد سلوم وحمزة القادري بن وردة وعلي عثمان ومحمد حسن مهرة وأسعد خطار حجلة وعلي حسن عوض وعباس علي عباس ومحمود عنتر علي السرعبني وكامل مسرابا أبو محي الدين ومسلم حوا وسعيد المغربي وأبو علي مروش واتجهنا نحو جبال سرغايا الشرقية مساء، ثم دخلنا قرية معربو على الحدود السورية اللبنانية فعين البيضا، وهناك توقفنا للإستراحة وفي الصباح توجهنا إلى عين سباط في الجبل الشرقي وكان هناك في انتظارنا الزعيم توفيق هولو ومعه رجاله الثوار وأصبحنا قوة ضاربه كبيرة لايستهان بها.....

وانضاف إلى المجاهدين السيد فياض اسماعيل ومعه بضعة رجال وهناك وضعت خطة الهجوم في مرزعة بنفس المنطقة.

واسند إلى كل زعيم ثورة مهمة يقوم بتنفيذها مع رجاله. وتوجهنا في ليلة ١٩ - ٢٠ أيار ١٩٢٦ الساعة التاسعة ليلا إلى بعلبك المدينة وقام رجال السيد توفيق هولو حيدر والسيد فياض اسماعيل باعتقال الرجال المسؤولين والموالين للفرنسيين في البلدة وخاصة منطقة رأس العين بجانب مدينة بعلبك حيث يتجمع

رجال المسؤولين، كما قطعت خطوط الهاتف المتجه إلى البلدة حتى لا يطلب الجنود الفرنسيين الإمدادات.

وكان بعض المسؤولين يقيمون في فندق بمنطقة رأس العين. فاعتقلوا أما مجموعتنا فقد ركزت نيرانها على قلعة بعلبك واطلقنا النار بغزارة على القلعة حتى لايخرج منها الجنود لنصرة المسؤولين في البلدة.

انقسمت قوات هولو حيدر إلى ثلاث فئات:

الأولى حاصرت رأس العين وقبضت على المسؤولين بها واحتلت المنطقة.

والثانية احتلت الفنادق وبدأت التفتيش عن محافظ بعلبك الذي فر من منزله.

أما المجموعة الثالثة فقد تجولت في البلدة لتعلن سيطرة الثورة على البلدة. في الوقت الذي جمدت قوتنا القوات الفرنسية وقوات الدرك الموجود في القلعة، بعد إتمام الإعتقالات قامت مجموعتان من قوات سعيد عكاش، الأولى قامت بمهاجمة القلعة وكسرت الباب الخارجي ثم دخلت القلعة غير مبالية بنيران الرشاشات.

وقد ألقت القنابل اليدوية بغزارة حتى يغطي دخانها المهاجمين حيث استولت على الأسلحة والذخائر وأطلقت سراح الوطنيين المعتقلين.

بعد ذلك قامت المجموعة الثانية إلى دار الحكومة السرايا فأطلق رجالها النار على خزان الوقود الموجود على سطح المبنى فاشتعلت النيران واتت على بناء السرايا وكل ما فيه من أثاث وأوراق حتى أصبحت رمادا لم يبق منها إلا

الجدران، وذهبت فئة أخرى إلى دار البريد والبرق وإلى دائرة الديون العامة فحطموا الأبواب والنوافذ وحرقوا الموجودات وكسروا ما وجدوه من أثاث.

وقد سمع الجنود الموجودون في المدينة أصوات الرشاشات والقنابل اليدوية وشاهدوا نيران الحرائق... وهدير صوت الثوار ونداءاتهم ا لله أكبر....

هلل المواطنون لأعمال المجاهدين سعيد عكاش، وتوفيق هولو حيدر وفياض اسماعيل. وخاصة عند إحراق دفاتر الديون العامة أمام السرايا.

بحضور الزعماء الثلاثة سعيد عكاش وتوفيق هولو وفياض شهاب. وأهالي المدينة. فزغردت النساء، وهتف الجميع بحياة الثورة ومطالبتها بالاستقلال.

أما ثكنة الشيخ عبد ا لله فقد حاصرها الثوار من أطرافها الأربعة ووطلبوا من الجنود التسليم فرفضوا معتمدين على السور العالي الذي يجعل القلعة حصينة ونشبت معركة طويلة بين الطرفين. ولكن جماعة سعيد عكاش خشيت وصول النجدات الفرنسية من رياق عن طريق الخط الحديدي أو من حمص بعد أن شاهد الثوار إشارات الإستغاثة الضوئية تصدر بكثرة عن القلعة والثكنة لذلك اثروا الانسحاب عن طريق «قرنه» وبذلك دخلوا الأراضي السورية حيث يسيطر الثوار على القلمون فاستقبلهم زعيم ثورة رنكوس جمعة سوسق وهنأهم بالسلامة ومن رنكوس عدنا إلى وادي بردى.

أما جريدة المقتبس للاستاذ محمد كرد علي الذي كان يتعاون مع الفرنسيين ويقبض منهم المال كما ورد في كتاب الدكتور كوثراني عن تاريخ سورية فقد ورد في العدد ٤٥١٧ تاريخ ٢٦ أيار ١٩٢٦ السنة السابعة عشر.

«ونشرنا في عدد مضى حادث بعلبك كما اتصل بنا وقد جاءنا من بعلبك أن عصابة سعيد عكاش انضمت إلى عصابة توفيق هولو حيدر المرابطة في الجبل الشرقي المحيط ببعلبك وقد أصبح عدد هاتين العصابتين ٤٠٠ ثائراً وانضم إليها فياض اسماعيل مدير بريتال وقرروا مهاجمة بعلبك ليلا فقطعوا الخط وأسلاك البرق والهاتف وفي ليل ٩ الجاري نحو الساعة التاسعةوالنصف احاطوا مدينة الشمس من أطرافها الأربعة وهاجموها وأخذوا يطلقون النار وانقسموا إلى فئات وقصدت فئة منهم بقيادة توفيق هولو حيدر إلى نزل خوام في رأس العين فتناولوا طعام العشاء وألقى توفيق هولو خطابا على مسمع من النازلين في الفندق ومما قاله «اننا لانريد شراً بأحد» وهم أحد رفاقه أن يأخذ فيليب أفندي نادر أحد مهندسي النافعة وعقيلته النازلين في الفندق المذكور فمنعه توفيق من ذلك وقد توجهت فئة من الثوار إلى دار الحكومة فأشعلت النار فيها فجعلتها رماداً تذروه الرياح بجميع ما فيها ولم يبق إلا جدرانها.وذهب فريق إلى أدارة البرق والبريد وإلى دائرة الديون العامة فحطموا الباب وكسروا ما وجدوه من الأثاث وأخذوا موجودات الصناديق.

وقصدت فئة بقيادة مصطفى عقيل حيدر في ذلك المساء ـ وكأنه يعلم بالحادثة قبل وقوعه ـ وذهب إلى المحطة حيث تعسكر فرقة من الجند.

وقد اعترض الخواجة فضل ا لله قرعة صاحب نزل سنترال الثوار وحاول المقاومة فقتلوه طعناً بالخناجر واعتقلوا من نزلاء الفندق المذكور يوسف أفندي رشيد مراد.

وذهب قسم من الثوار إلى دار كان يقيم فيه المستنطق نصري افندي

نصار بغية اعتقاله فلم يجدوه وكان قد نقل إلى منطقة أخرى قبل بضعة أيام ثم قصدوا دار محمد سعيد أفندي المرتضى قاضي المدينة بغية اعتقاله فلم يعثروا عليه.

وأخذوا خيل عربتي خليل عساف وحبيب الجليلاتي وقد قاومهم الجند بشدة وتعالت أصوات الرشاشات والقنابل اليدوية وكانت ليلة ليلاء لم تشاهد بعلبك مثلها وظلت بعلبك وسط النار الحامية حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل حيث انسحب الثوار إلى ناحية قرية نحلة في الجرد الشرقي.

وقد كان عدد الثوار الذين هاجموا بعلبك يتراوح بين ١٥٠ و ٢٠٠ مجاهداً وكان على رأسهم سعيد عكاش وأخوه وتوفيق هولو حيدر وفياض اسماعيل مدير بريتال السابق ومصفطى عقيل حيدر شقيق السيد لطفي عقيل الذي اعتقلته الحكومة منذ أيام في بعبدا.

وقد تمكنوا من إخراج المسجونين ولم يكن في مدينة بعلبك من الجند إلا زهاء ثلاثين دركياً أقاموا في دار الحكومة والقسم الأكبر منهم في الثكنة العسكرية.

وقد أحرق المجاهدون دفاتر دائرة الديون العامة أمام دار الحكومة وحاولوا اختطاف السيد قاسم مرتضى رئيس البلدية فلم يعثروا عليه أما يوسف الذي اختطفوه فهو نجل رشيد أفندي عضو مجلس الإدارة.

وقد بعثوا كتبا إلى عائلات الذين اعتقلوهم يطلبون عن كل واحد ٤٠٠ ليرة ذهبية ليخلوا سبيلهم.

وقد أحاط الثوار بالثكنة العسكرية من جهاتها الأربع وطلبوا من الجنود التسليم فرفضوا والثكنة محكمة البناء والتحصين فنشبت بين الطرفين معركة حامية الوطيس.

كما نشرت جريدة القبس تحت عنوان «عصابتا حيدر وعكاش» اتصل بجريدة الأوريان أن قسماً من عصابة حيدر وعكاش التي أغارت على بعلبك قد ذهبت إلى جهات حماة والتقت هناك بقوة من الدرك لمصادرتها فكبدتها خسائر جسيمة.

ومع ذلك فإن أهالي بعلبك ما زالوا يتلقون من حيدر كتباً تهديدية يطلب من الأغنياء دراهم.

أما الفرنسيون فقد احالوا أوراق بأسماء الذين قبض عليهم من بعلبك والقرى المجاورة لها إلى الديوان الحربي العسكري في بيروت لمحاكمتهم... بتهمة اشتراكهم في حادث بعلبك الأخير.

أما من دخل من الثوار إلى حمص فإن ثمانية منهم اخذوا يتجولون في منتزه الميماس دون أن يتعرضوا لأحد وعندما وقع نظرهم على خالد الزابيجي انهالوا عليه بالضرب الشديد قائلين له انت بوليس سري وقد أرادوا قتله غير أن الحاضرين تشفعوا به فتركوه.

وكنا قد اشرنا من قبل إلى اتصال المجاهد توفيق هولو حيدر بنا في الجبل وأنه اشعرنا باستعداده لإشعال نار الثورة في بعلبك ونواحيها فزودناه ببعض الأسلحة الثقيلة التي كسبناها في معركة المزرعة وألححنا عليه بضرورة التعاون

مع العناصر الوطنية في منطقته وربط نشاطه بنشاط المجاهدين في الهرمل وحمص وحماه والقلمون وكنا قد عهدنا أيضاً إلى المجاهد كنج صلاح بحمل رسائلنا إلى زعماء المنطقة لحثهم علىرفع راية الجهاد ونشر الثورة فيها، وفي مقدمتهم الوجيه المعروف ملحم قاسم في البقاع، والجعافره في الشمال. ثم حاول اخي زيد اثناء وجوده في الاقليم، ان يتصل بالقادة انفسهم للغاية نفسها، غير ان نشاطهم ظل مقتصراً على مضايقة قوات الدرك والقناصة اللبنانية، إلى ان توجه المجاهد سعيد عكاش على رأس قوة تقدر بنحو خمسين مجاهدا، واجتمعوا بتوفيق هولوا حيدر في مزرعة (عين سباط) وحضر الإجتماع فياض اسماعيل (قريب ملحم قاسم) حسن حميه، مصطفى وحسين حيدر، وبعض وجوه من آل دندش. في أعقاب هذه المعركة. أخذت الطائرات الفرنسية تجوب سماء منطقة بعلبك، وترمي قنابلها على القرى الآمنة، وتصوب نيران رشاشاتها على قطعان الماعز ورعاتها. ثم سارعت إلى إقامة الحاميات والمخافر العسكرية حول المنطقة، في زيتا والقاع وبله ووادي خالد والهرمل ورأس بعلبك وبله. مما ضاعف من مخاوف الأهالي وزعماء المنطقة وصار البعض يلوم الآخرين على الاشتراك بالثورة، واتصل الفرنسيون بآل حماده وأقنعوهم بعدم الانجراف مع الثوار وطلبوا منهم السعي لدى عشائرهم لوقف القتال والاستسلام للسلطة على يد الكابتين ـ ماميه ـ الذي وعد باسم المراجع الفرنسية العليا بالعفو عن الثائرين وعدم مطالبتهم بأي تعويض أو غرامة حربية. وقد أثر الثائر فياض شهاب الاستسلام إلى الفرنسيين والانسحاب من الثورة. يقول الدكتور مهيب حمادة في كتابه علاقة البقاعيين بالسوريين واستراتيجية البقاع في المواجهة السورية الإسرائيلية: إن عصابة فياض شهاب استسلمت للسلطة بواسطة صبري حمادة وأحمد الحسيني.

كان لاستسلام فياض شهاب ومجموعته صدى سيء عند الوطنيين في سوريا الذين بعثو له الرسائل العديدة طالبين منه العودة عن قرار استسلامه للسلطة، مشيدين بنخوته العربية وأهمية استمراره بالثورة. فوصلت له رسائل من سعيد عكاش وجمعة سوسق وفوزي القاوقجي تحثه على ذلك. وكان من شروط استسلامه للسلطة أن دفعت كل قرية حور تعلا ١٠٠ ليرة ذهبية ومئة وعشرون بندقية. بينما بقي توفيق هولو حيدر على رأس ثوار منطقة بعلبك.

ولما لم تستطع السلطات الفرنسية اخضاع توفيق هولو حيدر اعتقلت زوجه كما جاء في نشرة مكتب الاستعلامات السوري في القاهرة حيث وجه المكتب .برقية احتجاج إلى جمعية الأمم في جنيف.

ومن المعارك التي شهدتها المنطقة أيضاًن معركة «اللبوة» الشهيرة، التي قاوم الثوار فيها جيشاً فرنسياً كبيراً تسانده الطائرات والاليات المدرعة والقطارات المصفحة، وكبدوه خسائر فادحة بالأرواح والمعدات، مما أثار حفيظة الفرنسيين وجعلهم يقدمون على تدمير القرى الثائره وارتكاب الجرائم البشعة فيها.

وقد قامت السلطات الفرنسية في اليوم التالي باعتقال بعض المواطنين في بعلبك ولما لم تستطع اعتقال توفيق هولو حيدر اعتقلت زوجه...

معركة الأشرفية
٢٩ حزيران ١٩٢٦

للمحافظة على سير الخط الحديدي بين دمشق وبيروت وهو يؤلف خط التموين والاتصال الرئيسي للقوات الفرنسية بدمشق... أقام السيد بيجان مستشار شرطة دمشق مجموعات من المسلحين على طول الخط الحديدي بين سرغايا ودمشق بأمرة السيد توفيق الشماط من سرغايا، وانضم إليهم بعض رجال قرية بريتال وقد وفرت السلطة الفرنسية المال للسيد توفيق وأعطته رتبة نقيب بالجيش الفرنسي. وقام بانتقاء الأشخاص المتعاونين معه، ووزع عليهم الأموال والأسلحة وسيرت قطارين مصفحين الأول ينطلق من دمشق والثاني من بيروت دون أن يقف في المحطات المحروقة سوى الزبداني... لكن ثوار دمر والمنطقة السادسة لم يقبلوا بهذا التحدي بل سارع سعيد عكاش وإخوته ورجالهم ووضعوا ناسفة تحت الخط... وعند مرور القطار عليها انفجرت فخرج القطار عن سيره وتحطمت بعض عرباته، وأطلقوا النار على من فيه فأبادوهم...

وعلى أثر هذه العملية التي تمت في ٢٩ حزيران ــ قام توفيق الشماط ورجاله بمهاجمة قرية الأشرفية، وجرت معركة كبيرة بين رجال سعيد عكاش وبينه وأثناء المعركة وصل قطاران من دمشق والزبداني وبداخلهما عدد كبير

من الجنود الفرنسيين ونزل الجنود من القطارين واشتبكوا مع قوات الثورة بمعركة ساخنة، استمرت ساعة ونصف خسر فيها الفرنسيون كثيراً من جنودهم.

معارك الصبورة ويعفور وقدسياً ومقتل عبدو عكاش :

بعد سيطرة الثورة على طريق وادي بردى وضرب السكة الحديدية كان لابد من إغلاق الطريق المؤدية من دير العشائر إلى الصبورة ثم إلى قطنا لتطويق دمشق وعزل الجنود الموجودين بها عن مراكز امدادهم في لبنان. بينما يقوم باقي الثوار بقطع طريقا القلمون والحرمون عن طريقا النبك والقنيطرة، وقد كان طريق القنيطرة مقطوعا بفعل القتال الدائر في راشيا وجباتا وإقليم البلان، لذلك كان احتلال قطنا وضرب السرايا وأخذ الأسلحة الموجودة فيها، ضروري لإتصال جماعات الثوار بعضها البعض ... وأحكام الطوق من حول دمشق لذلك توجه سعيد عكاش مع ورفاقه إلى قطنا عن طريق الصبورة... وفي صحراء الديماس بالقرب من الصبورة هاجمت الطائرات الفرنسية المجاهدين ورمتهم بوابل من القنابل فاختبأ المجاهدون بأطراف القرية وتحت الأشجار وأطلقوا نار بنادقهم على الطائرات ... التي لم تجد أمامها أهدافاً إلا القرية الآمنة فصبت قنابلها وقتلت بعض السكان وبعض النساء اللواتي كن يخبزن أمام التنور. ويظهر أن هذا ما لفت انتباه الطيار الذي القى قنابله.

عندها صدرت الأوامر إلى المجاهدين بالتفرق إلى قرى رأس العين وقدسياً والهامة ودمر... ويعفور .

فذهب سعيد عكاش إلى يعفور ورأس العين وذهب عبدو عكاش مع إثنين

من المجاهدين إلى قدسياً ... وباتوا في منزل مصطفى حسن ... وكان من المجاهدين ويتقاضى راتباً من الدولة.. ولكن بعض الخونة من عيون الجيش الفرنسي، نقلوا إلى الفرنسيين خبر وجود عبدو عكاش ورفاقه في قرية قدسيا.

لم يكن القائد الفرنسي الكولونيل كوليه يعلم بوجود بعض أولاد عكاش وقسم من رجالهم في قرية قدسيا واعتبرها الفرصة السانحة والذهبية للقضاء على هذه المجموعة من المجاهدين التي رفضت كل عروضه للاتفاق معه تلك العروض المالية والإدارية ... المجزية مقابل حماية الخط الحديدي والطريق إلى بيروت.

لذلك جمع رجاله من الشركس والمغاربة والسنغال .. والسودان، وقسمهم إلى فيالق مختلفة، وكلهم خيالة وسار بهم إلى قدسياً وطوق البلدة من الغرب فوضع مفرزة في أعلى التلال المشرفة على البلدة للفصل بينها وبين قوات النجدة التي يمكن أن تحضر، ثم بدأ بدخول البلدة بحذر كبير فأغلق حارات البلدة برجاله ليمنع الاتصال بينها حتى لا يهاجم من الخلف ثم دخلوا الحارة التي تحوي بيت المجاهد مصطفى حسن وكان باب البيت قد وضعت عليه شارة بالطبشور الأحمر دائرية الشكل من قبل رجال الفرنسيين لتشير إلى وجود آل عكاش في هذا البيت...

لم يكد الجنود يصلون إلى البيت حتى كسروا الباب بسهولة، لأن أبواب المنازل في القرى ضعيفة المقاومة.

سمع عبدو عكاش صوت كسر الباب فاستيقظ مع رفاقه... كان المنزل محاصراً والقوى العسكرية الفرنسية تجوب كل حارات قرية قدسياً، وكوكبة كبيرة من الخيالة تتوسط ساحة البلدة والجنود منتشرين على المرتفعات المحيطة

بها ... واحتياطي القوات يتمركز على الطريق الممتدة من ساحة القرية حتى الطريق الذي يصل بين دمشق وبيروت، ولم يكد الجنود يدخلون المنزل بعد كسر بابه حتى جابهتهم نيران غزيرة من عبدو عكاش، فقتل الجنودالخمسة، والضباط قائد المجموعة... فارتعد الفرنسيون المهاجمون وكانوا يظنون أن النصر سهلاً والغنيمة بيدهم وجرى تبادل إطلاق النار من الطرفين لمدة نصف ساعة ولما علموا أن لافائدة من الهجوم ولا يمكن اقتحام الغرفة من الباب أمر القائد بأحضار القنابل، فذهبت سيارة إلى دمشق وأحضرت صناديق القنابل. ثم أمر القائد بحفر السطح، فعمد الجنود إلى حفر السطح، وقد قتل عبدو عكاش منهم ما يقارب الخمسة جنود فتوقفوا عن الحفر. وقد أمر الضابط بإحضار رجال من قرية قدسيا وأمرهم بالحفر تحت التهديد بالقتل وباشروا بالحفر، وقد قتلوا أثناء تبادل اطلاق النار بين الفرنسيين وعبدو عكاش لأن الجند الفرنسي أجبرهم على حفر السطح ولما رفضوا قتلهم وهم: محمد البوشي ويوسف البوشي وصادق الخطيب وجميعهم من أهالي قدسيا وبعد أن فتحت طاقة من السطح ألقوا القنابل إلى داخل الغرفة على عبدو عكاش حيث جرت معركة ثم انتهت عندما سُكنت، المقاومة من داخل الغرفة وبعد أن سكن الغبار ورائحة القنابل، اقتحموا باب الغرفة فوجدوا أحد حراسه وهو من قرية الديماس قتيلا. فأدركوا أن عبدو عكاش ما زال حيا ودخلوا الغرفة ثانية فوجدوه مختبئاً. في اليوك وفوقه الفراش مغمى عليه، فحملوه إلى خارج الغرفة وصبوا عليه سطلا من الماء حتى عاد الى صوابه، فقال له الجنرال الافرنسي، سلم بوجه فرنسا تسلم وكان هدف كوليه المساومة عليه لاستسلام أشقائه بعد استسلامه فأجاب عبدو عكاش: خسئتم أنا لن استسلم وان أكون أسيرا: الموت أحب إلي من الاستسلام. وكان الكابتين بيده مسدس فأطلق النار عليه وقتله بعدة طلقات في راسه. كل هذه الحوادث

جرت وابو دياب سعيد عكاش وإخوته لم يعلمو بمحاصرة أخيهم في قرية قدسيا.. في اليوم التالي. وعند وصول الخبر إليهم أسرعوا إلى قرية قدسيا مع رجالهم، فوجدوا المعركة قد انتهت، فاشتبكوا مع القوة الفرنسية المتبقية في القرية وفكوا الحصار عنها. وقتلوا كل من تبقى من الفرنسيين بالقرية. وأخذوا بثأر أخيهم عبدوا عكاش الذي قتل على يد الكابتين كوليه.

وتؤكد صحة هذه الرواية ما ذكره السيد عبد الغني الأسطواني في كتابه العرب من وراء اللهب. والمعلومات التي ذكرها السيد عزت الخواجة مختار دمر سابقاً كما يشهد على ذلك جميع وجهاء قرية قدسيا.

معارك ثورة عكاش والأعمال الفرنسية خلال عام ١٩٢٦ المفاوضة :

وخلال الأشهر من شباط حتى ايلول توالت هجمات عكاش على الخط الحديدي المتجه من دمشق إلى بيروت وعند اشتداد الضغط الفرنسي على وادي بردى رحلت مجموعة رجال عكاش إلى عن طريق حلبون والتل حتى القابون ثم إلى غوطة دمشق أحياناً. وأحياناً أخرى كانت تتجه من جبال قطنا الى داريا وسفوح جبل الشيخ حتى القنيطرة لمساعدة الثوار في المناطق الأخرى. وعندما تنسحب الحملات الفرنسية.

ومن وادي بردى تعود الى منطقتها لقطع طريق الخط الحديدي وطريق السيارات أيضاً على القوات الفرنسية بين دمشق وبيروت، وهكذا كانت المجموعة تناور لأنها لا تستطيع أن تنزل هزيمة كبيرة في القوات الفرنسية المزودة بالمصفحات والدبابات والطائرات وكافة الأسلحة، وإنما كانت تسير على سياسة اضرب وأهرب، وكان الفرنسيون يبحثون عن ضحاياهم بين المدنيين

سكان القـرى مـن النسـاء والأطفـال والمسـنين، إضافـة إلى المـزارع الـتي تقطـع أشجارها وتتلف مزروعاتها ففي ١٨ اذار ذكرت أليس يولـو في كتابهـا دمشـق تحت القنابل ما يلي (حملت الجمال والعربات الى السوق اليوم كميـات ضخمـة من الأشجار الجميلة المزهرة التي تقصف بفعـل قنـابل الطـائرات وكـان منظرهـا يبعث الرهبة والحزن معاً.

وفي مكان آخر:

هاجمت القوات الفرنسية قرى الزور وقبضت على المسنين والأطفـال أمـا الشباب فسيلتحقون بالثوار خوفاً من إعدامهـم مـن قبـل القـوات الفرنسـية وفي (١٧) آذار كتبت تقول:

حدث اليوم معركـة في المزرعـة «الصالحيـة» قتـل بنتيجتهـا مـلازم شـاب برصاصة في قلبه. وكاد كلبه المسكين أن يجن اضطراباً لما لم يعد يراه وأخذ يفتش عنه في كل مكان.

وانتقاماً لهذا الضابط تم تخريب المزرعة بشكل كامل.

وفي برقية (١٢) حزيران من قيادة الجيش الفرنسي في الشرق جاء:

تراشق بالرصـاص في منطقـة المواقـع العسـكرية «طريـق الربـوة» عصابـة عكاش عادت إلى الغوطة...»

ثم عادت عصابة عكاش إلى دمر فقد ورد في برقية أخـرى بتـاريخ (١٩) تموز صباحاً.

أما في «٢٢ كانون الثاني فقد كتبت:

تنوي السلطات العسكرية قطع جميع الأشجار الـتي تحيـط بدمشـق وهـدم الحواجز التي تحد البساتين. وهذه وحشية تحزن القلـب... ضـد غوطـتي الجميلـة الظليلة المزهرة التي تمتلىء بخرير المياه الصافية تحت أشتجار المشـمش والزيتـون. إيه يا دمشق... المسكينة. مـاذا سيبقى مـن روائعـك إذا كـانت القـرى سـتهدم وأشجار البساتين ستقطع؟

إن هذا التدنيس يجرح شعوري حتى أنه يخيـل لي وكـأن الأمـلاك المعتـدى عليها هي لي...

إني أحب هذه البلاد منذ أن اكتشفت روحها...

وهكذا استمرت المعارك مع مجموعة عكاش وقد حاول الفرنسـيون قطـع طريق دمر القابون من وراء جبل قاسيون فقد ورد في جريدة المقتبس أن معركـة وقعت بين جماعة عكاش في أطراف قرية دمر أسفرت عـن أسـر ثـائر يدعـى أبـو عبده الدمراني وتعتبر معركة جبل قاسيون ـ مغـارة بوابـة الريـح ـ آخـر معـارك الثورة السورية، فقد سيطر الفرنسـيون علـى الغوطتـين الشـرقية والجنوبيـة، ... وهددوا بفرض عقوبة الإعدام ضد المخالفين كما جرى حرق كل قريـة لا تبلـغ عن دخول الثوار اليها.

انسحب الثوار حفاظاً على سـلامة السـكان الى جـرود القلمـون المجـاورة لدمشق. فلاحقت القوات الفرنسـية الثوار، وجـرت معـارك بـين هـذه القـوات وثوار سورية بقيادة الأمير عز الدين الجزائري وسعيد عكاش وسعيد العـاص،... ولما كانت طرقات جبـل القلمـون غـير معبـدة ولا تسـتطيع الدبابـات الفرنسـية السير عليها لذا تراجعـت القـوات الفرنسـية لتتمـم إخـلاء الغوطـة مـن الثـوار.

وكانت ثورة سعيد عكاش تتجول في الغوطة. فدخلت قرية بيت سوى واعدمت بعض الجواسيس... ولما حضرت القوات الفرنسية انسحبت قوات سعيد عكاش بعد اشتباكات عنيفة أقول انسحب الثوار إلى بساتين الميدان وداريا وفي طريق انسحابهم دخلوا قرية المعضمية المجاورة لقرية المزة إحدى ضواحي دمشق، ولكن بعض الرجال من القرية طلبوا منه الرحيل خوفاً من حضور القوات الفرنسية وتقوم بحرق القرية وقتل سكانها. وذلك قبل أن يقوم العملاء بإخبار الفرنسيين، سيما أن القوات الفرنسية موجودة في مطار المزة المجاور.

أخذ سعيد عكاش رهائن من رجال القرية المشكوك بولائهم للثورة. لكي لا يقوم أحد بإبلاغ الفرنسيين عن تحركات الثوار واتجه إلى دمر بتاريخ ٢٣ أيلول ١٩٢٦.

اجتاز المجاهدون قرية دمر إلى جبل قاسيون. وقد تمكن أحد الرهائن من الهرب ليلا وأخبر الفرنسيين بأن الثوار في مغارة بواب الريح بأعالي جبل قاسيون.

كان التعب والنعاس قد تغلبا على الثوار بعد المسيرة الطويلة من الدريج إلى بيت سوا إلى يلدا ثم داريا ـ المعضمية ـ دمر ـ وصعود الجبل، لذا عمدوا إلى النوم في المغارة بينما صعد عبدو عكاش وعبد العال المصري إلى تلة عالية شمال المغارة للحراسة. وفي الصباح الباكر، كانت ثلاث مجموعات من الجيش الفرنسي تتوجه إلى مغارة بواب الريح الأولى من الغروب من مطار المزة.

الثانية من دمشق عن الطريق الجبلية بين المهاجرين ودمر.

الثالثة من الشمال متجهة من صيدنايا غرباً بإتجاه المغارة.

شاهد عبدو عكاش المجموعات الثلاثة فأطلق النار من رشاش بيده على باب المغارة حيث استيقظ الثوار وشاهدوا القوات الفرنسية على بعد ٣٠٠م منهم، اسرع سعيد عكاش ونصب رشاشه على باب المغارة وبدأ بإطلاق النار بالتناوب على الأرتال الفرنسية، وقام بعض رجاله بإلقاء القنابل اليدوية على القوات الفرنسية التي توقفت عن التقدم.

وكان بجانب المغارة مجرى للسيل غير محروس من القوات الفرنسية فتسلل الثوار منه واحداً بعد الآخر.

ولما كان رمي النيران من المغارة وما حولها ومن التلة العليا التي تمركز بها محمد عكاش غزيراً أشعر الفرنسيين بقوة الثوار، وخافوا من محاصرتهم في شعاب الجبل فتراجعوا، عندها انسحب محمد عكاش وبقية الرجال عن طريق السيل إلى دمر.

وقد استشهد في هذه المعركة المجاهد محمود عنتر من المزة ـ والمجاهد محمد دحدوح من قدسيا، واعتقل الفرنسيون محمد العيطة المسمى أبو عبدو الدمراني.

المفاوضات بين سعيد عكاش والفرنسيين :

لما كان طريق التموين الرئيسي للقوات الإستعمارية الفرنسية الخط الحديدي الواصل بين دمشق وبيروت ماراً بسوق وادي بردى والبقاع وجبال لبنان الغربية. لذلك فإن هذا الطريق ذو أهمية كبيرة للقوات الفرنسية لأنه شريان الحياة بالنسبة إليها... فالخط ينقل اليها المؤن والعتاد الحربي والإمدادات من الجنود كما ينقل أوامر القيادة الفرنسية في بيروت لضباطها ومراسليها... وكافة لوازم السلطة الفرنسية، بالإضافة إلى عائلات الضباط.

ولما كان الفريق المحارب في المنطقة السادسة التي يمر منها الخط الحديدي بإمرة سعيد عكاش وإخوانه... وكانت قواته تزيد عن (٩٠) رجلاً وكان هذا المجاهد ينسف الخط كلما تم إصلاحه فقد أثر ذلك على معنويات القوات الفرنسية، لذلك بادر الجنرال الدريا ممثل المندوب السامي الفرنسي (وقد انزعج كثيراً من انقطاع خط القطار مدة اثني عشر يوماً عندما قلع الثوار القضبان الحديدية وأخذوها بعيداً إلى الجبل أو القوا بها في قاع مجرى نهر بردى.

لذلك طلب المفوض السامي الفرنسي عقد صلح مع عكاش ورجاله وأرسل لهذه الغاية بعض وجهاء دمشق البارزين ممن كانوا بحكم وظائفهم العسكرية تحت سيطرة الفرنسيين امثال عبد الغني القضماني احد ضباط الدرك الخاضع للفرنسيين وعزة الساطي وغيره.

وقد جاء في نشرة مكتب الاستعلامات السوري ٣٨٢ في القاهرة ما يلي: اختارت السلطة الفرنسية اشخاصاً ليكونوا وسطاء لدى الثائر سعيد عكاش واخوته لحملهم على التزام السكينة في صيف هذا العام...

وتقول السيدة اليس بولو في كتابها (دمشق تحت القنابل) في الصفحة رقم ـ ٣٧١ ـ من الترجمة العربية: آه كم هي مسلية تلك القصة التي رويت لي حديثاً عن واحد من الإخوة عكاش إنها تصور شخصية هذا الرجل وتجعلني اجده لطيفاً تماماً. فلقد كان كثير من الوجهاء يتقاضون مالا من الفرنسيين للتوسط معه لايقاف الثورة، ولكي يتم العفو عنه من الفرنسيين وكان ان نجح هؤلاء في الحصول على تصريح أمان له لمقابلة المفوض السامي.

فتوجه بإحدى العربات من بيته في دمر إلى دار المندوبيه، ومعه افندي

يرتدي الطربوش وأحد حراسه... ويقال إن مدير شركة حافلات الترام وهو بلجيكي قد كفله، وقد تقدم عكاش هذا الى بعض العسكريين من مختلف الرتب وهو يحمل بندقيته ويغطي جسمه بأحزمة الطلقات النارية ـ وقام جدل عنيف بينه وبينهم انتهى حين ضرب أحد الجنرالات بيده على الطاولة وصرخ، ستسلم نفسك دون أي شرط؛ وعندما سمع عكاش هذه الكلمات رفع حمالة بندقيته وذهب إلى الباب حيث عانق الأفندي الذي كان ينتظره هناك، ثم ركب العربة ليعود إلى قصره على ضفاف بردى، وفي المساء لم يضيع أي وقت بل عاود اطلاق النار من جبل قاسيون على الفرنسيين. إن الذئب لا يمكن أن يصبح كلبا أليفاً.

أما المجاهد عبد الوهاب حسن الداري والسيد عبدو محمد العيطة فقد ذكرا ما يلي:

أرسل بعض وجهاء دمشق البارزين ممن كانوا بحكم وظائفهم تحت سيطرة الفرنسيين على شكل وفد إلى دمر راكبين سيارة عسكرية خمسة ضباط من رتب مختلفة وبالقرب من قصر خالد العظم في المضيق المشرف على مدخل دمر قبض الثوار من رجال عكاش على السيارةو وركابها بعد أن لوح الضباط بإشارة استسلام قبل إطلاق النار عليهم. وعند وصول الثوار إليهم طلب أحد الضباط مقابلة سعيد عكاش وكانوا بدون سلاح وبملابس بيضاء فرافقهم الثوار إلى دار المرحوم حسن القتلان وهي دار كبيرة واسعة تقع على جسر دمر فطرقوا الباب الخارجي بينما كان القائد عكاش جالساً في باحة الدار وعلى أسطح الدار بعض رجال ثورته.

المفاوضة :

فتح الباب الخارجي المواطن حسن راغب الـدالي وإذ بـه يفاجـأ بالضبـاط وافراد الثورة خلفهم بالبنادق. فأخبر القائد عكاش بأن على الباب خمسة ضبـاط يريدون مقابلته ـ منهم ضباط من العرب. والأخـرون مـن الفرنسـيين فـأذن لهـم بالدخول وهو جالس على كرسيه فرفع الضباط عمراتهم تحية له فلـم يقـف بـل رد التحية وهو جـالس علـى الكرسـي... وبعـد أن عرضـوا عليـه بـأن السـلطة الفرنسية تريد عقد صلح معه واصدار عفـو عنـه ... وتسـليمه الخـط الحديـدي برواتـب مغريـة وأن المنـدوب السـامي يريـد مقابلتـه بـالذات في دار المفوضيـة بدمشق لاكمال البحث معه.

ولكن عكاش لم يوافـق علـى النزول إلى القيـادة بدمشـق وقـال للضبـاط الخمسة سأرسل أخي عبدو وخالي عبد الهادي لمقابلة المفوض العسـكري وسمـا ع طلباته شريطة بقائكم رهينة عندي، ريثما يعودوا وحدد ساعتين لعودتهم فقط.

عند ذلك اتصل أحد الضباط بالمفوضية بواسطة هـاتف طاحونـة الأحمديـة الكائنة بدمر وأخذوا موافقة المندوبية على ذلك، وبعد ساعة تقريباً أقبلت سيارة ومصفحتين من دمشق إلى جسر دمر فأقلت عبـدو عكـاش وخالـه بطريقهـم إلى المفوضيـة بدمشـق. وكـانت السيارة تجـري وامامهـا مصفحـة واخـرى خلفهـا. وعندما وصلا إلى امام المفوضية (البعثة الفرنسية) كانت القوات العسكرية واقفة على رصيف الطريق من الجانبين أمام المفوضية. ولما ارتجلا عكـاش وخالـه ونـزلا من السيارة وهما مدججين ببنادقهم الحربية والخرطوش يملأ صدورهـم والقنـابل الألمانية الصنع معلقة على خصورهم. واتجها نحـو بـاب المفوضيـة وهمـا سـائرين

كالطود الشامخ ودخلا المفوضية. فاستقبلهم المفوض الفرنسي وعدد من الضباط الجالسين معه. فكرر إليهم أقوال الضباط الخمسة التي عرضت على سعيد عكاش إذا وافق على طلبنا وهذه المصالحة. سيكون له شأن كبير لدى حكومة فرنسا. فرد عبدو عكاش على الترجمان قائلاً له: قل لحضرة المفوض بأن سعيد عكاش يطلب إجلاء الفرنسيين عن بلدنا لنعود مستقلين وعلى هذا الأساس تتم المصالحة. فغضب المفوض العسكري من هذه الجملة، وضرب بيده على الطاولة أمامه وقال: قل لأخيك بأن فرنسا لم تقهر. وهي غير عاجزة عن تأديب من يخالف أوامرها. وعليك التبليغ. ولكل حادث حديث، وتوقف البحث، وعاد عبدو وخاله وبلغا القائد سعيد بما حدث عندها أفرج عن الضباط الخمسة الموجودين رهينة لديه وطلب إليهم تبليغ المفوض الفرنسي بأن طلب سعيد عكاش الوحيد وجميع رفاقه قواد القطاعات الخمسة في دمشق والغوطة. بأن لا مفاوضة ولا صلح مع فرنسا إلا بإجلائها عن سورية وبعد ذهاب الضباط أوعز عكاش الى رجاله بالإنتقال فوراً من مكانهم فكان ذلك احتياطاً لكل طارىء. أما الضباط الخمسة فقد وصلوا إلى المفوضية وعرضوا على المفوض الفرنسي ما شاهدوه من قوة بأس عكاش ورجال ثورته ومعنوياتهم العالية وبلغوه ما قال عكاش حرفياً. ولأمر ما لانعلمه نحن ولا غيرنا من المواطنين نفاجأ بحضور المفوض الفرنسي مع الضباط الخمسة إلى جسر دمر وبرفقتهم خمس مصفحات وقوة من الحرس وطلب من بعض المواطنين ضروة احضار القائد عكاش لمقابلته فوراً بينما كان القائد عكاش قد بارح البلدة مع رجاله إلى موقع في الجبال قريب من دمر فيه عين للمياه بقصد الاستراحة ومراقبة ما يحدث من أخبار جديدة. وكان على علم بمكان وجودهم الشخص الذي فتح الباب الخارجي الى الضباط الخمسة في بادىء الأمر السيد حسين الدالي فذهب وأخبر

القائد عكاش بطلب مقابلة المفوض في جسر دمر فعاد مسرعاً مع رجال ثورته ووزعهم للوقوف في المواقع المناسبة وبقي برفقته نحو خمسين ثائراً وأرسل واحدا منهم إلى المفوض الفرنسي يبلغه بوجوب رجوع المصفحات إلى الخلف نحو إثنين من الكيلومترات ليرى إذا كانت النية سليمة، وتتم المقابلة. وكان له ما طلب. عندها تقدم القائد عكاش وهو يمتطي جواده مع رجاله المرافقين فوق جسر دمر نحو المفوض الفرنسي الذي تقدم أيضاً وقابله بالمثل مع ضباطه وأخذوا يحيونه برفع عمراتهم بأيديهم. وقد لاحظ المتفرجون من المواطنين أن الدهشة قد لاحت على وجه المفوض الفرنسي عندما شاهد ضخامة شخصية عكاش. ولما قرب منهم بادرهم بقوله (بونسوار مسيو مفوض) وهو مبتسم ابتسامته الشهيرة والدائمة مهما كانت الأحداث. فأخبر الترجمان المفوض بأن عكاش يسلم عليك. فما كان من المفوض إلا أن قفز أمام جواد القائد عكاش يريد مصافحته. وإذ بالجواد يعض المفوض من كتفه، دون أن يؤذيه لأن المفوض ابتعد الى الوراء وقال للترجمان: قل الى عكاش لماذا فعل حصانك ذلك. فرد الترجمان ما قاله المفوض إلى عكاش الذي قال: قل إلى حضرة المفوض بأن حصاني عرف بأنك عدو. ولما عرف الترجمان جواب عكاش أخذ المفوض يضحك، وأقترب من الحصان، وأخذ يربت على عنقه بلطف، وشكره بالفرنسية لأنه لم يسبب له ضرراً ولم يعرف المواطنون معناها لأنهم لا يتكلمون الفرنسية.

وبعدئذ كرر المفوض الفرنسي أقواله التي طرحت بدمشق بالمفوضية بشأن المصالحة وقال: إنني أتيت إليك بالذات ناصحاً وأتمنى منك الموافقة. فوعده عكاش بالجواب بعد أسبوع ريثما يدرس الموضوع مع جميع قواد القطاعات وإن الجواب سيوضع لدى السيد حسين الدالي. فأخذ الترجمان اسم هذا المواطن وسلمه إلى المفوض. وفعلاً بعد عشرة أيام حضر ضابط أفرنسي والترجمان إلى

دار حسين الدالي وأخذا الجواب الخطي ممهوراً بخاتم قيادة الثورة المكتوبة عليه (نصر من الله وفتح قريب) الغازي محمد عكاش. ومضمون الجواب بأن لا مفاوضة ولا صلح إلا بالجلاء عن البلاد السورية. وإنتهت المفاوضة وعادت شدة المعارك مع الفرنسيين من جميع القطاعات الثائرة.

ويمكن أن نضيف أن الثوار كانوا دوماً يخشون البطش والغدر الفرنسي. لذلك فإنهم نقلوا الرهائن الخمسة من دار حسن القتلان إلى دار محمود متاعة. تحسباً من أن تقوم فرنسا بأخذهم بالقوة خلال وجود عبدو عكاش في دمشق، يفاوض المندوب السامي الفرنسي وبذلك يصبح عبدو أسيراً ويعدم غدراً...

وفي كل مفاوضة بين الثوار والفرنسيين كانت شروط الثوار هي جلاء الجيش الفرنسي.

أما شروط الفرنسيين التي قدمت لعبدو عكاش وأخيه، فهي:

١ ـ تسليمه المحافظة على طريق القطار بين دمشق ورياق.

٢ ـ تدفع الحكومة لسعيد عكاش المبلغ الذي يطلبه كراتب شهري.

٣ ـ تقدم الحكومة الفرنسية السلاح لسعيد عكاش ورجاله.

٤ ـ يعين سعيد عكاش في المنصب الذي يريده لدى الحكومة السورية.

انتهاء الثورة :

ابتدأت الثورة في نهاية حزيران ١٩٢٥م بمعارك الجبل خاصة الكفر والسويداء وبدأت نهايتها منذ تشرين ١٩٢٦ وشملت كل البلاد السورية من

الجزيرة ودير الزور إلى حلب وإدلب واللاذقية إلى حماة وحمص ودمشق والبقاع وراشيا والجولان إضافة إلى جبل العرب...

ولكن هل كان للثورة أن تنتصر؟... كانت الإمدادات العسكرية الفرنسية تتوالى على القيادة من المغرب والجزائر والسنغال ومالي وتشاد والكونغو بالإضافة إلى المتطوعين من الأكراد والشركس ورجال الدرك والشرطة التابعة الى الحكومة في دمشق.. وكلما قضى الثوار على حملة أو فرقة من الجيش الفرنسي كان الفرنسيون يحضرون أعداد تفوق ما أباده الثوار.

كما كانت أسلحة الثوار البنادق وهي من مخلفات الجيش التركي. بينما استعمل الفرنسيون الرشاشات الحديثة مثل ـ ٢٤ ـ ٢٩ ـ الهوشكيس إضافة إلى المدفعية والمصفحات والدبابات والطائرات وكلها أسلحة لا تقارن بأسلحة الثوار.

وكان الثوار هم من بسطاء العامة في سوريا ليس لديهم من الثقافة العسكرية والسياسية ما يعادل جنرالات فرنسا وقد خاضوا غمار الحرب العالمية الاولى وفق أحدث إستراتيجيات القتال في العالم ولديهم من القوى عشرات الآلاف من الجنود والضباط المدربين... وترفدهم دولة عظمى بالأموال والأسلحة.

أما قيادة الثوار فكانت متنافسة فالشهبندر كان ذو جنسية امريكية ضد القوتلي الذي كان من الجمعية العربية الفتاة المتصلة بفرنسا منذ مؤتمر باريس (١٩١٣).

وكان نسيب البكري يمثل البرجوازية المتعاونة مع الفرنسيين لحفظ أموالها

ومراكزها وتجمع حزب الشعب يحارب تجمع حزب الاستقلال وكل يفاوض الفرنسيين ليتسلم الحكم وينهي الثورة مقابل جزء بسيط من الاصلاحات لاتسمن ولا تغني من جوع.

وهكذا فالقيادة المتنافرة تبحث عن المكاسب الشخصية ولا تهتم بمصالح السكان والبلاد. وقد برز ذلك في الخلاف حول الاموال التي تجبى من المواطنين لمساعدة الثورة وكذلك الأموال التي ترسلها مكاتب القاهرة وفلسطين وجدة وكيفية توزيعها.

وإذا كان قائد الثورة سلطان باشا الاطرش يثق بالدكتور شهبندر ونسيب البكري فإن القوتلي والقاوقجي ورمضان شلاش كانوا يريدون أن تبقى القيادة لهم ولذلك دعا رؤساء مجموعات الثوار إلى الإجتماع في شهر شباط (١٩٢٦). وقد اتخذ قراراً بتأليف المجلس الوطني للثورة السورية في الغوطة وضواحيها ومدينة دمشق ينتخب أعضاءه من قبل رؤساء الثوار بتفويض خطي. ولما كان رؤساء الثوار من المواطنين الشرفاء وتتمثل في تصرفاتهم روح الفروسية العربية الأصيلة فقد رأى المجلس تعين مشاور عسكري لكل مجموعة من الثوار لتنسيق الخطط بينها وفق خطة عامة وكان العسكريون المشتركون مع القوات مثل (فوزي القاوقجي) وصبري فريد البديوي ومصطفى وصفي السمان ورمضان شلاش وغيرهم).

وقد عين سلطان باشا الأطرش القائد العام للثورة المقدم الركن مصطفى وصفي السمان قائداً عاماً لجيش الثورة في منطقة الغوطة وطلب من الدكتور شهبندر الإتصال بمجموعات الثوار لتبليغهم القرار والتشاور معهم في سبيل

إعادة تنظيم منطقة الغوطة وإدارة شؤونها. وهكذا وزعت المناطق في دمشق وغوطتها إلى ستة مناطق:

١ ـ المنطقة الأولى:

أراضي باب سريجة وقبر عاتكة وما بين المزة وداريا والحد بينها وبين المنطقة الثانية الخط الحديدي.

٢ ـ المنطقة الثانية:

تمتد من أراضي حي الميدان والشاغور وقرى ببيلا ويلدا وعقربا حتى قرية العبادة والحد بينهما وبين المنطقة الثالثة نهر بردى.

٣ ـ المنطقة الثالثة:

تمتد من حدود نهر بردى حتى جسر تورا والحد بينها وبين المنطقة الرابعة الطريق بين دوما ودمشق.

٤ ـ المنطقة الرابعة:

تمتد من حدود المنطقة الثالثة إلى مركز قضاء دوما.

٥ ـ المنطقة الخامسة:

تمتد من حي الأكراد حتى دوما.

٦ ـ المنطقة السادسة:

تمتد من سهل القابون حتى صيدنايا ومن دمر إلى الزبداني.

٧ ـ المنطقة السابعة:

من عدرا حتى النبك حيث تتصل بالمنطقة الشمالية. كما تقرر تأليف مجلس أعلى من عشرة أعضاء ينتخبهم زعماء الثورة في المناطق المذكورة وهذا المجلس ينقسم إلى ثلاث لجان.

١ ـ اللجنة المالية.

٢ ـ لجنة الحركات الحربية.

٣ ـ لجنة الرعايا والاستخبارات.

وتحدد وظيفة اللجنة المالية بجمع الأموال والإعانات وتأمين إعاشة الثوار ومهماتهم وفق نظام خاص يضم المجلس الأعلى (مجلس العشرة).

أما لجنة الحركات الحربية: فوظيفتها تنظيم الخطط الحربية وقيادة الثورة في مناطق القتال وإبلاغ التعليمات إلى المشاورين العسكريين في كل منطقة والسهر على توطيد الأمن في مناطق الثوار وتأمين المواصلات بين مناطق الثورة.

أما لجنة الدعاية والاستخبارات: فمهمتها بث الدعاية وحض الأهالي على مساندة الثورة والقتال في مناطق الثوار ومدينة دمشق وجمع الإستعلامات السرية عن حركات الجيش الفرنسي ومقاومة الدعاية المعادية وإذاعة النشرات الأسبوعية

١ ـ إن الكسب الذي يحصل من إعانة أو غنائم أو عزائميوزع بحسب العرف.

٢ ـ عقاب كل من يتجاوز حدوده ويعتدي على إخوانه من الهيئة التأديبية.

٣ ـ لا يجوز لأحد أن يتدخل في الأعمال التي تخص القطاعات الأخرى.

٤ ـ الكسب الذي يحصل بدون معركة هو مال للقضية أما الكسب الذي يحصل بالقوة أثناء القتال إذا كان بندقية أو حصان أو ذخيرة فهو للغانم إلا المقادير الكبيرة فتحفظ للمصلحة العامة للثورة وتمنح مقابلها مكافآت.

وقد قرر المجلس الأعلى أن يعهد بأعمال اللجنة المالية إلى نزيه المؤيد وعلي ديبو ومحمد الشيخ.

وأن يعهد بأعمال لجنة الحركات الحربية إلى زكي الحلبي وشوكت صبري فريد بديوي وأن يعهد بأعمال لجنة الدعاية والاستخبارات إلى السيد فائق العسلي. وأن يعهد بأمانة السر إلى السيد فائق العسلي وخلفه بعد استشهاده السيد جميل شاكر.

وهكذا دعي إلى اجتماع بتاريخ ١٣ نيسان وحضره من أعيان المنطقة وزعماء الثوار نسيب البكري ونزيه المؤيد وسعيد العاص وشوكت العائدي والشيخ محمد الأشمر والشيخ ديب القديمي وعبد القادر سكر وأحمد مربود ومنير الريس وسعيد عكاش وسعيد الأظن والأمير أحمد الشهابي يونس الخنشور وصبري العسلي وشفيق عمر باشا وديب الشيخ ومحمود سلوم وأحمد غازي وأبو محي الدين شعبان. وقد تابع المجتمعون نشاطهم باجتماع عقربا في (١٥) نيسان وكان الاجتماع في جامع عقربا فضرب الفرنسيون الجامع بالمدافع فذهب المجتمعون إلى حوش غبور ولكن الطائرات أغارت مباشرة على الحوش مما

يدل على أن بعض المجتمعين كان على صلة بالفرنسيين ويخبرهم بالتحركات وقد جرح من هذه القنابل مهدي قزيها من كيوان.

وخاله وأخوه الأصغر.وقد حضر الاجتماع:

زكي الحلبي فوزي القاووقجي وزكي الدروبي وشوكت العائدي وجميل البابا وصادق الداغستاني وعبد ا لله التركي ومحمود حمدي وأصف السفر جلاني وسعيد الترمانيني عادل الحامدي وخير الدين اللبابيدي وفائق الكيلاني منير الريس وجميل علوان وعبد الوهاب عمر باشا وابراهيم صدقي.

إضافة إلى الأطباء أمين رويحة وتوفيق القصيباتي ومدحت شيخ الأرض وعن قادة المناطق جمعة سوسق عن القلمون. أبو عبدو سكر عن الميدان والدرخباني والأشمر والمهايني عن الأكراد وأبو عمر إبيو وأحمد الملا أبو داوود الكردي عن دمشق والغوطة أبو دياب عكاش وأخيه محمد وديب محمد القديمي سعي الأظن خليل بصلة أبو محي الدين شعبان وأبو راشد القابوني وأولاد العسلي فائق وصبري وأبو فهد الجوبراني ومن الشباب صالح سلو وخليل الحموي ومصطفى العظم ونسيب شهاب.

كان جواب السلطة الفرنسية على هذه التنظيمات الكارثة التي حلت في حي الميدان من ١٦ نيسان ١٩٢٦ واجتاحت القوات الفرنسية حي الميدان بعد انسحاب المجاهدين نتيجة لتدخل أبو صبحي حباب ونوري آغا المهايني وغيرهم من زعماء الميدان لحمايته من القوات الفرنسية، ولكن الفرنسيين لم يتورعوا بعد انسحاب الثوار فدمروا حي الميدان وأضرموا النار في منازله وحوانيته ولم يكتف بما أصاب الحي في شهر نيسان ولكنها عاودت في أيار الهجوم لأن بعض الثوار

من أبنائه ينامون في منازلهم... فأقتحمت البيوت والمساجد وحطمت أبواب المخازن ومستودعات الحبوب ونهبت ودمرت وأحرقت واعتدت على النساء والأولادوجمعت المواطنين وداستهم بالدبابات أمام ذويهم... كما ضربت المدفعية من المزة والجنخانة وباب شرقي (معمل زجاج الحي) وقامت الطائرات بإلقاء قنابلها على الحي وقدر مجموع المنازل المدمرة بأكثر من (٥٠٠) منزل ومجموع القتلى بأكثر من (٣٠٠) قتيل عدا الجرحى أما المخازن والحوانيت فتزيد عن الثلاثمائة.

وتجاه هذا العنف من القوات الفرنسية ضد المدنيين وللحفاظ على المعنويات والتلاحم بين السكان والمواطنين اجتمع قادة الثوار وقرروا:

-إن كل الإعانات الواردة الخاصة تعتبر مال خاص للقضية ومحظور على أي رئيس لأي منطقة التصرف بالأموال العامة أو القيام بأعمال اللصوصية كما أن الاعمال الفردية ممنوعة أيضاً.

وفي شهر حزيران من نفس العام تم وضع الميثاق الوطني فقد تلقى المجاهدون السوريون في أواخر شهر يونيو (١٩٢٦) وبعد نزولهم في الأزرق نبأ من بغداد بأن جلالة الملك فيصل عزم على السفر إلى أوربا وقد أختار طريق الصحراء للاجتماع بزعماء الثورة للوقوف على أرائهم وأنه ينوي التدخل لحل القضية صلحاً بين الثوار وفرنسا إذا استطاع وأنه يود أن يتفق مع الثوار على برنامج معين يقدم إلى جلالته ليعمل على حقيقته. وقد عقد الدكتور شهبندر، وحسن الحكيم، وسعيد حيدر، اجتماعات في الأزرق أتموا فيها وضع الميثاق الوطني في يوم (٢٧) يونيو أرسل الدكتور نص الميثاق إلى سلطان باشا الأطرش. وأبلغه ما وقع فواقع عليه وأقره وهذا نصه.

أولاً: إعتراف الحكومة الفرنسية بإستقلال سورية التام وبحقها في التمثيل التأسيسي أنتخاباً مباشراً بالاقتراع العام فيتولى سن الدستور وتقرير شكل الحكم على أساس السيادة القومية.

ثانياً: تحويل الإنتداب إلى معاهدة تعقد بين فرنسا وسوريا المستقلة لمدة ١٥ سنة. تعين فيها الحقوق والواجبات والعلاقات المتقابلة بين الدولتين مثل المعاهدة المبرمة بين بريطانيا والعراق مع مراعاة الفرق بين البلدين ورقي السوريين. ولاتكون هذه المعاهدة نافذة إلا بعد تصديقها من البرلمان السوري ومجلس النواب الفرنسي ويحتفظ فيها لفرنسا بموقع خاص وأرجحية في المشروعات الاقتصادية على شرط عدم الاخلال بالسيادة القومية وهذه المعاهدة تسجل لدى جمعية الأمم وتضمن تنفيذها.

ثالثاً: تحقيق الوحدة السورية بما فيها لواء طرابلس الشام وقضاء عكار وحصن الاكراد بعلبك التي هي جزء من الوحدة بطبيعة الحال أما بقية البلاد التي ضمت إلى لبنان فيستفتى أهلها في تقرير مصيرهم.

رابعاً: توحيد النظام القضائي على قاعدة السيادة القومية بصورة تصون حقوق الوطنيين والأجانب معا.

خامساً: دخول سورية في عصبة الأمم.

سادساً: تأليف جيش وطني خلال ثلاث سنوات حيث تتمكن القوات الفرنسية من الجلاء التدريجي عن البلاد، على أن يتم الجلاء التام في هذه المدة.

سابعاً: إصلاح نظام النقد وإعادة العملة على أساس الذهب وإلغاء امتيازات البنك السوري وضمان أوراق النقد السوري المتداولة أو تبديلها.

ثامناً:

العفو العام عن جميع أصحاب الجرائم السياسية بدون قيد أو شرط وبدون الإحتفاظ بالحق الشخصي المضمون بطبيعة الحال.

تاسعاً: إلغاء الغرامات الحربية كلها مع إعادة ما أخذ حتى الآن بهذا الإسم سواء أكان في دمشق أم في غيرها من المدن.

عاشراً: التعويض على منكوبي الثورة.

نهاية الثورة :

في نهاية شهر تموز (١٩٢٦) وبعد وصول إمدادات كثيرة للقوات الفرنسية وتفرق قوات الثوار في الجبال نظراً لاحتلال الغوطة بعد حصارها كذلك جبل الدروز واستسلام بعض زعماء الثورة في الجبل من آل الأطرش وآل عامر في المقرن الشمالي. أمر سلطان باشا بالإنسحاب وكانت الطائرات الفرنسية تلاحق الثوار والسكان اينما حلوا وتدمر القرى والمنازل والمزارع. انسحب الثوار إلى الازرق مع مجموعة كبيرة من المجاهدين الذين رفضوا الاستسلام بالرغم من العفو الذي أصدرته القوات الفرنسية لمن يستسلم منهم وتوجه عبد الرحمن الشهبندر إلى مصر.

وقد طلبت السلطات الفرنسية من إنكلترا عدم ايواء الثوار في الأردن

فأجتازوا موقع العمري إلى منطقة القريات حيث أستقبلهم آل عزام من الشرارات بموافقة الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله... بانتظار ما تحققه الدولة المنتدبة التي وعدت بلسان مفوضها دي جونيفيل بالإعتراف باستقلال سوريا والعفو عن زعماء الثورة المبعدين وكان من المستسلمين أحمد شعبان من برزة ويونس الخنشور وآل خيتي من دوما اما آل عكاش فقد أنتقلوا إلى فلسطين فقد نشرت جريدة المقتبس النبأ التالي:

علمنا أن الزعيم الثائر سعيد عكاش ترك منطقة الغوطة وتوجه إلى جهات فلسطين للالتحاق بالجيش الوطني الجديد.

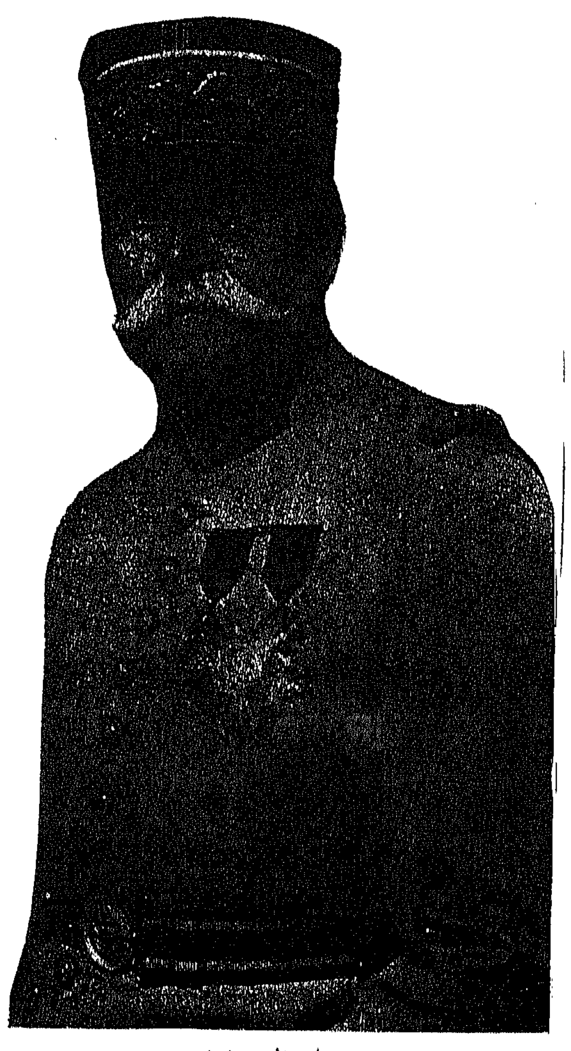
هجرة أولاد عكاش إلى القاهرة :

في نهاية عام ١٩٢٦ بعد أن هاجر كبار الوطنيين والسياسيين وزعماء الثورات إلى خارج سوريا وفي مقدمتهم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ذهب إلى بغداد ومنها إلى القاهرة رفض سعيد عكاش وإخوته محمد الاستسلام بعد أن صدر بحقهم حكم الاعدام من قبل السلطات الفرنسية. وغادروا سورية بجوازات سفر فلسطينية وبأسماء مستعارة إلى فلسطين، ومن ثم إلى مصر. هذا وقد تم التشديد على ملاحقتهم في كل مكان في الغوطة الشرقية والغربية بواسطة العملاء لدى فرنسا وقواتها التي وصلت دمشق حديثاً والمجهزة بأسلحة حديثة أكثر، عندها ذهبوا مع عائلاتهم إلى القاهرة عن طريق فلسطين وكان برفقتهم المجاهد عبد العال المصري من قرية دمر، وهو أحد رجالهم في الثورة، حيث أوصلهم الى جسر بنات يعقوب ورجع إلى دمر وهناك أودعوا سلاحهم وخيولهم عند عائلة يقال لها بيت العرقاوية وبدورهم وبواسطة بعض الوطنيين

ادخلوهم فلسطين حتى مدينة حيفا التي تقع تحت الانتداب الانكليزي آنذاك بواسطة مجاهدين ثوريين مثلهم ثم أدخلوهم إلى مصر وسكنوا في القاهرة في حي السيدة زينب سراج نمره خمسة، وأقاموا هناك حتى عام ١٩٣٧ مع بعض الوطنيين إثر صدور عفو عام عن المبعدين باستثناء الشهبندر وابناء عكاش الذين صدر عنهم عفو خاص لاحق حيث عادوا بتاريخ ١٠ تشرين الأول عام ١٩٣٧ مع عائلاتهم.

نكتفي بهذا القدر من الحديث عن الثوار لنعود إلى النشاط السياسي الذي ترافق مع تلك الأحداث في تلك الآونة.

النشاط السياسي في الداخل وحزب الشعب


الجنرال ساراي

وفي أوائل عام ١٩٢٥ جاء سراي مفوضاً سامياً جديداً، وبدأ منه ما يدل على رغبة فرنسا في وضع دستور للبلاد تقوم على أساسه حكومات وطنية تنفيذاً لنص صك الانتداب الذي تم وضعه وتصديقه في عصبة الأمم قبل هذا التاريخ بأمد غير بعيد، ومسايرة للعواطف والمطالب الوطنية التي لم

تخفت ولم تستسلم، لعل هذه الطريقة تنجح في ما لم ينجح فيه الحديد والنار أو تخمد ما بدأ يشتد إتقاده من تلك العواصف. وكان من خطوات المندوب الجديد في سبيل ذلك ارسال رسائل إلى فريق من أعيان البلاد ومفكريها في شهر تموز لعام ١٩٢٥ يطلب منهم ابداء آرائهم في الاسس التي يحسن ان يقوم عليها الدستور لتستنير الحكومة الافرنسية بها في خطوتها التي اعتزمتها مما يدل في ذات الوقت على اصطباغ تلك الرغبة بالصبغة الاستعمارية في العزيمة على فرض الدستور من عندها فرضاً.

وبالرغم من ذلك اغتنم رجال الحركة الفرصة لاستئناف النشاط، واوفدت دمشق وحلب وفودها اليه يتمثل فيها مختلف الفئات لتطالب بالوحدة السورية الطبيعية والاستقلال التام، والغاء الاشكال المزيفة من الحكام والمجالس التمثيلية، وإنتخاب جمعية تأسيسية تضع دستور البلاد وقيام حكومة مسؤولة أمام مجلس نيابي حر، منع تدخل المستشارين، ووضع حد لشركات الإستثمار، والعودة إلى أساس الذهب في العملة، والعفو العام عن المحكومين والمنفيين والمبعدين السياسيين، ثم أقدم الفريق البارز من رجال الحركة الموجودين في سوريا على تأسيس حزب الشعب وفق المنهج الذي طالبوا به فأخذ ينشط ويعمل على انعاش الروح الوطنية وتوجيه الناس إلى ميثاقهم القومي.

وبعد قليل من ذلك كانت زيارة بلفور دمشق فكانت وسيلة لاظهار العواطف الوطنية المستيقظة نحو الجزء الجنوبي من سوريا الذي نكبه تصريح هذا الوزير المشؤوم بالصهيونية، حيث تجمهر الشعب يريد الفتك به، وحيث قامت المظاهرات تهتف بسقوطه وسقوط دولته وسقوط الانتداب والتجزئة والصهيونية وحياة سوريا المستقلة الموحدة، ونتج عن المظاهرات اشتباكات

استشهد وجرح فيها عدد غير يسير من الشعب، ولم تستطع السلطات تسكين الهياج إلا بشق النفس وبعد تهريب بلفور من دمشق تهريباً.

يقظة الأمة وروحها :

ولقد كان تشاد قوي بين الروح الوطنية والخداع الافرنسي سجل فيه نصر عظيم للروح الوطنية بالرغم عن ما كان خلاله من بعض العثرات والصور الباهتة.



الشيخ تاج الدين الحسيني

فقد حاول جوفنيل أن يوجد ثغرات في الصفوف فأمر السلطات بإختيار وفد من وجهاء دمشق ليقدموا مطالب البلد، وانتخب الوفد بإشراف الافرنسيين في أذار سنة ١٩٢٦ ولكن المطالب التي قدمها لم تختلف في جوهرها عن المطالب القومية حيث تضمنت دعوة جمعية تأسيسية تتولى وضع دستور على أساس السيادة والرجحان الاقتصادي على شرط عدم اخلالهما بالسيادة، وإنشاء جيش وطني لتمهيد الجلاء عن البلاد، ودخول سوريا في جمعية الامم،

وتوحيد جبلي الدروز واللاذقية مع سوريا، وإعادة الاقاليم السورية المنضمة إلى لبنان، وقيام حكومة وطنية مؤقتة تمهد لقيام حكومة دائمة على أساس الدستور الجديد، وإعلان العفو العام، والتعويض على منكوبي الثورة.

وقدم صبحي بركات رئيس الحكومة استقالته ناصحاً بإجابة مطالب البلاد لتهدئة الحالة، فدعا جوفنيل الشيخ تاج الدين الحسني لاستلام منصبه فاشترط هذا الموافقة على مطالب البلاد كمنهج لحكومته، وقدم لائحة بهذه المطالب مماثلة للائحة وفد الشام؛ وكان كل هذا نتيجة لقوة تلك الروح وأثر جو الثورة. وقد أخذت جوفنيل العزة بالاثم وتكشفت نياته الاستعمارية على سجيتها إزاء هذا التصميم على عدم الانخداع فعين إفرنسياً لرآسة الحكومة. ولقد حاول أن يفرق بين السوريين والدروز فأخذ حاكم الجبل الافرنسي بناء على توجيهاته يذيع اذاعات يغمز فيها زعماء الثورة من الدروز لاهمالهم إستقلال الجبل واستغراقهم في الدعوة الى استقلال سوريا ودمج الجبل فيها، ويمجد الدروز ويحرضهم ويخوفهم ويطمعهم؛ ولكن هذه المحاولات باءت بالاخفاق كذلك.

ومما جرى أن جوفنيل أرسل الامير أمين أرسلان إلى الجبل بكتاب وجه الخطاب فيه للشعب الدرزي وطلب فيه آراءهم في الموقف، فعقد وجهاء الجبل وذو الشأن فيه اجتماعاً كبيراً في دامه بتاريخ ٢٨ شباط ١٩٢٦ تداولوا فيه الامر ووقعوا على كتاب جوابي طالبوا فيه الاعتراف باستقلال سوريا التام ووحدتها وإنشاء جيش وطني يمهد للجلاء الافرنسي. وتأليف مجلس تأسيسي يضع دستوراً لسوريا تنبثق عنه حكومة سورية وطنية؛ وإصدار عفو عام؛ مما أثار حنق جوفنيل وخيبته وحمله على إرسال جواب قال فيه أن الكتاب يجعل كل

مفاوضة مباشرة وغير مباشرة مع العصاة مستحيلة وإنه لن يقبل بعد الآن سوى الخضوع بدون قيد وشرط.



الداماد أحمد نامي

وعمد جوفنيل إلى حيلة أخرى فدعا إلى انتخابات عامة في مناطق حلب وحماه وحمص بقصد التعرف إلى آراء ممثليها وبث روح التفرقة بينها وبين دمشق وحوران اللتين استثنتيا من الانتخاب؛ ففطن أهل تلك المناطق للحيلة فأظهروا عزمهم على مقاطعة الانتخابات، وظلوا صامدين بالرغم من التهديد والوعيد والترهيب والترغيب. وبالرغم مما كان من اعتقال الوطنيين البارزين فيها ونفيهم، ولقد استطاعت السلطات أن تحمل بعض العناصر الموالية لها في حلب على الاشتراك في الانتخابات فأعلنت المدينة الاضراب وقامت المظاهرات وارتفعت أصوات الاحتجاج والاستنكار، وكانت اشتباكات راح فيها عدد غير يسير من ابنائها شهداء وجرحى وحوكم بسببها بعض الوطنيين والشباب. ومع ذلك كله فإن المنتخبين هذا الانتخاب المزيف المغموس بالدم على علاتهم حينما دعوا إلى الاجتماع وتقديم المطالب لم يسعهم تحت تأثير الجو القومي الشديد الا أن يقدموا مطالب متسقة مع المطالب القومية مما أثار حنق جوفنيل ودفعه الى الغاء مجلسهم! ولقد سرت هذه الروح القوية إلى المنطقة الغربية الساحلية بمناسبة

إعلان العزم على منحها دستوراً نكاية بسوريا فقامت حركة واسعة للمطالبة بالانفصال عن لبنان والانضمام الى سوريا في صيدا وصور وجبل عامل وطرابلس الشام وبعلبك وراشيا وحاصبيا والبقاع ومن قبل مسلمي مدينة بيروت أيضاً، وعمد جوفنيل إلى حيلة جديدة حيث دفع الشريف عبد المجيد حيدر[1] إلى الحركة بحجة الرغبة في إقامة عرش سوري يتوسده وتتحقق مطالب البلاد على يده إذا هدأت الثورة؛ ولكن الحيلة أخفقت كذلك لفقدان طابع الاخلاص والصدق عليها.

اشتداد الضغط على الثوار وأثره :

وفي أثناء ذلك أخذت النجدات المنتظرة تتوارد من فرنسا فاغتنم جوفنيل الفرصة فاتصل بالدماد أحمد نامي

التركي الاصل[2] وفاوضه على تأليف الوزارة، واتصل هذا برجال الحركة الوطنية فتطابقوا على التعاون معه إذا وافق المندوب السامي على منهج وطني للوزارة. وقد كان هذا المنهج مستمداً من لائحة الشام؛ وإزاء هذا العناد القومي الذي لم يلن في أثناء اشتداد الثورة وخفوتها وبالرغم عن تنوع الاساليب والمحاولات التي عمد إليها رأى جوفنيل نفسه مضطراً إلى المسايرة إنقاذاً لسمعته كسياسي معدود كانت باريس تعوّل عليه في تهدئة الحال وتمشية الأمور فتبادل

---

(١) هو ابن الشريف حيدر الذي عينه الاتحاديون أميراً على مكة بدلاً من الحسين حينما أعلن هذا ثورته. وقد أقام جل أيام الحرب في بيروت ولبنان.

(٢) الداماد لقب كان يطلق على من له صلة مصاهرة بالاسرة العثمانية ومعنى الكلمة «صهر».

مع أحمد نامي الرسائل حول المنهج والموافقة عليه وتألفت الوزارة في شهر مايس واشترك فيها من الوطنيين لطفي الحفار وفارس الخوري وحسني البرازي.

ولكن الروح الاستعمارية الغادرة لم تغير خطتها فمع أن الوزارة تألفت على أساس منهج معين متفق عليه تناول في ما تناوله توحيد جبل الدروز واللاذقية واستعادة الاقاليم المضمومة إلى لبنان وتسكين الاضطرابات والنفوس الثائرة بالتسامح والملاينة فإن جوفيل ومعاونيه من جهة وقواد القوى العسكرية من جهة أخرى لم يلبثوا أن تجاهلوا هذا؛ و أخذوا يسيرون في خطة معاكسة بالنسبة للمسائل الأولى، وأن تذرعت السلطات العسكرية بأسباب تافهة فقصفت الميدان بالمدافع ودمرت فيه نحو ألف منزل، وأخذت تضيق الخناق على مراكز الثورة الرئيسية، وتعيد تمثيل أدوار التنكيل والتحريق والتدمير والغرامات. وعمدت السلطات الافرنسية الى الاستعانة على هذه المقاصد بالمتطوعة الشركسية والأرمنية والاسماعيلية والنصيرية والمارونية والدرزية من كتائب الجيش المحلي والتي أعدت خاصة لمثل هذه المواقف على ما قلناه قبل. وكان ينطوي في هذا التدبير اللئيم بنوع خاص نية إضرام نار الحقد والبغضاء والفتنة بين سكان البلاد وجعل هذه العناصر والطوائف تتمسك بالافرنسيين وتخلص في خدمة أغراضهم خوفاً من أهل البلاد وطمعاً بالحظوة.



لطفي الحفار

ولقد كان لكل ذلك أثر ما في تخفيف حرة الثورة بالرغم مما أبداه المجاهدون من بسالة وإقدام وبطولة في مختلف الجبهات. واغتنم جوفنيل الفرصة فأباح لمتطوعة الشركس والأرمن هذا الحي فعاثت فيه تحريقاً ونهباً وفتكاً وهتكاً، ووسعت نطاق قمعها حيث تناول قرى الغوطة بالتحريق والتدمير والنهب وتقتيل الابرياء الذين لاعلاقة لهم بأعمال الثورة والتمثيل بمن ظفروا به من رجال الثورة تمثيلاً لئيماً.. مما أحدث رد فعل شديد في الشعب، وحمل الوزراء الوطنيين الثلاثة على المطالبة بالكف عن سياسة القمع والسير في نطاق المنهج المتفق عليه بالنسبة للوحدة والاقاليم المضمومة إلى لبنان؛ ويظهر أن زملاءهم في الوزارة لم يتضامنوا معهم في الموقف فطلبوا من الرئيس تعديل وزارته وجعلها متجانسة ومخلصة للمنهج المتفق عليه؛ فلم يلبثوا أن فوجئوا باستقالة الوزارة وإعادة تأليفها بدونهم، وباعتقالهم مع سعد ا لله الجابري وفوزي الغزي وأديب الصفدي وبدر الدين الصفدي ونفيهم إلى الحسكة ثم إلى أميون لبنان حيث بقوا كذلك شهوراً عديدة ولم ترد إليهم حريتهم إلا بعد انسحاب جوفنيل بمدة طويلة.

وفي أواسط عام ١٩٢٦ انسحب جوفنيل من سوريا نتيجة للضجة التي ثارت حول كوارث التدمير والطغيان في القمع ولا خفاقه في مراوغاته وحيله وإيجاد فئة تتعاون معه على ما أراده من حلول هزيلة. وقد ظلت الثورة مشتعلة بعده مدة أخرى، غير أن الحملات القوية الجديدة أخذت تنجح في ضغطها وتطويقاتها واستطاعت أن تضطر المجاهدين إلى الانسحاب خطوات بعد خطوات من جبهات القتال في الغوطة ثم في الجبل؛ ولا سيما أن التعب أخذ يدب فيهم، والعتاد والمال والوسائل الضرورية تشح بين أيديهم حتى أذا كان صيف عام ١٩٢٧ كانت بقية السيوف وخاصة بني معروف قد نزحت إلى

شرق الاردن. وهنا كشر الانكليز عن نابهم لهم، حيث كانوا نـالوا مـا يريدونـه من فرنسا مـن تعديـلات حدوديـة، فـاضطروا الى الالتجـاء إلى قريّـات الملـح في أراضي المملكة السعودية بعد أن نال بعض رجال الحركـة الاذن لهـم بذلـك مـن الملك عبدالعزيز، وأقاموا فيها بضـع سـنوات متجلديـن صـابرين علـى الشـظف والحرمان بعد نضال رائع وبطولة فائقة امتد امدهمـا سـنتين طويلتـين، هـذا مـع التنبيه على أنهم ظلوا على صلة بالحركـة الوطنيـة في خطـوات الحلـول النصفيـة التي حاولت أن تفرضها فرنسا، وكـان لصلتهـم تأثـير توجيهـي قـوي في مختلـف أدوار هذه الخطوات.

احداث مؤسفة في صفوف العاملين في الثورة واثرها :

ونقول مع الاسف إنّ رجال الحركة الذين اشـتركوا في الثـورة وتنظيمهـا وتمويلها وتموينها لم يبقوا أثناءها متماسكين متضامنين؛ فقد وقع بينهم أنشقاق في صدد ادارة الثورة وتمويلها وتموينها، وسرى ذلك إلى صفوف المجاهدين وقادتهم مما نتج عنه بعض صور ووقائع محزنة، وكان ذلك من عوامل ما طرأ على حركـة الثورة من فتور وضعف، وما كتب لحركات القمع الشديدة من نجاح؛ وقد كان هذا الانشقاق شبه امتداد لما كان مـن حركـات انشـقاقية وتشـاد وتجـاذب بـين رجال العهد الفيصلي، حيث كان المتشادون المتشاقون يمثلون الفئتين المتشـادتين المتشاقتين في ذلك العهد أو يمتون إليهما.

أثر الثورة في الروح الوطنية :

على أن ذلك الجهاد الأبي القـوي والضحايـا العزيـزة، والعزيمـة القويـة لم تكن لتذهب سدى. فقد كان ذلـك كلـه دلائـل قويـة وهاجـة النـور علـى قـوة

الروح القومية في الشعب السوري وتقديره قيمة الحرية والكرامة والاستقلال، وليس من ريب في أنه كان ذا أثر بليغ في فرنسا نفسها، وأنه برهن لها على حيوية الشعب العربي وإبائه وإستمرار اتقاد الشعلة القومية واستحالة قتل الروح الاستقلالية فيه ولكن الروح الاستعمارية التي أملت عليها الغدر والتنكر لمبادىء الحق والحرية والوفاء منذ الأصل كانت تتغلف أحياناً بالاعتبارات العاطفية وأخرى بالتقاليد والمصالح التي كانت طاغية على رجالها، فكان ذلك عاملاً في استمرار البلاء على سوريا واستمرار المراوغات والغدر في المدة الطويلة التي تلتها.

بونسو ومكره :

وجاء بونسو في أواخر عام ١٩٢٦ خلفاً لجوفنيل، وكانت الحملات العسكرية ضد الثورة في طريق النجاح. وقد أعلن فيما أعلن أنه آت لاتمام الخطة التي اعتزمها سلفه والتي وافقت عليها الحكومة الافرنسية وجمعية الامم والمستمدة من ميثاق هذه الجمعية؛ وهي تمهيد السبيل لنمو سوريا ولبنان نمواً تدريجياً كدول مستقلة وتنشيط الاستقلال الداخلي على قدر ما تسمح به الظروف والاستمرار في القيام بواجبات الانتداب المعهودة إلى فرنسا! وإن كل هذا يجب أن يتضمنه الدستور المقبل؛ غير أنه لايمكن أن يتم طفرة أو أن يكون من شأنه تخلي فرنسا عن مهمة ضمان الأمن والسكينة والارشاد. وهكذا دشن عهده ببشرى سيادة الروح الاستعمارية واستمرارها مع محاولة لفها ببرقع زائف.

ولقد أقام هذا المفوض في منصبه نحو سبع سنين أي مدة تعدل مدة جميع من سبقه، وقضت البلاد في عهده دوراً عجيباً أخر من المراوغات والمخاتلات

والمحاولات بسبيل الحلول الهزيلة. وكان هذا الرجل على عكس جوفنيل سكوتاً بارع المراوغة في صور الدس والاختبار والمشاورة وعدم الاهتمام للوقت؛ حيث كانيمررالأشهر الطويلة بين خطوة وخطوة ومرحلة ومرحلة مع أن الخطوات والمراحل كانت تقتضي التلاحق. وكان هذا متعمداً من دون ريب للتخدير وإيجاد الثغرات وصرف الافكار إلى انتظار نتائج الخطوات والمراحل بشيء من الأمل والسكوت.

ولقد قضى نحو ثمانية عشر شهراً منذ قدومه بحجة الدرس والاختبار والمشاورة مع باريس؛ ثم خطا خطوته إلى دعوة جمعية تأسيسية تضع دستوراً لسوريا وينبثق عنها حكومة ممثلة للشعب تسير مع فرنسا في طريق الحل الملائم للقضية، وقد أصدر تصريحاً وعد فيه بحرية الانتخابات، وقيد الدستور المطلوب وضعه مع ذلك بنطاق مهمة فرنسا الانتدابية المستندة إلى صك الانتداب، وأصدر عفواً استثنى فيه عدداً كبيراً من زعماء الثورة ورجال الحركة القومية. وهكذا كانت خطوته الأولى في سبيل حل قضية سوريا متعثرة بالروح الاستعمارية وكانت خطواته التالية كذلك طيلة عهده؛ مع ما كان في خطوته من تظاهر بالرغبة في مسايرة المطالب الوطنية على النحو الذي كان رجال الحركة والجهاد يصرون عليه مما يصح ان يسجل أنه أثر من آثار الثورة والحركة.

الكتلة الوطنية :

وفي أثناء هذه الحقبة نشأت الكتلة الوطنية على انقاض حزب الشعب الذي غادر عدد من أعضائه البلاد منذ انفجار الثورة ولم يعد ينشط خلالها. وقد

انضم إلى اعضائه الذين بقوا في البلاد فريق أخر من المنسقين معهم في المبادىء الوطنية.

فغدت هذه التشكيلة تمثل الحركة القومية في سوريا وتقودها وظلت كذلك إلى الحرب العالمية الثانية، وكان ينضم إليها من آن لآخر من يتيسر له العودة من رجال الحركة أو من ترى في انضمامه فائدة من رجال البلاد الآخرين.

وبمناسبة تصريح بونسو ودعوته إلى جمعية تأسيسية عقدت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني في القاهرة إجتماعاً ضم جمهرة الرجال الوطنيين الذين ظلوا خارج البلاد وتقرر فيه اذاعة بيان بوجوب تضمين الدستور وحدة سوريا الطبيعية وسلطانها القومي بدون شائبة؛ وأذاع سلطان الاطرش بياناً مثل هذا وموجباً أن يكون جبل الدروز ضمن الوحدة السورية، وعقد أنصار الوحدة في مناطق لبنان واللاذقية مؤتمراً في دمشق قرروا فيه تأكيد الميثاق القومي والمطالبة بالنص على الوحدة السورية التي تضم جبل الدروز ومنطقة اللاذقية والاقضية الاربعة وجبل عامل وسائر المناطق التي ضمت إلى لبنان وصار بها كبيراً ولم تكن منه قبل ذلك. وقد كان غورو أعلن بتاريخ ٣١ آب سنة ١٩٢١ ضم جبل عامل وصيدا وصور وطرابلس الشام وحصن الأكراد وبيروت وراشيا وحاصبيا والبقاع وبعلبك إلى لبنان القديم وسماه لبنان الكبير ضارباً بعواطف ورغبات أهل هذه البلاد وكانت الاقضية الاربعة تابعة لولاية سوريا وجبل عامل وصيدا وصور وطرابلس والحصن وبيروت تابعة لولاية بيروت التي كانت تضم كذلك لوائي عكا ونابلس في فلسطين؛ وأكثرية البلاد المنضمة مسلمة.

وقد كانت الوفود المشتركة في هذا المؤتمر من الطبقة الوطنية المحترمة في مناطقها والمعبرة عن رأي أهلها تعبيراً صادقاً. وقد كان لهذه الحركات والبيانات أثر قوي في سد أزر الكتلة الوطنية وتثبيتها كما كانت إعلاناً جديداً عن تغلغل فكرة الوحدة القومية في مختلف المناطق الشامية، وعن تذمر الذين ضموا إلى لبنان بالرغم عنهم.

الجمعية التأسيسية والدستور :

وفي ٢٤ نيسان سنة ١٩٢٨ جرت انتخابات الجمعية التأسيسية واشتركت الكتلة الوطنية فيها بالرغم عما كان من تقييد بونسو الدستور بنطاق الانتداب وغموض وعوده ومقاصده، وأذاعت بياناً أكدت فيه حرصها على تحقيق الأهداف القومية في هذه الخطوة، فحالف مرشحيها النجاح بمقياس متناسب مع الروح الوطنية التي كانت سائدة بقوة الثورة وتضحيات البلاد وبطولة المجاهدين مما لم يكن يتوقعه الافرنسيون وجعلهم يحسبون له الحساب وسارت الجمعية في عملها إلى أن تم وضع دستور احتوى فعلاً على مطالب البلاد كالنص على السيادة والوحدة وعدم اعتبار ما كان من تجزئة، وحقوق رئيس الجمهورية بصفته ممثل السيادة القومية، وحقوق المجلس النيابي ومسؤولية الوزارة أمامه والتمثيل الخارجي والجيش الخ.

وقد كانت المواد التي تنص على ذلك والتي عرفت بالمواد الست موضوع تشاد بين الجمعية وبونسو وقد تضمنت المواد البنود التالية:

المادة (٢) ان البلاد السورية المنفصلة عن السلطنة العثمانية ذات وحدة سياسية لا تتجزأ ولا عبرة لكل تجزئة طرأت بعد الحرب العامة حتى اليوم.

المادة (٧٣) لرئيس الجمهورية حق العفو العام. أما العفو الخاص فلا يمنح إلا بقانون.

المادة (٧٤) يتولى رئيس الجمهورية عقد المعاهدات الدولية وإبرامها أما المعاهدات التي تنطوي على شروط تتعلق بسلامة البلاد أو بمالية الدولة، والمعاهدات التجارية وسائر المعاهدات التي لا يجوز فسخها سنة فسنة فلا تعد نافذة إلا بعد موافقة المجلس عليها.

المادة (٧٥) يختار رئيس الجمهورية رئيس الوزراء ويعين الوزراء بناء على اقتراح رئيسهم ويقبل استقالتهم ويولي الممثلين الأجانب السياسيين ويقبل الممثلين ويعين الموظفين والقضاة ويرأس الحفلات الرسمية ضمن حدود القانون.

المادة (١١٠) تنظيم الجيش الذي سينشأ يكون بقانون خاص.

المادة (١١٢) رئيس الجمهورية يعلن بناء على اقتراح مجلس الوزراء الأحكام العرفية في الأماكن التي تحدث فيها اضطرابات أو قلاقل. ويجب أن يعرض إعلان الاحكام العرفية المذكورة على المجلس النيابي فوراً. فاذا كان المجلس غير منعقد دعاه للاجتماع بوجه السرعة.

وقد اعتبر بونسو هذه البنود متعارضة مع مهمة الإنتداب وغاياته وطالب بحذفها. وأبت الجمعية ذلك بقوة وتأثير النواب الوطنيين لأن الدستور بدونها يغدو تافهاً والدولة تكون محرومة من سيادتها واستقلالها. وجرت الاتصالات والمراجعات بسبيل التوفيق؛ ولقد سارت الجمعية في هذا الطريق شوطاً غير يسير حتى أثر عن ابراهيم هنانو زعيم الكتلة الوطنية قوله «لقد تساهلنا إلى أن كدنا

نقع في الخيانة» حيث اقترحت من جملة ما اقترحته للخروج من المأزق هذه التعديلات:

أولاً أن أحكام المواد ٧٣و٧٤و٧٥و١١٠و١١٢ تنفذ بإتفاقيات خاصة بين الحكومتين السورية والإفرنسية ريثما تعقد المعاهدة لتحديد العلاقات بين الدولتين.

ثانياً تعدل المادة الثانية من الدستور على الوجه الآتي: البلاد السورية وحدة سياسية لاتتجزأ وحقوق الاعتراض على التجزئة مضمونة.

غير أن الروح الاستعمارية أبت أن تتساهل لأنها رأت في التساهل انهزاماً وتخلياً عن مطامعها، فأجل بونسو الجمعية إلى أجل غير مسمى ورفض ما قدم له من حلول تساهلية ولم يعبأ بما كان من احتجاج الجمعية التأسيسية والهيئات الوطنية واستيائها، ولم يخجل من ترديد نغمة سوء النية وعدم الثقة والرغبة في الشغب التي كان الافرنسيون يرددونها إزاء المواقف الوطنية. ثم أذاع بعد سنة بقرار منه دستور الجمعية التأسيسية بعد إدخال كثير من التعديلات عليه، ووضع مادة إضافية أخيرة وهي المادة (١١٦) التي تعطل استعمال رئيس الجمهورية وحكومته بعض الحقوق والصلاحيات التي ذكرت في المواد الست الآنفة الذكر حيث عدلت المواد ٢ و ٥ و ٨ و ١٤ و ١٧ و ٢٤ و ٤١ و ٦٨ و ٧٥ و ١٠٧ و ١٠٨ و ١١٥ والغيت المادة ٦٠؛ والتعديلات متصلة بالوحدة والجيش والحرية الشخصية وحرية الصحافة واللغة العربية والانتخابات وصلاحيات رئيس الجمهورية ومدتهن وممثلة للروح الاستعمارية المتحكمة في الافرنسيين، ومحققة لرغبة التدخل ومثل معنى السيادة. أما المادة (١١٦) المضافة فهذا نصها:

«ما من حكم من أحكام هذا الدستور يعارض ولا يجوز أن يعارض التعهدات التي قطعتها فرنسا على نفسها فيما يختص بسوريا لا سيما ما كان منها متعلقاً بجمعية الأمم. ويطبق هذا التحفظ بنوع خاص على المواد المتعلقة بالمحافظة على الأمن والدفاع عن البلاد وبالمواد التي لها شأن بالعلائق الخارجية ولا تطبق أحكام هذا الدستور التي من شأنها أن تمس بتعهدات فرنسا الدولية فيما يختص بسوريا أثناء مدة التعهدات إلا ضمن الشروط التي تحدد بإتفاق يعقد بين الحكومتين الإفرنسية والسورية. وعليه إن القوانين المنصوص عليها في مواد الدستور والتي قد يكون لتطبيقها علاقة بهذه التبعات لا يناقش فيها ولا تنشر وفقاً لهذا الدستور إلا تنفيذاً لهذا القرار، وإن القرارات ذات الصفة التشريعية أو التنظيمية التي اتخذها ممثلو الحكومة الافرنسية لا يجوز تعديلها إلا بعد الاتفاق بين الدولتين.»

وقد أثارت هذه التعديلات والتحفظات العجيبة التي مسخت الدستور والاستقلال والسيادة وحرية مجلس النواب والحكومة ورئيس الجمهورية الهياج وقامت المظاهرات الاحتجاجية، وأضرب الناس في دمشق وغيرها، وأعلنت الكتلة الوطنية أنها لن تتقيد بها وأنها لن تتراجع عن اعتبار دستور الجمعية هو القائم الواجب احترامه وتطبيقه. ودعا سلطان الأطرش إلى مؤتمر يعقد في مربض المجاهدين في الصحراء فأستجاب اليه فريق كبير من رجال الحركة الوطنية، وقرر المؤتمر تجديد العهد على إنقاذ سوريا وتحقيق مطالبها وحقوقها كاملة.

.ومما جرى أن بونسو أقدم على حركة أثبتت إصرار فرنسا على النهج الاستعماري الخاص بجبل الدروز ومنطقة اللاذقية مما أشرنا إليه في مناسبة سابقة؛ حيث أصدر مع دستور سوريا ثلاثة دساتير أخرى واحداً لجبل الدروز وثانياً

لمنطقة اللاذقية وثالثاً لمنطقة الاسكندرونة تنص على استقلال هـذه المنـاطق ماليـاً وإدارياً، وحصر دستور سوريا الممسوخ في مناطق دمشق وحوران وحلب وحماه وحمص.

الجمهورية السورية الأولى في ظل الانتداب :

وصبر سنتين طويلتين ثم أعلـن في أوائـل ايلـول مـن عـام ١٩٣٢ موعـداً لانتخاب المجلس النيابي الذي ينص عليه دستوره. وقد حصل قبيل هذا الاعـلان من زعماء الدروز والعلويـين الأنصـار المندمجـين في السياسـة الافرنسـية والذيـن كانوا يتحكمون بتعضيد فرنسا في رقاب شعبيتهم على مضـابط ببقـاء الانتـداب الافرنسي والرغبة في الانفصال والكيان الخاص مقدمة لما يـراد أن تكـون عليـه المعاهدة المزمع عرضها على سوريا. ولم يكتف بهذا بل حصل على مضـابط مـن المسيحيين الأنصار بطلب بقاء الانتداب والرغبـة في الحمايـة الافرنسـية والنـص على ذلك في المعاهدة!

وجرت الانتخابات فنفذت السلطات الافرنسية ما بينته وتدخلت تدخـلاً فظيعاً في الانتخابات لضمان فوز مرشحيها، وكان لعمالها وضبـاط اسـتخباراتها خاصة دور كبير في هذا الباب حيـث أمكنهـم نشـر جـو كئيـب مـن الارهـاب، وأصلت السيف على رؤوس زعماء الوطنيين وصحفهم واجتماعـاتهم، وشـجع الأنصار والمأجورون على نشر المناشير ضدهم وإلصاق تهمة التآمر علـى الوطـن والمآرب الذاتية والهوس بهم.

ولقد أدى تدخل السـلطات السـافر في الانتخابـات لصـالح مواليهـا ضـد الوطنيـين إلى مظـاهرات وهيـاج وتحطيـم صنـاديق الانتخـاب في أمـاكن كثـيرة

ووقوع اشتباكات بين الجيش والشعب وجرح عدد من الأهالي واعتقال عدد كبير من الشباب في دمشق وحلب وحماه. وكانت نتيجة الانتخابات فوزاً ساحقاً لمرشحي السلطات بحيث بلغ عددهم ٥١ من ٦٩؛ وقد قدمت الطعون الموثقة بالوثائق الدامغة ولكن أكثرية المجلس بتشجيع السلطات لم تعبأ بذلك وصدقت الانتخابات واعتبرتها صحيحة.

ولقد تردد نواب الكتلة الوطنية في الاشتراك في المجلس بعد هذه النتيجة، ثم رأوا أن يسيروا في الشوط مرحلة أخرى فقرروا الاشتراك في المجلس والوزارة.

وقد انتخب محمد علي العابد رئيساً للجمهورية بموافقة الوطنيين الذين تفادوا بهذا نجاح مرشح السلطة صبحي بركات، مع أن محمد علي العابد كان ممن فازوا في الانتخابات من مرشحيها. وتولى رئاسة الوزارة حقي العظم الذي كان كذلك من مرشحيها ودخل جميل مردم ومظهر رسلان من الكتلة فيها.

المعاهدة الانتدابية ورفضها :

وبعد قليل ظهر ما كان مبيتاً حيث عرض المفوض السامي معاهدة معدة لا تحقق سيادة ولا وحدة فقررت الكتلة انسحاب ممثليها من الوزارة وأعلنت عزمها على مقاطعة المجلس فأجّل عرض المعاهدة.

وأعفي بونسو من المنصب وعين دومارتيل خلفاً له. وقد اضطلع بعبء عرض المعاهدة وتصديقها. وقد تبادل التوقيع عليها فعلاً مع رئيس الوزارة في أواخر عام ١٩٣٣؛ وكانت تنص على توكيل فرنسا في تمثيل سوريا الخارجي،

وفرض مساعدة فرنسا العسكرية في حفظ الأمن والدفاع، وبقاء الانتداب إلى أن تقبل سوريا في عصبة الأمم، وتعليق مساعدة فرنسا في هذا القبول على وصول سوريا إلى حالة من الرقي تسمح بذلك، وفرض مساعدة فرنسا في تنظيم دوائر الحكومة والدرك والشرطة والجيش لتحقيق ذلك الرقي في فترة قدرت بأربع سنين مبدئياً، وبقاء قوات برية وجوية في أراضي سوريا للغايات المذكورة، كما كانت تنص على استقلال جبل الدروز ومنطقة اللاذقية الذاتي والمالي والاداري. ولم تر فرنسا بأساً بعد كل هذه النصوص في النص على استقلال سوريا وسيادتها، وعدم اعتبار وجود قواتها احتلالاً، واعتبار جبل الدروز ومنطقة اللاذقية جزءاً من سوريا!! جرياً مع الذهنية الاستعمارية بأن العرب يقنعون بالاقوال والاشكال، وقد وجدوا منهم من يقنع بذلك ويوافق على المعاهدة.

وقد عرضت الحكومة المعاهدة على المجلس، وكانت أخبارها قد أثارت هياجاً وصخبا؛ فاضطر كثير من نواب السلطات إلى التوافق مع نواب الكتلة الوطنية وقرروا رفضها ووقعوا على مضبطة بذلك. ووزعت المعاهدة على النواب وبدىء بمناقشة عامة حولها، والقى وزير المالية خطاباً مستفيضاً في الدفاع عنها في جلسة ٢٤ تشرين الثاني ١٩٣٣ وحينئذ تقدم جميل مردم إلى المنبر فتلا مضبطة الرفض؛ وبدا أن السلطات كانت تتوقع ذلك حيث وقف مندوب المفوض السامي وتلا قبل أن ينتهي جميل مردم من تلاوة السطر الأخير من المضبطة قراراً من المفوض بوقف المجلس جاء فيه أنه قرر وقف مذاكرات المجلس لأنه خرق أحكام مواد الدستور بمناقشته في موضوع غير موضوع الميزانية المعروضة عليه تحت تأثير المظاهرات.

ولكن محضر الجلسة كان قد دوّن الوقائع والمضبطة أيضاً. وقد أمر المفوض الحكومة بسحب المعاهدة من المجلس فأرسل رئيس الوزارة كتاباً جاء فيه أنه ثبت قلة استعداد مجلس النواب للاشتراك في مسؤوليات المعاهدة ولذلك رأى فخامة المفوض السامي استردادها لأنه لا يجوز وضع أعباء المناقشة فيها على عاتق مؤسسة لم ترسخ فيها ممارسة الأحكام الدستورية والتقاليد النيابية..

على أن أكثرية أعضاء المجلس اجتمعت في دار رئيسها بعد أن منعت الاجتماع في دار البرلمان ووقعت بياناً احتجت فيه على تدخل السلطات الانتدابية ووقفها الحياة النيابية، وأعلنت توكيد رفضها للمعاهدة المغايرة لرغائب الأمة من وحدة وسيادة واستقلال. وهكذا باءت المحاولة بالاخفاق، وأثبتت سوريا وعيها، وجرفت قوة روحها الوطنية كتلة كبيرة من مرشحي السلطات الذين اختارتهم ليكونوا آلات طيعة في يدها؛ وكان لهذه النتيجة رد فعل عظيم في البلاد فأقيمت حفلات الحفاوة والتكريم للنواب، كما قامت المظاهرات الاحتجاجية على تعطيل المجلس.

ولم تكن السلطات التي تستملي الروح الاستعمارية لتخجل مما قالته وفعلته مع أنه هو الذي لا يتفق مع المنطق والحق والدستور والواقع.

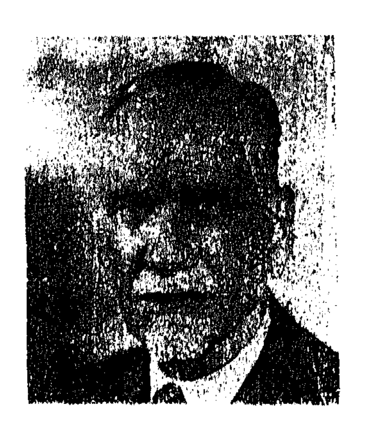
ومن المؤسف أن الوزارة ظلت في الدست بالرغم عن ما منيت به من صدمة واخفاق وبالرغم من وقف المفوض السامي للحياة النيابية التي انبثقت من دستور نافذ وقامت الجمهورية الاولى وحكومتها على أساسه؛ بل أنها لم تبال فضلا عن ذلك ان تكون واسطة تبليغ لقرارات المفوض السامي؛ بل ولقد سارت شوطاً أبعد في النكاية حيث نفذت إيعازاً انتقامياً فأنزلت مخصصات أعضاء المجلس وملاك ديوانه رغم نص الدستور.

على أن كل هذا الاندماج والممالأة لم ينجها من المصير المحتوم؛ فقد أوعز لها بالاستقالة بعد قليل من هذه التمثيلية لتحل محلها حكومة الشيخ تاج الدين.

حكومة الشيخ تاج الأولى :

وحاول هذا اقناع الكتلة الوطنية بالتعاون معه للخروج من المأزق وقد كان التوتر مشتداً بين الكتلة والسلطات فلم تر الكتلة هذه المرة وجهاً ولا فائدة في ما دعيت إليه فألف وزارته من عناصر أخرى؛ وظلت الكتلة تتولى تسيير الحركة نحو تحقيق الميثاق وتوالي احتجاجها ونشاطها.

وقد أدى هذا الموقف السلبي إلى اشتداد التوتر بين السلطات الافرنسية وحكومة الشيخ تاج من جهة وبين الكتلة التي كان الشعب يؤازرها وينضوي تحت لوائها من جهة أخرى.


هاشم الأتاسي


فخري البارودي

قوة الحركة الوطنية وأحداث عام ١٩٣٥ :

ولم تكد تنتهي سنة ١٩٣٤ حتى أخذت الحركة الوطنية تعود إلى قوتها وتزعج السلطات الحكومية السورية والانتدابية معاً وكان شعارها سقوط الحكومة التاجية وتحقيق الميثاق على يد الكتلة. وقد كانت إلى هذا حركة مقاطعة للكهرباء والترام قادها فخري البارودي أحد رجال الكتلة احتجاجاً على تعسف الشركة الاجنبية، فكانت هذه الحركة وسيلة إلى الهاب الشعور الوطني المتقد، وعمدت السلطات الى القمع بالعنف فاعتقلت فخري وبعض مساعديه ونفتهم إلى مركز في الصحراء كما اعتقلت كثيراً من مساعديه الآخرين فازدادت النار اشتعالاً وأعلنت دمشق الاضراب العام وتبعتها المدن الأخرى، واستمر اضراب دمشق خاصة نحو شهرين تكررت فيهما المظاهرات الصاخبة والاشتباكات الدموية والاعتقالات، وغدت البلاد وخاصة دمشق في حالة ثورية عصبية، كانت تشتد كلما اشتد الافرنسيون في العنف والشدة. وبذل الشيخ ما استطاع من جهد لتلافي الحرج فلم يفلح، وخشي دومارتيل أن تتطور الامور إلى ثورة كبرى جديدة، ولم تزل صورة الثورة الكبرى ماثلة للعيان بما كبدته للافرنسيين من جهد وضحايا فجنح إلى المسايرة، واجتمع برئيس الكتلة الوطنية هاشم الاتاسي الذي استلم دفة الزعامة بعد موت هنانو ووقع الاثنان اتفاقاً مبدئياً على خطوط حل يتسق مع المطالب الوطنية على أن تجري المفاوضات بشأنها في باريس.

إقالة الشيخ والمعاهدة الثانية :

ثم أقال حكومة الشيخ تاج في شباط ١٩٣٦ وعين حكومة انتقالية

حيادية برآسة عطا الأيوبي وعضوية وزراء رضيت عنهم الكتلة، وأعيد فخري البارودي من منفاه، وأفرج عن بقية المعتقلين وكان ذاك مما أتفق عليه أيضاً، فانفرجت الأزمة وفكّ الإضراب الطويل الذي كان له صدى بعيد في الأوساط السياسية المختلفة والذي كان الأول من بابه أيضاً بحفاوة وطنية استشعر بها الشعب بعزته وكرامته. وسافر وفد المفاوضة المؤلف من رئيس الكتلة وبعض أعضائها وبعض أعضاء الوزارة إلى باريس ومعهم مارتيل وجرت مفاوضات انتهت بعقد معاهدة أيلول عام ١٩٣٦ التي كانت على غرار المعاهدة العراقية ـ الإنكليزية حيث جعلها رجال الحركة الوطنية نموذجاً وأسوة... وقد نصت على السيادة والاستقلال وحق سوريا في التمثيل الخارجي، وعينت فيها فترة انتقال مدتها ثلاث سنوات تتسلم الحكومة الوطنية خلالها ما في أيدي السلطات الانتدابية من دوائر وسلطات حكومية مشتركة وغير مشتركة وتدخل سوريا عقب انقضائها عصبة الأمم. ومع أنها كانت تنطوي على ثغرات عديدة وخاصة في صدد صفة الوحدة السورية حيث أصر الأفرنسيون على أن يكون لجبل الدروز واللاذقية ومنطقة الاسكندرونة بعض الامتيازات والشخصية الخاصة، وكذلك في صدد مركز فرنسا السياسي والعسكري والإرشادي الثقافي والاقتصادي حيث الحق بالمعاهدة ملاحق تسجل لفرنسا امتيازات وحقوقاً ومنافع عديدة في هذه الشؤون فأنها كانت على كل حال خطوة جديدة ومستقيمة إلى تحقيق الميثاق القومي.

وقد جرت الانتخابات للمجلس النيابي الجديد ففاز مرشحوا الكتلة فوزاً كبيراً، وانتخب هاشم الأتاسي في كانون الأول من عام ١٩٣٦ رئيساً للجمهورية بدلا من محمد علي العابد الذي نصح بالاستقالة تفادياً من الإقالة

والخلع، وتألفت أول حكومة يصح أن تسمى الحكومة الوطنية الاستقلالية برآسة جميل مردم وعضوية سعد الله الجابري وشكري القوتلي والدكتور عبد الرحمن الكيالي، ونعت عهدها بالعهد الوطني.

العهد الوطني الأول
١٩٣٦ - ١٩٣٩

- ١ -

الحيوية الوطنية في العهد الوطني :

لم يكد هذا العهد يقوم وتستلم الحكم فيه الكتلة الوطنية التي كانت كثرتها من رجال الحركة القومية الأول وممن كان لهم دور بارز في عهد فيصل وما بعده من عهود النضال حتى أخذ جو الشام يتبدل ويبتسم به ذلك العبوس المرير المديد، ويشبه بعض الشبه جوّها في عهد فيصل، وأخذ نسيم العزة القوية يهب فينعش الأرواح ويثير الحماس واخذت الحركة العربية تستعيد جيشانها وحيويتها، والنشاط القومي يبدو قوياً، وأداة الحكم تدور في دائرة الإصلاح والإحياء والإنعاش والتنظيم واستصدر العفو عن المحكومين من زعماء الثورة ورجال الحركة القومية فأخذوا يعودون إلى الشام وتقام لهم الاستقبالات الرسمية والشعبية الحافلة، وبالجملة فقد بدأ عهد يبعث في النفوس الاستبشار والتفاؤل.

دسائس الأفرنسيين للعهد :

غير أن الدسائس لم تلبث أن أخذت تدس لهذا العهد فتعكر صفوه، وتلبد جوه، وتعرقل سيره، وأخذ الناس يشعرون أن فرنسه الاستعمارية لم تتغير، وأن

ما بدا منها من الجنوح للملاينة لم يكن الا من قبيل مسايرة الظروف الخارجية والداخلية، حيث كانت نذر الثورة تهدر في الداخل وشبح الحرب العالمية بسبب أزمة عدوان الطليان على الحبشة واستعادة الألمان حيويتهم وحريتهم ومطامحهم يتراءى في الخارج.

ولقد لعب الموظفون الافرنسيون المحليون وضباط الإستخبارات خاصة في سبيل إحباط هذا العهد دوراً لئيماً وفظيعاً جداً. فقد كانوا يتمتعون بالجاه والمركز والنفوذ والمرتبات الضخمة والامتيازات ووسائل الإثراء المتنوعة، وكانوا المنفذين للسياسة الاستعمارية التي سير عليها خلال المدة الطويلة، ولم يكن أكثرهم ذوي كفاءات علمية وفنية وإدارية تفسح لهم مجال الرزق الواسع في ميدان آخر أو في فرنسه مثلا، ورأوا في نجاح هذا العهد قطع أرزاقهم ونهاية مجدهم، فقابلوه بالسخط واعتزموا الدس له وإحباطه وعدم تيسير استلام أي إدارة أو صلاحية من الادارات والصلاحيات التي كانت في يد السلطات الانتدابية والتي نصّت المعاهدة على تسليمها خلال فترة السنوات الثلاث للاحتفاظ بما كانوا يتمتعون به من جاه ورغد رزق ومن جهة، والكيد لرجال العهد القوميين الذين وقفوا من السلطات الاستعمارية التي كانت تتمثل في اشخاصهم موقف المناضل منذ البدء والذين لم يندمجوا في ماكان يعرض من حلول هزيلة تحفظ لهم ذلك الرزق والمجد من جهة أخرى. فأخذوا يتأمرون على العهد ويكيدون لرجاله بكل وسيلة. وقد أكسبهم طول المران براعة وقدرة في الكيد والدس وإثارة الهواجس والفتن والأحقاد، كما أنهم استطاعوا مع الزمن أن يكونوا أنصاراً وأعضاءاً مأجورين أوطامعين أوحاقدين، ولم يتورعوا عن أي شيء في سبيل تحقيق غرضهم والوصول إلى هدفهم.

ولقد نجحوا في مؤامراتهم ومكائدهم بما بثوه من دعايات وتحريضات، وأثاروه من هواجس وفتن، وبما لفقوه من أكاذيب ورفعوه من تقارير في باريس، وقد استند رجال الأحزاب الاستعمارية والعسكرية إلى ذلك كله، واستغلوا ما كان من أزمات عالمية فحملوا الحكومة الافرنسية على أن تخطو في النهاية خطوتها الغادرة إلى نكث العهد ونقض الميثاق، ونفض اليد من المعاهدة التي وقعتها، والعهد الذي قام عليها.

ومما يجدر بالتسجيل أن دسائس الموظفين الافرنسيين أخذت تلمس منذ أوائل هذا العهد بمختلف الاشكال فلم تقابل بالحزم الكافي، فكان ذلك عاملاً في تماديهم في خطتهم إلى أن وصلت إلى البشاعة التي لا يمكن أن تطاق، وظهرت أصابعهم الملوثة صريحة واضحة دون ما خجل او تستر في كثير من الأحداث والمناوآت والفتن.

ولقد كانت الجزيرة وجبل الدروز ومنطقة اللاذقية خاصة من مسارح هذه الأحداث والمناوآت والفتن التي قام اولئك الموظفون بأدوارهم الخبيثة عليها، ووجهوا إلى العهد وكرامته وهيبته أشد الطعنات.

موقف نصارى الجزيرة من العهد :

ولقد كان من التياريين الذين يسمون أحياناً بالاشوريين تسمية مغلوطة جماعات ساكنة في البلاد التركية المتاخمة للعراق وسورية الشمالية، وكانت وسيلة شغب وفساد وتمرد في الأنحاء التي كانت فيها في أيدي الأجانب فلما نجحت الحركة الكمالية اضطرت إلى مغادرة الأراضي التركية فشجعهم الانكليز والافرنسيون على الهجرة إلى العراق وسورية والتوطن فيهما، وأنزل الذين أتوا

إلى سورية في محطة القامشلي وحواليها في الجزيرة، ومنحوا الأراضي والمساعدات للتوطن والاستقرار، وادخل فريق منهم في الجيش السوري. وقد انضم اليهم بعض الذين هاجروا إلى العراق حيث وقف هؤلاء من حكومة العراق واعتماداً على ما رأوه من عطف الانكليز ورعايتهم موقف المتمرد المشاغب، فكان باعثا للحكومة العراقية عل التنكيل بهم، ففر المشاغبون من العراق إلى سورية، وشجعهم الافرنسيون على التوطن عند اخوانهم السابقين،فتكوّن من هؤلاء وأولئك ومن بعض الشراذم العنصرية والنصرانية الأخرى مجموعة بلغ عددها نحو عشرين الفا استقروا في قرى الحسكة وعاموده والقامشلي، وقد وجد الافرنسيون في هذه المجموعة عنصر شغب ودس، واستجابت هي اليهم لتنال الرعاية والحماية الافرنسية في وسط الخضم العربي الاسلامي الذي هم فيه والذي تتكون أكثريته الكبرى المحلية من البدو والاكراد، فصارت لهم انصاراً واعضاداً وعيوناً وأداة شر وفتنة، وكانت تتجه في كل اتجاه يريد الافرنسيون أن يكون فيه معاكسة ومغايرة للامال الوطنية والحركةالعربية الاستقلالية، كما كان المجندون منها في مختلف الحركات والمواقف وسيلة تنفيذية صادقة في الاخلاص لهم موثوقة من قبلهم.

فلما كان العهد الوطني حرك ضباط الاستخبارات والموظفون الافرنسيون هذه الاداة ودفعوها إلى التمرد والشغب وفقا للمنهج الذي رسموه للتشويش عل هذا العهد وإحباطه، فأخذت تطالب ببقاء الحماية الافرنسية، وعدم الاندماج في الحكم السوري، وجعل منطقتها ذات شخصية مستقلة كجبل الدروز ومنطقة اللاذقية، وتواقحت بقوة التحريض والتشجيع حتى وصل الامر بها إلى منع كل من يود التوطن في منطقتها ممن يريد الاعمار والعمل من أهل

انحاء البلاد الاخرى المسلمين والبغي عليهم والكيد لهم وسد المنافذ في وجوههم والى التظاهر والاعتداء كذلك على موظفي الحكومة ورفض أوامرها وقوانينها والامتناع عن أداء ضرائبها على مرأى ومسمع من اولئك الضباط والموظفين، بل ولقد حاصر بعض اشقيائهم المحافظ مرة في بيته، واطلقوا النار مرة على محافظ آخر في طريقه إلى الحسكة ليحل محل زميله، وخطفوا مرة ثالثة محافظاً وابقوه سجينا في مكان مجهول بضعة ايام كرهن على اجابة مطالبهم .

وفعلوا هذا في جبل الدروز الذي كان لهم فيه القدم الراسخة والاعضاد والانصار والذي انتهجوا نهجا خاصا فيه ليكون لهم نقطة ارتكاز وكيد في المواقف العصبية.

دسائس الافرنسيين في جبل الدروز ضد العهد الوطني :

كان المتوقع أن تكون الثورة السورية الكبرىالتي ساهم الدروز فيها بنصيب وافر جدير بالاعجاب والتقدير والفخر، والتي كان قائدها العام منهم وامتزج فيها دمهم بدم أخوانهم السوريين، والتي كانت أهدافها وحدة سورية واعتبار جبل الدروز جزءاً منها مما كان يتكرر فيمناشيرقائدها العام كافية لازالة الثغرة الطائفية والانقباضية، وغسيل الهنات المتوارثة فيهم. غير أن الافرنسيين لم ييأسوا وظلوا على دسهم ومكائدهم ونهجهم الاستعماري الذي ترسموه بعد فتور الثورة وزاد في جرأتهم تغيب ابطالهم المجاهدين المشردين في الصحراء.

فلما عقدت المعاهدة وانبثق عنها العهد الوطني واعترف فيها بجبل الدروز كجزء من سورية، ساروا على نفس الخطة في ابقاء الجبل مجالا لدسهم وكيدهم، واستغلوا ما نصت عليه المعاهدة من الاستقلال المالي والاداري المحلي

فيه فأخذوا يشجعون أهله على التشدد في الاحتفاظ بشخصية جبلهم وطائفتهم، ويعرقلون مساعي رجال العهد في اثارة الروح القومية فيهم، واقامة العهد الجديد على اساس التضامن والامتزاج التامين بينهم وبين سائر أجزاء سوريا وابنائها مما هو طبيعي جداً لأن الدروز اقحاح في عروبتهم ولأن شخصيتهم الطائفية ليست إلا اثراً من اثارا تيارات السياسة التي كانت في بعض ادوار التاريخ الاسلامي ـ ويدفعون بعض زعمائهم وأنصارهم وطامعيهم وآلاتهم ومأجوريهم إلى الشغب على الحكومة الوطنية وممثليها وموظفيها حتى وصل الامر إلى اقامة المظاهرات العدائية المسلحة ضد هؤلاء الممثلين و الموظفين و طرد بعضهم على مرأى و مسمع من ضباط الاستخبارات و الموظفين الافرنسيين ، بل لقد كان تشجيعهم على هذا الشغب جهرة و عياناً دون ما تستر و لا استخفاء ، و جعلوا مشكلة الجبل من مشاكل هذا العهد و منغصاته حتى استمرت المشكلة بعده ايضاً لمدة طويلة ، و لم تكد تنتهي الا في الحقبة الأخيرة

دسائسهم في منطقة اللاذقية :

و ما فعلوه في جبل الدروز فعلوه في نصيرية منطقة اللاذقية التي نصت المعاهدة على اعتبارها جزءاًمن سوريا و التي كانوا فيهاأرسخ قدماً بسبب ما كان يوجد فيها من المسلمين السنيين النافذين في بعض المدن ، و لقد قووا انصارهم من الزعماء و المشايخ بالمال و السلاح و حفزوهم إلى الوقوف موقف المتمرد الباغي على السلطات الحكومية السورية،يتحدون نظامها وقوانينها وأمتها وهيبتها، وكان هذا منهم كذلك جهرة بدون تستر أو استخفاء، حتى لقد كانوا يستقبلون زعماء الشغب في بيروت وهم مدججون بالسلاح ومعهم

اتباعهم المدجحون به أيضـاً، كمـا كـان ضبـاطهم يزورونهـم في مراكـز شـغبهم ويتبادلون معهم الهدايا، وجعلوا مشكلة هذه المنطقة من مشـاكل العهـد الوطـني ومنغصاته الـتي استمرت بعـده أيضـاً لمـدة طويلـة ولم تكـد تنتهـي إلا في الحقبـة الأخيرة كذلك.

خيانة الافرنسيين والانكليز في قضية الاسكندرونة :

ومما هو حري بالتسـجيل مـن المواقـف الغـادرة الافرنسـية في هـذا العهـد حادث الاسكندرونة. فهذه المنطقة جزء متمم لسـوريا مـن الوجهـة الاقتصاديـة والجغرافية، وهي مسكونة بأكثرية عربية أكثرها من النصيرية وفيها اقليـة ارمنيـة كما فيها اقلية تركية.

ولقد حرص الافرنسيون وفقاً للمنهـج الاسـتعماري الـذي سـاروا عليـه باستغلال كل فرصة طائفية وعنصرية ودينية في سـوريا وتقويتهـا بسـبيل مناوأة الفكرة العربية القومية وتوطيد اقدامهم على أن تكون هـذه المنطقـة بسـبب مـا فيها من مظاهر وفروق طائفية وعنصرية مسرحاً مـن مسـارح دسـهم وكيدهـم؛ فاعتبروهـا ذات شـخصية خاصـة كمـا فعلـوا بالنسـبة لمنطقـتي جبـل الـدروز واللاذقية، وحكموها في أكثر الظروف حكماًعسكرياً مباشراً، وجرياً على ذلك اصدروا لها دستوراً خاصاً حينما اصدر بونسو دستور سوريا كما فعـل بالنسـبة للمنطقتين على ما ذكرناه سابقاً. وفي معاهدة عـام ١٩٣٢ نـص علـى شـخصية خاصـة لهـا كمـا فعـل ذلـك بالنسـبة للمنطقتـين المذكورتـين أيضـاً، وأصـر الافرنسيون على شيء مـن مثـل ذلـك في معـاهدة عـام ١٩٣٦ وإن كـان جـاء اخف مما كان.

ولقد كان الاتراك بزعامة مصطفى كمال يبيتون في انفسهم الطمع في المنطقة ويعتبرونها جزءاً من دولتهم ويتحينون الفرص لتحقيق مطعمهم. وقد سجلوا تحفظهم في شأنه في اتفاق الهدنة الذي عقدوه مع فرنسا إلى انفراد في سنة ١٩٢٠، فاعتبروا تحفظهم هذا تسجيلاً لحق قبل به الافرنسيون، فكان ذلك مما يقوي مطعهم؛ هذا مع التنبيه على أن التحفظ لم يعد له قيمة بعد معاهدة لوزان التي عقدت بينهم وبين الحلفاء عام ١٩٢٢ والتي لم يسجل فيها شيء من هذا القبيل. ومما لاريب فيه أن المنهج الاستعماري الذي انتهجته فرنسا وموظفوها قد كان عاملاً في تقوية هذا المطمع؛ ولو لم ينتهجوه وغدت المنطقة محافظة عادية كسائر محافظات سوريا لكان من المحتمل أن لا تقع كارثة سلخها عن امها بغياً وغدراً.



مصطفى كمال أتاتورك

ولقد استقرت حالة تركيا الحديثة وقويت خلال الخمس عشرة سنة التي مرت بين معاهدة لوزان وتاريخ الكارثة فقوى مطمعها في اللواء، وغدا ضم المنطقة اليها طائفاً مستمراً في ذهن زعيمها ورئيس جمهوريتها. وكانت معاهدة ١٩٣٦ والعهد الوطني الذي قام على اساسها من الحوافز للحركة العاجلة خشية نجاح العهد وصعوبة تحقيق المطمع بعد مرور مدة من الزمن وقد كان ما بدا من فرنسا وموظفيها من نية الغدر والنكث واحباط عهد المعاهدة من مقويات امل تركيا وزعيمها والباعث على حركتهم؛ فأخذوا في تحريك اتراك المنطقة أولاً ودفعهم إلى المطالبة بالانضمام إلى تركيا أو قيام جهاز حكومي تركي فيها بزعم أن أكثرية سكانها تركية، ولم تلبث الحكومة التركية أن ظهرت على المسرح رسمياً وعلناً لتعضيد حركتهم، فأثارت الموضوع في عصبة الأمم.

ولقد كانت فرنسا وبريطانيا اعتزمتا التقرب إلى تركيا واخذها لجانبهما حينما بدا من هتلر ما بدا وتأزمت الأحوال فسايرها في موقفها وتقرر نتيجة لذلك احصاء اللواء تحت اشراف لجنة دولية. وقد رافق الاحصاء ضغط وتلاعب سافرين من تركيا وفرنسا مما أثار سخط اللجنة وجعلها توقف عملية الاحصاء. ومع ذلك فقد ظلت تركيا تسير في سبيل غايتها وظلت فرنسا تستجيب اليها. ونتج عن ذلك وضع قانون اساسي تطبيقي للواء من قبل عصبة الأمم في شهر مايس من عام ١٩٣٧، وقد نص القانون في ما نص على أن يكون اللواء مستقلا استقلالاً داخلياً تاماً، وتابعاً في الخارجية لسوريا فتطبق فيه الاتفاقات الدولية السورية ويرعى ممثلو سوريا وقناصلها شؤون اهله ويحمل هؤلاء جوازات سورية، وكذلك نص على أن يكون بين اللواء وسوريا وحدة جمركية ونقدية، واعتبر اللواء فيه مجرداً من السلاح وحظر فيه الخدمة الاجبارية وصناعة السلاح ومروره، وجعل لتركيا ميناء حر في مرفأ اسكندرونة تكون

متمتعة فيه بالسيادة التامة. وقد نص النظام فيما نص على أن يكون للواء مجلس تمثيلي ثمانية من أعضائه ترك وستة علويين واثنان سنيون وثلاثة من الطوائف المسيحية، و أن يكون له حكومة على رأسها رئيس منتخب من قبل المجلس لمدة خمس سنوات، و أن تكون اللغة التركية هي اللغة الرسمية الأولى واللغة العربية اللغة الرسمية الثانية. ثم عقدت اتفاقيات بين فرنسا وتركيا تبادلتا فيها التعهد بضمان الحدود بين تركيا وسوريا واللواء وبتأمين الأمن في اللواء والدفاع عنه بواسطة قوة افرنسية وتركية متساوية.ومع ما انطوى في هذا من نذر انسلاخ اللواء عن سوريا وقيام حكومة تركية تقريباً في اللواء فإن فرنسا اقنعت الحكومة السورية بالموافقة على أمل أن يقف الامر عند حد الشخصية المستقلة اللواء ضمن الدولة السورية.

على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد. فقد اشتد جو أوربا تلبداً في اواسط عام ١٩٣٨ واشتدت رغبة انكلترا وفرنسا في محالفة تركيا التي وجدوا فيها سداداً لحاجتهم؛ ولاسيما انهم ضامنون من بلاد العرب وحكوماتها ما يبتغون بالمعاهدات القائمة بينهم وبينها والتي احتوته من القيود والشروط بواقع احتلالهم وسيطرتهم في مصر والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين وشرق الاردن فعرضوا عليها التحالف. وبالرغم من أن حاجتها إلى هذا التحالف لا تقل عن حاجة فرنسا وانكلترا بل تزيد بسبب جوراها من روسيا وتحسبها المستمر منها فان رجالها احسنوا استغلال الموقف من جهة، وطالبوا بضم منطقة الاسكندرونة إلى دولتهم. ووازن الافرنسيون والانكليز بين العرب والترك فوجدوا أن هؤلاء أقوى من الوجهة الحربية والسياسية بالرغم من تفوق العرب في العدد، فلم يعبأوا بهؤلاء وفضلوا ارضاء الترك على حسابهم، ووافقوا على ضم المنطقة إلى دولتهم غير آبهين للعرب وحقوقهم ولا لشرف العهد الدولي الذي قطعوه

على انفسهم والذي ينص بصراحة في صك الانتداب على تحظير التنازل عن أرض ما من سوريا، وسارع الاتراك فاحتلوا المنطقة ورفعوا عليها علمهم غير آبهين كذلك بالعرب وحقوقهم وعواطفهم. وكان ذلك في اوائل تموز من عام ١٩٣٨.

وهكذا ارتكب الافرنسيون خيانتهم الكبرى ضد الوطن السوري العربي وشاركهم فيها الانكليز الذين كانوا دائماً وما يزالون أبطال المساومات على حساب العرب وحقوقهم وابطال المآسي الغادرة فيهم.

ولقد كان لهذه المأساة رد فعل جارح في نفوس السوريين حكومة وشعباً فقامت المظاهرات وارسلت الاحتجاجات، وكان هذا كل ما في استطاعتهم أن يفعلوه إزاء المؤامرة الغادرة.

عدم الانسجام في الافرنسيين وأثره في ما قاسته سوريا :

ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة التناقض والتفكك وفقدان الانسجام في أسلوب الادارة الافرنسية وبين كبار الموظفين الافرنسيين بل وصغارهم أحياناً كثيرة وفي سوريا وباريس مما يرتد إليه كثير من ما كان من مشاكل ومآزق وعثرات ومآس وعسف وبغي في هذا العهد بل طيلة المدة التي بليت فيها سوريا بفرنسا. فدو مارتيل الذي كان أكبر موظفيهم والناظم لسياستهم في سوريا كان قنع وصدق الرغبة في حل قضية سوريا على أساس التفاهم مع الكتلة الوطنية أولاً وعلى أساس مرضٍ ثانيا، واستطاع أن يقنع رجال حكومته في باريس فتطابقوا معه وكان بنتيجة ذلك عقد المعاهدة التي كانت تتضمن نصوصاً يصح أن نجعلها مرحلة صالحة بقطع النظر عن ما فيها من ثغرات. فالمفروض أن تصبح

هذه النتيجة سياسة فرنسا العليا المرسومة وأن تكون هي الناظمة لأعمال وتصرفات الموظفين الافرنسيين إلى أن يتقرر الانحراف عنها في الأوساط العليا التي رسمتها على الأقل. ولكن الذي وقع هو عكس هذا تماماً. فالمندوب السامي عاد يحمل تلك القناعة والرغبة في السير في تطبيق ما تم التعاقد عليه سيراً نزيهاً يغذيه حسن النية على ما ظهر منه، بينما أباح كثير من الموظفين الافرنسيين لأنفسهم أن يسيروا في طريق تناقض مع ذلك كل التناقض؛ ثم أباح كثير من رجال فرنسا الحكوميين والبرلمانيين الذين كانوا من أحزاب الحكومة المتعاقدة أيضاً لأنفسهم وضع العراقيل والعثرات في سبيل حسن تطبيق المعاهدة، ومسخها شيئاً بعد شيء، والتآمر مع بعض الموظفين في سوريا على ذلك عن غير طريق المندوب السامي وعلى غير رغبته وقناعته، حيث كان هؤلاء الموظفون يرسلون التقارير ويتلقون التوجيهات رأساً على ما أستفاضت أخباره حينئذ.

ولقد كان هذا التناقض والتفكك وفقدان الانسجام يبدو كذلك في تصرفات وأعمال المندوبين والموظفين الافرنسيين أنفسهم أيضاً، حيث كان يقع أن يكون لوكيل المندوب السامي في دمشق تصرف واسلوب يناقضان تصرف واسلوب المندوب أو موظفي المندوبية الرئيسيين وفي أمور تتعلق بالسياسة والادارة العامة مما هو مفروض أن يكون له ضابط عام منسجم واحد، وحيث كان يقع تشاد وتجاذب وتدافع حول السياسات المحلية يبدو آثاره للناس، ثم يبقى المتمرد الشاذ في عمله فلا يستطيع الرئيس أن يملي على مرؤسه رأيه ويحمله على السير فيه. بل لقد كان هذا يظهر في المفوضين السامين أنفسهم بحيث يبدو منه أن لكل منهم سياسة شخصية وأنه لم يكن لحكومة فرنسا سياسة عامة مرسومة. فغورو سار سياسة وريغاند على سياسة وسراي على سياسة

وجوفنيل على سياسة وبونسو على سياسة ودومـاريتل علـى سياسـة وبيـو علـى سياسة بينها قليل أو كثير من التناقض.

جهود حكومة العهد الوطني في سبيل المعاهدة وفشلها :

ولقد أرادت حكومة العهد الوطني إنقاذ المعـاهدة والتغلـب علـى مـا قـام أمامها من عـثرات بـأي ثمـن، فسـارعت أولاً إلى عـرض المعـاهدة علـى المجلس النيابي وأخذت مصادقته عليها، ثم أخذت تبـذل جهدهـا في بـاريس لمثـل ذلـك باعتبار أن التصديق عليها قمين بإيجاد الاستقرار واحباط المكائد وازالة العثرات. وقد زار رئيسها باريس لهذا المقصد أكثر من مرة، فكان يراوغ معـه ويعتـذر لـه بانتظار الوقت الملائم، ويستغل موقفه وما كان يلقاه العهد من دسائس وعراقيـل ومآزق، وما كان من مواقف الاحزاب العسكرية والاسـتعمارية استغلالاً لئيمـاً فيقترح عليه صيغ جديدة من التحفظات والالتزامات والتفسيرات والملاحق التي كادت تخرج المعاهدة من نطاقها الاستقلالي، وأدت إلى ازمة بين اعضـاء الـوزراة استقال بعضهم فيها كما ادت إلى خلاف وفتور بينهـم وبـين رئيـس الجمهوريـة فيضطر إلى التوقيع عليها على أمل انقـاذ المعـاهدة والعهـد، حتـى لقـد اسـتغلت فرنسا هذا الموقف فأملت على الحكومـة السـورية عمـلاً ضـد المصلحـة العربيـة وبسبيل ابقاء سوريا منعزلة عن التضامن مع الاقطـار العربيـة الأخـرى في قضيـة فلسطين وغيرها فسايرتها فيه، ونعني بـه العـدول عـن الاشـتراك في وفـد المؤتمـر البرلماني الذي قرر هذا المؤتمر المنعقد في القـاهرة عـام ١٩٣٨ ايفـاده إلى لنـدن، وكان فارس الخوري رئيس المجلس النيابي قد سافر من دمشـق إلى لنـدن بطريـق الآستانة لهذا الغرض، وقد كان رئيس الحكومة السورية في بـاريس فطلـب منـه الابراق لفارس الخوري بعدم متابعـة سـفره. ولقـد حـاولت الحكومـة الافرنسـية

كذلك ولنفس الغاية دون اشتراك الحكومة السورية في مؤتمر لندن الـذي دعـت إليه الحكومة البريطانية الحكومات العربية في آخر عام ١٩٣٨، فسكتت مسايرة في ما كان على شدة الرغبة الانكليزية وخطورة المؤتمر الذي سـجل فيـه خـروج قضية فلسطين من نطاقها المحلي ودخولها في نطاق العروبة العام. ومما كان بسبيل عدم تسبيب تشاد وحرج عدم متابعة الحكومـة السـورية امـر اسـتلام الادارات والصلاحيـات الـتي كـانت في يـد السـلطات الانتدابيـة والـتي كـان الموظفـون الافرنسيون يهتمون كل الاهتمام لاستبقائها في أيديهم مما كان له مساس شـديد في مفهومات سيادة الدولـة وكيانهـا ونشـاط الحكومـة ومتناولهـا، وعـدم إثـارة تعديل الدستور الذي أصدره بونسو مشوهاً معدلاً ممسوخاً عـن دسـتور الجمعيـة التأسيسـية بمـا فيـه المـادة (١١٦) الاضافيـة الـتي كـانت تشـل معـاني السـيادة والاستقلال!

على أن كل ما كـان مـن الحكومـة السـورية مـن اسـتجابات ومسـايرات وتحاشٍ للتشاد والحرج لم يفدها إلا تكبيل البلاد بالقيود وتعريضها نفسـها للنقـد والتجريح وضياع الهيبة، ومنح فرنسا وسائل كيد جديدة للبلاد وأهلها، وظلت الحكومة الافرنسية على ما سارت عليه من خطة التمطيط والاعتـذار إلى أواخـر عـام ١٩٣٨ ثـم عرضـت المعـاهدة علـى البرلمـان واحيلـت إلى لجنـة الشـؤون الخارجية لمجلس النواب الافرنسي، واخذت تصدر في نفس الوقت مـن المقامـات الافرنسـية البرلمانيـة والرسميـة والدوائرالسياسـية تصريحـات ضدهـا، ووقفـت الصحافة في موقف التأييد لهذه التصريحات كأنمـا كـانت هنـاك مؤامـرة محبوكـة، فلم يلبث أن أعقب هذه الحملة قرار من لجنـة الشـؤون الخارجيـة المذكـورة في أوائل عام ١٩٣٩ يرفض عرضها على المجلس الراهن، وصدر هذا القـرار بينمـا

كان رئيس الوزراة في احدى رحلاته إلى باريس يبذل جهوده اليائسة. ثم بدل دو مارتيل بيو الذي لم يلبث أن اذاع فور وصوله قرار فرنسا بلزوم اعادة النظر من جديد ووضع نصوص معاهدة جديدة على ضوء الاختبارات، ثم اعلن ممارسة المندوب السامي الانتدابية إلى أن تعقد المعاهدة الجديدة، واخذ يتدخل في شؤون الدولة على اساس هذه السلطة.

سحب المعاهدة واثره :

تأزم الموقف بسبب هذه النهاية اللئيمة واضطرت الحكومة إلى الانسحاب بضغط الرأي العام والمكائد الافرنسية حيث اعتبر المندوب أن سوريا مقيدة بما وقعه رئيس حكومتها من ملاحق وتفسيرات والتزامات، مما يعتبر غاية في اللؤم والاستغلال والكيد والابتعاد عن كل منطق، لأنه تمسكَ بالفرع مع نقض الاصل الذي نشأ عنه! وكان من جملة ذلك ملحق بمنح جبل الدروز ومنطقة اللاذقية استقلالا ذاتياً، وملحق آخر بتنظيم الشؤون الطائفية اثار بعض علماء الدين حوله ضجة لا تتحملها النصوص والمدى، وكانت من الأسباب المباشرة لانسحاب الحكومة.

ولقد خلْفت الحكومة وزارتان أخريان حاولتا تعديل الموقف فلم يمكن الوصول إلى حل مرض فاستقالتا دون أن تلبثا طويلا ثم استقال رئيس الجمهورية موجهاً استقالته إلى رئيس المجلس النيابي فكان آخر حياة هذا العهد.

تعليقات على موقف الحكومة الوطنية ازاء دسائس وغدر الافرنسيين:

ولقد بدت دسائس الافرنسيين وسوء نياتهم في سوريا وباريس ضد هذا العهد مبكرة فظنت الحكومة أن في الامكان التغلب على المواقف، وسارت

في سبيل ذلك خطوات متنوعة منها ما ذكرناه آنفاً فلم تعد عليها الا باضاعة مزايا كثيرة من روح المعاهدة وقوتها، على ما كان فيها من ثغرات، وكان ذلك سبباً من اسباب التمادي في طلب المزيد من التفسيرات والالتزامات والملاحق إلى أن صارت اقرب إلى الانتداب منها إلى السيادة والاستقلال. ومع ذلك فقد ظلت الحكومة متشبثة بالكرسي باجتهاد السير إلى آخر الشوط، فكان ذلك عاملاً في ضياع هيبتها واضعاف مركزها والثقة فيها، وفتور روح النضال وخمود الحماس في الأمة، التصاق ذلك بالكتلة الوطنية وامّحاء طابع النضال القومي تقريباً عنها، وهو الطابع الذي لم يــر الافرنسيون بقوته سبيلاً إلا تهدئة الحال بالتفاهم معها.

وهذا الموقف كان خطأ وضاراً معا. ولعله من أبرز الأخطاء في هذا العهد من الوجهة القومية والنضالية. وقد أعلن عن ذلك سعد الله الجابري بمناسبة استقالة شكري القوتلي من الوزارة وتقديمه استجواباً عن ما فعله رئيس الحكومة في رحلاته وعن سياستها بعد ما صدر من فرنسا ماصدر من تصريحات، انهم يفضلون الاستمرار في الشوط إلى نهايته والنضال في داخل الحكومة. ولو فعلوا هذا او لو انهم استغلوا وجودهم في الحكم وهيئوا وسائل النضال حينما خرجوا او بالاصح حينما اخرجوا من الحكم لكانوا برروا استمرارهم في الحكم وحمد الناس لهم ذلك، واثبتوا احتفاظهم بطابعهم النضالي، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً داخل الحكم حينما اعلنت فرنسا نكثها واذاع مندوبها سحب المعاهدة والعودة إلى ممارسة السلطات الانتدابية التي كان يمارسها المندوبون قبل المعاهدة ولا كانوا هيئوا اسباب النضال حينما خرجوا من الحكم مع انهم قضوا فيه نحو سنتين ونصف، فضلاً عن ما أصاب الكتلة الوطنية من تحطيم ووقع فيها من

تخاذل، مع أن الدلائل اخذت تقوم مبكرة على سوء نية فرنسا وموظفيها هم انفسهم يلمسونها عياناً.

ومما يجدر تسجيله أن شكري القوتلي قد انسحب من الوزارة بسبب ما وصل إليه الموقف من ميوعةو تساهل ومحاولات خائبة، وقبل أن يصل أمر الوزارة إلى الحرج الشديد الذي وصلت إليه فكسب بعمله هذا عطف الجميع واحترامهم، وكان من جملة اسباب ما ظل يتمتع به من الاحترام والثقة وحسن الاحدوثة والمركز الذي جعله في ما بعد رجل الساعة في سوريا.

ولو أن وزارة الكتلة غضبت لكرامتها واستقالت في عهد مبكر لكانت الهبت حماس الشعب وروحه النضالية،ولاضطر الافرنسيون إلى الكف والتراجع، ولكانت قضية سوريا وعهدها الوطني اكتسبا قوة ومكانة عظيمتين؛ هذا عدا عما في الاستقالة من معنى الاستنكار والنضال الوطني في حد ذاته مما يتناسب مع طابع الكتلة النضالي.

والنقد نفسه موجه إلى وزارة لطفي الحفار الكتلوية التي خلفت وزارة جميل مردم، ولاسيما أن نيات فرنسة الغادرة قد ظهرت واضحة لا تتحمل اجتهاداً وأن مندوبها اخذ يستعمل سلطاته الانتدابية المتنوعة في التشريع والادارة.

ولم يتسنّ لثورة الافكار وغليانها وما نتج عنها من مظاهرات واضرابات استمرار لانها لم تجد من يغذيها. وقد سارعت السلطات الافرنسية فانزلت فصائل السنغاليين إلى الشوارع وقبضت على عدد كبير من الشبان المتحمسين وساقتهم إلى المحاكم وعذبتهم اثناء التحقيق كما اعتقلت فريقاً من رجال الكتلة

وشبانها أي نبيه العظمة ورفاقه ممن كانوا يمثلون الجناح المتطرف فيها ونفتهم إلى تدمر وتواري بقية المرموقين المتطرفين، فلم تلبث أن هدأت الحالة.

حركة المعارضة في العهد الوطني :

وبمناسبة ذكر معارضي الكتلة نقول أن المعارضة الحزبية البارزة للكتلة كانت تتمثل بالمرحوم الدكتور عبد الرحمن شهبندر ومن انضم إليه. وقد كان بين الدكتور وبين الاستقلاليين الذين كان اكثر رجال الكتلة البارزين منهم تشاد يمتدّ شيء منه إلى عهد فيصل وكثير منه إلى ظروف الثورة السورية، ثم كان يشتد حيناً ويكمن حينا. ولما كان اضراب دمشق الطويل وثورتها عام ١٩٣٥ التي انتهت بدعوة رجال الكتلة إلى المفاوضة نقم الدكتور على اهماله، لانه كان يرى لنفسه الحق في أن يكون صاحب الشأن في هذه الخطوة لما كان من سجنه في ارواد واشتراكه في الثورة وتسميتهمنذئذ باسم زعيمها.

ولما عقدت المعاهدة وتقلد رجال الكتلة مقاليد الحكم كان هو في مصروكان غيره في مصر والاردن وفلسطين والصحراء والعراق مشردين باحكام عسكرية، فاهتمت الوزارة لاستصدار عفو عن الجميع واشتركت الكتلة حكومة وحزبا في حفلات الاستقبال الرائعة التي اقيمت للعائدين وفي مقدمتهم الدكتور. غير انه لم يلبث أن اخذ يبدي انتقاداته واعتراضاته على المعاهدة والادارة والتفت حوله جماعة من العائدين والمقيمن فبرزت تلك المعارضة.

ومع أن المعاهدة لم تكن تتضمن كل ما كانت تصبو سوريا إليه و أن فيها ثغرات جوهرية على ما ذكرناه سابقاً فقد قيل فيما قيل ان منشأ المعارضة يرجع من جهة ما كان من تشاد ومغاضبة بينه وبين الاستقلاليين

ومن جهة إلى سبب نفساني من تأثير ما اعتبره اهمالا لشخصه سواء في سياق المفاوضات او في سياق نشوء العهد الجديد، و أن الذين التفوا حوله انساقوا بنفس الاسباب و أن المعارضة قد قامت للتهديم والترثيب اكثر منها للحرص على المصلحة القومية العليا. وقد بدا شيء من الصحة في ما قيل في مواقف ومظاهر عديدة بالاضافة إلى أن من الذين اندمجوا في المعارضة من اندمج في العهود الايجابية المزيفة.

ولقد كان لهذه المعارضة شيء من الطنين، وكان لها بعض التأثير في الاوساط الناقمة اولا وفي اوساط الكتلة ووزارتها ثانياً جعل هذه تقف منها موقف الناقم المحنق؛ وكان هذا الموقف مما قوى ذلك الطنين، ولم تلبث المعارضة أن ظهرت باسم الهيأة الشعبية حيث انضم اليها بعض النواب الذين انشقوا من الكتلة الوطنية وصار لها بعض الصحف التي تناصرها وتنطق باسمها، غير أن من الحق أن يقال أن هذه المعارضة لم تكن ذات قوة ذاتية وشعبية ولم تكن من السعة ما يجعلها حزباً مزاحماً للكتلة يترشح ليحل محلها في الحركة الوطنية او في حمل اعباء الدولة.واقوى ظروف بروزها كان حينما تأزمت الأمور بين وزارة الكتلة والافرنسيين وبدرت من هؤلاء بوادر النكث والتراجع وضعف مركز الوزارة واربد الافق في وجهها، فحينئذ ارتفع صوت هذه المعارضة قوياً واشتدت حركاتها وكان ما كان من مظاهرات بدت فيها يدها.

ومما يسجل أن هذه المعارضة لم تلبث أن هدأت بعد استقالة وزارة الكتلة، ولم يلبث الدكتور شهبندر أن فاجأ الناس برحلة عاجلة إلى مصر في حين اخذت الافكار تغلي والجو ينذر بالانفجار والجيش يحتل المدينة ويقوم بحركة الاعتقال الواسعة والكتلة الوطنية تقف موقف المخذول الذي فقد قوته

النضالية فكان الامر غريباً حقاً. لأن المعارضة كانت ضد المعاهدة وضد الكتلة التي قبلت بها وسارت في سبيل تطبيقها وضد ظروف هذا التطبيق من قبل الافرنسيين والكتلويين معاً، وكان شعارها في سبيل معاهدة افضل تتناسب مع تضحيات البلاد وتضمن جميع حقوقها وامانيها وتخلو من الثغرات الموجودة في هذه المعاهدة. والتي كانوا يعددونها في نشراتهم. فكان المنطق يقضي أن تتقدم المعارضة وعلى رأسها زعيمها الذي كان قطب رحاها لسد الفراغ الذي خلا من الكتلة التي انسحبت من الحكومة وضعفت في الميدان الشعبي النضالي، وتنزل إلى الميدان الذي تهيأ للنضال تستجيب للأفكار الهائجة والنفوس الثائرة وتستغلها وتقودها. ولقد كانت مفاجأة الدكتور برحلته شديدة الوقع حتى على انصاره الذين حاروا بأي وجه يواجهون الناس، واي موقف يقومونه من الظرف الذي قام والذي ادعوا انه نتيجة لمعارضتهم، حتى أن احد كبار المعارضة وجه له لوماً شديداً فيه شعور المجروح في كرامته حينما اخذ يقسم اشد الاقسام بانه لن يكلم الدكتور ولن يقف واياه في موقف واحد وجبهة متحدة، لأن رحلته كانت خذلاناً لمبدأ المعارضة النزيهة وفراراً من ميدان النضال الذي دعت إليه وحملت على الكتلة لضعفها فيه، وإعلانا بأن كل القصد هو شفاء غل شخصي تم بسقوط الكتلة ووزارتها وكفى ا لله المؤمنين القتال.[1]

---

(١) كل هذا فحوى كلام المعارض الكبير.

العهد الانتدابي الثاني

١٩٣٩ - ١٩٤٣

الارهاب بعد سحب المعاهدة :

وكما فعل الافرنسيون عقب انهيار عهد فيصل فعلوا تقريباً عقب انهدام العهد الوطني دون أن يكون للعشرين عاما التي مرت بين العهدين أي تأثير في ذهنيتهم. فمن جهة نشروا الارهاب في جو سورية واصلتوا السيف واخذوا يتعقبون من ظنوا فيهم القدرة على الحركة النضالية فاعتقلوا فريقاً وشردوا فريقاً آخر من رجال الوطنية وشبابها، ومن جهة أقاموا اداة حكومية منفذة لمشيئتهم باسم مجلس المديرين ووضعوا على رأسها بهيج الخطيب الذي له صلة وثيقة بهم، ومن جهة اعلنوا وقف الدستور والمجلس النيابي وتشكيلات رآسة الجمهورية والوزارة وحقوقهما، فعاد بذلك نظام الانتداب وعهده بكل سعتهما وبشاعتهما. ولم تلبث الحرب العالمية الثانية أن نشبت فكان لهم منها فرصة لتشديد ضغطهم وتضييقهم وارهابهم واستغلالهم ومكائدهم.

وقد احالوا نبيه العظمة ورفاقه إلى المحاكمة العسكرية وضموا اليهم اسماء كثيرين من رجال الحركة وشبابها الذين تشردوا بالمطاردة ووجهوا اليهم تهما خيالية ومضحكة (١) تدل على ما يبيحه المستعمر لنفسه في سبيل القمع

---

(١) من جملة التهم صلة نبيه العظمة وأخيه عادل بهتلر وتلقى الاول من هتلر شكاً

والارهاب من الوسائل وحكموا عليهم بالسجن مدداً متنوعة منها ما هو طويل جداً.

وفي اثناء ذلك انكشفت مؤامرة كان يدبرها بعض المتحمسين لاغتيال بهيج الخطيب رئيس مجلس المديرين انتقاما لقيامه على انقاض العهد الوطني واندماجه مع الافرنسيين فتجددت حركة الاعتقالات، وادخل في نطاقها بعض رجال الكتلة والشباب. وقد كانت القضية في يد القضاء السوري فلما رأوا هذا القضاء غيرهاضم ما يراد تهضيمه له من التلفيقات والاحكام سحبوها منه واحالوها على المحكمة العسكرية ومزجوا هذه الحادثة بتهم اخرى بعيدة عنها كل البعد ايغالاً في الارهاب والارهاق، وحكموهم بمدد متنوعة ايضاً منها ما هو طويل جداً. ومن عجيب مفارقاتهم انهم ادخلوا نبيه العظمة وبعض رفاقه المحكومين في نطاق هذه القضية وحاكموهم محاكمة ثانية وحكموا عليهم احكاما جديدة ضوعفت بها مدد سجنهم.

العسف الافرنسي اثناء الحرب :

ولقد مر بسوريا سنة وبضعة شهور قاست خلالها من الشدائد والارهاق الوانا، وكانت الجاسوسية والمحاكمات العسكرية والمطاردات والاعتقالات تزعج الناس في كل حركة من حركاتهم ولحظة من اوقاتهم اشد الازعاج، وتشردهم تحت كل كوكب.

بثلاثين الف جنيه دون ان يخجلوا من سخافة الكلام فضلاً عن التهمة وكيف يمكن ان يكون مثل هذا المبلغ شكا.

وقد استغل الموظفون الافرنسيون الفرصة وخاصة التموين ومراقبة الاخراجات والادخالات ولوازم الجيش ومعاملات الجمرك ابشع استغلال، ولقد كان موظفو التموين (الاعاشة) يضعون ايديهم على ما في السوق من السلع الرائجة بحجة حاجة الجيش او الانتاج الحربي بثمن بخس يقدرونه ويدفعونه لاصحابه من العملة الورقية التي ضوعفت اضعافاً مضاعفة ضاعفت من هم الناس وقلقهم لثرواتهم الذهبية والعينية التي تؤخذ من ايديهم مقابلها، وقد لا يكون للسلع صلة بحاجات الجيش والصناعات الحربية، ثم لا يلبثون في الأيام التالية أن يعرضوها للبيع بايدي السماسرة باسعار عالية!! وكانت دائرة التموين تقطع سعراً معيناً للغلات وتصادرها من البيادر والمخازن وتدفع ثمنها حسب هذا السعر في حين يكون سعرها في السوق ضعفاً وضعفين، وكثيراً ما كانت الكميات المصادرة اكثر من حاجة الجيش، وكان الناس يلمسون تسرب شيء منها إلى السوق لتباع بالاسعار المرتفعة كما كانوا يلمسون شحنها إلى فلسطين لتباع باسعار عالية فيها. ولقد حدث كثيراً أن يذهب ضباط افرنسيون ومعهم سيارات شحن إلى حوران وغيرها فيصادروا كميات من الغلات مقابل وصولات وبيانات يظهر زيفها وتزويرها حينما يراجع اصحاب الغلات دوائر التموين والجيش! ولم يكن في امكان تاجر مستورد اومصدر الحصول على رخصة توريد او تصدير للسلع المسموح بها الا بعد دفع عمولات مضاعفة منها ما هو رسمي لصندوق ما كان يسمى بالمصالح المشتركة والذي كان ينفق منه على جيوش الموظفين الافرنسيين والجيوش المسلحة، ومنها ما كان يذهب إلى جيوب المشرفين على الدائرة وكان نصيب كل معترض او شاك الحرمان والعثرات والعراقيل والاعتقال احيانا. وكان هذا يجري بدون ما تستر كأنما هو امر عادي.ولقد كان في لوائح الجمارك مواد بشأن مراقبة المهربات والمحظورات

ومكافأة المراقبين استغلها الموظفون الافرنسيون استغلالا واسعاً وبشعاً منتهزين كذلك جو الحرب ورهبتها، وكان يقع في هذا السبيل كوارث ونكبات عظيمة، وكانت هذه الدائرة دائرة جاسوسية من جهة ودائرة تعذيب تفتيشي من جهة اخرى. وكان في جملة ما تفعله مصادرة الذهب الذي يحمله الداخلون إلى سوريا بحجة انه مال مهرب ووضع غرامات باهظة على ناقله فضلاً عن حرمانه منه، وبلغ الامرالى كبس البيوت وتحري حسابات الناس ودفاترهم ومصادرة ما يوجد من الذهب لديهم بحجة انه ادخل مهربا، ووضع الغرامات الباهظة وسوق المتهمين إلى السجن رهناً على دفع هذه الغرامات. وقد سمعنا قصصاً عديدة عن جميع هذا من اصحابها وخاصة في صدد تحكم موظفي الجمارك وما يسومونه الناس من خسف وتعذيب بقصد تأمين مكافآت باهظة لهم هي ادخل في باب النهب والسلب بالاكراه منها في باب المكافآت القانونية.

ولقد تضاعفت الجاسوسية اثناء الحرب واصبحت هي الاخرى سلب ونهب حيث كان الجواسيس يلاحقون الاشخاص ويهددونهم بالوشيات ويبتزون منهم المال ويوقعون بمن لا يستجيب اليهم بعلم وتحريض من رؤسائهم الافرنسيين.

وتجاوز ضغط الافرنسيين نطاق السوريين إلى الفلسطينيين الذين كانوا في دمشق بمناسبة ثورة فلسطين سني ١٩٣٧ ـ ١٩٣٩ فأخذوا يضيقون عليهم الخناق ويعتقلونهم بالعشرات مع انهم كانوا يغمضون العين عنهم جواباً انتقامياً لما كان من أغماض الانكليز عن حركات مجاهدي سوريا ومنظمي امورهم، وكان تأزم الحالة السياسيةالاوربية مما الزم فرنسا الاستعمارية الاستجابة إلى تأثير الانكليز وضغطهم في هذا الصدد. وشجع على ذلك انهدام العهد الوطني وما

كان من جو الارهاب والشدة الذي بثه الافرنسيون في سوريا، وحيث اوحى لهم هذا أن يكون الارهاب شاملا لكل مناضل ولكل حركة نضالية ولو لم تكن موجهة اليهم. وقد شهدنا وقائع وحوادث يقشعر منها البدن وتشمئز منها النفس من ضرب وتعذيب في سياق التحقيق والتمهيد للمحاكمات العسكرية مجردة من كل رحمة ورأفة ولم يسلم أي شخص وقع في يد الدرك الافرنسي من ضرب او اهانة الا نادراً جداً. وقد كانوا يضربون المتهم حتى يدموا جلده واحياناً حتى يعطلوا بعض اعضائه. وكثيراً ما كان المعذبون يذهبون عن وعيهم وكان الخوف من تكرر العذاب يسوقهم إلى الاعتراف بكل ما يمليه المحققون الافرنسيون ومن غريب المفارقات أن احد المتهمين حينما وقف امام المستنطق العسكري قال له أن اعترافاتي كانت نتجة الضرب فصرخ في وجهه وصفعه قائلا أن الافرنسيين لا يضربون! وكانت المحاكم العسكرية تحكم بتقارير الجواسيس ومذكرات الدرك الافرنسي وترفض أي اعتراض وتأبى جلب اصحاب التقارير والمذكرات للمناقشة والشهادة العلنية.

الحالة بعد انهيار فرنسا :

ولما انهارت فرنسا في صيف عام ١٩٤٠حاول القائد الافرنسي العام بالاتفاق مع المندوب السامي بيو أن يقف موقف المناوئ لفيشي استجابة لدعوة الجنرال ديغول الذي اخذ يدعو إلى المقاومة باسم فرنسا الحرة من لندن بتشجيع الانكليز وتعضيدهم، واحتفاظاً بالسيطرة على بلاد الشام، واعلنت بريطانيا تأييدها لهما واستعدادها لمساعدتهما ومدهما بالقوى المناضلة فهلعت القلوب من احتمال استمرارالكرب بعد أن تنفس الناس الصعداء حيث رأوا في ذلك الانهيار فاتحة للفرج، ثم عادا من موقفيهما لما بدا من ضعف حركة المناوأة

الديغولية في بادئ الامر ولعدم مساس الهدنة بين الالمان وفرنسا فيشي بموقف فرنسا من سوريا ولبنان.

وقد بدا أن بيو تلقى من فيشي تعليمات في صدد التنفيس والتفريج في سوريا ولبنان تمشياً مع حالة الوهن والانهيار التي ألمت بفرنسا، فكانت اتصالات بينه وبين بعض رجال سوريا اسفرت عن اتفاق على اجتماع بينه وبين شكري القوتلي الذي خرج سليماً نوعاً ما من التحطيم المعنوي الذي اصاب زملاءه من رجال العهد الوطني للبحث في الموقف. ولكن الجو تعكر فجأة بحادثة اغتيال الدكتور شهبندر التي وقعت في الاسبوع الاول من شهر آب عام ١٩٤٠ وفي نفس اليوم المعين لذلك الاجتماع، فاستغلها الموظفون الافرنسييون في دمشق اشد الاستغلال وتآمروا مع اداتهم الحكومية او بالأصح مع رئيسها ضد البارزين من رجال الكتلة،فوجهت الى جميل مردم وشكري القوتلي وسعد الله الجابري ولطفي الحفار تهمة التآمر والاغتيال، وكان من النتائج المباشرة لذلك الغاء الاجتماع المذكور.

ومما لاشك فيه أن الموظفين الافرنسيين في دمشق وشركاءهم من كبار موظفي المندوبية في بيروت كانوا على علم بما جرى من اتصالات وبالاجتماع المتفق عليه مما يجعل مسارعتهم إلى تهمة رجال الكتلة بالحادثة او على الاقل تقوية خاطرها الذي يمكن أن يكون قد خطر لأولياء الشهبندر بسبب التشاد والعداء بين الفريقين مقصودة لشلهم عن الحركة والحيلولة دون تبدل العهد القائم او تأخيره مدة ما حتى لا ينتهي عهد النفوذ والمجد والمكاسب الذي كانوا يتمتعون به والذي كانت فرصة الحرب اعظم وسيلة لاتساع تمتعهم به، والذي كان من دوافع مؤامراتهم على العهد الوطني ودسهم عليه واحباطه نهائياً.

ولقد شغلوا دمشق برمتها بهذه الحادثة وتحقيقاتها ومحاكماتها حتى جاء وقت ينذر بوقوع فتنة هوجاء بين الناس الذين انقسموا إلى معسكرين، وكانت اصابعهم في التحريض والمؤامرة على جماعة الكتلة وانصارها ظاهرة حتى بلغ عدد الذين اعتقلوهم منهم نحو مئة شخص. وانطلقت السنة الصحف المأجورة او المعارضة للكتلة تشتم رجال الكتلة وتنعتهم بالقتلة والمتآمرين. ولم تنفرج الأزمة نوعاً ما إلا باعلان المندوب الجديد الجنرال دانز الحياد والنزاهة التامة في القضية. وقد كانت فيشي سحبت بيو نتجة للشكايات والمساعي المبذولة وارسلت هذا ليحل محله مزوداً بتعليمات المسايرة والتنفيس.

وقد جرت المحاكمة كذلك فعلاً فظهرت في قاعة المحكمة آثار التزوير والتحريك والتآمر والتحريض، وبرئ رجال الكتلة من التهمة وانتهى الامر عند حده الطبيعي حيث صدر الحكم بالاعدام ضد الشباب الثلاثة الذين اشتركوا في الجريمة.

ولقد قيل في سياق هذه الحادثة أن مؤامرة الشبان كانت تتناول غير الشهبندر جميل مردم وبهيج الخطيب، باعتبار أن الاثنين الاوليين ضربا قضية الوطن بتنازعمها وشقاقهما، و أن الثالث تآمر مع السلطات الافرنسية على ما كان منها من تصرفات باغية وغدر قبيل الحرب وفي اثنائها.

ولقد كان فيما كان من ظروف الحادثة أن الموظفين الافرنسيين خشوا أن يفلت رجال الكتلة من التهمة باساليب القضاء المدني فاوعزوا لمجلس المديرين فقرر سحب قضيتها من المحاكم المدنية واحالتها على المجلس العدلي الشبيه بالمجلس العسكري او العرفي وبرئاسة قاض افرنسي وبادارة محقق عدلي

عسكري، وقد اصدر هذا قرارا بمحاكمة جميل وسعد الله ولطفي ومنع محاكمة شكري. فلم يسع الثلاثة الا مغادرة سوريا إلى العراق، وكان هذا هو المقصود على ما اعتقده المراقبون.

ولقد تولى شكري امر الدفاع عن زملائه وبرز كزعيم للكتلة والحركة الوطنية ورجل ساعتها واخذ رجالها وانصارها يلتفون حوله فداخل الافرنسيين الندم على منع محاكمته وعدم تشريده هو الآخر فلم يتورعوا عن احاطته بجو مزعج من المراقبة والترصد من جهة والاغضاء عن مابدا من الجرأة على بيته، والتفكير في وسيلة تقصيه عن الميدان من جهة اخرى. ولقد كادوا يجدون الوسيلة، فقد كان بعض ضباط وموظفي الجيش الافرنسي اتهموا بسرقة وبيع السلاح من مخازن الجيش سنة ١٩٣٦ وكان ذكر بعض اسماء الوطنين كمشترين للسلاح للثورة الفلسطينية ومن جملتهم شكري القوتلي،ثم اقفل الحديث لانه لم يكن مستنداً إلى دلائل راهنة من جهة، وكان العهد الوطني الذي كان شكري القوتلي فيه وزيراً قد قام من جهة اخرى. فاستدعت دائرة الدرك الافرنسي بعض المحكومين الذين كانوا من موظفي الجيش الافرنسي بعد صدور قرار منع محاكمة شكري وبروزه وفاتحتهم في الامر وحققت معهم في امر صلة شكري بقضية السلاح ولوّحت لهم ببعض الآمال.

ولقد اعترف القاتل احمد عصاصة ورفيقاه في قاعة المحكمة بالجرم وقرروا أن الباعث عليها هو العاطفة الدينية والوطنية معاً، وخاصة الاولى لانهم علموا أن للشهبندر آراء منحرفة في صدد الدين وتقاليده. ونفوا أي علاقة مباشرة وغير مباشرة لجميل ولطفي وسعد الله وغيرهم من رجالهم بالحادث، وكانوا في اثناء التحقيق وقفوا على اعترافات منافية لهذا الاعتراف والنفي فلما سئلوا عن

ذلك قالوا أن هذه الاعترافات اخذت منهم بالضغط والاكراه حيناً وبالاغراء حيناً و أن بهيج الخطيب وموظفي الأمن الافرنسيين هم الذين استعملوا معهم هذه الاساليب.

وكان سبب الاعتراف أن المحكمة استدعت الشيخ الكتاني المغربي الذي كان القاتل من مريديه، وبعد أن ادلى بمعلوماته عن اخلاق مريده وروحه المتدينة طلب إليه أن ينصحه ورفاقه بالاعتراف بالحقيقة كاملة، ففعل باسلوب بليغ وأعلن فيصل الشهبندر استعداده للعفو اذا اعترفوا بالحقيقة والباعث وساد المحكمة جو رهيب ثم صرخ احمد بصوت تخنقه عبرات الخشوع والاستجابة للنصيحة فاعترف كما قلنا فكان مشهد رائع ورهيب اثر في جو المحكمة وقضاتها وحاضريها تأثيراً بلغياً وكان فيه القول الفصل، ولاسيما قد كانت اصابع التزوير والتصنيع والتآمر فضحت لدى استماع الشهادات.

تجدد نشاط الحركة الوطنية وأثره :

وحينما خف التوتر في حادثة الشهبندر بعد اعلان المندوب السامي الحياد والنزاهة في قضيتها اخذ شكري القوتلي يقوم بحملة في سبيل اطلاق المحكومين السياسيين والكف عن مطاردة الناس وتشريدهم كبدء للحركة الوطنية من جديد، فكان من نتيجة هذه الحملة التي ايّده فيها رجال الحركة الوطنية في دمشق والمدن الاخرى أن اطلق سراح المحكومين وخفف من شدة المطاردة والتجسس، ولقد كان اطلاق سراح المحكومين والكف عن المطاردين وسيلة لنشاط الهمم والعواطف الوطنية ولقد تشجع اصحاب السلع في دمشق وتضامنوا على الوقوف في وجوههم حتى انهم تجمهروا اكثر من مرة بعصيّهم

ليردوا حملات المصادرة التي اعتاد هؤلاء الموظفون أن يقوموا بها في جو الحرب وارهابها، واخذ الموقف يعود إلى التأزم ومرجل الحماس يعود إلى الغليان، واعلن اضراب عام في دمشق امتد امداً غير قصير، واذاع شكري القوتلي بياناً قوياً عن موقف البلاد وقضيتها وحقوقها.

ولقد كان الموقف في الحق عجيباً متناقضاً. ففرنسا منهارة خاضعة لجبابرة الالمان تذوق كأس الاحتلال الكريه ويقف رجالها وقفة المهين على عتبة قواد احتلالها بينما هي في سورية تمثل دور المحتل الغشوم والمتسلط الجبار.

ولقد كان رجال فرنسا في فيشي يدركون على ما بدا ما في الموقف من تناقض وما هم عليه من عجز، ولكنهم كانوا يخشون أن يكون في أي خطوة صادقة يخطونها تفريطاً بما في ايديهم واضعافاً لهيبتهم المتزعزعة ونقضاً لليد من المطامع الاستعمارية والمنافع الاستغلالية لم يكونوا ليهضموه بالرغم مما حل فيهم. واضاعة لورقة قد تفيدهم في المساومة في ظروف الدنيا المتجهمة. ومع ذلك فأن الموقف اضطرهم إلى الاستجابة للاصوات المتعالية والاحتجاجات المتوالية فعمد المندوب إلى حركة تطهير وتحقيق في حق الموظفين الافرنسيين اقيل في سياقها بعض كبارموظفي المندوبية واعتقل واحيل على المعاش بعضهم، وذاع في ما ذاع خبر وجود ثروات طائلة من سلع وتحف وسجاد وسبائك ذهبية عند بعض هؤلاء الموظفين حصلوا عليها بالطرق التي ذكرناها والتستر على من كان يقوم بالسلب والنهب من الموظفين المختصين ومشاركتهم فيها! وقد اعتذر عن القيام باي عمل حاسم واساسي في صدد القضية الوطنية،واستعداده لمعالجة الموقف معالجة موقتة، وكان من نتيجة ذلك أن نحيت الاداة الحكومية البغيضة التي يرأسها بهيج الخطيب، و أن اعيد تشكيل مجلس الوزارة برآسة خالد العظم.

ومع أن الخطوة كانت نصفية فانها قوبلت بشيءمن الارتياح لانها ازالت كابوس تلك الأداة وخففت من سوء تصرفات الموظفين الافرنسيين؛ وحل الناس اضرابهم وصاروا يتطلعون بنفس مطمئنة مرتقبة إلى قرب يوم الفرج الاكبر، وهذا مع التنبيه إلى أن شكري القوتلي اذاع بياناً آخر اشارفيه إلى أن سوريا لا تكتفي بالعلاج المؤقت وانما تطالب بحقوقها الشرعية، ودعا مع ذلك الناس إلى حل الاضراب واعداً بالاستمرار مع اخوانه في العمل حتى الحصول على تلك الحقوق.

الحرب العالمية الثانية

١٩٣٩ - ١٩٤٥

وفي تلك الظروف العقيمة التي كـانت تعيشـها المنطقـة. اندلعـت الحـرب العالمية الثانية التي كان لها تأثير مباشـر علـى الوضـع الإستعماري الـذي كـانت تعاني منه كل الدول العربية دون استثناء خاصة وأن بعضا من الأراضي العربيـة كانت مسرحاً لمعارك شهيرة وفاصلة في تلك الحرب. لذا نجد لزاماً علينا هنـا أن نتحدث عن تلك الحرب وبشييء من التفصيل قبل أن نتابع احداثنا المحلية.

بدأت الحرب العالمية في أول أيلول (سبتمبر) ١٩٣٩، وانتهت في اوروبـا في الثامن من أيار (مـايو) ١٩٤٥، كمـا انتهـت في الشـرق الاقصـى باستسـلام اليابان في الثاني من أيلول (سبتمبر) ١٩٤٥. وقـد دامـت هـذه الحـرب حـوالي ست سـنوات واشـتركت فيهـا معظـم دول العـالم، وتسـبب عنهـا مـن الخسـائر البشرية والعمرانية ما يعادل خسائر حروب العصور الحديثة بكاملها.

انقسام العالم الى معسكرين "المحور والحلفاء" :

انقسـم العـالم قبيـل الحـرب العالميـة الثانيـة الى معسـكرين همـا: المحـور والحلفاء. وكان الحـزب النـازي قـد سـيطر علـى المانيـا بزعامة ادولف هتلر منذ العام ١٩٣٣ وفرض عليها نظامـاً دكتاتوريـاً. فـأخضع الاقتصاد الالماني لتوجيه الدولة الصـارم، وانشـأ قـوة عسـكرية ضخمـة في الـبر

والبحر والجو، وضرب عرض الحائط بمقررات عصبة الامم، وطالب بتكوين «الرايخ الثالث» من جميع المناطق والدول الناطقة باللغة الالمانية، مما جعل النازية تصبح خطراً على جميع الدول المجاورة لالمانيا، حيث تستعمل اللغة الالمانية. والتقت مطامع النازية الالمانية بمطامع الفاشية في ايطاليا، حيث كان الحزب الفاشي بزعامة «بنيتو موسوليني» قد سيطر على ايطاليا منذ العام ١٩٢٢، وفرض عليها نظاماً دكتاتورياً، كما أنشأ قوة عسكرية كبيرة في البر والبحر والجو، ورفض مقررات وانذارات عصبة الأمم حول سياسة موسوليني التوسعية في شرقي افريقيا (الحبشة والصومال).

الاسباب المباشرة للحرب :

كشفت المانيا النازية منذ العام ١٩٣٥ عن نواياها التوسعية التي أدت الى إشعال نار الحرب فيما بعد. ونقض هتلر معاهدة فرساي في العام ١٩٣٥ بشأن بناء القوة العسكرية الالمانية، وكذلك بشأن التمركز الالماني العسكري في منطقة الرين المنزوعة السلاح (١٩٣٦) بموجب المعاهدة المذكورة، ثم ضم النمسا (الانشلوس) (١٩٣٨)، وضم مقاطعة السوديت وفرض سيطرته على تشيكوسلوفاكيا بعد مؤتمر ميونيخ (٢٩ أيلول ١٩٣٨). وقد أظهر الحلفاء، وبشكل خاص نيفل تشمبرلين رئيس وزراء انكلترا، الكثير من الخوف من القوة الالمانية وتهديدات هتلر، مما جعل المؤتمرين في ميونيخ، وتشمبرلين منهم، يرضخون لمطالب هتلر خوفاً من الحرب. ونجم عن ذلك زوال دولة تشيكوسلوفاكيا، وتأكد للحلفاء أن مطامع النازية لن تقف عند حد، فبدأت فرنسا وانكلترا بالتسلح والاستعداد منذ العام ١٩٣٨. ثم طمع هتلر بتوسع بلاده على حساب ليتوانيا وبولونيا، فتمكن من انتزاع ميمل من ليتوانيا(آذار

١٩٣٩) ثم بدأ يطالب بولونيا بمقاطعة دانتزيغ، وأرفق مطالبته بالتهديد. ووقف الحلفاء: فرنسا وانكلترا الى جانب بولونيا يشجعونها على عدم الرضـوخ لارادة هتلر.

وفي غمرة التهديدات وقع هتلر معاهدة سرية مع الاتحاد السوفياتي في ٢٣ آب (أغسطس) ١٩٣٩ لتحديد مناطق نفوذهما في بولونيا وبلاد البلطيق وحاول الانكليز التخفيف من حدة التوتر وابعاد شبح الحرب، فاقترحوا في أواخر آب (اغسطس) ١٩٣٩ البدء بمفاوضات دبلوماسية بين بولونيا والمانيا، ففشلت المحاولة، وكان بدء الهجوم الالماني على بولونيا في أول أيلول (سبتمبر) ١٩٣٩، وبذلك بدأت الحرب العالمية الثانية.

الوضع العسكري العام قبيل الحرب :

أ ـ في ألمانيا: ثلاثة عناصر رئيسية حددت الطابع الذي جعل لعمليات الحرب الالمانية ميزة خاصة مختلفة عن الماضي: فاعتماد الآلية من جهة وقوامها الفرق المدرعة. ومكننة الوحدات من جهة ثانية الذي يسمح بالتصرف بالقوات في الزمان بالسرعة التي تقتضيها ظروف المعركة، واخيراً بروز الطيران كقوة شبه حاسمة، وامكاناته في عزل حقل المعركة عن المؤخرة وفي ضرب المراكز الاستراتيجية ومراكز القيادات، كل ذلك جعل من الحرب العالمية الثانية حرباً ذات طابع خاص لم يعرف في الحرب التي سبقتها.

اما الاسلوب، فهو ايضاً تغير، فقد اقتضت التقنية الجديدة استخدام عنصر السرعة استخداماً كاملا، فعلى امتداد الجبهة بكاملها لا يحصل الخرق إلا في مكانين أو ثلاثة أمكنة، عرض كل منها لا يتجاوز الكيلومترات الثلاثة، ولا

يتحقق ذلك الخرق بشكل موجات متتابعة، بل بشكل حاشـد وعميـق ومتصـل، تندفع فيه الفرق المدرعة متبوعة بفرق المشاة الآلية لتفتك بالاحتياط ولتصـل الى الهدف الذي يعين في مؤخرة جهاز العدو، بينما تكلف وحدات أخرى من المشاة بتوسيع الثغرة، ووحدات غيرهـا بحمايـة مجنبـة السـهم ضـد هجمـات الدبابـات العدوة.

ان أسـلوباً قتاليـاً كهـذا يتطلـب تجزئـة الوحـدات الكـبرى الى مجموعـات تكتيكية ذات تشكيل متغير وفقاً للظروف، وتكون مجهزة بكافة انواع الأسـلحة بصورة تمكنهـا مـن الاعتمـاد علـى نفسـها دون أن تنتظـر، علـى الأقـل في بـدء عملياتها، أية مسـاعدة خارجيـة. لكـن الالمـان مـع اسـتعمالهم دبابـاتهم بـالعمق وبحشد وكثافة، مددوا عمـل السـلاح المـدرع مـن المجـال التكتيكـي، الى المجـال الاسـتراتيجي، بتـأليفهم جيشـاً مدرعـاً مسـتقلا، تدخـل فيـه عضويـاً الاسـلحة الاخرى من مشـاة منقولـة، ومدفعيـة وهندسـة محمولـة، وبغيـة مكافحـة الدبابـة العدوة والطيران المعادي، لحظ في صلب التنظيم العضوي للفرق المدرعة أسـلحة مضادة للدبابات وأخرى مضادة للطائرات.

كانت ألمانيا تملـك في أيلـول (سـبتمبر) ١٩٣٩، ١٠٣ فـرق، و ٢٧٠٠ طائرة مقاتلة. وفي ١٠ ايار (مايو) ١٩٤٠ ارتفع عدد الجيش الالمـاني الى ١٧٥ فرقة عاملة، منها عشر فرق مدرعة واربع فرق ميكانيكيـة، وفرقـة محمولـة. وفي العـام التـالي رفـع العـدد الى ٢٦٠ فرقـة منهـا ٢٤ فرقـة مدرعـة. أمـا في العـام ١٩٤٣ فقد وصل عديد الجيش الالماني الى ٣٢٥ فرقة من المانيـا فقـط، وعلـى أثر ادخال بعض الوحدات الاجنبية، والاعتماد على الحزب اصبح عدد القـوات الالمانية ٣٥٠ فرقة. على صعيـد البحريـة كـان لالمانيـا دارعتـان جباراتـان تـزن

الواحدة منهما ٣٥ ألف طن «بسمارك» و «تربتز»، ودارعتان تزل كل منهما ٢٧ ألف طن هما «شونهورست» و «غنيزناو»، بالاضافة الى ثمانية طرادات ثقيلة، وعشرة طرادات خفيفة، وثلاثين مدمرة، وسبع وخمسين غواصة. على صعيد الطائرات، كان لدى ألمانيا ٣٦٥٠ طائرة صف أول في ١٩٣٩/٩/١، فكانت النسبة إزاء طائرات الحلفاء منذ اليوم الاول للمعارك من ٢ الى واحد فيما يخص طائرات المطاردة، ومن ٧ الى واحد فيما خص طائرات القصف وذلك لصالح المانيا.

في فرنسا: كان الجنرال غاملان يتوقع استعمال الوسائل الحديثة (الدبابة والطائرة) في حرب مقبلة، إلا أن الاوساط العسكرية والمدنية الرسمية بغالبيتها، كانت تثق بخط «ما جينو» وتشعر بأن الاسمنت يتفوق على الفولاذ «لن تُجتاح أرض الوطن بعد اليوم... سيتكسر نشاط العدو على الاسمنت والصخور... يمكن بثمن دبابة شراء عدد من المدافع المضادة للدبابات... لم تربح أية معركة من قبل الطيران ... عندما يصبح العدو منهوكاً على أثر محالاته الفاشلة ضد خط «ماجيننو» ينتقل الفرنسيون الى العمل الهجومي. » تلك كانت بعضاً من تكهنات المنظرين العسكريين الفرنسيين. وعلى الرغم من دروس الحرب الاهلية الاسبانية، فقد بقي الجيش الفرنسي ينكر الاهمية الرئيسية للمساندة الجوية في المعركة، ولا يرى في الدبابة سوى الاداة تفتح الطريق أمام المشاة بشل الاسلحة الآلية (الاوتوماتيكية)، فهي أداة نار لا أداة للمناورة. وعلى ذلك فقد كان الفرنسيون يستخدمونها على جبهات فسيحة وبترتيبات خطية. وفي حين كان الالمان قد تفهموا الاهمية الجازمة للحركة بالسيارات على الطرقات ولتعميم استعمال اللاسلكي، بقي الفرنسيون خاضعين للاطار الصلب، باعتمادهم على النقل بالسكك الحديدية والاتصال بالهاتف السلكي.

وكان الجيش الفرنسي مؤلفاً من ٩٤ فرقة، يضاف اليها ٤فرق انكليزية عاملة في فرنسا وذلك في أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٣٩، وبتاريخ ١٠ أيار (مايو) ١٩٤٠ ارتفع عدد القوات الفرنسية وكانت موزعة على أربعة مسارح عمليات كما يلي: ضمت الجبهة الشمالية الشرقية (من جبال الجورا حتى بحر الشمال) بقيادة الجنرال «جورج»:

- ٧٥ فرقة مشاة ضمنها فرقتان بولونيتان و٢٦ فرقة احتياط (تتألف الفرقة من ٣ أفواج مشاة وفوج مدفعية).

- ١٤ فرقة مشاة وفوج مدفعية.

- ٦ فرق مدرعة ثلاث منها ثقيلة، وثلاث خفيفة التدريع. وتتألف الفرقة من لواء دبابات (١٥٦. دبابة) وفوج مدفعية، ووحدة مضادة للمدرعات، ومهندسين، واشارة، ومصالح، وكتيبة مشاة واحدة.

ان قلة عدد مشاة الفرقة المدرعة، وخلو الفرقة من عناصر الاستطلاع، جعلا منها أداة غير مكتملة، وبالتالي أقل إمكانات من الفرقة المدرعة الالمانية.

أما الجبهة الجنوبية الشرقية بقيادة الجنرال «اورلي» فقد ضمت أربع فرق مشاة وأربعين كتيبة مشاة جبلية. كما ضمت جبهة افريقيا الشمالية بقيادة الجنرال «نوغي» عشر فرق مشاة، وثلاث ألوية من الخيالة. يضاف للاعداد اعلاه قوام جبهة الشرق بقيادة الجنرال «ويغان» أي ما مجموعه ثلاث فرق غير كاملة.

ضمت البحرية الفرنسية ٧ دارعات، وطرادي قتال، وحاملة طائرات

واحدة، و ١٨ طراداً ثقيلا، و ٣٢ طراداً خفيفاً، و٢٧ مدمرة، بالاضافة الى ٧٨ غواصة. أما على صعيد القوات الجوية فكان مجموعها في مسرحي العمليات الشمالي الشرقي والجنوبي الشرقي ٥٠٠ طائرة مطاردة، و ٢٩٢ قاذفة، و ١٥٦ طائرة استطلاع، و ٢٨٠ طائرة للمراقبة، مع العلم بأن حوالي ثلث هذا العدد كان حديثاً كما أن ستين طائرة فقط من سلاح الجو الفرنسي كانت قادرة على اجتياز المسافة بين فرنسا وبولونيا.

في بريطانيا: لم يكن البريطانيون غريبين عن أهمية الدبابة في المعركة، فهم بناة هذه الآلة منذ الحرب العالمية الاولى، الا أنهم لم يكونوا يستخدمونها. بالكثافة التي استخدمها بها الالمان، فهي وان بقيت العمود الفقري في التنظيمات البريطانية إلا أنها كانت محاطة بعناصر أخرى من باقي صنوف الاسلحة. فعناصر الاقتحام الخاصة التي ألفها البريطانيون، قد جسدت نظرتهم الى المعركة الجديدة، اذ تألفت من مشاة ومهندسين ودبابات ثقيلة، تعمل جميعها بترابط كامل، وتنسيق مع المدفعية الكثيفة النيران، لفتح ثغرة في جزء من النسق الدفاعي الاول، وعندما يتم الخرق تندفع وحدات استثمار الفوز لتلاحق العدو، وتدمره . أما الطائرة فقد كان لها أيضاً مركز الصدارة في الجزيرة البريطانية، واعتبرت الذراع الذي تستطيع بريطانيا بواسطته التدخل في أية معركة خارج أراضيها، بالاضافة الى شهرتها التقليدية في البحار، وقد تعلمت بريطانيا درساً مفيداً من الحرب العالمية الاولى عندما اضطرت الى خوض الحرب في الجبهة الغربية، فعكفت على رفع مستوى قواها الجوية والبرية تنظيماً وتدريباً.

في الاتحاد السوفياتي: على تلك الجبهة الواسعة التي تمتد من البلطيق الى

البحر الاسود، سيحقق الروس، عندما تتوفر لهم الوسائل الالتفاف المزدوج على الحشود العدوة الضخمة، وستنفذ كل عملية تطويق على جبهة فسيحة وفي قطاعات جد متباعدة.

فبعد أن اعتمد الروس تكتيك الضربات المتكررة، بالعمق والتي أدت الى نجاح جزئي، اذا بهم يعتمدون تكتيك الضربات الجانبية التي تؤدي الى بعثرة جهود العدو ومنعه من تجميع قواته وحمله على ادخال احتياطه في المعركة.

وكان السوفيات ينظرون الى الدبابة كأحد العناصر الرئيسية للنجاح، ويعتمدون اعتماداً كلياً على كثافة نيران المدفعية التي تكون ساحقة في كل مكان. ولما كان للدبابة مركز حاسم في المعركة، فقد استعاض السوفيات عن الدبابات الخفيفة بالدبابات المتوسطة والدبابات الثقيلة. ومع أن الانكليز وحتى الاميركيين لم يتجاوز عيار مدافع دباباتهم ٧٦مم والالمان ٨٨مم، نرى السوفيات يجهزون دباباتهم بمدافع عيار ١٢٢ مم. ان قوة هذا السلاح ستحقق للسوفيات فوائد مضاعفة، بحيث تسمح لهم بالقيام بمهمة تدمير التحصينات المعادية ويخوض المعركة على مسافة أبعد.

أما المدفعية ذاتية الحركة المتميزة بطاقاتها النارية الهائلة، وبمدى رميها البعيد، فلم تكن تسهم في التحضير للعمليات، متسترة حتى آخر لحظة، بل تدخل المعركة عند اشتباك الوحدات المدرعة، فيأتي مفعولها شديد الوطأة، عميق الاثر.

وتجدر الاشارة الى أن السوفيات كانوا يعولون خاصة على اشراك حشود هائلة من الدبابات في المعركة، ولهذا نفذت معظم عملياتهم تحت طابع التفوق

الملحوظ على العدو سواء من الناحية العددية، أم من الناحية النوعية. ولقد أعاد السوفيات إلى الخيالة أهميتها الغابرة، ذلك أن طرق المواصلات في الاتحاد السوفياتي، وصعوبة المسالك في شتائها الابيض، اضطرتهم الى الالتجاء مجدداً الى ذلك السلاح، وهكذا كانت الخيالة تؤلف تارة أحد عنصري الثنائية الروسية: خيالة ـ دبابات، لارهاق العدو وتطويقه، وطوراً الموصل المرن، أو الحلقة الناقصة بين الوحدات المدرعة السريعة والوحدات المتنقلة على الاقدام، وكانت القوات الروسية في مطلع أيلول (سبتمبر) ١٩٣٩ مكونة من ١٠٠ فرقة تقريباً.

العمليات على المسرح الاوروبي :

حملة بولونيا: أراد هتلر بهجومه على بولونيا تسوية مسألة «دانتزيغ» ومسألة الممر البولوني. ولكي ينجح في هذا الهجوم كان عليه أن يقوم بتغطية المانيا من جهة الغرب ضد احتمال تدخل فرنسا التي تحمي بولونيا وكذلك ضد بريطانيا العظمى التي قد تدعمها في تدخلها، كما أن المعاهدة الالمانية ـ السوفياتية (٢٣ آب اغسطس) ١٩٣٩ أمنت المانيا من الشرق.

انطلق الهجوم الالماني على بولونيا بتاريخ أول أيلول (سبتمبر) ١٩٣٩ وخصص الجيش الالماني لهذا الهجوم ٤٢ فرقة عاملة و ١٦ فرقة أخرى احتياطية عبئت في خمسة جيوش وانطلقت في اتجاهين: شمالي بقيادة الجنرال «فون بوك» وتضم مجموعته الجيش الثالث والجيش الرابع، وجنوبي بقيادة الجنرال «فون رونشتيدت» وتضم مجموعته الجيوش الثامن والعاشر والرابع عشر، حيث اعتبر الجهد الرئيسي للهجوم. ولقد قيدت هذه الحرب بشكل خاطف، وأعطت

الجيوش الالمانية فيها الدليل الاول أو التطبيق الاول لنظرية حرب المدرعات الخاطفة.

كان الجيش البولوني يضم ٣٠ فرقة مشاة و ١١ لواء من الفرسان، بالاضافة الى لوائين مدرعين، الا انه كان يفتقر الى التجهيز والاعتدة.

وقد تمكن الالمان من الحصول على حسم سريع للمعركة، اولا بقضائهم على الطيران البولوني في الايام الاولى، مع أن هذا الطيران كان يضم ٦٠٠ طائرة، وثانياً بالحركة والاندفاع المتواصلين، وتطويق الوحدات البولونية، وقد أظهر البولونيون مقاومة مستميتة حتى اليوم الذي اجتاحهم فيه السوفيات في ١٧ أيلول (سبتمبر)، فانتهوا بدفاع مستميت عن «وارسو» في ٢٨ منه، وتقاسمت المانيا والاتحاد السوفياتي بولونيا، حسب خط يفصل بين نهري «سان» و «ناريف» رافدي «الفيستولا».

في الثالث من ايلول (سبتمبر ١٩٣٩)، أي بعد اندلاع العمليات على الجبهة البولونية ابلغت فرنسا وانكلترا حكومة الرايخ تصميمها على مساندة بولونيا، فعرض هتلر الصلح عليهما ولكنهما رفضتاه، أما ايطاليا فقد التزمت الحياد، وادعت بأن حلفها مع المانيا (ايار ١٩٣٩) لا يلزمها بخوض الحرب.

ثم عمدت روسيا في ٣٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٩ الى مهاجمة فنلندة، فاخضعتها في آذار (مارس) ١٩٤٠.

وأثناء ذلك حاول هتلر مجدداً عرض الصلح على فرنسا وانكلترا، ولكن هاتين الدولتين رفضتا المصالحة.

وبينما كانت المفاوضات السرية تدور لانهاء النزاع في اوروبا، على اساس ان المانيا حصلت على مطالبها، اذ بالمانيا تزحف بسرعة خاطفة على الدانمارك فتجتاحها بسرعة هائلة في ٩ نيسان (ابريل) سنة ١٩٤٠، ثم تنتقل الى النرويج طمعاً بالحديد المتوفر لديها وتأميناً للمواصلات البحرية بين بحر البلطيق وبحر الشمال. وفي أسبوع واحد كان الالمان يسيطرون على النرويج، دون ان يتركوا للحلفاء فرصة التدخل أو المساعدة الجوية، ما عدا محاولتهم السيطرة على ميناء نارفيك النرويجي. والتجأ الملك هاكون السابع ملك النرويج مع وزرائه الى بريطانيا ليتابعوا من هناك محاربة الالمان، كما كان البولنديون قد فعلوا قبل ذلك بسبعة أشهر.

الجبهة الغربية :

على أثر انتصاراته في النرويج، توجه هتلر بضربته نحو الغرب، ففي العاشر من أيار (مايو) وجه مجموعة الجيوش (ب) بقيادة الجنرال «فون بوك» والتي تضم الجيش الثامن عشر والجيش السادس، اللذين ضما ٣٠ فرقة مشاة وفرقة خيالة بالاضافة الى ٣ فرق مدرعة، وقوات من المظليين، بهجوم كاسح عبر هولندا وبلجيكا. كان على «بوك» أن يجابه الجيش الهولندي، والجيش البلجيكي، والحملة البريطانية التي أنزلت لمؤازرة الحلفاء (بلغ مجموعها ١٣ فرقة تسع منها على المسرح الهولندي البلجيكي)، بينما تقدمت مجموعة جيوش (أ) بقيادة الجنرال «فون رونشتيدت»، وكانت تضم الجيش الرابع والجيش الثاني عشر والجيش السادس عشر ومجموعة «كليست» المدرعة وتتألف من ٤٦ فرقة، بينها ٧ فرق مدرعة، و ٢٧ فرقة في الاحتياط العام باتجاه الحدود البلجيكية عبر (الآردين) لكي تجابه جيشين فرنسيين يتألفان من ١٢ فرقة مشاة

وأربع فرق خيالة. أما في الجنوب وعلى الحدود الالمانية ــ الفرنسية بين الموزل وسويسرا فقد حشدت مجموعة جيوش (ج) بقيادة «فون ليب» وتتألف من جيشين ـ الاول والسابع، لديهما ١٨ فرقة مشاة، بمهمة تهديد خط «ماجينو» وتضليل القيادة الفرنسية حول الجهد الرئيسي للهجوم، إذ أن الفرنسيين كانوا قد حشدوا على هذا الخط ٤١ فرقة، مقابل ٣٩ كانت منتشرة بين الخط المذكور والشاطىء.

كان الجيش الهولندي يتألف من عشر فرق، بالاضافة الى ما مجموعه عشر فرق أخرى في تنظيمات عضوية أدنى. وعلى الرغم من أن المهاجمين كانوا لا يزيدون عدداً عن سبع فرق وبعض القوات المظلية، فان الجيش الهولندي لم يستطع الثبات أمام الزخم الزاحف، بالنظر الى اتساع الجبهة التي كان عليه مسكها، والى تدني نوعية تسليحه.

اعتمد «فون بوك» على المظليين فأنزل أربع كتائب مع فوج منقول جواً للاستيلاء على الجسور في «مورديك» و «درودرشت» و «روتردام» على الطريق الرئيسي الممتد من الجنوب الى قلب هولندا، بينما أنزلت كتيبة مظليين أخرى مع فوجين منقولين جواً للاستيلاء على المطارات حول «هاغ».

استولى المظليون على المطار قرب «روتردام» وعلى الجسرين الواسعين في «مورديك» واستطاعوا تأمين وصول النجدات البرية اليهم، وبالتالي تأمين الاتصال مع القوات البرية النازية. ان هذه العملية الواسعة النطاق التي ضمت بدفعة واحدة قلب هولندا، ألقت الذعر وثبتت نهائياً في هولندا الغربية، الفيلق الاول الهولندي والفرقة الخفيفة التي سارعت لنجدته.

أثناء ذلك تقدم الجيش الثامن عشر الالماني في سرعة فاجتاز في نهاية النهار «آرنهيم» كما اجتاز «الموز» في الجنوب. ولقد كانت المفاجأة تامة، وبتاريخ ١٣ أيار (مايو) ثبتت القوات الهولندية في كل مكان في موقع «غريب»، وفي ليلة ١٣ ـ ١٤ تراجع الجيش الهولندي على الجبهة الغربية من هولندا، ولم يستطع مقاومة المد النازي العسكري.

ولما وجه الالمان انذارهم بتدمير مدينتي «روتردام» و «لاهاي» تدميراً كلياً، استسلمت جبهة هولندا الغربية بكاملها (١٥ أيار ـ مايو) وألقى الجيش الهولندي السلاح، ما عدا بعض الوحدا الزيلندية التي تابعت القتال حتى ١٧ منه، ووحدات البحرية التي التجأت الى بريطانيا العظمى لتتابع القتال الى جانب البحرية الملكية.

وفي بلجيكا اندفع الجيش السادس الالماني، بأربعة فيالق جبهية للاستيلاء على جسور قناة «البرت»، فاستطاع تأمين ذلك بسهولة مدهشة، بانزال مجموعة لا يزيد حجمها عن الفصيلة، خلف كل جسر من الجسور، بالطائرات الشراعية، وانزال مفرزة أخرى بالاسلوب نفسه، في حصن «ايبن ايمايل» الشهير، استطاعت الفتك بالسدنة، وتدمير المدافع، او بعضاً منها، وشل عمل معظم اسلحة الحصن. ان هذا التمهيد الذي ساندته العمليات الالمانية الجوية مساندة جبارة، فتح محور التقدم امام الجيش الالماني السادس، فاجتاز قناة «البرت»، بينما أعطى الملك «ليوبولد الثالث» البلجيكي أمره الى قواته بالانكفاء الى خط «ديل» بين «نامور» و «انفرس».

ولما كان الجيش الفرنسي الاول بقيادة الجنرال «بلانشار» يمسك القطاع

بين نامور» و «وافر» والبريطانيون يتمركزون في القطاع بين «وافر» و «لوفان»، فقد انحصر البلجيكيون بمسك القطاع بين «لوفان» و «انفرس».

أما على خط «ديل» فقد أظهر المدافعون (الجبهتان الفرنسية والبلجيكية، اذ لم يحصل أي ضغط الماني على الجبهة البريطانية) عناداً شديداً، ولم يمكنوا الألمان من خرق هذا الخط خلال أيام ١٢و١٣و١٤ أيار (مايو). وفي الوقت الذي كان يأمل فيه البلجيكيون بوقف الزحف الالماني أصدر «غاملان» أوامره الى القوات الفرنسية على خط «ديل» بالانسحاب (١٥ أيار) اذ استطاع «فون رونشتدت» الاندفاع عبر «سيدان» والتوجه إلى الاراضي الفرنسية. وضمت مجموعة «فون رونشتدت» من اليمين الى اليسار: الجيش الرابع «فون كلوغ»، والجيش الثاني عشر «ليست»، والجيش السادس عشر والجيش الثاني احتياط، وعززت هذه المجموعة بمجموعتين مدرعتين، واحدة كبيرة بقيادة «فون كليست» وأخرى أقل حجماً بقيادة «هوث».

انطلق هجوم «فون رونشتدت» من الجنوب، وقاد الدفع الرئيسي الأمامي الجنرال «غودريان»، فاجتاز الحدود اللوكسمبورغية واندفع عبر « الآردين» وسط دهشة الفرنسيين والبلجيكيين، الذين كانوا يعتبرون هذه المنطقة منيعة طبيعياً وغير صالحة للعمليات العسكرية الواسعة، خصوصاً لعمل المدرعات. وعلى هذا الأساس لم يجابه الالمان في «الآردين» سوى قطعات خيالة فرنسية قديمة التنظيم والتسليح وقطعات مشاة بلجيكية، بحيث لم يكن هناك أي احتمال لوقف المدرعات الألمانية الزاحفة.

وفي مساء ١٢ أيار (مايو) وصل الاندفاع الالماني الى نهر «الموز»، وكاد يقطع الجيشين الفرنسيين شرقي «سيدان» (الجيش الثاني الفرنسي بقيادة «هنتز

يجر» والجيش الفرنسي التاسع بقيادة «كوراب»). وفي ١٣ منه استطاع « غودريان» اجتياز نهر «الموز» عند نقطتين قرب «سيدان»، واستطاع الفيلق المدرع العائد للجنرال «ريهاردت» اجتيازه ايضاً، وذلك بفضل اسناد جوي قامت به حوالي ألف طائرة. وبعد يومين وصلت القوات العابرة الى أرض مفتوحة اندفع فيها «غودريان» متجهاً نحو الشاطىء الفرنسي. وتتابع عبور نهر «الموز» عند « نامور» بقيادة الجنرال «رومل»، واندفعت الجيوش الالمانية في الثغرة المفتوحة امامها خلف مواقع جيوش الحلفاء المتمركزة في بلجيكا.

ارسلت القيادة الفرنسية الجنرال «جيرو» ليتسلم قيادة جيش «كوراب» مع تعزيزات قوية، وعندما أراد القائد صد الزحف الالماني تبين له أن هؤلاء قد تجاوزوه فانسحب الى خط «الواز» بغية إيقاف هجومهم على هذا النهر، الا انه في هذه المرة ايضاً وصل متأخراً، وكان الهجوم الالماني قد تجاوزه مرة ثانية (١٥ أيار) عندها أعلن «غاملان» الى الحكومة الفرنسية أنه لن يستطيع ايقاف الالمان، وأنه لن يضمن حماية «باريس» إلا لمدة يوم واحد، فقرر «رينو» رئيس الوزراء انسحاب الحكومة الى مدينة «تور». ولكن قبل التنفيذ جاءته بعض الاخبار المطمئنة، فألغى فكرة انتقال الحكومة، كما عزل «غاملان»، واستدعى الجنرال «ويغان» ليسلمه القيادة العامة فلم يصل الا في ١٩ أيار (مايو)، مما أدى الى اهراق أيام كانت الجيوش الفرنسية فيها بدون قيادة عامة تقريباً.

وتسابق الالمان نحو الشواطىء الفرنسية، ووصلت طلائع «غودريان» الى «اميان» في ١٩ أيار (مايو) قاطعة بذلك ومطوقة جميع قوات الحلفاء المقاتلة في بلجيكا، وبوصولها الى « آبفيل» قطعت كل اتصال بين الشمال والجنوب، ثم اندفعت شمالا نحو «كاليه» و «دنكرك» (٢٢أيار ـ مايو).

وعلى جبهة «ديل»، اضطر البريطانيون والبلجيكيون، بعد انسحاب القوات الفرنسية، الى الانكفاء بدورهم حتى خط «إيسكوت»، إلا أن بوادر الفشل في معركة بلجيكا كانت ظاهرة، ومنذ ١٩ أيار (مايو) اخذ القائد البريطاني «غورت» يفكر بركوب البحر مع قواته عائداً الى الجزيرة البريطانية، اذ لم يجد مقراً آخر، فأمرته السلطة السياسية البريطانية بمحاولة خرق الحصار، ولكنه لم يفلح في ذلك. وهكذا حصرت قوات الحلفاء بين فكي الكماشة، شمالا من قبل قوات الجيش السادس الالماني، وجنوباً من قبل قوات «فون رونشتدت» وطليعتها «غودريان». وعندما خرق الالمان الخط البلجيكي الجديد على «ايسكوت» اضطر البلجيكيون الى طلب الهدنة (٢٨ أيار) والاستسلام.

وبقيت عمليات الانسحاب من «دنكرك» على قدم وساق من ٢٦ أيار (مايو) حتى ٣حزيران (يونيو)، واستطاع خلالها ٢٣٣٠٣٩ جندياً بريطانياً ركوب البحر بطريق العودة، ومعهم ١١٢٥٤٦ جندياً فرنسياً، بعد أن ترك الجميع اعتدتهم العسكرية وولوا الادبار. وقد ساعد على نجاح هذا الانكفاء ترتيبه من جهة، وانضباط عملياته من جهة أخرى، ورغبة الفوهرر من جهة ثالثة الذي كبح جماح «غودريان»، الذي وصل الى «دنكرك» في ٢٣ أيار (مايو)، من متابعة وتدمير القوات المنكفئة، على رغم المساندة الجوية الجبارة التي أمنها البريطانيون لعمليات الانكفاء.

كانت حصيلة المعارك، في الاسابيع الثلاثة من شهر أيار (مايو) استسلام وأسر حوالي مليون جندي من الحلفاء، مقابل ستين ألفاً من الالمان بين أسير وقتيل وجريح.

معركة فرنسا: بعد «دنكرك» أمر هتلر قواته المدرعة بالتوجه الى جبهة

«السوم» و «الايسن». وكان الفرنسيون الذين خسروا حتى تاريخه ثلاثين فرقة من قواتهم العسكرية قد جمعوا ٤٦ فرقة استقدموها من خط «ماجينو» الى هذه الجبهة، تاركين هناك ١٧ فرقة فقط. وبالاضافة الى قوى الجبهة الجديدة، لم يبق في الميدان من القوات البريطانية سوى فرقتين اثنتين. في هذا الوقت كان الالمان قد أعادوا تنظيم قواتهم فدفعوا بجيشين جديدين الى جبهة «الإيسن» هما: الجيش الثاني والجيش التاسع، كما أولوا «غودريان» قيادة فيلقين مدرعين تاركين «كلينست» لقيادة فيلقين فقط.

انطلق الهجوم في الخامس من حزيران (يونيو) على القطاع الغربي بين «لاون» والبحر، ولم تكن المقاومات الفرنسية لتستطيع صد المتقدمين. وفي السابع منه اخترق «رومل» (الفيلق الخامس عشر) المقاومة الفرنسية وسار باتجاه مدينة «روان». وفي التاسع منه اجتاز نهر «السين». وكان الهجوم الغربي هذا تمهيداً للهجوم الكبير على خط «الايسن». لأن الالمان استهدفوا من هذه المناورة تجميد القوات الفرنسية في ذلك القطاع، وتضليل الفرنسيين، واجبارهم على اقتطاع قوات من خط المقاومة الرئيسي على نهر «الايسن» بغية مجابهة التهديد الجديد في الغرب. وفي الواقع فقد أخر الالمان هجومهم العام على خط المقاومة هذا حتى التاسع من حزيران (يونيو)، واستطاعوا بغير جهد كبير، اختراق الخطوط الفرنسية، والاندفاع جنوباً وجنوباً شرقاً لتطويق القوات الفرنسية المدافعة عن خط «ماجينو».

في العاشر من حزيران (يونيو) أعلنت ايطاليا الحرب الى جانب المانيا، وفي ١١ منه أعلن «ويغان» ان المعركة خاسرة، وانه لا بد من الصلح. فانتقلت الحكومة الفرنسية الى مدينة «بوردو». وفي ١٤ حزيران (يونيو) دخلت القوات

الالمانية «باريس»، واستقالت حكومة «رينو»،وتألفت حكومة برئاسة المارشال «بيتان» التي طلبت الصلح في ١٦ منه. وفي ٢٥ أعلنت الهدنة مع المانيا ثم أعلنت مع ايطاليا في اليوم التالي، وكانت شروط الصلح قد وقعت في نفس قاطرة «فوش» التي وقعت فيها المانيا وثيقة استسلامها في الحرب العالمية الاولى، وقد عرفت حكومة «بيتان» بحكومة «فيشي» لجعلها هذه المدينة عاصمة لها بعد ان قسمت فرنسا الى منطقتين: شمالية تحت الاحتلال الالماني وجنوبية (فيشي) جمهورية حرة.

كان أحد مساعدي «رينو» العسكريين الجنرال «ديغول» قد غادر فرنسا سراً الى بريطانيا. وفي ١٨ حزيران (يونيو) أذاع نداءه بمتابعة المقاومة من راديو لندن، كما أعلن بعد ذلك قيام حكومة فرنسا الحرة، نواة المقاومة الفرنسية التي انتقلت الى الجزائر بعد أن اجلى الحلفاء انصار «فيشي» عنها. بانهيار فرنسا، ظن هتلر بأن انكلترا ملقية السلاح لا محالة، ولما عرض الصلح اصطدم بتصميم رئيس وزرائها الجديد، «ونستون تشرشل» على مواصلة المقاومة ولو منفرداً ومنذ الثامن من آب (أغسطس) ١٩٤٠ افتتح قائد السلاح الجوي الالماني معركة بريطانيا الجوية، فقام سلاح الجو الالماني بقصفها، وظلت القاذفات تمطرها ناراً مستمرة غير مفرقة بين هدف عسكري أو مدني حتى كادت تهدم «لندن»، إلا أن البريطانيين أظهروا صبراً مدهشاً، وصموداً هائلا تعدوهما بعد قليل الى مقاومة عنيدة، استطاعوا بها اسقاط نحو الفي طائرة المانية، واسهموا في تأخير ثم الغاء فكرة هتلر بغزو جزيرتهم

ولقاء خسائر الحلفاء لم يكن ممكناً تعويضهم الا من قبل الولايات المتحدة

الاميركية بموجب قانون (الاعارة والتأجير) الذي عمل الرئيس الاميركي «روزفلت» على اقراره في الكونغرس. وقضى القانون بمديد المساعدة للدول التي يشكل أمنها مصلحة حيوية بالنسبة الى الولايات المتحدة الاميركية.

وهكذا سلمت الاسلحة والطائرات والسفن الحربية، واعتدة حربية مختلفة الى كل من بريطانيا، واليونان وفيما بعد الى روسيا والصين.

وفي البلقان هاجم «موسوليني» اليونان، فتدخل الاسطول البريطاني ضد ايطاليا، واستطاع مع الجيوش اليونانية صد «الدوتشي»، ثم دفعه الى التقهقر، فاستصرخ للمساندة حليفه هتلر الذي استجاب للنداء، واقتحم النازيون يوغوسلافيا واليونان في آن معاً (٦نيسان ١٩٤١).

الانزال الجوي في جزيرة كريت: باستيلاء الالمان على اليونان، هرب الملك جورج الثاني وحكومته الى جزيرة «كريت» بغية إقامة سلطة في الجزيرة تمهيداً للعودة الى اليونان، لكن الالمان بعد شهر من ذلك، أي في ٢٠ أيار (مايو) ١٩٤١ انزلوا فرقة مظليين بقيادة الجنرال «شتودنت» مساندة بالاسطول الجوي الالماني، فاستولوا على الجزيرة وعلى مطاراتها، وكان لدى البريطانيين في «كريت» ٢٥ ألف جندي، إلا أنهم يفتقرون الى مختلف أنواع الاسلحة الثقيلة والمدفعية المضادة للطائرات، ولقد استطاعوا الصمود مدة أحد عشر يوماً حتى اضطروا الى اخلاء الجزيرة، وانسحب منهم أربعة عشر ألف رجل ، اما الملك وأعضاء حكومته فانسحبوا الى مصر.

ان احتلال «كريت» وكافة جزر بحر «ايجه» ووصول قوات جوية الى ايطاليا وصقلية واليونان، جعلا موقف بريطانيا في البحر الابيض المتوسط حرجاً

جداً: فالبواخر القادمة الى الشرق اصبح عليها أن تقطع طريق رأس الرجاء الصالح، أي أن تجتاز مسافة تعادل أربعة أضعاف المسافة العادية في البحر الابيض المتوسط، في حين فتح البحر أمام الاساطيل الالمانية والايطالية. أما جزيرة «مالطة» وهي أصغر من «كريت» وتفوقها من حيث الاهمية الاستراتيجية، فلقد ظلت منعزلة مدة ثلاث سنوات تقريباً، وتعرضت الى ألفي عملية قصف. إلا أنها جابهت المهاجمين بمقاومة مدهشة، حتى أمكن اعتبارها مقبرة الطيران الايطالي - الالماني في البحر الابيض المتوسط (أسقطت فوق هذه الجزيرة خلال شهر تموز (يوليو) ١٩٤٢، ٢٠٠ طائرة) كما أن تموين تلك الجزيرة، التي بقي يحكمها اللورد «غوريت» حتى نهاية الحرب، كان يشكل إحدى أهم المسائل الشائكة التي واجهت البحرية الملكية البريطانية. فلقد كانت قافلة التموين التي يقودها في كل مرة الاميرال «فيان» تفقد أحياناً نصف، أو ثلثي بواخرها أثناء انتقالها، وفي غضون إحدى عمليات التموين تمكنت باخرة واحدة من الوصول الى الجزيرة، ومع هذا فقد بقي تموين «مالطة» يجري بصورة دائمة.

ثورة العراق واحتلال سوريا ولبنان وايران :

كان في نية الالمان، بعد أن اصبحوا أسياد اليونان وجزر «الدوديكانيز» التقدم الى ايران بغية الاستيلاء على مناطق البترول، وقطع خطوط المواصلات بين بريطانيا العظمى والاتحاد السوفياتي. وفي ٣ أيار (مايو) ١٩٤١ استولى رئيس الوزراء العراقي «رشيد عالي الكيلاني» على السلطة في العراق، وسيطر على المطارات حيث هبطت ثلاثة أجنحة من سلاح الجو الالماني.

ودهش البريطانيون لهذا الحدث، وسارعوا الى احتلال بغداد في ٣٠ منه،

وأصبح احتلال سوريا ولبنان ضرورة ملحة. وعلى الرغم من افتقار البريطانيين الى الوسائل في تلك الفترة، فقد توصلوا الى تجميع ٢٥ ألف رجل من البريطانيين والاوستراليين والفرنسيين الاحرار، تحت قيادة «ويلسون»، وقذفوا بهم من فلسطين على سوريا في ٨ حزيران (يونيو). وبعد قتال استمر شهراً استسلمت قوات حكومة «فيشي»، واصبحت سوريا ولبنان تحت سلطة البريطانيين، فقطع بذلك طريق توغل الالمان باتجاه آبار البترول في العراق، ومنع الالتفاف على قناة السويس من الجهة الشمالية الشرقية.

بقيت مسألة احتلال ايران ضرورية لسببين:

اولهما تحقيق الاتصال مع الاتحاد السوفياتي، حيث أن تموينه لا يمكن أن يجري بصورة أمينة عن طريق المرافيء الشمالية. وثانيهما منع أية محاولة يقوم بها الالمان باتجاه آبار بترول ايران عن طريق تركيا.

في آب (أغسطس) ١٩٤١ طلب السوفيات الى حكومة الشاه، طرد الجالية الالمانية من الاراضي الايرانية، فرفض الشاه الطلب، مما أدى الى اجتياح بلاده من قبل قوات بريطانية من الجنوب التقتها قوات سوفياتية من الشمال. وفي غضون ثلاثة أيام كانت ايران في قبضة الحلفاء. فانفتح بذلك أكبر طريق تمويني عرفته الحرب. وكان هذا الطريق، والامدادات الاميركية إلى الاتحاد السوفياتي عبر ايران، سبباً من اسباب تدعيم القوة العسكرية السوفياتية في وجه النازيين على الجبهة الشرقية.

الجبهة الشرقية :

لم يعمر الاتفاق طويلا بين هتلر وستالين.

وكان مثار الخلاف قضية النفوذ في شرقي اوروبا، والبلقان. فلقد احتل النازيون رومانيا وبلغاريا والمجر ويوغوسلافيا واليونان. ولم يعد بإمكان ستالين أن يتجاهل هذا الوجود النازي يهدده في اقرب المناطق اليه، كما لم يعد بامكان هتلر السكوت على المد الشيوعي المتعاظم بسبب مآسي الحرب. ومع اطلالة صيف ١٩٤١ بدأ تنفيذ خطة غزو الاتحاد السوفياتي.

انطلقت الجيوش النازية على ثلاث جبهات:

في كل جهة مجموعة جيوش بأمرة القادة أنفسهم الذين قاتلوا على الجبهة الغربية في العام ١٩٤٠.

الى اليمين كان الفيلد مارشال «فون رونشتيدت» جنوبي بولونيا، وفي الوسط الفيلد ماريشال «فون بوك»، ونحو اليسار عبر بلاد البلطيق كان الفيلد مارشال «فون ليب». مع الجهد الرئيسي، في الوسط مجموعة «فون بوك» التي أعطيت تعزيزاً بالمدرعات قوامه مجموعتان احداهما بقيادة الجنرال «غودريان» والثانية بقيادة الجنرال «هوث» اللذين اندفعا فوصلا الى «منسك» في ٢٧ حزيران (يونيو) وأسرا حوالي ٣٠٠ ألف جندي سوفياتي. وفي ١٧ تموز (يوليو)، وصلا الى «سمولنسك»، وأسرا حوالي ٢٠٠ ألف وتتابع التقدم النازي عبر الاتحاد السوفياتي، ووقعت معارك شديدة استطاع النازيون في معظمها تطويق الجيوش الروسية. ووصل الدفع النازي في الشمال حتى مدينة «لينينغراد» وضربوا حولها حصاراً استمر ستة عشر شهراً دون أن يتمكنوا من احتلالها وفي الوسط، وصلت طلائعهم حتى خمسين كيلومتراً من موسكو.

وبدا لـ «فون بوك»، وقد أصبح على هذه المسافة من «موسكو»، ان العاصمة السوفياتية اصبحت لقمة سائغة، وبتاريخ ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) شكل قواته لمهاجمتها كما يلي:

ـ يقوم الجيش المدرع الثاني (فيلقان مدرعان وفيلقان مشاة) بالمهاجمة على «اورل» ـ «تولا» شرقي موسكو على ميمنة الجيش الثاني الذي يقوم بالحماية باتجاه الجنوب ـ الشرق.

ـ الى اليسار يقوم الجيشان المدرعان الرابع والثالث (قوام كل منهما فيلقان مدرعان) من منطقة «روزا» ـ « كالينين» بالالتفاف على موسكو بطريق «ايسترا» ـ «دميتروف». وعهد الى الجيش التاسع بحماية هذا الحشد المدرع في الشمال.

ـ أنيطت بالجيش الرابع من سبع فيالق مهمة تثبيت العدو جبهياً بين طرفي الكماشة.

بتاريخ ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) شرع الالمان بالهجوم. وكانت النتائج الاولى مشجعة، اذ أحدق الخطر في الشمال بـ «دمتروف» كما اكتنف موسكو.

الا ان التقدم تعرقل بسبب توغل الالمان في المنطقة الواقعة في «الفولغا» و «موسكو»، والتي هي عبارة عن مستنقعات وغابات خالية من الطرقات، مما أسقط في يد الالمان الذين كانت خرائطهم تشير الى وجود خمس طرقات، خاصة عندما تبينوا أن الخرائط مزورة، وان القيادة السوفياتية وزعتها قبل الحرب

لتضليل الالمان اذا ما هاجموا الاتحاد السوفياتي. وهكذا وقعت فرق «البانزر» في شرك السوفيات. أما على المحور الأيمن فقد تجاوز الالمان «تولا» على مسافة بعيدة من الشرق، وقطع خط سكة الحديد بين «موسكو» و «تولا». غير أن السوفيات توصلوا الى الاحتفاظ بممر عرضه خمسة كيلومترات لتموين حامية «تولا».

وحاول الالمان تغيير اتجاه الهجوم، فقرروا في ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) مهاجمة موسكو مباشرة من جهتي «نارو» و «نومنيسك» بفرق من الجيش الرابع معززة بفيلق مدرع، فاجتاز المهاجمون نهر «نارا». إلا أن هذه المحاولة اصطدمت باستمالة السوفيات في الدفاع، والصقيع الشديد الذي هبط حتى ٤٠ درجة تحت الصفر.

بتاريخ ٦ كانون الاول (ديسمبر) شرع الروس بالهجوم المعاكس بقيادة «جوكوف» الذي قاد ثمانية جيوش لهذه العملية على جبهة ٤٥٠ كم بين «كالينين» و «افرينوف»، فدحر المهاجمين واجلاهم عن موسكو

في الجنوب، سقطت مدينة «كييف» بيد «فون رونشتدت»، كما سقطت «أوديسا» و «خاركوف» وشبه جزيرة القرم، و «روستوف» (٢٢ تشرين الثاني ١٩٤١) بحيث تم لهتلر السيطرة على «اوكرانيا» ومصانعها وقمحها.

وجدد الالمان هجومهم في آخر ربيع ١٩٤٢، فاصطدموا بمقاومة عنيفة من السوفيات بقيادة الجنرال «تيموشينكو»، فركزوا هجومهم على القطاع الجنوبي واحتلوا مرفأ «سيباستبول» ثم تابعوا تقدمهم حتى وصلوا الى

«ستالينغراد» سيسمح للالمان في حالة وقوعه بالتمركز بثبات على نهر «الفولغا»، وبقطع مواصلات القسم الاوسط من الاتحاد السوفياتي مع القوقاز.

وبدأت المعركة بانطلاق الهجوم الالماني اعتباراً من المنعطف الكبير لنهر «الدون» في منتصف شهر تموز (يوليو)١٩٤٢. وألقي عبء الجهد الرئيسي الالماني للاستيلاء على ستالينغراد على عاتق مجموعة «فون باولس» المؤلفة من الجيش السادس والجيش المدرع الرابع (٢٩فرقة). وكانت هذه المجموعة منتشرة على جبهة طولها ٨٠ كيلومتراً، وكانت مجنبتها اليمنى تستند إلى الجيش الرابع الروماني، ومجنبتها اليسرى تستند الى الجيش الثالث الروماني، والجيش الثامن الايطالي. وهكذا كانت مجنبتا (فون باولس) المؤلفتين من قوات رومانية وايطالية نقطة الضعف في ترتيب الهجوم. وفي ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) كان «فون باولس» قد توصل الى «الفولغا» شمالي «ستالينغراد»، وكاد أن يسيطر على المدينة بأسرها، لولا أن السوفيات بقوا في مراكزهم الدفاعية، مستندين الى النهر، عند مصانع الجرارات، يدافعون حتى النهاية. وفشلت جميع المحاولات للاستيلاء على ستالينغراد، وكان السوفيات يدافعون بعناد هائل، عاملين في الوقت نفسه على ايجاد ظروف ملائمة لعمليات هجومية مستقبلية، غايتها تدمير مجموعات العدو، المتقدم باتجاه الشرق. وبهذا المفهوم للقتال الدفاعي اتخذت القيادة السوفياتية العليا تدابيرها لمسك وتوسيع رؤوس الجسور على الضفة اليمنى لنهر «الدون» في قطاع «سيرافيموفيتش». ولم تكن القيادة الالمانية تعتقد بامكانية قيام السوفيات بعمل هجومي عام. ومع هذا فمنذ شهر أيلول (سبتمبر) وفي حمى المعركة الدفاعية، بدأ التحضير للعمل الهجومي، وكانت الخطة القيام بهجومين يبعد الواحد عن الآخر مائتي كيلومتر، ويؤديان في النهاية الى تطويق

المجموعة الاساسية الالمانية التي تحاصر ستالينغراد. وكان على الهجوم الأول أن ينطلق من مجرى «الدون» الاوسط، على أن ينطلق الهجوم الثاني من منطقة البحيرات جنوبي «ستالينغراد».

وكان الهجومان بقيادة الجنرال «جوكوف»، وكان عليهما ان يلتقيا في «كالاتش».

وفي ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) بدأت مجموعة جيوش «فاتوتين» والجانب الايمن لمجموعة جيوش «روكوسوفسكي» بالهجوم الشمالي، أما مجموعة جيوش «بيرمنكو» فقد انطلقت في هجومها من الجنوب في اليوم التالي. وكان الهجوم السوفياتي بشطريه الشمالي والجنوبي، من العنف بحيث زعزع في نهاية اليوم الاول لانطلاقه الخطوط الدفاعية الالمانية.

وبتاريخ ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) انتزعت «كالاتش» من الشمال، ودخلتها في اليوم التالي مجموعة جيوش «بير منكو» بعد ان دمر قسم كبير من الجيشين الروماني الثالث والرابع، وفي غضون خمسة ايام فقط، أنجز الروس عملية تطويق العدو، وقاموا حتى نهاية الشهر بعمليات تضييق الخناق، حتى باتت قوات الالمان الاساسية، والتي أصبحت عبارة عن ٢٢ فرقة (٣٣٠ ألف رجل)، محصورة في بقعة مساحتها ١٥٠٠ كم٣، وعرضة للتدمير الكلي.

وباءت جميع محاولات الالمان لفك الحصار بالفشل واستسلم ما بقي من قوات «فون باولس» في ٣١ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٣.

الحرب في الشرق الأقصى :

توتر الموقف في الشرق الأقصى بين الاميركيين واليابانيين بسبب قيام الولايات المتحدة بتقديم مساعدات عسكرية متزايدة لقوات تشانغ كاي ـ تشيك المشتبكة مع اليابانيين منذ العام ١٩٣٧. وقد بلغ التوتر ذروته في تموز (يوليو) ١٩٤١. فأرسلت اليابان وفداً مفاوضاً الى الولايات المتحدة الاميركية لمنع الاحتكاك الذي قد يقع بين البلدين، محوّلة انظار الاميركيين عما تعده لهم من مفاجأة. وبينما كان الوفد الياباني المفاوض في واشنطن، قامت الطائرات اليابانية بغارة مفاجئة على الاسطول الاميركي المرابط في «بير هاربور» صباح الاحد في ٧ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤١ فدمرت معظم ذلك الاسطول وما كادت الانباء تصل الى واشنطن حتى اجتمع الكنغرس واعلن الحرب على اليابان، وبعد ثلاثة أيام أعلنت المانيا وايطاليا الحرب على الولايات المتحدة الاميركية فدخل العالم كله أتون الحرب.

وبعد مرور ثلاثة أيام على كارثة «بيرل هاربور»، وعلى مسافة ثمانية آلاف كيلومتر، انطلقت الدارعتان البريطانيتان «ريبولس» ٣٢٠٠٠ طن، و«برنس أوف ويلز» ٣٠٠٠٠طن، اللتان كانتا متمركزتين في سنغافورة، واتجهتا لتدمير أسطول ياباني للنقل ظهر في خليج سيام. ونظراً لخروجهما دون مساندة جوية، فقد هوجمتا في عرض البحر عند «كوان تان» من قبل ما يقارب المئة طائرة يابانية، وأدى ذلك الى اغراقهما مع قائدهما الاميرال «توم فيليب». وهكذا لم يبق للحلفاء أي مركب حربي كبير يقارعون به اليابانيين. وزعزعت الضربة المزدوجة الفجائية ميزان القوى في المحيط الهادى، وسيطر اليابانيون عليه سيطرة شبه كاملة.

دخل اليابانيون من الهند الصينية الى سيام بتاريخ ٨ كانون الاول (ديسمبر)، والى «بانكوك» في ٩ منه، فاجتاحوا شبه جزيرة «ملبقة»، وهاجموا بطريق البحر، موقع سنغافورة الحصين الذي سقط بأيديهم في ١٥ شباط (فبراير) ١٩٤٢، وفتح أمامهم باب المحيط الهندي

بتاريخ ١٠ كانون الاول (ديسمبر) سقطت «غوام»، وهي القاعدة الاميركية في «ماريان» ودمرت كافة الطائرات الاميركية في الفيليبين من قبل اسراب طائرات أقلعت من «فورموزا»، كما شرع اليابانيون بعملية انزال شمالي «لوسون»، وانزلوا وحدات أخرى في «ساراواك» شمالي «بورنيو».

وانتهت مقاومة الاميركيين في «وايك»، والبريطانيين في «هونغ كونغ»، بتاريخ ٢٤ و ٢٥ منه.

ولم يكن باستطاعة الجنرال «ماك آرثر» المقاومة، فتراجع الى شبه جزيرة «باتان» لسد خليج ومرفأ «مانيلا». ولكن هنا ايضاً، لم تستطع شبه الجزيرة المقاومة، لأبعد من الثامن من نيسان (ابريل) ١٩٤٣، حيث عزل ١٥٠٠ من قوات مشاة البحرية في جزيرة «كوريجيدور»، ونفذت المؤن، فألقى الجنرال «ونترايت» السلاح مستسلماً مع مئة ألف من الاميركيين والفيليبينيين. وعلى الرغم من الحشود الضخمة التي قام بها البريطانيون والايرلنديون، سقطت «جاوا» ايضاً. وكان قد سبقها سقوط «سومطرة»، واستولى اليابانيون على «رابول» التي أصبحت القاعدة اليابانية الكبرى في جنوبي المحيط الهادىء. أما في «بورما» وكان الدفاع عنها منوطاً بفرقتين بريطانيتين وبضع وحدات صينية، فقد سقطت « رانغون» في ٨ آذار (مارس) وبسقوطها انقطع كل اتصال بري

مع الصين، وفتحت امام اليابانيين امكانات المناورة على الصين من الجنوب، إلا أن وصول النجدات الاميركية والبريطانية والصينية، والطول المتزايد لخطوط المواصلات اليابانية وطبيعة الارض والمناخ، وتعدد جبهات القتال، كل هذه العوامل أدت الى وقف اليابانيين عند الحدود الهندية.

ان فتوحات اليابانيين الخاطفة لم تؤد الى بعيد، فقد اخطأت طوكيو بضربها الاسطول الاميركي في «بيرل هاربور»، لأن تلك الضربة عجلت في دفع اميركا الى دخول الحرب، وأخطأت طوكيو حين أصبحت «سنغافورة» و «رانغون» وطريق «بورما» تحت سيطرتها في عدم الاصغاء لهتلر الذي الح في أن يكون الجهد الرئيسي الياباني باتجاه الهند، ليتطابق مع الكماشة المزدوجة التي ستحاول جيوش المحور القيام بها في شهر أيار (مايو) ١٩٤٢ باتجاه قناة السويس والقوقاز. غير أن اليابانيين كانوا يخوضون حربهم دون الاكتراث بالمصالح الهتلرية، ففضلوا التوسع دون إقامة أي اعتبار لحس القياس، ولكن هذه المرة باتجاه «ميدواي» و «استراليا» حيث سيسجلون بوادر اخفاقهم.

بتاريخ ١٩٤٢/٢/٢٣ تلقى مارك آرثر امراً قطعياً من «روزفلت» بتسليم الدفاع عن «باتان» الى الجنرال «وينرايت» والحضور الى «استراليا» لاستلام القيادة العليا لقوات الحلفاء في المحيط الهادىء.

وفي ١٩ آذار (مارس) انطلقت من على حاملة الطائرات «هورنت» ١٦ طائرة وألقت قنابلها على طوكيو، وبعد أيام بدأت النجدات الاميركية تصل الى «اوستراليا»، كما اعيد اليها. الاف الجنود الذين كانوا يحاربون الى جانب البريطانيين في الجبهات الاخرى خارج «استراليا»، خصوصاً في الشرق الاوسط.

جرت معركة بحر «الكورال» بتاريخ ٦ و ٧ و ٨ ايار (مايو) عندما اقلع عدد من الطائرات الاميركية من حاملتي الطائرات «يورك تاون» و «لكسنغتون»، وقام بمهاجمة اسطول ياباني هام كان يطوق غينيا الجديدة من الشرق، ويحيط بعدد من سفن النقل لاحتلال مرفأ «مورسبي» باعتبار ان الاستيلاء على هذا المرفأ يشكل خطراً مباشراً على اوستراليا. وانتهت المعركة بانسحاب الاسطول الياباني وغرق الحاملة «لكسنغتون» وانقاذ اوستراليا.

وجه اليابان، بعد معركة «كورال» جهدهم الرئيسي باتجاه «ميداوي»، مكتفين بابقاء قوة بحرية ثانية مؤقتاً في جنوبي المحيط الهادىء. ولو توصل اليابانيون الى احتلال هذه الجزيرة لاستطاعوا الاستيلاء على جزر «هاواي» وبالتالي السيطرة الكاملة على المحيط الهادىء الاوسط.

كان لا بد لليابانيين من تسديد ضربة شديدة الى جزيرة «ميداوي» نظراً لأهميتها الاستراتيجية فشكلوا بأمرة «ياماموتو» خمس مجموعات متتابعة:

ـ المجموعة المتقدمة، وقوامها ١٦ غواصة.

ـ مجموعة الصدمة، وقوامها ٤ حاملات طائرات (٢٧٢ طائرة، وبارجة، وطرادان ثقيلان، و١٢ مدمرة، وخمس ناقلات نفط).

ـ مجموعة الاحتلال تتألف من قوة تغطية، وقوة مساندة مباشرة، مجموعها دارعتان و ٨طرادات وحاملة طائرات خفيفة، وعشر مدمرات، ومن قوة منقولة (خمسة آلاف جندي) وطراداً، وعشر مدمرات، وناقلة نفط.

ـ مجموعة القيادة، وتتألف من ٣ بوارج، وحاملة طائرات خفيفة، و ١٣ مدمرة، و ٤ ناقلات نفط، وناقلتي طائرات برمائية.

ـ مجموعة مشاغلة وتتألف من ٤ دارعات، وطرادين خفيفين، و ٤ ناقلات نفط، وعدد من مراكب الانزال.

على صعيد المعسكر الآخر، سمي الاميرال «شيستر نيمتز» قائداً أعلى للقوات البحرية في المحيط الهادىء. وكانت معظم سفن الاسطول الاميركي في التصليح او قيد الصنع، ولكنه استطاع بعد قليل أن يدخل تاريخ الحروب البحرية من بابها الواسع، ويلمع اسمه كأحد قادة الحرب العالمية الثانية البارزين.

لما كان «شيستر» غير قادر على معادلة خصمه، فقد ترك اسطولا صغيراً للدفاع عن «اوستراليا» وحشد خفية اسطولا مؤلفاً من ٣ حاملات طائرات (٢٣٣ طائرة) و ٧طرادات ثقيلة، وطراد خفيف، و ١٧ مدمرة، و ١٩ غواصة، في المحيط الهادىء الاوسط، كما عزز الدفاع الجوي في «ميدواي» برفع عدد الطائرات الى ١١٩ طائرة.

ودارت المعارك عنيفة في الرابع من حزيران (يونيو)، واستمرت حتى السادس منه، اضطر معها الاسطول الياباني الى الانسحاب بعد ان دمرت منه أربع حاملات طائرات، وعدد كبير من الطائرات، كما دمرت كافة منشآت «ميدواي» ولم يبق سوى المطار والمدارج.

وبانتصار الاميركيين في هذه المعارك، أعيد التوازن البحري الى المحيط الهادىء، بعد أن أمعنت الطائرات والغواصات الحليفة في اغراق عدد من سفن النقل اليابانية في المحيط الهادىء، معرقلة بذلك عمليات التموين الضخمة على خطوط مواصلات يابانية أصبح طولها يتعارض مع نسق الانتاج الصناعي الحربي الياباني.

جبهة شمالي افريقيا :

كان شمال افريقيا طريق التقدم الى قناة السويس. ولقد دارت على هذا المسرح عمليات طويلة امتدت من ايلول (سبتمبر) ١٩٤٠ حتى آذار (مارس) ١٩٤٣. وعرف المعسكران المتجابهان خلال هذه العمليات النجاح والفشل. ويمكن تقسيم العمليات إلى ٦ مراحل:

أ ـ هجوم غرازياني (ايلول ١٩٤٠) كان السير «ويفل» القائد الاعلى للقوات في مصر والسودان وفلسطين. وكانت قواته تتألف من عشرين الفاً، وتضم الفرقة الهندية الرابعة، والفرقة المدرعة السابعة، واللواء «سلبي»، والكتيبة السابعة من الفرقة المدرعة الملكية. أما سلاح الجو البريطاني فكان له في مصر ١٥٠ طائرة قديمة. وكان القائد الايطالي «غرازياني» يأمر بالمقابل ٢٥٠ الفاً، ولديه ٢٥٠ طائرة، وقد استطاع مهاجمة مصر بمئة ألف جندي على محورين ساحليين، وتوغل في الاراضي المصرية مسافة ٩٠ كيلومتراً من «السلوم» الى «سيدي براني»، حيث توقف دفاعياً أمام دهشة البريطانيين وذهولهم.

ب ـ هجوم ويفل (كانون الاول ١٩٤٠)

نشر «غرازياني» ثلاثاً من أصل فرق المشاة الست، بين «صوفاني» و «المقتلة»، كما ركز فرقتين حوالي «سيدي براني»، أما الفرقة السادسة فتمركزت في «نقب حلفايا».

وبعد أن قارن «ويفل» بين غايته ووسائله المتواضعة قرر القيام بهجوم وقائي، بغية خلق البلبلة في تحضيرات العدو، وبالتالي كسب الوقت.

الا انه بعد احرازه النجاح غير المنتظر، حول عمله الى فكرة استراتيجية واسعة. وقد تمثلت خطته باجراء خرق في وسط ترتيب العدو، بالفرقة الهندية الرابعة، وكتيبة المدرعات الملكية، بينما يتقدم لواء من الفرقة المدرعة السابعة باتجاه البحر غرب «سيدي براني» لقطع الحشد الرئيسي للعدو، على حين يقوم اللواء «سلبي» بمناورة تثبيتية للعدو.

في التاسع من كانون الاول (ديسمبر) انطلق الهجوم البريطاني، فأخذ يجتاز القوى الايطالية سائراً من نصر الى نصر. وفي اليوم التالي سقطت «سيدى براني»، والقت الفرقتان الاولى والثانية الليبيتان السلاح واستسلمنا. وبعد مضي تسعة أيام حررت الاراضي المصرية جميعها، ووقع اربعون ألف أسير بيد البريطانيين، بينما لم تتجاوز خسائرهم ١٣٣ قتيلا وحوالي ٤٠٠ جريح

وكانت الفرصة سانحة امام «ويفل» لاستثمار النصر، فلم يتأخر عن التقاطها، واندفع ملاحقاً فلول الايطاليين، فسقطت «السلوم» في ١٦ كانون الاول (ديسمبر)، ثم في ١٨ منه سقطت «البردية» واستسلم فيها اربعون الفاً، وفي ٢١ منه سقطت «طبرق» مع ثلاثين ألف أسير. بالاضافة الى ذلك استطاع البريطانيون انزال ضربة حاسمة بالايطاليين، خلال شهر شباط (فبراير) ١٩٤١، عندما تصدت قوة استطلاعية بريطانية لا يتجاوز عديدها الثلاثة آلاف الى رتل ايطالي كبير، يزيد عن العشرين الفاً، ويضم ١٥٠ دبابة و ٢٥٠ سيارة مدرعة في معركة «بيضاء فم»، فاجبرته على القاء السلاح.

جـ ــ هجوم رومل (آذار ١٩٤١) اضطر «ويفل» الى التوقف قبالة

صحراء «سرت» بغية تأمين تموينه على خط المواصلات الطويـل. إلا أنـه جـرت في هذا الوقت أحداث خطيرة في البلقـان، اجـبرت القيـادة السياسـية البريطانيـة على اقتطاع قوى من «ويفل» لمصلحة تلك الجبهة، في الوقت الذي قـررت فيـه القيادة السياسية للمحور تعزيز جبهة شمالي افريقيا. وأرسلت الجـنرال «رومـل» الذي نزل في طرابلس الغرب مع فرقة مدرعة وفرقة ميكانيكيـة، وبعـض الفـرق الايطالية، كما اعطيت لجبهة شمالي افريقيا افضلية عمل الاسطول الجوي الالماني الثـاني المتمركـز في صقلية وايطاليـا الجنوبيـة. وكـانت دبابـات «مـاتيلدا» و «كروسيدر» البريطانية أقل كفاءة من الدبابات«بسمارك٤»التي جاء بها رومـل. وعندما هاجم رومل في ٢٤ آذار (مارس) دفع اربعة الويـة بريطانيـة الى القـرار، فأخليت «بنغازي» في ٤نيسان (ابريل)، وحوصرت «طبرق» في ١٥ منه، بينمـا تقدمت الدبابـات الالمانيـة تجس نبـض موقـع «السـلوم». وبقيـت هـذه المنطقـة مسرحاً لعمليات استمرت من ايار (مايو) حتى تشرين الاول (اكتوبـر) ١٩٤١ دون معركة حاسمة، فقد قاومت «طبرق» التي كـانت تمـون بطريـق البحـر مـدة ثمانية اشهر وظلـت تشـكل خطـراً دائمـاً علـى مجنبـة رومـل اليسـرى، كمـا ان «السلوم» قاومت بضراوة وعناد اضطرتا رومل بالاضافة الى ضـرورات تموينيـة الى التوقف امامها.

د ـ هجوم اوكنلك (تشرين الثاني ١٩٤١)

في بداية تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤١، كان الخصمان متجابهان، تفصل بينهما منطقة حرام واسعة.

ولقد حشد المحور سبع فرق مشاة وثلاث فرق مدرعة، مقابل خمـس فـرق مشاة وفرقتين مدرعتين بريطانيتين. وبدأ الهجوم البريطاني في ١٨ تشرين الثاني

(نوفمبر)، ففك الحصار عن «طبرق» في ٨ كانون الاول (ديسمبر) وخسر المحور عشرة آلاف اسير الماني وست عشر الف اسير ايطالي، وخسر البريطانيون ثمانية عشر الفاً. ثم تتابع الضغط البريطاني دافعاً قوات المحور حتى اوصلها الى «العجيلة» في أول العام ١٩٤٢، ودخل البريطانيون مرة ثانية الى «بنغازي» في ١٩٤٢/١٢/٢٥.

هـ ـ الهجوم الثاني لرومل (١٩٤٢) بتاريخ ٢١ كانون الثاني ١٩٤٢ (يناير) بدأ رومل عملياته الهجومية، على ثلاثة ارتال متتابعة. فاحتل بنغازي في ٢٨ منه، وتابع تقدمه حتى اصطدم بالحلفاء في «الغزالة» و «بير حكيم». وبفضل الدفاع المستميت الذي فرضه الجنرال «اوكتلك» على «رتشي» قائد قواته، استطاع البريطانيون إيقاف تقدم رومل مدة اربعة اشهر. ثم انطلق الدفاع الالماني الثاني، بتاريخ ٢٧ أيار (مايو) على موقع «بير حكيم»، حيث دارت معارك هائلة أدت الى سقوطه في ١١ حزيران (يونيو). واندفع رومل الى طبرق فسقطت بعد بضع ساعات. وكانت قد قاومت مدة ثمانية أشهر في العام السابق، وسقط فيها ٢٥ ألف أسير.

بعد سقوط «طبرق» انكفأ البريطانيون الى العلمين على مسافة ٧٠ كيلومتراً من دلتا نهر النيل. وكانت خسارة هذا الموقع بالنسبة الى البريطانيين تعني خسارة الاسكندرية والسويس. وأصبحت جبهة الدفاع على خط العلمين قليلة الاتساع فهي محدودة شمالا بالبحر الابيض المتوسط، وتستند في الجنوب، على مسافة سبعين كيلومتراً على منخفض «القطارة»، حيث تشكل الرمال الرخوة حاجزاً أشد صعوبة من البحر، وعلى ذلك فان الالتفاف وراء هذا المنخفض من الجنوب، يقتضي اجتياز مئات الكيلومترات عبر الصحراء، ثم ان

خط مواصلات رومل اصبح طويلا وخطراً، فهو على مسافة ألف كيلومتر من بنغازي. أما البريطانيون فكانوا على ثمانين كيلومتراً من الاسكندرية.

في أول آب (اغسطس) ١٩٤٢ عين الجنرال «اوكنلك» قائداً أعلى في الهند، وتسلم الكسندر، قيادة مسرح العمليات في الشرق الاوسط، كما تسلم «مونتغمري» قيادة الجيش الثامن.

وبدأ رومل مهاجمة العلمين بين ٣٠ ــ ٣١ آب (اغسطس) بثلاث مجموعات: وصد البريطانيون مجموعة الشمال. واحتلت المجموعة الوسطى «تبة الرويسات»، لكنها ردت عند الفجر، بينما فتحت مجموعة الجنوب ثغرتين في حقل الالغام نفذت منها فرقة المشاة الميكانيكية التسعون، وتوصلت الى دير «المناصيب»، بينما توصلت الفرقتان المدرعتان الى «غابالا». وفي ٣ أيلول (سبتمبر) تعرضت قوات رومل الى هجوم معاكس كبير، استطاع دفعها عن العلمين، وانزل بها خسائر قدرت بمئة واربعين دبابة، كما حملت الجبهة كلها على الركود.

و ـ الهجوم البريطاني والمطاردة (تشرين الأول ١٩٤٢ ــ آذار ١٩٤٣).
لم يحاول البريطانيون استثمار النجاح لعدم القدرة عليه، بل فضلوا التوقف لتحضير عمليتهم التالية في الشهر القادم. ولقد استطاع «مونتغمري» اعتباراً من ٢٣ تشرين الاول (اكتوبر) استعادة المبادرة ومهاجمة رومل امام العلمين، ودحره ومطاردته مسافة ١٣٥٠ ميلا في مدة ٢٨ يوماً، حتى أوصله على خط «ماريت» في تونس، وقدرت خسائر المحور في العلمين وحدها بخمسين ألف رجل، و ٤٥٠ دبابة، و ٤٠ مدفع ميداني، و ٥٥٠ مدفعاً مضاداً للطائرات

وفي ليلة ٧ ـ ٨ تشرين الاول (اكتوبر) من العام نفسه، نزل الحلفاء في شمالي افريقيا. وكانت قواتهم البرية ـ البحرية ـ الجوية العاملة تحت قيادة الجنرال ايزنهاور تضم قوات بريطانية تعمل في الوسط بقيادة الجنرال «فريدندال» (٣٩ ألف رجل)، وقوات اميركية تعمل في الغرب بقيادة الجنرال «باتون» (٣٥ ألف رجل)، وقوات بريطانية واميركية تعمل في الشرق بقيادة الجنرال «رايدر» (٣٣ ألف رجل). واستطاعت قوات الحلفاء، بمساعدة القوات الفرنسية العاملة في شمالي افريقيا، النزول على الشاطىء الجزائري ـ المغربي، وتشكيل رؤوس جسور. وتألفت لجنة برئاسة «ديغول» و «جيرو» لتمارس السيادة الفرنسية على شمالي افريقيا حتى تسليم سلطاتها الى حكومة الجمهورية الفرنسية المستقبلية. وبتاريخ ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) انضمت «داكار» الى الحلفاء، وكذلك فعل فيما بعد «الصومال الفرنسي» اما اسطول «طولون» فقد أغرق نفسه في البحر.

وتقدمت قوات الحلفاء نحو الشرق، واصبح على رومل ان يحارب على جبهتين: الجيوش البريطانية الزاحفة من طرابلس الغرب، والجيوش المهاجمة من الجزائر، فقام بهجومين متتاليين في جنوبي تونس، أخفق في كليهما. وفي ٧ نيسان (ابريل) ١٩٤٣ اخترق الحلفاء خط «ماريت»، وتلاقت جيوشهم المهاجمة، فوقع في ايديهم ربع مليون جندي اسير، وكميات هائلة من الاعتدة الحربية، وغادر رومل الى المانيا. وهكذا أبيدت المقاومة الالمانية الايطالية، في افريقيا في منتصف أيار (مايو) ١٩٤٣، وانتهت العمليات في شمالي أفريقيا.

احتلال ايطاليا: شرع الحلفاء، منذ انتهاء حملة افريقيا، بمهاجمة القلعة الاوروبية وذلك بهدف: تحرير البحر الأبيض المتوسط، وحمل ايطاليا على

الاستسلام، وتثبيت قسم من القوات الالمانية للتخفيف عن الاتحاد السوفياتي، وانشاء مطارات تمكن الطيران الاستراتيجي من قصف المانيا الجنوبية الشرقية. ولقد اعتقد الحلفاء ان مجرد الاستيلاء على صقلية قد يكفي لسقوط ايطاليا، ولكن اذا كان القيام بعمليات اخرى ضرورياً لتحقيق هذه الغاية، فإن على ايزنهاور، القائد الاعلى لمسرح البحر الابيض المتوسط، اقتطاع وسائل تلك العمليات، من حساب الانزال الكبير الذي سيجري في فرنسا في العام المقبل. واطلق على عملية احتلال ايطاليا اسم «هايسكي». واشترك في تنفيذها «كانغهام» كقائد للقوى البحرية، و «تيدر» كقائد للقوى الجوية، و «الكسندر» كقائد للقوى البرية، وكانوا جميعهم بقيادة الجنرال «ايزنهاور».

كان «الكسندر» قائداً لمجموعة الجيوش الخامسة عشر التي ضمت الجيش الثامن البريطاني (مونتغمري) والجيش السابع الاميركي (باتون) أي ما مجموعه ١٣ فرقة. ووضعت بتصرفه لعملية الانزال ٣٢٢٦ باخرة، نقلت مئة وستين الف جندي، والف وثمانمئة مدفع، وستمئة دبابة.

وكانت ايطاليا قد خسرت ٣٥ فرقة في ميادين افريقيا، كما كانت ثلاثون فرقة من قواتها ما تزال مجمدة في البلقان، ولم يبق لديها سوى ما يقارب الثلاثين فرقة لحماية ارض الوطن، انبط بعشر منها، مع فرقتين المانيتين احداهما مدرعة، مهمة الدفاع عن جزيرة صقلية.

وفي ٩ تموز (يوليو) ١٩٤٣ انطلقت ٥٠٠ طائرة و ١٥٠ طائرة شراعية من «القيروان» فألقت حمولتها على اللواء السابع العائد للفرقة المجوقلة البريطاني في منطقة «سيراكوز» و «فوجاً» عائداً للفرقة الثانية والثمانين المجوقلة الاميركية

في منطقة «جيلا». وتم الاستيلاء على جسر «بونت كراند» بحالة سليمة، وكان هدفاً رئيسياً للظليين، وجرت عملية انزال القوات البرية ليلا بمفاجأة تامة.

استغرق الاستيلاء على الجزيرة الجبلية، والتي تعادل مساحتها مساحة بلجيكا، مدة ٣٨ يوماً، اذ انتهت بتاريخ ١٦ آب (اغسطس) بسقوط «مسينا». وبلغت خسائر الالمان والايطاليون ١٦٧٠٠ رجل، منهم ٣٧٠٠ الماني، بين قتيل واسير. بالاضافة الى مئة ألف جندي تركوا الجيش وفروا. اما خسائر الحلفاء فقد بلغت ٣١١٥٨ رجل، منهم خمسة آلاف قتيل. وأدى سقوط الجزيرة الى سقوط «موسوليني» (٢٥ تموز يوليو) واستلام الماريشال «بادوليو» رئاسة الحكومة الايطالية وطلبه الهدنة، فأعلنت في ٨ ايلول (سبتمبر).

كان الرد الالماني سريعاً في ايطاليا، فقد توجهت نجدات كبيرة بقيادة الجنرال «كيسلرنغ» الذي استولى على «روما» و «نابولي» وأضاع أمل الحلفاء في احتلال ايطاليا دون قتال. وأخلى الالمان سردينيا، أما كورسيكا، فقد حررت من قبل القوات الفرنسية، وفشل البريطانيون، لقلة الوسائل باحتلال جزر «رودوس» و «كوس» و «ساموس»، اذ كان الالمان قد حلوا محل القوات الايطالية فيها.

كانت حملة ايطاليا ذات هدف محدود، اذ كان قد تقرر توجيه الضربة الحاسمة في الغرب، وعليه فان مبدأ الاقتصاد في القوى يحتم ادخار معظم القوى بالجهد الرئيسي هناك. لذلك لم تجر مهاجمة ايطاليا عند المضيق بانزال الجيوش في «جنوة» بل استهدف الهجوم جنوبي ايطاليا، مع انزال قوات في منطقة

«ساليرنو» بحيث يسمح الانتقاء الملائم على الصعيدين الاستراتيجي والتكتيكي بتحقيق الغايات التي سبق ان اشير اليها، ويصبح بمقدور القاذفات ب ١٧ و ب ٢٤ أن تغير من مطار «فوجيا» لضرب الاهداف التي كانت حتى ذلك الوقت، بمأمن من ضرب القاذفات المنطلقة من بريطانيا.

وشملت خطةغزو ايطاليا ما يلي:

ـ القيام بهجوم ثانوي من قبل الجيش الثامن (مونتغمري) بشكل عملية انزال عند رأس الجزمة الايطالية، يتقدم باتجاه الشمال بفرقتين، بينما تحتل فرقة ثالثة «تارانت».

ـ شن هجوم رئيسي يقوم به الجيش الخامس (مارك كلارك) مع فيلق اميركي وفيلق بريطاني للنزول على شواطىء «ساليرنو» حيث المدى الاقصى الذي تبلغه المطاردات المقلعة من «صقلية».

قدر للجهد الرئيسي في الحملة ان ينطلق بعد ستة أيام من انطلاق الجهد الثانوي، على أمل أن يجتذب الجهد الثانوي الفرق الالمانية نحو الجنوب.

وفور حصول الالتحام بين الجيشين الثامن والخامس يتقدم الكسندر بقواته نحو الشمال للاستيلاء على «نابولي» و «فوجيا». وكانت القوات الالمانية في ايطاليا بتاريخ ٣ أيلول (سبتمبر) عبارة عن فرقتين المانيتين ميكانيكيتين في منطقة «كاتانزارو»، واربع فرق منها فرقتان قرب «ساليرنو». كما كان هناك فرقتان شمالي روما، وثماني فرق في شمالي ايطاليا. وكان «كيسلرنغ» متنبهاً لعملية انزال الحلفاء، فأبقى قواته وراء المرتفعات، بينما قام بتحضير مخطط ناري كامل

على كافة المخارج باتجاه السهل، وفي الوقت نفسه، زرع حقول الغام عديدة على الشاطىء. وكانت خطة القائد الالماني تقضي بأن يدع الحلفاء ينزلون جيوشهم لينقض عليها فجأة ويمزقها.

وفي ٣ ايلول (سبتمبر)، وتحت حماية نارية قوية صادرة عن ٦٥٠ مدفعاً متمركزاً في صقلية، استطاعت فرقتان من الفيلق الثالث عشر التابع للجيش الثامن العبور الى «كالابر». وفي غضون ستة أيام كان الفيلق قد اجتاز بقيادة الجنرال «دمبسي» حوالي مئة كيلومتر الى الشمال.

وفي ٩ أيلول (سبتمبر) شرع الجيش الخامس بالانزال في «ساليرنو» فاستولى بعد ثلاثة أيام على «ساليرنو» نفسها ،ولما اصطدم بهجوم معاكس الماني قوامه ثلاث فرق، اضطر الى التوقف والدفاع وكان من المحتمل تدمير القوات التي تم انزالها، لولا تدخل قطع بحرية مؤلفة من ست دارعات و ١٥ طراداً و ٦٠ سفينة حربية اخرى، وقيامها بدعم القوات، بالاضافة الى ثلاثة آلاف طلعة جوية نفذت جميعها لمساندة جبهة الانزال.

وبقي الجيش الثامن مواصلا تقدمه، فاجتاز ٤٠٠ كيلومتر في اسبوعين. وتراجع «كيسلرنغ» الى ١٥٠ كيلومتراً جنوبي روما، حيث أنشأ مركزاً عميقاً حده الامامي خط «غوستاف» الحصين، وحده الخلفي «خط هتلر»

في آخر كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٣ عين الجنرال «ايزنهاور» قائداً اعلى في الغرب، فخلفه الجنرال «ولسون» في قيادة مسرح البحر الابيض المتوسط والشرق الاوسط، وبقي الجنرال «الكسندر» قائداً لمجموعة الجيوش الخامسة عشر في ايطاليا، اما الجيش الثامن البريطاني فقد عين لقيادته الجنرال

«ليز» بدلا من «مونتغمري» الذي عين قائداً لمجموعة الجيوش ٢١ في ايطاليا. ولقد حاول الحلفاء سحق المواقع الالمانية الجديدة، ولكنهم اصيبوا بالفشل، خصوصاً عند مرتفعات «كسينو» المنيعة والمسيطرة على سهل «ليري» وعلى الطريق الوطنية رقم «٦».

وهكذا فشلت في ٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٤ عمليات الجيشين الثامن والخامس الهجومية، ومحاولات التقدم التي تلتها في شهر آذار (مارس).

وفي ١٠ أيار (مايو) حقق المهاجمون بعض النجاح. وهكذا تحرك الهجوم العام في اليوم التالي، وعلى طول الجبهة الايطالية، فاكتنفت مرتفعات «كاسينو» بحركة التفاف واسعة، ودخل «مارك كلارك» مدينة روما في ٤ حزيران (يونيو) ١٩٤٤.

وكان الالمان قد انقذوا موسوليني من سجنه، وألف حكومة سارت بركاب المانيا، إلا أن كتيبة من كتائب المقاومة الايطالية ألقت القبض عليه في ٢٨ نيسان (ابريل) ١٩٤٥، في بلدة قرب بحيرة «كومو»، فحاكمته واعدمته رمياً بالرصاص، وعلقت جثته امام مقر الحزب الفاشستي.

الانزال في النورماندي: كانت المقاومة الشعبية الفرنسية قد ابتدأت تشتد في فرنسا منذ العام ١٩٤٣، وأصبحت تشكل فيما بعد مشكلة حقيقية بالنسبة الى الاحتلال الالماني، مما سهل الوضع كثيراً فيما بعد، اثناء غزو الحلفاء لفرنسا. ولقد قرر الحلفاء التمهيد لعملية الانزال المعروفة بعملية «اوفرلورد»، فقاموا بغارات كاسحة على جميع ما في المانيا وفرنسا، من مصانع واهداف عسكرية

استراتيجية، وازدادت غاراتهم عنفاً وحجماً حتى اصبحت الغارة الواحدة تضم أكثر من ألف طائرة من القاذفات.

وفي العاشر من كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٣ عين الجنرال «ايزنهاور» قائداً اعلى لقوات الحلفاء في اوروبا، وكلف الدخول الى القارة الاوروبية حتى قلب المانيا. ولقد تمثل ايزنهاور غزو القارة الاوروبية كما يلي:

ـ القيام بعملية انزال القوات على شاطىء النورماندي بين الهافر وشبه جزيرة «كوتانتان».

ـ انشاء رأس جسر.

ـ سحق المقاومة العدوة.

ـ استثمار الفوز بين «السين» و «اللوار»، وتحرير المنطقة بين هذين النهرين حتى يوم (ي + ٩٠).

ـ التقدم بعد اجتياز «السين» باتجاه المانيا، على جبهة واسعة باعتماد محوري جهد كبيرين الجهد الرئيسي على اليسار، باتجاه الشمال الشرقي. لتخليص المرافىء الفرنسية والبلجيكية خاصة «انفرس» والجهد الثانوي على اليمين بغية تهديد حوض «السار»، وتأمين التلاقي مع القوات التي ستنزل على شاطىء «الكوت دازور» الفرنسي.

وكلف (مونتغمري) بالقيادة التكتيكية لكافة القوى البرية في المراحل الاولية، وكانت عملية الانزال مقررة في الرابع من حزيران (يونيو)، الا ان سوء الاحوال الجوية حمل ايزنهاور على تأخيرها حتى السادس منه. ومنذ الساعة

السادسة والنصف صباحاً، بدأت الفرقتان المظليتان الاميركيتان ١٠١ و ٨٨ تهبطان فوق الشاطىء قرب «اوتا»، بينما كانت الفرقة المظلية البريطانية السادسة تهبط شرقي نهر «اورن» لتحتل الجسور على هذا النهر، وتؤمن حماية تقدم الجيوش فيما بعد. في نفس الوقت أبحرت خمس فرق من الشاطىء البريطاني نحو شاطىء «نورماندي» وابتدأت بالنزول على اليابسة اعتباراً من الساعة السادسة والنصف صباحاً تحت تغطية المظليين، فاحتلت مواقع لها على موازاة الشاطىء، ثم ركزت هجومها على مدينة «شربور» فاحتلتها، كما احتلت «كاين». وعن طريق هذين المرفأين تم إنزال الجيوش الحليفة على الاراضي الفرنسية وتتابع الانزال، وتألفت القوى الزاحفة من مجموعتين:

- مجموعة الجيوش ١٢ بقيادة الجنرال الاميركي «برادلي»، وضمت الجيش الثالث (باتون)، والجيش الاول (هودج).

- مجموعة الجيوش ٢١ بقيادة الجنرال البريطاني «مونتغمري» وضمت الفيلق البريطاني الاول، والفيلق الكندي الثاني، والجيش البريطاني الثاني بقيادة «دمبسي».

وبعد وقفة إعادة التنظيم، أخذ الحلفاء يتقدمون فتسقط بأيديهم المقاومات النازية تباعاً حتى منتصف شهر آب (اغسطس) ١٩٤٤، عندما نفذ الحلفاء عملية «دراغون» وأنزلوا على الشواطىء الفرنسية الجنوبية الجيش الاميركي السابع بقيادة الجنرال «الكسندر باتش». وهكذا اخذ الحلفاء يتقدمون في الاراضي الفرنسية من الغرب، فحرروا فرنسا، ودخلت الفرقة المدرعة الفرنسية الثانية مدينة باريس، بمناصرة المقاومة الفرنسية في ٢٥ آب (اغسطس).

واجتازت القوات البريطانية والكندية نهر «السوم» ودخلت بلجيكا محررة بروكسل، ثم انضم اليها الاميركيون وحرروا جنوبي هولندا.

الهجوم السوفييتي من ستالينغراد إلى برلين:

اثناء حصار القوات السوفييتية لستالينغراد، واصلت قوات اخرى الزحف جنوباً لقطع طريق الانسحاب على الجيوش الالمانية الموجودة في القوقاز، وتعرضت خطوط مواصلات هذه الجيوش في شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٤٣ للخطر، خاصة وانها كانت تبعد عن مدينة «روستوف» نحو ٥٦٠ كم إلى الجنوب الشرقي، واستطاعت القوات الالمانية ابقاء هذه الخطوط مفتوحة إلى أن تم اخلاء القوقاز وحوض الدونيتز الصناعي.

وفي شباط (فبراير) ١٩٤٣ ازدادت سرعة الانسحاب الالماني، بعد استسلام قوات «فون باولس» في «ستالينغراد»، واستعادت القوات السوفييتية «خاركوف».

واقتربت من نهر الدنيبر، إلا أن «فون ما نشتاين» شن بقواته هجوماً مضاداً في نهاية شباط (فبراير) استرد به «خاركوف» و «بيليغورد»، فتوقف الزحف السوفييتي مؤقتاً نتيجة لهذا الهجوم ولطول خطوط مواصلاته، وفي الوقت نفسه لم يكن لدى «فون مانشتاين» قوات احتياطية تكفي لمتابعة الهجوم، فتجمد الموقف العسكري طوال الشهور من آذار (مارس) حتى ٥ تموز (يوليو) ١٩٤٣، حيث شن الألمان آخر هجوم استراتيجي كبير لهم على الجبهة السوفييتية، وهو الهجوم الذي استهدف تطويق وتدمير الجيوش السوفييتية الموجودة في «نتوء كورسك» الممتد بين «بيليغورد» و «اوريل».

ولكن الهجوم فشل نظراً لتوقع حدوثه من قبـل القيـادة السـوفييتية واسـتعدادها لصده، ثم توجيه ضربة مضادة حاسمة، واستمرت المعركة مدة ٥٠ يومـاً انتهـت بتحرير «اوريل» و «بيليغورد» و «خاركوف» وتدمير عدة فرق المانية وكميات كبيرة من الدبابات.

وفي ايلول (سبتمبر) ١٩٤٣ وصل الزحف السوفييتي إلى نهر الدنييـبر في عدة نقاط بالقرب من «كييف»، كما عزلوا شبه جزيـرة القـرم عندمـا وصلـوا إلى المجرى السفلي للدنيبر. وفي بدايـة تشـرين الاول (اكتوبـر) عـبرت القـوات السوفييتية الدنيبر إلى الشمال والجنوب من «كييف». وكان من نتيجة ذلك أن حُررت «كييف» وتعمقت قوات الجنـرال «فـاتوتين» مسـافة ١٣٠ كـم غـرب الدنيبر، إلا أن الالمان استطاعوا أن يوقفوا الزحف السوفييتي مؤقتاً بعـد أن قـام «فون مانشتاين» بهجوم مضاد على مجنبة « فاتوتين» بواسطة قوة مدرعـة قادهـا بكفـاءة الجنرال «مـانتوفل». وفي ١ كـانون الثـاني (ينـاير) ١٩٤٤ واصـل «فاتوتين» تقدمه واجتاز الحدود البولونية في ١٩٤٤/١/٤. ثم وصلت قواته إلى نهر «بوغ»، الذي بدأت حملة «بارباروسا» من عنـده في ١٩٤١/٦/٢٢، وقـام «فون مانشتاين» بهجوم مضاد جديد ولكن «فاتوتين» صده، ثم قـام بالمقـابل و بالتعاون مع «كونييف» الذي كان يهـاجم علـى الجنـاح الآخـر بالاطبـاق علـى القوات الالمانية في جيب «كورسـون»، مما أدى إلى أسـر ١٠ فـرق المانيـة. وفي الوقت نفسه قامت القوات السوفييتية في اقصى شمال الجبهة بهجوم في منتصـف كانون الثاني (يناير) ١٩٤٤ لرفع الحصار عن «لينينغراد» تماماً

ثم واصلت التقدم غرباً حتى توقفت امام خط يبدأ من «نارفا» وينتهي بعد «بسكوف»، حيث كانت الدفاعات الالمانيـة مسـتندة إلى نقطتـين رئيسـيتين همـا مدينتـا «فيتبسـك» و «اورشـا»، ويحمـي جناحهـا الجنوبـي مسـتنقعات

«البريبيت». وثبتت القوات الالمانية هناك حتى تموز (يوليو) ١٩٤٤، حين شن السوفييت هجومهم الكبير الذي عرف بعملية «باغراسيون» الذي حطم القوات الالمانية في الشمال، ووصلت أثره القوات السوفييتية إلى نهر الفيستولا في قلب الاراضي البولونية.

وفي ٤ آذار (مارس) ١٩٤٤ قامت قوات الماريشال «جوكوف» و «مالينوفسكي» بمناورة تطويق مشتركة لخط «البوغ» الدفاعي أدت بقوات «مالينوفسكي» إلى تحرير «نيقولاييف» وعبور «الدنييستر» في ٤٤/٣/١٩. ووصلت قوات «جوكوف» إلى مخارج جبال الكارابات قرب الحدود المجرية. ثم عبرت قوات «كونييف» نهر «بروت» ودخلت الاراضي الرومانية، وتمت في الوقت نفسه عملية تحرير ميناء «اوديسا» على البحر الاسود وشبه جزيرة القرم. وبذلك طردت القوات الالمانية من اوكرانيا وجنوب غربي الاراضي السوفييتية كلها تماماً، واصبحت آبار النفط الروماني مهددة بالخطر، ولذلك ركزت القيادة الالمانية قوتها الرئيسية هناك، الامر الذي ساعد على نجاح الهجوم السوفييتي بعد ذلك في الشمال (عملية باغراسيون)، الذي اعقبه في ١٤ تموز (يوليو) هجوم آخر جنوب مستنقعات «البريبيت» أدى إلى وصول القوات السوفييتية خلال ١٠ أيام إلى مدينتي «لفوف» و «لوبلن» على بعد ١٦٠ كم تقريباً الى الجنوب الشرقي من «فارسوفيا»، عاصمة بولونيا، وسقطت « بريست ليتوفسك» و «بياليستون» في خلال الاسبوع نفسه.

وتجاوز التقدم السوفييتي على الجنبة الشمالية مدينة «دفينسك»، ثم اتجه نحو ساحل بحر البلطيق وراء مدينة «ريغا». وتوقف الهجوم السوفييتي في بولونيا بعض الوقت نظراً لامتداد خطوط المواصلات وضرورات إعادة تنظيم القوات

وتجهيزها بـامدادات والتأهب لمرحلـة جديـدة مـن العمليـات. وفي هـذا الوقـت كانت حركة المقاومة السرية البولونية الموالية لحكومة بولوتيا في المنفى والموجودة في «لندن» قد نظمت انتفاضة مسلحة في «وارسو» استمرت ٦٣ يومـاً. ولكـن توقـف الزحـف السـوفييتي مكـن القـوات الالمانيـة مـن اخمادهـا في اوائـل آب (اغسطس) ١٩٤٤. وتابعت القوات السوفييتية هجومها في القطاع الجنوبي من الجبهة فاستطاعت أن تطرد القوات الالمانية من رومانيا وتستولي على آبار النفط ومعامل تكريره في «بلوغيستي» في ٣٠ آب (اغسطس) ١٩٤٤، كمـا حـررت «بوخارست» في اليوم التالي، وهكذا قطعـت جيـوش الدبابـات السـوفييتية نحو ٤٠٠ كم في ١٢ يوماً فقط، ثم اتجهت بسرعة نحو الشمال والغـرب واجتـازت حدود المجـر ويوغسـلافيا لتحـول دون انسـحاب القـوات الالمانيـة الموجـودة في اليونان، كما تقدمت جنوباً وسيطرت علـى بلغاريـا. أمـا في بولونيـا فقـد بقيـت الجبهـة ثابتـة طـوال الشـهور المتبقيـة مـن عـام ١٩٤٤، ثـم تحركـت الجيـوش السـوفييتية هنـاك في منتصـف كـانون الثـاني (ينـاير) ١٩٤٥ في هجـوم واسـع النطاق (تم قبل موعده المحدد بنحو اسبوعين لتخفيف الضغط الألماني على الجبهة الغربية حيث كان هجوم الآردين على أشده). بدأته قوات «كونييف» من رأس جسر نهـر الفيسـتولا قـرب «سـان دومـير»، وفي ٤٥/١/٢٣ وصلـت الى نهـر الاودر في جنوب المانيا الشـرقية بمقاطعـة سـيليزيا وتمكنـت القـوات الالمانيـة أن توقـف توسـيع رأس الجسـر السـوفييتي هنـاك وفي الوقـت نفسـه كـانت قـوات «جوكوف» تطور هجومها هي الاخرى في وسط بولونيا وتحـرر «وارسـو»، ثـم تتقدم نحو المانيا وتجتاز حدودهـا في ٤٥/١/٢٩، وتنشـيء لها رأس جسـر علـى نهـر الاودر علـى مبعـدة ٨٠كـم شـرقي «برلـين». كمـا قـامت قـوات «روكوسوفيكي» بتطويـر الهجـوم في الشـمال ابتـداء مـن نهـر «نـاريف» شمال

شرقي فارسوفيا، واخترقت بروسيا الشرقية في طرفها الغربي، ثم وصلت إلى البلطيق غربي ميناء «دانتزيغ» الشهير في ٢٦/١/٤٥، عازلة بذلك القوات الالمانية التي كانت لا تزال موجودة في بروسيا الشرقية.

وفي ١٦ نيسان (ابريل) بدأت قوات «جوكوف» هجومها على «برلين»، واستولت عليها في ٢ أيار (مايو) ١٩٤٥. ودخلت القوات الحليفة في الغرب ارض المانيا، في الثامن من شهر شباط (فبراير) ١٩٤٥، مستولية على مدينة «كولونيا» على الشاطىء لنهر «الرين» وسقطت منطقة «السار» بأيدي الفرنسيين والاميركيين بينما تقدمت قوات مونتغمري في الشمال حتى وصلت الى قطاع «الرور» منهية مقاومة المدافعين عنه.

في ٧ أيار (مايو) وقع الجنرال «جودل» رئيس هيئة اركان الحرب الالمانية وثيقة استسلام المانيا دون قيد أو شرط، في مقر الجنرال «ايزنهاور» في مدينة «ريمس» الفرنسية. وانتهت الحرب في أوروبا. أما في الشرق الاقصى فقد ركز الحلفاء جهودهم على مقاتلة اليابان، بعد أن فرغوا من محور روما ـ برلين فتم تحرير جزر الفيليبين، في ٥ حزيران (يونيو) بقيادة الجنرال ماك آرثر.

وبدأ الاقتراب نحو اليابان، فاسترد الاميركيون جزر «غينيا الجديدة» و «بريطانيا الجديدة» و «بورنيو». وفي ٢٦ تموز (يوليو) ١٩٤٥ وجهت اميركا وبريطانيا والصين انذاراً الى اليابان بالاستسلام فتجاهلته، وفي ٦ آب (اغسطس) ألقت طائرة اميركية قنبلة ذرية على «هيروشيما» ثم بعد ثلاثة أيام، ألقيت قنبلة ثانية على «ناغازاكي». وأحدثت القنبلتان خراباً رهيباً ودماراً شاملاً، وكانت هذه هي المرة الاولى التي تستعمل فيها القنابل الذرية.

وفي الثامن من شهر آب (اغسطس) اعلنت روسيا الحرب على اليابان، وهاجمت «منشوريا» التي اخذها اليابانيون من الصين، عندها ادرك اليابانيون عقم تصلبهم، خاصة وأن القصف الذري، أصابهم بالذهول، فاعلنوا قبولهم بالاستسلام وفق شروط «بوتسدام»، ووقعت الهدنة على ظهر الطراد الأميركي «ميسوري» الذي كان يرابط في خليج «طوكيو». وبتسليم اليابان انتهت الحرب العالمية الثانية.

كلفة الحرب العالمية الثانية :

تقسم كلفة الحرب الى نوعين: كلفة مباشرة، وكلفة غير مباشرة. وتتضمن الكلفة المباشرة كل النفقات التي انفقتها الدول المحاربة على الاعمال ذات الطابع العدائي. أما الكلفة غير المباشرة فتتضمن الخسائر الاقتصادية الناتجة عن الخسائر البشرية خلال الحرب، وقيمة الممتلكات ووسائل الانتاج المتضررة او المدمرة، وتخفيض الانتاج الناتج عن نقل القوى العاملة في الاعمال المدنية الى المجال العسكري، ونفقات الإعانة والمساعدات للاطراف المتضررة من الحرب، بالإضافة لكلفة الحرب للامم المحايدة.

أ ـ الخسائر الاقتصادية: قد قدرت كلفة الحرب العالمية الثانية في تقرير لجيمس برادي والجامعة الاميركية نشر في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٥ بـ (١١٥٤٠٠٠) مليون دولار، كما بلغت اضرار الممتلكات ووسائل الانتاج (٢٣٠٩٠٠) مليون دولار، دون خسائر الصين. وقد انفقت الولايات المتحدة (٣١٧٦٠٠) مليون دولار على المعدات واللوازم الحربية، بينما انفق الاتحاد السوفييتي (١٩٢٠٠٠) مليون، وبريطانيا (١٢٠٠٠٠) مليون، والمانيا (٢٧٢٩٠٠) مليون، وايطاليا (٩٤٠٠٠) مليون، واليابان (٥٦٠٠٠) مليون.

ب ـ التعبئة: بلغت قمة التعبئة في الولايات المتحدة ١٤ مليون مواطن. بينما عبأت الامبراطورية البريطانية ١٢ مليوناً، والصين ستة ملايين. وتقدر التعبئة في الاتحاد السوفييتي بـ ٢٢ مليون مواطن من ضمنهم العمال المسلحون. وبلغت التعبئة في صفوف الحلفاء اكثر من ٦٢ مليون شخص. أما قوى المحور، فقد عبأت اكثر من ٣٠ مليوناً.

جـ ـ الخسائر البحرية: كانت الخسائر البحرية الاميركية خلال الحرب العالمية الثانية: بارجتين، ٥ حاملات طائرات، ٦حاملات حراسة، ٧طرادات ثقيلة، ٣ طرادات خفيفة، ٧١ مدمرة، ١١ مدمرة حراسة، ٥٢ غواصة، ٣ زارعات الغام، ٢٤ كاسحة الغام، ١٨ مطاردة غواصات، ١٢ زورقاً مسلحاً، ١٥ سفينة حراسة سواحل، ٣ سفن اصلاح طائرات مائية، ٦٩ زورق طوربيد، ٤٠ سفينة انزال دبابات، ٩ سفن انزال متوسطة، ٦٧ مركب انزال دبابات، ٢٢ مركب انزال مشاة، ٦مراكب انزال امدادات، ١٠ قاطرات، ٦ناقلات نفط، ٢١ ناقلة جنود، ٣٦ مركب انزال اقليمي، ١٥٢ مركباً اقليمياً من مختلف الانواع، ٤ سفن شحن بضائع، و ٢٢ سفينة مساعدة من مختلف الانواع.

واما الخسائر البحرية البريطانية فكانت:

٥سفن رئيسية (بوارج وطرادات ثقيلة)، ٨ حاملات طائرات، ٢٦ طراداً، ١٢٨ مدمرة، ٧٧ غواصة، ١٦ سفينة تجارية مسلحة، ٤١ سفينة حراسة كبيرة، ٥١ كاسحة الغام، ٢٤٠ قارب صيد، ٤٨ صندلا، ٦ زارعات الغام، ١٠ يخوت، ٧٠ قارباً مسلحاً، ٣ مراكب صغيرة، سفينة حربية مدرعة واحدة، ٦٣ قارباً صغيراً مساعداً.

كما خسرت دول الكومنولث ٣ طرادات، و١٠ مدمرات، و١٤ سفينة حربية كبيرة، و١٠ كاسحات الغام، وقاربي صيد، بالاضافة الى ٧مراكب صغيرة من مختلف الانواع.

اما اليابان، فبالاضافة لخسارة ٦١٣٠٠٠٠ طن من السفن التجارية، فقد خسر اسطولها الحربي:

١١ بارجة، و١٥ حاملة طائرات، و٥حاملات طائرات حراسة، ١٦ طراداً ثقيلا، و ٢٠ طراداً خفيفاً، وطرادي تدريب، و١٣٥ مدمرة.

وبلغت الخسائر البحرية للدول المحايدة ١٤٢٠٠٠٠ طن، أصيب ٩٣٠٠٠٠ طن منها بالغواصات، و ٢٧٠٠٠٠ طن بالالغام.

د ـ الخسائر البشرية: بلغت الخسائر البشرية خلال الحرب العالمية الثانية حجماً فاق الخسائر البشرية في كل الحروب التي سبقتها او لحقتها في تاريخ البشرية. وتقدر الاحصاءات عدد القتلى فقط إبان هذه الحرب كما هو مبين في الجدول التالي:

البلد	عدد القتلى
الاتحاد السوفياتي	٢٠,٠٠٠,٠٠٠
بولونيا	٥,٤٦٦,٠٠٠
المانيا	٥,٠٠٠,٠٠٠
الصين (١٩٣٧ ـ ١٩٤١)	١,٧٥٠,٠٠٠
يوغسلافيا	١,٧٠٠,٠٠٠

اليابان	١,٦٠٠,٠٠٠
رومانيا	٧٧٠,٠٠٠
بريطانيا	٦٦٥,٠٠٠
فرنسا	٦٢٠,٠٠٠
ايطاليا	٥٧٠,٠٠٠
اليونان	٥٥٠,٠٠٠
تشيكوسلوفاكيا	٨٥٠,٠٠٠
النمسا	٣٤٧,٠٠٠
هنغاريا	٣٩٠,٠٠٠
الولايات المتحدة	٣٦٧,٠٠٠
هولندا	٢٥٥,٠٠٠
بلجيكا	١٦٠,٠٠٠
فلندا	٩٧,٠٠٠
بلغاريا	٣٢,٠٠٠
النرويج	٩,٠٠٠
الدانمارك	٣,٠٠٠
المجموع	٤١,٣٠١,٠٠

نتائج الحرب العالمية الثانية :

كان للحرب العالمية الثانية نتائج هامة في مختلف انحاء العـالم يمكـن ايجازهـا بالنقاط التالية:

١ ـ تقسيم المانيا الى دولتين: المانيا الشرقية الديموقراطية الخاضعة للنفوذ الشيوعي، والمانيا الغربية الاتحادية الخاضعة للنفوذ الاميركي الفرنسي الانكليزي.

٢ ـ توسع الاتحاد السوفياتي نحو الغرب في اوروبا وظهور المعسكر الشيوعي المؤلف من: الاتحاد السوفياتي، وبولونيا، والمانيا الشرقية، والمجر وتشيكوسلوفاكيا، ورومانيا، وبلغاريا، ويوغوسلافيا، والبانيا (انسحبت يوغوسلافيا بعد ذلك سنة ١٩٤٩).

٣ ـ تحول النمسا الى دولة محايدة.

٤ ـ ضعف فرنسا وانكلترا بسبب ويلات الحرب، وبدء خسارتهما لمستعمراتهما في العالم.

٥ ـ خروج الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية مسيطرين على مقدرات العالم.

٦ ـ تصفية الاستعمار القديم وأساليبه، وحلول الاستعمار الجديد محله، وبدء ظهور العالم الثالث.

٧ ـ قيام هيئة الامم المتحدة ومؤسساتها المختلفة.

المؤتمرات :

عقد الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية عدة مؤتمرات لتنظيم متطلبات الحرب وفقاً لتطور ظروفها، وأهم هذه المؤتمرات :

١ ـ مؤتمر الدار البيضاء (Casablanca) : في كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٤٣ بين الرئيس الأميركي روزفلت،، ورئيس وزراء بريطانيا تشرشل، ودعي الى المؤتمر ستالين ولكنه اعتذر بسبب الحرب في الاتحاد السوفياتي، وقرر المؤتمر أن غاية الحلفاء هي في استسلام المانيا وايطاليا واليابان بدون قيد او شرط.

٢ ـ مؤتمر طهران: عقد هذا المؤتمر في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٣ وحضره الزعماء الثلاثة: روزفلت، تشرشل، ستالين، واتفقوا على تدمير المصانع الحربية الالمانية بعد الحرب، وحل الحزب النازي، ومحاكمة زعمائه، والقضاء على النزعة العسكرية الالمانية، وانشاء مناطق مراقبة في المانيا، وفرض تعويضات حرب ضخمة على الالمان.

٣ ـ مؤتمر يالطا: عقد هذا المؤتمر في يالطا في شبه جزيرة القرم، بناء على طلب ستالين في شباط (فبراير) سنة ١٩٤٥، وقرر تقسيم المانيا بعد احتلالها الى اربع مناطق: تعطى منطقة واحدة الى كل من الدول الحليفة الاربع: روسيا، واميركا، وانكلترا، وفرنسا، وانشاء لجنة عليا حليفة لادارة المناطق الالمانية يكون مقرها برلين، وتحديد بولونيا، ودخول الاتحاد السوفياتي الى هيئة الامم.

الغزوة الإنكليزية الديغولية وسيرها وأثرها :

بعد الحديث عن الحرب العالمية عموماً نعود لأحداث المنطقة العربية ولسوريا بالذات لنقول بأن الجو السياسي ما لبث أن تلبد منذ عقد الهدنة بين فرنسا وألمانيا حيث أخذت الدعايات الإنكليزية تنبث في سوريا ولبنان منذرة باحتلال الانكليز، واخذت هذه الدعاية تبدو خاصة في صفوف الافرنسيين

وبنوع خاص ضباطهم عن طريق الدعـوة الديغولية، واخـذ النـاس يلمسـون في صفوف الافرنسيين اختلافات ومنازعات متنوعة الصور والاسـاليب لانقسـامهم إلى فيشيين "نسبة الي فيشي وديغوليين. هذا من جهـة ومـن جهـة اخـرى كـانت الاصوات الانتقادية ترتفع من الاوساط الانكليزيـة عازيـة للسـلطات الافرنسـية الفيشية في سوريا ولبنان تسهيلات لقوى المحـور وطياراتـه، ومبديـة مخاوفهـا مـن استيلاء المحور على البلدين، ومطالبة بالوقوف موقف الجد، ومعددة ما يكون من استيلائه من اخطار واضرار. ومنذئذ والناس يتلقون هذه الدعايـات والاذاعـات كمقدمات لاحتلال انكليزي في اول فرصـة ممكنـة حتـى لقـد كـانت الشـوائع تشيع عن موعد معين؛ وكانت الطيارات الانكليزيةتحلق من حـين لآخـر في سماء سـوريا ولبنـان، واخـذ بعـض الضبـاط الافرنسـيين يتسـللون إلى شـرق الاردن وفلسطين للانضمام إلى القوى الانكليزية والديغولية. وقد جـاء الجـنرال كـاترو وكان مـن رجـال المندوبيـة الافرنسـية ورئيـس ضبـاط الاسـتخبارات في سـورية ولبنان الذين كان لهم افظع الادوار في حركـة الفسـاد والـدس والكيـد كتـائب للجنرال ديغول إلى القدس واتخذها مركزاً لبث الدعاية وتهيئـة الخطـوة العمليـة في الفرصة المناسبة، فقويت بمجيئه الدعاية واخذ التسلل يزداد من سوريا ولبنـان حتى صار شبه علني، وحتى صار يفر بعض الضباط مع فصائل كاملة من الجيش الافرنسـي او المتطوعـين كمـا فعـل الكولونيـل كولـه مـع فصيـل مـن متطوعـي الشركس، وحتى اضطرت السلطات الافرنسية إلى حركـة تطهـير ومطـادرة فـر بمناسبتها عدد غير قليل من الضباط، وفر في عداد من فر الكولونيل مـدور قـائد الدرك اللبناني حيث كان يبذل جهوده الكبيرة في تسهيل حركات الفرار. وقـد اشتركت شـرق الاردن في هـذه الحركـة، واخـذت تجري الاتصـالات بـين اولي الشأن فيها وبعض رجالات وصحـافيين في دمشـق امـلاً بـأن يكـون مـن ورائهـا

وحدة سوريا وتوسد عبد الله بن الحسين عرشها؛وظهرت آثار ذلك في بعض الصحف السورية التي كانت تنقل الاخبار وتنشر الارهاصات عن الحركات والخطوات المتوقعة باساليب مختلفة.

فلما نشبت الحرب العراقية الانكليزية في مايس عام ١٩٤١ اشتدت الاصوات القائلة بأن المحور يتخذ سوريا قاعدة لمساعدة حركة العراق و أن في سوريا ولبنان آلافاً من الالمان، وقصفت طيارات الانكليز مطارات سورياالشمالية فاعتقدنا أن القفزة الانكليزية قد قربت وانها منوطة بمصير الحركة العراقية، و أن كل ما يجري انما هو بسبيل الدعابة والتهويل والتبرير، ولاسيما أن دعوى وجود آلاف الالمان ومئات الضباط والطيارات الالمانية غير صحيحة، وكل ما كان من امر وجود بعض مندوبين طليان والمان باسم لجنة الهدنة ومراقبتها؛ وكانت مداخلتهم مع الجنرال دانز بتحفظ كبير كما كان هو نفسه يتحاشى هذا التدخل لئلا يكون حجة عليه بيد الانكليز، وكان يحتج على ما يصدر من هؤلاء من دعاوٍ ودعايات وتهم بصدد ذلك وينفه المرة بعد المرة.

ولم يمض على انتهاء حركة العراق إلا اسبوع واحد حتى زحفت القوى الانكليزية والديغولية مع بعض طلائع او مفارز اردنية من الجنوب بتاريخ ٨ حزيران١٩٤١ ، ثم انشطرت شطران اتجه احدهما نحو دمشق وثانيهما نحو جبل عامل والساحل، واخذت تقع الاشتباكات بينها وبين القوى الافرنسية الفيشية والفصائل السورية واللبنانية التي كانت تحت القيادة الافرنسية وهي المسماة بالجيوش المحلية.

ولقد لقيت بعض المقاومة في الجبهتن ولم يتسن لها السير بسرعة كما كان

مقدراً. وكان الجنرال مشتداً في هذه المقاومة كما كان مندوبو المحـور لا يفتأون يشدون همته ويثيرون حماسه فيها؛ غـير أن الدعايات اخـذت تنبث في القـوى المدافعة فتؤتي اكلها في التثبيط والتحول من جبهة الى جبهة. فقد كانت تقف في الواقع في وجه قوى افرنسية يقودهـا ضبـاط افرنسـيون وقـوى انكليزيـة حليفـة وصديقة؛ ولم يكن من شأن فوز هذه القوى بمـا تريـد أن يجعـل القـوى المدافعـة تخسر شيئاً مادياً او معنوياً. وهكذا اخذت القوى الغازيـة تتقـدم وتسـتولي علـى البلاد تدريجياً ثم جاءت قوى ميكانيكية جديدة من جهـات الصحـراء واخـذت تتوغل في الانحاء الشمالية فتم نطاق التطويق. وقد دامت الحرب نحو ستة اسابيع اضطر الفيشيون بعدها إلى طلب الهدنة فاجيبوا إلى ذلك عل اساس التخلـي عـن سوريا ولبنان للحملة الجديدة، واستتب الامـر كذلـك في الاسـبوع الرابـع مـن تموز عام ١٩٤١ بشروط فيها كثـير مـن التسـاهل. وقـد احتـوت فيمـا احتوتـه حرية الافرنسيين في مغادرة البلاد مع ماهم من متاع وبايديهم من سلاح، وبقـاء من يود البقـاء منهـم عسـكريين كـانوا او مدنيـين علـى مراتبهـم ومرتبـاتهم مما استجاب لـه فريـق كبـير مـن النوعـين منهـم. وقـد ابـي الفشـييون أن يعـترفوا بالديغوليين كطرف ثان اثناء المفاوضات فـاجيبوا إلى طلبهـم، وجـرت المفاوضـة والتوقيع بينهم وبين القائد الانكليزي. على انه كان بادياً أن الامـر سـيكون في يد الديغوليين و أن الانكليز انما هم مساعدون؛ بناء على الاصل المعترف به من أن سوريا ولبنان ضمن الانتداب والنفـوذ الافرنسـي، ومـن أن الديغوليـين انمـا يمثلون فرنسا ومركزها في نظر الانكلـيز ومصلحتهـم الحربيـة. وقـد غـادر دانـز وغيره من رجال فرنسا العسكريين والمدنيين الذين لم يطلـب لهـم البقـاء ميممـين شطر فرنسا، واراد دانز أن يسجل اسمـه في تـاريخ نهـب سـوريا ولبنـان في مـن نهبهما من بني قومه فحمل معه ذهب البنك السوري اللبناني الذي كـان بعـض

الغطاء للنقد الورقي والذي كان يقدر بمئات ألوف الجنيهات.

ومن نقائص الافرنسيين التي كانت منهم اثناء هذه الحركة أن الفيشيين حاولوا الانتفاع من فلول المجاهدين الفلسطينيين الذين كانوا في سوريا أو اتوا من العراق بعد الحركة الحربية العراقية في العمل على الحدود الفلسطينية لازعاج الانكليز، فلم يرى هؤلاء في العرض ضمانة فيهم الطمأنينة والأمل فأبدوا استعدادهم للانضمام إلى حملة فوزي القاووقجي التي خرجت من بغداد إلى الرطبة ثم اتجت إلى سوريا حينما انتهت الحركة العراقية ونشبت الحركة السورية، حيث كان الافرنسيون قد اظهروا استعدادهم لمدها وتقويتها للانتفاع منها في حركة المقاومة فرفضوا كما انهم لم يسيروا سيراً جاداً في الوفاء بوعدهم بمد حملة القاووقجي متحسبين عواقب ذلك مع انهم ليسوا في وضع يبرر لهم هذا التحسب لانهم امام عدو جديد مشترك ليس من السهل تغلبهم عليه ولم يكن اشتداد قوة الحملة ليضيرهم شيئا. وكان الذين يودون ذلك من رجال العرب الوطنيين يأملون أن تكون من الحملة اذا مدت وقويت قوة عربية مستقلة قد يكون فيها بعض الاثر في الكفاح القومي العربي، ولاسيما أن احتمال عدم امتداد الحرب طويلاً وانتهائها باندحار بريطانيا من الشرق العربي كان اذ ذاك قوياً وسائداً. ولكن الذي يتبادر أن سوء النية والروح الاستعمارية المتأصلة في الافرنسيين منعتهم من هضم قيام قوة عربية واحتمال انتفاع الحركة العربية بها مهما كان امرهم ومصيرهم...

ومما يسجل في صدد هذه الحركة أن الفصائل السورية واللبنانية اضطرت إلى الحرب إلى جانب القوى الفيشية وكانت توضع في الصفوف الامامية لما كان يتحسب من فرار افراد هذه القوى ومخامرتهم، وقد قتل وجرح

من تلك الفصائل عدد كبير، ومع ذلك لم ير الفيشيون أن يذكروا ذلك بكلمة ما جحوداً ولؤماً، وظلوا يشيدون طيلة اسابيع الحركة بدماء فرنسا وضحاياها في سبيل الدفاع عن سوريا ولبنان ضد الغزاة!!

تجدد الحيوية الافرنسية :

ولقد عكر نجاح الحملة الجديدة صفو سوريا وخيب أملها في خفة الكابوس الذي كان يجثم على صدور أهلها بانهيار فرنسا وغدوها تحت سنابك الالمان واضطرارها إلى المسايرة؛ فقد خشوا أن تكون الحملة دماً جديداً فتعود التصرفات الكريهة التي قاسوا منها ما قاسوا اثناء الحرب. ولم يكن يخطر لبال أحد أن فرنسا الديغولية غير فرنسا التي سيموا من خسفها أشد ما يمكن أن تسام به امة ضعيفة من امة قوية سوء إدارة وسوء نية وسوء إستغلال ؛ ولا سيما إنه لم يتغير إلا الاسم، وإن كثيراً من قواد الحملة وضباطها ممن كانوا في سوريا كما أن جل الموظفين والضباط الذين قاست منهم سوريا ما قاست وعملوا في سبيل مناوأة الحركة العربية والروح الاستقلالية وتوطيد الاستعمار الافرنسي والسيطرة الافرنسية ما عملوا ظلوا حيث هم، وكان كاترو رئيس ضباط الاستخبارات والذي كان يدير بواسطة ضباطه حركات الفتن والفساد والدس والنهب هو المندوب السامي الافرنسي في العهد الجديد!

ولقد سارع تشرشل فألقى خطاباً عقب الهدنة أعلن فيه أن إنكلترا ستظل تعترف بمصالح فرنسا وحقوقها في لبنان وسوريا وأن كا ن أشار إلى نية منحهما استقلالهما وحقهما فيه كما أن الجنرال ديغول سارع إلى زيارة سوريا ولبنان وصرح فيما صرح به أن فرنسا باقية في الشرق لمتابعة عملها العظيم في مساعدته وإرشاد

اهله، و أن تبدل الأشخاص والأسماء لا يعني تبدل فرنسا وإن كان اشار كذلك إلى ما اشار إليه شرشل، فجاء كل هذا مصدقاً في نفوس السوريين من همّ وقلق... ومن المضحكات المبكيات أن بيان رئيس الحكومة الفيشية التي كان رجالها يمرغون وجوههم على تراب أقدام الألمان لم يبخل هو الآخر بأن يؤكد تقلق فرنسا ببلاد الشام حيث أذاع يعتذر به عن اضطرار قواته للهدنة لعدم التكافؤ بين القوى، ويوجه شكره لأهلها على تعلقهم بفرنسا، ويطمئنهم بأن هذه النتيجة ليست إلاّ حالة عارضة، وان فرنسا التي أحبوها لن تتركهم وستظل تقوم بواجبها من الإرشاد والحماية نحوهم؛ ثم أمر دانز باحتفاظه بلقبه كمندوب سام وقائد عام برهاناً على اهتمامه لهذا الواجب العظيم!!.

ولقد كان فيما كان أن الجنرال كاترو أذاع بالراديو نداء ألقى بالطيارات كمنشور على سوريا ولبنان بين يدي زحف الحملة ذكر فيه أن الحملة إنما تستهدف تحرير الشام وحفظها من خطر الألمان ومنحها استقلالها على أساس التعاون النزيه ودعاهما إلى التعاون معها واستقبال العهد الجديد والفرصة الذهبية السانحة، وانه حينما قدم إلى سوريا عقب الهدنة أرسل إلى خالد العظم رئيس الحكومة كتاباً أكد له فيه هذا الوعد وطمأنه بتحقيقه في وقت قريب؛ وأن الوزير الإنكليزي ليتلتون وهو المفوض إليه أمر المسائل المدنية والسياسية في جبهة الشرق العربي جاء إلى بيروت أثناء وجود ديغول واجتمع به ثم نشر كتابان في آن واحد يثبت فيهما ما تم الاتفاق عليه في المحادثات الشفوية من أن إنكلترا لا تتعقب أي مطمع أو سياسة خاصة في سوريا ولبنان وان إنكلترا وفرنسا متفقتان على منح هذه البلاد استقلالها وحكمها الوطني على أن يكون لفرنسا حق الرجحان فيهما، والثاني من ديغول إلى ليتلتون يسجل فيه اعتراف

إنكلترا بان لا مطمع ولا سياسة خاصة لها في سوريا ولبنان واعترافها كذلك بمركز فرنسة وحق رجحانها فيهما، ويؤكد أن فرنسا متفقة معها على منح هذه البلاد استقلالها وحكمها الوطني على أساس التعاهد الذي يضمن لفرنسا ذلك المركز والحق.

المفاوضات في سبيل إقامة عهد جديد وروح فرنسا الاستعمارية فيها :

وقد جرت بناء على ذلك وعقب الهدنة بمدة غير طويلة سلسة من الاتصالات والمشاورات بين ديغول وكاترو من جهة ورجال سوريا من جهة أخرى تحتوي في مطاويها توخي الافرنسيين تثبيت مركزهم واعتبارهم أصحاب الشأن ومصدر السلطات في سوريا وتهالكهم على الوصول إلى وضع مستقر على أيديهم على أساس معاهدة تجعل لمركزهم ورجحانهم وما ينطوي فيهما من مطامع استعمارية صبغة دولية، كأنما كانوا يخشون أن تضيع الفرصة أو كأنهم كانوا يريدون أن يستغلوا فرصة اعتراف الإنكليز بمركزهم قبل مرور الزمن عليه، مما يدل على انهم لم يكونوا في قرارة أنفسهم مطمئنين إلى الموقف بصورة عامة والى الإنكليز بصورة خاصة.

الإنكليز في هذا العهد :

ولقد كان وجود جماعة فرنسا الحرة وحياتها وقوادها وقواتها وحركتها قائمة بمال الإنكليز ووسائلهم، وكانت القوى الإنكليزية في سوريا تفوق قواها كثيراً، وكان وجود الإنكليز هو المحسوس والأقوى، حتى لقد ألغى محافظ الجزيرة وظيفة المندوب الافرنسي في محافظته فلم ير هذا بداً من الرحيل، وأمر موظفي الجمرك على الحدود بتوريد جبايتهم إلى صندوق المحافظة فأبوا فلم يلبث

أن ذهب ضابط إنكليزي على الحدود واركب الموظفين الافرنسيين سيارة وأجلاهم إلى بيروت كما كانت أبواق الدعاية الإنكليزية تهتف بالسوريين انهم أحرار في التعاقد مع الافرنسيين وعدمه، وان لهم الحق في إبداء رغباتهم بمضابط يقدمونها للسلطات الإنكليزية، وكانت دعاية ومساعي عبد الله بن الحسين في صدد اغتنام الفرصة وتوحيد بلاد الشام تنشط نشاطاً غير يسير مما يمكن أن يوهم انه من تشجيع الإنكليز، وكان فريق من رجال سوريا الوطنيين يوثق صلاته بالإنكليز الخ ؛ فكل هذا أثار على ما يبدو قلق الجنرالين الافرنسيين وريبتهماوجعلهمايهتمان ذلك الاهتمام الذي أشرنا إليه.

نشاط عاهل الأردن :

ونتساءل في هذه المناسبة عما إذا كان رجال سوريا غفلوا أو تعمدوا إغفال مدى نشاط ومساعي عاهل الأردن في سبيل توحيد سوريا، وعما إذا كانت هناك فرصة أضيعت بعدم تجاوبهم بقوة مع هذه المساعي وذلك النشاط، وعدم اغتنامهما لتحقيق أمل تنشده الشام كما ينشده عبد الله بن الحسين، وعما إذا كانت السياسة الإنكليزية الرسمية مستعدة لتعضيد هذه التجاوب والاستفادة من هذه الفرصة.

والحق أن صاحب عمان نشط نشاطاً عجيباً في تلك الظروف أي في عامي ١٩٤١ و ١٩٤٢ فضلا عن استمراره في النشاط بعدهما في سبيل هذا الأمر؛ حيث اخذ يكتب للحكومة الإنكليزية ويتصل بممثليها في عمان والشرق العربي ويعقد معهم الاجتماعات ويقدم المذكرات والحلول ويعاود الكتابة بسبيل الرد على ما يتلقاه من أجوبة، ويحمل حكومته اتخاذ القرارات

والاتصال من ناحيتها وبصفتها الرسمية بالحكومة الإنكليزية وبذل الجهود المختلفة؛ وبادئ رجال الشام بالمراسلة عن طريق فارس الخوري، وأذاع بياناً على أهل البلاد الشامية دعا فيه إلى مؤتمر عربي لتقرير الخطط والخطوات في سبيل الوحدة السورية التي هي مطلب الجميع على ما يستفاد من الوثائق المنشورة في الكتاب الأبيض الأردني في عام ١٩٤٧؛ مما يدل على انه كان معتقدا اعتقادا بأن الفرصة سانحة والظرف موات.

و لقد احتوت رسالة فارس الخوري معنى من معاني التجاوب و فيها ما يمكن أن يدل على أن إخوانه أو بعضهم كانوا مطلعين و موافقين عليها ؛و لا يبعد أن يكونوا جادين في ذلك لأنهم لا بد من انهم قد هلعوا كما قلنا من احتمال تجدد حيوية فرنسا عن طريق الحركة الديغولية بعد ما كان من اغتباطهم بانهيارها و تعليقهم الآمال الكبيرة على الخلاص نهائياً من مخالبها لأنهم لا بد من انهم كانوا مدركين أن هذا الخلاص لا يتم إلا بتعضيد الإنكليز ،كما انه كان في سوريا اتجاه قوي نحو هؤلاء بسبيل الخلاص المنشود .

و مع أن أجوبة الانكليز كانت كعادتهم تحتوي شيئاً غير يسير من التطمين و التأميل و الكلام المعسول عما تكنه بريطانيا للعرب من مودة مع العطف الشديد من آمالهم في الوحدة و مطابقتها معهم فيها فقد كانت تحتوي استمهالا و تشير إلى أن الأمور غير مجلية ،و بتعبير اصح كانت أجوبتهم مطاطة و مموهة؛ هذا إلى ما كان من تصريحات تشرشل وكتاب ليتلتون إلى ديغول المسبوق باتفاق شفوي بشأن مركز فرنسا و حق رجحانها في سوريا و لبنان .فكل هذا يمكن ان يدل على ان مساعي صاحب الاردن و نشاطه انما كان صادراًعن مطامحه و آماله القومية و الشخصية فحسب ،وأن السياسة الانكليزية

الرسمية لم تكن جادة في تشجيع ذلك النشاط و المساعي و وصولها الى نتيجة ايجابية ،وان ما كان يبدو من نشاط عمال الانكليز و همساتهم قد كان لمآرب اخرى. و لا سيما ان الظروف كانت مواتية بما كان لهم من حول و طول وبما في سوريا من اتجاه نحوهم و كره مرير نحو الافرنسيين ،فضلاً عن انه لم يكن لديغول الذي كانت حركته ضعيفة و قائمة على الانكليز في كل شيء ان يفعل شيئاً،و هو مضطر على كل حال الى السير في ركابهم بسبيل ما هو اعظم خطرا و هو تحرير فرنسا نفسها التي كانت منهارة وتحت رحمة الاقدار المجهولة.و لقد كان في ما اقدم عليه الافرنسيون في سياق قيام العهد الجديد في سوريا و تقريرهم في النهاية الوقوف موقف العداء من الكتلة الوطنية ،و تعيينهم عدوها الشيخ تاج رئيساًللجمهورية وقيام حكومة متسقة قليلا اوكثيرا معهم في ذلك الموقف يعد حافز لرجال الكتلة الى التجاوب لو شجعوا عليه من قبل الانكليز بشكل من الاشكال او لو لحظوا انه مؤد الى نتيجة ايجابية. ولقد حاول بعضهم ان يوثق صلاته برجالات الانكليز ويستعديهم على تصرف الافرنسيون والسلطات الحكومية التي اقاموها، وان ينشط في سبيل تحريك الدفة نحوهم؛ فسارع الافرنسيون الى نشر بيان إنذاري لهؤلاء وامروا بعضهم بالاقامة الاجبارية في امكنة عينوها لهم، وبدأوا بحركة مطاردةواعتقال ضد من اشتبهوا في ممالأته وضلعه في ذلك النشاط، مما اضطر من استطاع من رجال الكتلة وغيرهم من الوطنيين الى مغادرة البلاد او الاختفاء و الانزواء فلم يتحرك الانكليز ورجالهم لنصرتهم وحمايتهم فضلا عن تشجيعهم في السير في سبيل الاهداف التي كان ينشط لها صاحب الاردن. وعلى هذا فلسنا نرى محلاً للقول انه لو تضامن رجال الشام في هذه الآونة مع صاحب الاردن لكان في الامكان تحقيق هدف قومي عظيم ينشده رجال الحركة العربية، وهو تحرير سوريا ولبنان

من فرنسا وتوحيدها مع الجزئين الجنوبيين الاردن وفلسطين؛ لان هذا ما كان ليتم في حال بدون رضاء الانكليز وتشجيعهم.ونعتقد ان رجال الشام لم يكونوا في موقف يجعلهم بهذا التشجيع ولا يسيرون في نطاقه ولم يخرج الانكليز ازاء حركة الوحدة والمشاورات بسبيلها عام ١٩٤٣ -١٩٤٤ عن ذلك النطاق بالرغم عن تظاهرهم بالعطف والتشجيع مما يدل على انهم يسيرون وراء سياسة مرسومة مركزة وهي عدم تشجيع العرب على قيام كيان قوي متحد لهم وتفضيل بقائهم منفردين مع دخولهم في دائرتهم ...

الجمهورية الثانية برئاسة الشيخ تاج واحداثها :

ولقد كان خلاف على كيفية بدء الخطوة الى وضع جديد في سوريا؛ فالوطنيون او بتعبير اصح رجال الكتلة الوطنية التي ظلت تمثل الحركة الوطنية كانوا يرون ان الوضع الدستوري الاول هو الذي يجب ان يعتبر قائماً فيجتمع المجلس النيابي ويقر أو يرفض استقالة هاشم الاتاسي رئيس الجمهورية، فاذا رفضها عاد هذا الى مركزه والف وزارة وجرت الامور في المجرى الدستوري، واذا قبلها انتخب خلفاً له وجرت الامور كذلك على هذا النمط، وان امر التعاهد يجب ان يتريث فيه؛ في حين ان الافرنسيين كانوا يرون ان يقدم العهد الجديد بأمر او خطوة تصدر عنهم،وان تتجدد المعاهدة، وان تكون لهم التوجيهات الضرورية وخاصة في ظروف الحرب. وبعد اخذ ورد وتقارب وتباعد انقطع الاتصال بينهم وبين اولئك؛ فالافرنسيون اصروا على وجهة نظرهم دون ان يعبأوا بتناقضها مع اعلانهم ودعاياتهم؛ والانكليز رأوا على ما بدا ان لا يتدخلوا في الامر لئلا ينقضوا عهدهم مع الافرنسيون وتفتر حماستهم في تغذية المقاومة السرية مما كان يشغل بال الانكليز في الدرجة الاولى؛ فاتصل

الافرنسيون حينئذ بالشيخ تاج الدين الحسني الذي كان ذهب الى فرنسا عقب اقالة حكومته عام ١٩٣٥ ولم يعد الا قبل الحركة الجديدة ببضعة اشهر واتفقوا معه على وجهة نظرهم بعد ان قام كاترو بحركة استفتاء بهلوانية، وادعى ان الناس اجمعوا على ان الشيخ خير من يقوم بالمهمة! وارسل بصفته مندوباً سامياً لفرنسا الحرة اليه كتاباًيكلفه فيه بالقيام بمهمة رئيس الجمهورية وصلاحياته، ويقول فيما يقول ان اتصالاته بالناس واستشكافه الرأي العام السوري جعلاه يرى انه هو الشخصية التي تستطيع الاضطلاع بأعباء تنظيم هذا الدور الجديد على اساس معاهدة تعقد بين فرنسا وسوريا! هذا في حين انه يعرف ان الشيخ كان مغضوباً وان شعار اضراب عام ١٩٣٥ وثورته كان الهتاف ضد عهده،وانه اخفق في محاولاته في حمل الناس على التعاون معه والتعاهد مع فرنسا في ذلك العهد، وانه لم يستطيع البقاء على إثر إقالته ..وهكذا ظهر ان الافرنسيين ظلوا على تجاهلهم بما تعنيه سوريا من حركتها الوطنية ومطالبها الاستقلالية، ورجعوا الى تمويهاتهم وحلولهم الزائفة الخائبة ومناوأتهم للحركة العربية ولم يتورعوا بسبيل ذلك عن الكذب العلني على البلاد وعن مناقضتهم لصفتهم وعدم اعتبارهم بما حلّ فيهم، كما ظهر انهم قد قرروا الوقوف من الكتلة الوطنية موقف العداء الذي ظلت تقفه فرنسا منها على اعتبار انها رمز للحركة العربية والروح الوطنية والنضالية.

وقد الف الشيخ وزراته الاولى برئاسة حسن الحكيم ومن اناس عرف بعضهم بعدائه للكتلة وبعضهم بولائه الوثيق لفرنسا ومشروعاتها، وبعضهم بذبذبته او طمعه في المنصب على أي حال. فكان في هذه التشكيلة ما فيه الدليل الكافي على موقفهم ومقصدهم.

وبعد قليل اقيمت حفلة كبرى باسم الاستقلال خطب فيها كاترو والشيخ،فقال الأول ان فرنسا الحرة قد حققت ما وعدت به من منح سوريا استقلالها وانه سيباشر قريباً امر عقد المعاهدة التي تنظم الصلات بينهما، وان هذا الاستقلال مقيد بما للحرب من ضرورات مبرمة وان سوريا مدعوة لتهيئة قوى وطنية توضع تحت قيادة الحلفاء للدفاع عن القضية المشتركة، وانه مع الاعتراف بوحدة سوريا السياسية والجغرافية يجب ان تراعي رغبات بعض المناطق في تمتعها باستقلالها المحلي والاداري (يعني جبل الدروز ومنطقة اللاذقية)،وشكر الشيخ في خطابه ما كان من عطف فرنسا الحرة ووفائها ومساعدتها على اقامة كيان سوريا المستقلة وقال ان سوريا لن تنسى هذا الجميل، وانها مستعدة للتعاون مع الحلفاء في كل شيء مساهمة في تأمين النصر لهم، فوطدت هذه الحفلة والخطابان اللذان القيا فيها الصفة التي ارادها الافرنسيون للعهد الجديد، وكشفت في الوقت نفسه عن تمسك هؤلاء بالسياسة التي انتهجوها قبل الحرب بدون تبديل وتغيير.

ومما جرى ان كاترو اصدر بعد قليل قراراً بارتباط جبل الدروز ومنطقة اللاذقية بسورية كدولة على ان يحتفظا باستقلالهما الاداري ومجلسيهما المتمثيلين وميزانيتهما الخاصة لما جاء في خطابه. وأقام الشيخ تاج حفلة لمناسبة هذا القرار اشاد فيها بنعمة فرنسا وتحقيقها مطلب الشعب بالوحدة بعد الاستقلال ...

عودة اجواء الحرب :

ولم يلبث جو الحرب ان عاد ثانية، وان اصبحت سوريا قاعدة من قواعد

الحرب وطريقاً من طرق مواصلاتها ومركزاً من مراكز تموينها في الشرق العربي. وقد سير في الاستنفاع بكل ذلك اشواطاً كبيرة، فقامت حركة تجنيد وتطويع كان منها فصائل عديدة منها ما رابط في سوريا لاعمال الأمن والحراسة والمواصلات ومنها ما ارسل الى بعض جبهات الحرب، ووضعت السلطات يدها على مختلف مرافق البلاد وغلاتها، وتولت امر تنظيم الاعاشة المدنية بالاضافة الى العسكرية،وعبدت كثيراً من الطرق، وأنشأت كثيراً من الثكنات والمعسكرات والمطارات والمؤسسات العسكرية المختلفة، وصارت سوريا بالجملة تعج بالحركة الحربية، وساعد على هذا هجوم الالمان على الروس وانتعاش امل الحلفاء في كسب الحرب ودحر الالمان من حدود مصر من جهة وضرورة الاستعداد للدفاع عن الشرق العربي تجاه احتمال تطويق الماني عن طريق القفقاس من جهة اخرى.

وقد اهتم الانكليز لتنقية سوريا من ما يسمى اعداءً او غير موالين، ولاسيما ان حركة العراق كشفت لهم عن عواطف كامنة ضدهم في بلاد العرب ناتجة عما كان منهم نحوهم من الأعيب وأساليب وكوارث وغدر، وتضامن الافرنسيون معهم في هذا الاهتمام لتنقية البلاد من اعدائهم الذين اعتادوا ازعاجهم في تاريخ النضال السوري، وكانت ضرورات الحرب وظروفها مبررات قوية. فابتليت سوريا من جراء ذلك بمحنة شديدة ولعبت الجاسوسية التي كانت مصبوغة على الاغلب بالصبغة الافرنسية او التربية الافرنسية دوراً غير يسير في هذا الميدان، فأخذت مراكز الاعتقال تمتلئ برجال الوطن وشبابه، واضطر كثير منهم للتواري او التشرد، وقد تناولت المحنة كثيراً من زعماء الكتلة وشبابها وانصارها مما يبرر القول ان عداء رجال العهد الجديد للكتلة قد

لعب دوره في هذا الميدان، ولاسيما ان عهد الشيخ تاج قوبل مقابلة عدائية من الشعب ودوائر الكتلة الوطنية ونشرت مناشير شديدة في انتقاد هذا العهد وتجرحه، واستغل الافرنسيون ظروف الحرب التي جعلت الانكليز يسايرونهم فعادوا الى عسفهم وارهاقهم بسبيل الاثراء ومثلوا الدور البشع الذي مثلوه في فترة الحرب الاولى.

ولقد استمر هذا العهد سنة ونيفاً، ومما جرى ان الشيخ تاج الذي كان يعرف ان منصبه غير شرعي ومحل للتجريح لانه مستمد من السلطة الافرنسية حاول ان يصبغ عليه صفة شرعية بشكل ما، فبذل مع اعضاء المجلس النيابي المعطل وساعده في جهوده الافرنسيون الذين لم ينجحوا الى اجراء انتخابات ولم يسمحوا باستئناف المجلس المعطل لحياته انسياقاً بذهنيتهم المعتادة، ولاسيما انهم يعرفون كما يعرف الشيخ انه لا يمكن ان ينال الثقة من طريقها العادي، فحصل على مضبطة موقعة من نحو خمسين نائباً قرروا فيها ثقتهم به واعتباره رئيساً شرعياً!

ولقد تغيرت في هذا العهد ثلاث وزارات بسبب ما كان من تصرفات ومداخلات افرنسية معتادة وخاصة بسبب ادارة الاعاشة ومصاعبها. وكانت الوزارتان التاليتان للاولى في نفس الصفة التي وصفناها قبل.

موت الشيخ تاج والحياة النيابية ثانية :

وقد خلف حسني البرازي حسن الحكيم وخلف جميل الألشي حسني البرازي.

وفي عهد وزارة الألشي مات الشيخ وظلت الدولة مدة ما بدون رأس.

وقد كانت تجري خلال مدة العهد المساعي والاتصالات بالانكليز في سبيل تعديل الحال واسترضاء نفسية الشعب والتفيس عنه عن طريق إقامة وضع شرعي صحيح ليتطابق الحال على ما يعلنونه من اهدافهم الديموقراطية وخطتهم من تمتع سوريا بالاستقلال والحكم والوطني حتى استجابوا اخيراً الى هذه المساعي، واضطر الافرنسيون الذين كان وضعهم مع الانكليز وضع التابع المحتاج، فأمر يغول مندوبه كاترو بتهيئة المجال لاعادةالحياة النيابية، فنحيت الحكومة الايلشية وقام مقامها حكومة انتقال حيادية برآسة عطا الايوبي.

زعامة شكري القوتلي :

وكان جو الضغط والارهاق قد خف فاستعاد زعماء الكتلة حريتهم، وجرت الانتخابات في شهر تموز عام ١٩٤٣ بحرية تامة وانتصرت الوطنية انتصاراً باهراً بزعامة شكري القوتلي الذي انعقدت له هذه الزعامة واتجه اليه الرأي العام اتجاهاً شديداً كان به رجل الساعة وصاحب الكلمة الحاسمة، وانتخب في ١٧ آب عام ١٩٤٣ بالاجماع من قبل المجلس النيابي الجديد رئيساً للجمهورية، وتألفت الوزارة برآسة زميله سعد الله الجابري وعضوية اعضاء من رجال الكتلة وغيرها وان كان الاعضاء الكتلويون هم الكثرة فيها، حيث اراد شكري القوتلي ان يدشن العهد الجديد بوزارة تمثل الكتلة وغيرها، وكان يبشر في الاجتماعات العامة التي كان يحضرها والرحلات التي كان يقوم بها اثناء الانتخابات باللاحزبية وبالاتحاد الوطني الذي يجب ان تواجه سوريا به ما يكتنفها وما يستقبلها من ظروف، ويقطع العهد على نفسه بإلتزام ذلك، وعلى هذا الاساس ترشح ونجح عدد غير قليل من غير المنتسبين الى الكتلة في دمشق وغير دمشق بتوجيه شكري وايعازه.

ولعل ما كان من امر العهد الوطـني في سـني ٩٣٦ ــ ٩٣٩ ورجالـه هـم رجال الكتلة وقد منوا فيه بهزة عنيفة اثرت في بنيان كتلتهم واوجدت التخـاذل والشقاق بينهم مما ظل أثره مستمراً كان عاملاً في هذه الخطـة، هـذا مـع التنبيـه على ان الكتلة كهيأة رسمية لم تكـن قائمـة في ظـروف الانتخابـات بـل يصـح ان يقال إنها كانت منحلة بدون قرار وإعلان منذ مدة طويلة قبلها.

العهد الوطني الثاني
١٩٤٣ - ١٩٤٦[1]

نشاط العهد الوطني الثاني :

ولقد نشط العهد الوطني الثاني منذ قيامه الى بث الطمأنينة في النفوس بالرغم من اشتداد الحرب واستمرار ضروراتها، فأمكن اقناع السلطات

---

(١) إن اول تصريح الكليزي علني في هذا الباب في ٢٩ مايس ١٩٤٢ صدر عن ايدن وزير الخارجية في اجتماع عام في لندن. وقد جاء فيه: "ان العالم العربي قد خطا خطوات واسعة منذ التسوية التي تمت في نهاية العام الماضي، - بقصد قيام جمهوريتي سوريا ولبنان وتبادل العهد بين فرنسا الديغولية وبريطانيا على استقلالهما - فرغب كثيرون من مفكري العرب في ان يكون للشعوب العربية نصيب من الوحدة أعظم مما تتمتع به الآن. وهم في سعيهم لبلوغ هذه الوحدة يرجون عون بريطانيا وتأييدها. فمثل هذا النداء من اصدقاء لا يمكن الا ان يلبى. وانه ليلوح ان من الطبيعي ومن الحق ان تتعزز الروابط الثقافية والاقتصادية بين البلدان العربية بل والروابط ايضاً. فحكومة صاحب الجلالة من جانبها ستؤيد كل التأييد مشروع تتم الموافقة الاجماعية عليه". ثم ادلى ايدن نفسه بتصريح ثان في ٢٤ شباط ١٩٤٣ امام مجلس النواب جاء فيه: ان الحكومة البريطانية كما اوضحت قبل تنظر بعين العطف الى كل حركة بين العرب لتعزيز الوحدة الاقتصادية والثقافية والسياسية بينهم. وان من الجلي ان الخطوة الاولى لتحقيق أي مشروع يجب ان تأتي من العرب انفسهم.

العسكرية بتخفيف وطأة هذه الضرورات، واطلاق سراح المعتقلين ولو تدريجياً والكف عن مطاردة المتوارين والمشردين. فاخذ جو سوريا يتبدل والطمانينة تنبث والحيوية تعود والنشاط يزداد حتى كادت الشام تعود الى سيرتها الاولى بالرغم من كابوس الحرب وسلطاته وضروراته البارزة الاثر فيها.

ولقد اخذت الدول تسارع الى الاعتراف بسوريا المستقلة فكان هذا مما ساعد على تقوية العهد وتوطيده.

وقد ساعد على تقوية العهد وتوطيده كذلك احداث هامة جرت برغم فرنسا.

مشاورات الوحدة العربية واثرها في التوطيد للعهد :

منها مشاروات الوحدة العربية التي بدأت في مصر اواخر صيف عام ١٩٤٣ أي في ظروف قيام هذا العهد والتي انتهت بنشوء الجامعة العربية؛ حيث لم تلبث حكومة هذا العهد ان اندمجت فيها.

وقد كانت هذه المشاورات نتيجة لمقدمة بدأت من سنة ١٩٤٠ بما كان من شعور الاوساط العربية القومية بضرورة الاستفادة من ظروف الحرب وتحقيق الهدف الذي استهدفته الحركة العربية وقامت الثورة الهاشمية على اساسه وهو ايجاد كيان عربي سياسي موحد، وبما كان من نشاط صاحب الاردن في صدد هذا وخاصة في صدد توحيد سوريا بعد انهيار فرنسا واستمراره في الاتصالات ورفع المذكرات والحلول؛ وبما كان كذلك من نشاط نوري السعيد في صدد اتحاد عربي يضم بلاد الشام الموحدة والعراق في الخطوة الاولى، وبما كان من

تصريحات انكليزية رسمية بتشجيع حركة وحدة ثقافية واقتصادية وسياسية بين العرب مما كان من بواعثه ذلك الشعور والعطف من جهة وامل الانكليز في قيام كيان عربي متحالف معهم تتم به خطة المعاهدات الحليفة القائمة بين مصر والعراق والاردن والمملكة العربية السعودية ويضم في نطاقه بلباقة سوريا ولبنان اللذين كانا خارجين عن دائرة هذه الخطة دون ان يثيروا حنق حلفائهم الافرنسيين.

ولقد كان لهذا الاندماج فائدة عاجلة لسوريا لان بغي فرنسا في مايس عام ١٩٤٥ على ما سوف نذكره بعدما قد وقع بعده تضامنت دول الجامعة مع سوريا تضامناً رائعاً كان له اثر عظيم في الاوساط السياسية العالمية كان من نتائجه جلاء فرنسا عن سوريا بعد قليل.

ومما لاريب فيه ان الافرنسيين قد حنقوا اشد الحنق من هذا الاندماج وتمنوا لو استطاعوا ان يحولوا دونه كما فعلوا في ظروف مؤتمرات لندن العربية الرسمية والبرلمانية بسبيل قضية فلسطين عامي ١٩٣٨ و ١٩٣٩ حيث كانوا يحرصون على ابقاء سوريا منعزلة عن الحركة العربية العامة، فضلا عما كان من ضلع بريطانيا في هذه الحركة مما كان يزيد في حنقهم لما كانوا يتوجسونه من مقالب الانكليز لهم في هذه البلاد. ولكنهم كانوا عاجزين عن ذلك لان حركة ديغول كانت ما تزال ضعيفة وعالة في كل شيء على بريطانيا، ولم تكن لتمثل حتى حكومة في المنفى كما كان شأن حكومات بلجيكا وهولانده ويوغسلافيا واليونان التي اكتسح الالمان بلادها، وكل شأنها انها كانت لجنة باسم لجنة التحرير.

تعليقات على نتائج مشاورات الوحدة وموقف سوريا :

ونقول استطراداً ان صاحب الاردن قد حرص في ما استمر فيه من نشاط على التنبيه على ضرورة وحدة سوريا الطبيعية قبل كل شيء، وعلى بيان الاعتبارات السياسية والاقتصادية والجغرافية الوجيهة التي تحتم هذه الضرورة والتذكير بها في ما كان يصدر منه من رسائل ومذكرات ويقوم به من اتصالات ويتقدم به من حلول على ان يكون هو ملك سوريا الكبرى اذا كانت وحدة ورئيسها اذا كانت متحدة[1] وان ممثليه في مشاروات الوحدة العربية المذكورة آنفاً قد حرصوا على التنبيه كذلك على هذه الضرورة، وان نوري السعيد ممثل العراق اراد ان تكون نتيجة هذه المشاورات اتحاداً فدرالياً بين الدول العربية وقدم بعض المشاريع التفصيلية في هذا الباب، وان ممثلي سوريا اظهروا استعدادهم للموافقة على أي مشروع فيه وحدة اواتحاد عربي. منوهين ان ذلك من اهداف الفكرة والحركة العربية التي نشات وترعرعت في بلادهم ومعلنين استعدادهم للتضحية بكل اعتبار في سبيل ذلك. على ان مصر ولبنان وابن سعود فضلوا ان تقوم الرابطة على اساس احتفاظ كل دولة بكيانها واستقلالها وسيادتها ونظامها، فتغلب هذا الرأي في النهاية وقامت الجامعة العربية على ميثاقها الراهن.

وقد يخطر بالبال ان رجال سوريا المسؤولين وخاصة رئيس جمهوريتها شكري القوتلي لو تجابوا مع عاهل الاردن ومع العراق بعد ان خلصت سوريا

---

(١) كانت النقطة الشخصية نقطة الضعف في نشاط عاهل عمان. وقد فطن لها فيما بعد فاخذ يقول ان نظام الحكم يترك لاستفتاء البلاد وان رآسة الاتحاد تكون بالمناوبة.

من كابوس فرنسا واصبحت تتمتع بحريتها التامة لكان من المحتمل ان يقوم نظام اتحادي بين دول الهلال الخصيب، او بين الدول السورية. وقد يكون هذا صحيحاً،ولكن الخوف من دخول سوريا في نطاق الالتزامات السياسية والعسكرية التي تقيد العراق والاردن مع بريطانيا بعد ان اصبحت حرة من كل قيد وعهد والتزام اولاً، ومن زوال النظام الجمهوري، ثانياً صار عاملاً في عدم التجاوب.

ولقد كان يبدو من خلال نشاط عاهل الاردن خاصة تصريحات وحركات كانت تصل احياناً الى اثارة البلبلة والفتنة والهياج، فكانت تحدث رد فعل نفساني شديد في رجال سوريا وصارت عاملاً مهما آخر في عدم التجاوب ايضاً، بل ودفعت هؤلاء الى المقابلة بالمثل، فكانت مشادات ومهاترات انتقلت الى المجالس الرسمية، واشتد اندماج سوريا بما سمي بالمحور المصري السعودي ازاء ما سمي بالمحور الهاشمي مما فيه مظهر من مظاهر اختلاف العرب في الاتجاهات والاعتبارات الشخصية، وخيم التوتر والجفاء في سني ١٩٤٦ -١٩٤٨ على ساحة الجامعة العربية وبين رؤساء ورجالات سوريا والاردن والعراق بنوع خاص:

على اننا نشك على كل حال في ان يكون الانكليز قد غيروا خطتهم التي ذكرناها قبل وهي تفضيل بقاء العرب منفردين وعدم قيام كيان اتحادي قوي بينهم،وانهم قد غدوا حريصين على تحقيق المشاريع الاتحادية في اقطار الشام والعراق التي يدعو اليها ويسعى في سبيلها. واذا كنا نلمح احياناً اصابع انكليزية في ما كان من مساع ودعوة فانها لا تحمل طابع جد يدل على تغيير الخطة المذكورة ولعلها من قبيل حرب الاعصاب لتضطر سوريا ولبنان الى عقد

معاهدات مع الانكليز يدخلان بها في نطاقهم الذي تدور فيه الآن العراق ومصر وعلى النحو الـذي يريدونـه فتكمـل بذلـك حلقـات السلسـلة الانكليزيـة الـتي تطوي المشرق العربي والتي اخذت تمتد الى بعض انحاء المغرب العربـي ايضـاً مـع بقاء الدول المرتبطة بها منفردة. ولعل من الدلائل على هذا ما يـدار مـن الكـلام عل العزلة والانفراد وما في ذلـك مـن خطـر وضـرر علـى وسـوريا ولبنـان، بـل وعلى فائدة وضرورة التعاقد الاقتصادي والسياسي مع بريطانيا صراحـة اثنـاء دوران الكلام حول تلك المشاريع. ولعل من مقاصد حرب الاعصاب في ما كان يلمح من اصابع الانكليز التشويش والبلبلة بـين العـرب وفـت الاعضـاد فيهـم، ولاسيما ان الكلام حول سوريا الكبرى خاصة قد اشـتد في وقـت اشـتدت فيـه خطورة قضية فلسطين واشتدت فيه النقمة على بريطانيا لموقفهـا الغـادر المتصـل بسياستها اليهودية المركزية منذ البـدء وفتحهـا بـاب الهجـرة اليهوديـة والقضيـة اليهودية من جديد بعد ما اوصدته بيدها بالكتـاب الابيـض الـذي قطعـت علـى نفسها فيه العهد بالوقوف من تلك الهجرة والقضية في الحد الـذي وصلـت اليـه وبانهاء الانتداب على فلسكين واعلان استقلالها على اساس النسبة الراهنـة مـن سكان. وقد المع الى هذا كثير من رجـالات العـرب الرسميـين وغـير الرسميـين في مختلف المواقف خلال سنتي ١٩٤٦ و ١٩٤٧ ولعل من الدلائل على عدم تغيير الانكليز خطتهم التي اشرنا اليها عـدم قيـام اتحـاد بـين العـراق والاردن مـع انـه جرى حوله كثير من الكلام وجاء وقت قيل فيه انه تم او كاد، وليـس امامـه أي مانع او اعتبار من تلك الموانع والاعتبارات.

ومن الاحداث المهمة التي سـاعدت علـى تقويـة العهـد الوطـني اندمـاج سوريا في ميثاق الاطلانطلي واعلانها الحرب على دول المحور حيـث ادى هـذا

الى اشتراكها في تأسيس هيئة الامم وميثاقها في مؤتمر سان فرانسيسكو ثم اعتبارها عضواً مؤسساً في هيئة الامم المتحدة نتيجة لذلك.

وقد تم هذا الحادث نتيجة لرحلة قام بها رئيس الجمهورية في اوائل عام ١٩٤٥ الى المملكة العربية السعودية ومصر. في ظروف مؤتمر الاقطاب الأربعة حيث اجتمع رئيس الجمهورية بشرشل وابدى رغبته في انضمام سوريا للحفاء في ميثاق الاطلانطي واعلان حالة الحرب مع المحور على اعتبار ان سوريا مشتركة في الحرب بكونها مركزاً من مراكز الحركات الحربية ومواصلاتها وتموينها وبكون فصائلها مشتركة فعلاً في المجهود الحربي في سوريا وفي بعض الجبهات الحربية ولو كان بطريق التطوع. ومع ان شرشل ابدى شكه في دعوة سوريا الى مؤتمر سان فرانسيسكو فان رئيس الجمهورية حينما عاد القى خطاباً في المجلس النيابي عن رحلته وما جرى فيها وطلب اقرار اعلان الحرب والموافقة على اشتراك سوريا في ميثاق الاطلانطي فقرر المجلس ذلك واعلن الامر للحلفاء ثم بذلت المساعي في سبيل الاشتراك في المؤتمر وعضدتها انكلترة فنجحت اخيراً وارسلت اليها الدعوة، ولم يسع فرنسا الا بالموافقة على مضض. وارسلت سوريا مندوبيها الى سان فرانسيسكو.

ولقد كان لهذا الاشتراك نتيجة عاجلة غير اعتبارها عضواً ذا سيادة وسقوط الانتداب عنها؛ وهي استغلال هذا المؤتمر العالمي العظيم ضد فرنسا التي اقدمت في ظروف انعقاده على بغيها اللئيم في مايس ١٩٤٥ فاثيرت ضجة كبيرة فيه اندمغت بها فرنسا وخزيت وكان لها تأثير كبير في ما تم من جلائها نهائياً، لان المؤتمر كان بسبيل وضع ميثاق السلم ومنع البغي والعدوان وحق الشعوب في السلامة والحرية وتقرير المصير تحقيقاً للاهداف التي اعلنها الحلفاء وسجلها ميثاق الاطلانطي ..

ومما جرى بعد بضعة اشهر من قيام هذا العهد ان اجتمع المجلس النيابي وقرر عدم شرعية وبطلان المادة(١١٦) في الدستور، وهي التي وضعها بونسو عام ١٩٣٠وقيد بها ممارسة سوريا لسيادتها وحقوق رئيس جمهوريتها وحكومتها ولم يكن رئيس الجمهورية والنواب اقسموا بالخلاص للدستور بسبب وجودها، وعقد المجلس جلسة خاصة في ٣٠ كانون الثاني من سنة ١٩٤٤ اقسم فيها الرئيس والنواب للدستور بعد اعلان بطلان هذه المادة الانتدابية الخبيثة،وبلع ممثلو فرنسا هذه الصفعة الشديدة التي ردت سوريا بها اعتبارها وكرامتها.

ولقد اهتم رجال العهد منذ بدئه لاصلاح شؤون الدولة وتوسيع نطاق التعليم والمنشآت العلمية والصحية والاقتصادية والزراعية والفنية، فاستطاعوا بفضل الجو الجديد السائد ان يخطوا في هذا المضمار خلال السنوات الثلاث الاولى خطوات واسعة تمثلت في ما كان من مقررات موازنة المعارف وعدد طلابها ومدارسها وعدد المصحات والمستشفيات وموازنة الاشغال العامة(١)، وفي

(١) كان المجموع الكلي للطلاب في اول سنة ١٩٤٣ (١٢٠)الفاً فاصبح في سنة ١٩٤٦ (١٩٠) الفاً وكان عدد المدارس (٦١٨) فاصبح (٨٥٧) وكان عدد طلاب الجامعة (٦٨٠) فاصبح (١٨٠٠) وكانت موازنة المعارف ستة ملايين ليرة سورية فاصبحت اربعة عشر مليوناً.

واصبح في كل مركز قضاء مصح وفي كل مركز محافظة مستشفى بحيث تضاعف العدد عما كان سابقاً. وكانت موازنة وزارة الاشغال العامة في اول سنة ١٩٤٣ نحو ثلاثة ملايين ونصف ليرة سورية فاصبحت في سنة ١٩٤٦ عشرين مليوناً عدا ما خصص لمشروع الهاتف الالي العظيم من موازنة خاصة بلغت نحو ستة وعشرين مليوناً.ولقد خصص وانفق لشؤون الاعمار والاشغال العامة في اثنين وعشرين سنة

العديد من الانظمة واللوائح والقوانين، فضلاً عن ما هيأه جو العهد من طمأنينة حملت رجال المال على تأسيس الشركات الصناعية الكبيرة التي انشأت منشآت ومصانع تضاهي أحدث وأكبر المنشآت الحديثة.

وكان من اهم ما اهتموا له تخليص كتائب الجيش الاهلي وقوى الشرطة والدرك من السيطرة والقيادة الافرنسية، واستلام الدوائر والمصالح المعروفة بالمصالح المشتركة التي كانت تدار من قبل السلطات الانتدابية مما كان من المظاهر الصارخة للتحكم والاستعمار وانتقاص استقلال البلد وكرامته وسيادته.

ولقد حاول الافرنسيون ان يجعلوا من هذه المسألة وسيلة لتوطيد مركز ممتاز لهم في سوريا وأخذوا يجاذبون رجال العهد الوطني الجديد ويشادونهم حولها، ويطالبون بعقد معاهدة توطد العلائق بينهم وبين سوريا يضمن لهم مركزهم الثقافي والاقتصادي والعسكري قبل النزول لهم عن هذه المصالح. ووقف رجال العهد إزاء ذلك موقفاً قوياً أساسه تفادي الارتباط بأي عهد يجعل لأي دولة مركزاً ممتازاً في بلادهم مع الاستعداد لاقامة الصلات بين سوريا والدول الأجنبية بما فيها فرنسا على أساس المماثلة وتبادل المنافع والمودة دون فرق ولا تمييز، ووجوب تخلي فرنسا قبل كل شيء عن ما في يدها من المصالح لما في بقائها من المساس بالسيادة وتعطيل الأمور.

ولقدكان هذا الموقف مضافاً الى المواقف السابقة يثير ديغول وجماعته ويحملهم على ارسال التصريحات التي تعبر عن امتعاضهم من رجال العهد

من عهد الانتداب واحد وثلاثون مليون ليرة فأربى ما خصص في السنوات الثلاث لهذه الشؤون على سبعة واربعين مليون عدا مخصصات مشروع الهاتف!!

وتصلبهم وتعصبهم، وتحمل روح التهديد والنيات المريبة نحو العهد، واخذوا يتصلون بالحكومة البريطانية لتسوية الامو معها ذهاباً منهم الى ان هذه الحكومة هي التي تدعم رجال العهد في موقفهم؛ وعانت هذه الحكومة نتيجة لذلك فصرحت باعترافها بمصالح فرنسا في سوريا ولبنان واملها بقيام تفاهم حر بين الفريقين على هذه المصالح.

غير ان رجال العهد ظلوا مصممين على موقفهم بوجوب تسليم دوائر المصالح المشتركة قبل كل شيء ودون ما قيد وشرط، وتمكنوا بعد العناء والمشاقة والتضحيات المالية الجسيمة.

عقد اتفاق في تاريخ ٢٢ كانون الاول ١٩٤٣ بين ممثلي سوريا ولبنان من جهة والجنرال كاترو ممثل فرنسا من جهة على تسليم هذه المصالح تدريجياً وفي اوقات محددة خلال ستة اشهر، وتنفيذه باستثناء كتائب الجيوش المحلية. وقد أقيمت في سوريا ولبنان حفلات مشتركة لتوقيع اتفاقيات تسلم الصلاحيات فكان هذا اعلاناً بزلزلة اقدام فرنسا من البلدين.

التشاد على تسلم الجيش الوطني ومكر فرنسا :

اما الجيش فقد استبقاه الافرنسيون في ايديهم على ما بدا كرهينة على الحصول على المركز الثقافي والاقتصادي والاستراتيجي الممتاز الذي يطالبون بعقد المعاهدة المضامنه له؛ وكان سبباً من اسباب المشاقات المضنية ثم الكارثة الدموية الباغية التي اوقعها الافرنسيون في البلاد حينما رأوا ان سوريا قد تفلت من ايديهم وجن جنونهم. غير ان رجال العهد ظلوا ثابتين في تصميمهم على عدم الارتباط بأي معاهدة تمنح فرنسا او غيرها مركزاً ممتازاً ما، وفي المطالبة

بتسلم الجيش اسوة ببقية الدوائر والمصالح التي استلموها. وعادت الاتصالات بين فرنسا وبريطانيا وعادت التصريحات من جانب هذه بالاعتراف بمصالح تلك، وعادت تهديدات ديغول وتصريحاته تحمل النيات المريبة والمقاصد العدوانية مما كان يجعل الموقف متوتراًوالجو متلبداً.

ومما كان وفيه الدلالة على نيات فرنسا المريبة انها ظلت تعتبر ممثلها مندوباً ولم تلقبه بلقب سفير او وزير مفوض، وظل هو يعتبر نفسه كذلك رغماً عما كان يثيره هذا من المشادة والامتعاض والمواقف الحرجة. ولقد حاول ان يمارس سلطة المندوب السامي التشريعية في مناسبة ما فأصدر في حزيران عام ١٩٤٤ بعض القرارات؛ ومع انها كانت تافهة وغير متصلة بشؤون سوريا ولبنان اتصالا جوهريا فقد رأى رجال العهد في البلدين ان يقفوا امام ذلك مهما كلفهم الامر فأصدرت كلتا الحكومتين بياناً اشارت فيه الى هذه القرارات واعلنت انها لا تعترف لأحد بأي حق في اصدار قرارات تشريعية مهما كان موضوعها وانها تعتبر ما صدر من جانب المندوب الافرنسي باطلاً ولاغياً وتعلن ان سلطة التشريع منحصرة بالدولة ومنظماتها الدستورية. وقد كظمت فرنسا غيظها من هذه الصفعة،لانها على ما بدا لم تكن في ظرف يمكنها من ان ترد عليها، فقابلتها بهدوء. وقد ظهر في ما بعد ان هدوءها هو هدوء ما قبل العاصفة وانها كانت تسر في نفسها البطشة الكبرى حال ما يتم استعدادها لها.

كارثة مايس ١٩٤٥ وبغي فرنسا :

وقد كانت هذه البطشة الكبرى في مايس سنة ١٩٤٥ فكانت على سوريا كارثة مفجعة كلفتها كثيراً من الضحايا والخسائر ولكنها كانت في ذات

الوقت انتفاضة المحتضر قبل لفظ نفسه الاخير بالنسبة لفرنسا في سوريا وفي لبنان معاً.

ولقد بدت مقدماتها العملية في اوائل السنة المذكورة حيث اخذ الافرنسيون يقوون انفسهم حربياً فيرسلون الامدادات المتوالية بينما ظلوا يماطلون في امر تسليم الجيش؛ مما جعل الحكومة السورية ترتاب وتطلب تفسيراً لهذا الامر بالتضامن مع الحكومة اللبنانية. وقد اعتذر الافرنسيون بانهم لا يقوون جيوشهم وانما يبدلون بعض كتائبها؛ وكان عذراً زائفاً، ولاسيما انه كان من المفروض ان تجلو هذه الجيوش عن البلاد في اول فرصة سانحة لان الحرب قد انتهت او كادت.

على انهم لم يلبثوا ان كشفوا عن نياتهم بعد ان اطمأنوا الى قوتهم وامكانهم أن يملوا مطالبهم املاءً؛ حيث ارسل مندوبهم مذكرة للحكومتين السورية واللبنانية بتاريخ ١٨ مايس ١٩٤٥ دعا فيها الحكومتين الى المفاوضة في الاتفاقات التي تضمن لفرنسا مصالحها الجوهرية وعقدها حتى يتم لها ممارسة شؤونهما ممارسة استقلالية كاملة؛منها اتفاق ثقافي و . اتفاق قنصلي وتجاري ومنها اتفاق استراتيجي بحجة ضمان طرق – مواصلات فرنسا وممتلكاتها في ما وراء البحار؛ وختم مذكرته بقوله: "انه عندما يتم التفاهم على هذه النقاط توافق الحكومة الفرنسية على نقل كتائب الجيوش الى الدولتين مع الاحتفاظ بابقائها تحت القيادة الافرنسية ما دامت الظروف لا تسمح بممارسة القيادة الوطنية ممارسة تامة.

وكان مفهوماً من المفاوضات والاحاديث انهم يريدون ان تكون للغة الافرنسية والثقافة الافرنسية مركزاً متفوقاً في المجالس السورية وان يكون

لرعاياهم وتجارتهم واقتصادياتهم مثل هذ المركز، وان يكون لهم مطارات وقواعد استرتيجية ومن عجيب قحتهم وروحهم الحمقاء انهم لم يكتفوا بهذا الثمن الفادح لتسليم مقاليد الجيش بل ارادوا ان تبقى قيادة هذا الجيش ايضاً في ايديهم!

وقد رأت الحكومتان السورية واللبنانية الشطط والنية السيئة المبيتة فاجتمع رئيسا الجمهوريتين واركان حكومتيهما وقرروا رفض المذكرة وقطع المفاوضةوالقاء جميع التبعات التي يمكن ان تنجم عن هذا الموقف على عاتق الحكومة الافرنسية كما قرروا توحيد الجهود والمساعي للدفاع عن سيادة البلدين واستقلالهما، وارسلوا لمندوب فرنسا مذكرة جوابية ضمنوها ذلك وطالبوا بانسحاب جميع القوات الاجنبية بما في ذلك القوات الافرنسية وجلائها عن اراضيهما وتسليمهما كتائب الجيش الوطنية في اقرب وقت وبدون قيد وشرط وقد ارسلوا مذكرة الى الدول الحليفة والصديقة سردوا فيها موقف فرنسا المتعنت للعدوان بما ترسله من امدادات عسكرية لا ضرورة لها ومطالبتهما بما يمس سيادتهما واستقلالهم اللذين اعترفت بهما، وطالبوا بتدخلها واستعمال نفوذها لحملها على سحب جيوشها مع سائر القوات الاجنبية من البلاد.

وكان الافرنسيون بدأوا منذ قدوم الامدادات بتصرفات استفزازية في مناطق ومناسبات عديدة من اطلاق النار واقامة التحصينات وازعاج الناس وسلبهم وتدبير فتن مسلحة يقوم بها انصارهم ومأجوروهم، وكان كل ذلك يحدث رد فعل في الحكومة والشعب ويزيد من هياجهم، فقابل الافرنسيون هذا بتحديات جديدة في دمشق نفسهات حتى انزلوا سرايا الجيش والفصائل

السنغالية الى الشوارع واخذوا يتحرشون بالناس، واخــذت الحالـة تـزداد توتـراً وحرجاً؛ واخذ النـاس يدعـون للجهـاد ومجلـس النـواب يـدرس قانونـاً للتجنيـد لتكوين جيش وطني يعتمد عليه، حتى اذا قارب شهر مايس نهايتـه كـان التوتـر بلغ ذروته بين الطرفين، وانتقل البغي الفرنسي الى طور علني وجدي.

ولقد وقعت في يد الحكومـة السـورية وثيقـة خطـيرة تـدل علـى مـا كـان الافرنسيون يضمرونه من غيظ من العهد الوطني ورجاله ويبيتونـه لـه مـن نيـات شريرة جنونية،حينمـا رأوا رجالـه يقفـون موقـف الرفـض البـات مـن مطـالبهم، والارض التي بذلوا الجهود الطويلة في سبيل توطيد اقدامهـم الاسـتعمارية عليهـا تنسلخ من تحتهم. وقد لا يتجاوز صبرهم بضع ساعات، وعند ذلـك تشـرع في المجزرة الكبرى. وليكن كل واحد مسـتعداً. وسـنصفي الحسـاب كلـه في ضربـة واحدة! وهناك وثيقة اخرى وزعت قبل هذه بايام بصفة بيان سري مـن القيـادة العامة في دمشق يعين فيها المواقع الـتي يجـب ان ترابـط بهـا القـوات وتذكـر أن واجب فرنسا وشرفها العسكري يقضي بابادة جميع العنـاصر الـتي تريـد اخـراج فرنسا من سوريا، وانه يجب احتلال جميع دوائر الحكومـة السـورية ومؤسسـاتها كما يجب منع سوريا من الاتصال بالدول العربية المجاورة؛ويجب ادارة البلاد مـن قبل حاكم عسكري. وقد رسم البيان الخطـة اللازمـة لاحتـلال دوائـر الحكومـة وقصـر الرآسـة ودور الـوزراء والبرلمـان السـوري ودوائــر الشــرطة والــدرك والبلدية ثم احتلال المدينة احتلالاً تاماً والقبض علـى خصـوم فرنسـا، وذكـر في هذا البيان الخطير الذي وزع في دمشـق ان تعليمـات خاصـة ارسـلت الى بـاقي الدول السورية ليكون العمل مشتركاً والضربة شاملة في آن واحد. وهذا البيان مـؤرخ في ٢٢ مـايس ١٩٤٥اي قبـل المجـرزة باسـبوع وبعـد تقديــم المطــالب

الافرنسية ورفضها بخمسة ايام، وقد نقل في هذا الظرف نفسه نساء الفرنسيين واطفالهم إلى المطار، وكل هذا دليل ساطع على أنهم كانوا يسيرون في ما ينون عمله عن تدبير وبينة وتفاهم وان المجزرة قد رتبت ترتيباً ولم تكن مرتجلة.

وفي تاريخ ٢٩ مايس بوغت دمشق بقنابل المدفعيات تقصفها وتحاول دكها، وبوغت الناس بوابل من النار من اماكن متعددة ومستحكمة كانت في ايديهم، واختصوا بعنايتهم دار البرلمان حيث كان من المتوقع ان تنعقد جلسة يشهدها الوزراء فتعمدوا قذفها واخذها بنطاق النار، وقد ابيحت المدينة للفصائل الافرنسية والسنغالية فاعملت فيها يد النهب والسلب والتحريق والتدمير، واستمرت المجزرة نحو اربعين ساعة توقفت اثناءها قليلاً بطلب المثليين السياسين لنقل نسائهم واطفالهم ثم عادت الى شدتها كأن المعركة معركة حربية رسمية وقد وقع مثل هذا في المدن السورية الاخرى بحيث كانت سوريا خلال هذه الساعات تموج بالنار والدماء والاشلاء والتحريق والتدمير. وقد تجاوز العدد المطلوب من القتلى الستمائة ومن الجرحى الألفين، وقدرت الخسائر بعدة ملايين، وسجل المراقبون اعمال النهب الواسع، واكتشفت جثث كثيرة ممثل فيها ابشع تمثيل.

وتكررت مأساة الأهمال والارتجال والبلبة وعدم الاستعداد التي كانت في العهد الوطني الاول وفي عهد فيصل قبله، فلم تكن الحكومة والشعب على استعداد للدفاع المجدي والوقوف في وجه العدوان في اكثر المواقف، ولم تفد الاحداث السابقة عبرة وعظة ما، على ان قوات الدرك والشرطة وكثيرا من الشباب في دمشق وحماه وحلب وغيرها قد سجلوا مواقف بطولة واستبسال في سبيل رد العدوان، وقد سلم متطوعة الدروز في الجيش سلاحهم وامكن اعتقال

الضباط والقوات الافرنسية الاخرى في الجبل كما امكن حصر واعتقال القوات الافرنسية في درعا وبعض الاماكن الاخرى.

التدخل الانكليزي :

ولقد كانت الحكومة السورية دائبة الاتصال بالدول الحليفة وخاصة بريطانيا التي كانت ضمنت لسوريا تحقيق استقلالها وحكمها الوطني؛ ولقد نصحتها هذه بالتفاهم مع فرنسا كما نصحت فرنسا بعدم الغلو، غير ان الحالة ظلت تشتد توتراً، فلما بلغ الموقف ذروته واشتدت المجزرة ناشدت الحكومة السورية بريطانيا مساعدتها ووفاءها بوعدها، فسارعت هذه الى اصدار امرها الى قواتها بالتدخل واعادة النظام ورد الافرنسيين الى ثكناتهم كما ارسلت مذكرة الى ديغول تخبره باضطرارها الى ما قررته وتطلب منه اصدار الاوامر اللازمة تفاديا من الاصطدام بين القوى الانكليزية والقوى الافرنسية. وقد نفذت القيادة الانكليزية الامر بما تحت يدها من قوى في سوريا وبما جلبته من قوى مساعدة من فلسطين في ٣١ مايس وما تلاه من ايام حتى غدت القوى الافرنسية كالأسيرة في ثكناتها ووقفت المجزرة عند الحد الذي وصلت اليه.

اهتمام الانكليز والاميركان للحادث :

ولقد كان اهتمام الحكومة البريطانية بالغاً اثناء الأزمة واشتد الى درجة الخطورة في لحظاتها الاخيرة، حتى لقد عقدت الوزراة جلستها في الليل في مجلس النواب حيث كان منعقداً، وكان وزير الخارجية يتردد بين غرفة الوزراة وقاعة المجلس لينقل للاعضاء تطور الازمة، وكان الاعضاء يقابلون خبر قصف

الافرنسيين دمشق بالاستنكار كماقابلوا خبر صدور الامر بالتدخل العسكري بالهتاف.

وكذلك كان اهتمام الحكومة الاميريكة، حيث كانت المشاورات مستمرة بينها وبين الحكومة البريطانية خلال الازمة الى ان وصلت الى ذروته.

وقد صدرت عن وزراة الخارجية الاميريكة تصريحات تنديدية بموقف فرنسا وما لاختلال الامن في الشرق الاوسط من تأثير في الجهود الحربية في الشرق الاقصى.

ولقد كان اهتمام الصحافة الانكليزية بالغاً منذ اخذت الامور تتأزم، وكانت توجه التنديدات القارصة الى فرنسا لتجاهلها ذهنية العالم الجديدة واصرارها على الاستمرار في ذهنيتها العتيقة؛ كما كانت تطالب الحكومة بالوقوف موقف الحزم واشعار سوريا بصدق ضمان بريطانيا لاستقلالها ووفائها بوعدها.

كذلك اهتمت الحكومة السوفيتية اهتماماً كبيراً للموقف وارسلت الى الحكومات الاربع الكبرى انكلترا واميركا وفرنسا والصين مذكرات لفتت نظرها الى ما كان من عدوان القوى الافرنسية على المدن السورية وسكانها بالمدافع والطائرات والجنود واستنكرته اشد الاستنكار وطلبت العمل المشترك في ايقافه، وحملت محطات الاذاعة الروسية عليه حملات شديدة.

ولقد كانت وفود الامم تعقد اجتماعاتها في سان فرنسيسكو من اجل توطيد نظام هيئة الامم وميثاقها، فاستغل العرب الذين كانوا قد جمعوا شملهم في تشكيلة الجامعة العربية هذه الاجتماعات، واثاروا القضية واذاعوا اخبار

العدوان الباغي، فكان لذلك رد فعل استنكاري شديدفي مختلف اوساط العالم السياسية والصحافية، ولاسيما ان سوريا كانت قد انضمت الى صفوف هذه الامم وكان مندوبيها في سان فرنسيسكو يشتركون مع مندوبي الدول الاخرى في وضع نظام العالم الجديد القائم على الحق والحرية، واصبحت بذلك معترفاً باستقلالها وسيادتها واقعياً وطبيعياً ومتخلصة من صفة الانتداب دولياً.

تحملات فرنسا وحنقها :

وطبيعي ان تدخل الانكليز على الوجه الذي تدخلوا به ووقوف اميركا الى جانبهم والضجة التي اثارتها صحافتهم قد احدث استياءً شديداً في نفس ديغول والاوساط العسكرية والاستعمارية الافرنسية؛ واذ لم يكن في امكانهم ان يمنعوا التدخل الانكليزي بالقوة فقد رضخوا له؛ ولكنهم اخذوا يقابلون الهجوم بهجوم معاكس، فيعزون صراحة حيناً وتلميحاً حيناً اخر ما كان من الانكليز الى ما يبيتونه من نية باخراج فرنسا من سوريا والحلول محلها بالرغم عن تضاهرهم، كما اخذوا يبدون دهشتهم من مناصرة الانكليز لموقف سوريا المتعنت وتاليبهم عليهم العالم بينما لم تكن المطالب الافرنسية الا مثل ما يتمتعمون به انفسهم في مصر والعراق والاردن. واخذوا في ذات الوقت يذيعون ان ما كان في سوريا انما هو من عناصر شغب لا تمثل الشعب وان ما يطلبونه لا يتعارض مع استقلال سوريا وسيادتها وانه نتيجة لما كانت تحمله من التزمات دولية لم تلقها عنها بعد الى آخر الاسطوانة السمجة التي اعتادوها دون مبالاة بما تنطوي عليه من حمق وقحة وتناقض.

تضامن البلاد العربية في الحادث :

ولقد كان للبغي الواقع فعل شديد في البلاد العربية فاضربت فلسطين والاردن والعراق تضامناً مع سوريا، وحملت صحافتها حملات شعواء على فرنسا وطالبت الحكومات العربية بقطع علاقاتها بها واعلان المقاطعة الاقتصادية عليها، وقدمت الحكومات احتجاجاتها الشديدة وقامت باتصالات سياسية متنوعة بسبيل ذلك، وتناولت البرلمانات الغربية المسألة منددة محتجة؛ وانعقد بعد ايام قليلة مجلس الجامعة العربية فكان موضوع سوريا وكارثتها موضوعاً رئيسياً فيه وقد ارسل الملك فاروق رسالة قوية تليت في الاجتماع جاء فيها ما جاء :" لقد اصيبت مدن سوريا العزيزة في الحوادث الاخيرة اصابة مفجعة احزنتني واحزنت شعبي، ويعزيني فيها انني اعلم ان النضال عن الحق شرف ولذة. فلنعمل لاستقلال سوريا ولبنان وسيادتهما الكاملتين ولنعمل لاستقرار الامن والسلام فيهما ، وليكن لجامعة الدول العربية الذي نوده لها و تريده الامة العربية كلها.فان في قوة الجامعة قوة لجميع اعضائها". وقد شرح سعد الله الجابري ادوار المواقف وتطوراتها ومطامع فرنسا وتمحلاتها ثم صفحات بغيها اللئيم ووحشيتها فيه، ومن جملة ما ذكره ان ممثلي اميركا وانكلترا اندهشا مما قاله لهما من مطالب فرنسا الثقافية والاقتصادية والعسكرية ولم يصدقا ذلك الا بعد ان قرأ المذكرة الافرنسية، وان ممثل اميركا قال له ان الاذاعة الافرنسية كانت تذيع والعدوان في شدته ان القوى الافرنسية لن تكف حتى ترضخ الحكومة السورية للمطالب وتوقع على الاتفاقيات المعروضة. وقد خطب رؤساء الوفود خطباً قوية واستنكروا فيها عدوان فرنسا واعلنوا تضامنهم مع سوريا الى النهاية، ثم قرر المجلس تأييد سوريا ولبنان في طلب الجلاء العاجل لجميع القوات الافرنسية

من اراضي الجمهوريتين وتحميل القوات الافرنسية تبعة الخسائر والضحايا التي اوقعتها في سورية واعتبارها في موقف المعتدي وبذل الجهود المشتركة في سبيل تحقيق الجلاء العاجل.



الملك فاروق

الجامعة العربية

كان العرب في عهد السلطنة العثمانية لا يفرقون بين قطر وآخر من أقطارهم، ولم يكن أحد منهم يقول أنه عراقي أو سوري أو فلسطيني، بل إن اسم العراق لم يكن معروفاً عند عامة الشعب وكذلك اسم فلسطين، وكان اسم سوريا يطلق على ولاية دمشق، وكانت القدس متصرفية تابعة لولاية بيروت. فلما قضت نتائج الحرب العالمية الأولى بتقسيم هذه البلاد بين دولتين عظيمتين قويتين، اضطر سكان كل قطر منها إلى العمل على استرداد حريته واستقلاله من الدولة التي انتزعتها منه، متعاونا في ذلك مع الأقطار الأخرى جهد الطاقة، بتأثير روح الوحدة التي كانت تسود الجميع، فحملت سوريا على الانتصار للعراق في أثناء ثورته، وأهابت بالعراق إلى تأييد سوريا في جميع ثوراتها، ودفعت بالعرب في جميع أقطارهم إلى الوقوف صفا واحدا وراء فلسطين وبذل جميع التضحيات اللازمة لإنقاذها. وكان مفكرو العرب في خلال ذلك، يزدادون كل يوم شعورا بأن الجهود التي يبذلها كل قطر من أقطارهم على حدة لا تكفي، مهما تلقى من تأييد الأقطار الأخرى، لإظهارهم بمظهر القوة المطلوبة لاسترداد حقوقهم المهضومة، وإسماع العالم كلمتهم الحقة، وبأن شر ما يخشاه المستعمرون الحريصون على دوام الاستعمار في الشرق العربي هو تآزر العرب وتعاونهم على نيل حقوقهم ودفع الأجنبي المغتصب عن بلادهم.

وجعل العرب يبحثون عن وسيلة تكفل التعاون فيما بينهم، وتوحد قواهم في المطالبة بحقوقهم.

وقد بذلت محاولات كثيرة في هذا السبيل ابتدأت رسمياً باجتماع الملك عبدالعزيز بالمغفور له الملك فيصل في ٢٢ و ٢٣ فبراير سنة ١٩٣٠ على بارجة في خليج البصرة.

وكان هذا الاجتماع خير ممهد للحوادث الخطيرة التى وقعت في السنوات الأخيرة.

ففي ١٧ ابريل سنة ١٩٣١ عقدت في مكة معاهدة صداقة بين المملكة العربية السعودية والعراق جاء في مقدّمتها ما يأتي:

"وبناء على رغبة جلالتهما في بذل ما يستطاع لجمع شمل الأمة العربية وتوحيد كلمتها".

وعقدت في صنعاء يوم ١١ مايو سنة ١٩٣١ معاهدة صداقة بين العراق واليمن جاء في مقدّمتها "تمهيداً لتوحيد كلمة الأمة العربية" .

ثم عقدت معاهدة الحلف العربي بين العراق والمملكة العربية السعودية واليمن على أساس "الأخوة العربية" وترك باب الدخول في هذا الحلف مفتوحا لمن يرغب في ذلك من الدول العربية المستقلة أو التي ستستقل فيما بعد.

وتوالت المؤتمرات العربية بعد ذلك بدافع الرغبة في توحيد كلمة العرب، فعقد مؤتمر بلودان الشعبي من أجل فلسطين في ٨ سبتمبر سنة ١٩٣٧، وعقد المؤتمر البرلماني العربي للغاية نفسها في القاهرة في ٧ أكتوبر سنة ١٩٣٨، واجتمع ممثلو جميع الدول العربية المستقلة في مؤتمر لندن لبحث قضية فلسطين في ٨ فبراير سنة ١٩٣٩.

ثم جاءت الحرب فأوقفت هذا النشاط، في الظاهر، بتأثير ضغط الحوادث ولكن الفكرة ظلت تنمو وتقوى على نسبة اشتداد الحاجة الى ظهور العرب بمظهر القوة تجاه احتمالات الحرب وتطوراتها المفاجئة.

فلما كان صيف سنة ١٩٤٣ بدأت الاتصالات بين رؤساء حكومات الدول العربية المستقلة للتشاور في أنجح الوسائل لابراز تلك الفكرة الى حيز الوجود، فاجتمعت كلمتهم على انشاء جامعة تضم الدول العربية المستقلة، وتهدف الى توثيق الصلات بينها، وتنسيق خططها السياسية تحقيقاً لتعاونها وتآزرها، وصيانة لاستقلالها وسيادتها والنظر بصفة عامة في جميع شؤونها ومصالحها.

وبدأ العمل الجدي في هذا الاتجاه سنة ١٩٤٤، فبعد مباحثات تمهيدية بين زعماء العرب في مختلف أقطارهم، دعا رئيس الحكومة المصرية كلا من الحكومات العربية على حدة لمباحثته في خير الوسائل المؤدية إلى هذه النتيجة، وتلا هذه المباحثات الفردية اجتماع اللجنة التحضيرية في الاسكندرية في ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٤٤. وقد عقدت هذه اللجنة ثماني جلسات انتهت بتوقيع البروتوكول المعروف باسم بروتوكول الاسكندرية في ٧ أكتوبر سنة ١٩٤٤.

وفي شهر مارس سنة ١٩٤٥ استأنفت اللجنة اجتماعها في القاهرة فأعادت النظر في هذا البروتوكول وعدلت بعض مواده، ثم تحولت إلى مجلس جامعة وأقرته في ٢٢ مارس سنة ١٩٤٥ وهو يوم إنشاء جامعة الدول العربية.

الميثاق :

وفي اليوم الثاني والعشرين من شهر مارس سنة ١٩٤٥ عقد ميثاق

الجامعة بين سبع من الدول المستقلة هي المملكة الأردنية الهاشمية والجمهورية السورية والمملكة العراقية والمملكة العربية السعودية والجمهورية اللبنانية والمملكة المصرية والمملكة اليمنية.

وبعد التصديق عليه دخل في دور التنفيذ في الحادي عشر من شهر مايو سنة ١٩٤٥ وهذا نصه:

حضرة صاحب الجلالة ملك العراق:

قد أناب عن العراق:

حضرة صاحب المعالي السيد أرشد العمري، وزير الخارجية.

حضرة صاحب الفخامة السيد على جودة الأيوبي، وزير العراق المفوض بواشنطن.

حضرة صاحب المعالي السيد تحسين العسكري، وزير العراق المفوض بالقاهرة.

حضرة صاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية:

قد أناب عن المملكة العربية السعودية:

سعادة الشيخ يوسف ياسين، نائب وزير خارجية المملكة العربية السعودية.

سعادة السيد خير الدين الزركلي، مستشار مفوضية المملكة العربية السعودية بالقاهرة.

حضرة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية اللبنانية:

قد أناب عن لبنان:

حضرة صاحب الدولة السيد عبدالحميد كرامي، رئيس الوزراء.

سعادة السيد يوسف سالم، وزير لبنان المفوض بالقاهرة.

حضرة صاحب الجلالة ملك مصر:

قد أناب عن مصر:

حضرة صاحب الدولة محمود فهمي النقراشي باشا، رئيس مجلس الوزراء.

حضرة صاحب السعادة محمد حسين هيكل باشا، رئيس مجلس الشيوخ.

حضرة صاحب المعالي عبدالحميد بدوي باشا، وزير الخارجية.

حضرة صاحب المعالي مكرم عبيد باشا، وزير المالية.

حضرة صاحب المعالي محمد حافظ رمضان باشا، وزير العدل.

حضرة صاحب المعالي عبدالرزاق أحمد السنهوري بك، وزير المعارف العمومية.

حضرة صاحب العزة عبدالرحمن عزام بك، الوزير المفوّض بوزارة الخارجية.

حضرة صاحب الجلالة ملك اليمن.

قد أناب عن اليمن:

الذين بعد تبادل وثائق تفويضهم التي تخولهم السلطة كاملة والتي وجدت صحيحة ومستوفاة الشكل، قد اتفقوا على ما يأتي:

مادة ١ ـ تتألف جامعة الدول العربية من الدول المستقلة الموقعة على هذا الميثاق.

ولكل دولة عربية مستقلة الحق في أي تنضم الى الجامعة، فاذا رغبت في الانضمام قدمت طلبا بذلك يودع لدى الأمانة العامة الدائمة ويعرض على المجلس في أول اجتماع يعقد بعد تقديم الطلب.

مادة ٢ ـ الغرض من الجامعة توثيق الصلات بين الدول المشتركة فيها وتنسيق خططها السياسية تحقيقاً للتعاون بينها، وصيانة لاستقلالها وسيادتها، والنظر بصفة عامة في شؤون البلاد العربية ومصالحها.

كذلك من أغراضها تعاون الدول المشتركة فيها تعاونا وثيقا بحسب نظم كل دولة منها وأحوالها في الشؤون الآتية:

(أ) الشؤون الاقتصادية والمالية ويدخل في ذلك التبادل التجاري والجمارك والعملة وأمور الزراعة والصناعة.

(ب) شؤون المواصلات ويدخل في ذلك السكك الحديدية والطرق والطيران والملاحة والبرق والبريد.

(ج) شؤون الثقافة.

(د) شؤون الجنسية والجوازات والتأشيرات وتنفيذ الأحكام وتسليم المجرمين.

(هـ) الشؤون الاجتماعية.

(و) الشؤون الصحية.

مادة ٣ ـ يكون للجامعة مجلس يتألف من ممثلي الدول المشتركة في الجامعة، ويكون لكل منها صوت واحد مهما يكن عدد ممثليها.

ويكون مهمته القيام على تحقيق أغراض الجامعة ومراعاة تنفيذ ما تبرمه الدول المشتركة فيها من اتفاقات في الشؤون المشار إليها في المادة السابقة وفي غيرها.

ويدخل في مهمة المجلس كذلك تقرير وسائل التعاون مع الهيئات الدولية التي قد تنشأ في المستقبل لكفالة الأمن والسلام ولتنظيم العلاقات الاقتصادية والاجتماعية.

مادة ٤ ـ تؤلف لكل من الشؤون المبينة في المادة الثانية لجنة خاصة تمثل فيها الدول المشتركة في الجامعة وتتولى هذه اللجان وضع قواعد التعاون ومداه وصياغتها في شكل مشروعات اتفاقات تعرض على المجلس للنظر فيها تمهيدا لعرضها على الدول المذكورة.

ويجوز أن يشترك في اللجان المتقدم ذكرها أعضاء يمثلون البلاد العربية

الأخرى ويحدد المجلس الأحوال التي يجوز فيها اشتراك أولئك الممثلين وقواعد التمثيل.

مادة ٥ ـ لا يجوز الالتجاء إلى القوة لفض المنازعات بين دولتين أو أكثر من دولة الجامعة، فاذا نشأ بينها خلاف لا يتعلق باستقلال الدولة أو سيادتها أو سلامة أراضيها ولجأ المتنازعون الى المجلس لفض هذا الخلاف كان قراره عندئذ نافذا وملزما. وفي هذه الحالة لايكون للدول التى وقع بينها الخلاف حق الاشتراك في مداولات المجلس وقراراته.

ويتوسط المجلس في الخلاف الذى يخشى منه وقوع حرب بين دولة من دول الجامعة وبين أية دولة أخرى من دول الجامعة أو غيرها للتوفيق بينهما.

وتصدر قرارات التحكيم والقرارات الخاصة بالتوسط بأغلبية الآراء.

مادة ٦ ـ إذا وقع اعتداء من دولة على أعضاء الجامعة أو خشي وقوعه فللدولة المعتدى عليها أو المهددة بالاعتداء أن تطلب دعوة المجلس للانعقاد فورا.

ويقرر المجلس التدابير اللازمة لدفع هذا الاعتداء ويصدر القرار بالاجماع فاذا كان الاعتداء من إحدى دول الجامعة.لايدخل في حساب الاجماع رأي الدولة المعتدية.

وإذا وقع الاعتداء بحيث يجعل حكومة الدولة المعتدى عليها عاجزة عن الاتصال بالمجلس فلممثل تلك الدولة فيه أن يطلب انعقاده للغاية المبينة في الفقرة السابقة، وإذا تعذر على الممثل الاتصال بمجلس الجامعة حق لأية دولة من أعضائها أن تطلب انعقاده.

مادة ٧ ـ ما يقرره المجلس بالاجماع يكون ملزما لجميع الدول المشتركة في الجامعة، وما يقرره المجلس بالأكثرية يكون ملزما لمن يقبله.

وفي الحالتين تنفذ قرارات المجلس في كل دولة وفقا لنظمها الأساسية.

مادة ٨ ـ تحترم كل دولة من الدول المشتركة في الجامعة نظام الحكم القائم في دول الجامعة الأخرى. وتعتبره حقا من حقوق تلك الدول وتتعهد بأن لا تقوم بعمل يرمي الى تغيير ذلك النظام فيها.

مادة ٩ ـ لدول الجامعة العربية الراغبة فيما بينها في تعاون أوثق وروابط أقوى مما نص عليه هذا الميثاق أن تعقد بينها من الاتفاقات ما تشاء لتحقيق هذه الأغراض.

والمعاهدات والاتفاقيات التى سبق أن عقدتها أو تعقدها فيما بعد دولة من دول الجامعة مع أية دولة أخرى لا تلزم ولا تقيد الأعضاء الآخرين.

مادة ١٠ ـ تكون القاهرة المقر الدائم لجامعة الدول العربية؛ ولمجلس الجامعة أن يجتمع في اي مكان آخر بعينه.

مادة ١١ ـ ينعقد مجلس الجامعة انعقادا عاديا مرتين في العام في كل من شهري مارس وأكتوبر، وينعقد بصفة غير عادية كلما دعت الحاجة إلى ذلك بناء على طلب دولتين من دول الجامعة.

مادة ١٢ ـ يكون للجامعة أمانة عامة دائمة تتألف من أمين عام وأمناء مساعدين وعدد كاف من الموظفين.

ويعين مجلس الجامعة بأكثرية ثلثي دول الجامعة الأمين العام، ويعين الأمين العام بموافقة المجلس الأمناء المساعدين والموظفين الرئيسيين في الجامعة، ويضع مجلس الجامعة نظاما داخليا لأعمال الأمانة العامة وشؤون الموظفين.

ويكون الأمين العام في درجة سفير والأمناء المساعدون في درجة وزراء مفوّضين.

ويعين في ملحق لهذا الميثاق أول أمين عام للجامعة.

مادة ١٣ - يعد الأمين العام مشروع ميزانية الجامعة ويعرضه على المجلس للموافقة عليه قبل بدء كل سنة مالية.

ويحدد المجلس نصيب كل دولة من دول الجامعة في النفقات ويجوز أن يعيد النظر فيه عند الاقتضاء.

مادة ١٤ - يتمتع أعضاء مجلس الجامعة وأعضاء لجانها وموظفوها الذين ينص عليهم في النظام الداخلي بالامتيازات وبالحصانة الدبلوماسية أثناء قيامهم بعملهم.

وتكون مصونة حرمة المباني التي تشغلها هيئات الجامعة.

مادة ١٥ - ينعقد المجلس للمرة الأولى بدعوة من رئيس الحكومة المصرية وبعد ذلك بدعوة من الأمين العام.

ويتناوب ممثلو دول الجامعة رياسة المجلس في كل انعقاد عادي.

مادة ١٦ - فيما عدا الأحوال المنصوص عليها في هذا الميثاق يكتفي بأغلبية الآراء لاتخاذ المجلس قرارات نافذة في الشؤون الآتية:

(أ) شؤون الموظفين.

(ب) اقرار ميزانية الجامعة.

(ج) وضع نظام داخلي لكل من المجلس واللجان والأمانة العامة.

(د) تقرير فض أدوار الاجتماع.

مادة ١٧ - تودع الدول المشتركة في الجامعة الأمانة العامة نسخامن جميع المعاهدات والاتفاقات التي عقدتها أو تعقدها مع أية دولة أخرى من دول الجامعة أو غيرها.

مادة ١٨ - إذا رأت إحدى دول الجامعة أن تنسحب منها أبلغت المجلس عزمها على الانسحاب قبل تنفيذه بسنة.

ولمجلس الجامعة أن يعتبر أية دولة لا تقوم بواجبات هذا الميثاق منفصلة عن الجامعة وذلك بقرار يصدره بإجماع الدول ما عدا الدولة المشار إليها.

مادة ١٩ — يجوز بموافقة ثلثي دول الجامعة تعديل هذا الميثاق وعلى الخصوص لجعل الروابط بينها أمتن وأوثق ولإنشاء محكمة عدل عربية ولتنظيم صلات الجامعة بالهيئات الدولية التي قد تنشأ في المستقبل لكفالة الأمن والسلام.

ولا يبت في التعديل إلا في دور الانعقاد التالي للدور الذي يقدم فيه الطلب.

وللدولة التي لا تقبل التعدبل أن تنسحب عند تنفيذه دون التقيد بأحكام المادة السابقة.

مادة ٢٠ - يصدّق على هذا الميثاق وملاحقه وفقا للنظم الأساسية المرعية في كل من الدول المتعاقدة.

وتودع وثائق التصديق لدى الأمانة العامة ويصبح الميثاق نافذاً من قبل من صدق عليه بعد انقضاء خمسة عشر يوماً من تاريخ استلام الأمين العام وثائق التصديق من أربع دول.

حرر هذا الميثاق باللغة العربية في القاهرة بتاريخ ٨ ربيع الثاني سنة ١٣٦٤ (٢٢ مارس سنة ١٩٤٥) من نسخة واحدة تحفظ في الأمانة العامة.

(وتسلم صورة منها مطابقة للأصل لكل دولة من بلاد الجامعة).

جمهورية لبنان :

منذ وصول العرب المسلمين في القرن السابع الميلادي خضعت البقاع لسيادة الدولة العربية الكبرى، ولكن ظل نفر من المسيحيين المارونيين ــ الذين كانوا قد هاجروا إلى جبل لبنان من أنطاكية لأسباب سياسية بين القرنين السادس والثامن - محتمين بهذا الجبل متمتعين بشبه استقلال، وبعد وصول الصليبيين انتعش النفوذ المسيحي في لبنان وقسم إلى إمارات مسيحية صغيرة فكانت إمارات طرابلس وباروت (بيروت) وصيدا والجليل وصور وعكا تتقاسم الأراضي اللبنانية، وكانت إمارات طرابلس وبيروت وصيدا وصور تضم جاليات من تجار فينيسيا وجنوا ومارسيليا، ولكن النفوذ الثقافي العربي ظل مسيطراً على لبنان، إذ أن الأساتذة الكلدانيين والسوريين كانوا يلقون دروسهم في جامعة طرابلس التي كانت مركزاً هاماً، وهذه الجامعة قد ساهمت في تعريف الغربيين بارستطاليس.

وفي عام ١٥١٦ ضم لبنان مع سورية إلى الإمبراطورية العثمانية.

وفي عام ١٦٠٣ ثار الأمير فخر الدين الدرزي على العثمانيين وهو ينتسب إلى أسرة معن، وكان قد حل محل أبيه كأمير على منطقة «الشوف»، وتابع غزوته حتى ضم حدود لبنان الطبيعية التي كانت تحكمها أسرته خلال القرن السادس عشر، وحوالي عام ١٦٢٤ حصل فخر الدين على إذن الباب العالي بأن يلقب سلطاناً.ولما ضعفت سطوة أسرة «معن» اجتمع أعيان لبنان وانتخبوا بشير الأول من أسرة شهاب أميراً على الجبل عام ١٦٩٧، وأبرز من حكم لبنان من هذه الأسرة هو بشير الثاني المعروف باسم الشهابي الذي تولى الامارة بين عامي ١٧٨٩، ١٨٤٠(١)

وقد ساعد بشير الشهابي الجيش المصري في حصاره لعكا وأثمرت هذه

---

(١) تقرر دائرة المعارف الإسلامية ـ المجلد ٣ ص ٦٦٥، ٦٦٦ أن «الأسرة الشهابية» قرشية أباً وأماً وكان منهم ولاة حوران إلى عهد نور الدين ثم رحلوا عن وطنهم القديم واستقروا بسفح جبل هرمون بزعامة الأمير منقذ واتخذوا حاصبياً مقراً لهم... وأن قاسما والد بشير الشهابي الثاني قد تنصر فلما تولى بشير اعتمد على الموارنة بنوع خاص واستطاع أن يوطد سلطانه بعد جلاء الفرنسيين عن الشام... ونازعه أبناء عمه على الامارة فلم ـ يجد بداً من الالتجاء إلى مصر حيث استمال واليها محمداً علي ولما عاد إلى الشام قتل ابني عمه عام ١٨٠٧ ونقل حاضرته إلى بيت الدين وابتنى فيها قصراً فخماً...... غير أنه اضطر في هذه المدة إلى الذهاب إلى مصر وأناب عنه في حكم الإمارة أخاه عباساً واستطاع محمد علي أن يحمل الباب العالي على مناصرة بشير فتمكن بهذا من العودة إلى الشام وهناك خلع أخوته وأحلافه القدماء من أسرة جنبلاط القوية الذين انتهزوا فرصة غيابه واستولوا على الحكم في لبنان».

المساعدة سقوط المدينة في أيدي المصريين عام ١٨٣٢، وظلل الحلف بين بشير الشهابي ومصر مستمراً بعد ذلك وساعد بشيراً على استقرار الأمن في لبنان بعد ضمها إلى مصر فاستعان بالدروز على حمل الموارنة على تسليم سلاحهم، ثم استعان بالجيوش المصرية في تجريد الدروز من هذا السلاح، وارتبط مصير بشير الشهابي بوجود المصريين في لبنان فلم يكد المصريون ينسحبون حتى اضطر أن يغادر لبنان في ١٢ من أكتوبر عام ١٨٤٠.

وفي عام ١٨٤٢ حصل الباب العالي على موافقة الدول الأوروبية على ضم لبنان رأساً إلى الإمبراطورية العثمانية، وعمد الباب العالي بعد ذلك إلى تقسيم لبنان إلى «قائم مقاميتين» إحداهما فرض فيها أنها درزية والأخرى مارونية.

وفي ٣١ من أغسطس عام ١٨٦٠ ـ عقب المذابح المارونية ـ اجتمع ممثلو الدول الأوروبية في باريس واتفقوا على إرسال حملة لمساعدة الباب العالي على إقرار الأمن في لبنان، وطبقاً للاتفاق الذي وقعته هذه الدول بباريس في ٥ من سبتمبر عام ١٨٦٠ نزلت القوات الفرنسية في لبنان ثم غادرته في ٨ من يونيو سنة ١٨٦١.

وفي اليوم التالي ـ أو في ٩ من يونيو سنة ١٨٦١ ـ وقع في الآستانة ممثلو تركيا من جانب النمسا وفرنسا وبريطانيا العظمى وبروسيا من جانب آخر اتفاقاً قضى بأن يعهد بحكم لبنان إلى مسيحي غير لبناني يقترحه الباب العالي، وتوافق عليه الدول الأخرى، وقد استبعدت من حدود لبنان وادي حايم والبقاع وصيدا وبيروت.

وقد سبق أن أشرنا إلى أن المطامع الفرنسية الاستعمارية لم تكن تنظر بعين الرضى إلى الوعي العربي إلى ما تطور إليه هذا الوعي من مطالبة بتحرر العرب من كل رقابة أجنبية وميل إلى التكتل، وكان يبدو واضحاً أن فرنسا كانت تقاوم هذا الوعي وهي تذكردائماً ملايين العرب أهالي الأقطار العربية في شمال أفريقيا التي فرضت عليها سيادتها قهراً.

وفي ٢٥ من أبريل عام ١٩٢٠، بعد انقضاء نحو شهر على قرار المؤتمر السوري العام الذي صدر في ٧ من مارس والذي أعلن إنشاء دولة سورية الكبرى التي كانت تضم بمقتضى ذلك الإعلان لبنان وفلسطين والمناداة بفيصل ملكاً، منح مؤتمر سان ريمو لفرنسا سلطات الانتداب على سورية ولبنان.

وفي ٣ من يوليو من نفس العام أرسل الجنرال «غورو» إلى فيصل إنذاراً طلب منه فيه وقف الحملة على فرنسا ورفع العقبات التي كان العرب يضعونها في سبيل التجارة الفرنسية وقبول الانتداب الفرنسي على كل الدولة، وبينما كان فيصل يحاول التفاوض نشبت المعارك بين قواته وبين الفرنسيين الذين احتلوا دمشق وأخرجوه منها.

وهنا يلاحظ بعض المؤرخين الأوروبيين المحدثين أن فرنسا قد ظنت أن سندها الوحيد هم المارونيون في لبنان، وأن الطوائف المسيحية الأخرى كانت تقف على الحياد، وأن المسلمين كانوا يكرهون الفرنسيين من صميم قلوبهم، ولذلك قرر الفرنسيون تيسيراً لمهمتهم أن يتبعوا سياسة فرق تسد باستغلال الخلافات الدينية وتوسيع شقة تلك الخلافات التي كانت سورية تشكو منها أكثر من أي قطر آخر من أقطار الشرق الأوسط، فالعرب المسلمون السنيون

يكونون ثلاثة وخمسين في المائة فقط من مجموع سكان سورية ولبنان مجتمعين، وبعض الأقليات تكون مجموعات جغرافية متماسكة ففي جبل لبنان ثلاثمائة وأربعون ألفاً من المارونيين وفي جبل النصيرية ثلاثمائة وخمسة وعشرون ألفاً من العلويين(١) يسكنون النصف الشمالي من الشاطىء، وفي جبل الدروز وفي لبنان مائة وستون ألفاً من الدروز، وفي شمالي شرق الجزيرة مائة ألف من الأكراد، وقد شجعت تلك السياسة الاستعمارية الاتجاهات الانفصالية لهذه الأقليات مستغلة سابق اضطهادها من السنيين أثناء الحكم العثماني.

وفي أول سبتمبر عام ١٩٢٠ اتسعت مساحة سنجق لبنان إلى ثلاثة أمثال مساحته الأصلية بإعلان دولة لبنان الكبرى التي ضمت مدن بيروت وطرابلس وصيدا، وضم إليها أيضاً جنوب لبنان إلى حدود فلسطين الذي يغلب فيه السكان الشيعة، كما ضمت إليه البقاع ذات الأراضي الخصبة التي يسكنها خليط من المسلمين والمسيحيين الأرثوذكس، وفي حدود لبنان ـ بعد أن اتسعت مساحته إلى هذا الحد ـ لم تعد للمارونيين أغلبية عددية كأغلبيتهم السابقة في سنجق لبنان بحدوده القديمة، بل إن المسيحيين اللبنانيين بجميع طوائفهم الدينية لا يكونون إلا أغلبية مشكوكاً فيها، وربما كان هذا الإضعاف لمركز المسيحيين مقصوداً لمحاولة جعلهم أكثر اعتماداً على حماية فرنسا وأقل ميلاد لمتابعة الوعي العربي.

وفي ٢٣ من ديسمبر وقع اتفاق «ليج ــ هاردنج» بين بريطانيا وفرنسا الذي عين الحدود بين سورية ولبنان من جهة والعراق وفلسطين من جهة أخرى.

---

(١) تقرر دائرة المعارف الإسلامية في مادة «نصيري» أن دين العلويين مزيج من مذهب الشيعة الإسلامي وبعض العقائد المسيحية في أدوارها الأولى وبعض عناصر من الوثنية.

ونشطت فرنسا في نشر اللغة الفرنسية إلى حد أنه قيل إن الأطفال العرب الذين كانوا لا يكادون يقرأون العربية في بعض المناطق كانوا يلقنون أنغام المارسيييز النشيد الوطني الفرنسي، وزيفت كتب تاريخية وضعت خصيصاً لإثبات أن السوريين ليسوا من الجنس العربي.

وفي عام ١٩٢٥ ثار جبل الدروز ضد طغيان الحاكم الفرنسي الذي وصفه أحد المؤرخين الأوروبيين بأنه «كان مستبداً في وسائله، أعمى من الوجهة النفسية في تصرفاته مع الآدميين، إلى حد أن جهوده كان من المحتم أن تنتهي بكارثة.

وانتشرت الثورة في مدن سورية واجترأت فرنسا على أن تقذف قلب مدينة دمشق بقنابل المدافع والطائرات واقترفت إثم قتل أكثر من ألف عربي.

وفي ٢٣ من مايو عام ١٩٢٦ أعلنت الجمهورية اللبنانية.

وفي ٢٣ من يوليو عام ١٩٢٦ صدر الدستور اللبناني الذي نصت المادة الأولى منه على أن «لبنان دولة مستقلة ذات وحدة لا تتجزأ وسيادة تامة أما حدوده فهي التي تحده حالياً:

شمالاً ـ من مصب النهر الكبير على خط يرافق مجرى النهر إلى نقطة اجتماعه بوادي خالد الصاب فيه على علو «جسر القمر».

شرقاً ـ خط القمة الفاصل بين وادي خالد ووادي نهر العاصي ماراً بقرى معيصره وحريعانة وهيت وإبش وفيصان على علو قريتي بريفا ومطربا وهذا الخط تابع حدود قضاء بعلبك الشمالية من الجهة الشمالية الشرقية والجهة الجنوبية الشرقية ثم حدود أقضية بعلبك والبقاع وحاصبيا وراشيا الشرقية.

جنوباً ـ حدود قضائي صور ومرجعيون الجنوبية الحالية.

وغرباً ـ البحر الأبيض المتوسط.

ونصت المادة الرابعة منه على أن:

«لبنان الكبير عاصمته بيروت».

ونصت المادة السادسة منه على أن:

«الجنسية اللبنانية وطريقة اكتسابها وحفظها وفقدانها تحدد بمقتضى القانون».

ونصت المادة ١١ منه على أن:

«اللغة العربية هي اللغة الوطنية الرسمية، أما اللغة الفرنسية فتحدد الأحوال التي تستعمل بها بموجب القانون».

ونصت المادة ١٦ منه على أن:

«تتولى السلطة المشترعة هيئة واحدة هي مجلس النواب»

ونصت المادة ٩٥ منه على أنه:

«بصورة مؤقتة والتماساً للعدل والوفاق تمثل الطوائف بصورة عادلة في الوظائف العامة وبتشكيل الوزارة دون أن يؤول ذلك إلى الإضرار بمصلحة الدولة[١]».

---

(١) مع اي معنى من معاني السيادة، وكانت مواده تهدف إلى تخليد طابع الانتداب، وكان ينص فيما ينص عليه على اعتبار اللغة الفرنسية لغة رسمية ثابتة ... وكانت ألوان العلم اللبناني هي ألوان العلم الفرنسي وفي وسطه شجرة الأرز كرمز للبنان.

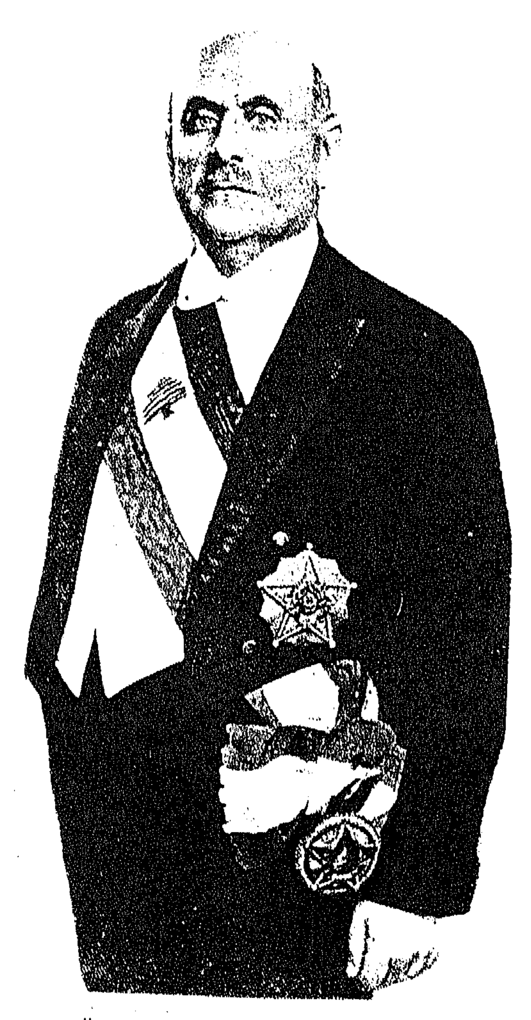
وفي عام ١٩٤٣، بعد إعلان استقلال لبنان وتولى بشارة الخوري رئاسة الجمهورية ورياض الصلح رئاسة الوزارة، أعلن الأخير بمجلس النواب اللبناني في ١٧ من سبتمبر ١٩٤٣ اعتزامه تعديل الدستور وحذف المواد التي تتعارض مع ذلك الاستقلال كما أعلن في ذلك البيان التاريخي: «أن لبنان عربي يمت إلى العروبة بأوثق المظاهر والصفات، وأنه يجب أن يتعاون مع البلاد العربية الأخرى على أساس هذا الاعتبار، وأن هذه البلاد تريد ألا يكون لبنان مقراً للاستعمار ولا ممراً له، وأنه سيحقق هذه الرغبة فيوطد للبنان عزته وكرامته، ونادى بوجوب استعمال اللغة العربية، وحدها دون غيرها في وزارات الدولة ومصالحها، وقد أثار هذا البيان ثائرة المستعمرين الفرنسيين، فزعم المندوب السامي الفرنسي «هللو» أن الدستور اللبناني، الذي حصل رياض الصلح على إجماع البرلمان اللبناني على تعديله وفق الاتجاه التحرري العربي، عقد بين فرنسا ولبنان لا يجوز لأحدهما أن يستأثر بتعديله، وصمم رئيس الوزارة على السير في التعديل قدما، وركبت سلطات الانتداب الفرنسية رأسها، فاعتقلتهما مع بعض الوزراء في نوفمبر من ذلك العام، وعطلت البرلمان، وانفردت بإعلان إلغاء التعديلات الدستورية، وعينت إميل أده، وهو الذي انفرد وحده بمعارضة قرار البرلمان بتأييد الحكومة، رئيساً للجمهورية، ولم يتهيب اللبنانيون ذلك العسف، فاجتمع قادتهم في جبل لبنان، الذي اتخذوه مقراً للحكم، وأعلنوا تأليف حكومة وطنية، ولما عرض هذا الموضوع على مجلس الأمن ـ وكان لبنان قد قبل عضواً بالأمم المتحدة في ٢٤ من أكتوبر ١٩٥٤ ـ أصدر قراره بوجوب جلاء القوات المحتلة وهو الجلاء الذي تم في آخر عام ١٩٤٦.



رياض الصلح



الرئيس أميل اده



أول صورة رسمية لأول رئيس استقلالي في لبنان "بشارة الخوري"

موقف لبنان الايجابي وتضامنه مع سوريا :

ولقد حرصت سوريا على ان يكون لبنان بنوع خاص متضامناً معها في الموقف لانه موقف مشترك يتصل بلبنان بمثل ما يتصل بسوريا، ولان فرنسا تطالب لبنان وتقف منه بمثل ما تطالب سوريا وتقف منها من اجله؛ ولاسيما انها تعلم ما لفرنسا في لبنان من انعطاف قوي وان أي استقرار افرنسي فيه

يهدد امنها ومستقبلها. ولقد كان لبنان والحق يقال مستجيباً استجابة تامة حكومة وشعباً؛ وكان اكتوى بنار كارثة باغية قبل مدة قليلة كانت من آثارها اراقة دماء واعتقال رئيس الجمهورية و وزرائه وبعض نوابه، وكان من آثارها ولادة لبنان العربي القومي على ما سوف نذكره لاحقاً؛ فوقفت الحكومة منذ البدء مع سوريا موقف واحداً في رفض المطالب، واضربت بيروت والمدن الرئيسية اياماً عديدة، وعقدت الهيئات الوطنية على مختلف ميولها مؤتمراً قومياً متسقاً مع المنهج الاستقلالي الوطني الجديد الذي انتهجه لبنان، ودعا الى التطوع بسبيل الاستعداد للطوارئ، وفعل مثل هذا المجلس النيابي؛ وحاول انصار فرنسا تخفيف حدة التضامن اللبناني السوري فكان نصيبهم الاخفاق.

الجهود في سبيل خطة الجلاء ونجاحها :

ولقد تكثفت الجهود بعدئذ في سبيل الخطوة الحاسمة وهي الجلاء التام دون التقيد بمعاهدة ومنح مركز ممتاز؛ وكان هذا التصميم سابقاً على البغي فزاده هذا قوة وشدة. وقد سنحت الفرصة الملائمة في اواخر عام ١٩٤٥؛ فقد عقدت الحكومتان الانكليزية والافرنسية اتفاقاً على تنظيم انتقال جيوشهما في سورية ولبنان، رأت فيه الحكومتان اللبنانية والسورية افتئاتاً على استقلالهما وسيادتهما فرصة لاثارة قضية وجود جيوش اجنبية في بلادهما والمطالبة بجلائها عنهما؛ فاحتجتا على الاتفاق من جهة لدى الحكومتين وسارعتا من جهة اخرى الى عرض القضية على مجلس الامن مطالبتين بالجلاء ولم يسع بريطانيا وفرنسا الا ان تصرحا عزمهما على الجلاء، وقالت بريطانيا ان دخول الجيوش البريطانية الافرنسية الى سوريا ولبنان لم يكن القصد منه الا منع الالمان من اتخاذهما قاعدة اولاً وتأمين مواصلات الحرب الى الشرق الاقصى ثانياً. وايدت اميركا مطلب

سوريا ولبنان وقالت ان السياسة التي اقرتها هي جلاء الجيوش الاجنبية عن جميع بلدان الامم المتحدة فور طلبها وابداء رغبتها في ذلك كما ايدت الطلب روسيا والصين ودول اخرى في المجلس. ثم اقترحت اميركا صيغة قرار بنصيحة الدول الاربع أي انكلترا وفرنسا وسوريا ولبنان للاتفاق على الجلاء وتنفيذه في اسرع وقت ممكن، ووافقت اكثرية المجلس الساحقة على القرار غير انه لم يكتسب الصفة القانونية لان روسيا امتنعت عن التصويت بسبب عدم تحديد موعد حاسم للجلاء وتعليقه على مفاوضات. ومع ذلك فان بريطانيا وفرنسا لم يسعهما الا ان يعلنا استعداداً لتنفيذه في اسرع وقت ممكن ما دام ان اكثرية المجلس اقرته ثم تم الاتفاق بينهما على ان يكون جلاء جيوشهما معاً عن سورية في ١٧ نيسان عام ١٩٤٦ المصادف ليوم الاربعاء ١٦ جمادى الاولى ١٣٦٥.

وفي الموعد المذكور تم الجلاء عن اراضي سوريا واقيمت بمناسبة ذلك صباح اليوم التالي حفلة عرض عظمى اشتركت فيها وفود الحكومات العربية وفصائل من جيوشها، وكان عيداً قومياً رائعاً دامت حفلاته المتنوعة اياماً والقى رئيس الجمهورية خطاباً جامعاً على الجماهير عن حلقات الحركة العربية والنضال وعن العهد السوري العربي الجديد كما القيت في بعضها الخطب والقصائد عن الحركة العربية وسيرها، وفاضت فيه دموع الفرح من عيون العرب لهذه النهاية السعيدة بعد كفاح طويل استمر خمسة وعشرين عاماً لم يفتر ولم يهن، وقاست سوريا فيها ما قاست من عظيم المحن، وتحملت ما تحملت من جسيم التضحيات. وكان من تمام فرحة سوريا انها اولى البلاد العربية - في غير جزيرة العرب - التي تمت لها هذه السعادة بعد هذه الحقبة، وتكللت فيها الحركة العربية القومية بالنجاح، واخذ علمها يخفق وحده في سمائها غير مقيدة بأي قيد.

الملف العربي في القرن العشرين

الجزء الرابع

د. سليمان المدني

المنارة

عدن والمحميات

سبق وتحدثنا عن المعاهدات التي عقدتها بريطانيا مع حكام هذه المنطقة العربية ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر إلى الأعوام الأولى من القرن العشرين، ونضيف هنا أن مستعمرة عدن ـ التي ضمت إلى بريطانيا في عام ١٨٣٩ ـ قد عدت خاضعة لحكومة بومباي وظلت كذلك حتى أول إبريل عام ١٩٣٢ عندما انفصلت عنها وعين لها مندوب سام وانتقلت إدارتها من حكومة بومباي إلى حاكم عام الهند.

وقد لاحظ رجال القانون البريطانيون بالنسبة لطبيعة وضع بريطانيا في عدن أنه بعد أن قذفت هذه الأرض العربية بالقنابل واضطر سلطانها إلى الهرب عقد هذا السلطان معاهدة «سلام وصداقة» مع الحكومة البريطانية في مقابل إعانة سنوية لها مقدارها ستة آلاف وخمسمائة دولار، وبعض إعانات لرؤساء القبائل الأخرى، ولذلك فإن «سند بقاء البريطانيين في عدن هو الفتح فحسب، ولو أن بعض الأراضي قد ضمت إلى المستعمرة عن طريق الشراء».

وفي أول إبريل عام ١٩٣٧ أصبحت عدن مستعمرة من مستعمرات التاج البريطاني وانقضت إدارة حكومة الهند لها.

وقد عين بناء على الأمر الصادر من حاكم المستعمرة في عام ١٩٣٧ «مجلس تنفيذي استشاري» مكون من موظفين حكوميين، كما أعلن عام ١٩٤٤ إنشاء مجلس تشريعي مكون من ستة عشر عضواً يعينهم جميعاً الحاكم العام البريطاني.

واشترطت موافقة هذا المجلس على كل تشريع، وأعطى لأعضائه حق اقتراح القوانين ما عدا قوانين الضرائب والقوانين التي قد تحد من النفوذ البريطاني، وقد تم إنشاء هذا المجلس التشريعي في عام ١٩٤٧، أما الاتفاقات التي عقدت مع «محميات عدن» فهي لا تعد على وجه العموم من الالتزامات الدولية بمعناها القانوني المعروف «فهي تعد دوليا متخذة بشكل حمايات، ولكنها في القانون الدولي لا تعد معاهدات ولا اتفاقات، فإذا خطر للتاج البريطاني أن يتجاهلها أو يخالفها فليس هناك جزاء دولي على ذلك، كما أنه لا يمكن اتخاذ إجراء بسبب ذلك ضد التاج طبقاً لدستور الإمبراطورية».

كما لاحظ آخر أن هذه الاتفاقيات «لا تعد ملزمة دولياً لبريطانيا، فلها أن تغفلها أو تلغيها من جانب واحد مستندة إلى قوة الإمبراطورية، وتفسير هذه الاتفاقيات يختلف دائماً باختلاف الأنظمة التي تستند إليها، والتي تتولى الحكومات المحلية إقامتها».

وحاكم مستعمرة عدن هو في نفس الوقت حاكم محميات عدن، ولكن سلطة «المجلس التنفيذي» و «المجلس التشريعي» لا تمتد إلى المحميات التي قسمت إلى قسمين، هما «محميات عدن الغربية» و «محميات عدن الشرقية»، وإذا استثنينا سلطان لحج، فإن حكام المناطق العرب كانوا يمارسون سلطة محدودة على رعاياهم، ومعظم المحميات قد أنشئت فيها حكومات محلية حاول البريطانيون أن يبرزوها للعالم في شكل حكومات غير مباشرة، ولكن لاشك أن هدفهم من ذلك هو إضعاف نفوذ حكامها العرب.

وقد تمكنت بريطانيا من أن تتعاقد مع نحو ثلاثين سلطاناً من سلاطين

ومشايخ هذه المنطقة العرب، وكان أكبر رئيس عربي في هذه المنطقة هو سلطان لحج عبد الكريم الفضل الذي ولد في الحوطة (عاصمة لحج) سنة ١٢٩٨ هـ ونشأ في حجر والده المرحوم السلطان فضل بن علي محسن فجاء له بمؤدبين ومشايخ فقرأ عليهم علوم اللغة العربية والفقه الإسلامي وتعلم الفروسية وركب الخيل حينما بلغ أشده، وشب كما يشب غيره من الأمراء.



السلطان عبد الكريم الفضل سلطان لحج

أما أوصافه ـ فهو نحيل الجسم، طويل، عصبي المزاج، مستطيل الوجه، دقيق الأنف، غائر العينين، تبدو التجاعيد في وجهه لما قاساه من أهوال زمن الحرب ـ وهو عربي صميم مضياف، سخي، حلو الحديث، واسع الإطلاع، صريح، مصلح نهض ببلاده وجعلها في مقدمة بلاد اليمن عمرانا.

وكان له ذوق في الموسيقى، ويحسن عزف بعض الأدوار على البيانو، محب للأدب والعلوم يقرأ الصحف والكتب، ويتابع سير الحركتين الأدبية والسياسية في بلاد العرب وفي بلاد الشرق، فلا يفوته خبر من أخباره.

وكان يرتدي الملابس الإفرنجية ويضع جنبية تحت عباءة بنية وعمامته هندية ملونة. ولباسه يجمع بين الذوقين العربي والإفرنجي. وكذلك مطبخه فهنالك المآكل العربية والإفرنجية، والسلطان متدين يؤدي الصلاة في أوقاتها، ولا يشرب المسكر، ومجلسه في الغالب يضم صفوة الأدباء والفضلاء، وقد اعتاد أن ينام عند الساعة العاشرة مساء وينهض باكراً ويشرف على شؤون بلاده بنفسه.

أسفاره ـ زار الهند للمرة الأولى سنة ١٩٠٥ بصحبة عمه السلطان أحمد بن محسن للاشتراك في حفلة تتويج الملك أدود السابع في دهلي.

ودعي في سنة ١٩١٧ للسفر الى مصر ومقابلة الدوق اون كنوت لمباحثته في شؤون مخلاف يماني كان مشمولاً حينها بالحماية البريطانية في اليمن السفلى (جنوب اليمن) يبلغ عدد سكانه ٩٠ ألفا وهم عرب مسلمون يتدينون على مذهب الامام الشافعي، ويعولون على الزراعة في معايشهم، ومساحته مع مساحة النواحي التسع اليمانية نحو ٢٥٠٠ ميل وهي واقعة بين عدن وحدود الدولة المتوكلية.

وعاصمة لحج مدينة الحوطة وسكانها اثنا عشر ألف نسمة بينهم عدد من يهود اليمن والصوماليين وبعض الأخلاط ومن أشهر مدنها وقراها: بير أحمد ودار الأمير وبير فضل والمجحفة ولها موانيء على البحر الأحمر أشهرها جبل حسان.

وكان عدد جند سلطان لحج زمن السلم ألفان يزداد عددهم زمن الحرب بمن ينضم اليهم من رجال القبائل وتؤلف أكثرية سكان السلطنة[1] .

وقد عزلته الحكومة البريطانية عام ١٩٥٨، بعد أن تبينت ميوله نحو إذكاء الوعي العربي التحرري في سلطنته، وهو نفسه كان حاكماً على مشيخة «الصبيحة» وعاصمتها «طور البلحة» وسكانها ٢٥,٠٠٠ نسمة وآخر معاهدة حماية بين علي بن عبد الكريم وبريطانيا وقعت في ١٧ من نوفمبر ١٩٥٢، وقد عينت الحكومة البريطانية فضل بن علي سلطاناً وهو الذي كان رئيساً للهيئة التي تضم إدارات السلطنة واسمها «رئاسة المديرين» ولحج كان لها مجلس تشريعي مكون من واحد وعشرين عضواً كان رئيسه محمد الجفري المتخرج من الأزهر، وكانت تضم عشرين من إمارات ومشيخات وسلطنات عدن الغربية قبل أن تمزقها بريطانيا، إمارة الضالع وردفان» وعاصمتها «الضالع» وسكانها ٤٨,٠٠٠ وكان يحكمها ناصر بن شايف سيف وآخر معاهدة حماية كانت تربطها ببريطانيا وقعت في ٢١ من أكتوبر ١٩٤٤، و «سلطنة يافع السفلي» وعاصمتها «القارة» وسكانها ٤٥,٠٠٠ وكان يحكمها عيدروس بن محسن وآخر معاهدة حماية كانت تربطها ببريطانيا وقعت في ٢٨ من يناير ١٩٤٨، و«أهل فضل» وعاصمتها «شقرة» وسكانها ٣٨,٠٠٠ وكان يحكمها عبد الله بن

---

(١) الأوصاف المذكورة كاملة عن كتاب الملوك العرب لأمين الريحاني

عثمان الفضلي وآخر معاهدة حماية كانت تربطها ببريطانيا وقعت في ١٩ من أكتوبر ١٩٤٤، و «مشيخة العوالق العليا» وعاصمتها «يشم» وسكانها ٢٥,٠٠٠ يحكمها عبد الله بن محسن وآخر معاهدة حماية كانت تربطها ببريطانيا وقعت في ٢٦ من مايو ١٩٥٢، و «سلطنة العوالق السفلى» وعاصمتها «أحور» وسكانها ٢٢,٠٠٠ وكان يحكمها ناصر بن عيدروس بن علي بن عبد الله وآخر معاهدة حماية كانت تربطها ببريطانيا وقعت في ١٧ من أكتوبر ١٩٤٤، و «العوادل» وعاصمتها «زارة» وسكانها ٢٣,٠٠٠ وكان يحكمها صالح بن حسين وآخر معاهدة حماية كانت تربطها ببريطانيا وقعت في ١٠ من أغسطس ١٩٥٢، و «سلطنة العوالق العليا» وعاصمتها «نصاب» وسكانها ٢٠,٠٠٠ وكان يحكمها عوض بن صالح وآخر معاهدة حماية كانت تربطها ببريطانيا وقعت في ٢٦ من مايو ١٩٥٢، و «إمارة بيحان» وعاصمتها «بيحان القصب» وسكانها ١٨,٠٠٠ وكان يحكمها صالح بن حسين وآخر معاهدة حماية كانت تربطها ببريطانيا وقعت في ٢٣ من مارس ١٩٤٤[1].

وكان هناك ثمانون ألفاً موزعون على «سلطنة يافع العليا» وعاصمتها «المحجبة» وكان يحكمها محمد بن صالح بن هرهرة، و «نقابة الموسطة» وعاصمتها «القدمة» وكان يحكمها أحمد أبو بكر، و «مشيخة المفالحة» وعاصمتها «الحرية» وكان يحكمها قاسم عبد الرحمن، و «مشيخة الصبي» وعاصمتها «دبرة» وكان يحكمها سالم صالح الصبي، و «مشيخة الحضرمي»

(١) هذه السلطنات والمشيخات والإمارات هي التي فكرت بريطانيا في إنشاء اتحاد «فيديرالي» بينها لأنها هي التي قبلت أن تعقد معاهدات ترتبط فيها باستشارة حكومة عدن البريطانية كما قبلت ضباطا سياسيين بريطانيين كمستشارين.

وعاصمتها «أبشر» وكان يحكمها محمد حسن غالب الحضرمي، و «مشيخة الأبعوش» وعاصمتها «الدر» وكان يحكمها محمد محسن.

وهناك أيضاً «مشيخة السقالدة» وعاصمتها «العوالق» وسكانها ١٢,٠٠٠ وكان يحكمها محمد مقلد السقلدين و «مشيخة العلوي» وعاصمتها «القشعة» وسكانها ألفان وكان يحكمها صالح العلوي، و «مشيخة القطيبي» وعاصمتها «التعبر» وسكانها ٨,٠٠٠ وكان يحكمها حسن على القطيبي، و«مشيخة دئينة وعلة» وسكانها ٨,٠٠٠ وكان يحكمها عدة مشايخ، و «مشيخة العقارب» وعاصمتها «بير علي» وسكانها ١,٥٠٠ وكان يحكمها محمد فضل عبد الله.

هذه هي محميات عدن الغربية الاثنتان والعشرون، أما محميات عدن الشرقية فهي: «سلطنة القعيطة» أو «حضرموت البحر» وعاصمتها «المكلا» وسكانها ٢٦٥,٠٠٠ وكان يحكمها صالح بن غالب القعيطي، و «سلطنة الكثيرية» أو «حضرموت البر» وعاصمتها «سيون» وكان يحكمها جعفر بن منصور الكثيري، و«سلطنة الواحدي» وعاصمتها «بلحاف» وسكانها ١٦,٠٠٠ وكان يحكمها عبد الله بن محمد الواحدي، و «مشيخة بير علي» وعاصمتها «بير علي» وسكانها ٤,٠٠٠ وكان يحكمها ناصر بن طالب، و «مشيخة عرقة» وعاصمتها «عرقة» وسكانها ٤,٠٠٠ وكان يحكمها أحمد بن عبد الله عوض، و «مشيخة حورة» وعاصمتها «حورة» وسكانها ٣,٠٠٠ وكان يحكمها عوض بن صالح، و «سلطنة المهرة» وكان يحكمها سعيد بن عقريد، و «قشن وسقطرة» وعاصمتها «سقطرة».

وقد لاحظ بعض المؤرخين العرب المحدثين الذين توفروا على دراسة جنوب الجزيرة العربية على أن أهداف الاستعمار البريطاني هناك كانت:

١ ـ خلق إمبراطوريتها الجديدة بالقارة الأفريقية... الأمر الذي يتطلب منها خلق وإعداد أوسع شبكة ممكنة من القواعد الإستراتيجية التي تكفل لها:

(أ) إحاطة قلب تلك الإمبراطورية الثالثة بسياج وقائي من القواعد التي تصلح للقوات البرية والبحرية والجوية من حيث إمكان حشدها... وتموينها... وتدريبها... وإعداد هذه القواعد للدفاع عن الإمبراطورية وأيضاً لاستخدامها كقواعد هجومية تهدد جنوب الاتحاد السوفيتي.

(ب) توزيع هذه القواعد لتكون متباعدة بما يكفل لها الوقاية من التعرض أو التدخل الشيوعي الذي قد يرتكن في الحرب على القواعد الروسية في شمال إيران وأفغانستان وشرق العراق والقوقاز.

٢ ـ إتمام غلق المنافذ البحرية المؤدية إلى المياه الساخنة في المحيط الهندي وبحر العرب أمام أي تدفق بحري معاد من الشمال، خاصة وأن بريطانيا تسيطر فعلاً على منطقة الشواطىء الشرقية للجزيرة العربية وكل الشاطىء الجنوبي لها مما سيحقق لها ضمان السيطرة على جنوب البحر الأحمر، وبما يعوضها عن تقلص السيطرة على شماله بعد إخلاء قاعدة السويس والسودان.

٣ ـ تدعيم الصلات المباشرة، من كل الوجوه، بين أجزاء الإمبراطورية الجديدة بما يزيد من قدرتها الإنتاجية، وبما يكفل تنسيق التعاون بين أطرافها لتعوض ما ضاع بانسلاخ القارة الهندية وابتعادها إلى حد كبير عن تلك السيطرة المباشرة.

٤ ـ إبقاء مركز الثقل السياسي والاستراتيجي بأطراف الجزيرة العربية الجنوبية ليعوض ما ينتظر مستقبل السياسة البريطانية من الصدع والوهن بعد جلائها عن منطقة السويس، واحتمال امتداد موجة الضغط العربي عليها في كل من السودان والعراق والأردن.

٥ ـ استغلال الموارد الخام من زراعية ومعدنية وما يقام عليها من صناعة وتجارة وفتح أسواق جديدة، وتوفر الأيدي العاملة الزهيدة والتي ما زالت حتى اليوم دون أي استغلال وعلى الأخص في جنوب وشرق اليمن في المناطق المتاخمة للمحميات.

٦ ـ السبق في احتكار السيطرة على الأسواق لتعوض ما تتعرض له التجارة البريطانية من منافسة اليابان وأمريكا والهند.

٧ ـ ملاحظة ومناهضة التوسع الأمريكي في الجزيرة العربية وخاصة بعد أن رسخت أقدام السياسة الأمريكية في المنطقة... الأمر الذي تخشاه بريطانيا، وتعمل فعلا على الحد منه بقدر الإمكان تحقيقاً لفكرة التوازن في هذا الميدان الذي كانت قد احتكرته بريطانيا منذ زمن بعيد، وعلى الأخص بعد أن ظهرت به موارد البترول من جهة وبعد أن بدأت بريطانيا تفقد من كرامتها وهيبتها ونفوذها كثيراً في كل من مصر والعراق والأردن والسودان وإيران، مما يدفعها إلى الاستعانة في تثبيت أقدامها بكل صورة ممكنة على حافة تلك الدائرة المتزامية»[1] .

وقد استغلت السياسة الاستعمارية البريطانية الخلافات الدينية بين العرب

---

(١) محمد كمال عبد الحميد، «الاستعمار البريطاني في حرب الجزيرة العربية»، ـ ص٢٩ ـ ٣١.

في جنوبي شبه الجزيرة، مستندة إلى أن المذهب الديني في اليمن هو مذهب الشيعة الزيدية ومذهب الكثيرين من أهالي المحميات هو مذهب السنة الشافعي، وذلك للتفرقة بين اليمنيين وجيرانهم أهالي المحميات، كما شجعت بعض الوطنيين اليمنيين الساخطين على الأوضاع في وطنهم على الهجرة إلى عدن. والإقامة فيها، وبث الدعاية ضد حكومة الإمام، وعملت على تكتيل المحميات في مجموعتين سياسيتين خاضعتين لحكومة عدن أي للتاج البريطاني.

وفي ٧ من يناير ١٩٥٤ أعلنت الحكومة البريطانية سياستها في جمع محميات عدن الغربية في اتحاد فيدرالي[١] وقد وصف أحد المتوفرين على دراسة

---

(١) جمع حاكم عدن سلاطين ومشايخ وأمراء المحميات في دار الحكومة بعدن وألقى فيهم خطبة جاء فيها:

«إنكم يا رؤساء المحميات شعوبكم من دين واحد وجنس واحد ووطن واحد، ومع هذا فأنتم متفرقون إلى أقاليم منفصلة، بعضها كبير وبعضها صغير، وبعضها غني وبعضها فقير، وكل واحد منكم ينفرد بقوة أمنه، بتشكيلاته الصحية ومدارسه وجماركه ويصرف عليها في الغالب من موارده القليلة، إن كل واحد منكم يباشر سلطاته ضمن حدود بلاده، ولكن ليس لأحدكم بصفته الشخصية أي كلمة في شؤونكم كمجموعة، لماذا؟ لأنكم متفرقون تفصلكم حدودكم ومنازعاتكم القبلية، وأحياناً خصوماتكم القديمة، وبقاؤكم على هذا التفكك ستجدون معه صعوبة متزايدة في المحافظة على كيانكم الاقتصادي. ولا أدري كيف تستطيع بلادكم أن تتطور سياسياً وأنتم على هذا الحال... وأرى أن أعطيكم اليوم صورة عامة فقط لنواياي.

وسيكون هناك كما أتمنى، اتحادان: أحدهما في الجهة الغربية من المحميات والأخرى في الجهة الشرقية.

النزاع اليمني - البريطاني هذه السياسة البريطانية الجديدة بأنها سياسة «وحد واحكم» وأن جمع ولايات عدن الغربية في «اتحاد» يستمد سنده من إحدى طرق السياسة الاستعمارية في الهند التي يطلق عليها اسم «طريقة كيداه» Keddah System وهي طريقة الاستعانة بالفيلة المروضة على اجتذاب الفيلة المتوحشة إلى حظائر المروضين، وكان أول تطبيق لهذه السياسة في مايو ١٨٨١ عندما عقد اتفاق بين بريطانيا والعبادل (لحج) تعهدت فيه الأخيرة بالإشراف على ولاية الصبيحة وهو الاتفاق الذي نص فيه على أن سلطان لحج يتعهد بأن يكون مسؤولاً عن كل أعمال السلب أو النهب من أي نوع كان التي يرتكبها أهالي الصبيحة، وفي مقابل ذلك تدفع إلى السلطان العبدلي الأتاوة التي كان مقرراً دفعها إلى قبائل الصبيحة، وقد توالت بين شهري مايو وأغسطس ١٨٨٦ شكاوي سلطان لحج من الالتزام الذي فرضه عليه ذلك الاتفاق وكان آخر تلك الشكاوي أن وحدة من قواته أجهزت عليها قبائل الصبيحة وأن باقي قواته

أما اليوم فإن الجهة الغربية هي التي تهمنا وهي الجهة التي تقع فيها بلدانكم، ولسوف تقوم سلطنات المحميات الشرقية بتوحيد نفسها. وأني أعلن أن المباحثات تدور الآن بين رؤساء تلك السلطنات والمستشار المقيم.

وأود هنا أن أدلي ببيان فيما يتعلق بالبلدان التي لها الحق في عضوية الاتحاد، وبجميع ما يترتب على الاتحاد من فوائد، إنني أرى أن البلدان التي لها الحق في عضوية الاتحاد هي فقط التي ترتبط بمعاهدات استشارية مع حكومة صاحبة الجلالة، أما البلاد التي ليس لها الحق فستظل تتلقى الإرشاد والمعونة بواسطة المعتمد البريطاني للمحمية الغربية، كما كان الحال في الماضي وعندما تكتسب هذه البلاد مؤهلات العضوية سيتوقف اشتراكها في الاتحاد على موافقة دول الاتحاد» المرجع السابق، ص ٣٥ - ٣٦.

حاصرتها تلك القبائل وطلب مساعدة البريطانيين فهبـوا لمسـاعدته و «أعـاروه» كميـة مـن البنـادق والذخـائر، ومنـذ ذلـك الوقـت هـدأت مقاومـة الصبيحـة للبريطانيين واستعادوا علاقاتهم ـ على انفراد ـ بحاكم عدن البريطاني...

وقد اعترت علاقة بريطانيـا بهـذه الولايـات العربيـة بعـد الحـرب العالميـة الثانية حمى معاهدات الحماية كما سبق أن أوضحنا.

أما السلطنات والمشيخات الأخرى التي كان من المقرر أن تنضـم إلى هـذا الاتحاد بعد موافقة أعضائه سواء بالإجماع أو بأغلبية عدد أعضائه ـ وفق ما يقرره دستور الاتحـاد ـ فهـي سـلطنة «الحواشـب» وسـلطنة «يـافع العليـا» و «نقابـة الموسـطة» و «مشـيخة الصـبي» و «مشـيخة المفالحـة» و «مشـيخة القطيـبي» و «مشيخة العلوي» و «مشيخة العقارب» و «مشيخة السقالدة[1] ».

---

(1) المرجع السابق ـ ص ٢١.

وقد نبتت فكرة جديدة بعد إعلان تكوين «الدول العربية المتحدة» بين الجمهوريـة العربية المتحدة والمملكة المتوكلية اليمنية تتجه ـ بإيعـاز مـن بريطانيـا ـ إلى تكويـن «الولايات العربية المتحدة» من بعض محميات عدن الغربية وهـي محميـة «بيحـان» ومحمية «العوادل» ومحمية «الضالع» ومحمية «أهل فضل» ومحمية «يافع السـفلي» أي خمس محميات تقع شرق المملكة المتوكلية اليمنية منها ثلاث متاخمة لها تمامـاً مـن الشرق وهي «بيحان» و «العوادل» و «الضـالع» اثنتـان تقعـان شـرق «الضـالع» وهما «يافع السفلي» و «أهل فضل» ويلاحظ أن «العوالق العليا» و «الحوشي» و «يافع العليا» و «لحج» وهي متاخمة لحدود اليمن الشرقية لم تذكـر في تكويـن هـذه «الولايات العربيـة المتحـدة» ويبـدو أن السـبب في ذلـك هـو مـا قيـل مـن مـوالاة شيوخها لإمام اليمن.

حضرموت

كانت المنطقة العربية التي تقع شرق عدن والتي تعد من محميات عدن الشرقية مقسمة إلى ست مناطق ارتبطت كل منها بمعاهدة مع بريطانيا، وأكبر رؤساء المناطق شأناً كان سلطان «القعيطة» في الشحر والمكلا، الذي اتخذ «المكلا» مقراً لحكمه، وهو يتقدم على إخوانه «مشايخ» المناطق الأخرى ويلقب بصاحب العظمة، وكان يتوارث لقب «زامندار» في جيش نظام حيدر آباد الذي كان يضم عدداً كبيراً من أهالي «القعيطة»، وتطلق لتحيته المدافع إحدى عشرة طلقة، ويليه في النفوذ سلطان «الكثيرية» الذي اتخذ «سيون» عاصمة له في وادي حضرموت، وكانت بريطانيا قد عقدت معاهدة مع سلطان «القعيطة» في عام ١٨٨٨ ونسج على منوالها في التعاقد مع باقي المناطق، ثم عدِّلت في عام ١٩٣٧ تعديلاً كان من مقتضاه تعيين «مستشار» بريطاني قبل السلطان العربي نصيحته في كل الشؤون ما عدا ما يمس الدين الإسلامي والعادات الإسلامية، وقد وصف أول مستشار شغل ذلك المنصب كيف تعمل السياسة الاستعمارية جاهدة على تملق ناحية الزهو البدوي واعتداد العربي باستقلاله «فإن الأراضي الواسعة القاحلة الجبلية قد ربت فيه نزعة الحرية والإصرار على ألا يسلم فيها لأحد لأنها كل ما يملك».

وروح السخرية بادية في هذا الوصف لأنه ترك للعرب تلك الأراضي الواسعة القاحلة يتمتعون باستقلالهم فيها! واستأثر هو بحقول آبار الزيت وما تدره على رأس المال الأجنبي من أرباح خرافية.

وكانت بريطانيا قد أنشأت في عام ١٩٤٠ في محمية عدن الشرقية قوة مسلحة أطلقت عليها اسم «الفيلق البدوي الحضرمي» على غرار الفيلق العربي الذي أنشأته من قبل في الأردن.

وأهل حضرموت من أقدم من عرفوا في عصر ما قبل التاريخ، وقد ذكرت في كتب سترابون وبليني وأن التوراة قد ذكرتها على أنها اسم الابن الثالث من أبناء يقطان، ويذهب المؤرخون إلى أنه «كان يقطن حضرموت في الجاهلية الصدف أو الصعدف، وقد وصف بنو كندة أنفسهم بالصدف وكانوا قد هاجروا إليها من البحرين وأربى عددهم على الثلاثين ألف رجل قرابة مولد النبي (ص)، وكانت تجيب أهم عشائرهم وقتئذ، وبلغ عدد رجالهم في عهد الهمداني ١٥٠٠ نسمة، وحكم حضرموت في زمن النبي (ص) أمراء لقبوا بالعباهلة وقد أسلم الأمير الكندي قيس بن أشعث في زمن النبي (ص) فلما توفي النبي (ص) ارتد عن الإسلام ولكنه سرعان ما غلب على أمره»[1] وكانت «سيون» ـ وهي مقر سلطان «الكثيرية» تعد أهم مدينة في حضرموت ومن المدن المهمة أيضاً بها «القسم» ومنها يمكن الوصول إلى قبر هود عليه السلام على وادي برهوت وأهم قبائل حضرموت «بريك» وهم يتوارثون لقب شيخ في المنطقة المحيطة بـ «شبوة» وآل عمرو وبنو «كندة».

وقد ذهب المستشرقون الذين توفروا على دراسة أحوال حضرموت إلى أنه توجد بها «إلى جانب القبائل والرعية طبقة قائمة بذاتها هم السادة ويمثلون الطبقة الدينية الأرستقراطية بالبلاد وعددهم كبير... ويلقبون بالحبيب وينقسمون إلى أسر يتوارث رؤساؤها لقب الشرف ويرفع الناس كثيراً من هؤلاء السادة إلى مقام الأولياء.. ويردون نسبهم إلى الشيخ أحمد بن عيسى أعظم أولياء حضرموت الملقب بعامود الدين ويقال إن هذا الشيخ سبط من أسباط الحسين في الطبقة السابعة من ذريته..»[2].

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، المجلد ٧، ص ٤٦٠ ـ ٤٦١.

(٢) المرجع السابق ـ ص ٤٦٤.

وكانت حضرموت مجهولة من العالم الغربي حتى عام ١٨٤٣ عندما زارها Adolph Wrede ولم يكد يكتشف جزءاً من أرضها حتى عرف أنه أوربي فأسرع بالخروج من البلاد، وبعده بخمسين عاماً قدم إلى حضرموت المستشرق Leo Hirsch والمستشرق Bent وزوجته.

وقد منح امتياز البحث عن الزيت لشركة Retroleum Concessions في حضرموت وعدن وتملكها نفس الشركات التي تملك شركة البترول العراقية وقد أنشئ في «المكلا» حزب وطني قام بأعمال إيجابية عام ١٩٥١.

مسقط وعمان

وقد حدد وضع هذه السلطنة المستقلة الدولي بحكم محكمة لاهاي عام ١٩٠٥.

وهي تقع في أقصى جنوب شرق شبه الجزيرة العربية، ويبلغ طول شاطئها نحو ألف ميل ممتد من حدود سلطنة «قشن وسقطرة» إحدى محميات عدن الشرقية إلى مدخل الخليج العربي.

وقد ظهر البرتغاليين على مسرح مسقط في عام ١٥٠٨ فأحرقوا مدينة مسقط وبنوا مكانها محطة بحرية ومعملاً، وقد زادت أهمية مسقط بالنسبة للبرتغاليين بعد أن طردوا من الشاطئ الفارسي عام ١٦٢٢، ثم تداعى نفوذهم وتمكن العرب من طردهم عام ١٦٥٠، وفي عام ١٧٣٧ تغلب الفرس على مسقط، ولكن لم تكد تنقضي أربعة أعوام حتى نشأت أسرة آل بوسعيد وزاد نفوذها في المنطقة [1]. وفي عهد سعيد بن أحمد الإمام الثاني لأسرة بوسعيد وقع

(١) يقرر أحمد حمدي حافظ ومحمد الشرقاوي في كتابهما «عمان وإمارت الخليج العربي» ص ١٨ ـ ١٩ أن «المنافسة في عمان بدأت حين وفد عليها للمرة الأولى عرب من الجنوب وعرب من الشمال ولم تخمد جذوتها إلا قليلا وكان عرب الشمال يعرفون في عمان باسم النزارية وعرب الجنوب يعرفون باسم اليمنية وقد نشبت حرب أهلية منذ أكثر من مائتي سنة أسفرت عن تسمية الشماليين باسم الغافرية والجنوبيين باسم الهناويه وكانت آل بوسعيد قبيلة غير ذات شأن من

اتفاق عام ١٧٩٨ مع شركة الهند الشرقية الهولاندية يقضي بأن يفضل البريطانيين على الفرنسيين والهولانديين في المعاملات مع بلاده، وفي عام ١٨٠٤ تولى العرش أقوى سلاطين هذه الأسرة وهو سعيد بن سلطان وامتاز عهده (١٨٠٤ ـ ١٨٥٦) بالتوسع والرخاء، وقد وقع مع فرنسا معاهدة في عام ١٨٠٧ أباحت للرعايا الفرنسيين حرية التنقل، ونقل عاصمة ملكه عام ١٨٣٢ إلى زنزبار في شاطيء أفريقيا الشرقي، وفي عام ١٨٣٣ عقد سعيد بن أحمد مع الولايات المتحدة الأمريكية معاهدة وقعها إدموند روبرتسن عن الجانب الأمريكي في قصر السلطان بمسقط وقد تضمنت «منح سكان بلاد أمريكا رخصة الدخول في أي بندر من بنادر جناب السيد سعيد بن السيد سلطان حامي مسقط» كما تضمنت أن «أهل يونيتد ستيت سكان بلدان أمريكا إذا

الهناوية تسكن داخل عمان .... وفي عهد سعيد بن أحمد الذي استمر حكمه الأسمي من سنة ١٧٨٣ إلى ١٨٠٣ استطاع كبار آل بوسعيد أن يحولوا اهتمامهم من المجال الروحي إلى المجال الدنيوي ومن داخل عمان إلى الساحل وأصبحت مسقط مركزاً لهم ... وفي سنة ١٨٠٠ كان الموحدون ـ الوهابيون أنصار محمد بن عبد الوهاب ـ في زحفهم قد وصلوا إلى المداخل الغربية لعمان وكانت واحة البريمي أول قاعدة استولوا عليها وظلت هذه الواحة المركز الاستراتيجي لأعمالهم الحربية في عمان السنين السبعين التالية، ومن البريمي تقدموا بسهولة على طول الساحل العربي أو عبر الجبال صوب مسقط أو إلى داخل عمان مباشرة... ولم يوافق الإباضيون الذين يعيشون داخل عمان على بعض تعاليم الموحدين النجديين... ويعتبر أهل عمان النجديين غافرية، ولعل سبب ذلك أن معظم ما يلقونه من تأييد محلي مستمد من رجال هذه الفئة، وقد بادر كثير من الغافرية إلى نشر مبادىء الموحدين في حين عمل كثير من الهناوية بأقصى جهدهم لتضييق نطاقها».

أرادوا أن يصلوا إلى أحد بلدان السلطان لأجل البيع أو الشـراء فمرخـص لهـم، وفي دخول رؤوس أموالهم لا ممانع وإذا ارادوا أن يسكنوا فلا جناح عليهم»[1] .

وفي عام ١٨٣٩ وقع مع بريطانيا معاهدة نصت على أن «رعايا صـاحب الجلالة البريطانية يمنحون الحرية الكاملة في الدخول والإقامـة والمتـاجرة والمـرور ببضائعهم في جميع ربوع أراضي صاحب العظمة سلطان مسقط[2] ».

وفي عام ١٨٥٤ تنازل سعيد بن أحمد لبريطانيا في عهد الملكة فيكتوريا عـن جزر «كوريـا موريـا» وكـان التنـازل بـدون مقـابل وعـدن تـدار بواسـطة المقيـم البريطاني في الخليج العربي لحساب محافظ عدن، ثم تقاسـم أبنـاء سـعيد بـن أحمـد حكم السلطنة فانفرد فرع منهم بحكم الجانب الأفريقي وانفرد الفرع الآخر بحكم مسقط وعمان، والسيد سعيد بن تيمور سلطان مسقط وعمان الحالي الـذي تـولى الحكم عام ١٩٣٢ هو ثالث حـاكم مـن سـلالة هـذه الأسـرة، وقـد احتفـل عـام ١٩٤٤ بانقضاء مائتي عام على تولي هذه الأسرة حكم مسقط وعمان.

وقد اتفقت الحكومتـان البريطانيـة والفرنسـية عـام ١٨٦٢ علـى احـترام استقلال مسقط وعينت كل منها قنصلا لها هناك.

وقد شهد عهـد سـالم بوسـعيد الـذي تـولى الحكـم عـام ١٨٦٦ فـترة لها أهميتها الخاصة في حياة هذا القطر العربي ولا تزال آثارها بادية في النزاع القائم بين فريقي الإباضيين أهل عمان وهم الغفرية والهناوية، ذلك أنه في عـام ١٨٦٨

---

(١) المرجع السابق ـ ص ٢٤.

(٢) المرجع السابق ـ ص ٢٣.

قاد عزان بن قيس وهو من آل بوسعيد ـ الأسرة الحاكمة في مسقط ـ فرقة من فرسان الرستاق واستولى على «بركا» ثم انضم إليه اثنان من زعماء الهناوية هما صالح بن علي رئيس قبيلة الحارث وسعيد الخليلي وهاجموا مسقط واستولوا عليها، وفي أكتوبر عام ١٨٦٨ أعلن إباضيو عمان مبايعة عزان بن قيس[1] .

وفي عام ١٨٦٩ تغلب الإمام الهناوي عزان بن قيس على الوهابيين واستولى على واحة البريمي، ثم تغلب على قبيلة بني شكيل الغافرية واستولى على حصن بهلا في عمان الوسطى وتوالت انتصاراته فاستولى أخوه إبراهيم بن قيس على «أزكي» و «نزوي» وهنا ظهر على مسرح التاريخ العماني تركي بن سعيد عم السلطان سالم بعد سعيد المعزول وكان البريطانيون قد أقنعوه بقبول النفي إلى الهند فعاد بتحريضهم في يونيو عام ١٨٧٠ وتغلب على الإمام عزان بن قيس وقتل عزان في آخر يناير ١٨٧٠، وبذلك سقطت إمامة الهناوية ولم يطل عمرها أكثر من عامين وبضعة أشهر، ولم تقم لها بعد ذلك قائمة بسبب استفحال الخلاف بين الغافرية والهناوية فريقي الإباضيين وقد استغلت بريطانيا مساعدتها لتركي بن سعيد (١٨٧١ ـ ١٨٨٨) فوقعت معه عام ١٨٧٣ معاهدة خاصة بإلغاء تجارة الرقيق، ولما تولى ابنه فيصل السلطنة وقع مع بريطانيا معاهدة في عام ١٨٩١ تتضمن أنه «لا تمنع أية سلعة من الدخول إلى أراضي سلطان مسقط أو الخروج منها ولا تفرض رسوم جمركية على البضائع التي تصدر من تلك الأراضي دون موافقة حكومة صاحبة الجلالة البريطانية فيما

---

(١) يذهب المرجع السابق ص ٢٩، إلى أنه «بايعت الإمام» جماعة من زعماء الغافرية ولما اتضح أن الحكومة الجديدة ترى إلى الاصطباغ بصبغة هناوية ظاهرة ظلت بقية الغافرية ممتنعة عن الاعتراف بها».

يتعلق بأشخاصهم وممتلكاتهم في داخل أراضي صاحب العظمة سلطان مسقط بامتيازات خارج النطاق».

وبعد التوقيع على هذه المعاهدة بيوم واحد وقع السلطان فيصل تعهداً يقضي بأنه «يقطع عهداً ووعداً على نفسه وعلى ورثته وخلفائه بأنه لن يتنازل مطلقاً عن أراضي مسقط وعمان أو أية ملحقة من ملحقاتها ولن يبيعها أو يقدمها رهناً أو يسمح باحتلالها بأية طريقة كانت إلا للحكومة البريطانية»[1] .

ومنذ القرن الماضي اقتصرت سلطة سلاطين مسقط على المناطق الساحية وظفار.

أما قبائل المناطق الداخلية فقد ثاروا في عام ١٩١٣ وانتخبوا سالماً بن راشد الخروصي إماماً ينافس سلطان مسقط في سلطته، وذلك بسبب اتفاق الغافرية والهناوية، ومنذ عام ١٩٢٠ ظل خليفته الإمام محمد بن عبد الله الذي تولى الإمامة بعد قتل سالم بن راشد الخروصي يدير المناطق الداخلية من مقر حكمه في «نزوى» جنوب الجبل الأخضر ولو أن سلطته لم يعترف بها دولياً[2] .

والرقابة البريطانية على استغلال موارد الثورة الطبيعية في هذا القطر وفي باقي المحميات، كاملة وقد أقر السلطان في عام ١٩٢٣ بألا يستغل آبار الزيت

---

(١) المرجع السابق - ص ٣٨.

(٢) وفي عام ١٩٢٠ وقعت بريطانيا نائبة عن مسقط معاهدة مع إمام عمان عرفت باسم معاهدة «السيب» عينت الحدود بين الإمامة والسلطنة «أحمد حمدي حافظ ومحمود الشرقاوي» نفس المرجع ص ٥٦ وقد انتخب الإمام غالب بن على الهنائي إماماً لعمان عام ١٩٥٤ فاحتل «عبري» و «الرستاق» وهو الذي قاد الثورة ضد السلطان سعيد بن تيمور عام ١٩٥٧.

ولا يمنح امتيازات البحث عنه بغير استشارة الممثل البريطاني، وقد احتكرت ذلك الحق إحدى الشركات البريطانية.

وفي يوليو ١٩٥٣ منح امتياز البحث عن الزيت في منطقة «ظفار» لشركة إنجليزية أيضاً وينتهي امتياز الزيت في مسقط وعمان في عام ٢٠١٢[١] .

وقد لاحظ بعض رجال القانون الأمريكيون «أن مركز مسقط أوضح من مراكز غيرها من ولايات الخليج، فحكومة مسقط لم تتنازل تنازلاً تاماً عن الاشتراك في صلات الولاية الخارجية، يضاف إلى ذلك أن نشر المعاهدة التجارية الحديثة التي عقدت مع بريطانيا في «سلسلة المعاهدات البريطانية الرسمية قد يدل على أن المعاهدة يجب أن تعد ملزمة دولياً، وأن مسقط تعد من أشخاص القانون الدولي، ولو أن السلطان قد تنازل عن بعض حقوق سيادته إلى بريطانيا».

كان السلطان تيمور قد كتب إلى القنصل البريطاني بمسقط في يناير ١٩٢٣ رسالة يقرر فيها» رداً على كتابكم المؤرخ ١٦ ديسمبر ١٩٣٢ نحيط جنابكم علماً بأننا نوافق على ألا نستغل البترول الذي قد يعثر عليه في أية بقعة تدخل في نطاق أراضينا وأننا لن نمنح أحداً أذناً باستغلاله دون استشارة الوكيل السياسي في مسقط وموافقة حكومة الهند السامية».

ولايات الخليج العربي

كان الشاطىء الغربي للخليج العربي ينقسم إلى قسمين، أولهما يتبع العربية السعودية، والثاني يتكون من ولايات أو «مشيخات» مستقلة استقلالاً صورياً تربطها ببريطانيا معاهدات حماية، ولم يكن العالم يعرف شيئاً عن هذه الولايات إلى عهد قريب، ولكنها بدأت تثير اهتمام العالم منذ أصبحت محطات لخطوط المواصلات الدولية ومنذ اكتشاف الزيت فيها.

وأهم هذه الولايات: الكويت والبحرين وقطر وتليها في الأهمية ولايات ساحل المهادنة وهي «أبو ظبي» و «دبي» و «الشارقة» و «كلبة» و «رأس الخيمة» و «أم القيوين» و «عجمان» و «الفجيرة»، ومن المعروف أن الشاطىء الغربي للخليج العربي يضم على الأقل نصف كمية الزيت الموجودة في العالم.

وقد قرر المؤرخون البريطانيون أن بريطانيا ظلت تعمل بثبات على تدعيم سيطرتها على المشيخات العربية في الخليج، فبدأت بتقديم نصائحها لمقاومة القرصنة والنخاسة ثم انتقلت إلى إحالة الخلافات بين الشيوخ إلى المقيم البريطاني في «بشير» الذي أصبح بذلك حاكماً فعلياً للخليج العربي، وأخيراً في عام ١٨٦٩ أغرت شيوخ ساحل المهادنة على التعهد بألا يتنازلوا عن أية أراض وألا يتعاقدوا مع أية حكومة أخرى غير الحكومة البريطانية، وبعد توتر العلاقات مع روسيا عام ١٨٧٨ اتسع نطاق تلك الاتفاقيات بين الحكومة البريطانية وشيوخ الخليج فانضم إليها شيوخ البحرين وقطر عندما جددت

المعاهدات معهم عام ١٨٨٠ وأضيف إليها تعهدهم بألا يقبلوا أي ممثلين دبلوماسيين أو قنصليين إلا بموافقة بريطانيا، وفي عام ١٨٨٥ ـ بعد أن ضمت روسيا إليها منطقة في حدود أفغانستان ـ أصبحت الحرب متوقعة بين الدول العظمى، وزادت مخاوف بريطانيا، وصرح كيرزون عام ١٨٩٢ عندما كان وكيلاً لوزارة الهند «يجب أن أعد تنازل أية دولة عن ميناء على الخليج الفارسي لروسيا ـ الحلم العزيز الذي يداعب الكثيرين من الوطنيين الذين يعيشون في وادي نيفا أو الفولجا ـ إهانة متعمدة لبريطانيا وإخلالاً بالحالة الراهنة وتحريضاً دولياً على الحرب، ويجب أن أتهم الوزير البريطاني الذي يسلم بذلك بخيانة وطنه» وفي نفس الوقت أثنى كيرزون على إجراء بريطانيا الخاص بمنع سلطان عمان من التنازل عن أية قطعة من أراضيه أو تأجيرها فقال «إننا نعين حاكمها ونملي سياسته ولذلك يجب ألا نسمح بأي نفوذ منافس».

وإذا استثنينا عمان فإن وضع باقي ولايات الخليج العربية كان يشبه الوضع في محمية عدن، ولو أن الصلات السياسية التي كانت تربطها ببريطانيا قد تكون أضعف فيما يختص بعدم ادعاء الحكومة البريطانية فيها لحق التشريع وبعدم بسط كامل مظاهر «الحماية» عليها.

وكانت العلاقات بين بريطانيا وبين تلك الولايات التي تحددت مع البحرين في عام ١٩١٣، ومع قطر في عام ١٩٢٩ ومع الكويت في عام ١٩٣٥، ومع مسقط في عام ١٩٣٥، لا تكاد تختلف إلا في بعض التفاصيل، والوضع في مسقط الناتج من سبق استقرار حقوق لدول أجنبية أخرى في الولاية قد ينجم عنه خلاف دولي بين بريطانيا وغيرها إذا أصرت على الاستئثار باستغلال موارد الزيت، وفي هذا يقرر بعض رجال القانون الأمريكيون: «مما

يدعو إلى التساؤل. إلى أي مدى يصل استعداد الدول الأخرى لقبول إخضاع رعاياهم للمحاكم الإنجليزية التي تصدر أحكامها على الأجانب طبقاً لأوامر تصدر من المجالس البريطانية المحلية وليست مستندة على اتفاقات دولية كانت تلك الدول الأخرى طرفاً فيها؟».

وولايات الخليج العربي مشار إليها في الوثائق البريطانية على أنها «ولايات مستقلة مرتبطة باتفاقات مع حكومة جلالة الملك» ويعقب هذا البعض على ذلك بأن هذا الوضع يصعب أن يحدد وصفه بدقة في القانون الدولي».

وقد جاء في المعاهدة البريطانية ـ الإيطالية التي عقدت في عام ١٩٣٨ عند الإشارة إلى أراضي الحكام العرب الخاضعة للحماية البريطانية التصريح البريطاني التالي: «بينما تحتفظ حكومة المملكة المتحدة لنفسها بحرية اتخاذ الخطوات التي تراها ضرورية لإقرار النظام في هذه الأراضي فإنها تعتزم الإبقاء على استقلال الحكام العرب الداخلي تحت حمايتها».

وقد عاد رجال القانون الأمريكيون فقرروا بشأن ما إذا كانت المعاهدات مع هذه الولايات العربية ملزمة دولياً أو لا أن من العسير أن نقول واثقين إن المعاهدات مع البحرين وساحل المهادنة وقطر والكويت تعد ملزمة دولياً، فتأكيد بريطانيا لاستقلال هذه الولايات قد يحدد هذا الاتجاه، وهذا لا يعني طبعاً أن هذه الأقطار يمكن أن تعد دولياً ذات سيادة في مفهوم القانون الدولي ولكن قد يضعها في مصاف طائفة من الأقطار شبيهة بتونس ومراكش ـ قبل إعلان استقلالهما ـ التي تعد معاهدات الحماية الموقعة بينهما وبين فرنسا ملزمة دولياً، ومع ذلك فإن مركز تونس ومراكش قد حدد بوضوح عن طريق الاتفاقات الدولية وقرارات المحاكم الدولية أكثر من مركز ولايات الخليج العربي.

ويبدو جلياً للقارىء أن اهتمام رجال القانون الأمريكيين بهذه المنطقة بالذات وبالوضع القانوني الدولي فيها منشؤه التنافس بين الولايات المتحدة وبريطانيا على اقتصاديات الزيت.

أما بشأن التحرر من النفوذ الأجنبي فإن نفس هؤلاء المعقبين الأمريكيين قد سجلوا، «أن الحركات نحو استرداد العرب لاستقلالهم تمتد سريعاً، والآراء العتيقة المستندة على الضروريات العملية التي كانت ذريعة الإدارة الاستعمارية تتلاشى أمام الآراء الغربية الحديثة وتكتل المجموعات الإقليمية، وهذه المنطقة بأجمعها ـ من جهة نظر القانون الدولي ـ تعد من أهم المناطق».

إمارة الكويت :

اكتسبت هذه الامارة العربية، التي تقع غرب الخليج العربي وشرق العراق والمملكة العربية السعودية، اسمها من كلمة (الكوت) وهذه الكلمة تعني عند العراقيين وعند العرب من سكان المنطقة على الخليج العربي مجموعة من المساكن الصغيرة المتلاصقة كما أن هذه الكلمة عند تصغيرها بـ «الكويت» تعني المكان القريب من البحر أو النهر الصالح لرسو المراكب الصغيرة، وأول ما يعرف عن الكويت في العصور الحديثة يعود إلى القرن السابع عشر الميلادي، إذ بنى محمد بن عريعر زعيم بني خالد في أواخر ذلك القرن حصناً صغيراً في تلك المنطقة اتخذه مخزناً للمؤن والذخيرة، وكان يخرج منه للغزو أو للرعي ثم يعود إليه بعد ذلك[1] .

---

(١) حكومة الكويت، دائرة المطبوعات والنشر، «سجل الكويت اليوم، لمحات في جغرافية الكويت وتاريخها»، ١٩٥٦، ص٦.

وقد ظهرت في تاريخ الكويت الحديث بضع أسر عربية كآل الصباح وآل خليفة والزايد والجلاهمة والمعاودة، ولكن أسرة الصباح برزت بين هذه الأسر العربية ومن المعروف أن آل الصباح ينتسبون إلى نفس القبيلة العربية التي تنتسب إليها أكثر من أسرة حاكمة في شبه الجزيرة العربية كآل سعود في المملكة العربية السعودية، وآل خليفة في البحرين، وهذه القبيلة هي قبيلة عنزة، كما أنه روى عن تاريخ أسرة الصباح أنها انتقلت إلى الكويت من الهدار بنجد وأنهم مروا بقطر في طريقهم إلى الكويت ثم عبروا البحر ولم يستقروا في الكويت إلا بعد معركة نشبت مع آل سالم عند «رأس تنورة» التي تقع بين البحرين والأحساء، وكان أول مقامهم في «المخراق» ثم في «الصبية» التي تقع شمال شرق الكويت، وقد تنبهت الحكومة التركية - التي كانت تقع شبه الجزيرة العربية تحت سيادتها. إلى خطر استقرار هذه الأسرة العربية القوية فطاردتهم واضطروا إلى الانتقال إلى الكويت حيث استقروا منذ نهاية القرن السابع عشر.

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن تاريخ آل صباح لا يتجاوز سنة ١٧١٦ «وهي السنة التي تحالف فيها الشيخ سليمان بن أحمد رئيس آل صباح وخليفة بن محمد رئيس آل خليفة وجابر العتبي رئيس الجلاهمة فاستخلصوا الكويت من الفرس وسكنوها.

وقد زاد في تقدم الكويت وعمرانها استيلاء الفرس على البصرة سنة ١٧٧٦ فقد كان ذلك مدعاة لمهاجرة الكثيرين من السكان إلى الكويت

ويذهب حافظ وهبه في نفس المرجع ص ٧٠ إلى أن «الكويت» وتعني «القلعة» كلمة برتغالية كثر استعمالها بعد دخول البرتغاليين خليج فارس.

والزبارة ... وقد ساعد على ذلك احتلال عرب بني عتبة البحرين سنة ١٧٨٣»[1].

ومؤسس أسرة الصباح العربية الحاكمة هو صباح الأول الذي يرجح أنه تولى الحكم عام ١٦٩٨، وقد خلفه في حكم الكويت ابنه عبد الله ثم ابنه جابر الذي تولى الحكم عام ١٨١٣ والذي اشتهر بسخائه مما أضفاه على أهل الكويت بعادل حكمه من حياة رغدة فأطلقوا عليه اسم «جابر العيش» وفي عهده وصل المصريون إلى الكويت عام ١٨٣٨ ـ ١٨٣٩ وعينوا لهم مندوباً سياسياً هناك، وخلفه في حكم الكويت ابنه صباح الثاني[2] الذي خلفه ابنه عبد الله الثاني عام ١٨٦٦، ثم تولى حكم الكويت محمد بن صباح الثاني عام ١٨٩١ ونشبت في أثناء حكمه منازعات عنيفة بينه وشقيقه جراح من جانب وشقيقهما الثالث مبارك من جانب آخر.

وفي عهد محمد تبينت الدولة العلية أنها أخطأت في تمكين آل الرشيد حكام «حائل» من القضاء على عبد الرحمن آل سعود إمام «الرياض»، وكان انقضاض آل الرشيد على السعوديين قد استمر منذ عام ١٨٩٠ مما اضطر عبد الرحمن إلى أن يهيم على وجهه مع ابنه عبد العزيز وثلاثة من أنصاره في صحراء «الربع الخالي» عام ١٨٩٥، ولما كان محمد الصباح أمير الكويت على علاقة طيبة مع الآستانة فقد أوعزت إليه الحكومة التركية أن يدعو عبد الرحمن آل

---

(١) حافظ وهبه، نفس المرجع، ص ٨٢ ، ٨٣.

(٢) ظهرت بريطانيا للمرة الاولى في الكويت عام ١٨٥٠ بالمشروع قصير الأجل الذي وضعه الكولونيل «شيزني». لمد سكة حديدية في وادي نهر الفرات تنتهي عند الكويت.

سعود إلى إمارته وأن يستضيفه على أن تتحمل الحكومة نفقات ضيافته، وقد قبل عبد الرحمن تلك الدعوة وهو يجهل البواعث السياسية التي خلفها، وتزوج عبد العزيز زوجته الأولى في الكويت عام ١٨٩٥، وفيها عرف مبارك الصباح أخ محمد حاكم الكويت الذي كان منفياً في الهند ثم عاد إلى الكويت تسبقه شائعات عن الأموال التي كان ينفقها دون أن يعرف أحد مصدرها، وقد عمل عبد العزيز آل سعود مع مبارك، وعن طريقه، وفي ذلك الثغر العربي المتصل بتجارة العالم شهد عبد العزيز للمرة الأولى نشاط الجاسوسية الدولية ورجال السياسة ووكلاء الدول الأجنبية من فرنسيين وإنجليز وألمان وروس.

وفي نهاية عام ١٨٩٧ قتل مبارك الصباح أخاه محمد وأعلن نفسه أميراً على الكويت، وكان هذا الانقلاب الكويتي ذا أثر بالغ في مصير السعوديين، فإذا كان محمد قد استضافهم بإيعاز من الحكومة التركية فإن مباركاً كان يميل إليهم، فلما تغيرت السياسة التركية عادت الحكومة التركية فأوعزت إلى آل الرشيد بأن من يتسيطر على الرياض ونجد يجب أن تمتد سطوته إلى الكويت وأن يكون له منفذ على البحر، ووعدته بأن تتنازل لهم عن ميناء الكويت إذا طردوا مباركا واعترفوا بسلطة الحكومة التركية.

وكان النفوذ التجاري الألماني قد بدأ يتسرب إلى تركيا بشكل واضح وبدأت ألمانيا تسد جزءاً كبيراً من احتياجات تركيا العسكرية، وأعقب ذلك أن تقدمت إحدى الشركات الألمانية إلى الحكومة التركية بطلب منحها إمتياز مد خط سكة حديدية بين قونية ـ حلب ـ الموصل ـ بغداد، واشترت الشركة الألمانية المعارضة الفرنسية بعقد اتفاق يقضي باقتسام المصالح الخاصة بالسكة الحديدية والمصالح المصرفية مع الجانب الفرنسي.

وفي تلك الفترة كان موقف بريطانيا موقفاً مواتياً للمشروع الألماني، فإن تهديد مركز بريطانيا في الشرق الأوسط كان لا يزال صادراً بشكل عنيف من روسيا وفرنسا، ففي عام ١٨٩٢ ألحَّ السفير البريطاني في برلين على الألمان بأن ينموا مصالحهم التجارية في الخليج العربي كرد على التسلل الروسي في تلك المنطقة، وفي عام ١٨٩٨ رحب البريطانيون بمنح امتياز السكة الحديدية إلى الألمان وصرح لورد سالسبوري «إننا نرحب بهذه الامتيازات لأن ألمانيا عن طريقها تستطيع أن تتعاون مع مصالحنا في الخليج الفارسي» وعقبت صحيفة «التايمز» بأنه إذا لم يعهد بمد خطوط السكك الحديدية التركية إلى البريطانيين فإن الألمانيين أفضل من غيرهم في تولي هذه المهمة، ولاحظت صحيفة «المورننج بوست» بأن الامتياز أعطى ألمانيا سبباً لمناهضة العدوان في آسيا الصغرى من الشمال، كما أن بعض الاستعماريين من طبقة «سيسل رودس» و«جوزيف شامبرلين» باركوا ذلك المشروع، وفي عام ١٩٠٠ قامت البعثة الفنية الألمانية التي كانت مكلفة بتخطيط الطريق الذي كان مقرراً أن تسلكه السكة الحديدية بزيارة الكويت وحاولت إغراء الشيخ مبارك على قبول عرض يقضي بمنحها امتيازاً لإنشاء محطة لنهاية تلك السكة الحديدية وميناء بحري فلما رفض شيخ الكويت ذلك العرض طبقاً للاتفاق السري الذي كان معقوداً بينه وبين حكومة الهند البريطانية قبل ذلك بعام ـ أي اتفاق ٢٣ من يناير عام ١٨٩٩ حرض الألمان الحكومة العثمانية التي كان الشيخ يتبعها اسمياً على إرسال حملة لتأكيد سيطرة تلك الحكومة عليه.

وقد أعد مبارك جيشاً من عشرة آلاف مقاتل بعد أن علم أن آل الرشيد قد بدأوا هجومهم، وقد تقدم آل الرشيد متغلبين على قوات مبارك في موقعة

«الصريف» ـ ١٧ من مارس عام ١٩٠١ ـ حتى وصلوا إلى بعد بضعة كيلومترات من الشاطىء، وتريثوا للانقضاض على ثغر الكويت في أغسطس عام ١٩٠١، وساد الاضطراب في صفوف الكويتيين، واستعد عبد الرحمن وابنه عبد العزيز للرحيل قبل وصول آل الرشيد، عندما وصلت بارجة بريطانية وأعلن قائدها أن مباركاً «صديق» للحكومة البريطانية وأنها تحميه، كما أخطر آل الرشيد بأن ينسحبوا من أرض الكويت، وفي نفس الوقت أخطرت الحكومة البريطانية الباب العالي بذلك.

وقبل ذلك بقليل، أي في أبريل عام ١٨٩٩، كانت الحكومة الألمانية قد عقدت اتفاقاً مع الحكومة التركية على مد سكة حديدية بين برلين ـ والآستانة ـ بغداد ينتهي عند الكويت، وقد أثار تنفيذ مشروع خط سكة حديد برلين ـ بغداد قلق بريطانيا لأن هذا الخط لو تم لقطع الطريق البري إلى الهند، وهو الطريق الذي كانت تحرص بريطانيا كل الحرص على ألا يقع تحت سيطرة دولة منافسة، وكانت بريطانيا إذ ذاك تسيطر على كل الطرق البحرية المؤدية إلى الشرق، طريق رأس الرجاء الصالح حول أفريقيا، وطريق السويس ـ عدن عبر البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندي، ولم يبق إلا الطريق البري الذي يمر في أراض تابعة للدولة العثمانية فوطدت بريطانيا العزم ـ إن عاجلاً أم آجلاً على السيطرة عليه، وكانت روسيا من جانبها تفكر في مد سكة حديدية بين باكو ـ أصفهان ـ إيزد عبر إيران ينتهي عند بندر عباس على الشاطىء الشرقي للخليج العربي، ولم تكن روسيا القيصرية وهي ترنو إلى السيطرة على هذه المنطقة تنظر بعين الارتياح إلى استقرار الألمان ولا الإنجليز على الخليج العربي، وبذلك كان محور التسلل الألماني يتجه من الشمال الغربي إلى الجنوب

الشرقي، والمحور الروسي من الشمال إلى الجنوب، والمحور الإنجليزي لم يكن يبدأ من إنجلترا بل من الهند متجهاً من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي عبر المحيط الهندي وخليج عمان، وكلها تلتقي وتفترق ثانية في نفس النقطة، الكويت، ومن هنا برزت فجأة أهمية هذه المنطقة.

ولما كان محمد أمير الكويت يحكم هذه الإمارة لحساب الأتراك حلفاء الألمان فقد تبينت بريطانيا أن تركه معناه ترك الباب مفتوحاً للمطامع الألمانية، ولذلك قرر البريطانيون أن يحلوا أخاه مباركاً محله، وفي أثناء إقامة مبارك في بومباي استمالوه إلى جانبهم وأمده وكلاء «مكتب الهند» بالمساعدات الضخمة طمعاً في الخدمات التي يمكن أن ينالوها منه فيما بعد، وهذا هو سر الأموال التي تناقلت الشائعات أنه كان ينفقها، وأولئك الوكلاء هم أنفسهم الذين أعدوا الانقلاب الذي تولى مبارك على أثره حكم الكويت بعد قتل أخيه محمد، وهم الذين وعدوه بالمساعدة ضد هجوم آل الرشيد.

وقد سجلت الوثائق الرسمية الكويتية عن هذه الفترة أنها «شهدت بين عامي ١٨٩٦ ـ ١٩١٥ الصراع بين بريطانيا وألمانيا وفرنسا وروسيا وتركيا على هذه المنطقة العربية بأجمعها وبالذات على الكويت لموقعها الجغرافي القريب من الهند تاج الإمبراطورية البريطانية والمتصل بدروب الجزيرة العربية شمالاً وشرقاً وجنوباً من ناحية أخرى حيث كان للدولة العثمانية المكان الأول في تلك الجزيرة فضلاً عما توقعه الجيولوجيون من وجود الزيت فيها».

وسجل المؤرخون البريطانيون عن هذه الفترة أن القنصل الروسي في بغداد كان يضع خطة الحصول على ميناء روسية وقاعدة بحرية على الخليج العربي،

وعلم في عام ١٨٩٨ أن نقابة نمساوية ــ روسية تقدمت إلى الحكومة العثمانية بطلب منحها امتيازاً لمد سكة حديدية من طرابلس السورية إلى الكويت أفضل الموانىء الطبيعية على الخليج العربي، وكانت بريطانيا قبل ذلك بوقت قصير قد رفضت طلباً تقدم به الشيخ مبارك حاكم الكويت لحمايته، ولكن في ضوء الظروف الجديدة أرسل لورد كيرزون ـ الذي كان إذ ذاك قد أصبح نائب الملك في الهند ـ المقيم البريطاني في الخليج للتفاوض على عقد اتفاق سري مع الشيخ قبل به الأخير أن يتعهد بعدم تأجير أراضيه أو التنازل عنها بدون موافقة بريطانيا، وقد لخص كيرزون السياسة البريطانية في هذه المنطقة قائلاً: «أنحن على استعداد أن نتنازل عن سيطرتنا على الخليج الفارسي ونقسم سيطرتنا على المحيط الهندي؟ أنحن على استعداد أن نحرِّم إقامة سكة حديد وادي الفرات أو ما يشبهها من المشروعات على إنجلترا وأن نحلّلها ونجعلها حقيقة راهنة لروسيا؟ هل ستصبح بغداد عاصمة روسية جديدة في الجنوب؟».

ومما يلفت النظر في حكم مبارك الصباح المعاهدات التي عقدها مع بريطانيا، وقعت أولاها في ٢٣ من يناير ١٨٩٩ وبمقتضاها عين مقيم بريطاني في الكويت، ووقعت الثانية في عام ١٩٠٠، والثالثة في عام ١٩٠٤، وقد اعترفت بريطانيا في هذه المعاهدات بأسرة مبارك الصباح كأسرة حاكمة على الكويت كما اعترفت باستقلال الكويت الداخلي، وإن فرضت حمايتها على هذا القطر العربي كما قيدته بألا يسمح باستغلال أرضه لأية دولة أخرى إلا بموافقة بريطانيا.

وفي أثناء حكم مبارك الصباح استطاع عبد العزيز آل سعود أن يخرج من الكويت مؤيداً بأسرة الصباح إلى الرياض عاصمة وطنه عام ١٩٠١ وأن يتغلب على آل الرشيد ويعيد حكم آل سعود على نجد، في ١٥ من يناير عام ١٩٠٢.

وفي ٢٧ من أكتوبر ١٩١٣ كتب الشيخ مبارك الصباح خطاباً إلى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي رحب فيه بزيارة الأميرال البريطاني لبلاده.

وفي الحرب العالمية الأولى احتلت القوات البريطانية الكويت لتقوية الحصار المضروب على الأتراك في حايل والعراق.

وفي ٢٩ من نوفمبر عام ١٩١٥ توفى مبارك الصباح وتولى حكم الكويت ابنه جابر الثاني ولكنه لم يلبث أن توفى في ٥ من فبراير عام ١٩١٧ وخلفه أخوه سالم بن مبارك الصباح الذي وقعت في عهده معركة «حمض» بين الكويت ونجد وهي الموقعة التي بدأت الكويت بعدها في بناء سور حول مدينة الكويت العاصمة يبلغ طوله نحو خمسة أميال لحماية العاصمة من المهاجمين.

وفي عام ١٩٢١ توفى سالم الصباح وخلفه ابن أخوه أحمد بن جابر الصباح الذي عقدت في عهده معاهدة «العقير» التي عينت الحدود بين الكويت ونجد عام ١٩٢٢.

وأهم ما يلفت نظر المؤرخ في حكم أحمد جابر الصباح، وبالذات في يوم ٢٣ من ديسمبر عام ١٩٣٤، منحه امتياز البحث عن الزيت لشركة زيت الكويت في أرض الكويت وفي المنطقة المحايدة وهذه الشركة وهي. Kuwait Oil Co تملكها مناصفة شركة. D'Arcy Kuwait Oil Co وهي فرع من شركة الزيت الإنجليزية الإيرانية ALOC وشركة Gulf Kuwait Co وهي فرع من شركة Gulf Oil Gorp.

وقد سويت أثناء حكم أحمد جابر الصباح أوجه الخلاف بين الكويت

والمملكة العربيــة السـعودية ووقعـت الدولتـان ثلاثـة اتفاقـات بينهمـا في ٥ مـن مارس عام ١٩٤٠، الأول معاهدة صداقة وحسن جوار، والثاني معاهدة تجارية، والثالث اتفاقية تسليم مجرمين[١] .

وفي ٢٨ من يونيو ١٩٤٨ منح امتياز البحث عن الزيت واسـتغلاله لمـدة ستين عاماً في كل المنطقة المحايدة الثنائية غير المحددة بين الكويـت والسـعودية بمـا فيهـا الجـزر والميـاه الإقليميـة وتبلـغ مسـاحتها ١٩٥٠ ميـلا مربعـاً إلى شـركة American Independent Oil Co. وتملكها عشر شركات هي:

Hancok Oil Co., Phillips Petroleum Co.

Ashland Oil and Regining Co. Signal Oil and Gas Co., Sunray Oil Corp.,

Ralph K. Davies., Globe Oil and Refining, Deep Rock Oil Corp.,

J.S. Abercombie Co., Lari Oil and Gas Co. [٢]

وفي أواخر يناير عـام ١٩٥٠ توفـى أحمـد جـابر الصبـاح وخلفـه عبـد الله السالم الصبـاح في ٢٥ مـن ينـاير ١٩٥٠ الـذي كـان قـد لفـت أنظـار الكويتيـين بحكمته منذ تولى رئاسة مجلس الشورى أي الهيئة التشريعية الكويتية عام ١٩٣٨.

---

(١) حافظ وهبه ـ نفس المرجع ـ ص ص ٨٨ ـ وقد تمت المفاوضات بينـه وبـين الوكيـل السياسي البريطاني.

(٢) Leonard M. Fanning, Ibid., p. 366.

وقد بلغ احتياطي الزيت الخام في آخـر ١٩٥٧، ٨,٧٥٠,٠٠٠,٠٠٠ طناً مترياً وبلغ إنتاجها عام ١٩٥٦، ٥٥ مليون طن متري، محمد زكـي عبـد المتعـال، نفـس المرجع، ص ١٢ ـ ١٣.

وامتياز الزيت ينتهي عام ٢٠٢٦ وقد بدأ في ٣١ ديسـمبر ١٩٥١ وهـو يشمل كل مساحة الكويت أي نحو تسعة آلاف ميـل مربـع قـد بلـغ النـاتج مـن الزيت الكويتي يومياً عام ١٩٥٣ ثمانمائة وواحد وستين ألـف وسـبعمائة برميـل وبلغ مجموع ما دفعته شركات الزيت كحصيلة لحكومـة الكويـت عـام ١٩٥٢ مائة وتسعة وثلاثين مليـون دولار، مـع أنـه لم يكـن يتجـاوز اثنـتي عشـر مليـون ومائتي ألف دولار في عام ١٩٥٠.

البحـــريـــن :

هذه الولاية تتكون من أرخبيل من الجـزر في خليـج البحريـن تحـد شـرقاً بشبه جزيرة قطر وغرباً بالأحساء التابعة للعربية السعودية، وأهم جزر الأرخبيل هي جزيرة البحرين التي يبلغ طولها ثلاثين ميلا وعرضها عشرة أميـال، وحقـول الزيت تقع حول التلال المعروفة باسم جبل الدخان التي تقـع في المنطقـة القاحلـة وسط الجزيرة، وفي شمال شرق جزيرة البحرين تقع جزيرة المحرق وبين الجزيرتين ميناء عميق يستخدم كقاعدة بحرية بريطانية، وللبحرية الأمريكية وحدات هنـاك هي الأخرى، ومطار المحرق كان يعد أعظم المحطات الجوية في الخليج آنذاك.

والعاصمة مقر الحكومة هي «المنامة» ويطلق عليها عادة «البحريـن»، ونشـير هنا إلى أن الأثريين قد كشفوا في البحرين قبوراً مما يدل على ان الارخبيل قد سكنته أقوام من عصور ما قبل التاريخ، وقد ذهب البعض إلى أنهم كانوا من الفينيقيين.

وكان البرتغاليون قد احتلوا البحرين عام ١٥٠٧ وبنوا بهـا قلعـة لاتـزال آثارها باقية، ولكن العرب أخرجوهم منها عام ١٦٠٢ بحملة قدمت من إيـران، وتسـرب النفـوذ الإيرانـي إلى البحريـن في أوقـات متقطعـة بـين عـامي ١٧٣٥،

١٧٨٢ عندما أعـاد العـرب آل خليفـة غزوها من شـبه الجزيـرة العربيـة، وفي عـام ١٧٩٩ هاجمها إمام مسقط واستولى عليهـا عام ١٨٠١ ولكنه اضطر للجلاء عنها بعد أن احتلها النجديون الذين كانت حركتهـم قـد امتـدت إلى الأحسـاء، وعين إمـام نجـد وكيـلاً عنـه في حكـم البحريـن وقطـر عـام ١٨١٠ إلى أن أجلاهم في العام التالي إمـام مسقط أي في ١٨١١.



الشيخ حمد بن عيسى

ومنـذ عـام ١٨١٦ تتـولى أسـرة آل خليفة حكم البحرين، وهذه الأسرة تنتسـب إلى قبيلة عنزة من أواسط نجـد في بطـن شبه الجزيرة العربية، وقد جـاؤا مـع آل الصبـاح إلى الكويت ومنها انتقلوا إلى «الزبارة» الـتي لا تبعـد عـن البحريـن إلا مسـافة قصـيرة، وهـذه الروايـة يؤيدهـا آل خليفـة أنفسـهم، ولكـن بعـض المؤرخـين يذهبـون إلى أن آل خليفة من قبيلة آل أبـو فـلاح الـتي ينتسـب إليها حكام «أبي ظبي»[1] ، كما يذهب آخـرون إلى أنهـم قدمـوا مـن «أم قصـر» على مقربة من شط العرب.

---

(١) يوسف الفلكي «قضية البحرين بين الماضي والحاضر» ص١١

ومؤسس هذه الأسرة هو محمد بن خليفة الذي انتقل من الكويت إلى «قطر» ثم إلى «الزبارة» واستطاع أن يجمع ثروة من مزاولة الصيد وتمويل الغواصين الباحثين عن اللؤلؤ، وأول من انتقل إلى البحرين هو ابنه أحمد بن محمد آل خليفة الملقب باسم «أحمد الفاتح»، وكانت هذه الولاية العربية الأخيرة موطن ثلاث قبائل، هي آل صباح، والجلاهمة، وآل خليفة، وكان الأولون يتولون الحكم والجلاهمة يزاولون العمل في البحر وآل خليفة يزاولون التجارة على أن توزع بينهم الأرباح مثالثة، ودام هذا الحلف خمسين عاماً إلى أن انفصل آل خليفة عن الحلف عام ١٧٦٦ ورحلوا إلى «الزبارة»، وقد انتهز الإنجليز فرصة الخلاف بين الأخين «محمد» و «علي» آل خليفة وعينوا عيسى بن علي حاكماً على البحرين عام ١٨٧٠ وظل حاكماً حتى عام ١٩٢٣ عندما طعن في السن وتولى ابنه حمد بن عيسى وقد توفي عيسى عام ١٩٣٢ كما توفي حمد بن عيسى، وحكم بعده سلمان بن حمد.

وفي عام ١٨١٩ عقدت بريطانيا مع البحرين معاهدة للتعاون ضد القرصنة.

وفي عام ١٨٢٠ ارتبطت أسرة آل خليفة بمعاهدة مع شركة الهند الشرقية البريطانية، ولكن الحكومة الفارسية ظلت تطالب بحقوق السيادة على البحرين مستندة إلى مذكرة بريطانية مؤرخة في ٢٣ من أبريل ١٨٦٩ زعم أن لورد كلاريندون اعترف فيها بحق ايران في السيادة على جزيرة البحرين، وقد عرض هذا الخلاف على عصبة الأمم عام ١٩٢٧ عندما احتجت إيران على المعاهدة البريطانية السعودية التي التزم فيها الملك عبد العزيز آل سعود بعدم التدخل في شؤون شيخ البحرين ولا في شؤون غيره من مشايخ ولايات الخليج، ثم عادت إيران إلى الاحتجاج عندما منح الشيخ آل خليفة امتياز الزيت في

عامي ١٩٣٠، ١٩٣٤ إلى بعض الشركات الغربية، وظل الدكتور مصدق متمسكاً بذلك الاحتجاج كما تمسكت به بعد ذلك حكومة زاهدي.

وأهم ما اعترض حياة البحرين الدولية هو اكتشاف الزيت فيها، وقد التزم عيسى بن علي آل خليفة للحكومة البريطانية بشأن الزيت ـ في ١٤ من مايو ١٩١٤ بالتعهد التالي:

«تعهد من شيخ البحرين بخصوص الزيت بتاريخ ١٨ جمادي الثانية ١٣٣٢هـ الموافق ١٤ مايو ١٩١٤».

من الشيخ عيسى بن على آل خليفة، شيخ البحرين إلى الميجر آبي. تريفرسي آ.ثي.

المعتمد السياسي في البحرين.

استلمت كتابكم الكريم رقم ٥٣٠ المؤرخ ١٨ جمادي الثانية ١٣٣٢هـ، ١٤ مايو ١٩١٤م، حول موضوع إمكانية الحصول على زيت النفط في البحرين، وكما أبلغت سعادتكم في كتابي المؤرخ ١٧ جمادي الثانية ١٣٣٢ بأنه عندما يحين الوقت للحصول على ذلك، فسأستشير بالتأكيد المعتمد السياسي، إني بهذا أكرر لكم إذا كان ثم أمل في الحصول على زيت النفط في بلادي البحرين فلن أباشر استغلاله بنفسي، ولن أقبل طلبات أي جهة بخصوص النفط بدون استشارة المعتمد السياسي في البحرين وبدون موافقة الحكومة السامية، وهذا ما لزم وا لله يحفظكم والسلام».

وقد منح أول امتياز للبحث عن الزيت في الجانب العربي للخليج في ديسمبر ١٩٢٥ إلى نقابة بريطانية تولت البحث عن ذلك الزيت في البحرين،

وفي عام ١٩٢٧ حصلت شركة أمريكية على تنازل من النقابة البريطانية ولكنها لم تستطع أن ترضخ للشروط التي أملتها شركة Irak Petroleum Co. (I.P.C) فباعت التنازل الصادر لها إلى شركة Standard Oil Co. of California وبعد مفاوضات اشتركت فيها الحكومة البريطانية ووزارة الخارجية الأمريكية منح الامتياز لشركة Bahrain Petroleum Company وهي فرع مسجل في كندا من شركة Standard Oil of California واشترطت الحكومة البريطانية عليها استخدام عدد معين من الموظفين البريطانيين وفي عام ١٩٣٦ حصلت شركة Texas Oil Co. على خمسين في المائة من الأسهم، وهذا هو الذي يفسر جنسية الشركة الكندية وإدارتها في الولايات المتحدة مع أن نسبة كبيرة من موظفيها بريطانيون، وواضح مما سبق أن الشركتين اللتين تتمتعان بالامتياز في البحرين تشتركان في شركة «أرامكو» في العربية السعودية.

وينتهي امتياز الزيت في البحرين عام ٢٠٢٤ وهو يشمل كل مساحتها وقد بلغ ما دفع لحكومة البحرين عن حصتهامن إنتاج الزيت عام ١٩٥٢ ستة ملايين وثلث مليون دولار.

وبلغ الناتج من زيت البحرين يومياً عام ١٩٥٣ ثلاثين ألف ومائة برميل.

وبلغ مجموع ما دفعته شركات الزيت كحصيلة لحكومة البحرين عام ١٩٥٢ ستة ملايين وثلاثمائة ألف دولار. مع أنه لم يكن يتجاوز ثلاثة ملايين وثلاثمائة ألف دولار عام ١٩٥٠.

وفي ٥ من يونيو سنة ١٩٤٩ أصدر حاكم البحرين شبه مرسوم بتعيين الحدود الساحلية وإيضاح وجهة نظر ولايات الخليج العربي بشأن المناطق

الخاصة بقاع البحر خارج المياه الإقليمية التي يستحق لهذه الولاية فيها منح امتيازات البحث عن الزيت واستغلاله. وقد جاء في هذا المرسوم:

«بهذا نحن سلمان بن حمد الخليفة حاكم البحرين نصرح بأن قاع البحر والطبقة الأرضية الحدرية الواقعة حد البحار العامة في الخليج الفارسي المتاخمة للمياه الإقليمية من البحرين والممتدة في اتجاه البحر إلى الحدود والتي ستعين أكثر ضبطاً عندما تدعو المناسبة وذلك على مبادىء عادلة بواسطتنا بعد التشاور مع الحكومات المجاورة، تخص بلاد البحرين وخاضعة لدائرة اختصاصها وسلطتها المطلقتين.

وليس في هذا البيان ما يعتبر أن يمس السيادة على الجزر أو وضع قاع البحر وطبقة الأرض الحدرية التي تقع حدر أي مياه إقليمية.

وليس في هذا البيان ما يعتبر أن يمس صفة البحر العامة من مياه الخليج الفارسي فوق قاع البحر وخارج المياه الإقليمية أو وضع الفضاء الجوي فوق مياه الخليج الفارسي خارج المياه الإقليمية أو صيد الأسماك أو حقوق اصطياد اللؤلؤ التقليدية في مثل هذه المياه[1] .

وثلثا سكان البحرين من أهل السنة والثلث من الشيعة.

قَطَـــــر :

وهي شبه جزيرة تقع في منتصف الجانب الغربي من الخليج العربي ولم تحدد حدودها مع العربية السعودية حتى العام ١٩٩٦.

وتعود صلات قطر ببريطانيا إلى عام ١٨٨٢.

---

(١) المجلة المصرية للقانون الدولي ـ المجلد ٥ ـ ص ١٤١.

وفي ٣ من نوفمبر ١٩١٦ عقدت المعاهدة بين قطر وبريطانيا على نسق المعاهدات المعقودة مع مشيخات ساحل المهادنة تضمنت نصاً يلزم قطر بالحصول على موافقة بريطانيا قبل منح أي امتياز خاص بصيد اللؤلؤ أو غيره تتولى حكم قطر أسرة آل ثاني، ويعود حكم الشيخ علي بن عبدا لله آل ثاني إلى عام ١٩٤٩.

وكانت شركة Petroleum Development, P.D.L (Qatar). قد حصلت في ١٧ من مايو ١٩٣٥ على امتياز البحث عن الزيت. وهي شركة بريطانية تابعة لشركة Petroleum Concessions وقد حفر أول بئر عام ١٩٣٧ وبدأ الإنتاج عام ١٩٤٩ وزاد زيادة استدعت مد خطوط أنابيب عرضها ١٢ بوصة إلى أم سعيد في الشاطىء الشرقي لشبه الجزيرة.

وفي عام ١٩٥٠ عرضت شروط الامتياز الممنوح لـ .P.D.L على هيئة تحكيم فقررت أنه يشمل كل أرض قطر ومياهها الإقليمية. وهذه الشركة تملكها نفس الشركات التي تملك شركة الزيت العراقية .I.P.C.

وقد منح امتياز يشمل عشرة آلاف ميل مربع من قاع البحر خارج الشاطىء إلى شركة International Marine Oil Co. ولكن هذه الشركات تنازلت عن الامتياز في عام ١٩٥٢ وحلت فيه إحدى الشركات التابعة لـ .Royal Dutch Shell Co.

وبلغ مجموع الناتج من الزيت القطري يومياً عام ١٩٥٣ خمسة وثمانين ألفاً ومائتي برميل.

وفي عام ١٩٥٢ حصل شيخ قطر على موافقة الـ .P.D.L على المناصفة

في أرباح الزيت على نسق الاتفاقات المعقودة مع جيرانه، وبذلك ارتفع ما دفعته الشركة من مليون دولار عام ١٩٥٠ إلى تسعة ملايين دولار عام ١٩٥٢[(١)].

وكان شيخ قطر يستخدم مستشاراً بريطانياً كما أن هناك ممثلا سياسياً بريطانياً، والعملة المتداولة هناك هي الروبية الهندية، وينتهي امتياز الزيت عام ٢٠١٠.

ساحل المهادنة :

وهو الجزء من الجانب الغربي للخليج العربي الممتد شرقاً من قطر إلى مدخل الخليج يتكون من سبع مشيخات «هي أبوظبي» و «دبي» و «الشارقة وكلبة» و «رأس الخيمة» و «عجمان» و «الفجيرة» وأهمية هذه المشيخات ـ من وجهة النظر الدولية ـ تنحصر في إمكان العثور على زيت في أراضيها أو عدم إمكان ذلك، وقد سبق أن أشرنا إلى سلسلة معاهدات الحماية التي تربط هذه المشيخات ببريطانيا.

وقد قامت شركة Petroleum Development (Tricial Coast) Ltd. التي تملكها ـ كزميلتها في قطر ـ نفس الشركات التي تملك شركة الزيت العراقية L.P.C بحفر عدة آبار تجريبية في «أبوظبي» و «دبي» وقد نشب خلاف بين شيخ أبو ظبي والشركة صاحبة الامتياز عام ١٩٥١ عرض على التحكيم وكان الشيخ يطالب بحقه في منح امتياز لشركة Superior Oil Co. في قاع البحر خارج المياه الإقليمية. وقد قررت هيئة التحكيم ألاحق لشركة P.D.L. في

---

(١) Tha Royal Institute p. 120

وقد بلغ احتياطي الزيت في آخر ١٩٥٧، ٢٥٠,٠٠٠,٠٠٠ طناً مترياً، محمد زكي عبد المتعال، ص١٢.

الادعاء وقد منحت امتيازات الزيت في قاع البحر خارج مياه قطر الإقليمية لشركة Anglo-Iranian وخارج مياه «دبي» الإقليمية لنفس الشركة بالاشتراك مع Compagnie Francaise des Petroles.

وفي عام ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣ ضغطت الحكومة السعودية على شيخ «أبي ظبي» بسبب واحة «بريمي» التي تتكون من ثماني قرى متاخمة لحدود سلطنته «مسقط» وقد ذهبت الحكومة السعودية إلى أن هذه الواحة كان يحكم جزء منها أحد أتباع الحكومة السعودية، وقد حصل شيخ «أبي ظبي» وسلطان مسقط على تأييد الحكومة البريطانية في التمسك بحقوقها على الواحة. وقد أظهر هذا النزاع خطأ ترك الحدود غير معينة المعالم. وهو الخطأ الذي ظلت تلك الحكومات سادرة فيه قبل أن تكتسب هذه المناطق أهمية اقتصادية بسبب اكتشاف ثروتها المعدنية.

أبو ظبي :

وقد حدث عام ١٩٢٥ أن أرسلت الحكومة السعودية أحد ممثليها إلى واحة البريمي لكي يباشر أعمال السيادة فيها على اعتبار أنها داخلة في حدود «الأحساء» التي تعد أرضاً سعودية، ورغم أن مساحة الواحة لا تزيد عن ٩٨٥ كيلومتراً مربعاً إلا أن النزاع بين السعودية ومشيخة أبي ظبي وسلطنة مسقط وعمان تطور فشمل منطقة تبلغ مساحتها ٧٣ ألف ميل مربع لأن «البريمي» تقع على مفرق الطرق بين تلك الأقطار جميعاً.

وقد قدم الأمير فيصل آل سعود إلى الحكومة البريطانية أثناء زيارته لندن عام ١٩٣٨ مذكرة استند فيها إلى حقوق وراثة السعوديين لتلك المناطق وقد ذهبت

تلك المذكرة إلى أن «التمسك بهذا المبدأ يجعل قسما كبيراً من أراضي حضرموت وظفار وعمان وأبي ظبي ضمن أراضي جلالة الملك عبد العزيز آل سعود».

وفي عام ١٩٤٩ وجهت الحكومة البريطانية إنذاراً إلى ممثلي شركة «أرامكو» التي لها امتياز الزيت في السعودية عقب تجولهم في هذه المنطقة جاء فيه: «تعتبر الحكومة البريطانية أن مشيخة أبي ظبي تمتد حتى «خور العديد» ولذلك يعتبر وجود ممثلي شركة «أرامكو» عند نقطة شمال «صفق» تعدياً على حق المشيخة المشمولة بالحماية نظراً لوجود الجند السعودين مع ممثلي الشركة»[1].

وقد اتضح فيما بعد من بيانات الصحف البريطانية أن اتجاه حكومتها إلى عد القريتين الجنوبيتين من «البريمي» تابعتين لسلطنة مسقط وعمان وعد القرى الست الباقية تابعة لمشيخة أبي ظبي.

ولما اشتد النزاع على «البريمي» عقد بلندن مؤتمر بين ٨ ، ٢٤ أغسطس ١٩٥١ ولما لم يسفر المؤتمر عن نتيجة اتفقت الحكومتان البريطانية والسعودية على التحكيم ووضعت أسسه في ٣٠ من يوليو ١٩٥٤.

دبـــي :

تقع هذه المشيخة في جنوبي شرق الخليج العربي بين مشيختي «أبي ظبي» و «الشارقة» وقد وقعت هذه المشيخة أثناء حكم سعيد بن مكتوم معاهدة مع بريطانيا يمثلها الفتننت كيرنيل تريفور Trevor المقيم السياسي بالخليج العربي في ٢ مايو ١٩٢٢ تعهد فيها الشيخ العربي بما يأتي:

---

(١) أحمد حمدي حافظ ومحمود الشرقاوي ـ «عمان وإمارات الخليج العربي» ص ٥٩،٦١.

«لا يخفى عليكم أننا نوافق ـ إذا وجد الزيت في بلدنا ـ على ألا نمنح أي امتياز بشأنه لأي شخص إلا إذا عينته الحكومة البريطانية السامية».

وكانت هذه المشيخة هي أكبر مشيخات ساحل المهادنة وفيها مقر المعتمد البريطاني للساحل.

الشارقة :

تقع هذه المشيخة في أقصى جنوبي شرق الخليج العربي، ويتبعها خورفكان وكلبة على خليج عمان، وقد وقعت أثناء حكم الشيخ خالد بن أحمد معاهدة مع بريطانيا يمثلها المقيم السامي «تريفور» في ١٧ من فبراير ١٩٢٢ تعهد فيها الشيخ العربي بما يأتي:

«غرضي من كتابة خطاب الصداقة هذا إليكم هو إزجاء تحياتي إليكم والسؤال عن صحتكم وثانياً لا يخفى عليكم أنني أكتب هذا الخطاب إليكم بإرادتي الحرة وأعطي التعهد لجنابكم بأنه ـ إذا اكتشف منجم زيت في أرضي ـ فإنني لن أعطي أي امتياز بشأنه لأجانب إلا للشخص الذي تعينه الحكومة البريطانية السامية».

وكان بهذه المشيخة مطار بريطاني، كما كان هناك مطاراً بريطانياً آخراً في جزيرة داس التي تتبعها.

رأس الخيمة :

وقعت مع بريطانيا في ٢٢ من فبراير ١٩٢٢ معاهدة مماثلة للمعاهدة

المعقودة مع «الشارقة» وتستغل شركة إنجليزية أكاسيد الحديد الحمر التي بإحدى جزرها.

أم القيوين :

وقعت هذه المشيخة معاهدة مع بريطانيا في ٨ من مايو ١٩٢٢ مماثلة للمعاهدة المعقودة مع «أبي ظبي» و «دبي».

عجمان :

وقعت هذه المشيخة معاهدة مع بريطانيا في ٤ من مايو ١٩٢٢ مماثلة للمعاهدة المعقودة مع «أبي ظبي» و «دبي» و «أم القيوين».

الفجيرة :

مرتبطة مع بريطانيا بمعاهدات مماثلة للمعاهدات التي تربط باقي مشيخات ساحل المهادنة.

العرب على طريق الاستقلال

بعد أن ذكرنا نبذة كافية عن تحرر كل من سوريا والعراق ولبنان والاردن من الاستعمار الإنكليزي والفرنسي وحصول كل منهم على نوع من الإستقلال المنقوص كما سنرى لاحقاً.

نتابع في هذا الجزء الحديث عن استقلال بعض الدول العربية الإفريقية لكننا سنبدأ بثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق ومن ثم نتابع الحديث عن استقلال ليبيا وتونس فالمغرب فالجزائر.

الثورة العراقية ١٩٤١
أو ثورة رشيد عالي الكيلاني

حاولت بريطانيا في بداية الحرب العالمية الثانية دفع العراق إلى إعلان الحرب على دول المحور. ولكن الوطنيين الأحرار في العراق رفضوا هذه السياسة، والتفوا حول رشيد عالي الكيلاني، وحصلوا على تأييد الجماهير. وحاولت السلطات البريطانية إثارة القلاقل بمساعدة نوري السعيد وأعوانه ضد حكومة رشيد عالي الكيلاني الوطنية. ولكنها فشلت في ذلك، الأمر الذي أثار حفيظتها، ودفعها إلى شن حملة دعائية ضد سياسة الكيلاني "النازية" تمهيداً لشن عدوان مسلح على العراق.

وكان العراق في تلك الفترة يمثل ضرورة حياتية ذات أهمية خاصة بالنسبة لبريطانيا من أجل الوصول إلى الهند، وذلك بسبب الحاجة إلى أرض العراق الواسعة، وما بها من مطارات، وطرق مواصلات، وعقد اتصال للخطوط الجوية، بالإضافة إلى وجود حقول النفط في كل من الموصل وكركوك وحاجة بريطانيا إلى هذه المادة التي لا غنى عنها للمجهود الحربي. وكانت الاتفاقية المعقودة بين العراق وبريطانيا تسمح لهذه الأخيرة بأن تستخدم في حالة الحرب اثنين من المطارات مع حق المرور بكافة الوسائل اللازمة لقواتها. وكان المطار الأول يقع في الحبانية على بعد ستين ميلاً تقريباً في اتجاه جنوب غرب بغداد. أما المطار الآخر فهو مطار "شن الدبان ـ أو ـ شيبان" وهذا يقع على بعد عشرين ميلاً في اتجاه الغرب من البصرة.

كانت قوة العراق مكونة من أربع فرق : اثنتان منها في بغـداد، بالإضافـة إلى لواء ميكانيكي مدعم بثلاثين دبابة، وفوجي مشاة منقولين على عربـات نقـل كبيرة، وستين طائرة حديثة نسـبياً. أما القـوات البريطانيـة الموجـودة في العـراق فكانت تضم : سرب قاذفات قنابل (٢٤٤) يضم ثلاثـين طـائرة في مطـار "سـن الدبان ـ شيبا"، وثمانين طائرة أكثرها من النماذج التي ألغي استخدامها في مطـار الحبانية (الذي كان المعهد الرابع لتدريـب الطيـارين) كمـا كـانت تضـم قـاعدة الحبانية ١٨ عربة مدرعة قديمة. وكان مارشال الجو "هـ.ج. سمارت" القائد لهـذه القوات جميعها، وكان معروفاً بعدم قدرته على مجابهة المواقف المعقدة المماثلـة لما كان عليه موقف العراق في بدايـة عـام ١٩٤١، وكـان قـد تم في الواقـع إعـداد مخطط يتضمن زج قوات ميكانيكية وإدخالها عن طريق فلسطين بهـدف احتـلال الحبانية، والتقدم منها إلى بغداد، والعمل في الوقـت ذاتـه علـى إنـزال لـواء مـن القوات الهندية في خليج البصرة للاستيلاء على مطار "سن الدبان ــ شـيبا" لكـن هـذه القـوات كـانت ضعيفـة. كمـا أن بعـد المسـافة وطـول الطريـق البحـري والأرضي (عبر الصحراء) كان سيرغم القوات على قضاء فـترة زمنيـة طويلـة في التحرك مما قـد يجعـل وصولها إلى أهدافهـا في وقـت متـأخر جـداً وبذلـك تفقـد العملية أهميتها ممـا قـد يعـرض المخطـط بأكملـه للفشـل. هـذا بالإضافـة إلى أن قوات الإنزال البحري في البصرة قد تصطدم بالقوات العراقية. وكـانت مسـيرة الأحداث وتطوراتها المتسارعة تفرض على القيادة البريطانية العمل بسرعة كـبرى والتدخل العاجل بالقوات، حتـى لـو كـان ذلـك بقـوات قليلـة. ولم يكـن هنـاك وسيلة أفضل من النقل الجوي يمكن اعتمادها لإنقاذ الموقف المتدهور.

في يـوم ١٧ نيسـان (أبريـل) تحركـت قـوة مكونـة مـن أربعمائـة ضـابط

وجندي مـن قـوات اللـواء الملكـي البريطـاني الخـاص، واسـتقلت الطـائرات إلى قاعدة "سن الدبان ـ شيبا" وبدأت في العمل منذ وصولها بهدف مسـاعدة اللـواء الأول للفرقة العاشرة الهندية، وتمكينه من النزول عند خليج البصرة. وبعد تنفيذ هذه المهمة كان على القوة ذاتها أن تتحرك جواً إلى الموقف حيث كـان الوضـع يتزايد خطورة. وكان رشيد عالي الكيلاني قد أحاط المطـار بـأحد عشـر فوجـاً، ومعهم ٥٠ مدفعاً، وعزل القوات البريطانية. كما أوقف تدفق النفط من أنبـوب كركوك ـ حيفا، ومنع دخول قوات بريطانية جديدة إلى العراق. وقامت القوات العراقية بالهجوم على المركز البريطاني في الرطبة. وأرغمت الحامية المتمركزة فيه على التراجع والانسحاب في اتجاه محطـة ضـخ النفـط (H.4)، وأصبحـت قـاعدة انطـلاق القـوات البريطانيـة ذاتهـا مهـددة. وفي هـذا الموقـف، وبعـد أن أصبـح مارشال الجو "سمارت" في حالة عزلة تامة عـن قواتـه الضعيفـة المكلفـة بالدفـاع، والتي كانت بعيدة عنه مسـافة ثلاثمائـة ميـل، أصـدر المارشـال "سمـارت" أوامـره بالهجوم، وكانت أوامره متأخرة جداً.

كان ونستون تشرشل، رئيس الوزراء في الحكومة البريطانية آنذاك، يتـابع باهتمام كبير تفاقم الموقف ويقدر خطورته. فأصدر تعليماته لمعالجة الأزمة، وأمـر باستخدام القوة في الوقت ذاته، والضرب إذا ما اقتضى الأمـر بذلـك. علـى أن تكون الضربات قوية وحاسمة قدر المستطاع.

في يوم ٢ أيار (مايو) بدأت طائرات سلاح الجو الملكـي البريطـاني، القاذفـة منها والمقاتلة، بالإقلاع من مطار الحبانية والهجوم على القـوات العراقيـة ومواقعهـا ومطاراتها ومعسكراتها. بالإضافة إلى قصف الطرق العراقية. وكان رد فعل رئيس الـوزراء العراقـي رشـيد عـالي الكيلانـي : الإعـلان عـن إلغـاء المعـاهدة العراقيـة

البريطانية، والتهديد بنسف السفارة البريطانية في بغداد، إذا ما قام الطيران البريطاني بقصف العاصمة العراقية (وكانت السفارة البريطانية تضم جهاز السلك الدبلوماسي والموظفين البريطانيين في جميع أنحاء العراق وعائلاتهم وأولادهم) وسحب جميع الخبراء والمهندسين البريطانيين العاملين في منطقة كركوك، ونقلهم إلى السفارة البريطانية في بغداد التي تحولت إلى مركز اعتقال للبريطانيين، واحتلال كركوك من قبل الجيش العراقي، وتوجيه القوات العراقية لحصار قاعة الحبانية، وإعلان حالة الحرب، واستنفار القبائل وتوجيهها لدعم الجيش.

واستجابت الجماهير العراقية، والشعب العراقي لنداء الثورة فأسرعت للوقوف إلى جانب الجيش. واستطاعت القبائل في منطقة البصرة أن تقدم دعماً حقيقياً للقوات المسلحة، بحيث لم تتمكن القوات البريطانية من رفع طوق الحصار طوال أكثر من شهر كانت فيه أعمال القتال مستمرة.

نجحت الطائرات البريطانية في السيطرة على سماء المعركة، ووجهت السلطة البريطانية إنذاراً طالبت رشيد عالي الكيلاني والضابط القائد وزعماء الجيش بتسليم أنفسهم خلال فترة ٢٤ ساعة كشرط لإيقاف العمليات القتالية، لكن أحد لم يستجب للإنذار، واستمرت طائرات سلاح الجو الملكي بقصف القوات العراقية طوال اليوم الأول للعدوان. واضطرت الطائرات للقيام بمائتي وعشر طلعات من أجل إلقاء كمية ٣٥ طناً من القنابل، وبعد ذلك أصبح باستطاعة قوات المشاة التي كانت قد وصلت عن طريق الجو أن تبدأ هجومها على القوات العراقية، واضطرت القوات العراقية أمام الضغط المتزايد للقوات المحمولة جواً أن تتراجع حتى مراكزها الأولى وقواعد انطلاقها.

واستمرت أعمال القتال دون توقف. وفي ليل ٥ ـ ٦ أيار (مايو) قامت القوات البريطانية بعملية استطلاع أمكن بواسطتها الوصول إلى معرفة دقيقة حول حجم الخسائر التي تكبدتها القوات العراقية، وكانت في حدود ٥٠٠ قتيل، بالإضافة إلى تدمير ٧٥ مركبة، ووقوع ٤٠٠ أسير من القوات العراقية بيد البريطانيين، وبدأ الضغط على القوات البريطانية يتراجع تدريجياً.

نتيجة لإعلان الحرب، ووقوع المعارك، توجه رشيد عالي الكيلاني إلى ألمانيا النازية يطلب دعمها وتأييدها، وأعلن استقلال الدينار العراقي عن كتلة الجنيه الاسترليني، وأعد نموذجاً جديداً للنقد، ولم يكن لدى العراق رصيد ذهبي يكفي لتغطية النقد الذي سيتم إصداره، ونجح رشيد عالي الكيلاني بإجراء اتصالات مع هتلر تم فيها الاتفاق على إرسال الذهب المطلوب لتغطية النقد مقابل حصول ألمانيا على فائق المنتجات العراقية. وتم إرسال ما يعادل ثلاثة ملايين جنيه ذهبي حملها إلى العراق وزير ألماني على طائرة ألمانية خاصة، ولكن وصول هذه التغطية كان متأخراً فاضطر الوزير الألماني لحمل الذهب ثانية والعودة به إلى ألمانيا.

في يوم ٨ أيار (مايو) وصلت أول طائرة ألمانية لدعم الثورة العراقية. وهبطت في مطار الموصل، وفي ١٦ أيار (مايو) قامت ثلاث طائرات يقودها طيارون ألمان بالهجوم على مطار الحبانية، واستمر وصول الطائرات الألمانية إلى العراق، كما وصل مطار الموصل ٢٠ طائرة إيطالية، وفي الوقت ذاته قام رشيد عالي الكيلاني بإجراء اتصالات مع الاتحاد السوفييتي للحصول على الأسلحة، واستجاب الاتحاد السوفييتي لطلب حكومة العراق، وأخذ الجيش العراقي في الاستعداد لاستقبال الأسلحة الجديدة، وهنا ظهرت مشكلة جديدة هي عدم

توفر الوقود للطائرات، بسبب حصر الكميات والسيطرة عليها بواسطة القوات البريطانية والخبراء البريطانيين، وكان لهذا العامل أثره في إضعاف قوة الثورة.



ونيستون تشرشل

أمام هذا الموقف، قررت القيادة البريطانية احتلال مطار الحبانية بأقصى سرعة ممكنة وذلك لأن الجيش العراقي الذي استطاعت القوات البريطانية تجريده من سلاحه في المعارك الجارية قد يتحول إلى قوة خطيرة إذا ما وصلت أسلحة الدعم من الاتحاد السوفييتي أو ألمانيا. وفي هذه الفترة لم يكن باستطاعة القوات الهندية مغادرة البصرة بسبب الفيضان الذي أعاق القوات الهندية، وجعلها عاجزة عن التحرك إلى الشمال للتدخل في الوقت المناسب. وكان من الممكن تكليف اللواء الميكانيكي القادم من فلسطين بقيادة غلوب باشا لتنفيذ

هذه المهمة نظراً لأنه من التنظيمات سريعة الحركة نسبياً، لكن هذا اللـواء كـان ملزماً بالسير على محاور الطرق لمسافة أربعمائة ميل عـبر الأراضـي الصحراويـة، وذلك قبل وصوله إلى العراق، ومرة أخـرى لم يبـق سـوى النقـل الجـوي وسـيلة يمكن بها تنفيذ مخطط الهجوم بأقصى سرعة ممكنة.

قامت سرية من اللواء "ايسيكس ـ الأول" بالتحرك جواً، ووصلـت أرض المعركة في الساعة الرابعة صباحاً، وانضمت إليها قـوات أخـرى، وبـدأ السـباق للوصول إلى الحبانية من جديد، وقد قا مت القوات الآلية بحركة التفاف واسـعة نحو الجنوب وذلك لتجنب الصـدام مـع المواقـع الدفاعيـة العراقيـة، وفي الوقـت ذاته، تم تدعيم الحامية المدافعة عن المطار باثنين من أفواج المظليين ـ وكان الفوج الأول من قوة لواء "ايسيكس ـ الأول" أمـا الفـوج الثـاني فهـو فـوج "غودكـا الرابع" بالإضافة إلى لواء البصرة ـ وكان وصول هذه القـوات في يـوم ١٨ أيـار (مايو)، وفي هذا اليوم تم الاتصال أيضاً مع عناصر استطلاع اللواء الأول المتقدم من فلسطين بقيادة غلوب باشـا، وبوصـول اللـواء الأول، أصبحـت هنـاك قـوة كافية لتصفية قاعدة الثورة، فبدأت القوات البريطانية هجومها على بغداد فورا.

في يوم ٢٥ أيـار (مـايو) اقتحمـت ثلاثـة أرتـال بعـض الخطـوط الدفاعيـة للقوات العراقية وقامت سرية من مظليي لـواء "ايسـيكس الأول" بدعـم هجـوم هذه الأرتال حيث نفذت عملية إنزالها على مسافة قريبة مـن القـوات العراقيـة، وقد تم إنزال سرية المظليين هذه بمهمة منع وصول قوات الدعم العراقية المنطلقـة مـن بغـداد، وبـدأت بذلـك مرحلـة مـن المعـارك العنيفـة علـى أبـواب العاصمـة العراقية، استمرت فترة عشـرة أيـام، واشـتركت فيهـا الدبابـات العراقيـة، كمـا أسهمت فيها الطـائرات الألمانيـة، ولكـن قـوة دفـع القـوات البريطانيـة المدعمـة

بإمكانات مادية ضخمة ساعدت على تحطيم ميزان القوى وإحراز التفوق بصورة تدريجية، وخلال هذا الاشتباكات أطلقت المدفعية المضادة للطائرات نيرانها على طائرة ألمانية. ونتج عن ذلك سقوط الطائرة وقتل قائدها الألماني "الميجر اكسل فون بلومبرغ" الذي كان يحلق بطائرته فوق أرض المعركة لتوجيه العمليات العراقية ضد البريطانيين.

أظهرت القوات العراقية خلال معاركها بطولات رائعة، وعلى الرغم من التفوق الساحق للقوات البريطانية، فقد استطاع جيش العراق وجماهير العراق الصمود لمدة شهر كامل، ثم أخذ الموقف في التحول لصالح القوات البريطانية، لا سيما وأن حرب الاستنزاف الطويل، وعدم توفير دعم حقيقي لقوات العراق، قد امتص قدرة العراق الدفاعية.

في يوم ٣١ أيار (مايو)، أصبح الموقف في بغداد بائساً، وكانت جثث القتلى تسد مداخل العاصمة، وأرتال الجرحى تسير دون انقطاع، ووجد رشيد عالي الكيلاني نفسه عاجزاً عن معالجة الموقف المتدهور، فقرر مغادرة العراق واللجوء إلى إيران ووصلها في اليوم ذاته. وفي يوم ١ حزيران (يونيو) دخلت القوات البريطانية بغداد التي اقفرت شوارعها من المارة، وتابعت القوات البريطانية عملها للسيطرة على القطر العراقي، وفي يوم ٢ حزيران (يونيو) تم نقل فوج من المظليين، وهو الفوج الثاني من لواء غوركا الرابع، وأنزله في الموصل، وقد استطاع هذا الفوج اعتقال عدد من الطيارين الألمان، والاستيلاء على طائراتهم الجاثمة فوق أرض المطار وفي الوقت ذاته تم توجيه رتل ميكانيكي نحو الشمال بمهمة الوصول بسرعة إلى حقول النفط في الموصل وكركوك، وذلك لضمان استمرار تدفق الزيت ودعم المجهود الحربي البريطاني بالقوة

اللازمة لتسيير عجلة الحرب، واستطاعت القيادة البريطانية القضاء على الثورة التي كانت تسبب لها قلقاً كبيراً وتهديداً خطيراً خلال مرحلة قاسية جداً من سنوات الحرب العالمية الثانية.

وعلى الرغم من النجاح الذي حققته السلطة البريطانية في القضاء على ثورة الشعب العراقي، فقد بقيت ذكريات هذه الثورة وعقابيلها متفاعلة في ضمير الجماهير العراقية ووجدانها، واستمرت التفاعلات الثورية، وعندما انفجرت ثورة بغداد عام ١٩٥٨ وأطاحت بالنظام الهاشمي، أعلن قادة هذه الثورة أن ثورتهم هي ثمرة ثورة رشيد عالي الكيلاني وثأر لها.

جمهورية السودان

ذكرنا سابقاً أنه منذ العام ١٨٢٠ دخل المصريون إلى السودان حيث ارتبط تاريخه إثر ذلك بتاريخ مصر.

وقد بدأ الوعي التحرري يتبلور بشكل واضح في السودان منذ عام ١٩٣٨ أي عقب توقيع المعاهدة المصرية البريطانية في أغسطس عام ١٩٣٦[1] بتأسيس الهيئة التي أطلق عليها اسم «مؤتمر الخريجين» والتي ضمت عدداً كبيراً من الشبان السودانيين المثقفين وعقدت أول دورة لها في أوائل ذلك العام.

وفي ٢ من أبريل عام ١٩٤٢ قدم «مؤتمر الخريجين» مذكرة إلى حاكم السودان العام ـ الذي كان يمثل إنجلترا ومصر ـ طالب فيها بحق السودان في تقرير مصيره.

وفي عام ١٩٤٣ أصدر «مؤتمر الخريجين» قراراً أعلن فيه رغبة السودانيين في قيام حكومة سودانية ديموقراطية في اتحاد مع مصر.

وفي عام ١٩٤٤ بدأت سودنة وظائف الحكومة المركزية بالسماح

---

(١) جاء في المذكرة التفسيرية لمشروع قانون الجنسية السودانية أن الرأي العام السوداني لم يتخذ موقفاً إيجابياً حيال موضوع الجنسية «إلا حوالي عام ١٩٣٨ وكان ذلك الاتجاه وثيق الصلة بالحركة الوطنية التي تزعمها السودانيون المتعلمون بعد إبرام المعاهدة الإنجليزية المصرية في سنة ١٩٣٦ وقد كانت هذه المعاهدة أول وثيقة دولية أشير فيها إلى رعايا السودان بأنهم سودانيون».

للسودانيين بعضوية المجالس الإقليمية، كما أنشئ مجلس استشاري لشمال السودان سمح للسودانيين بعضويته.

وقد نص دستور عام ١٩٤٨ على إنشاء «مجلس تنفيذي» مكون من عدد يتراوح بين ١٢،١٨ عضواً نصفهم على الأقل من السودانيين ويضم زعيم الجمعية التشريعية والوزراء وبعض المستشارين الذين لا يتولون وزارات معينة ووكلاء الوزارات، كما نص هذا الدستور على إنشاء «الجمعية التشريعية» التي كانت تضم عشرة أعضاء منتخبين بطريق الانتخاب المباشر يمثلون المدن السبع الكبرى في السودان، واثنين وأربعين عضواً منتخبين بطريق الانتخاب غير المباشر يمثلون باقي أنحاء السودان الشمالي، وثلاثة عشر عضواً يمثلون مجالس المديريات الجنوبية الثلاث، وعشرة أعضاء يعينهم الحاكم العام وأعضاء «المجلس التنفيذي» إذا لم يكونوا قد انتخبوا أو عينوا في الجمعية.

وفي ١٦ من أكتوبر ١٩٥١ صدر القانون المصري رقم ١٧٦ لسنة ١٩٥١ بتعديل الدستور المصري الصادر في عام ١٩٢٣ وقد نص هذا التعديل على أن:

«تجري أحكام هذا الدستور على المملكة المصرية جميعها، ومع أن مصر والسودان وطن واحد يقرر نظام الحكم في السودان بقانون خاص».

وفي نفس اليوم صدر القانون المصري رقم ١٧٧ لسنة ١٩٥١ الذي نص على:

«١ ـ يكون للسودان دستور خاص تعده جمعية تأسيسية تمثل أهالي

السودان، وينفذ بعد أن يصدق عليه الملك ويصدره، وتتولى الجمعية التأسيسية كذلك إعداد قانون انتخاب يعمل به في السودان بعد التصديق عليه وإصداره».

وفي ١١ من يناير سنة ١٩٥٥ أتمت لجنة السودنة بحث المناصب الحكومية في جميع الوزارات والمصالح.

وفي ١٠ من أبريل ١٩٥٥ غادر رئيس الوزارة السودانية يصحبه بعض الوزراء السودان للاشتراك في المؤتمر الآسيوي الأفريقي.

وفي ٢٠ من مايو ١٩٥٥ قبل السودان عضواً في الهيئة الصحية العالمية التابعة للأمم المتحدة.

وفي ٩ من نوفمبر ١٩٥٥ غادرت القوات المصرية والبريطانية السودان نهائياً.

وفي ١٩ من ديسمبر سنة ١٩٥٥ أصدر مجلس النواب قراراً بأن الجمعية التأسيسية مكلفة بدراسة إنشاء حكومة اتحادية للولايات المتحدة الجنوبية الثلاث[١] كما قرر.

---

(١) في المديرية الاستوائية وحدها يبلغ عدد القبائل عشرة على الأقل هي قبيلة «الباري» في «جوبا» و «اللاتولي» في توريتث و «المادي» بين جوبا وتوربت و«الشولى» في «نمولي» و «الزاندي» في «يامبيو» وكلها من القبائل التي لا تزال تعيش في نفس المناطق التي كانت تعيش فيها منذ تولي أمين باشا إدارة هذه المديرية حتى عام ١٨٩٠ وقد أشير إليها في كتاب «الحقيقة حول أمين باشا» الذي وضعه فيتا أفندي حسان. وإلى جانب هذه القبائل الرئيسية توجد قبائل فرعية مثل قبيلة

وفي ٢٩ من مايو ١٩٥٧ وافق مجلس النواب السوداني على مشروع قانون الجنسية السودانية[1] .

«الديدنجا» في «كابوتا» شرق النيل الأبيض وقبيلة «الفيجولو» في «لوكا» وقبيلة «الأبوكايا» في «ياي» وقبيلة «المورو» في - «ماريدي» وكلها غرب النيل الأبيض وقبيلة «الموندارى» في «تريكاكا» على ضفة النيل الأبيض الغربية.

ورغم كثرة القبائل في مديريات جنوب السودان الثلاث فإن الجمعية التشريعية التي أنشئت عام ١٩٤٨ لم تكن تضم إلا ممثلي ثلاث قبائل فقط فمن بين الخمسة الذين كانوا يمثلون المديرية الاستوائية ممثل لقبيلة «الباري» وممثل لقبيلة «المورو» ومن بين الأربعة الذين كانوا يمثلون مديرية أعالي النيل ممثل لقبيلة «الدنكا» ــ محمود كامل «مصر في السودان» ص ٣٥، ٣٨.

ويبلغ عدد سكان المديرية الاستوائية ٨٧١,٢١٠ وبحر الغزال ٩٩٤,٠٠٤ وأعالي النيل ٨٠٧,٥١٦ من مجموع عدد سكان السودان البالغ ١٠,١٠٩,٥٥٩ ومعظم سكان الأقلية السودانية في المديريات الجنوبية من جنس زنجي ووثنيون. Directory of the Republic of the Sudan 1957 - 1958. ص ١٥، ١٦

(١) نصت المادة ٥ على أنه:

فيما يتعلق بالأشخاص المولودين قبل سريان هذا القانون يكون الشخص سودانياً بالميلاد إذا توافرت فيه الشروط الآتية:

(أ) أن يكون قد ولد في السودان أو أن يكون والده قد ولد فيه.

أن يكون في تاريخ العمل بهذا القانون متوطناً بالسودان وكان هو أو أصوله من جهة الأب متوطنين فيه منذ ٣١ ديسمبر سنة ١٨٩٧.

أو (ب) إذا كان قد حصل على جنسية السوداني بالموطن بموجب المادة ٣ (١) من قانون تعريف (السوداني) لسنة ١٩٤٨ وحافظ على هذه الجنسية.

يكون الشخص المولود بعد العمل بهذا القانون سودانياً وقت ميلاده.

يعتبر سودانياً بالميلاد حتى يثبت العكس، الشخص الذي وجد أو يوجد مهجوراً من والدين مجهولين.

وفي ١٧ من نوفمبر ١٩٥٨ قام الجيش السوداني بزعامة الفريق ابراهيم عبود بانقلاب عسكري واعلن تعطيل الدستور المؤقت ثم نادى بجمهورية السودان العربية الثانية التي تهدف إلى توثيق الصلات بمجموعة الدول العربية وخاصة الجمهورية العربية المتحدة.

في نفس الجلسة أُعلن استقلال السودان وقرر أيضاً الدعوة لانتخاب جمعية تأسيسية لتضع الدستور النهائي للسودان.

وفي ديسمبر ١٩٥٥ أقر البرلمان السوداني الدستور المؤقت الذي أصبح نافذ المفعول منذ أول يناير سنة ١٩٥٦ والذي نصت المادة الثامنة منه على أن:

«يكون السودان جمهورية ديمقراطية ذات سيادة.

تشمل الأراضي السودانية جميع الأقاليم التي كان يشملها السودان الإنجليزي المصري قبل العمل بهذا الدستور مباشرة».

ونص في مادته العاشرة على أن:

«ينتخب البرلمان خمسة أشخاص يكونون معاً مجلس السيادة».

ونص في المادة ١١ على أنه:

«يكون مجلس السيادة السلطة الدستورية العليا في السودان وتؤول إليه القيادة العليا للقوات المسلحة السودانية».

ونص في المادة ٤١ على أن:

«يكون برلمان للسودان من مجلسين، مجلس شيوخ ومجلس نواب»

وفي ١٩ من يناير ١٩٥٦ أصبح السودان عضواً في جامعة الدول العربية.

وفي ١٢ من نوفمبر ١٩٥٦ قبل السودان عضواً في هيئة الأمم المتحدة.

مصر في عهد فاروق



الملك فاروق

في منتصف الثلاثينات كانت هناك تغييرات هامة تقع في مصر. ومع أن كل تغيير منها جرى على غير ما صلة ظاهرة بالآخر، فإن صلات من نوع ما كانت تربط هذه التغييرات كلا منها بالآخر :

كانت هناك مرحلة من الكفاح الوطني على وشك أن تصل إلى نهايتها، وكانت معاهدة سنة ١٩٣٦ (بين مصر وبريطانيا) هي علامة هذه النهاية. والحاصل أن الرعيل الأول من جيل المطالبين بالاستقلال كان قد تعرض كثيراً لعوامل النحر والتعرية وأصبح مكشوفاً لقبول أي حل مع بريطانيا يرد فيه ذكر "الاستقلال" وذكر "الجلاء"، حتى وإن كان ذكر الاثنين يجيء مبهماً.

وكان هناك جيل من الشباب الطامح الذي نشأ بعد مناخ ثورة ١٩١٩، وكان هذا الجيل هو الذي مهد لحركة طلبة الجامعة - سنة ١٩٣٥ - التي فرضت على الزعماء التقليديين للأحزاب أن يجتمعوا معاً في جبهة وطنية لمفاوضة الإنجليز. وفي حقيقة الأمر فقد كان هناك ما يمكن تسميته "نصف ثورة" أشاعت في مصر جواً فواراً. لكن هذا الجو الفوار ما لبث أن خمد بتوقيع معاهدة سنة ١٩٣٦.

وكانت مغامرة "طلعت حرب" العظيمة قد بنت هياكل بنك مصر وشركاته، وشاع بشكل ما إحساس بأن هناك كثيراً يمكن عمله في مجال النمو الاقتصادي، وفي أقل القليل فإن مصرياً بارزاً أثبت عملياً أن النمو ممكن وأن المصريين قادرون عليه.

وفي سنة ١٩٣٦ مات الملك "فؤاد"، وكان حكم هذا الملك المتأثر بالثقافة الإيطالية والقريب من فكرة أسرة "آل سافوى" المالكة في إيطاليا يومها، قد

تراجع مع السنين ـ وأمام ضغوط الحركة الشعبية ـ إلى نوع من حكم "آل بورجيا" الذي تغلب فيه دسائس القصور على طموحات الملوك.

ثم إن ولاية العرض انتقلت بعد الملك "فؤاد" إلى ولي عهده فاروق" الذي بدا في ذلك الوقت صبياً جميلاً ذكياً ناقص التعليم والثقافة معاً، لكنه بصباه قادر على التعويض. وفي كل الأحوال فإن صباه أعطى مصر إحساساً بأنها قرب وعد جديد.

مضافاً إلى ذلك أن الموقف الدولي كان يتحرك بسرعة ـ مع ظهور الفاشية في إيطاليا، والنازية في ألمانيا، والبلشفية في روسيا ـ إلى حافة حرب عالمية يمكن أن تندلع في أوربا، ويمكن أن يصبح الشرق الأوسط واحداً من ميادينها. وذلك المناخ أعطى مصر شعوراً بالخطر إلى جانب الشعور بالأمل ولقاء الشعورين معاً يمكن أن تنتج عنه شحنة كهربية لها ظواهر مدوية مثل البرق والرعد.

إن ذلك المناخ العام المشحون صاحبته علامات تستدعي التأمل :

كان الرجل الذي اختاره الملك "فؤاد" للإشراف على تربية ابنه "فاروق"، والذي رافقه في رحلة العلم التي لم تكتمل إلى بريطانيا، هو نفسه : "عزيز المصري" (باشا)، وهو أول رسول من قوى الثورة العربية الأولى ـ إبان الحرب العالمية الأولى ـ للاتصال والتفاوض مع بريطانيا. وهو نفسه صاحب شرط الدولة العربية المستقلة، وهو الشرط الذي رفضه الإنجليز وحاولوا بعده عزل "عزيز المصري"، وفضلوا عليه ـ وعلى غيره من القوميين العرب ـ أن يكون تعاملهم مع الأمراء الهاشميين والسعوديين الذين شغلتهم التيجان والعروش المعروضة وقتها في واجهات العالم العربي.

وليس معروفاً لماذا وقع اختيار الملك "فؤاد" على "عزيز المصري" بالتحديد، ولعل الملك الذي يئس من الخلافة العربية الإسلامية لنفسه، حلم بها لإبنه، واختار "عزيز المصري" ليكون جسراً يمشي عليه الحلم والفكرة من جيل إلى جيل . ربما.

وربما كانت هناك أسباب أخرى، بينها أن الملك أراد أن ينشأ ابنه نشأة تتفق مع رؤى عصر جديد لمحه الملك العجوز قادماً، وتمنى لابنه الشاب أن يلحق به أو يمسك بأطرافه. ربما.

وربما أن الملك "فؤاد" أراد تربية ابنه تربية عسكرية صارمة تصور أن "عزيز المصري" يمكن أن يعطيها له ويعوده عليها. ربما.

ولعل الخطأ الذي وقع فيه الملك "فؤاد"، أن اختياره لـ"عزيز المصري" كالمرافق الأول لابنه في إنجلترا، صحبه اختياره لـ"أحمد محمد حسنين" أحد أمنائه لكي يكون المرافق الثاني لابنه. وكان هناك تناقض شديد بين شخصية وفكر كل من الرجلين.

فأولهما كان يريد للأمير الشاب حياة جادة صعبة، في حين كان الثاني من أنصار حياة سهلة ورخوة.

والحاصل أن وجود الرجلين في حياة الأمير الصبي أصابه بتناقض عانى منه فيما بعد ـ وعانت مصر معه ـ عناءاً شديداً.

وفي منتصف الثلاثينات، كان تأثير "عزيز المصري" ملحوظاً على الملك الشاب.

وكان الرجل الذي وقع عليه الاختيار لرئاسة الوزارة في تلك الظروف المفعمة بالأمل وبالخطر معاً ـ في أعقاب معاهدة سنة ١٩٣٦ ـ هو "علي ماهر" (باشا). وكان "علي ماهر" سياسياً مستقلاً خارج الأحزاب، ومحاطاً بمجموعة من الرجال يتصورونه "رجل الساعة"، وقد استخدموا هذا التعبير فعلاً ذلك الوقت. وكان بين هؤلاء الرجال مجموعة من هؤلاء الذين أطالوا النظر في قضية انتماء مصر القومي، وقضية مستقبلها، وكان معظمهم من أنصار التوجه إلى الشرق. وإلى جانب "عزيز المصري" كان هناك آخرون من أمثال "عبد الرحمن عزام"، و"محمد علي علوبة"، و"صالح حرب"، و"محمود عزمي"[١]، وغيرهم. وكان تصور هؤلاء جميعاً للشرق غير محدد في ذلك الوقت، فلم يكن الشرق هو الأمة العربية وحدها، وإنما كان الشرق متراميا وراء ذلك واصلاً إلى إيران.

ولعل هذا التوجه شرقاً كان واحداً من الأسباب التي دفعت في ذلك الوقت إلى زواج ملكي يجمع ما بين الأميرة "فوزية" شقيقة الملك "فاروق" و"محمد رضا بهلوي" ولي عهد إيران.

وحتى إذا قيل بأن صاحب فكرة هذا الزواج ابتداء هو "رضا خان" شاه إيران الأب ـ في محاولة للبحث عن أصل عريق في المنطقة لأحفاده ـ فإن القبول المصري بهذا الزواج كان يحمل في طياته إحساساً بأهمية الشرق في المنظور المصري الاستراتيجي، وبالوسائل التي يمكن أن تخدمه بمنطق تلك الأيام!.

---

(١) بدأ الدكتور عزمي حياته العامة نصيراً لفكرة الاتجاه شمالاً إلى أوربا، ووصل إلى حد المناداة باتخاذ القبعة غطاء للرأس، وسبق هو غيره إلى ذلك فعلاً. لكن تأثير مدرسة الشرق ما لبث أن شده إليه وضمه إلى صفوفه.



محمد رضا بهلوي

وكان من العلامات المثيرة للاهتمام في ذلك الوقت، أن تلك كـانت الفـترة التي ظهرت فيها تنظيمات انبعثت من حركة الشباب.. نصف الثورة سنة ١٩٣٥.

كـانت جماعـة "الإخـوان المسـلمين" قـد ظهـرت في أواخـر العشــرينات،

ولكنها اكتسبت لنفسها قوة جديدة في ظروف الفوران الذي صاحب أجواء مصر فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة. وكانت علاقة "الإخوان المسلمين" بـ "علي ماهر" وثيقة، وعن طريقه كانت العلاقة بالقصر سالكة.

ونفس الشيء حدث لجماعة أخرى من الشباب، وهي حركة "مصر الفتاة" وقد تزعمها "أحمد حسين"، وبرز إلى جواره جمع من الشباب المرموق بينهم "فتحي رضوان" و"نور الدين طراف".

هكذا فإن اهتمام مصر بثورة الشعب الفلسطيني سنة ١٩٣٦ لم يكن عشوائياً، وكذلك لم يكن من قبيل المصادفات اشتراك مصر في مؤتمر فلسطين في لندن سنة ١٩٣٨.

ثم حدث أن الحرب العالمية الثانية زحفت بجيوشها إلى ميادين القتال بما فيها مصر.

ومما يستحق الاهتمام مراجعة ما حدث لمدرسة الشرق وقت الحرب العالمية الثانية، وحين فرض الإنجليز في ظروفها سلطتهم العسكرية على مصر، كما كانت تقريباً في وقت الحماية أثناء الحرب العالمية الأولى.

لقد تم اعتقال "علي ماهر" باشا، والمزعج أنه اعتقل داخل مجلس الشيوخ بطلب من السفير البريطاني وقع عليه "مصطفى النحاس" (باشا).

كذلك جرى اعتقال "عزيز المصري" (باشا) بصرف النظر عن الظروف، وجرى تحديد إقامة آخرين من رجاله مثل "صالح حرب" (باشا)، كما جرى

حصر نشاط آخرين منهم مثل "محمد علي علوبة" (باشا) و"عبد الرحمن عزام" (باشا) وغيرهما.

ونفس المصير : السجن أو العزل أو الحصار، لحق برجال من أمثال "أحمد حسين" و"فتحي رضوان" و"نور الدين طراف" و"الشيخ حسن البنا".

بدا أن أعدى أعداء الإنجليز في مصر وقت الحرب هم أنصار مدرسة الشرق. فقد كانت السياسة البريطانية ما زالت تعمل وفق الخطوط التقليدية القاضية بعزل مصر في أفريقيا بعيدة عن تفاعلات ما كان يجري في الشرق.

وفي نفس الوقت وتحت ضغط الظروف وبإدراك أعمق لحقائق التاريخ فإن الاتجاه نحو الشرق في مصر بدأ يرى بوضوح خط المستقبل وآفاقه.

وكان التاريخ يؤكد نفسه حتى من خلال تصرفات هؤلاء الذين يعملون على عكس اتجاهه.

والحاصل أن الإنجليز أنفسهم كانوا أول من أعطى للحركة العربية مرة أخرى رخصة للفعل. وهكذا فإن ما حدث في الحرب العالمية الأولى، عاد ليعرض نفسه بطريقة مختلفة في ظروف الحرب العالمية الثانية.

ثم كان ـ لضرورات استمرار الحرب قبل معركة العلمين الفاصلة التي أنهت حلم "هتلر" بالوصول إلى قناة السويس ثم سوريا والعراق وما بعدهما ـ أن الشرق العربي كله وُضع تحت سلطة وزير بريطاني ـ عضو كامل في مجلس الوزراء ـ مقيم في الشرق الأوسط. ونظراً لصعوبة وسائل المواصلات والاتصالات بسبب ظروف الحرب، فإن الوزير البريطاني المقيم في الشرق الأوسط أصبح حاكم المنطقة، في مجالي السياسة والاقتصاد.

ودون أن يقصد أحد فقد برزت خلال الحرب حقيقة كبرى، تلك هي أن المنطقة من وادي الفرات إلى وادي النيل ـ وسوريا وسطها ـ ضلع مكمل للضلع المصري على الزاوية الجنوبية الشرقية للبحر الأبيض، أصبحت وحدة واحدة، لها خصائص مشتركة. وبينها تكامل جغرافي لا يمكن قطعه، وأمن يصعب الفصل بين مقتضياته، ومصالح متصلة، وتماثل ثقافي من نوع فريد، ومركز ثقل واحد ـ في القاهرة ـ ليس من السهل تعويضه.

وفي هذه الفترة تبدى المعدن الحقيقي لخيوط الحرير التي نسجها الشعراء والفنانون والكتاب، فإذا خيوط الحرير تتحول إلى جسور من حديد.

كانت قيادة الشرق الأوسط ـ وتحت إشراف الوزير البريطاني المقيم ـ تنسق على اتساع المنطقة كل شيء:

الإنتاج، التموين، المواصلات، القرار السياسي. إلى جانب المشاركة بالجهود العسكرية اللازمة لتحقيق النصر ضد ألمانيا وإيطاليا وشركائهما في الحرب.

ولم يكن ممكناً لذلك أن يحدث إلا ويصاحبه، يسبقه ويلحقه، تفاعل من داخل المنطقة ذاتها يتصل بما يجري فيها ويجري حولها، خصوصاً إذا كانت هناك من الأصل قواعد ولحقت على القواعد وبقوة الأشياء.. جسور.

والحاصل أنه في سنوات الحرب، سواء والقتال يجري قريباً من المنطقة أو عندما ابتعدت الجيوش متحركة إلى ميادين أخرى كانت منطقة الشرق الأوسط قائمة بذاتها، معتمدة على بعضها، متصلة بغير عوائق أو فواصل لأنها كانت في إطار مسرح استراتيجي واحد.

ولعل الحكومة البريطانية ـ دون أن تقصد ـ سمحت للقواعد والجسور أن تؤدي دورها في جلاء حقائق، وفي ربط أطراف، وفي تنسيق حركة تيارات. وقد فعلت ذلك لأغراضها وكان في بعضه تكراراً لما حدث في الحرب العالمية الأولى.

ثم إن الحكومة البريطانية تمنت أن يخلص لها الشرق الأوسط بغير شريك، وقد تصورت أن فرنسا التي شاركتها مرة من قبل في قسمة المنطقة خرجت من القسمة باستسلامها لـ"هتلر" سنة ١٩٤٠ وبقيام حكومة موالية في فيشي للمحور يتزعمها الجنرال "بيتان".

واستغلت بريطانيا سقوط فرنسا في الغرب ومدت يدها إلى ممتلكاتها في الشرق ـ سوريا ولبنان ـ فأخرجت منها الإدارة التابعة لحكومة "فيشي"، ودخلت إلى بيروت ودمشق محررة بجيش يقوده الجنرال (جامبو) "ويلسون".

لكن ضرورات الحرب في الغرب اقتضت مهادنة فرنسا التي يمثلها الجنرال "ديجول"، وهو وقتها لاجئ بحكومته إلى لندن، ومن أجل بناء مصداقية حركة فرنسا الحرة ـ وقائدها "ديجول" ـ وعلى أمل دور منتظر لهما في إعادة غزو أوربا عندما يجيء الوقت، فإن بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية سمحتا مرة أخرى لفرنسا ـ "ديجول" ـ أن تعود إلى سوريا ولبنان. لكن المشكلة أن "ديجول" بشخصيته العنيدة، وبتصوره لعظمة فرنسا، أخذ الموضوع جداً أكثر من اللازم، واعتبر إدارته في سوريا ولبنان فعلاً سلطة حاكمة.

وقامت بريطانيا بتشجيع حركة وطنية في سوريا ولبنان وجدت أن متغيرات الأحوال وسرعة هذه المتغيرات تتيح لهما فرصة تاريخية في الاستقلال عن فرنسا.

ونشط جنرال بريطاني من المخابرات مرة أخرى ـ هو الجنرال "سبيرز" ــ إلى الاتصال بزعماء الثورة الوطنية في الشام، وإذا الجنرال "ديجول" يفقد أعصابه للحظة ويسمح للحاكم الفرنسي العام (في ديسمبر ١٩٤٣) بأن يلقي القبض على صفوة الزعماء السياسيين في دمشق وبيروت، وأن يودعهم في السجون والقلاع البعيدة!.

ولم تكن بريطانيا قادرة على أن تتصدى للتصرفات الفرنسية بنفسها، وهكذا فإنها تركت الحركة الشعبية العربية تعبر عن نفسها، وقد كان. وتقدم رئيس وزراء مصر "مصطفى النحاس" في هذه الظروف يقود من القاهرة موجة رد فعل واسعة ضد تصرفات فرنسا.

ومع جرعة من الضغط البريطاني، بدواعي أن شبح الحرب لم يبتعد بعد عن آفاق المنطقة، اضطر "ديجول" إلى التراجع، وجرى إعلان استقلال سوريا ولبنان.

وكانت تلك تجربة للقوى القومية لا بأس بها بصرف النظر عن كل الملابسات الدولية التي أحاطت بها كان "أنتوني إيدن" وزير خارجية بريطانيا قد وقف يعلن في مجلس العموم في صيف ١٩٤٢ أن بريطانيا سوف تنظر بعين العطف بعد الحرب إلى آمال الشعوب العربية في تحقيق نوع من الوحدة بينها. وفي هذا التصريح الأول على لسان "إيدن" فإن وزير الخارجية البريطاني لم يشر إلى مصر.. وإنما تحدث عن العرب بدونها.

لكنه بعد شهور وقف "أنتوني إيدن" في مجلس العموم مرة أخرى يكرر تصريحه وفي هذه المرة أضاف مصر إلى العالم العربي.

ولم تكن تلك نوبة تطوع بالإحسان اعترت وزير الخارجية البريطانية ــ في وزارة "ونستون تشرشل" ـ وإنما كانت على وجه القطع استجابة لحقائق جديدة بدأت تتضح وراحت تكسب لنفسها أرضاً جديدة كل يوم.

وقبل أن تنتهي الحرب وتتوقف معاركها في أوربا، كان "مصطفى النحاس" (باشا) يواصل التزام مصر العربي الذي تجلى في معركة استقلال سوريا ولبنان، بالعمل على وضع الأساس لجامعة الدول العربية. وكان "النحاس" باشا قد تحول هو الآخر بتجربة الحرب ودروسها، وبما نشأ وتراكم داخل مصر وحولها من تيارات سياسية وفكرية إلى مدرسة الشرق. وكان هو الذي تفاوض وقام بتوقيع ميثاق الجامعة العربية في خريف سنة ١٩٤٤، ومن المفارقات أنه وقع ميثاق الجامعة، ثم جرت إقالته في اليوم التالي مباشرة.

وكانت سنوات الحرب وظروفها قد خصمت ضرائبها من جميع الأطراف، وأولها حزب الوفد الذي فقد قوته كممثل رئيسي للقوى الشعبية في مصر نتيجة لعنصرين :

أولهما حادث ٤ فيبراير (حين حاصرت الدبابات قصر عابدين وفرضت وزارة وفدية على الملك بدواعي سلامة الجهد الحربي. ومن الإنصاف أن "مصطفى النحاس" باشا ـ طبقاً لما تقول به وثائق الحرب ــ لم يكن أمامه غير القبول بتأليف (الوزارة) ـ لكن ذلك لا ينفي واقع أن قبوله الوزارة "على أسنة الحرب الإنجليزية" ـ كما كان يقال ــ أدى إلى نوع من الانكسار في شرعيته السياسية.

والعنصر الثاني أن ظروف الحرب أثرت في نوعية قيادات الوفد، ونقلت

مركز القوة في هذا الحزب العتيد من جماعات المثقفين ـ الذين قادوا حركته في السنوات الصعبة الأولى ـ إلى قيادة كبار ملاك الأراضي الذين كانوا على استعداد باستمرار لحلول وسط تتصل بالمصالح الطبقية أكثر من اتصالها بحركة الوفد الأصلية وتوجهاتها السياسية والاجتماعية.

كانت سنوات الحرب وظروفها قد فعلت فعلها وأكثر في موقع آخر، وهو القصر الملكي الذي ظل لسنوات معقلاً لسياسة الشرق في السياسة المصرية.

إن الملك "فاروق" الذي شهدته بداية الحرب شاباً وطنياً متحمساً، خرج في نهاية الحرب رجلاً آخر، ومن الحق أن هناك عوامل ظاهرة لعبت دورها في تغيير شخصيته.

كان هناك أثر حادث من نوع ٤ فبراير عليه، وقد تعرض فيه لإهانة كبرى، وعامله المندوب السامي البريطاني، السير "مايلز لامبسون" ـ (اللورد "كيلرن" فيما بعد) ـ معاملة طفل شقي لا يستحق قطعة حلوى في فمه وإنما يستحق علقة على مؤخرته. وكانت تلك تجربة مريرة أورثت الملك كراهية عميقة للتيارات الشعبية التي كان الوفد يمثلها آنئذ.

وكانت هناك المحنة الشخصية التي تعرض لها الملك كإنسان.

فقد خانته أمه الملكة "نازلي" مع رئيس ديوانه "أحمد حسنين" ونشأت بين الاثنين علاقة غير شرعية رغم محاولات لاحقة قاما بها لتغطية العلاقة بعقد زواج عرفي. وكانت تلك ضربة لكبرياء الملك!.

والحاصل أن الملكة الأم كانت ذات شخصية غير متوازنة في أقل القليل، ومن ذلك أنها في سنوات حياتها الأخيرة في الولايات المتحدة، قررت أن ترتد عن الإسلام وتتنصر وتعتنق المذهب الكاثوليكي. وقد أثرت "نازلي" على ابنتيها اللتين عاشتا معها في أمريكا، هما "فايزة" وفتحية"، وكلتاهما ماتت وهي مسيحية كاثوليكية.

والأدهى من ذلك أن أمه لم تكن وحدها التي خانته، وإنما خانته زوجته "فريدة" أيضاً.

والحقيقة المرة أن وثائق القصر ووثائق الخارجية البريطانية تحفل بتفاصيل كثيرة عن العلاقات المضطربة بين الملك الشاب وزوجته الشابة.

ويبدو في الظاهر أن التماثل في السن بين الاثنين خلق لدى "فريدة" حاجة إلى رجل أكثر نضجاً، وكان أن وقعت في غرام "وحيد يسري" (باشا)، وهو بمثابة ابن عمة للملك (أو أسوأ لأن أمه الأميرة "شويكار" هي الزوجة الأولى للملك "فؤاد").

لكن مشكلة الملكة "فريدة" كانت فيما يبدو أعمق من ذلك، فوثائق القصر والسفارة البريطانية والخارجية البريطانية تربطها بعلاقة غير شرعية مع ضابط بريطاني اسمه الكابتن "سيمون إلويس"، وكان قبل الحرب رساماً له مستقبل، وقادته خدمته في مصر إلى التعرف على بعض العائلات الكبيرة بها، ورسم بالفعل صوراً لبعض شخصياتها بما في ذلك صورة للسيدة "ناهد سري" وهي قرينة "حسين سري" باشا الذي كان رئيساً للوزراء، وفي نفس الوقت خالة الملكة "فريدة"، وهكذا فإن "سيمون إلويس" دخل القصر أول مرة يرسم صورة

زيتية للملكة، ثم تذرع بأن زحام القصر يفسد إلهامه فدعاها إلى تكلمة الصورة في "مرسمه"، وتطورت الأمور بين الاثنين. وحين انكشفت العلاقة قام السفير البريطاني نفسه بالتحقيق مع الضابط الفنان الذي بلغ به السخف حد أن يقول "إنه لا يستطيع أن يرسم صورة إلا إذا أحس مباشرة بموضوعها". وقد جرى ترحيل هذا الضابط إلى جنوب أفريقيا في ظرف أربع وعشرين ساعة.

(إن تفاصيل القصة لسوء الحظ كاملة في مذكرات لورد "كيلرن" ومخطوطاتها جميعاً في مكتبة كلية "سانت أنتوني" بجامعة أكسفورد، وقد وردت أول إشارة للقصة في يوميات ٣٠ مارس ١٩٤٣، وظل ذكرها يرد في الصفحات حتى يوم ٤ يناير ١٩٤٤. كذلك فإن اللورد "كيلرن" أشار إلى الواقعة في برقية إلى وزارة الخارجية بتاريخ أول مارس ١٩٤٤، وهي تحت رقم ٣٧١/٣٥٥٣٠).

ويظهر أن الملك "فاروق مات في آخره عمره مجروحاً مما حدث له في زواجه الأول، وقد روى لبناته الثلاثة من "فريدة" وهن : "فريال" و"فوزية" و"فادية" تفاصيل ما جرى له معها، وكان من نتيجة ذلك أن البنات الثلاثة قاطعن أمهن إلى درجة رفض زيارتها في مرض موتها!.

ولعله كانت هناك ـ إلى جانب أوجاعه العائلية ـ أسباب قصور وتهافت في شخصيته أثرت عليه، أو لعل حادث السيارة الذي وقع له في قرية "القصاصين" أصابه في رأسه بما استعصى دواؤه.

لكن الحقيقة النهائية تبقى مع الأسف وهي أن ملك مصر الذي عاش أول أيام الحرب العالمية الثانية ـ شاباً وطنياً يحمل بشارة أمل ـ وصل في الأيام الأخيرة

من الحرب إلى أصبح كتلة شحم مترهلة تبحث عن الكرامة والسعادة ولا تعثر للاثنتين على أثر!.

كان ملك مصر الشاب وعداً، لكنه وعد أخلف موعده!.

ومهما يكن فإن مصر وقعت على ميقاق الجامعة العربية بقوة الأشياء وليس أكثر. فحزب الأغلبية ورئيسه "مصطفى النحاس" لم يكونا في وضع يسمح لهما بالتخطيط للمستقبل، والملك الشاب ـ الذي راوده الحلم في سنوات ملكه الأولى ـ أضاع أحلامه بصرف النظر عن أن ظروفه ساقته إلى الضياع!.

وهكذا وجدت مصر نفسها تدخل إلى عالمها العربي، وهي ليست بعد واثقة من خطأها، وكان ذلك تأثير واقع الحال، وربما ساعدت عليه عوامل إضافية.

استقلال ليبيا

كانت ظروف الحرب العالمية الثانية هي التي ساعدت، بالصراع الذي وقع فيها بين الحلفاء ودول المحور، على وصول ليبيا إلى الاستقلال. وكانت ظروف نفس الحرب، وعملياتها هي التي ساعدت على تفوق نفوذ الامير محمد إدريس السنوسي على غيره في هذا الاقليم العربي. ولاشك أن ليبيا قد دفعت ثمناً غالياً لحصولها على الاستقلال، ودفعته بعد سنوات طويلة من الكفاح، من دماء رجالها وابنائها. ولكننا سنلاحظ أن خط سير الاحداث في ليبيا سيبدأ من برقة، وهو الاقليم الذي تفوق فيه نفوذ السنوسيين، وسيسير في توافق مع النفوذ البريطاني في الشرق الاوسط، وإلى أن يتمكن من التغلب على العقبات، ومن الوصول إلى الاستقلال. وكان إنشاء الجيش السنوسي في أول الحرب العالمية الثانية هو أول خطوة لتدعيم زعامة وقيادة السيد محمد إدريس السنوسي، والوصول بالتالي إلى امارته على كل ليبيا.

(١) الجيش السنوسي :

كانت بريطانيا قد فرضت على السيد محمد ادريس المهدي بعد التجائه إلى مصر سنة ١٩٢٣ عدم الاشتغال بالسياسة، وذلك عن طريق غير مباشر، إذا أن السلطات المصرية هي التي حصلت منه على مثل هذا الوعد. ولم تكن بريطانيا في ذلك الوقت ترغب في اثارة المشكلات مع المملكة الإيطالية.

ولكن بريطانيا كانت لاتجهل أهمية وجود الأمير في مصر، خاصة وأنه يسيطر على معظم أبناء برقة، وعلى الاقل من الناحية الدينية. ورغم أن بريطانيا لم تكن في نزاع مع إيطاليا الا أن التنافس الاستعماري بين هاتين الدولتين قد ازداد في الوضوح مع وصول الفاشستيين إلى الحكم في روما، ومع بداية تحدثهم مع ضرورة احياء الامبراطورية اللاتينية القديمة والتحدث عن البحر المتوسط ـ وهو طريق الامبراطورية البريطانية الرئيسي ـ على أنه بحرهم. وزاد خوف بريطانيا من ايطاليا في الثلاثينات، وخاصة حين بدأت ايطاليا في شن هجومها على امبراطورية اتيوبيا. حقيقة أن السلطات المصرية كانت قد قيدت حركة السيد محمد ادريس المهدي حين زيارة الملك فيكتور عما نويل الثالث لمصر لزيارة رفيق صباه أحمد فؤاد، والتمهيد للعمليات التالية في شرق افريقية. ولكن سرعان ما شعرت بريطانيا بأن عملية احتلال إيطاليا لاتيوبيا تعتبر تهديداً صريحاً لها في الشرق الاوسط، وفي شمال شرق افريقية. ووقفت بريطانيا معارضة لايطاليا في عصبة الامم، وطالبت بتطبيق العقوبات الاقتصادية عليها. ونلاحظ في ذلك الوقت أن بريطانيا قد اتصلت بالسيد محمد ادريس في قصره في حمام مربوط سنة ١٩٣٦ وأبلغه الكولونيل برملو رغبة القائد العام للاسطول البريطاني في البحر المتوسط في رؤيته على سفينة قيادته الراسية في ميناء الاسكندرية. ومما لاشك فيه أن تاريخ ومحتويات مثل هذه الزيارة لم ينشر حتى الآن، ولكن ذلك لا يقلل من أهمية الحادث، حتى وإن كان قد إقتصر على «جولة في الأفق السياسي» مع بعض التمنيات الرقيقة عن مستقبل السنوسية ومستقبل الليبيين الموجودين في المنفى، إذ أن معنى ذلك هو تمهيد الجو لكسب السيد محمد ادريس في حالة الاحتياج إليه.

وجاء بعد ذلك اعلان الحرب العالمية الثانية، وحاولت السلطات البريطانية في مصر أن تستعين بنفوذ السيد محمد ادريس المهدي. كما ظهرت اتجاهات موازية لذلك عند الحكومة المصرية التي شرعت في تجنيد رجال قبائل أولاد علي فيما يسمى بسرايا العرب، وعند السفارة الفرنسية التي حاولت الاتصال بدورها بعدد من المهاجرين الليبيين، وخاصة من ذوي الاتجاهات الجمهورية، والذين كانوا من اقليم طرابلس الغرب، والذي يجاور كل من تونس وتشاد. ولكن انهزام فرنسا في الحرب وموافقتها على الهدنة أخرجها من ميدان العمليات مع الليبيين، وبصفتها دولة كبيرة. كما أن العناصر الليبية الذين اتصلت بهم الحكومة المصرية فضلوا البقاء في التنظيمات العسكرية التي سيقوم بها الامير محمد ادريس المهدي، وبمعاونة البريطانيين، على دخولهم في سرايا العرب.

ولقد نشط السيد محمد ادريس نشاطاً كبيراً بمجرد اعلان الحرب، واسرع إلى مقابلة رجال السلطات البريطانية في القاهرة، ثم قرر عقد اجتماع في داره بالاسكندرية لما يقرب من اربعين شيخ من المهاجرين الليبيين في ٢٠ اكتوبر سنة ١٩٣٩. وانتهى هذا المؤتمر بتفويض الأمير في أن يقوم بمفاوضة الحكومة المصرية والحكومة البريطانية لتكوين جيش سنوسي، يشترك في افتتاح الاقاليم الليبية وفي استرجاع ارض الوطن بمجرد دخول ايطاليا الحرب. وإن كانوا قد اشترطوا ذلك بتكوينه لهيئة منتخبة شورية «مربوطة به ومربوط بها» حتى يصلوا الى حكم الشورى. وقابل الأمير محمد ادريس بعد ذلك الجنرال ويلسون، القائد العام للجيش البريطاني في مصر، وشرح له استعداد الليبيين للتطوع في جيش سنوسي يعمل مع البريطانيين ومع جيوش الحلفاء ابتداء من

مصر. ولقد أيدت جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوي من دمشق هذه القرارات، وأظهرت استعدادها لتنفيذها والمشاركة في تحرير البلاد.

وسرعان ما أعلنت إيطاليا الحرب بعد أن ظهر أن فرنسا لن تقاوم طويلا أمام الالمان، واعلنتها على فرنسا وبريطانيا في نفس الوقت. فنقل الأمير مقره من داره في فيكتوريا بالاسكندرية إلى مزارعة في كرداسة بالجيزة، حتى يكون قريبا من مقر القيادة البريطانية العامة للشرق الاوسط. وسرعان ما ادت الاجتماعات إلى اتفاق مع البريطانيين، لتكوين فصائل من القبائل السنوسية العربية لاستخلاص بلادهم من أيدي الايطاليين واجتمع الشيوخ الليبيين من جديد في ٨ أغسطس سنة ١٩٤٠ بالقاهرة وقرروا وضع ثقتهم في بريطانيا التي ستساعدهم في تخليص بلادهم من الايطاليين، وقرروا اعلان الامارة السنوسية، ومبايعة السيد محمد ادريس أميراً على البلاد، وكذلك تكوين مجلس شورى للامير؛ هذا علاوة على الدخول في الحرب ضد ايطاليا مع الجيوش البريطانية، وتحت العلم السنوسي. وتكوين «حكومة» سنوسية مؤقتة تشرف على الادارة والتجنيد. واخيراً تكليف الأمير بالتوسل لدى بريطانيا لكي يطلب المخصصات اللازمة للتجنيد ولادارة الحكومة وميزانيتها، ولكن على أن يتم كل ذلك تحت العلم الليبي، علم الامارة السنوسية.

ولقد حضر الجنرال ويلسون الاجتماع بعد ذلك ووعد باعطاء الليبيين كل ما يلزمهم. وبدأ العمل في تكوين الجيش السنوسي وتدريبه، وأنشئت لذلك المعسكرات في امبابة وجنيفة والبرلس والهرم، وأماكن كثيرة إلى جوار المعسكرات البريطانية في الشرق الاوسط. وأشرف البريطانيون على تدريب الليبيين وتسليحهم ودفع رواتبهم. وبلغ عدد القوات السنوسية ما يزيد على

١٤,٠٠٠ جندي، بقيادة ١٢٠ من الضباط الليبيين. وكانت الرتب العسكرية تمنح لهؤلاء الضباط بناء على اختيار الكولونيل البريطاني لهم، وبعد موافقة السيد محمد ادريس، ولكن باسم القائد العام للقوات البريطانية في مصر. وإن تاريخ هذا الجيش السنوسي لمرتبط كل الارتباط بتاريخ العمليات الحربية في منطقة الشرق الاوسط، سواء أكان ذلك في صحراء مصر الغربية أو في برقة وطرابلس. ولا ننسى أن قوات فرنسا الحرة قد تمكنت في نفس الوقت من الحصول على عدد من المتطوعين الليبيين للخدمة مع قواتها، واستخدمتهم من مصر ومن تشاد، مع القوات التي خضعت لقيادة الجنرال ليكلير.

(٢) الامارة وبريطانيا :

عملت القوات السنوسية مع القوات البريطانية في صحراء مصر الغربية.

وحين قامت قوات الماريشال جراتزياني بالزحف على السلوم في سبتمبر سنة ١٩٤٠، ووصلت بعد ذلك إلى سيدي براني كانت هناك قوات سنوسية قد بدأت في عملها مع القوات البريطانية، بقيادة الجنرال ويفل، وشاركت معها في الهجوم البريطاني المضاد الذي تمكن من الاستيلاء على سيدي براني في شهر ديسمبر ثم الدخول إلى برقة في أوائل شهر يناير سنة ١٩٤١. وشاركت في معارك البردية وطبرق والجغبوب، وفي الاستيلاء على كل برقة وفي طرد الايطاليين من بنغازي في شهر فبراير. وفي نفس الوقت كانت عناصر ليبية أخرى قد اشتركت مع قوات فرنسا الحرة في عملية الزحف من الجنوب، ومن تشاد على ليبيا.

ولكن سرعان ما رتب الفاشستيون صفوفهم، ووصل الماريشال روميل

إلى شمال افريقية، وكان يمتاز بالسرعة في التفكير، والسرعة في الحركة، والسرعة في الانتصار حقيقة أن الأمير محمد ادريس السنوسي كان قد أشرف مع البريطانيين على عملية التوجيه المعنوي، أو الدعاية، فيما وراء خطوط الاعداء، ولكن هذه المجهودات لم تكن كافية أمام الهجوم المفاجئ الذي شنه الفيلق الافريقي وبتوجيه من الماريشال روميل. فبدأ تقهقر الحلفاء من جديد، وكان على الليبيين أن يحموا ظهورهم في أثناء تقهقرهم.

وإذا كانت بريطانيا قد بذلت مجهوداً كبيراً مع الجنرال أو كنلك، وتمكنت من التوغل من جديد في برقة، في الوقت الذي تمكنت فيه قوات الجنرال ليكلير من الزحف شمالاً، فإن هذه العمليات قد انتهت بهجوم الماني ايطالي جديد وسريع، أوصل قوات المحور الى الكيلومتر رقم ٥٠ غربي العلمين.

وكان على بريطانيا أن تقيم في هذا الموقع خطوط دفاعها عن الدلتا وعن قناة السويس، وعن الشرق الاوسط بأكمله. وقام الليبيون بدورهم كاملاً في هذه العملية.

وحين جاء ونستون تشرشل الى القاهرة، وعين الجنرال الكسندر قائداً عاماً للشرق الاوسط، والجنرال مونتجمري قائداً للجيش الثامن، ظهر أن هناك هجوم جديد سيوصل البريطانيين والحلفاء الى ليبيا مرة أخرى.

والواقع أن هذا الهجوم الجديد كان حاسماً في تاريخ الحرب، إذ أنه أوصل قوات الحلفاء الى طرابلس. وتعاون مع البريطانيين فيه رجال فرنسا الحرة، واستمرت العمليات الحربية بعد ذلك في تونس، وتهيأ الجو لنزول القوات الامريكية في الجزائر وفي المغرب الاقصى. ولقد وضعت الاسس بذلك لانتصار

الحلفاء. وشارك رجال الجيش السنوسي في هذه العمليات مشاركة فعالة. ولقد صرح انطوني ايدن في مجلس العموم البريطاني سنة ١٩٤٢ باتصال الأمير السنوسي بالهيئات البريطانية المسؤولة في مصر، وبإنشاء الجيش السنوسي، وبتقديم هذا الجيش لمساعدات قيمة في العمليات الحربية في الصحراء الغربية، وتعهد في نفس الوقت بأن حكومته لن توافق على رجوع السنوسيين في برقة تحت الحكم الايطالي بعد نهاية الحرب. وكان الأمير محمد ادريس السنوسي يواصل زياراته لمعسكرات التدريب ومعسكرات الجيش السنوسي حتى يرفع من الروح المعنوية للرجال. وكانت الرواتب التي تصرف لهم تشجعهم على حمل السلاح.

ولقد مهدت هذه العمليات لظهور القيادة الجديدة السياسية لليبيا، حتى وإن كان ظهورها في اقليم برقة أشد ظهورا منه في اقليمي طرابلس وفزان.

وحين تم لقوات الحلفاء السيطرة على اقليم برقة ارسل الأمير وفدا للاشتراك في الاحتفالات الخاصة باخراج الايطاليين من البلاد. ورغم أن برقة كانت في ذلك الوقت تحت الادارة العسكرية البريطانية، إلا أن هذه الاحتفالات قد ساعدت على زيادة ترديد اسم الأمير، وبصفته أمير البلاد. ورحب البريطانيون بذلك، إذ أن هذه الامارة الجديدة كانت تعمل معهم.

ثم وصل السيد محمد ادريس المهدي بنفسه إلى برقة في شهر يوليو سنة ١٩٤٤، وكانت زيارة تاريخية مليئة بالاحتفالات. وذهب معه في هذه الزيارة ذلك العدد من الشيوخ والرؤساء الذين كانوا قد بايعوه في القاهرة، والذين اعطوا لانفسهم صفة الجمعية الوطنية العمومية، التي اشتركت في الحرب الى

جانب البريطانيين. ولقد ادلى الأمير بتصريحات في برقة هنأ فيها البلاد بخلاصها من الاستعمار، ولكنه شرح أنه لايطمح في أي شيء من هذه الدنيا الفانية الا رؤية الليبيين يتمتعون بحريتهم ضمن حلف دفاعي وتعاون مع بريطانيا. كانت هذه هي تمنياته وما سعى اليه. وشرح مساعدة بريطانيا وكرمها حيال جهادهم وتكوينهم لقواتهم العسكرية، كما شرح أنهم حلفاء أوفياء، وأن ميثاق الاطلنطي والنبل البريطاني هما أكبر عون له على الوصول الى تحقيق الحقوق المشروعية. ونصح الاهالي بالصبر والتأني، خاصة وأن الحرب لم تكن قد انتهت بعد. وشرح أن الجمعية الوطنية العمومية هي التي ستساعده على تنظيم الأمور، بعد أن اتخذت الخطوات الأولى في هذا السبيل. وإذا كان الأمير لم يتحدث صراحة في هذا الخطاب الذي ألقاه في بنغازي عن الاستقلال، فانه قد تحدث في الخطاب التالي في درنة عن هذا الاستقلال، وذكر أنه سيكون نتيجة للتعاون مع بريطانيا العظمى. ولكن المهم هو أن الظروف لم تكن تسمح باعلان هذا الاستقلال في ذلك الوقت.

كما أن الظروف الداخلية لم تكن تسمح للأمير بزيارة اقليم طرابلس. وقرر العودة إلى مصر، لمواجهة مهام كبيرة.

(٣) الاطماع الاستعمارية والاستقلال :

إذا كان وجود القوات البريطانية في اقليم برقة قد عمل على تدعيم نفوذ الأمير محمد ادريس السنوسي هناك، فان دخول قوات فرنسا الحرة اقليم فزان المجاور لتونس ولحدود الجزائر الجنوبية، كان يحد من سيطرة الأمير على هذا الاقليم. وكانت لفرنسا أطماع واضحة في غات وغدامس التي كانت مراكزاً

للطرق الصحراوية وللقوافل. وتهدد أمن الحدود للمناطق العسكرية الجنوبية في كل من تونس والجزائر. ولذلك فان القوات الفرنسية لم تكن قد صممت على تركها، سواء للأمير أو حتى لأبناء الاقليم. وكذلك كان الحال بالنسبة لإقليم طرابلس الذي زاد فيه وضوح الاتجاه الجمهوري، كما ظهرت فيه بعض الاتجاهات المعارضة لنفوذ سمو الأمير. وكانت العمليات الحربية قد سمحت للأمريكيين بالاستناد إلى منطقة طرابلس لإكمال تنقلاتها ومواصلاتها الحربية مع شمال افريقية وجنوب أوربا في ذلك الوقت. وهكذا شاهد الاقليم الثالث في ليبيا وجود قوات أمريكية فيه. وإذا كانت بريطانيا قد حاولت البقاء في برقة، وبصفتها اقليما مجاوراً لمصر ويمكن لسلاح الطيران من قواعده من بنغازي الاشتراك في عمليات الدفاع عن قناة السويس بسهولة، فان فرنسا لم تكن مستعدة لإخلاء إقليم الفزان، كما أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تكن مستعدة لإخلاء قواعدها في طرابلس. وظهر في ذلك الوقت الاتجاه الأمريكي الذي ادعى بأنه معادي للاستعمار، والذي كان يهدف في نفس الوقت إحلال استعمار جديد، يرتكز إلى الاحلاف العسكرية بدلاً من الامبريالية البريطانية ونظام الاستعمار والتوطين الذي كانت فرنسا تسير عليه في شمال افريقية في ذلك الوقت. وإذا كانت بريطانيا تؤيد نفوذ الأمير، فقد كان هناك دولتين تحاولان عرقلة تفوذه. وإذا كانت بريطانيا ترحب بفكرة توحيد الأقاليم الليبية الثلاث، برقة وطرابلس، وفزان تحت إمارة السيد محمد إدريس السنوسي، فان كل من فرنسا والولايات المتحدة كانت تعارض في ذلك.

وظهر إتجاه يدّعي الشفقة على إيطاليا، خاصة وأنها كانت في أحوال اقتصادية واجتماعية سيئة، ويعترف لها بأنها قامت ببعض الشيء في ليبيا،

ويهدف إعادة نفوذها إلى هذا الاقليم بأكمله، تخلصاً من التنافس الاستعماري، وكبتاً لحركات التحرر الوطني في المنطقة. ولكن ظروف العرب كانت قد تغيرت ووقفت الدول العربية إلى جانب ليبيا للحصول على حقوقها واستقلالها.

كانت جامعة الدول العربية قد أنشئت، وكان عبد الرحمن عزام، رجل ليبيا قد أصبح أميناً عاماً لها. وتقدم السيد محمد ادريس بتقرير إلى وزراء خارجية الدول العربية في ١٤ فبراير سنة ١٩٤٥ وطالب فيه بتمثيل الشعب الليبي في الجامعة العربية، وبمؤازرته للحصول على إستقلاله، وعلى حقوقه الطبيعية في تقرير مصيره، مثل باقي الشعوب العربية. ولكن ميثاق الجامعة كان ينص على اشتراك الدول المستقلة في هذه الجامعة، وإن كان ذلك لم يمنع الدول العربية من الوقوف إلى جانب ليبيا.

ولقد تبلورت مطالب الليبيين في ذلك الوقت في ضرورة الحصول على الاستقلال، وفي ضرورة الاحتفاظ بوحدة الاقاليم الثلاث، وفي الانضمام إلى الجامعة العربية. واتصلت الأمانة العامة بوزراء خارجية الدول العظمى في باريس، الذين اجتمعوا لتقرير الصلح مع إيطاليا في ابريل سنة ١٩٤٦، ورفضت فكرة تقسيم ليبيا، واشترطت وجود مندوب عن الجامعة العربية في حالة البدء في عملية استفتاء شعبي هناك، حتى وان كان هذا الاستفتاء باشراف الامم المتحدة نفسها. وجاء بعد ذلك اجتماع الملوك والرؤساء العرب في زهراء انشاص في شهر مايو من نفس السنة، واتفقوا على أن استقلال طرابلس وبرقة هو أمر طبيعي، وضروري في نفس الوقت لأمن مصر، وأن على الجامعة العربية أن تهيئ الأسباب لهذا الاستقلال، وأن تتعهده في بادىء الأمر بالرعاية اللازمة

لظهور حكومة عربية في تلك البلاد، ومعاونتها اداريا وماديـاً حتـى تتمكـن مـن النهوض بمسؤولياتها الداخلية، وتصبح عضواً في الجامعـة العربيـة. وكذلـك أيـد مؤتمر بلـودان موقـف الطرابلسـيين وأمـانيهم المشـروعة، وأصـر علـى عروبتهـم وضرورة حصولهم على الاستقلال.

ولكن علينا ألا ننسـى أن عـدداً مـن أحـرار الليبيـين، وخاصـة مـن اقليـم طرابلس كانوا قد ألفوا في سنة ١٩٤٧ هيئة تحرير ليبيا، التي انضم اليها الشـيخ بشير السعداوي. وعملت هذه الهيئة من أجل الوصول إلى الاستقلال.

ولكن التفاهم بينها وبين الأمير لم يكن على طول الخـط. ولقـد اضطـرت نتيجة للأطماع الأجنبية الاستعمارية في البلاد الى أن تقلل مـن نشـاطها، وتعـالج الموقف بما تقتضيه خطورته من حكمة. وكان معنى ذلك الانصراف عن المعركـة القيادية بـين العنـاصر الملكيـة والعنـاصر الجمهوريـة، مـادامت قـوات الاحتـلال البريطانية والفرنسية والأمريكية موجـودة في البـلاد. فظلـت القيـادة السنوسـية وحدها، ودون منازع في الميدان. وان كان هذا الموقف قد مهد لإقامة اتحـاد بـين الأقاليم الثلاث بدلاً من الوصول الى الوحدة.

ولقد تمكنت ليبيا بعد زيارة لجان التحقيق الرباعيـة، والـتي شـاركت فيهـا كـل مـن بريطانيـا والولايـات المتحـدة الأمريكيـة وروسـيا وفرنسـا لهـا في سـنة ١٩٤٨ من الوصول إلى الاستقلال. ووصلت الى مرتبة المملكـة، وهـي متحـدة وسنوسية في نفس الوقت. ومهد ذلك للاتفاق مع القوى الأجنبية بشأن القواعد العسكرية، وبشـأن المعونـات الماليـة والفنيـة. وأصبحـت ليبيـا عضـواً في جامعـة الدول العربية.

استقلال تونس

زاد تبلور القوى الموجودة في تونس بعد نهاية الحرب العالميـة الثانيـة، وفي طريق يوصل إلى المطالبة بالاستقلال عن الحماية الفرنسية، وفي الوقت الذي ظهرت فيه جامعة الدول العربية كأمل أمام أعين العرب الوطنيين.

وإذا كانت فرنسا ستحاول التمويه على العناصر الوطنية في تونس بترك مسألة السيادة جانباً، وتسبيق مسألة النمو الاجتماعي والاقتصادي عليها، فان هذه العملية ستفشل أمام العناصر الوطنية. وإذا كانت فرنسا قد وافقت على إدخال بعض الاصلاحات على نظام الحماية في تونس، وخاصة فيما يتعلق بالادارة الداخلية، فانها قد عمدت إلى ذلك لمحاولة تدعيم نظام الحماية نفسه، وعن طريق الوصول إلى «ثنائية» السيادة أو إلى «السيادة المشتركة» فرنسية تونسية. ولكن هذا الاصرار من جانب فرنسا على الاحتفاظ بسلطاتها وإمتيازاتها، وفي وقت ظهر فيه ضعفها سيساعد العناصر الوطنية على النزول إلى معركة للتحرير، وستساعدهم الظروف للصول إلى الاستقلال.

(١) فشل سياسة التفاهم :

كانت القوى الوطنية الموجودة في تونس بعد الحرب العالمية الثانية تتلخص في الحزب الدستوري القديم، والذي كان يعتمد على الطبقة البورجوازية، وكبار التجار وكبار ملاك الأراضي، مثل اعتماده على عدد من العلماء.

واساتذة جامعة الزيتونة، وخاصة المسنين منهم. وكان هذا الاتجاه يعتمد على ضرورة زيادة الروابط الموجودة مع بلدان المشرق العربي، خاصة وأنهم كانوا يتخذون العروبة والاسلام أساساً لشخصيتهم، وفي معركتهم ضد الحماية الفرنسية، وسلطة الدولة الحامية، وهي مسيحية.

وكان هناك من جانب آخر قوة الحزب الحر الدستوري الجديد، والتي حاولت أن تدعم قوتها بالنزول إلى ميدان الطبقة الشعبية، وإلى العناصر الكادحة الموجودة في البلاد. وكان هذا الحزب يعتمد على تنظيم حديث، ويضع في برنامجه بعض المطالب الاجتماعية والتي تهدف تحرير الطبقة العاملة من سيطرة الطبقة الوسطى، والاعتماد عليها في المعركة السياسية وسيظهر هذا الحزب أكثر تحرراً وأكثر علمانية من الحزب الدستوري القديم، وخاصة بعد إستمرار المعركة ضد الحماية، وتفاعله في نفس الوقت مع العناصر التقليدية الموجودة في البلاد. وسيتمكن هذا الحزب الحر الدستوري من الوصول إلى محققات واضحة في ميدان الاستقلال خاصة وأن الظروف الخارجية ستساعده، وبصفتها عوامل ضغط على القوة الاستعمارية الفرنسية في شمال افريقية في ذلك الوقت. وسيلعب الحبيب بورقيبة دوراً هاماً في العملية، وإن كان قد استند إلى حد كبير إلى معاونة، وحتى إلى منافسة صالح بن يوسف له فيها.

ولقد قام الحبيب بورقيبة برحلته المشهورة إلى مصر، كمغامرة من المغامرات، أصر على أهميتها، والاخطار التي واجهته فيها حين استقل أحد القوارب الصغيرة إلى طرابلس، ثم واصل السفر بعد ذلك حتى القاهرة.

وكان برنامج الحبيب بورقيبة يتلخص أولاً وقبل كل شيء في طلب تأييد ومعونة دول الجامعة العربية له في سياسته الوطنية ضد الفرنسيين، وكانت مصر

تعتبر بالنسبة إليه، وبالنسبة لكل قـادة العـرب والتحريـر في ذلـك الوقـت، هـي مركز الحركات التحررية والوحدوية، ولكل المنطقة.

وصل الحبيب بورقيبة إلى القاهرة لكي يجـد الأمـير عبـد الكريـم الخطـابي مقيماً فيها، وعلى رأس مجموعة من الوطنيين المكافحين التفت حولـه، وصممـت على الوصول إلى استقلال بلادها. وكان الأمير عبد الكريـم الخطـابي قـد تمكـن من الفرار سنة ١٩٤٧ مـن البـاخرة الـتي كـانت تقلـه مـن جزيـرة ريونيـون إلى جنوب فرنسا عند مرورها بقناة السويس. وأنشأ الأمير المجاهد في القاهرة «لجنـة تحرير المغرب العربي»، والتي أصـرت علـى عمليـة التحريـر أكـثر مـن اعترافهـا بقيمة المفاوضات والمسـاومات وانصـاف الحلـول مـع المسـتعمرين. وكـان مـن الطبيعي أن يتصل الحبيب بورقيبة في القاهرة بهذه الهيئة التي تعمـل لتحريـر كـل المغرب العربي، بما في ذلك تونس نفسها.

ونظراً لأهمية الحبيب بورقيبة وديناميكيته، وخاصة في التنظيـم السياسـي، عهد إليه الأمير عبد الكريـم الخطـابي بأمانـة لجنـة تحريـر المغـرب العربـي، رغـم وجود اختلاف جوهري بين القائدين، إذ أن الحبيب بورقيبـة لم يكـن مـن رجـال الجهاد المسلح. ولكن يهمنا هنا أن نذكر أن تولي الحبيب بورقيبه لهـذه المهـام في القاهرة ساعد على زيادة رواج اسمه في العالم العربي، وساعد على نشأة صـلات وثيقة بعد ذلك مع علال الفاسي الذي حضر مـن المغـرب الأقصـى، ومـع تلـك المجموعة من الشبان الجزائريين المناضلين، والذين كانوا في غالبيتهم في أول الأمر من رجال حزب الشعب وانتصار الحريات الديموقراطية، والذين ظهر منهم فيما بعد أحمد بن بيللا وكريم بلقاسم والشيخ الابراهيمي.

وكانت آراء الأمير عبد الكريم الخطابي تهدف إلى تجميع القيادات الوطنية في بلاد المغرب العربي، ووضع خطه موحدة أو متكاملة للعمل فيما بينهم، ومساندتهم لبعضهم في معركتهم، وإن كان لا يؤمن إلا بالسلاح وسيلة لاسترداد الحقوق المغتصبة. ولكن الحبيب بورقيبة كان قلقا في موقفه، كما كان يرغب في الوصول إلى حل سريع بالنسبة لمشكلة تونس، ولذلك فان الحلول السياسية كانت أقرب إليه من الحلول العسكرية خاصة وأنه كان من رجال السياسة. وشعر الحبيب بورقيبة وهو في القاهرة بأنه يحتل المركز الثاني أو الثالث في لجنة تحرير المغرب العربي، وأن السلطات المصرية لا تعطيه من الأهمية ما كان يقدر. لنفسه، رغم أنه لم يكن قد وصل بعد إلى رتبة «رئيس دولة». والواقع أن مصر والعالم العربي في ذلك الوقت كانت مشغولة بمشكلة فلسطين، وبحرب فلسطين، أكثر من انشغالها بمشكلات المغرب العربي. والمهم هو أن هذه الفترة التي قضاها الحبيب بورقيبه في مصر، والتي بلغت عامين ونصف عام، جعلته يقرر ضرورة العودة إلى التفاهم مع فرنسا والسلطات الفرنسية، بدلا من بقائه في مصر. لقد وجد الحبيب بورقيبه أن مكانه في تونس، وأن «قضيته» يمكن الوصول فيها إلى تفاهم مع الفرنسيين. فاتصل بالملحق العسكري الفرنسي في القاهرة، وعلى أساس أن فرنسا لن تفقده أبدا كصديق حتى وان اختلفت مطالبه عن مصالح الفرنسيين إذ أنه سيلتقي بهم في نهاية المطاف. وسافر الحبيب بورقيبه إلى تونس، واعد له صالح بن يوسف ـ زميله في الكفاح، والكاتب العام للحزب الحر الدستوري في أثناء غيبته ـ استقبالاً حافلاً قل أن تشهد تونس مثله. وكان أول عمل قام به الحبيب بورقيبه هو تقديم تحيته للباي، ولكي يقطع الطريق على أي اشاعات تحاول الوقيعة بين الدستوريين، وبين صاحب السيادة

على البلاد، حتى وإن كانت سيادة ناقصة. واستعد بعد ذلك للتفاهم مع الفرنسيين.

وكان نفوذ صالح بن يوسف قد ازداد في ذلك الوقت في تونس وبشكل طغى على اسم الحبيب بورقيبه. وكان صالح بن يوسف قد جمع مؤتمراً وطنياً كبيراً في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٤٦، واشترك فيه ممثلون عن اللجنة التنفيذية للحزب الدستوري «القديم»، واتحاد نقابات العمال التونسية، وكذلك اتحاد الموظفين واتحاد طلبة جامعة الزيتونة. وكان هذا المؤتمر قد أصدر قراراته في شكل «ميثاق وطني» وأعلن سقوط نظام الحماية بعد أن ثبت فشله من الناحية القانونية، ومن الناحية السياسية.

وكان أول قرار من نوعه تصل إليه الحركة السياسية في تونس. وكان أول ميثاق يصر على عروبة تونس، وعلى ضرورة انضمامها للجامعة العربية.

وعلينا الا ننسى أن الاصرار على صفة العروبة، والاتصال بالمشرق كانت خطراً يهدد زعامة وقيادة الحبيب بورقيبه نفسها، إذ أنه كان يمثل رباط الوصول بين الاتجاه الشرقي والاتجاه الغربي، وكان الاصرار على الاتجاه العربي يقدم عليه رجال حزب الدستور «القديم»، كما يقدم عليه صالح بن يوسف، رجل التحرر، الذي كان يلقي خطبه في جامعة الزيتونة.

ولذلك فان الحبيب بورقيبه قد اعتمد في ذلك الوقت على انشغال الجامعة العربية بمشكلة فلسطين لكي يوجه الحركة صوب الخط السياسي الذي يمكنه من مواصلة السيطرة عليها، وهو التفاوض والتفاهم مع الفرنسيين.

وكانت فرنسا قد حاولت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية إعطاء بعض الترضيات للعناصر الوطنية التونسية، وذلك عن طريق زيادة عدد الأعضاء التونسيين في المجلس الاستشاري، حتى يصبحون متساويين مع الفرنسيين في العدد، وكذلك عن طريق تشكيل لجنة عليا من كل قسم من أقسام ذلك المجلس لوضع الميزانية. كما قررت زيادة عدد الوزراء التونسيين. وكانت هذه الاصلاحات لاتمس صلب المشكلة التونسية، والتي تتمثل في الاستقلال، بل تفتح الطريق أمام بعض العناصر التونسية، في الوقت الذي تصل فيه فرنسا إلى تطبيق سياستها الخاصة بالسيادة المشتركة، خاصة وأنها كانت تعد مشروعاً للمجالس البلدية والمحلية يعطي للفرنسيين، من ناحية العدد والتصويت نفس حقوق التونسيين. ولكن العناصر الوطنية التونسية رفضت هذا الاتجاه، وفي أثناء غياب الحبيب بورقيبه في مصر. فعمدت السلطات الفرنسية إلى تطبيق الخناق على العناصر الوطنية في تونس.

ونعرف أن سلطات الأمن قد هاجمت المؤتمر العام الذي عقده صالح بن يوسف في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٤٦، ولكنه نجح وهو على المنصة، وحين دخول قوات الامن مكان الاجتماع، من أن يصرخ بأعلى صوته بأن الاتفاق قام على ضرورة الحصول على «الاستقلال» وامتلأ المكان بصرخات الاستقلال ... الاستقلال... في الوقت الذي دارت فيه المعركة لاخراج الوطنيين من مكان اجتماعهم.

وظهر اتجاه في فرنسا، بعد عودة الحبيب بورقيبه إلى تونس، للتفاهم «السياسي» مع التونسيين. ولا شك أن هذه السياسة كانت تهدف كسب الوقت وإستخدام الحبيب بورقيبه ضد اتجاه صالح بن يوسف التحرري

الاستقلال. وأعلن روبير شومان، وزير الخارجية الفرنسية في ١٠ يونيو سنة ١٩٥٠ أن: «الاستقلال الداخلي هو الغاية السياسية التي تسعى فرنسا لتحقيقها بالنسبة لجميع الدول التي تؤلف الاتحاد الفرنسي، وكذلك الدول المرتبطة معها بروابط الحماية» وكان هذا يكفي لفتح باب التفاهم والمفاوضات مع الحبيب بورقيبه. وإن كانت الفقرات التالية من تصريح روبير شومان تنص على ضرورة الوصول إلى تهدئة الموقف والبدء باصلاحات اجتماعية وعمرانية وإقتصادية، تمهد الطريق للوصول إلى الحل السياسي السليم.

وأسرع الحبيب بورقيبه باعلان «فرحة» بصدور مثل هذا البيان، ورد عليه روبير شومان بتعين مقيم عام فرنسي جديد في تونس، وهو أحد المدنيين، وبالموافقة على تشكيل وزارة تونسية، يشترك فيها بعض الدستوريين، للمفاوضة مع الفرنسيين.

لقد تهيأ الجو للمفاوضات، ولكن عناصر المستوطنين الفرنسيين في تونس هاجمت هذا الاتجاه، ووقف كولونا يفضحه في مجلس «الجمهورية» في باريس، كما نقده الجنرال جوان نقداً لاذعاً مراً، وكان هذا الأخير إبناً لأحد المستوطنين الذين شبوا على احتقار الوطنيين في شمال افريقية.

واضطرت الحكومة الفرنسية إلى أن تساير رأي المستوطنين الفرنسيين، خاصة وأنهم كانوا يقربون منها أكثر من قرب التونسيين، وكانت سياسة فرنسا الضعيفة تهدف إلى محاولة تدعيم النفوذ الفرنسي حتى تغطي ضعفها.

ولذلك فان فرنسا قد أصرت على ضرورة تطبيق «الاصلاحات» الاجتماعية والاقتصادية، قبل مناقشة التغيرات السياسية العامة. ولكنها حاولت

إدخال بعض إصلاحات إدارية، للتمويه بها على الرأي العام التونسي من ناحية، وللوصول إلى السيادة المزدوجة من الناحية الأخرى. وأصرت فرنسا على ضرورة إشراك المستوطنين الفرنسيين في إدارة تونس، وبنفس حقوق التونسيين، وأصرت بالتالي على ضرورة بقائهم وتمثيلهم في المجالس التشريعية والبلدية. وفرضت أمر رئاسة المقيم العام للمجلس الاستشاري الكبير، واحتفاظ سكرتير الاقامة بالاشراف على جميع المصالح الحكومية. ولكنها سمحت في نفس الوقت بارضاء التونسيين في نطاق الوظائف الحكومية، وسمحت لهم باحتلال ثلاثة أرباع الوظائف الصغيرة، وثلثي الوظائف المتوسطة، ونصف الوظائف العالية، وكل ذلك تحت إشراف السكرتير العام للاقامة، والمقيم العام.

ولقد وجد الحبيب بورقيبه في ذلك الوقت أن هذه الشروط يمكن اعتبارها أساساً للمفاوضة، رغم أنها تتعارض مع الشروط التي كان قد عرضها شخصياً على حكومة باريس، ورغم أنها كانت تتنامى مطالب الوطنيين في المؤتمر الكبير سنة ١٩٤٦. واعتبر الحبيب بورقيبه أنها «خطوة» تتلوها خطوات جديدة، وعلى أساس سياسة «خذ وطالب» ومرحلة بعد مرحلة، وبنفس الطريقة الذي يبدأ بها صغار الاطفال في السير، وهكذا ترك الحبيب بورقيبه الباب مفتوحاً أمام الفرنسيين في المفاوضات وفي الوقت الذي تأزم فيه الموقف بين كل من الباي ووزارته والرأي العام الوطني التونسي من ناحية، وبين سلطات الحماية من ناحية أخرى، وفي الوقت الذي سارت فيه القوى صوب الاصطدام.

(٢) الاصطدام :

كان محمد شنيق قد أرسل مذكرة إلى الحكومة الفرنسية، وبصفته رئيساً للوزراء، في ٣ نوفمبر سنة ١٩٥١، وشرح فيها الحد الأدنى لمطالب التونسيين

في ذلك الوقت. وردت عليها الحكومة الفرنسية في ١٥ ديسمبر برد يعتبر رفضاً تاماً وصريحاً للمطالب الوطنية. فظهر عدم جدوى التفاهم بين الوطنيين والفرنسيين. وصممت فرنسا على إرسال مقيم عام فرنسي قوي لتونس في أوائل سنة ١٩٥٢، واختارت لذلك الجنرال دي هوت كلوك، الذي وصل إلى تونس على ظهر بارجة حربية، وكان سفيراً لفرنسا في بروكسل، وهدفت فرنسا من ورائه إلى تدعيم نفوذها السياسي والعسكري في شمال افريقية. ولكنه وصل لكي يجد أن عدداً من الوزراء التونسيين قد وصلوا في نفس اليوم إلى باريس لعرض قضية تونس أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، والتي انعقدت دورتها في هذه السنة في تلك المدينة. ووجد المقيم العام الجديد أن ترابط الأحداث لا يحمل كثيراً من معاني الاحترام المتبادل بين ممثل الجمهورية الفرنسية، وبين وزراء تونسيين. ودفعه ذلك، كما دفع بحكومته، إلى ضرورة التصلب أمام المطالب الوطنية.

حقيقة أن الأمم المتحدة رفضت الاستماع إلى الوزراء التونسيين، وعلى أساس أن المشكلة مشكلة داخلية، ليست لها أية صفة دولية، ولا تهدد استقرار الأمن والنظام في العالم. ولكن ذلك لم يمنع عدداً من الدول العربية والافريقية من اتخاذ قرار بعرضهم القضية التونسية على الأمم المتحدة في الدورة التالية. وصعب على فرنسا التراجع، وكذلك صعب الأمر على التونسيين. وإجتمع مؤتمر وطني في تونس في الخفاء في ١٧ يناير وقرر إلغاء نظام الحماية، وضرورة معاملة المستوطنين الفرنسيين في تونس على أساس أنهم يكونون جالية أجنبية. وطلب المقيم العام من الباي اقالة الوزراء، ولكن الباي رفض، وكتب إلى رئيس الجمهورية الفرنسية محتجاً على هذه المعاملة التي تخرج من اختصاصات سلطات

الحماية. ولكن الفرنسيين كانوا يعتمدون على القوة وعلى قوات الأمن والنظام الموجودة في الاقليم لتنفيذ سياستهم، فالقوا القبض على معظم الزعماء التونسيين، وحتى على عدد من الوزراء، وبشكل وضعوا به الباي أمام الأمر الواقع. ثم جاء رد رئيس الجمهورية الفرنسية إلى الباي تظهر فيه قلة الكياسة، إذ أنه قد وجه الباي إلى التفاهم مع السلطات الفرنسية. وحمله في نفس الوقت نتائج مثل هذا الموقف الذي يعتبر ردا غير كريم على ما قامت به فرنسا في تونس من مهمة حضارية كبيرة. لقد ثبت أن فرنسا تستخدم القوة، وكان ذلك أساساً للاصطدام، ولتبلور موقف الوطنيين ضد الفرنسيين.

وكان الحبيب بورقيبه من ضمن الزعماء الذين القت السلطات الفرنسية القبض عليهم. ونفته إلى جزيرة صغيرة قرب ساحل تونس الجنوبي؛ وابقت عليه هناك مدة عامين ونصف عام، وإلى أن جاء منديز فرانس إلى الحكم، وقرر الوصول إلى تسوية مع المعسكر الوطني. واستخدمت فرنسا الشدة والعنف ضد الأهالي والوطنيين، واطلقت العنان لرجال الفرقة الأجنبية للتفرس فيهم، وخاصة في مناطق الجنوب. وأخذت عمليات التفتيش والبحث عن الاسلحة وعن العناصر الوطنية تأخذ شكل ارهاب منظم، وترتكب فيها الجرائم وتنتهك الحرمات، وباسم السلطة وباسم النظام. وكم من دور هدمت وممتلكات نهبت وأعراض هتكت في هذه العمليات. ولقد كانت سياسة القوة تؤدي إلى سياسة الانتقام، ولم تكن هذه السياسة تؤدي إلا إلى الاشتباك.

ونصل إلى صيف سنة ١٩٥٢، حين حملت الأنباء صدى انهيار الحكم الملكي في مصر وقيام الضباط الأحرار بعملية تحرير بلادهم من الأوضاع الفاسدة.

وكان من أثر ذلك أن فكر الباي نفسه، رغم تقدمه في السن، وكان قد بلغ الخامسة والسبعين، في ضرورة بقائه داخل المعسكر الوطني.

أما فرنسا فانه قد تعاقب عليها حكم وزارات يمينية حتى أوائل سنة ١٩٥٤، ورفضت هذه الوزارات تقديم أي تنازل للوطنيين. وسرعان ما بدأت عمليات كفاح في تونس، وبدأت في شكل القاء القنابل، والقيام ببعض الاغتيالات الفردية، ثم استمرت منذ صيف سنة ١٩٥٤ في شكل مجموعات مسلحة أخذت في مهاجمة قوافل الفرنسيين وطوابيرهم، والنزول إلى معارك شبه عسكرية، إذ لم تكن عسكرية. وزادت قوة هذه المجموعات المسلحة وخاصة في الجنوب. وجاءت الأنباء بأنهم يكونون «جيش التحرير التونسي» ويخضعون لسياسة جبهة التحرير التونسية. ولكن فرنسا أصرت في نفس الوقت على أنها عناصر من «الفلاجة»، أي عصابات المناسر التي تعمل لحسابها الخاص. وكان لظهور هذه القوة المسلحة الجديدة تأثيراً كبيراً في الرأي العام السياسي التونسي، وفي وقت ازدادت فيه عمليات التحرير قوة وفي كل العالم.

حقيقة أن مجلس الأمن رفض في خلال عام ١٩٥٣ الاستماع إلى «القضية التونسية»، ولكن ذلك لم يكن يعني فشل الحركة الوطنية بل كان يعني تحول المشكلة من قضية سياسية، إلى عملية حربية. وكانت فرنسا في ذلك الوقت في مشكلات واضحة مع محمد الخامس سلطان المغرب الأقصى، وفي حرب معلنة، وتكبدها الكثير في الهند الصينية، ولكنها أصرت على إستخدام القوة أمام المجاهدين التونسيين.

وكان عدد رجال التحرير التونسيين لا يزيد في ذلك الوقت كثيراً على

ثلاثة آلاف مقاتل أو مجاهد، ولكنهم تمكنوا من السيطرة على معظم المناطق الجنوبية في الاقليم. وظهر صدى عملياتهم في أوساط العمال والفلاحين، فانتشرت حركة الاضرابات والاعتصامات، وأدى ذلك إلى اشتباكات شبه مستمرة، سالت فيها الدماء وأدت إلى إستمرار المعركة بين الوطني والأجنبي.

وحينما استعدت الحكومة الفرنسية لتوجيه ضربتها إلى سلطان المغرب سنة ١٩٥٣ فكرت في ضرورة تغيير المقيم العام في تونس، وفي محاولة للتمويه على الرأي العام التونسي. فاختارت فرنسا فوازار مقيماً عاماً وأصدرت بعض المرسومات التي ذكرت أنها تهدف الاصلاح، ولكن الرأي العام التونسي لم يوافق عليها. ولقد ازداد تعقد الموقف نتيجة لتكوين المستوطنين الفرنسيين جماعات مسلحة للقيام بعمليات اغتيال للعناصر الوطنية، وراح ضحيتها فرحات حشاد الزعيم النقابي التونسي الكبير، قرب مدينة تونس. وظهر في هذه العملية تستر سلطات الأمن الفرنسية على عمليات الارهاب التي يقوم بها المستوطنون. ودفع ذلك بالعناصر الوطنية إلى الاصرار على موقفها، وزيادة حماسها في عملياتها. وكان عدد من التونسيين قد تمرن على الحرب، وشارك عدد آخر في حرب فلسطين، ودخلوا قوات التحرير. ثم ظهر ترابط وتنسيق بعد ذلك بين رجال جيش التحرير التونسي وبين الحزب الحر الدستوري، وبشكل يساعد على استمرار المعركة في ميادينها السياسية والعسكرية في نفس الوقت.

وعلينا أن نصل بعد ذلك إلى بداية عام ١٩٥٤ لكي نصل إلى المحاولات الخاصة بتسوية الموقف، وعلى أساس الاستقلال الداخلي، وبعد أن أنهكت فرنسا في تونس، وتأزم الموقف أمامها في المغرب الأقصى واضطرت إلى الموافقة على تصفية موقفها في الهند الصينية.

(٣) الاستقلال الداخلي :

ظهرت بوادر الانهاك، أو الاعتراف بالانهاك على فرنسا منذ ربيع سنة ١٩٥٤. ومهدت فرنسا للتسوية بنقل الحبيب بورقيبه من منفاه في الجزيرة الصغيرة المواجهة للساحل الجنوبي لتونس إلى الأراضي الفرنسية نفسها.

وكانت فرنسا قد فتحت على نفسها مشكلات كبيرة في المغرب الأقصى، في الوقت الذي سجل فيه ثوار الهند الصينية ورجال التحرير فيها انتصارات واضحة ضد القوات الفرنسية هناك، واصبح لزاماً على فرنسا أن تجمع إمكانياتها. قبل أن يزيد الخرق على الراقع. وتقدم منديز فرانس في نفس خطاب طلب الثقة أمام مجلس الأمة في باريس بوعد لحل المشكلة التونسية على أساس ديموقراطي. وكان منديز فرانس يسير على سياسة بريطانيا حيال مستعمراتها وامكانية تحويلها إلى ممتلكات حرة، ترتبط بالوطن الأم، ولكن مع احتفاظها بشخصيتها، وبحقها في تصريف شؤونها في نفس الوقت.

وشعر المستوطنون الفرنسيون أن حكومة باريس لن تقف إلى جانبهم، فاستعدوا بدورهم لعملية التراجع. وكانت هناك حتمية أمام فرنسا لحل مشكلاتها التي تراكمت في مستعمراتها حتى تمنع الانهيار المفاجىء وفي كل الأقاليم. ووافقت فرنسا على الاتفاق مع أحرار الهند الصينية في جنيف في ٢٠ يوليو سنة ١٩٥٤، واستعدت للاتفاق مع رجال تونس، في الوقت الذي زاد فيه تأزم الموقف في المغرب الأقصى، وهدد رجال الجزائر بالنزول بدورهم إلى ميدان العمليات. وقام منديز فرانس برحلة سريعة ومفاجئة إلى تونس، وأعلن هناك أن حكومته قد وافقت على مبدأ الحكم الذاتي لتونس، وعلى أساس أن تتم تحديد العلاقات بين البلدين بمفاوضات تقع بين الطرفين.

وفي ذلك الوقت أعلن الحبيب بورقيبه من منفاه «فرحة» بهـذه السياسـة، واسـتعد للمفاوضـة. وكـان مـن الصعـب علـى فرنسـا أن تتجـاهل الزعمـاء السياسـيين لتونـس في مثـل هـذه المفاوضـات، ولكـن الأمـر كـان صعباً عليهـم باخراج الحبيـب بورقيبـه مـن المعتقـل لكـي يجلـس علـى نفـس المـائدة ويفـاوض الوزراء الفرنسيين. فاستقر الرأي على ضرورة تشكيل وفد «رسمـي» لتونـس في هذه المفاوضـات، واسـتتبع ذلـك تشـكيل وزارة تونسـية جديـدة، برئاسـة أحـد المستقلين، للقيام بهذه العملية. ووقع الاختيار على طاهر بن عمـار، وكـان مـن كبار الملاك الزراعيين، وعلى أن يشرك معه ثلاثـة مـن الدسـتوريين، هـم المنجـي سـليم ومحمـد المصمـودي، وجلـولي، لتمثيـل الدسـتوريين في الـوزارة، وفي المفاوضات. ودخلوا الـوزارة بهـذه الصفـة، وأصبحـوا وزراء دولـة، في الوقـت الذي كان فيه بقية الوزراء من المحايدين.

ولقد انتهزت الحكومة الفرنسية هـذه البدايـة «الشـكلية» لطلـب تسـليم رجال جيش التحرير أسلحتهم للسلطات الرسمية. ولكن هـذه الخدعـة لم تدخـل علـى التونسـيين، بـل اشـتدت حركـة المقاومـة عنفـا، وخاصـة مـع نهايـة فصـل الصيف، والبدء في الخريف، وإعلان ثورة الجزائر. ومرة جديدة وجـدت فرنسـا نفسها أمام الأمر الواقع، وأمـام ميـدان جديـد، لم تكـن تفكـر في إمكانيـة فتحـه أمامها، وبالطريقة التي فتح بها. وأصبح على فرنسا أن تقاتل في تونس والجزائـر والمغرب الأقصى في نفس الوقـت، أو أن توافـق علـى الـتراجع في أحـد الميـادين للتمكن من مواصلة العمليات في الميدانين الآخرين. وكان وجود الحبيب بورقيبه كمرحب بسياسة المفاوضة مع الفرنسيين وموافقته على برنـامج منديـر فرانـس، تشجيع لفرنسـا علـى تصفيـة الميـدان التونسـي ولـو مؤقتـاً، للتفـرغ للميدانيـين

الآخرين. فوضعت الاقامة العامة شروطاً جديدة لانهاء القتال في تونس، وأصدرت بلاغاً مشتركاً مع الحكومة التونسية في منتصف نوفمبر سنة ١٩٥٤، ضمن سلامة التونسيين بعد تقديم اسلحتهم وذخائرهم للسلطات، وكان في وسع المجاهد أن يسلمها إلى السلطات الفرنسية أو السلطات التونسية كما يشاء. ووافق على ذلك الحبيب بورقيبه ومجموعته الدستورية.

والواقع أن هذا الموقف من جانب الحبيب بورقيبه كان يعتبر ثقة كبيرة بالفرنسيين، ويعتبر الغاءاً للعناصر المحاربة، قبل أن يتم الساسة عملية الحصول على الاستقلال. وكان من الضروري على ساسة تونس في ذلك الوقت أن يحاولوا الابقاء على قوات جيش التحرير كوسيلة ضغط على المفاوض الفرنسي، وللحصول على أكثر ما يمكن الحصول عليه منه، وكان هذا الموقف أساساً للاختلاف في وجهة النظر بعد ذلك بين الحبيب بورقيبه وبين صالح بن يوسف الذي اعتبر أن هذه العملية إضاعة للمجهود، وحرقاً للبطاقات، دون أية نتيجة إيجابية للبلاد. وسيستمر هذا الخلاف بين القائدين على مر الأيام، وستأتي الحوادث لكي تدعم وجهة نظر صالح بن يوسف في أنها كانت تضحية في صالح الفرنسيين أكثر من كونها في صالح التونسيين.

وسقطت حكومة منديز فرانس في ٥ نوفمبر سنة ١٩٥٥، وحاولت العناصر اليمينية الفرنسية الرجوع فيما وعدت به، خاصة وأن عدداً كبيراً من قوات جيش التحرير التونسي، وخاصة في الشمال، كانت قد سلمت السلاح وطبقاً للاوامر. ولكن إدجار فور الذي خلف منديز فرانس في الحكم خشي من جديد من عودة إكتساح الثورة لتونس، فقرر الوصول إلى حل وسط مع الحبيب بورقيبة. وكان إدجار فور زعيماً يسارياً معتدلاً، وكان الحبيب بورقيبه يؤمن

بمبدأ الاستقلال على مراحل، فتمت الصفقة، وصدر بيان مشترك، فرنسي تونسي يؤكد تصريح ٣١ يوليو سنة ١٩٥٤، ولكنه ينص في نفس الوقت على إحتفاظ فرنسا بالشؤون الخارجية والدفاع الخاصة بتونس.

واستمرت المفاوضات بعد ذلك، وهي التي انتهت باتفاقيات ٣ يونيو سنة ١٩٥٥، وهي الاتفاقيات التي منحت تونس الاستقلال الذاتي، أو الاستقلال الداخلي.

ولقد نصت هذه الاتفاقيات، وفي الاتفاقية، الاساسية على المبادىء العامة الخاصة بالعلاقات الفرنسية التونسية، وضرورة التعاون بين البلدين في جميع الميادين، وأكدت إستمرار العمل بالمعاهدات المعقودة بين البلدين، وثبتت بذلك معاهدة الحماية التي كانت في واقع الأمر أساساً للادارة الفرنسية المباشرة في تونس. كما أنها نصت في المادة الثانية والخامسة على إستمرار تولي فرنسا لشؤون الدفاع والشؤون الخارجية، وإحتفظت بالامتيازات للفرنسيين المقيمين في تونس. في نفس الوقت الذي مدت فيه هذه الامتيازات على التونسيين المقيمين في فرنسا؛ رغم وجود تضارب قانوني بين مثل هذه الامتيازات وعلاقة الحماية التي نص عليها في المادة الثانية. وإذا كانت هذه الاتفاقية قد إعترفت باللغة العربية لغة رسمية في تونس فانها قد نصت على أن اللغة الفرنسية لا تعتبر لغة أجنبية في نفس الاقليم. ونصت هذه الاتفاقية على تضامن الطرفين الكامل للدفاع عن أمنهما، وعلى أنه لا يجوز إتخاذ أي تشريع يتعلق بالدفاع أو الآمن الداخلي أو الاحصاء في تونس إلا بموافقة الطرف الآخر. ونصت على تكوين لجنة مشتركة برئاسة القائد العام الفرنسي، والذي كان في نفس الوقت وزيراً للدفاع التونسي، لتنفيذ جميع الاجراءات اللازمة للدفاع عن مصالحها «ومسؤولياتها» تجاه العالم الحر.

ولاشك أن هذه المواد كانت تتعارض مع مبدأ السيادة القومية لتونس، وتعمل على بقاء الاقليم داخل نطاق حلف دول شمال الاطلنطي.

وكان لهذه الاتفاقية ملاحق خاصة بالتحكيم، وباشراف فرنسا على المواصلات والموانيء والمناجم، وعلى تسليم سلطات الأمن إلى الادارة التونسية بعد فترة تتراوح بين عام ونصف وعامين.

ووقع المفاوضون في نفس الوقت على اتفاقيات أربعة تختص الأولى منها بوضعية المستوطنين الفرنسيين، وإحتفاظهم بقوانيهم المدنية الفرنسية وتحت إشراف المندوب السامي الفرنسي، وإستخدامهم لغتهم الأصلية في التعليم، وعدم تدخل الحكومة التونسية في شؤون إقامتهم أو تنقلهم بين تونس وفرنسا. كما نصت على إشتراكهم في المجالس البلدية دون التشريعية، وعلى ألا يصل عددهم إلى النصف. أما الاتفاقية الثانية فكانت تتعلق بالنظام القضائي، وعلى تبعية التونسيين لقضاء تونس إلا في القضايا السياسية أو المتعلقة بالأمن العام، أو المتصلة بالفرنسيين فانها تنظر أمام القضاء الفرنسي. وكانت الاتفاقية الثالثة هي الاتفاقية الثقافية والتي نصت على بقاء بعثة تعليمية تحت إشراف المندوب السامي، كما نصت على تدريس اللغة الفرنسية في جميع مراحل الدراسة في المدارس التونسية.

وأما الاتفاقية الرابعة فكانت هي الاتفاقية الاقتصادية والمالية، وجاءت مجحفة بحق التونسيين ومجحفة بحق إستقلالهم. إذ أنها قد نصت على إقامة إتحاد إقتصادي كامل بين البلدين، وعلى بقاء تونس داخل كتلة الفرنك الفرنسي. حقيقة أن فرنسا قد تعهدت بغطاء النقد الفرنسي، وضمان الدين العام، وسداد

العجز في الميزانية، ومساعدة تونس في تصريف فائض إنتاجها داخل منطقة الفرنك الفرنسي، ولكنها حصلت في نفس الوقت على حق الاشراف على إصدار الأوراق المالية في تونس، والاشراف كذلك على تبادل النقد وتحويله وتصديره. ونصت هذه الاتفاقية على مبدأ الوحدة الجمركية بين البلدين، وعلى بقاء الجمارك التونسية تحت إدارة موظف فرنسي مدة سبع سنوات، وملاحظة النظم الجمركية الفرنسية عند كل تعامل تقوم به تونس مع دولة ثالثة. وأخيراً وليس آخراً فإن هذه الاتفاقية قد نصت على حق الفرنسيين وحريتهم في استثمار الأموال والمشروعات في تونس وعلى أساس تعهد الحكومة التونسية بعدم ممارسة أي حق لها حيال هذه الشركات ورؤوس الأموال الأجنبية الموجودة في بلادها. كما نصت على ضمان بعدم تغيير التشريع الخاص بهذه الشركات ورؤوس أموالها إلا إذا كان ذلك لإبداله بالتشريع الفرنسي نفسه. وتعهدت تونس بعدم التدخل في نظام ملكية الأراضي الزراعية. وأخيراً فانها قد تعهدت بعدم عقد أي قرض أجنبي، ما دامت فرنسا قد وافقت على تغطية عجز ميزانيتها.

لقد أصبحت تونس مستقلة، ولكنه إستقلال داخلي. والمهم هو أن الحبيب بورقيبه نفسه قد إعتبر هذا الاستقلال إحدى مراحل الاستقلال الفعلي، ولم يقبله إلا على أساس ضرورة تغييره، معتمداً في ذلك على إستراتيجيته الخاصة، والتي عرفت باسم الطريقة «البورقيبية»، والتي تتمثل في مبدأ «خذ وطالب». ولكنها كانت خطوة تمثل نجاح الحبيب بورقيبة، ومهدت له الطريق إلى الحكم، وإلى رئاسة الجمهورية.

(٤) اعلان الجمهورية :

قدم طاهر بن عمار استقالته للباي بمجرد التوقيع على المعاهدة مع فرنسا، ولكن الباي طلب منه تشكيل وزارة جديدة للاشراف على عملية الانتخابات.

واشتملت هذه الوزارة على خمس وزراء من الدستوريين. وفي ذلك الوقت وصل صالح بن يوسف إلى تونس، وإستقبله الحبيب بورقيبه نفسه، والذي أصبح رئيس الحزب الدستوري إستقبالاً رائعاً. ولكن التنافس بين الرجلين إزداد في الوضوح. وكان لكل منهما شخصيته القوية وسياسته ومبادئه.

وكان الحبيب بورقيبه يرغب في إظهار نجاح سياسته، والتصفيق لطريقة السير على مراحل أمام الجميع. ولكن صالح بن يوسف دخل المسجد الكبير في تونس وأعلن أن معركة المغرب العربي الكبير هي معركة واحدة، وضد الاستعمار، ولا يمكن قبول أي إستقلال داخلي أو جزئي أو إقليمي إلا إذا امتد من آخر حدود المغرب إلى حدود مصر، وإن هذا الاستقلال يجب أن يكون إستقلالاً سياسياً، واجتماعياً وإقتصادياً في نفس الوقت. وشعر الحبيب بورقيبه بوجود اتجاه خاص بين رجال الجيش التحرير، وخاصة في الجنوب، وبين أولئك الرجال الذين لم يسلموا سلاحهم بعد، وكان من السهل عليهم التزود بالأسلحة والتي كانت تسير مع القوافل عبر الصحراء في ذلك الوقت وحتى مدينة الجزائر نفسها. وكان لصالح بن يوسف نجاح خاص بين العناصر التونسية العميقة في عروبتها وفي وطنيتها. وكان قد أثبت كفاءة واضحة في أثناء توليه أمر الحزب وقت وجود الحبيب بورقيبه في القاهرة، كما كان قد وصل إلى منصب الوزارة، وكان هو العامل الذي أجبر الباي وأجبر زملائه الوزراء على

تقديم المطالب التونسية واضحة وجريئة إلى الفرنسيين في أوائل سنة ١٩٥٢. ولذلك فان الحبيب بورقيبة قد إعتمد على العناصر الموالية له شخصياً، وعلى تلك العناصر التي لم يكن لها صبر على الجهاد والكفاح، وتلك التي تفضل السياسة للوصول الى أهدافها، والتي كانت تتوقع سرعة استلامها لمناصبها ومسؤوليتها ـ اعتمد عليها لكي يبعد صالح بن يوسف عن الحزب، أي يبعده بالتالي عن القاعدة الشعبية المكافحة التي استند اليها. وعقد الحبيب بورقيبه مؤتمراً وطنياً بسفاقص في ١٧ نوفمبر سنة ١٩٥٥، وبدعوى إعادة تنظيم الحزب، وفي الواقع لاخراج صالح بن يوسف من صفوفة. ونجح الحبيب بورقيبه في السيطرة على الموقف في المؤتمر، خاصة وأن صالح بن يوسف لم يشارك فيه. ولكن صالح بن يوسف لم يتراجع عن الهجوم، ونظم اجتماعاً في اليوم التالي في مدينة تونس نفسها، وهاجم فيه سياسة الحبيب بورقيبة «التونسية» والتي تحرم تونس من التضامن مع بقية شعوب المغرب، والتضامن مع بقية البلاد العربية. واعتمد صالح بن يوسف على العناصر العربية الاسلامية، وأدى ذلك الى زيادة التبلور بين السياستين، والتبلور بالتالي بين العناصر الموجودة داخل كل معسكر. ولاشك أن خطر صالح بن يوسف، وهذا الاتجاه العربي الاسلامي على الحبيب بورقيبه هو الذي سيدفع به بعد ذلك الى زيادة الاصرار على سياسته العلمانية، سواء أكان ذلك في السياسة أو حتى في التعليم، ولكي يقضي على العناصر المعارضة، وبصفتها معركة قيادية قبل أي شيء.

وكان محمد الخامس قد عاد في هذه الفترة إلى بلاده، فطالبت تونس بأن تعامل مثل المعاملة التي وافقت فرنسا عليها حيال المغرب. ومهد ذلك للاتفاق الفرنسي التونسي في ٢٠ مارس سنة ١٩٥٦، وهو الاتفاق الذي ألغى

ارتباطات الحماية، ونص على الاستقلال. ولذلك فقد كان من الضروري اعادة النظر في اتفاقيات ٣ يونيو سنة ١٩٥٥. وعلى أساس الوصول الى استقلال مع الاحتفاظ بالترابط مع فرنسا.

وبعد ست وخمسين عاماً من الحماية أصبحت تونس دولة مستقلة. وأصبح على الدولة أن تنظم اداراتها، وتشرف على تنظيم بلادها. وانتخبت جمعية تأسيسية في ٢٥ مارس سنة ١٩٥٦، ونجحت فيها قائمة الوحدة الوطنية، التي كانت برئاسة الحبيب بورقيبة، وكان معظم أعضائهما من الأحرار الدستوريين. وحصلت هذه القائمة على ٨٠٪ من الأصوات. فقدم طاهر بن عمار استقالته وألف بورقيبة الوزارة.

وكانت أول وزارة في تونس المستقلة، وستقوم بادخال تغيير كبير على مستقبل البلاد. وكان الحبيب بورقيبه قد صرح في شهر يوليو سنة ١٩٥٥ بأن تونس ستظل ملكية دستورية، ولكن موقفه تغير بمجرد استلامه السلطة، وأصدر مرسوماً في ٣١ مايو سنة ١٩٥٦ وضع به أمراء البيت المالك تحت سلطة القانون العام، بعد أن كانوا يخضعون لمجلس البلاط، ثم أرسل مرسوماً جديداً في ٣ أغسطس سنة ١٩٥٦ حرم فيه الباي من التشاور مع رئيس الوزراء، ثم ألغى عيد العرش، وأخيراً وافق الباي على التوقيع على مراسيم تلغي بعض عمليات التعامل الخاصة ببعض ممتلكات الأسرة المالكة. وأصبح الباي نتيجة لذلك بدون حول أو قوة، وقلت هيبته مع تلك الطنطنة الكبيرة الذي كان رجال الحزب يقومون بها للحبيب بورقيبه. والواقع أن هذا الشيخ لم يكن يمثل آمالاً كبيرة لدولة ناهضة تمكنت من الحصول على الاستقلال. وجاء بعد ذلك اتهام الحبيب بورقيبه للباي بأنه كان على صلات مع العناصر الرجعية ومثيري الفوضى في

البلاد، وكـان يعـني بذلـك رجـال صـالح بـن يوسـف ورجـال العروبـة والجهـاد الاسلامي. والمهم هو أن الجمعية التأسيسية قررت عزل الأسرة الحسينية، واقامة نظام جمهوري، يحدد شكله فيما بعد، وإختارت الحبيب بورقيبه كرئيـس للدولـة في نفس الوقـت الـذي يحتفـظ فيـه بمنصـب رئيـس الـوزراء. ووافقـت الجمعيـة التأسيسية في ٢٨ مايو سنة ١٩٥٩ على دستور الجمهورية الـذي صـدر في أول يونيو، والذي نص على أن تونس دولـة مسـتقلة دينهـا الاسـلام ولغتهـا العربيـة ونظامها هو النظام الجمهوري، وهي تهدف وحدة بلاد المغرب. كما نـص علـى ضـرورة اقامـة النظـام الديموقراطـي والاعـتراف بسـيادة الشـعب، وعلى فصـل السلطات.

ومهد الحبيب بورقيبه الطريق لانشاء نظام جمهوري رئاسي، وعلى أسـاس تجميع السلطات بين يديه، ويستخدم في ذلك الحزب وسيلة من وسائل السيطرة والحكم.

ولقد تمكن الحبيب، بورقيبة بعد ذلك من القيام بعملية «تونسة» الوظائف، وعمل على تطهير هذه الوظائف من معارضيه. كما تمكن من القيام بمشـروعات لتدعيم النظام العلماني في تونس. ولكن الأوضاع الاقتصادية من ناحيـة وطبيعـة القوى المحيطة به في داخل تونس وخارجها هي الـتي أملـت عليـه خـط السياسـة الذي سار به بعد إستقلال تونس، وفي وقـت كـانت كـل مـن المغـرب الأقصـى والجزائر تكافح من أجل استقلالها وتمام سيادتها.

استقلال المغرب

كانت الطريقة التي سارت عليها فرنسا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية في معاملتها للمغرب الاقصى تدل من ناحية على الاتجاهات الفرنسية الجديدة فيما يتعلق بممتلكاتها ومحمياتها، وأدت إلى عكس ما كانت فرنسا ترجوه منها. ولقد استخدمت فرنسا الضغط، ولكن هذه السياسة ستقابل عزماً وتصميماً من جانب العناصر الوطنية والمغربية على ضرورة الحصول على الاستقلال. وإذا كانت فرنسا قد نجحت مرحلياً في بعض العمليات ومع استخدام سياسة الضغط والشدة، فانها قد فشلت في النهاية، وبطريقة لم تكن تتوقعها، إذ أنها دفعت الموقف دفعاً، وساعدت بتشددها على وصول المغرب إلى الإستقلال.

(١) سياسة الضغط الفرنسي :

كان شعور فرنسا بضعفها هو اكبر دافع لها على محاولة إظهار قوتها أمام المغاربة. وكان كثير من الفرنسيين يعتقدون أن المغربي يحترم القوة ويخضع لها أكثر من احترامه للتفاهم وللفكر. وكانت فرنسا قد نظرت بعين غير راضية إلى مقابلة محمد الخامس مع الرئيس روزفلت، ورأت في هذه المقابلة تعبيراً عن استقلال هذا الملك، وتدعيماً لسلطته ونفوذه وبشكل لاتوافق عليه. وكانت العلاقات متأزمة على أشدها مع العناصر الوطنية المغربية منذ إعلان وثيقة الاستقلال. وكانت السلطات الفرنسية قد قامت بعمليات ألقاء القبض على هؤلاء الزعماء حتى تثبت قوتها ونفوذها وتقضي على الحركة الوطنية النامية.

ولكن الواقع أن موقف السلطات الفرنسية من محمد الخامس، ومن العناصر الوطنية الموجودة في البلاد، دفع بالجميع إلى التعاون والتكاتف، وساعد على سرعة نمو الحركة الوطنية وعلى تناسي الخلافات لمواجهة قوة الضغط الخارجية. وأصبح على فرنسا أن تواجه حركة وطنية متزايدة، تصر على الاستقلال، وتحترم الملك، في الوقت الذي وقف فيه محمد الخامس وقفات وطنية واضحة أمام قوة الضغط الفرنسي.

حقيقة أن الحكومة الفرنسية قد حاولت في سنة ١٩٤٦ أن تقوم بتهدئة الموقف في المغرب الأقصى، وعلى أساس الوصول إلى تفاهم مع العناصر الوطنية، وقامت هذه الحكومة باختيار إريك لاتبون مقيماً عاماً لها في المغرب. وبدأت هذه الفترة بالاعلان عن سياسة تهدف الاصلاح وتهدئة النفوس.

وصدرت الأوامر باطلاق سراح المعتقلين السياسيين، ومن بينهم علال الفاسي.

كما استعدت فرنسا للتقدم ببرنامج خاص بالاصلاحات للمغرب، ولكن علال الفاسي انتهز هذه الفرصة وسافر إلى مصر حيث بدأ اتصاله بالجامعة العربية، وبدأ في تنوير الرأي العام عن حقيقة المشكلة المغربية وطبيعة الاستعمار الفرنسي الموجود هناك. أما عن برنامج الاصلاحات الفرنسي فكان في واقع الأمر يهدف إلى الوصول إلى «سيادة مشتركة» مغربية فرنسية، كخطوة أولى لدخول المغرب إلى نطاق «الاتحاد الفرنسي». وكانت هذه هي نفس السياسة التي حاولت فرنسا تطبيقها في نفس الفترة مع تونس.

ولقد اشتمل هذا البرنامج على ضرورة إقامة مجالس بلدية منتخبة في المدن

كمرحلة أولى للوصول إلى الحكم النيابي. ولكنه نص على ضرورة اشتراك المستوطنين الاوربيين في هذه المجالس مع الوطنيين، وبنفس نسبة عددهم.

فظهر أنه كان خطوة إلى الوراء. كما اشتمل من الناحية الاقتصادية على ضرورة إنشاء شركات بروؤس أموال وطنية مع اشتراك الحكومة الفرنسية في تنفيذ المشروعات الاستغلالية، وخصوصاً في عمليات استخراج المعادن وفي شركات النقل والطيران. وإذا كان هذا الجانب يظهر على أنه اشتراكي بالنسبة للفرنسيين، مادامت الدولة الفرنسية هي التي ستشترك وتسيطر على عملية التنمية والاستغلال، فانه قد ظهر أمام الوطنيين المغاربة على أنه نشاط احتكاري للدولة الفرنسية ولثروات المغرب الوطنية واشتمل المشروع كذلك على ضرورة العمل على تحسين الأحوال العامة للأهالي، وذلك بانشاء قرى جماعية يقوم بفلاحتها المغاربة، وتمدهم الدولة بالآلات الزراعية الحديثة. ولكن هذا الجزء من المشروع كان يتعارض مع مصالح المستوطنين إذ أنه كان سيوجد أمامهم منافسا قوياً في الإنتاج الزراعي، كما أنه كان سيؤدي إلى حرمانهم من الأيدي العاملة اللازمة لهم والتي كانوا يحاولون الاحتفاظ بها لأنفسهم وبأقل الأجور. أما العناصر الوطنية فانها قد رأت في عملية البدء بتطوير وسائل معيشة الأهالي تأجيلاً للمشكلة السياسية، لمشكلة السيادة، ولمسألة الاستقلال. ولذلك فانهم قد عارضوه كذلك، في نفس الوقت الذي عارضه فيه المستوطنون. وإذا كان رجال الصناعة قد أيدوا مثل هذا المشروع، فانهم قد اضطروا إلى تغيير موقفهم بعد أن ظهر أن الإقامة العامة ستشتري الآلات الزراعية اللازمة من الولايات المتحدة الأمريكية بدلاً من شرائها من فرنسا. وهكذا لم يحظ هذا المشروع الخاص «بالاصلاحات» بأي تأييد، ومن أي قطاع. فزعزع ذلك من مركز

اريك لابون، الاشتراكي الفرنسي. وجاء تغيير الوزارة في باريس في سنة ١٩١٧ دليلاً على فشل هذه السياسة، خاصة وأن الوزارة الجديدة كانت من العناصر اليمينية، وكان وجود جورج بيدو فيها كوزير للخارجية، ومسؤول عن العلاقات مع حمايات المغرب، وهوالمتطرف ضد المغاربة والحركات الوطنية، يبشر بوقوع صدام بين الطرفين.

لقد اختارت الوزارة الجديدة الجنرال الفونس جوان مقيماً عاماً لها في المغرب. وكانت ظروف نشأته في الجزائر، وعلاقاته بالمغاربة، وصلاته بحكومة فيشي، وبالنازيين ثم بالأمريكيين فيما بعد، تدل على أنه سيستخدم طريق الشدة مع العناصر الوطنية. وكانت حكومة باريس قد ضاقت بموقف محمد الخامس تجاهها، وتأييده للحقوق الوطنية. ومع توافق الأحداث التاريخية، وقلة وجود المصادر، اتخذت حكومة باريس في ذلك الوقت قراراً بنقل الأمير عبد الكريم الخطابي من منفاه في جزيرة ربونيون، وارجاعه إلى فرنسا. ولاشك أن الحكومة الفرنسية قد هدفت من وراء هذه العملية ارهاب محمد الخامس، واجباره على التساهل معها مادام أسد الريف سيصبح قريباً من بلاده، ويمكن أن يعتبر من الشخصيات التي تصلح لتولي الحكم ولكن هذه السياسة لم تعط أية نتائج إيجابية بالنسبة لفرنسا سواء مع الأمير عبد الكريم الخطابي، أو محمد الخامس، خاصة وأن فرنسا قد قامت في نفس الوقت بحملة اعتقالات كبيرة ضد الرجال الوطنيين بشكل عام ورجال الاستقلال بشكل خاص. ولقد تمكن الأمير عبد الكريم الخطابي من ترك السفينة التي كانت تقله حين مرورها في قناة السويس، والتجأ إلى مصر، وفوت بذلك الفرصة على فرنسا لاستخدامه مخلباً للقط ضد محمد الخامس، وبدعوى أن ظروفه الصحية هي التي تحتم رجوعه من المنفى.

وكانت صدمة كبيرة للعناصر الفرنسية اليمينية. وفي القاهرة أخذ الأمير في إنشاء «لجنة تحرير المغرب العربي» وكان مجيء الفاسي إلى القاهرة يسمح بزيادة تكتل العناصر الوطنية داخل هذه اللجنة، التي أصبحت بمكاتبها الثلاث، والخاصة بتونس والمغرب والجزائر، تمثل تصميم رجال المغرب على إنهاء استعمار بلادهم، وتصميمهم على الوصول إلى الاستقلال. وفي نفس الوقت لم يتراجع محمد الخامس عن موقفه الوطني، رغم استخدام الضغط عليه.

وكان محمد الخامس قد قرر زيارة طنجة، وبصفتها جزءاً من بلاده.

وكانت سلطات الحماية تماطل في الموافقة على هذه الزيارة ولكنه صمم عليها. وفي ليلة سفره إلى طنجة قامت حركة اعتقالات واسعة النطاق بين العناصر الوطنية والعمال الموجودين في الدار البيضاء، وبشكل أدى إلى اصطدامات مسلحة في شوارع هذه المدينة. ولا شك أن الفرنسيين قد دبروا هذه العمليات لمنعه من السفر الى طنجة، اذ أنهم قد أتوا له بأخبارها وهو يستعد للسفر. ولكنه سافر رغم ذلك، ورغم تغير حالته المعنوية نتيجة لعدم رضائه عن سياسة الضغط الفرنسي على رعاياه الوطنيين المخلصين. ولقد ظهر موقفه واضحاً في خطابه في طنجة حين أهمل الفقرة الخاصة بدور فرنسا في نشر الحضارة والمدنية في المغرب، وحين ذكر أن بلاده ترتبط بالبلاد العربية الأخرى في الشرق الأوسط بأوثق الروابط، وأنها ترغب رغبة أكيدة في تعزيز هذه الروابط، وخاصة بعد أن أصبحت الجامعة العربية عاملاً هاماً في الشؤون العالمية. واذا كان الأمير عبد الكريم الخطابي يتصل بالجامعة العربية في القاهرة، فان محمد الخامس يصر على أن بلاده عربية وعلى أنه سيدعم علاقاته بالجامعة التي لا تقبل الا البلاد العربية والمستقلة. وكانت لطمة جديدة أصابت الفرنسيين.

وإذا كانت سلطات الحماية والاقامة العامة قد واصلت سياسة الضغط على صاحب العرش وعلى العناصر الوطنية، فانها كانت قد وصلت الى مرحلة ظهر فيها اعتزاز الملك بالعناصر الوطنية في البلاد، وظهر فيها ولاء القادة الوطنيين لصاحب العرش، وكلهم في مواجهة الاستعمار.

ولقد وقف الجنرال جوان في ذلك الوقت يشرح أن الحضارة المغربية لها صفات مميزة عن بقية صفات الحضارة العربية، وأن المغرب الاقصى بحكم تضاريسه، وبحكم استراتيجيته، وواجهته الكبيرة المطلة على المحيط الاطلسي، له صفات غربية تربطه باوربا وبالغرب، أكثر مما تربطه ببقية العرب وبالشرق. ولكن المغاربة لم يكونوا في حاجة إلى شرحه لكي يفهموا منه حقيقة شعورهم وطبيعة شخصيتهم.

وتقدم الجنرال جوان بعد ذلك بمشروع للاصلاح ويتعلق بالادارة المغربية، وكان ينص على ضرورة زيادة عدد الوزارات في المغرب، ولكنه كان يهدد بأن تصبح الوزارة فرنسية مغربية، مادام رؤساء المصالح الفرنسيين الموجودين في المغرب سيشتركون فيها. كما اشتمل على مشروع يتعلق بالمجالس البلدية والقروية، ولكنه نص على أن عدد المقاعد ستكون فيها مقسومة على اثنين: قسم للمغاربة، وقسم يساوية للمستوطنين الفرنسيين. أما مجلس الشورى فانه كان يشتمل على قسم للفرنسيين أعضاء الغرف التجارية والصناعية، وقسم ثان للفرنسيين المستوطنين ومن أصحاب المهن الحرة، وقسم ثالث للمغاربة، ويكون بالتعيين. وجاء الجنرال جوان لكي يحاول إدخال بعض التعديل ويقسمه إلى قسمين: قسم فرنسي بالانتخاب المباشر، وقسم مغربي بالانتخاب على درجتين وكذلك اشتملت هذه المشروعات على ادخال النظام اللامركزي في

الحكم، ولكن على أساس اضعاف سلطة السلطان على الباشاوات والقياد. أما إذا كان هناك تفكير في تغيير نظام الحماية من أساسه، فان الجنرال جوان كان يرحب بالفكرة، ولكن على أساس دخول المغرب «الاتحاد الفرنسي» أي على نفس المستوى مع السنغال وجابون والكونغو الفرنسي!! ولا شك أن مشروعات الجنرال جوان كانت تهدف كذلك الوصول إلى «السيادة المشتركة»، وإن كانت مغلفة بغلاف يختلف قليلاً عن ذلك الذي غلفت به مشروعات اريك لابون.

ولقد قام الجنرال جوان بتقديم هذه المشروعات في نفس الوقت الذي واصل فيه استخدام سياسة الضغط على العناصر، وعلى صاحب البلاد. وأدى ذلك إلى الاصطدام مع محمد الخامس ومع العناصر الوطنية.

(٢) الاصطدام بصاحب العرش :

قام الجنرال جوان بتقديم مراسيم خاصة بطريقة الاصلاح التي يرغب فيها إلى محمد الخامس للتوقيع عليها، ولكن الملك رفض القيام بذلك، فادعى المقيم العام الفرنسي أنه يعرقل تطوير بلاده، ووصولها إلى النظم الديموقراطية.

وقام الجنرال جوان بعد ذلك بمحاولة لاستخدام رجال الطرق الصوفية ضد محمد الخامس. وكان في وسع فرنسا أن تعتمد في هذه العملية على سي محمد الكتاني، ولكن نجاح هذه العملية كان ضرباً من المحال، وخاصة بعد تطور الآراء في المغرب، ووضوح الرؤيا أمام العناصر الوطنية. وشعرت فرنسا بأن هناك معارضة قوية، حتى داخل نطاق المجلس الاستشاري، والذي كان الاعضاء

المغاربة فيه من المعينين. فقامت حكومة باريس بمحاولة للفصل بين محمد الخامس، وبين العناصر الوطنية في البلاد، وذلك عن طريق دعوة الملك الى زيارة لباريس، وفي وقت تأزمت فيه العلاقات بين الوطنيين وبين الفرنسيين. ولكن محمد الخامس لم يتراجع، وسافر إلى باريس، وقدم هناك مطالب بلاده واضحة، وفي مذكرتين، في شهر اكتوبر سنة ١٩٥٠، وطالب فيها باطلاق الحريات العامة، وتغيير طبيعة العلاقات مع فرنسا، أي تغيير نظام الحماية. وكانت هذه صدمة جديدة للنفوذ الفرنسي في البلاد.

وإذا كانت سلطات الحماية قد أصرت على ضرورة توقيعه على المراسيم الخاصة بالاصلاحات، فان الملك قد أحالها إلى لجان خاصة لدراستها. وفي نفس الوقت بدأت معارضة العناصر المغربية داخل مجلس الشورى تأخذ شكلاً واضحاً ضد النفوذ الفرنسي، ووصل الحال إلى فضح نيات الاستعمار الفرنسي في البلاد، وفي جلسة كان يرأسها الجنرال جوان بنفسه، واستمر بعد ذلك في شكل احتجاج من جانب الجنرال، والى انسحاب العناصر الوطنية من الجلسة ومن المجلس.

ولكن الجنرال جوان ذهب بعد ذلك الى القصر وطلب الى محمد الخامس أن يصدر بياناً يستنكر فيه أعمال رجال حزب الاستقلال ويصف رجاله بمخالفة الدين؟ ولكن الملك كان فوق الاحزاب، وفوق رجال الاحزاب، ولم يكن يوافق على تنفيذ مثل هذه التوجيهات. وذكر للمقيم العام أنه من سلطة القضاء وحده ادانة رجال الاحزاب، إن كانوا قد ارتكبوا ما يعاقب عليه القانون. ولكن الجنرال قدم انذاراً للملك بادانة الاستقلال والا فالاستقالة من العرش. وذكر أنه سيقوم بنفسه بعزله. واعطى لذلك مهلة، إذ أنه كان سيترك المغرب في زيارة

إلى الولايات المتحدة الامريكية، وعلى الملك أن يتسغلها في التفكير فيما طلب إليه تنفيذه. وبعد عودة الجنرال كان محمد الخامس لا يزال مصمماً على موقفه. فلعب الجنرال بطاقة جديدة، وهي استغلال القائد سي التهامي الجلاوي، باشا مراكش، لتهديد الملك.

واضطر محمد الخامس الى الكتابة إلى رئيس الجمهورية الفرنسية مستنكراً استخدام هذه السياسة في بلاده، وضد رعاياه وضد شخصه. ولكن رئيس الجمهورية الفرنسية ادعى حياده في مثل هذه المسائل التي تخص الوزارة.

فاضطر محمد الخامس إلى أن يوقع على الاستنكار المطلوب، وإن كان قد رفض تحديد اسم حزب الاستقلال فيه، وكان في وسع رئيس الوزراء أن يقوم باكمال هذا التفسير اللازم للفرنسيين.

لقد ثبت أن هناك صدام لا محالة بين سلطات الاقامة وبين صاحب العرش، وخاصة حينما أخذ القائد الجلاوي في التحدث عن محمد الخامس، وفي التهديد بالزحف من مراكش إلى الرباط على رأس رجاله. وكانت الجامعة العربية تعرف حقيقة الموقف في المغرب، وصممت على عدم ترك محمد الخامس بمفرده في هذه المعركة ضد الاستعمار. واشتعل الرأي العام في كل العالم العربي، وعرضت المشكلة المغربية على الأمم المتحدة، ولأول مرة سنة ١٩٥١. وإذا كانت الاقامة العامة قد واصلت سياسة الكبت في المغرب وواصلت القاء القبض على الوطنيين، فان التصريحات التي ادلى بها بعض القياد والباشاوات في المغرب، عن ضغط الجلاوي والاقامة العامة الفرنسية عليهم، لكي يعلنوا أنهم ضد السلطان، قد عملت على فضح الجنرال جوان، وبشكل اجبر الحكومة الفرنسية على تغييره، وعلى تعيين الجنرال جيوم بدلاً منه في المغرب.

ولكن تغيير الرجل لم يكن يعني أبداً تغيير السياسة، خاصة وأن جيوم كان من أعوان جوان المخلصين، وكان الاصطدام قد بلغ مرحلة يصعب فيها التراجع، وعلى الطرفين.

وتكاملت الأحداث في المغرب الكبير مع بعضها، ومع أحداث الشرق الأدنى. وجاءت الأنباء من القاهرة بسيطرة الضباط الأحرار على الحكم، وبتصميم المصريين على التخلص من الاستعمار. ولاشك أن ذلك كان تدعيماً للحركة الوطنية التحررية في كل مكان. ثم جاءت حادثة إغتيال الزعيم النقابي التونسي فرحات حشاد قرب تونس، وبشكل يوجه التهمة بصراحة إلى عناصر المستوطنين الفرنسيين في شمال إفريقية، وإلى السلطات الفرنسية الموجودة في بلاد المغرب الكبير. وخرجت المظاهرات في مدينة الدار البيضاء، ووقفت قوات الأمن الفرنسية تجاه العمال المغاربة موقف الحرب، بل قامت بعمليات إنتقام، وأدى الأمر إلى مذبحة في هذه المدينة. لقد تبلور الموقف بشكل واضح بين الوطني والمستعمر، وفي وقت ظهر فيه الاصطدام بين سلطات الحماية وبين صاحب العرش.

وإذا كان بعض المفكرين الفرنسيين قد حاولوا في هذه الفترة الاستناد إلى العوامل الانسانية، والنواحي الدينية، لكي يقربوا بين المغاربة، وبصفتهم من المسلمين المؤمنين، وبين الفرنسيين وبصفتهم مسيحيين يؤمنون بالمحبة والسلام، فلاشك أن هذه الحركة قد إفتقرت إلى عوامل النجاح، وخاصة في وقت ظهر فيه الاصطدام بين الطرفين، ونتيجة لتضارب المصالح بين من يرغبون في الاحتفاظ بالوضع القائم، وبين من يرغبون في التغيير، مهما كلفهم الأمر. وجاءت وزارة جوزيف لانييل إلى الحكم في باريس، وهي وزارة يمينية، وكانت

لا توافق على التراجع أمام الحركة الوطنية في المغرب، إذ أن ذلك سيظهرها بمظهر الضعف، وخاصة في وقت إستمرت فيه عمليات المقاومة في تونس. إذا فمن اللازم إستخدام الشدة، وإلى أقصى درجة ممكنة.

وقررت السلطات الفرنسية في المغرب ضرورة القيام بعمل يذهل الرأي العام ويرهبه في نفس الوقت، وهو التخلص من محمد الخامس، وإبعاده عن بلاده. ووافقت حكومة باريس على الخطة.

وإعتمدت فرنسا من جديد على سي التهامي الجلاوي، وكان من رجالها المعروفين، وكان له نشاط يرتبط ببعض الشخصيات الفرنسية، وخاصة في توزيع بعض المواد التموينية في منطقته، وإشرافه على الدعارة والرقيق الأبيض هناك. وكانت مصالحه مرتبطة تماماً بمصالح الاستغلال الفرنسية، خاصة وأنه كان يتقاضى مائة فرنك عن الرأس الواحدة في الليلة الواحدة، ويشرف على عملية هذه التجارة وتوزيع عناصرها بين خيام القبائل. كما كان نفوذه وسلطته يرتبطان بالبقاء الفرنسي بعد أن عمل مع الفرنسيين أربعين عاماً.

حقيقة أنه كان من الصعب على الفرنسيين أن يتخلصوا من محمد الخامس، خاصة وأنه كان يمثل السلطتين الزمنية والدينية في نفس الوقت.

كان هو السلطان في نفس الوقت الذي كان أميراً للمؤمنين. وكان من الصعب على الفرنسيين انتزاع السلطة الزمنية منه مادام يحتفظ بالسلطة الدينية. ولذلك فان سي الجلاوي قد بدأ في مهاجمته في ناحية سلطته الدينية وأخذ في جمع العرائض من عدد من الباشوات والقيادة وخاصة في الجنوب، تطالب بأمير مؤمنين جديد غير محمد الخامس. وأتم جمع ٢٥ وثيقة وإن كان عدداً من القياد

والباشوات قد رفض التوقيع، وفضح وجود مثل هذه الحركة، وخاصة في الرباط والدار البيضاء وفاس وصفرو.

واتهم الجلاوي سيده محمد الخامس بأنه قد أصبح سلطان حزب الاستقلال، ولم يعد سلطاناً للمغرب. وإستند الجلاوي إلى هذه الوثائق لكي توافق حكومة باريس على إختيار المغاربة لأمير مؤمنين جديد. وكان الجلاوي قد اتفق سلفاً على الشخصية الجديدة، وهي محمد بن عرفة، الذي كان من أعمام محمد الخامس، وكان متقدماً في السن بدرجة لا تسمح له بكثير من الحركة، أو حتى بالتفكير. وجاءت الأنباء بأن الباشاوات والقياد قد بايعوا إبن عرفة أميراً للمؤمنين. وصحب ذلك تحرك بعض فرسان الأطلس الأعلى، وبعض رجال القبائل من مراكش صوب الرباط.

وإدعت سلطات الاقامة أن حياة محمد الخامس ونظام الحكم في المغرب قد أصبح مهدداً، فجاءت بقواتها الفرنسية لمحاصرة القصر. وهنا والقصر محاصر اجبر محمد الخامس على ترك بلاده، وحملته طائرة فرنسية إلى جزيرة كورسيكا تمهيداً لنقله إلى جزيرة مدغشقر في المحيط الهندي.

وأعلن المقيم العام الفرنسي خلعه، في الوقت الذي أعلن فيه الجلاوي أن الرأي العام، وشيوخ البلاد وحكامها، قد إختاروا بن عرفة سلطاناً عليهم.

وكانت ضربة كبيرة، وأكبر من أن تحتملها الحركة الوطنية، سواء في المغرب أو في المشرق.

لقد ارتفع صوت علال الفاسي من محطة إذاعة صوت العرب من القاهرة

يفضح هذه العملية ويعلن ولاء كل العناصر الوطنية لمحمد الخامس. وسرى نفس التيار في أنحاء بقية العالم العربي الاسلامي، ووقفت الحكومات العربية مصممة على الدفاع عن حق المغرب الذي أصبح يتمثل في عودة محمد الخامس واستقلال بلاده.

حقيقة أن المغرب قد عاش فترة بضعة أشهر في دهشة تامة، ولم تزودنا الأنباء بقيام حركات عنف يقوم بها الوطنيون. ولكنه كان الهدوء الذي يسبق العاصفة. وبدأ ابن عرفة حكمه بالتنازل عن سلطته التنفيذية لمجلس الوزراء، والتنازل عن سلطته التشريعية لمجلس معين نصفه من الفرنسيين ونصفه من المغاربة المعينين، كما تنازل عن حقه حتى في الاعتراض على ما يتخذه هذا المجلس من قرارات تشريعية. ولم يمض أسبوعين على توليته السلطة حتى وقع على المرسومات التي قدمتها الاقامة له، والخاصة بانشاء المجالس البلدية والمجالس القروية. والظاهر أن الفرنسيين كانوا يوافقون عليه نتيجة لتقدم سنه، ونتيجة لعدم رغبته في بحث أي مشكلة، أو حتى الاشتراك في أي قرار بشأنها. واعتقد الفرنسيون إنهم سيصلون عن طريقه إلى تطبيق مبدأ السيادة المزدوجة، ولكن الأمر إختلف عن ذلك، إذ سرعان ما استجمع المغرب قواه، وأعد للامر عدته، فكانت المقاومة المسلحة، ثم ظهر جيش التحرير.

(٣) رجال المقاومة والتحرير :

إن الطريقة التي سارت عليها السياسة الفرنسية في المغرب جعلت من صاحب العرش رمزاً للكفاح ضد الاستعمار، ورمزاً للاستقلال. سيؤثر ذلك على نمو الأوضاع الجديدة في المغرب، وبشكل يدعم من نفوذ القصر، وفي كل ميدان.

ولقد بدأت المقاومة في المغرب في شكل عمليات مسلحة، وإن كانت فردية، واشتملت على القاء القنابل اليدوية وإطلاق الرصاص على الخونة والمتعاونين مع الفرنسيين. وقام بهذه العمليات عناصر مع الفدائيين الذين كانوا على صلة وثيقة بحزب الاستقلال. وكانت هٰذه العمليات تمثل المرحلة الأولى في كفاح المغرب المسلح ضد الاستعمار الفرنسي. ويمكننا أن نذكر من بين الشهداء الذين قاموا بدورهم في هذه العمليات الشهيد الزرقطوني والشهيد علال بن عبد الله، الذي لم يتراجع عن القاء قنبلة على موكب ابن عرفه عند خروجه من القصر لتأدية فريضة الجمعة في المسجد المواجه للقصر.

وتمت العملية بمنتهى السرعة، وأمام دهشة الحرس السلطاني الأسود، ودهشة الحرس الخاص للسلطان، وهم من الضباط الفرنسيين. وكانت هذه العملية أكبر تحدي يمكن تصوره لسياسة فرنسا الاستعمارية في بلد قرر أهله أن يعيشوا في حرية. ولا تزال تفاصيل هذه الحركة، وطريقة تنظيمها، مجهولة حتى الآن، إلا فيما يتعلق ببعض الروايات الشخصية التي تذكر في المحادثات، ولم تنشر بعد. وكانت الدار البيضاء كمركز للعمال والطبقات الكادحة الوطنية من المراكز الهامة في هذه العمليات. وتتالت الأحداث، وأخذت السلطات الفرنسية في إستخدام الشدة ضد كل الوطنيين.

ولكن الظاهر أن تنظيم هذه المقاومة كان أقوى وأعمق من أن يصل إليه الفرنسيين. ونعرف أن الدكتور الخطيب كان يخرج في سيارة الاسعاف، وبصفته جراحاً معروفاً، ويدخل إلى أماكن وقوع الحوادث، ولانقاذ المصابين، وكان في نفس الوقت أحد كبار قادة المقاومة في المغرب، والمشرف على المقاومة في الدار البيضاء، وسيصبح بعد قليل قائد جيش التحرير المغربي. وكم من رجال

خدموا معه، وأدوا واجبهم، وباعصاب هادئة، وانتصروا أو استشهدوا في سبيل بلادهم.

وسرعان ما انتشرت الحركة في البادية، وأخذ المغاربة في احراق مزارع المستوطنين الفرنسيين ومساكنهم. واشتدت هذه العمليات في أوقات نضوج المحاصيل، وكانوا يدفعون بأحد الأرانب، التي ربط بأحد أرجلها قطعة من النسيج المبللة بالبترول والمشتعلة، داخل المزارع. ومع ذعر الحيوان الصغير وفراره من مكان لآخر تنتشر النيران وتلتهم المحصول، ودون أن يتمكن الفرنسيون من العثور على رجال المقاومة. ولقد زادت حركة خروج الفرنسيين في ذلك الوقت من المغرب وعودتهم إلى فرنسا بشكل أقلق الحكومة الفرنسية نفسها، ومهد الطريق أمامها للتراجع.

حقيقة أن وزارة منديز فرانس كانت تخشى من أن تطبق في المغرب نفس السياسة التي كانت قد طبقتها في تونس، حتى لاتعرض نفسها لهجمات العناصر اليمينية، واتهامهم اياها بتصفية الامبراطورية، كما أنها كانت لا تجرؤ على مواجهة المشكلة، مادامت قد بدت وكأنها تستند إلى وثائق بعض القياد والباشاوات، وإلى قطاع من الرأي العام المغربي في ذلك الوقت. ولكن تطور الأحداث في تونس ونشوب الثورة في الجزائر في فاتح نوفمبر سنة ١٩٥٤، ومجيء ادجار فور إلى الحكم أجبر هذا الأخير على اتخاذ سياسة جديدة في المغرب خاصة وأن انتشار الثورة في الجزائر كان يتطلب من فرنسا مجهود كبير.

وكانت عناصر المستعمرين المتطرفة قد اخذت في ذلك الوقت في القيام بعمليات ارهابية ضد الأهالي، وقامت بانشاء بعض المنظمات الارهابية لوضع

فرنسا أمام الأمر الواقع. وفشلت هذه العمليات في ارهاب الوطنيين، بل زادتهم تصميماً على العمل في المقاومة. وخشيت حكومة باريس من أن يؤدي ضغط المستوطنين الفرنسيين عليها إلى تحميلها الكثير، وفي وقت انتشرت فيه الثورة الجزائرية. ولذلك فانها عينت جرانفال مقيماً عاماً في المغرب بدلاً من الجنرال جبوم. وثبت أمام هذا المقيم العام الجديد أن العناصر الوطنية كلها تطالب بعودة محمد الخامس، وتطالب بالاستقلال، وأنه من المحال استمرار فرنسا على سياستها السابقة، حتى ولو كان المستوطنين يرغبون في الاستمرار فيها. واضطر جرانفال إلى اتخاذ إجراءات معينة ضد العناصر المتطرفة من المستوطنين، ونصح حكومة باريس بالعمل على إعادة محمد الخامس إلى بلاده.

وإذا كانت حكومة باريس قد تباطأت في اتخاذ الاجراءات، فان تطور الأحداث في المغرب في ذلك الوقت قد اجبرها على التراجع. إذ سرعان ما أخذت قبائل زبان وزمور في الأطلس المتوسط في مهاجمة المواقع العسكرية الفرنسية، وهاجمتها بأسلحة وبنادق حديثة، وبطريقة وتكتيك حربي حديث. ويذكر جرانفال في مذكراته عن مهمته في المغرب كيف أن الوطنيين كانوا يصرخون في وجهه بحياة بن يوسف، وكيف أن قائد القوات الفرنسية في المغرب قد أعلن له هجوم قبائل الأطلس المتوسط على خنيفره قائلاً: «إنها الحرب ...».

وكان أكثر ما تخشاه فرنسا في ذلك الوقت هو وجود تنسيق بين عمليات رجال القبائل في المغرب وعمليات الثورة المسلحة في الجزائر، خاصة وأن الوطنيين كانوا يتحدثون عن وجود جيش تحرير مغربي، في الوقت الذي كانت القوات الفرنسية في الجزائر تقاسي من جيش التحرير الجزائري، وكان جيش التحرير التونسي لا يزال يقلق الفرنسيين في المنطقة الجنوبية من إقليمهم. وكان

التوافق بين العمليات في كل إقاليم المغرب الكبير، مع استخدام الاسلحة الحديثة وتكتيك حربـي لـه قيمتـه يجبر فرنسـا علـى التفكـير في الموضـوع، خاصـة وأن اذاعات صوت العرب من القاهرة كانت تخـاطب الوطنيـين ورجـال التحريـر في كل مكان. وخشيت فرنسا أخيراً من أن تكون هذه الأسلحة الموجودة في أيـدي رجال جيش التحرير قد وصلت من مصر ومن رجال الثورة في القاهرة. وأخـيراً فقد كـان عليهـا أن تقلـل مـن اتسـا ع خطـوط عملياتهـا خاصـة وأن بقاءهـا في الجزائر كان أكثر قيمة مـن بقاءهـا في كـل مـن تونـس والمغـرب، كمـا أن أمـل الفرنسيين في التغلب على الثورة الجزائرية كان يسمح لهـم بالتفكـير في امكانيـة العودة بعد ذلك إلى كل من تونس والمغرب والتفرس في الاقليمـين. وعلـى هـذا الأساس وافقت الحكومة الفرنسية على عملية التراجع في المغرب الأقصـى، بعـد أن سيطرت قوات جيش التحرير المغربي على الأقـاليم الشـمالية والوسـطى مـن البلاد، وانفض كثير من رجال القبـائل مـن حـول التهـامي الجـلاوي، وعجـزت فرنسا عن مواجهة الموقف.

(٤) عودة الملك والاستقلال :

وكـان تراجـع فرنسـا في المغـرب يتمثـل قبـل كـل شـيء في عـودة محمـد الخامس إلى بلاده، وإن كانت فرنسا سـتحاول وضـع صمامـات الأمـن اللازمـة لكي تمنع من تهديد المغرب بعد عودة محمد الخـامس إليـه لسـلطتها ونفوذهـا في شمال افريقيـة. وبـدأت العمليـة بتصريحـات جرانفـال، ثـم بتصريحـات مـن سـي التهامي الجلاوي أعلن فيها مشاركته للمغاربة في المطالبة بعودة محمد بن يوسـف إلى عرش بلاده. وكان هذا انتصاراً كبيراً للملك وانتصاراً للحركة الوطنية هناك.

وجاءت فرنسا بمحمد بن يوسف إلى نيس، وذلك للتفاهم معه في أمر عودته للبلاد. ولكن الوفود المغربية تزايدت على مقره، وفي نفس الوقت الذي أعلن فيه موافقة ابن عرفة على الانسحاب من الرباط إلى طنجة.

وسافر محمد الخامس إلى باريس، واحسنت الحكومة الفرنسية استقباله.

وتشكل مجلس وصاية على العرش من أربعة أعضاء كان من بينهم سي مبارك البكاي، باشا صغرو، والكولونيل السابق في القوات الفرنسية، والذي كان قد رفض التوقيع على وثيقة عزل محمد الخامس.

وبدأت المحادثات في سان كلو، في الوقت الذي أقام فيه محمد بن يوسف في فندق هنري الرابع في سان جرمان. والواقع أن محمد الخامس لم يصر كثيراً على التفصيلات، إذ أن كان يعلم، وخاصة بعد مداولاته مع الجنرال كاترو قبل مجيئه من مدغشقر، أن فرنسا تحاول الاحتفاظ بماء وجهها. وشارك في هذه المفاوضات عدد من الساسة المغاربة ومن المستقلين ومن رجال الاستقلال. وانتهى الأمر باصدار تصريح لاسيل سان كلو في ٦ نوفمبر سنة ١٩٥٥، والذي وافق فيه محمد الخامس على قرارات مجلس الوزراء الفرنسي الصادرة في اليوم السابق، والتي تتخلص في منح مجلس الوصاية كامل السلطة لادارة شؤون الامبراطورية الشريفية؛ وفي تأليف مجلس وزراء يمثل جميع الاتجاهات السياسية والاجتماعية في البلاد، وينص على استئناف المفاوضات مع فرنسا لتحديد علاقة المغرب كدولة مستقلة، مرتبطة في تكامل مع فرنسا ومربوطة بها داخل نطاق التعاون المتبادل، أي ما يسمى الاستقلال داخل حدود التكامل L'independence dans l'inter - dependence. وأخيراً النص على اقامة ملكية

دستورية حسب رغبة محمد الخامس نفسه. وكان استقبال محمد الخامس في بلاده استقبالاً شعبياً منقطع النظير، بل كان عاملاً فعالاً في تطور الاوضاع والعلاقات بين القوى الموجودة في المغرب في ذلك الوقت. وكان رجال جيش التحرير المغربي قد ظهروا كقوات مغربية وطنية في هذه الاحتفالات.

ولكن جيش التحرير المغربي ظل يسيطر على مناطق بأكملها من البلاد، وكان بذلك وسيلة ضغط وطنية هامة على الفرنسيين، واجبرتهم على الاعتراف بانهاء نظام الحماية، وبالاعتراف باستقلال المغرب، ودون هذا التكامل غير الواضح مع فرنسا.

ولكن عملية بناء الدولة المغربية الحديثة كانت تلقي عليها بمسؤوليات جديدة، وخاصة في ذلك الوقت الذي لم تكن العلاقات الفرنسية المغربية قد استقرت فيه بعد. وكان استمرار الثورة في الجزائر يعتبر تهديداً واضحاً للنفوذ الفرنسي. وكان أي تعاون ممكن بين جيش التحرير المغربي، وجيش التحرير الجزائري يهدد بالاساءة إلى العلاقات بين البلدين من جديد. وكان المغرب يحتاج إلى إنشاء قواته «الملكية» الحديثة حتى يدافع عن التراب المغربي. فتم الاتفاق مع فرنسا على تحويل المجندين المغاربة في القوات الاستعمارية الفرنسية إلى كتائب خاصة، تعتبر نواة لإنشاء الجيش المغربي. وفي نفس الوقت طلبت الحكومة المغربية، وهي التي تألفت برئاسة سي مبارك البكاي، إلى رجال جيش التحرير المغربي تسليم أسلحتهم والانضمام إلى القوات الملكية المغربية، في حالة ثبوت صلاحيتهم الطبية. حقيقة أن الثورة الجزائرية كانت في ذلك الوقت في حاجة إلى تأييد. وإلى تأييد عسكري من الاقاليم المغربية الشقيقة، ولكن بقاء جيش التحرير المغربي بعيداً عن سيطرة حكومة الرباط لم يكن أمراً مقبولاً في

الملكية المغربية في ذلك الوقت، إذ أنه كان يتعارض مع مبدأ سيادة الدولة الداخلية. وكان هناك جيش تحرير جديد قد انشيء في ذلك الوقت في المنطقة الجنوبية من المغرب، والشمالية من موريتانيا، وبقيادة حرمة بابانا، الذي كان نائباً عن موريتانيا في البرلمان الفرنسي، ثم ترك ملابسه التقليدية العربية في مكان ما بباريس، لكي يظهر في اليوم التالي في القاهرة، ويظهر بعد وقت قليل في وادي درعة على رأس رجال الرقيبات، وبصفته قائد جيش تحرير موريتانيا. والمهم هو أن عملية تصفية جيوش التحرير في المغرب، أو تحويلها إلى قوات ملكية، كانت ضرورية لتدعيم جهاز الدولة الجديدة والمستقلة، ولكنها لم تكن في صالح الثورة الجزائرية.

لقد أصبح المغرب دولة مستقلة ذات سيادة، وأصبح عليه أن يصفي مشكلاته مع الدولة صاحبة الحماية القديمة، ويتعامل مع الدول الشقيقة والمكافحة من أجل استقلالها. وكانت مرحلة جديدة في تاريخ البلاد.

استقلال الجزائر

لقد تزايدت عوامل الضغط الداخلية والخارجية على الموقف الموجود في الجزائر بمرور الزمن، ومع استمرار العمليات الحربية في هذا الاقليم المكافح.

وكانت هذه العوامل في صالح القوى الوطنية المتحررة، ومدعمة لهذه القوى، حتى وإن كانت قد ظهرت وكأن فيها نكسات مؤقتة. وكانت من الناحية الأخرى في غير صالح الموقف الاستعماري الذي حارل الإبقاء على الجزائر فرنسية، أو الوصول إلى حل وسط، وعلى أساس التمويه على الجزائريين، والاستمرار في عملية التحكم والاستقلال. وسيكون لعوامل الضغط أثرها في إنشاء الحكومة الجزائرية المؤقتة، وأثرها في وصول الجنرال ديجول إلى الحكم، والتمهيد بذلك للمفاوضات التي وصلت بالمشكلة إلى الاعتراف باستقلال الجزائر.

(١) ضغط العوامل الداخلية والخارجية :

كانت جبهة التحرير الجزائرية قد أنشئت في أول أمرها على أساس ترك الباب مفتوحاً أمام كل قائد، وحتى مكافح وطني، يرغب في الدخول فيها، ويشارك في عملية تحرير البلاد، وتحقيق الأهداف العامة المتفق عليها.

ولذلك فان جبهة التحرير لم تكن حزباً سياسياً بالمعنى المفهوم، بل كانت تجميعاً للقوى الوطنية وبشروط معينة والأهداف محددة كل التحديد. وكان

انضمام المكافحين لها، من كل الاتجاهات السابقة لتكوينها يدل على نجاحها، ويدل كذلك على تطور خط السير السياسي للحركات والتنظيمات الموجودة في الجزائر صوب اتجاه التحرير، وبأهدافه السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

ولقد انضم إليها زعماء جمعية العلماء، وعلى رأسهم توفيق المدني، وأثبتوا بذلك أن القوى الاسلامية يمكنها أن تأخذ اتجاهاً يسارياً ثورياً وتحررياً، رغم اعتزازها بشخصيتها العربية الإسلامية؛ كما انضم إليها عناصر من اليسار المتطرف، وحتى من بين الشيوعيين. ولكن أحداً في فرنسا لم يكن يتوقع انضمام فرحات عباس ورجال أنصار البيان لجبهة التحرير. ولذلك فانها كانت مفاجأة لهم حين انضم إليهم.

وكان فرحات عباس قد بدأ في الثلاثينات بالتساؤل عن وجود «الشخصية» الجزائرية، ثم قام بعد ذلك في الأربعينات، وبعد ظهور فشل مشروع القانون الأساسي للجزائر، بشرح الأخطار التي ستنتج عن ذلك، ثم قام في أوائل الخمسينات بالاعتراف بوجود الشخصية الجزائرية واضحة وبشكل متبلور، أمام الفرنسيين، وحتى أمامه شخصياً. ولكنه استمر في اتصالاته مع الساسة الفرنسيين والشخصيات الفرنسية البارزة بعد إعلان الثورة، وعلى أساس إمكان إيجاد حل سلمي للمشكلة الجزائرية، ووقف العمليات الحربية الموجودة هناك. ومع مرور الأيام اضطر إلى أن يصرح لهم بأنه يأمل في ألا تدفعهم فرنسا إلى أن يصبحوا جميعهم من رجال جبهة التحرير. ولقد فشلت مجهودات فرحات عباس، وكانت إذاعات وتصريحات القاهرة التي تصدر عن جبهة التحرير، وعن مكتب الجزائر بلجنة تحرير المغرب العربي، تصف فرحات عباس ورجاله بأنهم من صغار البرجوازيين، والذين لم يتم نضجهم بعد للاشتراك

في عمليات التحرير. وكان هدفاً لهذا النقد، مثله في ذلك مثل مصالي الحاج الذي كان قد كون «الحركة الوطنية الجزائرية» M. N. A.، وأعلن أنه لا يوافق على استخدام العنف في الجزائر وسيلة للاستقلال.

ولكن انضمام فرحات عباس مع الدكتور أحمد فرنسيس إلى جبهة التحرير الجزائرية في ٢٣ إبريل سنة ١٩٥٦، كان يدل على زيادة نضج هذا «الزعيم» من ناحية، وعلى ازدياد تطور القوى الموجودة في الميدان من ناحية أخرى. وكانت ضربة أصابت النفوذ الفرنسي، وتلك المجموعة من الفرنسيين الذين حاولوا الاعتقاد في إمكانية الاعتماد عليه وعلى مجموعته، أو على مصالي الحاج، للاحتفاظ بجزء من الرأي العام الجزائري منقسماً على نفسه، وبضرب بعضه بعضاً.

لقد ألقى فرحات عباس أول تصريح صحفي له بعد وصوله للقاهرة مباشرة، وأمام كل من أحمد توفيق المدني ومحمد خيضر وحسين آيت أحمد ومحمد يزيد والدكتور أمين دباغين وأحمد بن بيللا. وإذا كان الرأي العام قد توقع من جبهة التحرير الوطنية الجزائرية أن تصدر تصريحات أكثر اعتدالاً بعد انضمام فرحات عباس إليها، فقد خاب ظنها. إذ أن تصريحه كان هجوماً عنيفاً على سياسة القمع والقتل للاهالي المسالمين، ورغم أنه لم يقفل الباب أمام أية إمكانيات مقبلة للتفاوض، فانه قد أعلن تصميم الجزائريين على الحرب حتى النهاية، وتصميمهم على الوصول بالحرب حتى فرنسا نفسها، وداخل بلادها! وصرح أحمد بن بيللا بعد ذلك بأن فرحات عباس مسؤول في جبهة التحرير الوطنية، وأن تصريحاته تصريحات رسمية.

وإذا كانت فرنسا قد نجحت بعد ذلك في عملية اصطياد القادة الجزائريين الخمسة بطائرتهم التي كانت تنقلهم صوب تونس، بعد بضعة أيام من إعلان الرئيس جمال عبد الناصر تأميم الشركة الدولية للملاحة في قناة السويس، فان القوى الجزائرية المجاهدة قد تمكنت من عقد مؤتمر حربي سياسي، في مكان ما في وادي السومام من ٢٠ إلى ٢٥ أغسطس، وقرروا فيه الخطوط العامة لسياستهم المقبلة، ولأهدافهم العسكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية. وظهر أمام فرنسا أنه يصعب عليها القضاء على «حركة» الجزائر وإخضاع الاقليم بالقوة. وسيؤدي الأمر إلى زيادة تكتل الوطنيين، في الوقت الذي يزيد فيه شعور فرنسا بالضعف، ويأخذ الرأي العام والمنظمات الدولية في الاعتراف بوجهة النظر الجزائرية، حتى وإن كانت قد عجزت عن إصدار قرارات واضحة ومحددة في ذلك.

وكانت «القضية» الجزائرية قد أثيرت أمام مجلس الأمن في أوائل سنة ١٩٥٥ ثم أعيدت المحاولة من جديد في يونيو سنة ١٩٥٦، وإن كانت لم تحظ بتأييد سوى من جانب الاتحاد السوفييتي وإيران في ذلك الوقت.

وإذا كانت الجمعية العمومية للأمم المتحدة قد عجزت في أول الامر، ورغم طلب الدول الأربعة عشر، عن ادراج القضية الجزائرية في جدول الاعمال، فإن إشتراك فرنسا في العدوان على مصر، والتحدث عن مساعدة مصر لثورة الجزائر من الناحية العسكرية قد فتح الباب لمناقشة هذه القضية أمام الجمعية العمومية، مادامت تتعلق بالمساعدات والعمليات العسكرية، وتؤثر بالتالي بتهديد الامن والسلام في العالم. كما أن طبيعة مثل هذه العمليات الحربية كانت تؤثر على مبدأ حقوق الإنسان من ناحية أخرى، وحقوق الشعوب في تقرير مصيرها، مادام قد ثبت أن الجزائريين قد حملوا السلاح ــ حتى وان كان

من طرف جمال عبد الناصر كما قالت فرنسا ـ لتقرير مصيرهم بالقوة. وإذا كانت وفود الدول الغربية والاستعمارية قد عارضت ادراج القضية فانها لم تفز في هذه العملية الا بأغلبية صوت واحد.

وفي الدورة التالية نجحت الوفود الافريقية والآسيوية، وبمشروع معتدل ينص على حث الطرفين المتنازعين على الدخول في مفاوضات لإنهاء النزاع على أساس حق تقرير المصير. وإذا كان هذا القرار لم يشر إلى جبهة التحرير الوطنية الجزائرية فانه قد صدر، ودل على الاعتراف بوجود شخصية جزائرية، وضرورة التفاهم مع ممثليها الذين يعارضون نظرية الحكم الفرنسي.

وإذا كانت فرنسا قد رفضت الاعتراف بالمجاهدين وبجبهة التحرير فان الدورة الثانية عشر قد أوصت بتوسط كل من تونس والمغرب في النزاع القائم بين فرنسا والجزائر. أما الدورة الثالثة عشر فانها قد أوصت فرنسا صراحة بالمفاوضة مع الحكومة المؤقتة للجزائر، والتي كانت قد انشئت في القاهرة سنة ١٩٥٨.

ولاشك أن تطور عرض القضية «الجزائرية» في الأمم المتحدة كان يدل على تدعيم وجهة نظر المجاهدين الجزائريين بالرأي العام، والاعتراف الضمني بأنهم يمثلون اقليماً مستقلاً عن فرنسا، ما دامت هناك توصيات «بالمفاوضة» بين الطرفين. وكان نفس العامل يعتبر عامل ضغط على الفرنسيين، في الوقت الذي انهكت فيه قوى فرنسا في ناحية الأموال وناحية الرجال وفي هذه الحرب الاستعمارية طويلة المدى.

أما ظروف فرنسا الداخلية فنلاحظ فيها فشل مشروعات بورجيس مونوري لحل المشكلة الجزائرية عن طريق التكامل بين فرنسا والجزائر، وذلك

بعد أن كان رئيسه جي موليه قد فشل في استخدام القوة لحلها. وكانت الميزانية الفرنسية تقاسي من رصد ٧٧٠ مليار فرنك سنوياً لحرب الجزائر ومن ابقاء ٧٠٠,٠٠٠ مجند فرنسي هناك ولقد اثبت استمرار هذه العملية أن الاحزاب اليمينية، بل حتى الحزب الاشتراكي الدولي الفرنسي، يسيرون بفرنسا إلى الافلاس وإلى هزيمة ساحقة في الجزائر.

وكانت الآراء السياسية قد بدأت في التسرب إلى عقول بعض القادة والجنود الفرنسيين الموجودين في الجزائر. وخاصة بعد أن عهدت الحكومة الفرنسية إليهم بعمليات تبعد كل البعد عن اختصاصاتهم العسكرية. إذ أنه قد أصبح عليهم أن يشرفوا على الإدارة ويشرفوا على عمليات الأمن والقيام بعمليات التحري والمراقبة والاستجواب، وهي عمليات تبعد الجندي عن مهمته وتعطيه سلطات سياسية، فتحوله عن الهدف الذي جند من أجله.

وشاهدت فرنسا في ذلك الوقت استقالة عدد من الجنرالات الفرنسيين احتجاجاً على «سوء استخدام القوات الفرنسية في الجزائر»، ولم يتراجع عدد منهم عن نشر مذكراته عما يحدث في الجزائر رغم تقديمه للمحاكمة العسكرية بعد ذلك، أو تحديد اقامتهم، نتيجة لإفشائهم أسرار عسكرية ومهنية.

وإذا كان الانقسام في الرأي العام قد بلغ الأحزاب ثم وصل منها بعد ذلك إلى القوات المسلحة، فان ذلك كان يدل دلالة واضحة على زيادة المتناقضات بشكل واضح على رأس أجهزة الحكم في كل من فرنسا والجزائر، ومهد بالتالي لوصول قيادة جديدة سياسية وعسكرية إلى الحكم.

ولا ننسى أن ازدياد تطرف عناصر المستوطنين في الجزائر، واصرارهم

على ابقاء الاقليم فرنسياً كان يزيد من اضعاف حكومات باريس نفسها. ومنذ أن زار جي موليه الجزائر في أوائل سنة ١٩٥٦ ثبت له أن صغار الموظفين وصغار التجار والمستوطنين في الجزائر هم الذين يستخدمون المارسيلييز شعاراً لإجبار فرنسا، حكومة وشعباً، على ضمان بقاء الجزائر فرنسية. ولقد تمكن هذا الاتجاه من أن يحصل على تأييد عدد من الضباط الفرنسيين، وخاصة في الجزائر، وبشكل يضغط على فرنسا حتى تستمر في عملياتها الحربية في الجزائر.

ولقد أدى انقلاب ١٣ مايو سنة ١٩٥٨ الذي قامت به جنود فرقة المظلات الموجودة في الجزائر، بقيادة الجنرال ماسو، إلى عودة الجنرال ديجول إلى الحكم. ومع سقوط الجمهورية الرابعة، ووضع أسس الجمهورية الخامسة، مع ديجول، رجل فرنسا الحرة، سيتم تبلور الموقف، وإن كان على درجات ومراحل، وفي صالح الثورة الجزائرية.

(٣) الجنرال ديجول :

وصل الجنرال ديجول إلى الحكم عن طريق العناصر العسكرية اليمينية التي رأت في شخصيته الكبيرة واجهة يمكن اتخاذها باسم «انقاذ الوطن»، وكان عسكرياً مثلهم، وكان لايقبل الشيوعية، في نفس الوقت الذي كان يعتز فيه بفرنسيته.

ولكن الجنرال ديجول لم يظهر تسرعاً في جمع السلطة في أيديه، حتى يمنع بذلك أي مأخذ عليه فيما بعد، وسمح في نفس الوقت للعوامل المؤثرة بأن تزداد في نضوجها وفي وضوحها. وكان الجنرال ديجول لا يوافق في نفس الوقت على

أن يخضع حتى لاؤلئك الذين أوصلوه للحكم. وكانت عملية عدم التسرع من جانبه فائدة لفرنسا، وفائدة للجزائريين، إذ أنها أدت إلى تبلور الموقف، وفي الطريق الطبيعي الذي كان من اللازم أن يسير فيه.

الفت المجموعة التي قامت بانقلاب ١٣ مايو سنة ١٩٥٨ لجاناً «للأمن العام» في كل من الجزائر وفرنسا نفسها، وتشبهت في ذلك بعصر الثورة الفرنسية. واستندت إلى أن «الوطن» مهدد. وضمت إليها عدداً من الجزائريين المعروفين بأنهم من أنصار سياسة الإدماج. وسمح ذلك للجنرال ديجول بتولي الحكم مع اعطائه سلطات مطلقة واستثنائية، وبناء على طلبه.

ولكن الجنرال ديجول صمت لفترة طويلة نسبياً، وامتنع عن إعطاء أية تصريحات خاصة بالجزائر. وهدف من وراء ذلك إلى ألا يصبح أداة طيعة في أيدي من أوصلوه إلى الحكم، كما هدف كذلك إلى الحصول على موافقة الجمعية الوطنية في باريس على هذه السلطات، حتى يصبح موقفه دستورياً، وبصفته ممثلاً للبلاد، وممثل السلطة في اتخاذ أي قرارات، وباسم فرنسا.

ولم يحاول الجنرال ديجول في هذه الفترة أن يجرح شعور المتطرفين الفرنسيين، ولذلك فانه قد عامل الجزائر في مشروع دستور «الجمهورية الخامسة» على أنها داخل فرنسا أوجزء من فرنسا، وهو مشروع الدستور الذي تقدم به في سبتمبر سنة ١٩٥٩، والذي ظهرت فيه فكرة الادماج واضحة، في نفس الوقت الذي أعطى فيه لاقاليم الاتحاد الفرنسي في افريقية الغربية وافريقية الاستوائية حق تقرير المصير في البقاء مرتبطة بفرنسا أو الانفصال عنها. وفي الوقت الذي دارت فيه عملية الاستفتاء في المستعمرات الفرنسية حول مبدأ

البقاء في الاتحاد الفرنسي أو الانفصال عنه، دارت فيه عملية الاستفتاء في الجزائر نفسها حول مبدأ الموافقة على الدستور أو رفضه، وعلى أساس أن الجزائر أرضاً فرنسية.

ولقد حاولت جبهة التحرير الوطني الجزائري في ذلك الوقت أن تمنع الجزائريون عن المشاركة في التصويت. ولكن سياسة الضغط الاداري والعسكري على الاهالي والمدنيين في الجزائر لم تكن تبشر بنجاح في هذه العملية. ونشرت نتائج المهزلة وهي أن ٩٦٪ من الجزائريين قد وافقوا على الدستور، أي وافقوا على الادماج، في الوقت الذي لم تصل فيه هذه النسبة في فرنسا نفسها إلا إلى ٧٩٪.

ولقد خصص ديجول ٦٦ مقعداً في مجلس الأمة لنواب الجزائر، وحصل الجزائريون المسلمون على ثلثيها، كما خصص ٣٣ مقعداً لهم في مجلس الجمهورية، أي مجلس الشيوخ، وحصل الجزائريون كذلك على ثلثيها.

ولقد واصل الجنرال ديجول هذه السياسة حين زار الجزائر وأعلن في قسطنطينة ضرورة البدء بخطة خمسية تهدف إفساح مجال العمل أمام الجزائريين وتفتح الأبواب للدخول في عملية تصنيع الجزائر وإعادة توزيع الاراضي على الفلاحين وزيادة الاهتمام بالتعليم كميادين إقتصادية وإجتماعية لازمة لتطوير الجزائر كجزء من فرنسا. أما ديبربيه فانه قد أعلن أن هدف حكومته، وهو رئيس الوزراء الفرنسي، هو توحيد النقد والميزانية وكل القوانين بين فرنسا والجزائر وحتى قوانين الاحوال الشخصية. وكان كل ذلك يدل على أن الجنرال ديجول يسير على سياسة الإدماج، والادماج حتى النهاية. وعلق

فرحات عباس على ذلك بأن الجنرال يطلب منهم الحضور إلى باريس وهم يرفعون الاعلام البيضاء، ويطلبون الامان، ولكنهم يعجزون عن القيام بذلك، إذ أن مثل هذا العمل سيغضب المجاهدين الذين يعملون في الجبال.

ولكن الجنرال ديجول أصدر في ١٦ سبتمبر سنة ١٩٥٩ تصريحه الخاص بسياسته الجزائرية، وهو التصريح الذي أعطى الجزائر حقها في تقرير مصيرها، حتى وإن كان في ذلك انفصالها عن فرنسا، وإن كان قد أحاط هذا المشروع بضمانات جعلته غير مقبول من جبهة التحرير الجزائرية.

وأعتقد البعض أنها مجرد مناورة من جانب الجنرال ديجول في ذلك الوقت للتمويه على الرأي العام العالمي وهيئة الامم المتحدة، خاصة وأن الاذاعات كانت مليئة في ذلك الوقت بأخبار التعذيب واستخدام الطلقات المتفجرة ضد الأهالي الجزائريين. ولكن الواقع هو أن ديجول قد قدم هذا المشروع كخطوة أولى تهيء الرأي العام الفرنسي نفسه للخطوة التالية، وكان مكسباً على أي حال أن يذكر ديجول حق الجزائر في الانفصال عن فرنسا، حتى وإن كان ذلك تحت شروط معينة.

ولقد اشتمل المشروع على القيام باستفتاء حر حول مستقبل الجزائر يمكن للمراقبين الدوليين أن يشاهدوه وإن كان قد اشترط مرور اربع سنوات من الهدوء في الجزائر، وفسر الهدوء بالا يقع أكثر من مائتي قتيل في الجزائر في السنة. وخيّر الجزائريين بعد ذلك بين ثلاث أمور؛ الاول هو الانفصال واختيار نوع الحكومة التي يرغبون فيها، وإن كان قد هاجم مثل هذا الاتجاه بأنه سيوقع الجزائر في الفوضى والاضطراب وعجز الميزانية وسيمهد لوقوع الجزائر تحت

الشيوعية، وهو أمر لايرضاه شخصياً للجزائر. والثاني هو الادماج والمساواة في الحقوق والواجبات بين الجزائريين والفرنسيين، والمسلمين والمسيحيين، وعلى أساس نفس الحقوق ونفس الواجبات، والمساواة أمام الوظائف والحصول على نفس المرتبات والتأمين الجماعي وبكل ما يتمتع به الفرنسيون؛ أما الثالث فهو النظام الاتحادي الفيديرالي، وفي هذه الحالة يمكن للجزائريين تشكيل حكومة جزائرية كل وزرائها من الجزائريين، وتعتمد هذه الحكومة على تأييد فرنسا واعانتها وترتبط معها برباط وثيق في الاقتصاد والتعليم والدفاع والشؤون الخارجية. وفي هذه الحالة يبقى النظام الداخلي في الجزائر خاضعاً للنظام الاتحادي أو الفيدرالي ويسمح للجزائريين من المسلمين والعرب والقبائليين بأن يعيشوا معيشة هادئة.

وحاول الجنرال ديجول بهذا المشروع أن يقسم بين الجزائريين وبعضهم ويشعرهم بخطورة الانفصال عن فرنسا، وربما كان ذلك عملية لجس النبض، أو لتقدير الموقف عند الجزائريين أنفسهم، خاصة وأنه كانت هناك بعض الضغوط من جانب ديبرييه رئيس الوزراء تتحدث عن أنه في حالة الانفصال لن يكون هناك الا التقسيم، إذ أن هناك اختلاف بين المنطقة الشمالية من الجزائر، والتي يسكنها الجزائريون، والمناطق الجنوبية، مناطق استغلال البترول، واللازمة من الناحية الاستراتيجية للاتصال بموريتانيا والسودان الغربي ونيجيريا وتشاد. فيمكن في هذه الحالة تقسيم الجزائر، أي أن الجزائر ستصبح المنطقة الشمالية فقط، وحتى الأطلس.

ولكن رجال الحكومة الجزائرية المؤقتة وجدوا أن ديجول لم يصل إلى نهاية الخط، رغم أنهم أعلنوا استعدادهم لوقف القتال إذا كانت هناك مفاوضات

حرة معهم، وبصفتهم الممثلين الفعليين للجزائر، خاصة وأن الصحافة الفرنسية كانت تلوح في ذلك الوقت بالتفاهم مع مصالي الحاج أو ضرورة الاعتماد على الاستفتاء رأساً ودون أعطاء أي اعتبار للحكومة الجزائرية المؤقتة. ونجد من جانب آخر أن العناصر اليمينية الفرنسية قد اعلنت دهشتها لصدور مثل هذه التصريحات وهذا البرنامج من الذي كانوا قد أوصلوه أنفسهم الى الحكم. ولكن السيف كان قد سبق العزل. إذ أن سلطات ديجول كانت دستورية، وكان من الصعب عليهم الضغط عليه بعد ذلك، الا باستخدام القوة، أي باستخدام طريقة غير مشروعة. وهنا وضح أمام ديجول الاتجاه العام. الحكومة المؤقتة الجزائرية تعتبر نفسها مسؤولة فعلياً عن الاقاليم، ويمكن بالاتفاق معها انهاء الحرب، والعناصر اليمينية الفرنسية ترفض المشروع وتهدد بنزع السلطة من ديجول نفسه. وكان من الطبيعي أن يصر ديجول على موقفه، وبصفته رأس فرنسا وممثلها الأول. وكان عليه أن يضرب العناصر اليمينية إذا ما تحركت، ويسير صوب الحكومة الجزائرية المؤقتة لانهاء الحرب.

وظهرت حركات بين اليمينيين الفرنسيين للخروج من حزب الجنرال ديجول، وإذا كان الجنرال ديجول قد نجح في حل لجان الأمن العام التي كانت قد تشكلت في الجزائر فان ذلك لم يمنع بعض الجنرالات ومنهم ماسو من اعطاء تصريحات عن إمكانية عدم رضوخ الجيش لاوامر الحكومة، وذلك بعد أن كان الجنرال ديجول قد حوله إلى الاستيداع. واخذت حركة من التمرد والعصيان المدني تظهر في مدينة الجزائر، وفي المدن الجزائرية، وشارك فيها المستوطنون والعناصر اليمينية الفرنسية في فرنسا نفسها، وترأسها جورج يدو. وانتهى الأمر إلى محاولة القيام بانقلاب، وبقيادة أربعة من قواد الجيش الفرنسي في ذلك

الوقت، يقومون فيه بالاستيلاء على السلطة في الجزائر، والاستيلاء على السلطة في فرنسا نفسها، وبعد غزوها. وكانوا هم الجنرال سالان، وشال، وزيلر، وجوهو، وهم أكبر القواد الفرنسيين المسيطرين على القوات البرية وأركان الحرب في ذلك الوقت.

ولكن ديجول واصل سياسته، وأعلن أن الجزائر «جزائرية»، وأنه يمكن أن تنتظر فرنسا انتهاء القتال للبدء في تنفيذ مشروعه، وأعلن عن نيته في البدء في تكوين جيش جزائري، وحاول بكل ذلك إنشاء قوة جديدة ثالثة تقف بين المتطرفين الفرنسيين وبين رجال جبهة التحرير الجزائرية.

ولكنه فشل في هذه المشروعات، وبدأت العناصر اليمينية والقواد العسكريين بمهاجمته وتهديد سلطته.

ولقد اتجه الجنرال ديجول إلى الرأي العام الفرنسي نفسه لوقف العملية التي هدفت نزع السلطة منه واجبار فرنسا على الاستمرار في الحرب، وشرح أنه يمثل فرنسا وأنه لايمكن لأي قائد عسكري أن يهدد بتغيير النظام في البلاد دون أن يعتدي على فرنسا نفسها، وإذا كانت القوات الفرنسية في الجزائر تهدد بغزو فرنسا واحتلالها عن طريق رجال المظلات، فإن ديجول قد طلب إلى الفرنسيين عامة، وإلى سكان باريس خاصة، الخروج بسيارتهم جميعاً في حالة اطلاق صفارات الانذار، والعمل على سد الطرق، وعدم تمكين أي جندي فرنسي من المتمردين في الجزائر من المرور في الطرقات، واثبات أن شعب باريس يمكنه أن يدافع عن جمهوريته، وأمام كل من يعتدي عليها، حتى وإن كان فرنسياً، وحتى إذا كان يرتدي الكسوة العسكرية؛ إذ أنهم من المتمردين ولا

يجوز تركهم يتحكمون في فرنسا. وفي نفس الوقت كان ديجول قد اعد عدته مع رجال المكتب الثاني، وعدد من القريبين من الجنرالات المتمردين، وكذلك رجال الدرك، ورجال المصفحات لقمع الحركة المتمردة في مدينة الجزائر. وبعد سيطرة العسكريين على مدينة الجزائر، ومع عدد من المستوطنين الفرنسيين والغوغاء ورجال الميليشيا انتهى التمرد بعملية فياسكو كاملة، واضطر الجنرالات الى الفرار في شهر أبريل.

وحين زار الجنرال ديجول الجزائر في ١٠ ديسمبر سنة ١٩٦٠ للدعوة لسياسته الجديدة، عاد المتوطنون إلى الاعلان عن عصبيتهم وعنصريتهم بالمذابح التي قاموا بها ضد الجزائريين والتي سقط فيها كثير من القتلى، وبشكل أثار اشمئزاز ديجول.

وظهر أن الاتجاه العام هو صوب الحصول على الاستقلال للجزائر، أو الوصول إلى مفاوضات بين الجزائريين والفرنسيين. وإذا كانت العناصر الفرنسية قد تطورت في موقفها، فعلينا أن نذكر أن الوطنيين الجزائريين كانوا قد أصروا على موقفهم وشروطهم منذ اليوم الأول لاعلان الثورة، وزادت الايام موقفهم وشروطهم ثباتاً وتدعيماً.

(٣) المفاوضات والاستقلال :

كانت الحكومات الفرنسية المتتالية منذ وزارة منديز فرانس قد قامت بعمليات لمفاتحة رجال جبهة التحرير الجزائرية، ولمعرفة شروطها لانهاء الحرب الجزائرية، واستمرت هذه المفاتحات في عصر وزارة جي موليه ثم في عصر وزارة بورجيس مونوري، وتمت في جنيف وفي روما وفي نيويورك.

وتأكدت فرنسا أن شروط جبهة التحرير الجزائرية واضحة وثابتة، ولا تتغير فيها، وكما أعلنوا في بيانهم الاول الثوري، وبلاغهم الذي وجهوه إلى الرأي العام الفرنسي سنة ١٩٥٤. وكانت تصريحات فرحات عباس بعد تشكيل الحكومة الجزائرية المؤقتة سنة ١٩٥٨ تصر على نفس الشروط، خاصة وأن مؤتمر جبهة التحرير الذي انعقد في وادي سومام قد أصر على ضرورة الوصول إلى تنفيذ هذه المطالب كما هي. وكانت عمليات الجنرال ديجول قد اثبتت منذ وصوله الى الحكم أن الجزائريين لا يرغبون في تقديم أي تنازل في برامجهم، وإن كانوا قد أظهروا استعدادهم للموافقة على المفاوضات الحرة بين طرفين متعادلين، وبشكل يمكن فرنسا من الاحتفاظ بماء وجهها. وإذا كانت ظروف القوى الفرنسية نفسها، والتفاعل بين العناصر اليمينية والعسكرية، وبين سلطة الجمهورية الخامسة الجديدة قد أدت إلى اضطرار الجنرال ديجول إلى الاعتراف بأن الجزائر جزائرية، فان ذلك لم يكفي أمام رجال الحكومة الجزائرية المؤقتة، ولم يكن يستدعي منهم تقديم أي تنازلات.

ومنذ صيف سنة ١٩٦٠ أخذ الجنرال ديجول يتحدث عن ضرورة وقف القتال بين «الاخوة» وضرورة الوصول إلى «صلح الشجعان» وأظهر بذلك أنه يقدر شجاعة المجاهد الجزائري مثلما يقدر قيام الجندي الفرنسي بواجبه الوطني. ولكن الملاحظ أن ديجول في أثناء هذه الفترة كان يتحدث عن مجرد وقف القتال، وإن كانت هذه العملية كانت تستدعي التفاهم بين الحكومة الجزائرية المؤقتة وبين حكومة الجمهورية الخامسة، وبصفتهما قوتين متحاربتين، وتحمل بذلك ـ ضمناً ـ اعتراف فرنسا بالجزائريين كدولة في حالة حرب معها. ولكن الحكومة الجزائرية المؤقتة رفضت الفصل بين الناحية العسكرية والناحية

السياسية، إذ أن المشكلة الجزائرية كانت في الواقع وحدة متكاملة، وتحتاج إلى حل لكل أجزائها. وأعلن الجزائريون في نفس الوقت رفضهم لفكرة تقسيم الجزائر، ولحصول فرنسا وحدها على البترول، ورفضهم كذلك لأي استفتاء يقع في الجزائر تحت إدارة الحكومة والسلطات الموجودة في ذلك الوقت هناك. وإذا كان ديجول قد لوح بحق تقرير المصير، فمن حق المجاهد الجزائري أن يشرف على هذه العمليات أو يشارك فيها، خاصة وأن ديجول قد إعترف به طرفاً في «الحرب» الناشبة في الجزائر. ولقد أصر ديجول مؤقتاً على موقفه، وعلى ضرورة قصر التفاهم مع الحكومة الجزائرية المؤقتة على أمر وقف اطلاق النار. وأثر ذلك على الوفد الجزائري الذي زار باريس في نهاية صيف تلك السنة، خاصة وأنه قد شعر بعدم إعطاء فرنسا له الصفة السياسية، ومعاملته معاملة العسكريين، رغم أنه كان يمثل حكومة ثورية، تسيطر على اقاليم واسعة في الجزائر. وشعر أعضاء هذا الوفد في باريس وكأنهم من المسجونين. ففشلت محادثاتهم مع الحكومة الفرنسية.

ولكن هذا الفشل دفع الجنرال ديجول إلى العودة إلى فتح باب المحادثات مع الحكومة الجزائرية المؤقتة، وبعد صلات غير رسمية تمت في أوائل سنة ١٩٦١. وافق ديجول على أن يتباحث مع جبهة التحرير الجزائرية في الشؤون العسكرية والسياسية معا. وكان الجنرال ديجول مشهوراً باستراتيجيته، وبلعبه البطاقات الواحدة بعد الاخرى، وكل في وقتها.

وقبل أن يبدأ المفاوضات مع جبهة التحرير لم يرغب في الاعتراف بها كالسلطة العسكرية والسياسية الوحيدة الموجودة في الجزائر، وأعلن في شهر أبريل أنه سيتفاوض في نفس الوقت مع مصالي الحاج ومع الحركة الوطنية

الجزائرية. وكادت هذه العملية أن تقضي على امكانية فتح باب المفاوضات بعد ذلك بين جبهة التحرير والحكومة الفرنسية، وتأزم الموقف، فتدخلت حكومة الولايات المتحدة، ووافق الجنرال ديجول على بدء المفاوضات مع جبهة التحرير في ايفيان على الحدود السويسرية.

وكانت مفاوضات ايفيان تعتبر مرحلة هامة في العلاقات الفرنسية الجزائرية، وإن كانت قد أظهرت بعض العقبات والاختلافات في وجهات النظر التي كانت لاتزال موجودة بين الفرنسيين والجزائريين.

وكانت هذه العقبات تتمثل في موضوعات المستوطنين، كما تتعلق بالقواعد العسكرية والبحرية والجوية الفرنسية الموجودة في الجزائر. وكذلك بمسألة فترة الانتقال، وأخيراً بمسألة الصحراء والمناطق الجنوبية.

أما فيما يتعلق بالمستوطنين فان فرنسا قد طالبت بضمانات تحفظ لهم امتيازاتهم، وطالبت بحقهم في الاحتفاظ بجنسية مزدوجة. ولكن الجزائريين رفضوا ذلك، واقترحوا تخيير المستوطن بين الجنسية الجزائرية، وفي هذه الحالة يصبح مواطناً جزائرياً، له نفس الحقوق وعليه نفس الواجبات مثل بقية الجزائريين، وبين الاحتفاظ بجنسيتهم الفرنسية وفي هذه الحالة يعاملون معاملة الاجانب في دولة مستقلة. ولقد استند الجزائريون في ذلك إلى أن برنامجهم لن يتوقف على عملية الاستقلال السياسي، بل سيسير بعد ذلك إلى عملية التحرير الاجتماعي والاقتصادي، وإلى تطبيق الاصلاح الزراعي، وإصدار تشريعات اشتراكية تطبق على كبار الملاك. وكان معنى احتفاظ الفرنسيين، وهم طبقة كبار الملاك بجنسية مزدوجة يعرقل برنامج، التحرير الاقتصادي والاجتماعي في الجزائر.

وأما فيما يتعلق بالقواعد فان فرنسا قد أصرت على ضرورة الاحتفاظ بقاعدة المرسي الكبير في وهران، وبقاعدة بربة في قسطنطينة، ولكن الجزائريين لم يوافقوا على بقاء أي قواعد فرنسية الا لفترة مؤقتة، وقصيرة، وينص على مدتها.

وأما فيما يتعلق بالفترة الانتقالية، فان فرنسا قد حاولت الاحتفاظ بالسلطة في الجزائر في ايديها في أثنائها، ولكن الجزائريين أصروا على ضرورة اشتراكهم على الاقل في هذه السلطة وفي أثناء هذه الفترة المؤقتة.

وكانت أهم مشكلة هي مشكلة الصحراء والاراضي الجنوبية، ولقد طالبت فرنسا بفصلها عن الجزائر والاحتفاظ بها تحت السلطة الفرنسية، في الوقت الذي أصر فيه الجزائريون على اعتبارها جزءاً لا يتجزأ من الجزائر.

واضطرت فرنسا إلى التراجع عن موقفها، خاصة وأنها قد وافقت على التنازل عن سيادتها على الجزائر، فعرضت اقتراحاً جديداً يذكر أن الاقليم الجنوبي والصحراء يصبح ارثاً دولياً لكل الاقاليم المحيطة بها، ويمكن أجراء استفتاء خاص به ومنفصل عن الاستفتاء الذي سيحدث في الجزائر نفسها. ولكن رجال جبهة التحرر قطعوا السبيل على الحكومة الفرنسية ودفعوا بأنهم سيتفاهمون مع الاقاليم المجاورة لهم في شأن الصحراء، وذلك في محادثات منفصلة. ونجح الجزائريون في أن يعلن كل من المغرب وتونس أنهم سيتفاهمون سوياً في مسألة الثروات الاقتصادية الموجودة في الصحراء ودرجة مشاركتهم فيها، خاصة وأن الاقليمين يعتبران مخارج طبيعية لثروات الصحراء. وفوت الجزائريون على فرنسا هذه المناورة الخاصة بتقسيم بلادهم، والتي كانت تهدد

بدفع تونس أو المغرب ضد الجزائر، وهي لاتزال في مرحلة لم تصل فيها إلى الاستقلال الرسمي بعد. كما أنها كانت تهدد بنزول الولايات المتحدة إلى الميدان، أو تدخلها في الامر، خاصة وأن هذه الدولة الاخيرة كانت قد بدأت في توثيق علاقاتها في كل من تونس والمملكة المغربية في ذلك الوقت، وكانت أنظارها تتجه صوب بترول الصحراء والغاز الطبيعي الموجودة في عين صلاح، وخام الحديد الموجود في تاندوف وبودنيب وفم الحصن. واضطرت فرنسا أمام ذلك إلى أن تفرض ضمانات معينة خاصة باستخراج البترول والامن الخاص بهذه العملية، وحتى موانيء البحر المتوسط.

ولقد فشلت مفاوضات ايفيان في مرحلتها الاولى، ونتيجة لعدم قبول الجزائريين انصاف الحلول، ووضوح الرؤيا أمامهم، واعتبارهم أن الاعتراف باستقلالهم وسيادتهم هي خطوة أولى في سبيل البناء، وفي سبيل الشطر الثاني من برنامجهم، والذي يتعلق بالثورة الاجتماعية وبالتطبيق الاشتراكي في بلادهم. ووجد ديجول أن أمامه الاختيار بين شيئين: الاول هو الاستمرار في الحرب، وبعد أن وصل إلى المرحلة التي اعترف فيها بكل ما سبق، والثانية هي أخذ خطوة أخرى إلى الامام، ومقابلة الجزائريين، والعمل على وقف عملية الاستنزاف الاقتصادي والبشري التي تعرضت لها فرنسا منذ سبع سنوات. وتم الأمر باعتراف فرنسا باستقلال الجزائر، وإن كانت فرنسا قد احتفظت ببعض ميزات مؤقتة، خاصة بحقوقها في البترول، وبضرورة تعويض الفرنسيين في حالة استيلاء الدولة الجزائرية أو تأميمها لاراضيهم. ووافقت على وجهة النظر الجزائرية في معاملة المستوطنين ولكنها وافقت في نفس الأمر على اعتبار أن الجزائر قد ورثت استقلالها من الحكومة الفرنسية، وبشكل يسمح لها في المرحلة

الاولى في أخذ معونة اقتصادية وفنية من فرنسا. وكان في وسع هذه المعونة أن تساعد الجزائر على بناء بلادها، واستخدام جزء منها في عملية تصفية ممتلكات الفرنسيين هناك.

وكان خروج أحمد بن بيللا من السجن هو وصحبة الاربعة، وموافقته على هذه الشروط اكبر نصر للجزائر، خاصة وأن الثوار الجزائريين اعتبروا اتفاقياتهم مع فرنسا اتفاقيات مرحلية، يمكن تعديلها في الايام التالية وبمجرد تكوين الجمهورية الجزائرية بدأت المفاوضات من جديد مع الحكومة الفرنسية لتغيير الشروط الخاصة بالقواعد العسكرية والخاصة بالمعونات المالية والاقتصادية والفنية. وكانت عملية خروج المستوطنين الفرنسيين باعداد كبيرة من الجزائر، وخاصة بعد أن أنفوا الخضوع لحكم الجزائريين الذين كانوا قد تفرسوا فيهم من قبل ـ قد سمحت لجمهورية الجزائر بالحصول على مزارع واسعة، وخالية من الملاك، واتخذتها أساساً لسياسة التطبيق الاشتراكي في مجال الزراعة في بلادها. وظهر أن انتصار الثورة الجزائرية قد فاق انتصارات كل من تونس والمغرب، وخاصة وأنها قد أردفت استقلالها السياسي بمحاولتها الوصول إلى تحرير الطبقات الكادحة، وتحريرهم اجتماعياً واقتصادياً.

الثورة الجزائرية :

لقد كانت مفاجأة للجميع أن يعلن في فاتح نوفمبر سنة ١٩٥٤ أن الجزائر قد أعلنت الثورة وصممت على تحرير بلادها من الحكم الفرنسي.

كانت فرنسا قد عاشت داخل أوهام عن أنها قد هضمت ومثلت الجزائر، وأنها قد حولت هذا الاقليم العربي الاسلامي إلى إقليم فرنسي أوربي، ولكن

الواقع أن ضغط الأحداث الداخلية والخارجية كانا قد ساعدا على نمو ونضج الشخصية الجزائرية، وبشكل منفصل تمام الانفصال عن الشخصية الفرنسية.

حقيقة أنه يصعب علينا فصل الثورة الجزائرية عن تلك العمليات التحررية التي انتشرت في جميع بلدان العالم العربي، بل وفي جميع أنحاء العالم في الفترة التالية للحرب العالمية الثانية. ولكن نظام الاستعمار الفرنسي في الجزائر، بما استخدم من وسائل اقتصادية وسياسية، وحتى في ميدان التعليم، لم يكن يبشر بقرب نشوب ثورة وطنية في الجزائر وكان وجود عدد كبير من الجزائريين في القوات المسلحة الفرنسية، وفي فرنسا نفسها، وبين العمال، يدعم من فكرة استمرار البقاء الفرنسي في الجزائر. كما أن الافتقار إلى التمرن على التحدث بالعربية كان يظهر الجزائري وكأنه قد فقد جزءاً هاماً من مقومات شخصيته الوطنية.

ولكن تكامل العوامل داخل الجزائر نفسها، وتفاعلها مع القوى الاستعمارية، وتأثرها بالحركات الموجودة في العالم العربي، والتي وصلت إلى حدود الجزائر الشرقية مع تونس، والغربية مع المغرب، كانت تحتم على الجزائريين ضرورة الحركة.

وما دام اللون العام للحصول على الاستقلال في ذلك الوقت كان هو عمليات التحرير فان الجزائر ستسير بنفس الأسلحة للوصول إلى أهدافها.

وما دامت فرنسا كانت قد حطمت القيادات الطبقية الموجودة في الجزائر في فترة المائة وثلاثين عاماً من استعمارها للبلاد، وما دامت قد حولت الجزائريين إلى طبقة كبيرة من القوى العاملة الكادحة، فلا شك بعد ذلك في إشتداد ظهور اللون الشعبي الواضح للثورة الجزائرية، ولعملية تحرير الجزائر.

وتعتبر ثورة الجزائر فريدة في نوعها، وفي تصميم رجالها على تنفيذ ماعاهدوا ا لله عليه، وحتى في المحققات التي وصلوا إليها.

حتمية الثورة وظروفها :

كانت السياسة التي سارت عليها فرنسا في الجزائر، منذ أن وطأت أقدامها هذه البلاد تقوم أساساً على محاولة محو الشخصية الجزائرية، واخضاع الاقليم بالقوة، وجعله ميداناً للاستغلال الصريح للمستوطنين والمستغلين وصغار وكبار الموظفين الفرنسيين. وأباح الفرنسيون لنفسهم كل شيء في هذا الاقليم، في الوقت الذي إدعوا فيه أنهم قد حولوه إلى قطعة من أوربا.

والواقع أنه لم تمض عشر سنوات على بعضها دون أن تشهد الجزائر ثورة ضد الحكم الفرنسي، ولكن فرنسا كانت تكبتها بطريقة أو بأخرى. ومع تطور الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية في الجزائر في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين، أخذت الاحزاب السياسية في العمل في الجزائر. ولكن جمود السياسة الفرنسية، وخاصة في الفترة التالية لنهاية الحرب العالمية الثانية كانت عاملاً أساسياً، عاون مع غيره من العوامل، وخاصة حركة انتشار روح الحرية والتحرر في العالم بشكل عام، والعالم العربي والشمال الافريقي بشكل خاص، إلى الوصول إلى اصطدام بين الفرنسيين والجزائريين.

ولقد حتمت ظروف التطور الطبيعي هذا الصدام الذي أخذ شكل الثورة المسلحة، ما دامت فرنسا قد اعتبرت الجزائر جزءاً لا يتجزء من الوطن الأم. وكانت حرب التحرير، اقوى حرب تحرير شهدتها اقاليم المغرب الكبير، أو

حتى اقاليم العالم العربي، إذ أنها كانت عميقة في معركتها، ولها أهداف واضحة تصل إلى الجذور.

(١) جمود السياسة الفرنسية :

كانت فرنسا قد شعرت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بخطورة الحالة في مستعمراتها الإفريقية وببداية مطالبة شعوب هذه المستعمرات بحقوقهم الطبيعية، خصوصاً بعد أن شاركوا معهم بأرواحهم ودمائهم في تحرير فرنسا نفسها من الاحتلال النازي. فقررت فرنسا تحويل مستعمراتها فيما وراء البحار إلى «اتحاد فرنسي» وكأنها كانت تسخر من شعوب هذه المستعمرات، بادعائها أنها ستعاملهم معاملة الند للند، أو معاملة أفراد الأسرة الواحدة. ولكنها كانت تحاول التشبه بالكومنولث البريطاني، واقتبست منه المظهر دون الجوهر. وكان الاستعمار الفرنسي في ذلك أكثر رجعية وجموداً من الاستعمار البريطاني الذي واصل تطوره حتى يطيل من أجله ومن حياته.

أعطت فرنسا لمستعمراتها «السابقة» الحق في إرسال عدد من النواب والشيوخ الوطنيين إلى المجالس التشريعية في فرنسا مساو لعدد النواب والشيوخ الفرنسيين المقيمين في هذه المستعمرات. وأنشأت فرنسا مجلساً ثالثاً يسمى «مجلس الاتحاد الفرنسي» أعطته بعض السلطات الاستشارية والاختصاصات الفنية لتوجيه أنظار الحكومة، دون أن يكون له الحق في إصدار التشريعات الخاصة بممتلكاتها فيما وراء البحار. ورغم اعتبار فرنسا أن الجزائر أرض فرنسية، واعتبارها أن مقاطعات قسطنطينة والجزائر ووهران تكمل مقاطعات فرنسا نفسها، نجد أن فرنسا ـ رغم ذلك ـ لم تحاول إعطاء الجزائر نفس الحقوق

التي تمتع بها الفرنسيون، بل طبقت عليها من الناحية التشريعية نفس النظام الذي طبقته في دول الاتحاد الفرنسي من حيث التمثيل النيابي، رغم إصرارها على أن الجزائر أرض فرنسية من الناحيتين الإدارية والسياسية.

وكان الاقتصاد الفرنسي قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالاقتصاد الجزائري، فعلى الجزائري أن يستخرج المواد الخام ويرسلها إلى فرنسا لكي تتحول إلى مصنوعات ثم تعود إلى الجزائر مرة أخرى للتوزيع. ولم يكن من السهل على فرنسا تغيير هذا الوضع أو إقامة نظام اقتصادي آخر يساعد على تطور الجزائر وقيام الصناعة فيها، ويفقد «الدولة الأم» مارتبت أمرها على جنيه من هذا الإقليم المستغل.

وكانت فرنسا في حاجة إلى القوة البشرية الجزائرية لتسيير مصانعها وإرسالهم وقوداً لنيران حروبها الاستعمارية. كما كانت محتاجة إلى أراضي الجزائر نفسها لمواصلة الدفاع عن فرنسا. وحين دخلت فرنسا حلف دول شمال الاطلنطي، وجدت أن قيمتها ستزيد إذا ماكانت الجزائر جزءاً منها. واعترفت الدول الأخرى المنضمة إلى هذا الحلف بالجزائر كأرض فرنسية، بعد دخول فرنسا هذا الحلف.

وتشابكت كل هذه العوامل في دفع فرنسا إلى محاولة الاحتفاظ بالجزائر وتسخيرها في خدمة أغراضها الاستعمارية وأحلافها العسكرية، وفي إعطاء فرنسا للجزائر نظاماً يجمع بين الاتحاد الفرنسي وبين اعتبارها أرضاً فرنسية؛ محاولة بذلك الفصل بين الحركة القومية الجزائرية الناشئة وبين الحركات الاستقلالية الأخرى التي بدأت في النمو في بقية اقاليم المغرب الكبير، وبينها

وبين الحركات التحررية العربية في الشرق الأدنى. فتمخض هذا الوضع المعقد عن الدستور الجزائري الذي حاولت فرنسا التمويه به على شعب الجزائر، واستخدامه وسيلة لتفتيت الحركة الوطنية في هذا القطر.

ومنحت فرنسا الجزائر قانوناً أساسياً أبعد ما يكون عن مبدأ الحرية وعن رغبة الأمة الجزائرية وآمالها، إذ أنه بني على أساس كون الجزائر أرضاً فرنسية. ورغم تشدقه بالمساواة بين العرب والمستوطنين فيه، فانه ذكر أن جنسية أهله هي الفرنسية، ولكن سمح للمسلمين بالاحتفاظ بقانون أحوالهم الشخصية. ثم أكد هذا الدستور ضرورة تطبيق نظام خاص على الجزائر طبقاً لطبيعة أرضها وحالة سكانها. وواصل إخضاع الجزائر لحاكم عام فرنسي، ووضع بذلك حداً فاصلاً بين المقاطعات الجزائرية والمقاطعات الفرنسية. ثم رسم إنشاء مجلس جزائري يشترك فيه الفرنسيون والمتعلمون من الجزائريين بنسبة النصف (٦٠ عضواً)، ويشترك فيه بقية الجزائريين بنسبة النصف الآخر، وعلى أن تكون الرئاسة لكل من القسمين كل سنة. ومرة أخرى نجد أن فرنسا تفرق بين الجزائري المتعلم في المدارس الفرنسية، والجزائري الذي يعمل في خدمة الإدارة الفرنسية، والجزائري الذي خدم في صفوف القوات الفرنسية، وبين الوطني الذي حصل على ثقافة عربية.

وضمت الأول إلى دائرة الفرنسيين الانتخابية، وتركت الثاني في دائرة «الأهالي». وحاولت بهذا إشعار المثقفين والمحاربين القدماء وموظفي الدولة الجزائريين بأنهم قد أصبحوا فرنسيين، وكأن هذا تفريقاً للقوى الوطنية في الجزائر، وعملاً على تمكين الاستعمار من البلاد وأهلها.

وتركت فرنسا لهذا المجلس الجزائري حق دراسة ميزانية الجزائر وحق تقديم المشروعات الاقتصادية والاجتماعية اللازمة لها. ولكنها قيدت تنفيذ الميزانية واعتماد هذه المشروعات بشرط موافقة الحكومة الفرنسية عليها. وهكذا أصبحت سلطة هذا المجلس الفعلية لاتعدو الناحية الاستشارية.

ووضع هذا الدستور مبدأ تطبيق كل القوانين الفرنسية في الجزائر، واشترط موافقة المجلس الجزائري عليها. كما أنه سمح لمسلمي الجزائر بالاشتراك في المجالس التشريعية الفرنسية في باريس، بعدد من النواب يساوي عدد النواب الفرنسيين المقيمين في الجزائر. واعتبر أن اللغة العربية لغة رسمية ثانية، في الجزائر لا في فرنسا، وذكر أنها ستدرس بهذه الصفة هناك، كما ذكر أن الدين منفصل عن الدولة، وترك للمجلس الجزائري الإشراف على تنفيذ ذلك.

لقد جاء هذا الدستور إذن مشوها وفي تعارض تام مع مصالح الجزائريين وأمانيهم الوطنية؛ ذلك أنه أصر على أن الجزائر قطعة من فرنسا وعلى أن جنسية الجزائري هي فرنسية، وحاول بث الفرقة بين الجزائريين، وسلبهم كل حق فعلي للتشريع. وحتى من حيث الشكل فان هذا الدستور قد أعطى لمليون أوربي حق انتخاب ستين نائباً، في الوقت الذي لم يسمح فيه لتسعة ملايين من الجزائريين إلا بنفس العدد.

ولقد شعر الجزائريون بخطورة هذا الدستور وبخطورة تطبيقه على الأمة الجزائرية، فأخذوا في إنتقاده ومهاجمته وفضح مساوئه وشرح عجزه عن التمشي مع مصالح الشعب. فما كان من فرنسا إلا أن تحصنت وراء هذا الدستور وصممت على تنفيذه بالقوة، بل واتخاذه وسيلة لضرب القوى الوطنية الموجودة في الجزائر.

وإدعت فرنسا انها كانت كريمة سخية مع الجزائريين، وأنــه لا يمكنهـا أن تعطيهم أكثر من ذلك، حتى لا يحكمها الجزائريون في يوم من الأيام. وكان هـذا من جانبها تصميماً علـى الخضـوع لنفـوذ رجـال الأحـزاب اليمينيـة، واليمينيـة المتطرفة، الذين زادوا من قوتهم ومن سيطرتهم على حكومـة باريس علـى مـر الأيـام. وتدخلـت السـلطات الفرنسـية في الانتخابـات لتكويـن هـذا المجلـس الجزائري، وفي إختيار وتزكية الأعضاء الذين يشتهرون بـاللين وبموافقتهـم علـى كل ما يعرضه عليهم الفرنسيون من قرارات. ثم تدخلت الادارة الفرنسـية بعـد ذلك في الانتخابات وبذلت كل مـا في وسـعها لانجـاح مرشـحيها علـى حسـاب العنـاصر الوطنيـة. ففـاز المسـتقلون ـ وهـم مرشـحو الادارة الفرنسـية ـ بثلاثـة وأربعين مقعداً. بينما لم يحصـل رجـال حـزب إنتصـار الحريـات الديموقراطيـة ـ حزب الشعب سابقاً ـ إلا علـى تسـعة مقـاعد، أمـا رجـال إتحـاد انصـار البيـان الجزائري فانهم لم يحصلوا إلا على ثمانية مقاعد.

وأصبحت غالبية الجزائريين في هذا المجلس عبارة عـن خشـب مسـندة، لا يرفضون للفرنسيين بصمة، ولا يعارضون أمامهم أي مشروع.

فضمنت الإدارة الفرنسـية الاسـتعمارية بهـذه الطريقـة لنفسـها السـيطرة على الجزائر، بل إن عناصر اليمين قد ضمنـت بهـا عـدم تطبيـق روح الدسـتور الجزائري نفسه. وظل هذا الوضع قائم منذ سنة ١٩٤٨ حتى عام ١٩٥٤، فلم تفتح الوظائف أمام المسلمين، ولم يحصل التعليم العربـي علـى أي أيـة إعانـة مـن الدولة، كما أن الادارة الاستعمارية لم تتنازل عن إختصاصاتهـا وإشـرافها علـى الشؤون الدينية.

ورأى الجزائريون أن الاستعمار الفرنسي قد تمكن بهـذا الدستور الأبتر، وبوسائله الرجعية الفاسدة من إستغلال الجزائر وتسخيرها لمصلحة المستغل الاجنبي. وجرى كل ذلك في وقت سرى في الروح الاستقلال بين شعوب العالم أجمع سريان النار في الهشيم، وتحررت فيه دول كثيرة في آسيا وإفريقية، وحتى في المناطق السوداء منها. فهل كان الجزائريون أقل تقدماً من هذه الشعوب؟ وهل كانوا أقل كفاءة في إدارة شؤون بلادهم؟

وهل كانوا أقل كفاءة منهم في الكفاح السياسي والعسكري لانتزاع حقوقهم المغتصبة؟

لقد اشتركوا منذ سنوات في معارك سياسية أظهروا فيها كفاءتهم وحرصهم على مصالح بلادهم، وحملوا السلاح، ودافعوا عن الامبراطورية الفرنسية، وحرروا فرنسا نفسها من المحتل الأجنبي، لقد طال الصبر وشعر الجزائريون بالتحدي وبافلاس السياسة الفرنسية، وبدناءة الجندي الفرنسي الذي اشتركوا معه في الدفاع عن بلاده، وجاء بعد ذلك لكبت الشعوب المسالمة التي تطالب بحقها في العيش في حرية.

ولم تتورع السلطات الفرنسية عن تجديد الحملات في سنوات ١٩٤٨ و ١٩٤٩و١٩٥٠و١٩٥١ لكبت الشعور الوطني الجزائري، فادعت تعقبها لبعض الفارين من وجه العدالة، وارتكبت الأهوال والفظائع تجاه النساء والاطفال والشيوخ. وكان هذا إرضاء لمركبات نقص عملت في نفوس الفرنسيين منذ سنوات، ولم يكن لها من نتيجة إلا أن تدفع الجزائريين دفعاً نحو حمل السلاح والدفاع عن الأنفس والأبناء وانتزاع الحرية المغتصبة.

وحاولت الجامعة العربية وأحرار المغرب الموجودون في القاهرة الاتصال بأحرار الجزائر، وشعرت حكومة مصر أن أقل واجب عليها هو أن تمديد العون الثقافي إلى الجزائر العربية. فتقدمت بطلبها وعرضها إلى الحكومة الفرنسية لإنشاء معهد للدراسات العربية في الجزائر. وكم أثار هذا المشروع من عقد ومشكلات ومخاوف وأوهام أمام حكومة باريس. فوافقت فرنسا مبدئياً على إنشاء ذلك المعهد، كما وافقت على شخصيات الأساتذة فيه، ولم يكن لها أي إعتراض على هؤلاء الأساتذة الأجلاء، الذين لايحملون إلا العلم والود والأخوة لبلاد المغرب الكبير. ولكنها عادت ورفضت إعطائهم تأشيرة الدخول إلى الجزائر، رغم ترحيبها بهم للمجيء إلى فرنسا. وأردفت السلطات الفرنسية بذلك حركة تنكيل برجال الجزائر الأحرار، فادعت أنها قد وضعت أيديها على مؤامرة رتبها حزب إنتصار الحريات الديموقراطية (الشعب سابقاً) وشنت حملة كبيرة على مراكزه للبحث عن المنظمة السرية التي نظمها الحزب، وتهدف إلى قلب نظام الحكم. واستخدمت السلطات وسائل العنف والتعذيب ضد هؤلاء الجزائريين الأحرار، وحكمت على أغلبيتهم بالأشغال الشاقة والسجن، وأجبرت مصالي الحاج على الذهاب والاقامة تحت المراقبة في فرنسا. وأبعدت هذه الوسائل بين الجزائريين والفرنسيين، وأظهرت أمام الرأي العام العالمي أن فرنسا تواصل سياسة الكبت والتعنت في الجزائر.

فزاد هذا من تصميم الشعب الجزائري على النزول إلى المعركة.

وبدأ الجزائريون بالضغط على رجال الأحزاب، وظهر اتجاه جديد نحو الاتحاد وجمع الصفوف، ومقابلة الاستعمار صفاً واحداً. وتمكن الجزائريون من إنشاء جبهة الدفاع عن الحرية، وكانت عبارة عن اتحاد شعبي، سيتطور سريعاً

حتى يصل إلى شكل جبهة التحرير الوطني الجزائري، التي ستقود معركة التحرير ضد فرنسا.

وأخذت هذه الجبهة تطالب بحل المجالس المزيفة، والبدء بانتخابات حرة، والاهتمام باللغة العربية، وتنفيذ فصل الدين عن الدولة، والإفراج عن المعتقلين السياسيين وعن مصالي الحاج. واشترك في هذه الجبهة حزب انتصار الديموقراطية والاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري. وجمعية العلماء، والأحرار المستقلون، والشيوعيون الجزائريون. واجتمعت هذه الجبهة يوم ٥ أغسطس سنة ١٩٥١ في الملعب البلدي بمدينة الجزائر، وأعلنت عزمها على مقاطعة الانتخابات، وعدم ترشيح الأحزاب المشتركة فيها أي مرشحين يمثلونها في هذه الانتخابات. ودل هذا على عدم رغبة الجزائريين في إصلاح الأساليب الاستعمارية الفرنسية البالية في بلادهم، وعدم صرف مجهودهم في هذا السبيل، بل ترك المجال مفتوحاً للادارة الفرنسية تدلس في الانتخابات كما تشاء، على أن تتحمل نتائج أفعالها.

وإختار الجزائريون إذن طريقاً جديداً، وهو الطريق الوحيد الباقي أمامهم، طريق الثورة لتحطيم الاستعمار وانتزاع الحقوق الطبيعية بقوة السلاح ممن أصم آذانه عن سماع صرخات هذا الشعب المطالب بحقوقه الطبيعية.

ولقد دفعت فرنسا الجزائر دفعاً إلى الثورة التي تكفل للشعب الجزائري تحقيق آماله والدفاع عن مصالحه وانتزاع حقوقه المغتصبة.

(٢) الثـــورة :

تعتبر العناصر الجزائرية الأولى التي شاركت مشاركة فعالة في ثورة الجزائر المسلحة بشكل عام من بين رجال حزب انتصار الحريات الديمقراطية،

وخصوصاً تلك التي كـانت تعمـل في توافـق مـع لجنـة تحريـر المغـرب العربـي في القاهرة، بالإضافة إلى العناصر الثورية التي انضمت إليها من جبهـة الدفـاع عـن الحرية، ومن بقية الأحزاب الوطنية الجزائرية. وكان عدد أعضاء حـزب انتصـار الحريات الديمقراطية قد إزداد ودخل في هيئة إدارته عدد من المثقفين الذين آمنوا بالمبادىء وبالنظم العصريـة، أكـثر مـن إيمـانهم وولائهـم «للزعامـات» القديمـة. وظهر إتجاه جديد واضح منذ إبريل سـنة ١٩٥٣ داخـل هـذا الحـزب، وخاصـة بعد أن اجتمع المؤتمر الخـاص بـه وانتخـب مجلسـاً إداريـاً جديـداً آمـن أعضـاؤه بالخضوع لحكم الأغلبية. أكثر مـن إيمـانهم بتنفيـذ أوامـر مصـالي الحـاج، الـذي كانت تحت المراقبة في ذلك الوقت. وأخذت هذه الأغلبية الجديدة تناقش أوامـر الرئيس وتعارضه في بعض الأحيان، فطالب مصالي الحاج باعطائه تفويضاً مطلقاً، مستنداً إلى أن الوضع السياسي يستلزم رأساً واحـداً، بينمـا أصـرت الأغلبيـة ـ وكانت مثقفة ومنظمة ـ علـى ضـرورة تطبيـق الديمقراطيـة والاشـتراكية، فـأدى الأمر إلى الانقسام بين قـوات هـذا الحـزب الشـعبي الكبـير قبيـل إعـلان الثـورة المسلحة في الجزائر.

وكانت هذه الأغلبية المثقفة المنظمـة معجبـة بـالثورة المصريـة وبـالخطوات التي سارت عليها في ذلك الوقت لتكتيل شعور الشعب وقواته والوقوف به صفاً واحداً للدفاع عن حريته، ومساعدة إخوانه. وكـانت معجبـة بمبـاديء «الاتحـاد والنظام والعمل» التي أعلنتها الثورة المصرية، ورأت أن تسـير علـى خطاهـا وفي توافق معها داخل نطاق المعركة العربية بشكل عام. أما مصالي الحـاج فانـه كـان يعتقد في تميز القضية الجزائرية بشخصيتها العامة، وبوجـود اختـلاف كبـير بينهـا وبين بقية القضايا العربية، وخصوصاً في الشرق الأدنى.

واجتمع في أواسط شهر يوليو سنة ١٩٥٤ مؤتمر حزب انتصار الحريات الديمقراطية في بلجيكا. ولم تحضر جماعة اللجنة المركزية هذا المؤتمر، فقرر مصالي الحاج وأركانه فصل هذه الجماعة عن الحزب، وتفويض نفسه عن سياسة الحزب ومسؤولية توجيهها. فرد على ذلك أعضاء اللجنة المركزية بعقد مؤتمر في الجزائر نفسها في أواسط شهر أغسطس من نفس السنة، وأعلنوا أن المسألة ليست مجرد مسألة زعامة، وفصلوا مصالي الحاج وأركان حربه، وتحملوا مسؤولية سياسة الحزب والسير بها نحو الثورة المسلحة.

وكان هذا الوقت هو أنسب الأوقات لإعلان ثورة الجزائر، خاصة وأن إنهاك فرنسا كان قد وضح بعد حرب الهند الصينية، ونشوب الثورة عالية في كل من تونس والمغرب، واستخدام فرنسا للقوات الجزائرية العربية في كبت الحركتين الاستقلاليتين هناك.

وحاولت الحكومة الفرنسية استخدام الجزائر سداً منيعاً يفصل بين كل من تونس والمغرب ويحاول هدم الوحدة المغربية وتثبيت أقدام فرنسا العاتية في بلاد المغرب العربي. ولكن رجال اللجنة المركزية من حزب انتصار الحريات الديموقراطية قرروا البدء في العمل، وإعلان الثورة قبل أن تفيق فرنسا من مشكلاتها وتتفرغ للجزائريين. واتصلوا بمنظماتهم السرية فأعلنت استعدادها للعمل، فاتفقوا على الساعة الأولى من صبيحة أول نوفمبر سنة ١٩٥٤ لبدء التحرير وانتزاع حرية البلاد واستقلالها. واستعدت المنظمات السرية، وأعدت ما تملكه من قطع سلاح ومفرقعات لهذه الساعة المحددة، دون أن تعلم بذلك سلطات الاستعمار الفرنسية.

وكانت الخطة محكمة، وجرى تدبيرها بكل مهارة، وانفجرت الثورة في طول الجزائر وعرضها، من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب في ساعة واحدة. وانفجرت هذه النيران في ٦٤ مدينة وقرية في نفس الوقت، وكانت هذه الخطة من وضع «لجنة الثورة للاتحاد والتنظيم والعمل» ونجحت باشعار الأمة الجزائرية وفرنسا بأن الجزائر قد ثارت لكي تسترد حريتها وحقوقها. كما أنها نجحت في الاستيلاء على كمية كبيرة من الأسلحة والذخائر من أيدي الجنود الفرنسيين، ومن النقط العسكرية المنتشرة في البلاد. وكانت مفاجأة كبرى للسلطات العسكرية الفرنسية في الجزائر، التي فشلت في معرفة مراكز هذه الثورة، واضطرت بالتالي إلى توزيع قواها في طول البلاد وعرضها؛ وكان هذا في صالح الثوار.

وأخذت السلطات الفرنسية في إلقاء القبض على الرجال الوطنيين في كل مكان، ولكن ذلك لم يؤثر في عمل المنظمات السرية. فأصدرت الحكومة الفرنسية أمرها بحل حزب انتصار الحريات الديموقراطية، وألقت القبض على كثير من رجاله. ولكن أيديها لم تصل إلى تلك الحفنة من الرجال الذين واصلوا العمل، ودون أن يشغلوا أنفسهم بالدعاية، ودون أن يمكنوا الفرنسيين من معرفة شخصياتهم.

وشعرت فرنسا أنها تحارب قوى نظامية، وشعرت بعجزها عن تعقب هؤلاء الرجال الاحرار، فأعلنت أنهم عصابات وقطاع طرق، لا يهدفون إلا إلى الفوضى وبث الذعر في نفوس المواطنين الصالحين. فما كان من رجال المنظات السرية إلا أن وزعوا منشورهم الأول الذي لخص القضية الجزائرية، ووضع كلا من الشعب الجزائري والحكومة الفرنسية والرأي العام العالمي أمام مسؤولياته.

وصدر هذا الدستور الأول بتوقيع لجنة الثورة للاتحاد والتنظيم والعمل، وصدر موجها إلى الشعب الجزائري وإلى أنصار القضية الوطنية، موضحاً تلك الأسباب العميقة التي دفعت بهم إلى شرح برامجهم ومغزى هذه الحركة التي هدفت إلى تحقيق الاستقلال الوطني في نطاق وحدة المغرب الكبير. وشرح هذا المنشور أن الحركة الوطنية قد دخلت مرحلتها النهائية بعد أن توفرت لها جميع شروط النجاح. لقد اتحد الشعب الجزائري وراء فكرة الاستقلال والعمل، وأصبح في مقدوره المساهمة في حل المشكلات الدولية وتقرير مصير المشكلة الجزائرية بمساعدة الدول العربية الشقيقة والشعوب الإسلامية، وفي توافق مع الحركات الاستقلالية في كل من تونس والمغرب، مما يدفع بقضية شمال إفريقية دفعاً إلى الأمام لإيجاد حل عادل لها. وكانت كل من تونس والمغرب قد بدأت ثورتها، دون أن تشترك الجزائر معهما. ودقت ساعة الخطر، وظهر أن في استطاعة فرنسا أن تتفرغ للجزائر بعد أن نفضت أيديها من مشكلات تونس المغرب. وهكذا أصبح على الجزائريين ألا يتخاذلوا عن المبادىء الثورية، والعمل على تحرير بلادهم بقوة السلاح وقوة الإيمان. واتخذ الثوار الجزائريون لأنفسهم لقب جبهة التحرير الوطني، وسمحوا بهذا لكل جزائري أن ينضم إلى صفوفهم، مهما كانت طبقته الاجتماعية واتجاهه السياسي؛ ينضم إلى معركة التحرير دون أي اعتبار آخر، ويهدف إلى الاستقلال الوطني، ويعمل على إيجاد دولة جزائرية ذات سيادة ونظام ديموقراطي اشتراكي، في دائرة الدين الإسلامي، مع احترام جميع الحريات الأساسية، ودون أي تمييز بين الاديان والمعتقدات. وعليه أن يعيد الحركة الوطنية إلى طريقها الثوري الصحيح، والابتعاد بها عن أنصاف الحلول، والعمل على جمع شتات الشعب الجزائري، وتصفية النظام الاستعماري العتيق.

وهدفت جبهة التحرير الوطنية الجزائرية إلى «تدويل» القضية الجزائرية، والعمل على تحقيق وحدة شمال إفريقية في نطاقها الطبيعي الذي هو النطاق العربي الإسلامي.

وأكد هذا المنشور صداقة جبهة التحرير الجزائرية لجميع الدول التي تساند قضية الجزائر، وأعلن احترامه لمبادىء ميثاق الأمم المتحدة. أما وسائلها فكانت الكفاح والجهاد بكل الوسائل حتى تحقيق الأهداف الوطنية.

وكان على جبهة التحرير الجزائرية أن تعمل في الداخل والخارج، وأن تحارب وتكافح وتنظم صفوف الشعب، في نفس الوقت الذي تقوم فيه بالاتصالات الدبلوماسية لتدويل القضية الجزائرية، وإجبار فرنسا على الاعتراف بشخصيتها الواضحة. وكانت مهمة ثقيلة مرهقة، وتتطلب معركة طويلة مضنية.

ولم تتراجع جبهة التحرير الجزائرية من أول أمرها عن وضع الأسس التي يمكن لفرنسا الاعتراف بها إذا ما أرادت المفاوضة ورغبت في تجنب إراقة الدماء. وكانت تقوم على أساس الاعتراف بالسيادة الجزائرية كاملة غير منقوصة ولا مجزأة، وأن تعمل فرنسا على إيجاد جو من الثقة يمهد لهذه المفاوضات، وذلك باطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين، وإلغاء حالة الطوارئ، والكف عن تعقب رجال المقاومة. ثم كان عليها ـ علاوة على ذلك ـ أن تعترف في تصريح رسمي، بالشخصية الجزائرية بشكل يلغي جميع القوانين التي أصرت على كون الجزائر أرضاً فرنسية، رغماً عن الأسس التاريخية والجغرافية واللغوية والدينية والاقتصادية التي تستند إليها الشخصية الجزائرية، وتميز بين هذه الشخصية وبقية فرنسا.

ولم تكن جبهة التحرير الجزائرية ترغب في الأخذ دون أن تسهل على فرنسا مهمتها. فأظهرت أنها حركة غير تعصبية، وتعهدت بضمان المصالح الثقافية والاقتصادية لفرنسا، ومصالح الأشخاص والعائلات الفرنسية، ماداموا قد حصلوا عليها بطريقة شريفة واضحة. كما تعهدت بضمان ترك الفرصة أمام جميع الفرنسيين الراغبين في البقاء بالجزائر، للاختيار بين جنسيتهم الأصلية، وفي هذه الحالة يعتبرون أجانب بالنسبة للقوانين السارية، وبين الجنسية الجزائرية، فيكونون جزائريين لهم ما للأهالي من حقوق، وعليهم ما على الأهالي من واجبات.

وعرضت جبهة التحرير الوطنية الجزائرية أن يكون تحديد العلاقات بين فرنسا والجزائر موضوع مفاوضات بين الدولتين، على أساس المساواة والاحترام المتبادل.

وأظهر هذا المنشور أن المسألة تفوق حركة بعض العصابات وقطاع الطرق، كما أظهر أنها ثورة مسلحة لا ترضى عن الاستقلال بديلاً ولا عن السيادة عوضاً. وأصبحت فرنسا أمام الأمر الواقع، وكان عليها أن تختار بين الحرب إلى النهاية وبين المفاوضة وإعطاء الحقوق لأصحابها.

ولم يسمح لها ضعفها بانتهاج سياسة متحررة، بل دفعها دفعاً نحو التصلب وإلقاء كل قواتها في الميدان، لكبت حركة ذلك الشعب الذي يكافح من أجل حصوله على حقوقه الإنسانية، التي ادعت فرنسا أنها منحتها للعالم منذ قرن ونصف؛ ورفضت تطبيقها على أكثر الأقاليم ارتباطاً بها.

وعلينا أن نسجل أن مصالي الحاج لم ينضم إلى هذه الحركة مع أركان

حربه من أنصار الزعامات الحزبية، بل أعلن تأسيس «الحركة الوطنية الجزائرية» مما أثار موجة من الاستنكار في الجزائر وفي العالم العربي والإسلامي. وحاول أن يكسب إلى جانب هذه الحركة بعض رجال المنظمات السرية، ولكن رجال جيش التحرير أعلنوا أن الجيش واحد غير مجزء، وهو جيش التحرير الوطني الجزائري، وأن القيادة السياسية واحدة هي جبهة التحرير الوطني الجزائري. ودفع ذلك بالجزائريين دفعاً إلى صفوف الثورة، ولم يبق للحركة الوطنية الجزائرية إلا بعض أفراد من العمال المقيمين في فرنسا نفسها.

وانتشرت الثورة في كل أنحاء الجزائر، وقسم رجال جيش التحرير بلادهم إلى مناطق معينة، مثل منطقة جبل الأوراس تحت قيادة الزعيم مصطفى بن بولعيد، ومنطقة النمامشة تحت قيادة سي صالح، ومنطقة بلاد القبائل الكبرى تحت قيادة كريم بلقاسم، ومنطقة الشمال الشرقي المجاورة لتونس تحت قيادة يوسف زيغود، ومنطقة وادي الساحل تحت قيادة عمروش، ومنطقة وهران تحت قيادة المبروك.

أخذ رجال جيش التحرير في مهاجمة مراكز الفرنسيين العسكرية والاستيلاء منها على الأسلحة والذخائر ومواد التموين اللازمة لهم لمواصلة الحرب، كما أخذوا في القيام بأعمال إرهابية داخل المدن الكبيرة التي امتازت على غيرها بوجود عدد من المستوطنين الأوروبيين فيها، ووجود حاميات قوية حولها. وكان هؤلاء المستوطنين دعامة الاستعمار الفرنسي في الجزائر، واستخدمتهم السلطات العسكرية الفرنسية في الانتقام من العرب والتمثيل بهم في كل مناسبة يجرؤون فيها على الاعتزاز بشخصيتهم، فسلحتهم وكونت منهم فرق الدفاع الذاتي، وتركت لهم حرية العمل في تعذيب المسلمين واصطيادهم

حسبما يشاؤون. فواصل الفدائيون الجزائريون إلقاء القنابل اليدوية على تجمعاتهم وعلى المقاهي والأندية التي يترددون عليها.

وكان رجال جبهة التحرير يعلمون أن الفرنسيين يستندون في بقائهم في الجزائر إلى أسس اقتصادية ومادية، ويعتمدون على استغلال واستنفاذ موارد الجزائر الاقتصادية والمادية. فعمدوا إلى تخريب مزارع الفرنسيين ومزروعاتهم وإلى قتل بهائمهم وقطع أشجارهم، فعادت هذه الخطة على الفرنسيين بخسائر فادحة، واضطرت كثيرين منهم إلى ترك الجزائر إلى غير رجعة.

وكان جيش التحرير الوطني الجزائري يتألف أولاً من قوات الفدائيين الذين يعملون داخل المدن وأمام السلطات الفرنسية والمستوطنين الفرنسيين وفي المراكز الخطرة، ثم من الجنود النظاميين الذين ارتدوا الكسوة العسكرية وحملوا علم الجزائر فوق أكتافهم. وكان معظمهم من المحاربين القدماء الذين شاركوا في الحرب العالمية الثانية وفي معارك الهند الصينية، وانضم إليهم آلاف من رجال المشاة الجزائريين الذين كانوا في ذلك الوقت في القوات الفرنسية في الجزائر، وفروا بأسلحتهم وذخائرهم، وانضموا إلى جيش التحرير النظامي، في سريات بل وفي كتائب بأجمعها، مما اضطر فرنسا بعد ذلك إلى سحب بقية هذه القوات المسلحة من الجزائر وإرسالها إلى شرق فرنسا وإلى المانيا الاتحادية، وإرسال قوات فرنسية أخرى بدلاً منها. ولكن جيش التحرير الوطني الجزائري كان قد كسب ما يزيد على ١٥,٠٠٠ جندي وطني بين صفوفه ومعهم أسلحتهم. وأخيراً، فقد اشتمل هذا الجيش على عدد من «المجاهدين» المتطوعين الذين جاءوا اللانتقام مما أوقعه الفرنسيون بأهلهم وذويهم، وحاولوا أن يستردوا حقوقهم وينتزعوا من الغاصب حقوق أبنائهم في العيش. وكانوا لايملكون الكساوي الرسمية، ولم تكن

إمكانيات جيش التحرير تسمح باعطائهم الأسلحة، فقبلوا الجهاد متسلحين بايمانهم وبخناجرهم الصغيرة، وعملوا على قتل الجنود الفرنسيين للحصول على أسلحتهم وذخائرهم، حتى ينضموا إلى صفوف جيش الثوْرة النظامي.

وإمتاز جيش التحرير الوطني الجزائري باحتياطي كبير يتكون من بضع مئآت من الآلاف الذين انتظروا دورهم للاشتراك في شرف تحرير بلادهم، والذين لم يحل بينهم وبين تحقيق أهدافهم إلا ندرة الأسلحة.

وتكونت القيادات في الجزائر من مناطق مختلفة، تخضع كل منها لقائد مسؤول يعمل مع أركان حربه وفي توافق مع «المندوب السياسي» الذي يمثل جبهة التحرير في هذه المنطقة. وتركت القيادة لكل منطقة إستقلالاً كبيراً في تصريف أمورها، على أن يكون ذلك في إنسجام مع الخطة العامة للقيادة العليا. ولقد وقف الشعب الجزائري مع جيش التحرير الوطني ومع جبهة التحرير الجزائرية في هذه المعركة الطويلة المضنية، فعاونها بالمال والخدمات والتموين. واشتركت كثيرات من بنات الجزائر وفتيانها إلى جانب الرجال في هذه المعركة، وعمل بعضهن في التمريض وقياداة السيارات وسلاح الاشارة، وحمل البعض الآخر البنادق والمدافع الرشاشة، ونزلن بها إلى أرض المعركة. وإمتنع الجزائريون عن دفع الضرائب للسلطات الفرنسية. وسلموا هذه الأموال إلى المندوبين السياسيين لجبهة التحرير. ولم تر الجزائر من قبل، بل تستطيع أن تقول لم تر أجزاء كثيرة من العالم، مثل هذا الروح الثوري الذي اندلع واشتعل وشب عالياً وتأجج في روح هذا الشعب ودمائه. فلم يمض وقت طويل حتى انضم الى هذه الثورة فتيان لم يزد عمرهم عن اثني عشر عاماً، حملوا السلاح ونزلوا إلى الميدان، وكأن لهم خبرة سابقة ومران طويل في فنون الحرب.

وانضم إلى جبهة التحرير الجزائرية عدد كبير من الأطباء الجزائريين، عملوا سراً في أول الأمر، وعالجوا المرضى من المجاهدين، ثم تركوا وظائفهم ومستشفياتهم وخرجوا إلى الجبال لتأدية واجبهم الوطني بين المجاهدين.

وجاء بعدهم الأساتذة ورجال القانون، بل وحتى التجار وكثير من الزراع. وانضم إلى الجبهة رجال الجمعيات السياسية في الجزائر، من أنصار البيان إلى جمعية العلماء، الشيوعيون الجزائريون. وظهر أمام العالم أجمع أن الجزائري في ثورة، وأنها ثورة سياسية وإقتصادية وإجتماعية في نفس الوقت.

ونظمت جبهة التحرير الوطنية صفوفها، ووفقت بين أعمالها الدبلوماسية والدولية من ناحية وبين جيش التحرير في الجزائر نفسها من ناحية أخرى وأصبحت القاهرة هي مركز هذه الجبهة في الخارج. وعمل محمد خيصر فيها مع أحمد بن بيللا على تسيير أمور جبهتهم. وإنتشر أعضاؤه في بلدان العالم يشرحون قضيتهم، إن إحتاج الأمر إلى شرح، ويطلبون العون من الشعوب والحكومات المتحررة والصديقة. وعمل في هذا الميدان كل من محمد زيد والحسن آيت أحمد وبوضياف والأحوال والدكتور محمد أمين الدباغين وأحمد بودا وأحمد توفيق الدني وفرحات عباس والدكتور أحمد فرنسيس وعبد الرحمن قيوان وعبد الحميد مهيري ومحمد بن يحيي ومحمد إبراهيم. ونرى من هذه الأسماء أن جبهة التحرير الوطنية الجزائرية قد تكونت بالفعل من كل رجال الأحزاب السياسية في الجزائر. ولكن السلطة الفعلية ظلت في أيدي مجلس الثورة الجزائرية الذي سيطر على كل من جبهة التحرير وجيش التحرير، وكان مركزه في مكان ما بالجزائر نفسها.

وأقلق جيش التحرير الوطني الجزائري مضاجع الفرنسيين في الجزائر وقام بتحرير أجزاء كثيرة من بلاده. وحرم على القوات الاستعمارية السير في كثير من الطرق الكبيرة. ثم عمل على تنظيم الأراضي والمناطق التي حررها من الفرنسيين، وأقام فيها إدارة حكومية منظمة. ووصل به الأمر في أوائل سنة ١٩٥٦ إلى إقامة سلطة الدولة الفعلية على مناطق كثيرة في شرق الجزائر ووسطها وغربها، وأصبح من الصعب على الفرنسيين التوغل في هذه المناطق، وخاصة في منطقة جبال الأوراس، التي أقاموا فيها محطة إذاعية لاسلكية أخذت تحدث الجزائريين باسمهم، وتدعوهم إلى مواصلة الكفاح.

وأيقن العالم أجمع في هذا الوقت أن أيام فرنسا في الجزائر قد أصبحت معدودة، وكم من مجند فرنسي رفض السفر إلى الجزائر لمحاربة الوطنيين المجاهدين من أجل حقوقهم الطبيعية. وكم من فرنسي هرب بسيارة مشحونة بالأسلحة والذخائر وانضم بها إلى صفوف الثوار. كانوا من الفرنسيين، ولكنهم إعتقدوا في عدالة القضية الجزائرية. وزاد الطين بلة تدهور الأحوال المالية في فرنسا، وإحتياج الحكومة الفرنسية إلى القروض لمواصلة فرض نفسها على الجزائر. ولم يختلف إثنان من الجزائريين في هذا الوقت على ضرورة مواصلة الكفاح لتحقيق الأهداف الوطنية. وأخذ العمال الجزائريون في فرنسا يواصلون وينظمون صفوفهم ويوزعون المنشورات، ويتلهفون على قراءة «المجاهد» جريدة جبهة التحرير الوطنية.

وإقتطعوا من أرزاقهم، وعملوا ساعات إضافية في المصانع والمناجم وتبرعوا بدخلها لثورة بلادهم. ووصل السلاح من كل مكان، ومن أيدي الجنود الفرنسيين ومن المصانع الفرنسية نفسها، مادام الجزائريون يدفعون الثمن.

ولكن العناصر اليمينية المتطرفة واصلت الضغط على حكومة باريس لدفعها إلى الاستمرار في حرب الافناء ضد الشعب الجزائري. وتعاون في ذلك كل من الصهيونية والرأسمالية والاستراتيجية الأمريكية. فاعتقدت فرنسا أن لها حلفاء يسندونها ضد العرب! فواصلت حربها الاستعمارية التي اتسمت بروح الضعف وإمتلأت بالتعذيب والتخريب، واتخذت شكل الإبادة والإفناء.

(٣) التدمير والتعذيب والابادة :

ما أن شعرت الحكومة الفرنسية بقوة ثورة الجزائر حتى أسرعت بارسال الامدادات الحربية لقمع الثورة الشعبية في هذا الاقليم. وإشتملت هذه الامدادات على وحدات وفرق بأكملها من الأسلحة البرية والبحرية والجوية. وأخذت هذه القوات تبنى معسكراتها في كل مكان، كما احتلت المدارس التي رفض الجزائريون إرسال أبنائهم اليها.

وإعتقدت فرنسا أن في إستطاعتها القضاء على الثورة الجزائرية، وخاصة بعد أن نفضت أيديها مؤقتاً من مشكلات تونس والمغرب، ولكنها سرعان ما وجدت أن الثورة تزداد كل يوم نجاحاً . وسحبت جزءاً من قواتها من هذين الاقليمين الأخيرين، وخاصة من المجندين العرب، لكي تواجه بهم إخوانهم العرب الثائرين، ولكنها وجدت أن كثيراً منهم قد عمدوا إلى الفرار، وإلى الانضمام إلى الثوار في معاقلهم. خرجوا فرادى وجماعات، بل وفي سرايا وكتائب بأكملها، وحملوا معهم كل ما تمكنوا من حمله من أسلحة وذخائر، شحنوها في سيارات النقل وصعدوا بها إلى الجبال، وإضطرت فرنسا إلى إستدعاء، الاحتياطي الفرنسي، وكانت هذه مسألة أثبتت إنقسام الرأي العام

الفرنسي على نفسه بين رجعيين مستعمرين، ومتحررين لا يرغبون في كبت حريات الشعوب الأخرى. وشهدت الصحافة في سنتي ١٩٥٥ و ١٩٥٧ حوادث فرار المجندين الفرنسيين أنفسهم وإيقافهم للقطارات العسكرية التي تقلهم إلى موانىء الجنوب. وتفرقهم في المزارع وفي كل اتجاه، رغم ارتدائهم الزي العسكري، وحملهم للعلم الفرنسي. كان من بينهم الطلبة والعمال والمثقفون، وشعرت الحكومة بأن الأمر يخرج من أيديها وأن جزءاً كبيراً من الرأي العام الفرنسي يؤيد إستقلال الجزائر، أو على الأقل يعارض إستغلال الحكومة لها في حرب استعمارية لا يجني من ورائها إلا حفنة من أصحاب رؤوس الأموال وكبار رجال الأعمال والاستعمار.

ووضعت الحكومة الفرنسية ـ بالاشتراك مع سلطاتها الاستعمارية في شمال إفريقية ـ نظاماً لتدريب هؤلاء المجندين، واستخدمت في ذلك سلاحاً نفسياً، واتهمت المتحررين بالخور والفزع وعدم الرجولة، وأصرت على تدريبهم بحيث أخرجت من بينهم جنوداً متطرفين، لايراعون قوانين الحرب، ولا يهدفون إلا إلى إثبات رجولتهم وشخصيتهم أمام زملاءهم القدماء. وهكذا سيلعب هؤلاء المجندون أكبر دور رأته الحروب العالمية في التعذيب والإبادة.

ولقد شعرت الأحزاب اليسارية الفرنسية بعدم رغبة أغلبية الشعب الفرنسي في مواصلة هذه الحرب الاستعمارية، فحاولت الإفادة من هذا الموقف، وخاصة الحزب الاشتراكي الدولي، الذي أعلن على رأس برامجه في انتخابات سنة ١٩٥٥ الاعتراف بالشخصية الجزائرية. ولقد نجح هذا الحزب بالذات في الانتخابات واستطاع أن يحصل على أغلبية لم تتوفر له من قبل، نتيجة لإعلانه

عن هذه السياسة. وتولي الحكم جي موليه الذي أسرع بارسال الجنرال كاترو وزيراً فرنسياً مقيماً في الجزائر، كتمهيد لجس نبض الوطنيين، ثم الدخول في مفاوضات معهم، وإعطائهم بعض حقوقهم التي يطالبون بها.

ولكن الأحوال تغيرت في فرنسا بسرعة كبيرة نتيجة لضغط كل من رجال الأعمال والرأسماليين واليهود والمستعمرين على الحكومة. واتهم رجال الاستعمار الجمهورية المصرية باشعال ثورة الجزائر، إنكاراً منهم للاعتراف بالشخصية المتميزة والوطنية لهذه الثورة. كما استغل اليهود حركة اليقظة العربية الكبرى التي انتشرت في الشرق الأدنى، وما تلاها من شراء الأسلحة من دول الكتلة الشرقية ومن ظهور إسرائيل بمظهر العاجز - استغلوا ذلك الضغط على حكومة الاشتراكيين والسير بها في سياسة لاتؤدي بها إلا إلى الإصطدام مع القوى العربية في الشرق الادنى وفي الجزائر. وظهر عداء الحزب الاشتراكي الفرنسي واضحاً للعناصر الشيوعية التي حاولت الانتصار عليه في فرنسا نفسها، والتي انضمت إلى قوات جيش التحرير في الجزائر، والتي رحبت بتهديد مركز إسرائيل في الشرق الادنى. فتبلور الموقف عن تكتل الحزب الاشتراكي الفرنسي مع العناصر الرأسمالية والصهيونية الاستعمارية في فرنسا،ـ ورتبوا صفوفهم لمعركة مع العرب، ومع العناصر اليسارية المتطرفة.

وزار وزير الخارجية الفرنسية في أوائل عام ١٩٥٦ الجمهورية المصرية، وتباحث مع الرئيس جمال عبد الناصر في أمر وقف المعونة العسكرية عن الجزائريين، ووقف إمدادهم بالأسلحة والذخائر، وكأن الثورة الجزائرية لم تكن انتفاضة كبرى شارك فيها كل رجل وامرأة بل وطفل جزائري.

وتوالى ظهور مركبات النقص الفرنسية في الميدان الدولي بشكل يتنافى مع أبسط مبادىء الدبلوماسية والاتزان. . .

وعرض كل من ملك المغرب والحبيب بورقيبه عقد مؤتمر في تونس مع قادة وزعماء الثورة الجزائرية، ومهدا بذلك للتوسط بين الثوار الجزائريين وفرنسا، وعملا على إعطائها الفرصة لستر عملية تقهقرها بلباقة. وحضر بعض زعماء هذه الثورة إلى الرباط، وتباحثوا مع ملك المغرب، ثم استعدوا للسفر سوياً إلى تونس. وكانت إدارة المخابرات الفرنسية قد أعدت عدتها مع قائد الطائرة المغربية الفرنسي الأصل. وبدلاً من أن تصل طائرة القادة الجزائريين إلى تونس هبطت إلى مدينة الجزائر، حيث كانت السلطات الفرنسية في استقبالها بالمدافع الرشاشة. ونجحت فرنسا بهذه العملية في وضع أيديها على خمسة من كبار قادة الثورة الجزائرية، واستولت على كثير من أوراقهم، وجندت الاخصائيين لحل رموزها؛ ثم بدأت حملة اعتقالات واسعة بين العناصر الجزائرية الحرة الموجودة في الجزائر وفي فرنسا نفسها.

وكانت صدمة عنيفة لتنظيم الثورة الجزائرية في ذلك الوقت. وكانت صدمة للعرب والمسلمين والرأي العام العالمي في الشرق والغرب. واعتقدت فرنسا أن في استطاعتها القضاء على ثورة الجزائر في فترة وجيزة. ولكن حسن تنظيم هذه الثورة ونبوعها من قلوب ورؤوس ودماء كل الجزائريين خيب هذه الآمال.

واعتقدت الحكومة الفرنسية ـ التي كانت تقاسي من عقدة نفسية اسمها العرب ـ في التفكير في توجيه ضربة قوية إلى حكومة القاهرة نفسها، حتى تضمن هدوء الحال في شمال إفريقية.

ولعبت فرنسا وكبار الممولين فيها، ومعظمهم من اليهود، دوراً خطيراً في سحب الكتلة الغربية لاقتراحها تمويل مشروع السد العالي. وانتهزت فرصة تأميم شركة قناة السويس، وحاولت تغيير الأوضاع، ومهاجمة نظام التأميم، رغم أنها كانت من أكبر الدول التي نادت به، والتي طبقته في بلادها. ولعب بورجيس مونوري، وزير الحربية الفرنسي، دوره مع آبل توما، وكيل الحربية الفرنسية اليهودي، ولترتيب أمر الهجوم الثلاثي على قناة السويس. وكانت مصالح جي موليه وحكومته في شركة قناة السويس تقل عن مصالح الخزانة البريطانية، ولكنه كان أكثر نشاطاً من إيدن، فسافر إلى لندن، وقابل بن جوريون، وأعد محطات الإذاعة من قبرص، كما أعد نخبة من مأموري المراكز الفرنسيين الذين طردوا من المغرب لكي يدير بهم شؤون منطقة قناة السويس بعد احتلالها.

وإنتقلت معركة الجزائر بالنسبة للحكومة الفرنسية من الجزائر نفسها إلى الشرق الأوسط وإلى منطقة قناة السويس، انتقلت عسكرياً وسياسياً.

ولم تخف صحف اليمين المتطرفة في فرنسا اتجاهها وهو أن القضاء على الحركة الثورية التحررية في القاهرة سيقضي بالتالي على ثورة الجزائر.

وأرادوا تسديد سهمهم إلى قلب العروبة النابض، إلى القاهرة، وإلى أكبر حركة هدفت إلى انتزاع حقوق الشعوب من المغتصبين، إلى تأميم شركة قناة السويس وإرجاعها إلى الشعب المصري. ولكن فرنسا وانجلترا وضعتا كل أوراق لعبهما مكشوفة بهذا الهجوم العسكري؛ إذ لم يكن في استطاعتهما القيام بأكثر من ذلك. ولكن المصريين هبوا للدفاع عن حقوقهم التي وجدوا أخيراً من يرجعها إليهم.

وتكتل الشعب المصري، وتكتل معه إخوانه العرب الأحرار في جميع أقطار العالم. وصوتت الأمم المتحدة بانسحاب القوات المعتدية من منطقة الشرق الأوسط، وصوتت باجماع الآراء، ولأول مرة في تاريخها. فعادت القوات الفرنسية من حيث جاءت وهي تشعر بذل الهزيمة وبحقدها على العرب. ورأت فرنسا انهيار إيدن في انجلترا فصممت على الصمود وكأن كبرياءها قد خدش. صممت على البقاء في الجزائر، وعلى اتخاذ كل الوسائل الممكنة للبقاء فيها حتى ولو تطلب الأمر إبادة سكانها.

وكان على الشعب الجزائري أن يصمد في الميدان وهو يرى قوات الاحتلال الأجنبية والسلطات الإدارية وعناصر المستوطنين قد جن جنونهم وأصبحوا لا يقيمون أي وزن للقانون وللقيم الإنسانية التي تشدقوا بأنهم كانوا أول من أعلنها.

وبدأت حرب الابادة الشاملة، وبدأت بالتدمير. ولم يحاول المشاة الفرنسيون القيام بهذه العملية لجبنهم عن مواجهة الأهالي، فتركت القيادة هذا العبء على كاهل القوات الجوية التي أخذت في تدمير القرى في كل مكان عقب كل كمين يقع فيه الفرنسيون. وأبيدت قرى عربية جزائرية بأكملها، وكان الجيش الفرنسي ينتقم من الأهالي العزل ومن الشيوخ والنساء والأطفال الذين صمموا على الحياة الحرة الأبية. وكم من قرية أُحرقت وادعى الفرنسيون أنها كانت ملاذاً للمجاهدين. وازدادت هذه العمليات اتساعاً مع مرور الوقت، وأخذت القوات الفرنسية تحاصر قرى جزائرية بأكملها ثم تضربها بقنابل الطائرات والمصفحات، وتتلو ذلك باشعال النار في بقاياها. ونظم

العسكريون الفرنسيون تجويع مناطق بأكملها، وذلك بمنع التجول في الطرقات المؤدية إليها ليحولوا دون وصول المؤن، ثم يمنع السكان من الخروج منها تحت التهديد باطلاق النار بمجرد رؤية أي كائن يتحرك. طبقوا ذلك بكل قسوة، ومنعوا حتى الأدوية من الوصول إلى الجزائر. ووصلت بعض أنباء هذه الحرب إلى الرأي العام العالمي في الوقت الذي تشدقت فيه الحكومة الفرنسية بأن نفوذها وسلطتها قد عادا وسيطرا على الجزائر.

وازداد الخرق الراقع، وأثرت الهزائم السياسية والشعور بالضعف والمهانة وسوء الحالة الاقتصادية في فرنسا في كثير ممن اعتقدوا أن الجزائر هي أساس كل ما ينزل ببلادهم من مصائب. وأعطت الحرب الاستعمارية التي جندت لها الحكومة الفرنسية أركان حرب قوية وموّلها رجال الاستعمار بآلاف الملايين من الفرنكات، نتائج ملموسة اتسمت بالفظاعة، ودلت على استفحال اضطراب نفسية الفرنسيين. أصبح عدد من هؤلاء الشبان الذين حاولوا في الماضي الهروب من الخدمة في الجزائر يفتخر بعد عودته بالأساليب التي شارك بها في تعذيب المجاهدين الجزائريين وفي قتل الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ. وكانوا قد تركوا بلادهم وهم في سن العشرين، واعتقدوا أن في مقدورهم إجبار حكومتهم على وقف الحرب الاستعمارية في الجزائر. ولكن سرعان ما وجدوا أنفسهم تحت قيادة ضباط صف وضباط قضوا حياتهم في المستعمرات، وكان مثلهم الأعلى التنكيل بالاحرار وإرضاء نزعات وحشية في نفوسهم، بدعوى الاحتفاظ بالعلم الفرنسي مرفوعاً على الجزائر. وأصبح المارسييز، وهو نشيد الدفاع عن حرية فرنسا أمام الغزاة في عصر الثورة الفرنسية، نشيداً استعمارياً يدل على تصميم الفرنسيين على البقاء في الجزائر بقوة السلاح وبحرب إفناء عامة، رغم

تصميم الشعب الجزائري على انتزاع حريته واستقلاله. ولم يتورع الاستعماريون عن اتهام ثورة الجزائر باتهامات مختلفة، وتعبئة الرأي العام الفرنسي لكي يواصل دفع الضرائب وإرسال أبنائه اللازمين لهذه الحرب. اتهموها بأنها حركة إسلامية متعصبة تسعى إلى إخضاع أوربا لشعوب متبربرة، واتهموها بأنها حركة عربية معادية لكل الأجناس الأخرى، بل اتهموها بأنها حركة شيوعية تهدف إلى إستنزاف موارد فرنسا والسير بها إلى الفقر والضعف، تمهيداً لحكم الشيوعيين. وتناسوا أنها حركة عربية اشتراكية، لا تهدف إلا إلى خير الجميع بما فيهم فرنسا نفسها، ولا تنشد إلا العيش في سلام، ولكن وهي متمتعة بحقوقها وترفرف الحرية على أراضيها.

واتخذت السلطات الفرنسية من التعذيب، بعد التدمير، سياسة لها في الجزائر. وأخذت تتفنن في هذه الناحية، دون رحمة ولا إنسانية. وشهد عليها كثير من أبنائها الذين نشروا مذكراتهم عن وسائلها تجاه هذا الشعب المجاهد. وكان منهم العسكريون والقانونيون، بل ورجال الدين. كتب شريبر وسيمون وجان لاكولتر، وموريس جارسون، نقيب المحامين في فرنسا، عن هذه الأعمال، وفضحوا تصرفات حكومة بلادهم أمام الرأي العام الفرنسي والعالمي. كما كتب الكاثوليكيون الأحرار، وكانوا لا يسعون إلا إلى أن يقوم الرأي العام الفرنسي نفسه بوضع حد لهذه الأساليب التي تهدم قيمة فرنسا في أعين العالم، ووقف هذه الحرب المدمرة التي تقضي على زهرة شباب فرنسا وتفلس خزانتها. كانوا قلة بين الفرنسيين، وكانوا ضعفاء. أمام تكتلات الاستعماريين والمستوطنين والصهيونين. ولكنهم واصلوا كفاحهم بطرقهم ووسائلهم، وأثبتوا أن حكومة فرنسا لاتمثل الرأي العام فيها. وأنها تستغل البلاد مع أعوانها من

اليمينيين المتطرفين لخدمة مصالح بعض الأفراد والهيئات والمنظمات الغربية العسكرية، مثل منظمة حلف شمال الأطلنطي. ولكن حكومة باريس ظلت مسيطرة على الإذاعة، كما كان اليهود مسيطرين على معظم الجرائد الفرنسية. ولم تمنع هذه المعارضة القوية حكومة باريس من المضي في سياستها تجاه الشعب الجزائري المناضل، ولاسلطاتها الاستعمارية، من تعذيب المجاهدين الجزائريين.

وعمد رجال السلطات الفرنسية في الجزائر إلى التفنن في أنواع التعذيب، فكانوا يجردون الجزائريين من ملابسهم كاملة، ويقيدون أيديهم وراء ظهورهم،ثم يضعون رؤوسهم في الماء المغلي، بدعوى إرغامهم على الكلام وإرغامهم على إعطاء أسرار جيش التحرير. وكانوا يعلقون الجزائريين من أرجلهم في أسقف الحجرات ويواصلون ضربهم على رؤوسهم المدلاة إلى أسفل. وكانوا يضعون خراطيم المياه في أفواه الوطنيين حتى يضطروا الماء تحت الضغط المستمر إلى الخروج من جميع منافذ الجسم، وأيديهم مكتوفة وراء ظهورهم. وأخذوا يعلقون الجزائريين من شعورهم، وإذا ما سقط أحدهم أجهزوا عليه ضرباً ولكماً وركلاً بالأحذية. وأخيراً استخدموا التيار الكهربائي لكي يمر بين رؤوس الوطنيين وأرجلهم وفي مواضيع حساسة من أجسادهم. واستخدموا ذلك ضد الجزائريين العزل من السلاح، وبمجموعات من الجنود ضد كل وطني واحد. وكانت هناك الحراب والرصاص للقضاء على كل حالة ميئوس منها، أو لوضع حد لخروج المعذب عن قواه العقلية بعد هذه المعاملة.

قام كثير من الفرنسيين بهذه العمليات بقلوب قاسية وتخصصوا في احترافها بدعوى تخصصهم في الاستجواب ومعاملة المشبوهين. وتخصصوا في

نزع الأظافر، وتلذذوا بسماع صياح الضحايا، وأجبروا الوطنيين على الهتاف بحياة فرنسا. هذا علاوة على التعذيب بالجوع والعطش حتى الموت.

وهددوا النساء بقتل أبنائهن أمامهن؛ والرجل باعتداء على زوجته امامه، ونبذوا جانباً كل القيم الإنسانية التي أمضى العالم حياته في بنائها منذ آلاف السنين. وأدخلوا الحراب في أجسام الجزائريين، وارتكبوا كثيراً مما يعجز القلم عن وصفه، بدعوى الاحتفاظ بالجزائر لفرنسا. ولم تكن هناك من نتيجة منطقية لهذه المعاملة الا الفرقة الكاملة بين الفرنسيين والجزائريين وتصميم الجزائر بأكملها على خوض المعركة حتى النهاية. وليكن موتاً شريفاً واستشهاداً في ميدان المعركة.

وعملت السلطات الفرنسية في الجزائر على محاولة منع انضمام العناصر الشابة إلى الثورة، فجندتها للعمل في بناء المدارس وإنشاء الطرق. ولكن الأطفال الجزائريين لم يحضروا إلى هذه المدارس، فاتخذتها لمبيت الجنود ولتعذيب الوطنيين. وفر العمال في أول فرصة، وانضموا إلى المجاهدين في الجبال. وحرّمت فرنسا على العمال الجزائريين فيها عودتهم إلى بلادهم، وأخذت تضيق عليهم الخنادق وتتعسف في معاملتهم، وألقت القبض على آلاف منهم ووضعتهم في معسكرات خاصة وفي الحدائق العامة تحت حراسة المدافع الرشاشة بدعوى تحقيق شخصياتهم. ولكن هذا لم يمنعهم من الفرار في أول فرصة إلى الدول الأوربية الأخرى، خصوصاً المانيا وسويسرا وإيطاليا، وبجوازات مرور فرنسية، ومنها إلى تونس والمغرب، تمهيداً للنزول إلى معركتهم التي اشتعلت منذ سنوات واحتاجت إليهم.

وعلمت فرنسا أن الرأي العام العربي والإسلامي والعالمي يعطف على قضية الجزائر، فأحكمت النطاق حول هذا القطر المجاهد من البحر والبر، وأساءت علاقتها مع معظم الدول المتحررة. وواصلت تدمير الجزائر بطريقة منظمة، وحسب خطة موضوعة ومدروسة، ومنفذة مع سبق الاصرار.

وواصلت استخدام كل إمكانياتها الحربية في تدمير الجزائر. وأنشأت نظام المربعات لتطويق أية منطقة تقع فيها أية حادثة أو كمين لدورياتها. وكانت الخطة أن تبدأ الطائرات بقذف هذا المربع بالقنابل، ويتلوه قذف المدفعية الثقيلة، ثم يأتي دور المصفحات والدبابات وقاذفات اللهب. وبلغت القوات العسكرية الفرنسية في الجزائر ثلاثة أرباع مليون جندي، استندت إلى ما يزيد على مائتي ألف من المستوطنين المسلحين والمنظمين في الميليشيا. فأصبح من السهل على الفرنسيين التصدي لأي مربع في الجزائر، إذا ما قام المجاهدون بمهاجمة إحدى القوافل والقضاء على رجالها أو الاستيلاء على الإمدادات منها. وجرى كل هذا دون أن تسمح فرنسا لمراسلي الصحف والمجلات برؤية ما يجري في هذه المنطقة المحاصرة. ولكن نافذة صغيرة ظلت مفتوحة على العالم الخارجي يمكنه منها أن يرى صورة مصغرة لما يجري هناك، وهي قرية سيدي يوسف التونسية الواقعة على الحدود مع الجزائر.

ولم يتورع الفرنسيون عن ضربها أكثر من مرة بقنابل الطائرات، ثم قذفها بالمدفعية وتطويقها بالدبابات، وخطف الأهالي منها بدعوى أنهم من الجزائريين. ورأى العالم تدمير هذه القرية، رغم وقوعها خارج الحدود الجزائرية وتحت سيادة دول أخرى.

وأخيراً، فان فرنسا قد أنشأت منطقة محرمة في شرق الجزائر تمتد من عنابة في الشمال حتى نفرين في الجنوب، وتفصل بها الجزائر عن تونس.

وأقامت لها خطاً من الاسلاك الشائكة يبلغ طوله أربعمائة كيلو متر، وعلى مسافة تبعد من ثلاثين إلى خمسين كيلومتراً من الحدود التونسية. وكان هذا هو خط موريس، وزير الحربية الفرنسي الذي قرر تزويده بأجهزة الرادار التي تفتح نيران المدفعية لمجرد مساس أي شيء بالاسلاك الشائكة. وجاء بعده شابان دلماس الذي قرر إخلاء هذه المنطقة من السكان واعتبارها منطقة ضرب للمدفعية. وبلغ سكان هذه المنطقة حوالي ثلاثمائة ألف جزائري، وظهر أن قرار الحكومة الفرنسية لم ينتج إلا عن تطرف في سياسة الابادة. ولم يكن أمام الجزائريين سكان هذه المناطق إلا محاولة الفرار أفواجاً للنجاة من وابل القنابل والرصاص والحريق والاعتداءات الفاحشة والمجاعة. إلا أنهم وجدوا أنفسهم مطوقين بين خط موريس وبين القوات الفرنسية المرابطة على الحدود التونسية، فلم يكن نصيبهم إلا التعذيب والموت، مالم يسعدهم الحظ باجتياز الحدود والالتجاء إلى تونس. وكان معظمهم من النساء والشيوخ والاطفال. أما من كان يقدر على حمل السلاح فقد انضم إلى أخوانه المجاهدين في الجبال، وحاربوا بكل ما وجدوه من أسلحة وما استطاعوا انتزاعه من الفرنسيين أنفسهم لتخليص بلادهم وتأمين حياة أبنائهم. ولقد زادتهم القسوة الفرنسية تشبثاً بمبادئهم ومطالبهم العادلة، وأيدتهم كل الشعوب والدول المتحررة الناهضة، وعلموا أن معركتهم هي معركة كل شعب متحرر، فواصلوا الكفاح، واستعذبوا الاستشهاد.

الحركات الثورية في فلسطين

عاشت فلسطين تحت الاحتلال البريطاني ثلاثين سنة، من ١٩١٨ ـ ١٩٤٨، وتميزت تلك الفترة من تاريخ فلسطين بالحركات الثورية المستمرة المتصاعدة. اذ شهدت البلاد العديد من الصدامات والهبات والانتفاضات والثورات ضد سلطات الانتداب البريطاني وغزوات الاستيطان الصهيوني. فمن صدامات ١٩٢٠ ، و ١٩٢١ ، و ١٩٢٤ إلى هبة ١٩٢٩، فانتفاضة ١٩٣٣، وحركة عز الدين القسام المسلحة (١٩٣٥) التي كانت مقدمة لثورة ١٩٣٦ الشعبية المسلحة، التي امتدت حتى أواخر ١٩٣٩. ولا يمكن وضع هذه الحركات جميعها في مستوى واحد من ناحية الاعداد والتنظيم والعنف والشمولية. ومن الخطأ تاريخياً اعتبارها كلها ثورات، لأن بعضها كان عبارة عن صدامات محدودة، وكان بعضها الآخر هبات اندلعت بشكل عفوي ودون تنظيم سابق، واتصفت بالمحدودية من حيث الشعارات والاهداف والاتساع الجغرافي والمدى الزمني. وكان من بينها انتفاضات سبقها اعداد وتخطيط، وأشرف عليها تنظيم سياسي أو أكثر، وحملت شعارات أكثر عمقاً من شعارات الهبة. ولقد أدت كل هذه الحركات المسلحة الى أعداد المناخ الثوري لاندلاع ثورة ١٩٣٦ التي كانت أكثر من الحركات السابقة شمولاً، وأعظم اتساعاً، وتهدف الى تغيير سياسي واجتماعي، وتعبر شعاراتها ومطالبها واهدافها عن هذا الطموح.

أ ـ صدامات ۱۹۲۰ :

اتسمت المرحلة الممتدة من ۱۹۱۸ إلى ۱۹۲۹ بسيادة الوجهاء ـ كبار الملاك وأبناء العائلات الكبيرة ـ على قيادة الحركة الوطنية فكراً واسلوباً نظراً لموقعها الاقتصادي والاجتماعي والديني.

وكان طبيعياً أن تسود في هذه الفترة الاساليب السلبية في الكفاح: مذكرات، وعرائض، ووفود تسير إلى الحكومة البريطانية، ومؤتمرات تعقد بترخيص منها، وتتمخض عن قرارات معتدلة. وقد ركزت تلك القيادة على توجيه عداء الجماهير العربية الفلسطينية إلى الصهيونية دون التشديد على الارتباط الوثيق ما بين الصهيونية والاستعمار البريطاني. ولقد تخللت تلك المرحلة صدامات عديدة بين المستوطنين الصهاينة والسكان العرب. وكان جوهر الصراع وطنياً وطبقياً في آن معاً، ذلك لأن الصهيونية جاءت بمثابة غزو استعماري استهدف اقتلاع الوجود القومي العربي لشعب فلسطين، كما أن الصهاينة احتلوا مواقع طبقية ممتازة على حساب عرب فلسطين كموظفين كبار، وملاك، وأصحاب اعمال من ورش ومصانع، وكمتسببين في بطالة العمال العرب وكنازعين لاراضي الفلاحين العرب وطاردين لهم من اراضيهم، ولهذا كانت جماهير الكادحين العرب سدى ولحمة الفريق العربي في الصراع مع الصهيونية.

وكان أول هذه الصدامات، ذلك الصدام الدامي الذي وقع بين الجماهير العربية الفلسطينية من جهة، وبين المستوطنين الصهاينة والجنود البريطانيين من جهة اخرى بالقدس، في الرابع من نيسان (ابريل) سنة ۱۹۲۰. وكانت اسباب هذا الصدام اكثر عمقاً من مجرد الاستجابة لتحريض قيادة الحركة الوطنية.

اذ كان هناك اكثر من مصدر للسخط الشعبي المتزايد في اوساط الشعب العربي الفلسطيني. فاللجنة الصهيونية أخذت تدلي بالعديد من التصريحات الاستفزازية بصدد اطماع الحركة الصهيونية في فلسطين، ومحاباة سلطات الاحتلال البريطاني للمستوطنين الصهاينة على حساب السكان العرب في كافة المجالات، الاقتصادية والسياسية والثقافية وغيرها. حيث قررت السلطات البريطانية ـ على سبيل المثال ـ اعتبار العبرية لغة رسمية في فلسطين، واغدقت الامتيازات على اللجنة الصهيونية واعضائها.

وهناك أسباب عامة لسخط عرب فلسطين، لعل أبرزها خيبة أملهم لتنكر بريطانيا لوعودها للعرب بالاستقلال، بالاضافة الى غضب عرب فلسطين بعد اكتشافهم لما يتضمنه وعد بلفور من منح المستوطنين الصهاينة حق تحويل فلسطين الى وطن قومي لليهود.

وكان لسخط الطبقات العربية الفلسطينية أسباب واضحة؛ اذ ناء الفلاح العربي الفلسطيني تحت وطأت الضرائب المتراكمة عليه منذ أواخر ايام الاتراك، والتي أصرت سلطات الاحتلال البريطاني على جمعها بالكامل. ويتضح مدى الجور في هذا، اذ علمنا ان متوسط الدخل السنوي للفلاح العربي الفلسطيني بلغ، عندئذ، نحو ٢٦ جنيهاً، على حين كان عليه دفع نحو ستة جنيهات كضرائب للحكومة، أي ما يعادل ٢٣٪ من دخله السنوي. ورفضت الحكومة في الوقت نفسه إنشاء بنك زراعي لاقراض الفلاحين العرب، مما اوقع الفلاح العربي الفلسطيني فريسة للمرابين، الذين كانوا يتقاضون على ديونهم للفلاحين فائدة تعادل ٣٠ ـ ٥٠٪. وعمدت سلطات الاحتلال البريطاني الى اغراق الفلاح العربي الفلسطيني بالازمات. أما مثقفو عرب فلسطين فقد تزايد

سخطهم بسبب احتلال البريطانيين والمستوطنين الصهاينة للوظائف العليا في البلاد، وحصر العرب في بعض الوظائف الصغرى، بالاضافة الى معارضتهم لسياسة الاحتلال التعليمية الرامية الى تضييق عدد المتعلمين العرب بما يكفي لمد سلطات الاحتلال البريطاني بالموظفين لادارة البلاد، وتيسير استغلال وامتصاص مواردها لصالح الاستعمار والصهيونية. في حين اغدقت هذه السلطات الاعتمادات المالية الكبيرة لتدعيم أوساط المستوطنين الصهاينة.

وهناك عوامل اخرى محلية وخارجية، لعبت دوراً غير هين في إلهاب الحماس الوطني للجماهير العربية الفلسطينية، كمنع السلطات البريطانية المؤتمر الفلسطيني من عقد دورته الثانية في شباط (فبراير) ١٩٢٠، واعتلاء فيصل بن الحسين العرش في سوريا، وقرار مجلس النواب التركي، في كانون الثاني (يناير) ١٩٢٠، والقاضيْ بضرورة منح الولايات العربية حق تقرير المصير. ونمو الحركة الثورية في مصر والسودان وسورية ولبنان والعراق والمغرب.

وما ان هل «موسم النبي موسى» في نيسان (ابريل) ١٩٢٠، حتى كان التذمر الشعبي سائداً والسخط مستفحلاً. وموسم النبي موسى هو من «المواسم» و «الاحتفالات» التي ابتكرتها عقلية القائد الكبير صلاح الدين الايوبي، بهدف تجميع الناس، واستغلال تجمعهم هذا في التحريض ضد الصليبيين الذين كانوا يحتلون جزءاً من بلاد الشام.

ويبعد موقع الاحتفال بموسم النبي موسى نحو ٣٠ كيلومتراً الى الشرق من القدس، ويقع على الطريق من القدس الى اريحا. وتبدأ الاحتفالات بتجمع سكان مدن وقرى فلسطين في مدينة القدس، حيث يفد اليها اهالي نابلس من



موسى كاظم باشا الحسيني

باب العمود يوم الخميس، ويفد اليها اهالي الخليل يوم الاحد التالي من باب الخليل، ويدخل هؤلاء واؤلئك شاهرين سيوفهم ورماحهم، رافعين راياتهم منشدين الاناشيد الوطنية والدينية، ويلتقي الجميع في المسجد الاقصى يوم الجمعة، حيث يتجهون الى النبي موسى للاحتفال.

ولقد وقع صدام نيسان (ابريل) ١٩٢٠، حين منعت الشرطة اهالي الخليل من الدخول الى القدس، مما دفع مواطن من الخليل، يدعى عبد اللطيف ابو سنينة وشهرته ابو الشعر، الى ضرب شرطي بالسيف، وعندها اخذ الحماس جماهير الخليل الوافدة الى القدس، فتدافعت واقتحمت باب الخليل عنوة، وقابلها كل من موسى كاظم الحسيني والحاج امين الحسيني وعارف العارف (من قادة الحركة الوطنية الفلسطينية آنذاك) بالخطب السياسية من شرفة «النادي العربي»، فتأجج حماسها والتهبت مشاعرها الوطنية. وتمخضت الصدامات عن مقتل أربعة من العرب، وخمسة من اليهود، وإصابة ٢٤٩ بجراح، منهم ٢١١ يهودياً، و٧ جنود انجليز. وأصدرت المحاكم احكاماً بالسجن ضد ٢٩ شخصاً، منهم تسعة من العرب، بينهم الحاج امين الحسيني وعارف العارف، اللذين فرا الى دمشق عبر شرقي الاردن.

كما نحت السلطات البريطانية موسى كاظم الحسيني عن رئاسة بلدية القدس، وعينت بدلاً عنه راغب النشاشيبي.

ب ـ صدام أيار ١٩٢١ :

استمرت أسباب السخط الشعبي على ما كانت عليه، بل ازدادت تفاقماً. ففي تموز (يوليو) ١٩٢٠، استبدلت الحكومة البريطانية الادارة

العسكرية في فلسطين بادارة مدنية، ووضعت على رأسها هربرت صموئيل، احد ابرز صهيونيي بريطانيا وأحد صانعي وعد بلفور، وهو الذي وصفه حاييم وايزمن بقوله «صموئيلنا». وفي عهده ازداد ظهور الانحياز البريطاني للصهيونية وللمستوطنين الصهاينة في فلسطين. كما زادت احوال الشعب العربي الفلسطيني سوءاً؛ إذ منع صموئيل تصدير الحبوب والزيت، مما ادى الى انخفاض اسعارها في فلسطين بسبب كثرة المعروض منها، وصفى صموئيل البنك الزراعي العثماني، وأمر بتحصيل الجزء الاكبر من ديونه قسراً من صغار الفلاحين، لهذا اشتدت حالة الفلاح العربي الفلسطيني سوءاً. وقدم صموئيل أكثر من مائة ألف دونم من اراضي الدولة التي كان يستغلها العرب الى المؤسسات الصهيونية. ونقل - بمقتضى تشريعات جديدة - ملكية اراضي ٢٢ قرية في سهلي الحولة ومرج ابن عامر الى الدولة، ثم فوضها للمستوطنين الصهاينة. وأخرج سكانها، وهم أكثر من ٢٥ ألف نسمة، وحجز أراضي ومواشي من عجز عن تسديد قروضه من الفلاحين العرب. وفي عهده اتسعت الهجرة اليهودية الى فلسطين، فعلى سبيل المثال، سمح في ٢١ آب (اغسطس) ١٩٢٠، بدخول ١٦٥٠٠ مهاجر خلال سنة واحدة. ويقول احصاء بريطاني رسمي، انه في حزيران (يونيو) ١٩٢١، كان ١٧٩ بريطانياً يشغلون وظائف عليا منهم ١٤ بريطانياً يهودي الديانة، على حين لم يشغل العرب (وهم ستة أسباع السكان) سوى ١٤٥ من هذه الوظائف، وشغل المستوطنون الصهاينة ٥٠ وظيفة اخرى منها. وشغل الانجليز ٨٩ وظيفة متوسطة، بينهم ١٣ انجليزي يهودي الديانة، في الوقت الذي احتل فيه العرب ١٤٨٨ وظيفة متوسطة، وشغل المستوطنين الصهاينة ٥٦٦ من هذه الوظائف.

لذا كان طبيعياً، والامر كذلك، ان يتعمق سخط مثقفي الشعب العربي الفلسطيني. ولقد زاد من هذا السخط احداث عديدة أهمها: قيام المجلس الاعلى للحلفاء، المنعقد في سان ريمو في الخامس والعشرين من نيسان (ابريل) ١٩٢٠، بوضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني، مع الزام بريطانيا بتنفيذ وعد بلفور؛ وقيام فرنسة في تموز (يوليو) ١٩٢٠، بابعاد فيصل بن الحسين عن سوريا، واحتلال سوريا؛ وضغط الحلفاء على السلطان التركي محمد السادس، واجباره في آب (اغسطس) على توقيع معاهدة سيفر التي اعترف السلطان فيها بانتداب فرنسة وبريطانيا على سورية وفلسطين والعراق.

وبدأ صدام أيار (مايو) ١٩٢١، حين اصطدمت مظاهرتان يهوديتان في تل أبيب، اثناء احتفالهما بعيد أول أيار (مايو)، وكانت الاولى للشيوعيين والثانية لأحدوت هاعفودا، واتجهت مظاهرة الشيوعيين الى حي المنشية بمدينة يافا الملاصق لمدينة تل ابيب، ويبدو أن سكان يافا العرب اساءوا فهم مقصد الشيوعيين من مظاهرتهم، فاصطدموا بهم، واجحت الشرطة البريطانية الصدام باطلاق النار. وانتقلت الشرارة إلى مناطق مختلفة من البلاد، فهاجم العرب مستعمرات للمستوطنين الصهاينة مثل:

رخابوت، والخضيرة، وبتاح تكفا، وديران، واليهودية، على حين هاجم الصهيونيون بلدة قلقيلية العربية ونهبوها. وانتهت الصدامات بعد نحو اسبوع، وتمخضت عن مقتل ٤٨ عربياً و ٤٧ صهيونياً، وإصابة ٧٣ عربياً بجروح، وضعف هذا العدد من الصهاينة. وأصدرت المحاكم أحكامها بسجن ٤٧ عربياً وابعاد سبعة من عرب يافا إلى القدس، ونفي ثلاثة من قادة الشيوعيين (وكانوا من المستوطنين اليهود) الى خارج البلاد.

جـ ـ صدام آذار (مارس) ١٩٢٤ :

وفي آذار (مارس) ١٩٢٤، تجددت الصدامات الدامية بين العرب والمستوطنين الصهاينة، نتيجة استفزازات قام بها المستوطنون أثناء احتفالهم بعيد «استر» والمعروف عند العرب بعيد المساخر، والذي يرتدي فيه اليهود الملابس الهزلية (الكرنفال) ويرقصون فيه، وقد قام بعض المستوطنين بارتداء ملابس رجال الدين الاسلامي، وطافوا الشوارع والاحياء، مما استفز مشاعر المسلمين الدينية، فحاولوا منعهم من التعرض برجال الدين الاسلامي، دون جدوى. وكانت الصدامات الدامية في تل أبيب، ولقد ألقت حكومة الانتداب البريطاني القبض على نحو ١٥٠ عربياً، عادت وأفرجت عنهم بعد ثبوت براءتهم.

د ـ هبة البراق ١٩٢٩ :

بعد المؤتمر الوطني الفلسطيني، المنعقد في يافا في حزيران (يونيو) ١٩٢٣، عجزت قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية عن عقد مؤتمرها السابع طوال خمس سنوات. بسبب حدة التمايز بين القوى التقليدية التي شكلت المؤتمرات الستة السابقة. ذلك لأن قوى الثورة المضادة التي شاركت في المؤتمرات المذكورة عادت الى مقاطعة القوى الوطنية التقليدية في قيادة الحركة الوطنية، بعد وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني في تموز (يوليو) ١٩٢٢. وفي الوقت الذي كان خروج قوى الثورة المضادة من المعسكر الوطني تطهيراً له، قامت القوى الوطنية التقليدية بالسعي وراء قوى الثورة المضادة، تسترضيها وتعرض عليها شتى التنازلات على حساب الخط الوطني. الا ان قوى الثورة المضادة سرعان ما

دخلت في مرحلة التأطير، بغية رفع درجة تنظيم صفوفها. فكان حزبا «الزراع» و «الوطني» في اواخر العام ١٩٢٣، نتاجاً لهذا الاتجاه.

وأسست الحركة الوطنية الفلسطينية فيما بين ١٩٢٣ و ١٩٢٩، بسبب هذا التردي. وفي حزيران (يونيو) ١٩٢٨، توصلت القوى الوطنية التقليدية الى اتفاق مع قوى الثورة المضادة، لعقد المؤتمر السابع، بعد أن حازت قوى الثورة المضادة على اكثر من نصف مقاعد هذا المؤتمر. وكان اصرار الاتجاهات السياسية التقليدية على عقد هذا المؤتمر ناجماً عن عدة أسباب: أ) رغبة القوى الوطنية التقليدية في التصدي للحكومة، التي منحت حق استغلال أملاح ومعادن البحر الميت لشركة صهيونية، ومعروف ان رئيس المؤتمر، موسى كاظم الحسيني، كان أحد المتقدمين للحصول على هذا الامتياز؛ ب) التحضير لتلقي منحة حكومة الانتداب لاهالي فلسطين، ونعني بها «المجلس التشريعي» التي اشاعت حكومة الانتداب انها بصدد تكوينه في فلسطين، توطئة لمنح البلاد الحكم الذاتي؛ ج) مواجهة «قانون ضريبة الاملاك في المدن»، الصادر في أول العام ١٩٢٨، والذي أدى الى تقارب القوى الوطنية التقليدية وقوى الثورة المضادة بشكل مصلحي؛ د) كما ان قوى الثورة المضادة حققت انتصارات ملموسة في انتخابات المجالس البلدية التي اجريت في انحاء فلسطين، في ربيع ١٩٢٧، مما عزز مواقع الثورة المضادة، وزاد من إلحاح القوى الوطنية التقليدية على ضرورة التحالف معها باسم «وحدة الصف».

وكاد المؤتمر السابع ان «يسفر عن المطالبة بحكومة وطنية في ظل الانتداب»، على حد تعبير محمد عزة دروزة، احد المشاركين في هذا المؤتمر. وانبثقت عن المؤتمر السابع لجنة تنفيذية ممثلة للاتجاهين معاً، وانتخبت لهذه اللجنة

امانة سر من ثلاثة أعضاء، اثنان منهما يمثلان قوى الثورة المضادة. وغلب على اللجنة التنفيذية طابع الذاتية والمحلية، وغرقت الى اذنيها في المهاترات والصراعات غير المبدئية. وكان الحل الوسط هنا جسراً مر عليه اقصى اليمين الى النجاح، على حساب الحركة الوطنية.

وعندما هلت سنة ١٩٢٩، كانت احوال الشعب العربي الفلسطيني الاقتصادي قد ازدادت سوءاً، خاصة بعدما تعرضت البلاد للجراد والزلزال والوباء التي اجتاحت البلاد عام ١٩٢٧. خاصة وان عام ١٩٢٩ كان بداية الازمة الاقتصادية العالمية الشهيرة (١٩٢٩ ــ ١٩٣٢). وبالاضافة الى ذلك، فقد سهلت التشريعات التي سنتها حكومة الانتداب البريطاني، من تدفق المزيد من المهاجرين اليهود الى فلسطين، حتى فاق عدد من دخل منهم الى فلسطين منذ الاحتلال البريطاني وحتى بداية العام ١٩٢٩، المائة ألف مهاجر، عدا الآلاف العديدة الاخرى من المتسللين غير الشرعيين. واقترنت هذه الهجرة باتساع رقعة الاراضي التي انتزعت من الفلاحين العرب، وتم طردهم منها، وحرمانهم من العمل فيها كأجراء. وقننت الحركة الصهيونية هذا الحرمان في شعاري: «العمل العبري» و «احتلال العمل»، اللذين أشهرتهما الصهيونية في وجه العمال والمزارعين العرب الفلسطينيين، وبلغ عدد العمال العاطلين في العام ١٩٢٧، ٨٤٤٠ عاملاً يهودياً، و ١٦٠٠ عاملاً عربياً.

وكانت مساحة مجمل ما منحته حكومة الانتداب للشركات الصهيونية من اراض ٨٢ ألف دونم من الاراضي الاميرية، علاوة على ما قدمته الحكومة للشركات الاحتكارية الصهيونية، ومنها ٧٥ ألف دونم لشركة البوتاس، و ١٨ ألف دونم أخرى لشركة كهرباء روتنبرغ، كما نقلت سلطات الانتداب امتياز

تجفيف سهول الحولة الى الشركات الصهيونية، وتبلغ مساحة هذه السهول نحو ثلث الاراضي الخصبة في فلسطين.

وفي مجال الصناعة، اشتدت منافسة الصناعات اليهودية للصناعات العربية، واعتمدت الصناعة اليهودية على المؤازرة الحكومية ورؤوس الأموال الضخمة والخبرة الفنية العالية، وهي عوامل هامة افتقرت اليها الصناعة العربية في فلسطين، مما حال دون تطورها بالشكل المرتقب، بل وشوه نمو البورجوازية العربية الفلسطينية، وزاد نقمتها، ومن ثم ثوريتها، خاصة بعد أن احتكرت المؤسسات الصهيونية توكيلات الصناعات الانجليزية والامريكية وغيرها من الصناعات الاستعمارية.

ولقد تضافرت كل هذه العوامل لخلق مناخ متوتر قابل للانفجار. ووسط هذا المناخ المتوتراحتفل المستوطنون الصهاينة بعيد غفرانهم، في الخامس عشر من آب (اغسطس) ١٩٢٩، وقاموا باستفزاز المسلمين، عندما صاحوا مطالبين بامتلاك حائط المبكى على اعتباره الجزء الباقي من قصر سليمان بن داوود، ورأى المسلمون أن في ذلك تحدياً لمشاعرهم الدينية خاصة وأن حائط المبكى هو الحائط الذي حط فيه «البراق» عندما أسرى بالنبي محمد (ص) الى السماء وأدى هذا الوضع إلى توتر حاد في مدينة القدس، خاصة وان المسلمين كانوا يحتفلون بالمولد النبوي، فاتجه المصلون من المسلمين الى الحائط وحاولوا انتزاع الستائر والمقاعد التي وضعها المستوطنون اليهود هناك، مما تسبب في اشتباكهم مع اليهود، الا ان الشرطة نجحت في تهدئة الموقف وانهاء الاشتباك.

وفي اليوم التالي، اشتبك بعض الشبان الصهاينة مع بعض الفلاحين العرب

في احدى ضواحي القدس، وجرح على اثر ذلك ١٤ عربياً، وخمسة من الصهاينة، ومات احدهم. وتجدد الصدام اثناء تشييع جنازته، في ١٩ آب (اغسطس)، وتمخض عن اصابة ٢٤ عربياً ويهودياً وشرطياً بجروح. وفي يوم الجمعة ٢٣ آب (اغسطس) احتشد المصلون في المسجد الأقصى بالقدس، وخرجوا في مظاهرة، ضاربين عرض الحائط بتحذيرات المشايخ. وفي هذا الوقت اعتدى بعض الصهاينة المسلحين على نساء وأطفال قرية «لفتا»، مستغلين غياب رجالها لاداء الصلاة بالقدس، واسرع الرجال لنجدة نسائهم واطفالهم، وسرعان ما سرى القتال الى القرى المجاورة، ومنها الى بقية ارجاء فلسطين.

ويلاحظ ان السلطات الانجليزية ظلت ملتزمة الصمت طول الايام الاولى للصدام، مطبقة بذلك سياسة «فرق تسد»، وحتى تسمح للسخط العربي بالتعبير عن نفسه من وقت لآخر، شريطة أن يتجه العنف نحو المستوطنين الصهاينة لانحو سلطات الانتداب. وبمجرد ان تتسع هذه الصدامات، وتتطور بدرجة تهدد بتحولها ضد الانتداب نفسه، كانت سلطات الانتداب تتدخل، وتوجه ضربتها الشرسة للجانب العربي، ثم تظهر بمظهر «الحكم» بين الطرفين المتصادمين.

وأصدر بعض قادة الحركة الوطنية (الحاج امين الحسيني وبعض الوجهاء) بياناً في ٢٤ آب (اغسطس) طالبوا فيه الشعب العربي الفلسطيني بالتذرع بالصبر والتوقف عن الصدام. وفي اليوم نفسه هاجم عرب الخليل الحي اليهودي بالمدينة، وقتلوا ٦٤ مستوطناً صهيونياً. وعقدت جماهير نابلس وطولكرم وجنين مؤتمراً في نابلس، ندد فيه الخطباء بالحكومة، وطالبوا باستعادة الاراضي التي انتزعها الصهاينة، واخراج كبار الملاك ممن باعوهم هذه الاراضي من ذلك

المؤتمر. ثم توجه المجتمعون الى مركز شرطة المدينة، واستولوا على السلاح الموجود فيه، ورفعوا علم فلسطين فوقه، بعد أن فقدوا تسعة شهداء، كما هاجم أهالي بيسان بعض المستعمرات اليهودية المحيطة ببلدتهم. وحدث الشيء نفسه في يافا.

وفي ٢٥ و ٢٦ آب (اغسطس)، عززت الحكومة قواتها المسلحة، فاستقدمت خمسة آلاف جندي بريطاني من مصر ومالطة، وست قطع بحرية بريطانية، رابطت في مينائي يافا وحيفا للارهاب. كما قبعت ١٢٠ طائرة حربية بريطانية في مطارات فلسطين المختلفة، انتظاراً لمواجهة ما يستجد في الموقف الملتهب. وقتل عرب القدس بعض الجنود البريطانيين، وقطعت الجماهير العربية الثائرة خطوط الهاتف في اكثر من مكان. واوقفت الحكومة خط حديد فلسطين ـ مصر. وجرد الثائرون العرب بعض الجنود البريطانيين من أسلحتهم أثناء مرور القطار الذي يقلهم قرب حيفا. على حين هاجم المستوطنون الصهاينة المسلحون ضاحية ابو كبير في يافا، وقتلوا إمام مسجدها وستة من افراد عائلته، ومثلوا بجثثهم. كما هاجم الصهاينة المسلحون مقام النبي عكاشة في القدس، ونبشوه، ودنسوه.

وفي ٢٩ آب (اغسطس)، هاجم عرب صفد المستوطنين الصهاينة في مدينتهم، بعد ان قتل احد هؤلاء المستوطنين بدوياً كان يمر بالمدينة. وتمخض الهجوم عن مقتل وجرح ٤٥ صهيونياً، ومقتل ٩ عرب واصابة ٢٦ آخرين بجروح مختلفة.

وعندما خشي الانجليز من اتساع نطاق الهبة وتحولها ضدهم، بادروا بالتدخل العسكري بقوة كبيرة، فألحقوا اضراراً جسيمة في قريتي «لفتا» و «دير

ياسين» وغيرهما. وبعد توقف الصدامات سيق مئات العرب الى سجون ومعتقلات الحكومة، واصدرت المحاكم عشرين حكماً بالاعدام بحق العرب، خفضت الى ثلاثة هم: فؤاد حجازي (من صفد) وعطا الزير ومحمد جمجوم (من الخليل)، وقضت بالسجن المؤبد على ٣٣ عربياً آخرين.

وحكمت بالاعدام على شرطي صهيوني لافنائه اسرة عربية بكاملها بسلاح الحكومة الذي في عهدته. كما اصدرت احكاماً مخففة على ٩٢ صهيونياً آخرين.

وفرضت الحكومة الغرامات المالية الجماعية على مدن وقرى الخليل وصفد وموتا وعرطوف، عقاباً لها على مهاجمة المستوطنات اليهودية والجنود الانجليز.

واتصلت حوادث العنف حتى ٣٠ آب (اغسطس)، وان استمرت بشكل متقطع حتى التاسع من أيلول (سبتمبر). مخلفة ١٣٣ قتيلاً و ٣٣٩ جريحاً من المستوطنين الصهاينة، و ١١٦ قتيلاً و ٢٣٢ جريحاً عربياً.

وعندما عاد السير جون تشانسلور المندوب السامي البريطاني الى فلسطين بعد ان قطع اجازته، اصدر بياناً، في اول ايلول (سبتمبر)، ندد فيه بالعرب، وتوعدهم بانزال اقسى العقوبات بهم. وارسلت حكومة صاحب الجلالة لجنة برلمانية للتحقيق في الاسباب المباشرة للهبة، ترأسها والتر شو، وحملت اسمه. ووصلت اللجنة الى فلسطين في ٢٣ ايلول (سبتمبر) ١٩٢٩، وانتهت من كتابة تقريرها في السادس من آذار (مارس) ١٩٣٠، وان تأخرت في نشره حتى أول نيسان (ابريل). وجاء في تقرير «لجنة شو» ان السبب

الرئيسي للاضطرابات «هو شعور العرب بالعداء والبغضاء نحو اليهود، شعور نشأ من خيبة أمانيهم السياسية والوطنية، وخوفهم على مستقبلهم الاقتصادي.. بسبب الهجرة اليهودية وشراء الأراضي ... ومن عجزهم المتواصل عن نيل أي قسط من الحكم الذاتي». وأكد تقرير اللجنة ان «المهاجرين الذين قدموا الى البلاد كانوا اكثر مما تستطيع البلاد استيعابه». وانهت «لجنة شو» تقريرها بتوصية الحكومة بالحفاظ على الاراضي العربية.

وشجعت الموضوعية الشكلية للتقرير اللجنة التنفيذية العربية، فسارعت بارسال وفد منها الى لندن، في آخر آذار (مارس) ١٩٣٠، برئاسة موسى كاظم الحسيني، وعضوية كل من أمين الحسيني والفريد روك وراغب النشاشيبي وعوني عبد الهادي وجمال الحسيني، الا أن الوفد عاد الى فلسطين خائب الرجاء، بعد سبعة أسابيع قضاها في لندن.

وفي تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٠، اصدرت الحكومة البريطانية «الكتاب الابيض» الذي اكدت فيه ان صك الانتداب «تعهد دولي لا يمكن العدول عنه»، واكد الكتاب على ضرورة ربط الهجرة الى فلسطين بمقدرة البلاد الاقتصادية، وأشار الى «ان الوقت قد حان للسير في مسألة منح فلسطين درجة من الحكم الذاتي». ووعد بتشكيل مجلس تشريعي في فلسطين كمقدمة لهذا الحكم. الا أن الحكومة البريطانية عادت وتراجعت عن هذا الكتاب، تحت الضغط الصهيوني. فنفى لورد باسفيلد، وزير المستعمرات البريطاني، في الرابع من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٠، ان تكون بريطانيا تريد ايقاف الهجرة اليهودية الى فلسطين. وأرسل رامزي ماكدونالد، رئيس وزراء بريطانيا، رسالة، في ١٣ شباط (فبراير) ١٩٣١، الى حاييم وايزمان، اكد له فيها ان «الكتاب

الابيض لا يعني منع اليهود من امتلاك اراض جديدة». وأطلق العرب على رسالة ماكدونالد هذه اسم «الكتاب الاسود».

وهكذا لم تحقق هبة البراق النتائج المرجوة منها، ولكنها كانت رغم كل شيء نهاية مرحلة وبداية اخرى، في الحركة الوطنية الفلسطينية. فمن خلال الهبة اقتنعت الجماهير العربية الفلسطينية، على الصعيد السياسي، بعقم اساليب قيادة الحركة الوطنية في الكفاح، كما تأكد لها أن الاستعمار البريطاني هو عدوها الرئيسي، اما على الصعيد الاقتصادي فكانت البرجوازية المحلية الفلسطينية قد نمت وتطورت، واخذت تشارك كبار الملاك في قيادة الحركة الوطنية، فوضعت حداً لاحتكار كبار الملاك لقيادة هذه الحركة. وكانت هذه البرجوازية الناشئة ثورية، بسبب الضغط المزدوج الصهيوني والبريطاني، الذي ناءت البرجوازية الفلسطينية تحته، وهي ثورية أيضاً بسبب رغبتها الحقيقية في انهاء الاحتلال البريطاني لفلسطين للانفراد بسوقها المحلي.

ومن جهة اخرى قطعت الطبقة العاملة العربية الفلسطينية خطوات واسعة الى الامام، وكان مؤتمرها الاول، المنعقد في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٠، تعبيراً عن هذا التقدم والتطور النقابي والسياسي، والذي كان له اثره الواضح في المراحل التالية لنضال الحركة الوطنية الفلسطينية.

هـ ـ انتفاضة تشرين الاول ١٩٣٣ :

في فترة (١٩٣٠ و ١٩٣٥)، دخل الى فلسطين نحو ١٨٠ ألف مهاجر يهودي، منهم نحو ١٥ ألفاً دخلوا البلاد فيما بين أول نيسان (ابريل) وأول

ايلول (سبتمبر) ١٩٣٣، أي غداة وصول النازي الى الحكم في المانيا في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٣.

واقترن هذا الاتساع في الهجرة باتساع عمليات طرد الفلاحين العرب من اراضيهم، وأصبح في حوزة الجماعات الصهيونية نحو مليون وربع مليون دونم من اجود اراضي فلسطين الزراعية. وطرد العمال العرب من العمل في القطاع اليهودي، بعد ان وضعت الحركة الصهيونية شعار «احتلال العمل» موضع التطبيق، وأخذت تطرد العمال العرب وتحل مكانهم مستوطنين يهود، بالقوة عند الاقتضاء.

وفي العام ١٩٣٢، رفعت حكومة الانتداب نسبة ضريبة الأملاك من ٩٪ إلى ١٥٪، مما تسبب في نقمة كبار الملاك العرب العقاريين والزراعيين. وأخذ رأس المال الأجنبي برقاب البرجوازية العربية الفلسطينية، مما أضعف نفوذها الاقتصادي، وأطال أمد المرحلة التجارية في حياتها.

واتسمت البرجوازية العربية في فلسطين بالثورية، أثناء المرحلة الثانية من الحركة الوطنية (١٩٣٠ ـ ١٩٣٩)؛ لكونها ناشئة اولاً، وضعيفة الصلة بالسوق الاستعمارية ثانياً، ولانها تجارية تتلهف على امتلاك سوقها المحلية ثالثاً، وأخيراً بسبب وقوعها تحت الضغط المزدوج الاستعماري والصهيوني.

وسارت حركة المثقفين في طريق التأطير، فتشكلت الأحزاب العربية الفلسطينية في النصف الاول من الثلاثينيات (الاستقلال، مؤتمر الشباب، الكتلة الوطنية، الاصلاح، العربي، الدفاع)، وعقد المؤتمر النسائي العربي الفلسطيني الاول (تشرين الاول ١٩٢٩)، وكان الطلاب قد عقدوا مؤتمرهم الاول في

ايلول (سبتمبر) ١٩٢٩. وكانت هذه الاحزاب والمؤتمرات التعبير السياسي لتطور البرجوازية العربية الفلسطينية ونموها، في حين كانت البنوك العربية التي انشئت في فلسطين التعبير الاقتصادي عن هذا التطور والنمو (البنك العربي ١٩٣٠ والبنكان الزراعي والصناعي ١٩٣٥).

أما العمال العرب فقد تضاعف عدد العاطلين منهم، من جراء عوامل ثلاثة: الهجرة اليهودية الواسعة الى فلسطين، وما تسببه من بطالة في صفوف العمال العرب، والازمة الاقتصادية العالمية (١٩٢٩ ــ ١٩٣٢)، وضعف الانتاج الصناعي العربي في فلسطين. حتى بلغ مجمل العاطلين من العرب واليهود في العام ١٩٣٠، اكثر من ثلاثين ألف عامل، منهم نحو اثني عشر ألف عامل عربي، وانخفضت اجور العاملين الى ٥٠٪. وفي نهاية العام ١٩٣٥، ارتفع عدد العاطلين الى ثلاثة وعشرين ألف عامل عربي. وأدت هذه الأوضاع الى تعاظم الحركة العمالية العربية في فلسطين، فنظم في فترة (١٩٣٠ ــ ١٩٣٥)، ستة واربعون اضراباً عمالياً، شارك فيها نحو اربعة آلاف عامل عربي. ورداً على الحاميات الصهيونية التي دأبت على طرد العمال العرب من المشاريع اليهودية، ألف العمال العرب في كل من القدس ويافا وحيفا (١٩٣٤)، حاميات عربية لطرد العمال اليهود من المشاريع في المناطق العربية.

ولم يكن بدو فلسطين أحسن حالاً. اذ بلغ انتاج الدونم الواحد في اراضي قضاء بئر السبع، الذي يعيش فيه أغلب البدو، نحو ٣٤ جنيهاً، في حين بلغت مصاريفه نحو ٢٣ جنيهاً. وكانت كل عائلة بدوية تخسر نحو ثلاثة جنيهات في العام على كل رأس من الاغنام التي تربيها.

وكان للعامل الديني أثر غير بسيط في تحريك واثارة مشاعر المسلمين ضد المحتلين «الكفرة» وعملائهم الصهيونيين، بالاضافة إلى التأثير الايجابي للحركات الثورية في البلدان العربية المجاورة على الحركة الوطنية الفلسطينية. ومن هنا، كان طبيعياً أن تنجذب طبقات الشعب العربي الفلسطيني الى خضم الكفاح الوطني ضد الاستعمار والصهيونية.

وفي الثاني والعشرين من آذار (مارس) ١٩٣٣، أذاع موسى كاظم الحسيني - رئيس اللجنة التنفيذية العربية ــ بياناً، أعرب فيه عن خيبة أمله في حكومة الانتداب، واعتبرها «الخصم الحقيقي». واستجابة لهذا النداء، انعقد في يافا في ٢٦ آذار، اجتماع واسع ضم نحو ستمائة شخصية وطنية، وانتهى الاجتماع الصاخب الى اعتبار حكومة الانتداب مسؤولة عما يجري في فلسطين، من هجرة يهودية وبيع أراضي، وقرر الاجتماع: مقاطعة حفلات ولجان الحكومة، ومقاطعة البضائع الانجليزية واليهودية، والامتناع عن دفع الضرائب. واصبح واضحاً ان البلاد مهيأة للثورة. وتحت ضغط الجماهير، أقرت اللجنة التنفيذية العربية، في اجتماع، عقدته بالقدس في ١٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٣، تنظيم مظاهرات في مدن فلسطين على التوالي، يوماً بعد آخر.

بدأت القدس مظاهرتها يوم ١٣ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٣، وضمت نحو خمسة آلاف شخص، تشاركهم نحو خمسين امرأة. وتصدت الشرطة للمتظاهرين، فسقط ٣٥ جريحاً من المتظاهرين وخمسة آخرون من رجال الشرطة. وأجلت اللجنة التنفيذية مظاهرة يافا إلى يوم ٢٧ من الشهر نفسه، بدلاً من الرابع عشر، حتى تهدأ النفوس، ولئلا تفلت الامور من أيدي قيادة

الحركة الوطنية. وفي الموعد المضروب خرجت مظاهرة يافا، تضم نحو أربعة آلاف شخص، يتقدمهم موسى كاظم الحسيني. الا أن رجال الشرطة وحرس الحدود (حوالي ١٠٠٠ رجل) اصطدموا بالمتظاهرين، وفتحوا عليهم النيران. وانتهى الصدام بمقتل ١٢ عربياً وشرطي واحد، وإصابة ٧٨ عربياً و ١٢ شرطياً بجروح مختلفة، واعتقال عشرات المتظاهرين. وسرعان ما انتقلت الشرارة الى حيفا، حيث هاجم نحو ألفي متظاهر عربي محطة السكة الحديدية ومركز الشرطة فيها، واقتحموها. وفي نابلس، هاجم حوالي ثلاثة آلاف متظاهر محطة السكة الحديدية وفرع بنك باركليز في المدينة، وأعلن طلبة نابلس الاضراب، فذهب نائب مدير المعارف (فول) بنفسه ليقوم بجلد زعماء طلبة المدرسة الاصلاحية بنابلس. ووقعت صدامات دامية في القدس، يومي ٢٨ و ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر)، واطلق الثائرون العرب النار خلال الليل في اتجاه مركز شرطة القدس ومنزل راغب النشاشيبي (رئيس بلدية القدس في ذلك الحين). ووقعت في مدن أخرى أيضاً: صفد، الناصرة، طولكرم صدامات بين رجال الشرطة والمتظاهرين العرب، وفي جنين أضرمت الجماهير العربية الثائرة النار في مبنى الحكومة، واستولت على أسلحة رجال الشرطة. ونسف الثائرون في طولكرم خط السكة الحديدية المار ببلدتهم.

ولما عجزت محاولات التهدئة التي قام بها قادة الحركة الوطنية منذ بداية الانتفاضة، لجأت حكومة الانتداب الى طائراتها الحربية في استعراض للقوة، تقمع بها الانتفاضة الشعبية. الا ان الانتفاضة ازدادت اشتعالاً، وفي عدة اماكن من البلاد تم قطع خطوط الهاتف والتلغراف. وتوقف السفر بين المراكز الرئيسية في البلاد. وانقطع اتصال فلسطين بكل من سورية ومصر. وفي الثاني

من تشرين الثاني (نوفمبر) عزلت القدس عن العالم الخارجي. وفرضت حكومة الانتداب رقابتها على الصحف العربية في فلسطين، مما دفع هذه الصحف الى الاحتجاب، احتجاجاً على فرض هذه الرقابة، فأصدرت الحكومة صحيفة باللغة العربية لمدة عدة أيام، ولكن الجماهير العربية كانت تمزقها، أينما وجدت نسخاً منها، الأمر الذي جعل الانجليز يوقفون إصدار هذه الصحيفة.

واستقطبت الانتفاضة تأييداً شعبياً في العديد من البلدان العربية. فشاركت وفود من سورية وشرقي الاردن في مظاهرة يافا، وفي دمشق اشتبك المتظاهرون مع الشرطة الفرنسية، حيث سقط العديد من القتلى والجرحى السوريين. وهتفت مظاهرات الموصل وبغداد بسقوط الاستعمار والصهيونية. وعمت عمان مظاهرات شعبية لاربعة أيام متوالية، هاجم فيها المتظاهرون الجنرال البريطاني، جون باجوت غلوب، قائد الفيلق العربي ورجموه بالحجارة وحطموا سيارته. كما رجموا بالحجارة المعتمد البريطاني، الكابتن كوكس، وطالبوا الامير عبد الله (امير شرقي الاردن آنذاك) بضرورة مؤازرة انتفاضة الشعب الفلسطيني. ومن شرقي الاردن دخل إلى فلسطين نحو ألفي بدوي مسلح لمساندة الانتفاضة الفلسطينية. وعقد العديد من المؤتمرات الشعبية الحاشدة في كل من مصر وتونس والحبشة والهند، لمؤازرة الانتفاضة الفلسطينية.

وانتهت الانتفاضة، بعد ستة اسابيع من انفجارها، بمقتل ٢٦ عربياً وشرطي واحد، واصابة ١٨٧ عربياً، و٥٦ شرطياً بجروح مختلفة. وتميزت هذه الانتفاضة، عن سابقاتها، بالاتساع والعمق، وتوجيه العداء الى الاستعمار البريطاني.



جون باجوت "جلبوب باشا" القائد البريطاني الذي شغل قيادة الجيش الأردني في فترة الاحتلال الإسرائيلي خاصة في فلسطين وكان عاملاً من عوامل تسليم الديار الفلسطينية لليهود

و ـ حركة عزالدين القسام ١٩٣٥ :

تنسب هذه الحركة الى قائدها ومنظمها، الشيخ عزالدين القسام، المولود في جبلة بجبل العلويين في سوريا، (١٨٨٢)، والذي لجأ الى فلسطين في العام ١٩٢١ بعد أن انتكست الانتفاضة الشعبية السورية، المعروفة بثورة الشيخ صالح العلي، في السنة نفسها. وأصدرت السلطات الفرنسية حكماً ضد القسام بالاعدام، لاشتراكه في قيادة الثورة المذكورة. واختار القسام مدينة حيفا الفلسطينية مقراً له.

وفي أواسط العشرينات، أخذ القسام في بناء نواة تنظيمه السري. واتخذ

من شمال فلسطين مسرحاً لنشاطه السياسي والتنظيمي، مستفيداً من تواجده في اكثر من تجمع جماهيري في هذه المنطقة: فهو مدرس بالمدرسة الاسلامية في حيفا، ورئيس فرع جمعية الشبان المسلمين بالمدينة، وإمام وخطيب مسجد الاستقلال الحيفاوي، ومأذون قرى شمال فلسطين. واتسع تنظيم القسام السري مع تزايد السخط الشعبي، وانبثقت عن قيادة التنظيم خمس لجان قيادية: للدعاية والتعبئة، وللتدريب العسكري، ولتأمين الاسلحة وتخزينها، وللمخابرات، وللاتصالات الخارجية. وقسم التنظيم الى خلايا سرية، ضمت كل منها خمسة أعضاء كحد أعلى، وقاد كل خلية نقيب. وكان الاعضاء يدفعون اشتراكاً مالياً، يصل إلى حوالي عُشْر الدخل الشهري.

وبحلول العام ١٩٣٥، شعر القسام باقتراب نضوج الازمة الثورية، فالقيادة التقليدية للحركة الوطنية الفلسطينية منقسمة على نفسها، وعاجزة عن التصدي لأي عمل إيجابي، وامرها مفضوح لدى قطاعات واسعة من الشعب الفلسطيني، وهي القطاعات التي سئمت الاساليب السلبية في الكفاح، وتطلعت لخوض الكفاح المسلح. وعلى المستوى الذاتي كان تنظيم القسام قد اتسع واكتمل تسليحه. وفي النصف الاول من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٥، خرج القسام مع ٢٤ من رفاقه الى قضاء جنين، للحض السري على الثورة وتدريب الفلاحين على السلاح، وتشكيل «البؤرة الثورية»، وهي الصيغة التي اعتمدها أرنستو جيفارا في بوليفيا بأمريكا اللاتينية، بعد حركة القسام بأكثر من ثلاثين عاماً.

وأتى اختيار القسام لقضاء جنين دون غيره، لوقوع هذا القضاء وسط جبال الجليل الوعرة، ذات المواصلات الصعبة، التي تعيق تحرك قوات الاحتلال البريطاني، ان هي اكتشفت امر القسام ورأت ان تتعقبه. وبذا يكون القسام قد

لجأ الى المدينة ليقيم فيها تنظيمه، حيث السكان الأكثر تعليماً، والأشد كثافة واستعداداً للتنظيم منهم في الريف، وحيث القبلية والطائفية والإقليمية شبه محطمة، وحيث الصراع السياسي أكثر وضوحاً واحتداماً. وبمجرد عزمه على اشعال الثورة، لجأ القسام الى الريف الجبلي، حيث تضعف فيه قبضة السلطة الاستعمارية، ويتوفر حد معقول من الأمان للطلائع والعصابات المسلحة.

وانتشر رفاق القسام في دوريات تجوب قضاء جنين. حيث قتل أحدهم شرطياً صهيونياً، مما أدى الى اكتشاف مواقع القسامين، وضياع عنصر المفاجأة من يد الثوار، ونقل المبادرة الى قوات الاحتلال البريطاني. وفي صباح اليوم التالي، ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٥، وقع اشتباك بين القساميين والشرطة التي خرجت لمطاردتهم، قرب قرية البارد، سقط فيها الشيخ محمد الحلحولي شهيداً، كما قتل اثنان من رجال الشرطة. عندها اجتمع المندوب السامي البريطاني بكبار القادة العسكريين البريطانيين في فلسطين، لمواجهة الموقف، والحيلولة دون انتشار شرارة الثورة الى بقية ارجاء فلسطين. وفي مساء ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر)، تحركت حملة عسكرية بريطانية، تقدر بحوالي خمسمائة جندي، وطوقت المنطقة التي سبق ووقع فيها اشتباكا ١٤ و ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر).

وضيقت الحملة الخناق على القسام ورفاقه، المختفين في أحراش يعبد. واستدرجتهم الى قعر أحد الوديان، حيث دار بين الطرفين اشتباك غير متكافىء، قرب قرية الشيخ زيد، واستمرت المعركة من الفجر الى حوالي الساعة التاسعة من صباح التاسع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٥، واسفرت عن استشهاد القسام واثنين من رفاقه، هما: الشيخ يوسف الزيباوي والشيخ محمد

حنفي احمد (مصري))، وإصابة كل من الشيخ نمر السعدي والشيخ اسعد المفلح والشيخ حسن الباير بجروح مختلفة. وتمكن الجريح الاول من الافلات، في حين أسر زميلاه مع معظم من بقي حياً من رفاقهم، وهم: الشيخ احمد عبد الرحمن جابر، والشيخ محمد يوسف، وعربي البدوي.

ان حركة القسام، بتوجهها ضد العدو الرئيسي: الاستعمار البريطاني، خلت من الملامح التساومية المتخلفة لبعض الاتجاهات الفلسطينية في تلك الحقبة، تلك التي كانت تخلط بين الصهيونية واليهودية، وتتجاهل العدو الرئيسي (الاستعمار البريطاني)، بل تحتكم اليه في صراعها مع المستوطنين اليهود في فلسطين. ولم تكن تلك السمة المميزة الوحيدة لحركة القسام، فقد تضمنت العديد من الايجابيات والدلالات الهامة، يمكن حصر أبرزها فيما يلي:

أ ـ كانت حركة القسام المبادرة الأولى، في ظل الانتداب البريطاني، لخوض الكفاح المسلح بشكل منظم، كما كانت المرة الأولى التي يتم فيها تحرك ثوري بمعزل عن القيادة التقليدية للحركة الوطنية الفلسطينية.

ب ـ بالرغم من أن الحركة لم تحقق الاهداف التي قامت من أجلها، الا انها حفزت الجماهير العربية الفلسطينية لمضاعفة النضال، وأبانت لها السبيل؛ واضاءت أمامها طريق حريتها، وأوضحت لها امكانية الكفاح المسلح، وضرورته، في مواجهة القهر الاستعماري ـ الصهيوني.

جـ ـ كشفت الحركة ضعف وتردد قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية التقليدية.

د ـ فتحت حركة القسام أمام الجماهير العربية الفلسطينية الباب لانتزاع زمام

المبادرة من القادة التقليديين للحركة الوطنية الفلسطينية، فجاءت ثورة ١٩٣٦ بمبادرة شعبية خالصة، وبمعزل عن القيادة التقليدية للحركة الوطنية، وان افلحت هذه القيادة في تطويق واحتواء الثورة بعد ايام قليلة من اندلاعها.

هـ - اشعل القسام حركته، في الوقت الذي كانت فيه الجماهير العربية الفلسطينية لا تزال ملتفة حول القيادات التقليدية للحركة الوطنية، بشكل عام، ولم تأخذ هذه الحركة فرصتها الزمنية لتجميع الجماهير حول شعاراتها، فكان أن أصابت ضربة القوات البريطانية قلب التنظيم القسامي، فتوقف عن العمل.

و - فرضت الاعتبارات الأمنية على القسام، وقف تنظيمه على النخبة (البؤرة الثورية)، مما أدى الى ضيق حجم التنظيم.

ز - أما الخطأ العسكري الرئيسي الذي وقع فيه القسام، فكان حصره لنشاطه السياسي والتنظيمي في منطقة واحدة، هي شمال فلسطين، وفي بدئه حركته المسلحة في قضاء جنين وحده مما سهل مهمة القوات البريطانية في القضاء على الحركة، وهي بعد في المهد، ومنع وصول شرارتها الى بقية ارجاء فلسطين.

على أن حركة القسام كانت المقدمة والبداية الحقيقية لثورة ١٩٣٦. ولم تكن الأشهر الخمسة التي فصلت بين حركة القسام وبداية ثورة ١٩٣٦ الا الفرصة اتي تمكن فيها رفاق القسام من التقاط أنفاسهم ولم شتاتهم. ونجح التنظيم القسامي هذه المرة في تفجير الثورة.

ز - ثــورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ :

هي الثورة التي خاضها الشعب الفلسطيني ضد قوات الاحتلال البريطـاني والحركة الصهيونية في فلسطين، وامتدت من نيسان (ابريل) ١٩٣٦ الى اواخـر العام ١٩٣٩.

شهدت بداية العام ١٩٣٦ توتـراً في فلسـطين وصـل حـد الأزمـة. فقـد أشاد المؤتمر الصهيوني، المنعقـد في لـوزان بصيـف العـام ١٩٣٥، بـالدور الـذي تلعبه بريطانيا في فلسطين لصالح الصهيونية. وكان المؤتمر محقاً في هـذه الإشـادة؛ ففي آذار (مارس) ١٩٣٦، رفض مجلس العموم البريطاني الموافقة على الحد مـن حجم الهجرة اليهودية الى فلسطين، كما رفض منح فلسطين حق تشكيل مجلـس تشـريعي خـاص بهـا. وفي أواسـط الشـهر نفسـه، أخـذ المسـتوطنون اليهــود في الاعتداء على العرب المجاورين لتل أبيب والمستوطنات اليهودية الكبيرة.

ومـع اتسـاع الهجـرة اليهوديـة الى فلسـطين ازداد حجــم مــا في حــوزة المستوطنين اليهود مـن أراضـي الى ١٣٢٢٠٠٠ دونم في العـام ١٩٣٦، مقـابل ٥٤٤٠٠ دونم كانوا يمتلكونها في العام ١٩٢٥. وأثار مبــدأ «العمـل العـبري» ومبدأ «احتلال العمل» العمال العرب الفلسطينيين، لأنهمـا أقفـلا بـاب العمـل بالنسبة لهؤلاء العمال في المشاريع اليهودية والمشاريع الحكومية المنفذة في المنـاطق اليهودية. وكانت أحوال العمال العرب في العام ١٩٣٦ جد مترديـة، فمتوسـط الدخل الشهري لـ ٥٧٪ من عمال يافا كان أقل من ثلاثـة جنيهـات فلسـطينية، ودخل ٢٤٪ أقل من أربعة جنيهات وربع، ودخل ١٢٪ أقل من ستة جنيهـات، ودخل ٤٪ أقل من عشرة جنيهات، ودخل ١,٥٪ أقل من ١٢ جنيهـاً، ودخـل

٠,٥ نحو ١٥ جنيهاً. في الوقت الذي كان متوسط الاحتياجات الشهرية للعائلة الواحدة، آنذاك، حوالي ١١ جنيهاً. وبلغ عدد العاطلين عن العمل في يافا (ذات الواحد وسبعين ألف نسمة)، في أواخر العام ١٩٣٥، نحو ٢٢٧٠ عاملاً وعاملة عربية، وارتفع هذا العدد بعد نشوب ثورة ١٩٣٦ الى أربعة آلاف. واثبتت «لجنة الأجور» أن أجور العمال العرب الفلسطينيين الحقيقية انخفضت بمقدار ٢٥٪. ما بين عامي ١٩٣٤ و ١٩٣٩، في حين لم تنخفض أجور العمال اليهود الحقيقية سوى ١٦٪، وأقر المجلس الزراعي العام، في العام ١٩٣٦، أن أجر العامل الزراعي اليهودي السنوي للدونم الواحد هو ١٢جنيهاً فلسطينياً، مقابل ٨ جنيهات لقرينه العربي عن المساحة نفسها.

وأدت الحماية الجمركية التي أحاطت بها حكومة الانتداب البريطاني صناعات المستوطنين اليهود إلى انتعاش هذه الصناعات على حساب الصناعة العربية، التي افتقرت الى مثل هذه الحماية، والتي وضعت حكومة الانتداب في طريقها العراقيل والعقبات المختلفة. فتدهورت الصناعة العربية الفلسطينية، وهبطت قيمة صادرات صناعة الأصواف العربية من ١١٣٢٠ جنيهاً في العام ١٩٣٠، الى ٣٧٧٧ جنيهاً في العام ١٩٣٥، وتناقصت معامل صناعة الصابون في يافا وحدها، في العام ١٩٣٦، الى اربعة، بعد أن كانت ١٢ معملاً في العام ١٩٢٩.

وانخفضت صادرات الصابون العربي الفلسطيني في العام ١٩٣٤ الى ما قيمته ٧١٥٣٢ جنيهاً، مقابل ما قيمته ١٠٦٢٥٩ جنيهاً في العام ١٩٣٠. والخلاصة ان الصناعة العربية الفلسطينية تجمدت وتدهورت في معظمها.

وبالاضافة الى كل هذه العوامل، كان ثمة عوامل خارجية عززت النضال

العربي الفلسطيني وحفزته، وزادت من حيويته. ففي المجال العربي تأجج النضال الوطني التحرري في مصر وسورية في عامي ١٩٣٥ و ١٩٣٦. وعلى المستوى الدولي، أدى وصول النازي الى الحكم في ألمانيا، في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٣، الى زيادة حجم الهجرة اليهودية الى فلسطين، تحت ضغط القهر النازي لليهود الالمان. وزاد احتلال ايطاليا الفاشية للحبشة من أزمة العمل في فلسطين، نتيجة هجر معظم السفن لطريقها المار بالحبشة، والتي كان لا بد لبعضها من المرور بفلسطين بعد أو قبل مرورها بقناة السويس. كما زاد الاحتلال الايطالي للحبشة من أهمية فلسطين الاستراتيجية في نظر الانجليز، مما جعلهم يزدادون تشبثاً بها، وشراسة في قمع الحركة الوطنية فيها.

ولهذا كله، كانت الأوضاع في فلسطين، في مطلع العام ١٩٣٦ مؤهلة لاندلاع الثورة.

وفي مساء الأربعاء، ١٥ نيسان (ابريل) ١٩٣٦، اعترض بعض المسلحين العرب الفلسطينيين، من بقايا القساميين، مجموعة من عشر سيارات، كانت تسير على طريق نابلس ـ طولكرم، وأطلقوا النار على ثلاثة من المستوطنين اليهود كانوا ضمن المسافرين في قافلة السيارات، فقتل اثنان وجرح الثالث. ورد المستوطنون اليهود على هذه الحادثة بقتل عربيين في بتاح تكفا في اليوم التالي. وفي صباح اليوم التالي شيعت جنازة أحد القتلى اليهود في تل أبيب في مظاهرة صاخبة، حاولت التوجه الى مدينة يافا، فاصطدمت بالشرطة البريطانية، وسقط أربعة من المتظاهرين اليهود قتلى برصاص الشرطة. وتوالت تعديات المستوطنين اليهود على العرب في مناطق متفرقة من فلسطين. مما فجر مظاهرة واسعة في يافا صباح الأحد، التاسع عشر من نيسان (ابريل)، اصطدمت بيهود

تل أبيب، وانتهت بمقتل تسعة من اليهود وعربيين، وإصابة ٤٠ يهودياً وعشرة من العرب بجروح مختلفة. وفي نابلس وطولكرم نظمت مظاهرات محدودة نسبياً. وفي اليوم نفسه، أعلن آرثر واكهوبن المندوب السامي البريطاني، وضع فلسطين تحت قانون الطوارىء، وأجاز حاكم تل أبيب البريطاني لسكان المدينة بتشكيل حامية يهودية كبيرة، وأذن لهم باستخدام أسلحة الحكومة.

وما كان لمثل هذا الحادث البسيط ان يفجر ثورة لولا نضوج الوضع الثوري في البلاد، فما حادث الخامس عشر من نيسان (ابريل) الا الشرارة التي اشعلت النار في الهشيم القابل للاشتعال. فقد استمرت اسباب الحركات الثورية السابقة في الاتساع. من هجرة يهودية، وما رافقها من طرد للفلاحين العرب من أراضيهم، وبطالة للعمال العرب، ومنافسة غير متكافئة مع الصناعة العربية الخ.

وفيما بين ١٩ و ٢١ نيسان (ابريل)، تشكلت في معظم مدن فلسطين «لجان قومية» لتنظيم مواجهة العنف البريطاني والصهيوني. وقررت لجنة يافا القومية، في ١٩ نيسان (ابريل)، اعلان الاضراب في مدينتها، وسرعان ما انتشر الاضراب في كل فلسطين، وعمها الاضراب العام الذي استمر بعد ذلك حتى ١٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٦.

وفي ٢٥ نيسان (ابريل) التقت قيادات الاحزاب العربية الفلسطينية الستة (الاستقلال، العربي، الشباب، الاصلاح، الكتلة الوطنية، الدفاع) وقررت الائتلاف برئاسة الحاج امين الحسيني في جبهة واحدة، عرفت باسم «اللجنة العربية العليا». وتشكل في معظم المدن العربية الفلسطينية «الحرس الوطني» لتنظيم الاضراب وحراسته. وفي الثامن من أيار (مايو)، انعقد في القدس «المؤتمر

العام للجان القومية»، الذي قرر اعلان العصيان العام ابتداء من السادس عشر من الشهر نفسه.

وفي ٨ أيار (مايو) أعلنت حكومة الانتداب عن وقوع هجوم على سيارة يهودية، على طريق الرملة ـ يافا، واشعال النار في مصنع للاكياس الريفية في حيفا. وبلغ عدد القنابل التي القيت على الجنود البريطانيين في نابلس وحدها، خلال يوم ٣ أيار (مايو) ١٩٣٦، ١٥ قنبلة. وفي الحادي عشر من أيار (مايو) القى الثائرون العرب عدة قنابل على دوائر الحكومة، وفي اليوم التالي ألقوا قنبلة قرب المركز العام للشرطة في القدس.

وردت الحكومة بشن حملة اعتقالات واسعة ضد العناصر الوطنية النشطة. ففي ١٢ أيار (مايو) كان عدد المعتقلين العرب اكثر من ٦٦٠ معتقلاً. وفي الثالث والعشرين من أيار (مايو). ألقت السلطات البريطانية القبض على ٦١ عربياً من المشرفين على تنظيم الاضراب. فانفجرت المظاهرات العربية في فلسطين، وتحولت الى صدامات دامية مع القوات البريطانية. وفي ٣١ أيار (مايو)، اجتمع رؤساء البلديات العرب، حيث وافق نصفهم على اشتراك موظفي بلدياتهم في الاضراب العام.

واتسعت الاعمال الثورية، فأطلق الثوار العرب النار على المندوب السامي البريطاني في الحادي عشر من حزيران (يونيو) ١٩٣٦، وحاولوا اغتيال سيكرست، مفتش شرطة القدس البريطاني. وخاض الثوار اشتباكات متعددة ضد القوات البريطانية، كما قاموا بشن عدة هجمات على المستوطنات والسيارات اليهودية. وفي شهر تموز (يوليو) وحده، فقد البريطانيون والصهيونيون ٢٨ قتيلاً وجريحاً.

وفي آب (اغسطس) ١٩٣٦، دخل فوزي القاوقجي البلاد على رأس نحو ٥٠٠ مجاهد عراقي. وقطعت الثورة خطوات غير قليلة في طريق التنظيم، فشكلت فصائلها المسلحة في الريف والجبال. واضطرت حكومة الانتداب الى تعزيز قواتها المسلحة، فزادتها الى اكثر من عشرين ألف جندي، بالاضافة الى خمسة آلاف شرطي، ونحو ١٥ ألف مقاتل صهيوني مسلح. ولقد لعبت «قوة حدود شرقي الاردن» (الجيش الاردني فيما بعد)، دوراً هاماً في منع تسلل الثوار العرب عبر الحدود الاردنية ـ الفلسطينية، وحماية مشروع روتنبرغ ومشاريع صهيونية اخرى من هجمات الثوار العرب.

وفي وقت لاحق، نظم ضابط المخابرات البريطاني، ادوارد تشارلز وينغت، مجموعات من العناصر الصهيونية، وكون منها «الفرق الطائرة»، لحماية المنشآت البريطانية، وبشكل خاص خط أنبوب بترول شركة النفط العراقية I.P.C. وتحركت النظم العربية لتهدئة الثورة.

وحضر نوري السعيد (وزير خارجية العراق آنذاك) الى فلسطين في السادس والعشرين من آب (اغسطس) ١٩٣٦، واتفق مع اللجنة العربية العليا على وقف الاضراب وتصفية الثورة، مقابل منع الهجرة اليهودية مؤقتاً، والعفو العام عن الثوار. الا ان الحكومة البريطانية تخلت عن نوري السعيد، ورفضت وساطته، ونفت انها اوكلت اليه مهمة ايجاد تسوية للثورة الفلسطينية.

ومع تطور الثورة ونموها، طلب المندوب السامي البريطاني الى الامير عبد الله (امير شرقي الاردن)، والملك عبد العزيز بن سعود (ملك العربية السعودية) التدخل لانهاء الثورة، على أن ينهي الفلسطينيون ثورتهم دون قيد أو شرط،



القائد الكبير فوزي القاوقجي

ودون وعد بريطاني بتحقيق مطالب الثوار في وقف الهجرة اليهودية الى فلسطين، ومنع بيع الاراضي، وإلغاء الانتداب على فلسطين. وسارع كل من عبد الله وابن سعود، بعد ان اشركا معهما الملك غازي بن فيصل (ملك العراق) والامام يحي حميد الدين (إمام اليمن) سارعوا جميعاً الى اصدار بيان، في التاسع من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٦ ، (رفض مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر، التوقيع عليه) ناشدوا فيه عرب فلسطين «الإخلاد الى السكينة، حقناً للدماء، معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية ورغبتها المعلنة في تحقيق العدل». وكان الزعماء الفلسطينيون: الحاج أمين الحسيني وراغب النشاشيبي وعوني عبد الهادي، قد أعربوا للمندوب السامي، عندما اجتمع بكل منهم على حدة في العاشر من ايلول (سبتمبر) ١٩٣٦، عن استعدادهم لوقف الاضراب اذا طلب الملوك العرب اليهم ذلك. لذا سرعان ما استجابت «اللجنة العربية العليا» لنداء الملوك والامراء العرب، ودعت الشعب العربي الفلسطيني، في بيان أصدرته في الحادي عشر من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٦، الى انهاء الاضراب.

وبذا انتهت المرحلة الاولى من الثورة، مخلفة وراءها ـ حسب الاحصاءات الرسمية البريطانية ـ ١٩٧ قتيلاً عربياً، وثمانين قتيلاً يهودياً، وسبعة قتلى من رجال الشرطة البريطانيين، وثمانية قتلى من رجال الشرطة العرب، وقتيلاً واحداً من الشرطة اليهودية، اما الجيش البريطاني فخسر ١١ جندياً من قواته. في حين جرح ٨٢٣ عربياً، و ٣٠٨ يهود، و ٤٠ شرطياً بريطانياً، و ٥٤ شرطياً عربياً، وثمانية من رجال الشرطة اليهود، و١٠٤ جنود بريطانيون. ومن المعتقد، ان الارقام المعلنة للقتلى والجرحى العرب، هي أقل من العدد الحقيقي للقتلى

والجرحى، اذ كان الثوار العرب يخفون قتلاهم وجرحاهم عن أعين سلطات الانتداب، مما جعل «لجنة بيل» تقدر عدد القتلى العرب ـ في المرحلة الاولى من الثورة ـ بألف قتيل. وبلغ مجموع من ألقت سلطات الانتداب القبض عليهم، حتى ٢٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٦، ٢٦٤٣ عربياً، بينهم ١٦٤٦ صدرت بحقهم أحكام مختلفة، في حين برأن ساحة ٧١٠ منهم، كما أدين ٢٧١ يهودياً. ونسفت سلطات الانتداب نحو ٢٢٠ من منازل العرب، فشردت بذلك نحو ستة آلاف شخص. وفي حزيران (يونيو) ١٩٣٦، تم هدم جزء كبير من الحي القديم في يافا، بحجة تجميل المدينة. وان كان السبب الحقيقي وراء ذلك الهدم هو توسيع طرق الحي، لتسهيل مرور وتنقل الدوريات البريطانية لملاحقة الثوار فيه. كما نسفت السلطات البريطانية مائة تخشيبة في حي الجبالية، و ٣٠٠ تخشيبة في حي أبو كبير، و ٣٥٠ في الشيخ مراد، و ٧٥ عرب الداودي (وكلها أحياء بمدينة يافا) بالاضافة الى ١٤٣ بيتاً في القرى الفلسطينية المختلفة.

وفي المرحلة الأولى من الثورة، والتي انتهت في الثاني عشر من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٦، نسف الثوار العرب ٤٨ جسراً، وقطعوا اسلاكاً كهربائية وهاتفية ٣٠٠ مرة، وعطلوا القطارات ٢٢ مرة، ونسفوا خطوط السكة الحديدية ١٣٠ مرة.

ولم تدلل حكومة الانتداب على حسن نواياها، كما اشار الملوك والامراء العرب في بيانهم، بل اقدمت على العكس، على منح الحركة الصهيونية ١٨٠٠ شهادة لمهاجرين يهود جدد، كما نفذت احكاماً بالاعدام ضد عدد من الشبان العرب، وذلك غداة وقف الثورة مباشرة. وحاولت اللجنة العربية العليا مقاطعة «لجنة بيل»، التي اوفدتها الحكومة البريطانية الى فلسطين، لتقصي الحقائق حول

اسباب الثورة، الا ان الملوك والامراء العرب عادوا ومارسوا ضغطهم على «اللجنة العربية العليا» للمثول امام اللجنة المذكورة. ووصلت «لجنة بيل» الى فلسطين، والتقت بالعديد من الزعماء العرب واليهود فيها، واستمعت الى شهاداتهم، ثم اصدرت تقريرها في السابع من تموز (يوليو) ١٩٣٧، وفيه اقترحت تقسيم فلسطين بين العرب واليهود، مع ابقاء قسم من البلاد في أيدي الانجليز.

ومن الجدير بالذكر أن القساميين لم يمتثلوا لأمر اللجنة العربية العليا بوقف الثورة، فقتلوا في العشرين من نيسان (ابريل) ١٩٣٧ ـ حليم بسطا، مساعد مدير البوليس بحيفا.

وقبل نشر تقرير «لجنة بيل» بثلاثة أيام، انسحب «حزب الدفاع» من «اللجنة العربية العليا». وفور نشر التقرير المذكور، تجددت الاعمال الثورية في البلاد. وفي ٢٣ آب (اغسطس) قتل القساميون حاكم لواء جنين البريطاني موفات، وفي ٢٦ أيلول (سبتمبر) قتلوا مستر اندروز، حاكم لواء الجليل.

وفي السابع عشر من تموز (يوليو) ١٩٣٧، اختفى الحاج امين الحسيني في الحرم الشريف، بعد أن فشلت حكومة الانتداب في اعتقاله. وفي اول تشرين الاول (اكتوبر)، أمرت حكومة الانتداب بحل «اللجنة العربية العليا»، وأعتقلت اغلب اعضائها، ونفتهم الى سيسل وروديسيا، في حين تمكن كل من عوني عبد الهادي (رئيس حزب الاستقلال) وجمال الحسيني (رئيس الحزب العربي) من الافلات. كما حلت الحكومة اللجان القومية واعتقلت معظم اعضائها، وعزلت الحاج امين الحسيني من كافة مناصبه (المفتي، رئيس المجلس الاعلى، مدير الاوقاف)، ولجأ المفتي سراً الى لبنان، في الرابع عشر من تشرين الاول (اكتوبر)

١٩٣٧. وعززت الحكومة قواتها المسلحة، حتى بلغت نحو ٤٠ ألف جندي بريطاني، بالاضافة إلى عشرين ألف شرطي، و١٨ ألفاً من الصهاينة المسلحين، وتم تعيين الجنرال ويفل قائداً عاماً للقوات البريطانية في فلسطين في أيلول (سبتمبر) ١٩٣٧. وفي ١٨ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٧، فرضت حكومة الانتداب الحكم العسكري على البلاد، وأجازت لمحاكمها العسكرية إصدار حكم الاعدام ضد كل عربي يحمل ولو طلقة واحدة.

وأعلنت حكومة الانتداب انه قتل، في العام ١٩٣٧ وحده، مائة جندي ورجل إداري من البريطانيين.

وعبثاً، اعلنت الحكومة ـ في اوائل تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٨ ـ سحب مشروع التقسيم.

وبعد ضرب اللجنة العربية، تكونت في دمشق «اللجنة المركزية للجهاد» من قادة عسكريين وسياسيين فلسطينيين. ونجح الثوار ـ فيما بين أيار (مايو) وتشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٨ ـ في احتلال مدن الخليل وبئر السبع وطبريا ونابلس، احتلالاً مؤقتاً، واستولوا على اموال الادارة والبنوك البريطانية، واطلقوا سراح المعتقلين والسجناء العرب في سجون تلك المدن. كما استولى الثوار، في ايلول (سبتمبر) من السنة نفسها، على اموال جمرك ميناء يافا.

وفي أول آذار (مارس) ١٩٣٨، استبدلت الحكومة البريطانية آرثر واكهوب بمندوب سامي جديد هو السير هارولد مكمايكل، وخلف الجنرال هايننغ الجنرال ويفل في قيادة القوات البريطانية في فلسطين.

وبعدها بشـهرين عـززت الحكومـة قواتهـا المسـلحة بثلاثـة آلاف جنـدي آخرين، وأخضعت الشرطة لقيادة الجيش، وتوسعت في عمليات الاعتقال، حتى انها اعتقلت خلال اسبوع واحد (الاسبوع الأخـير مـن تشـرين الاول ١٩٣٨) ٧٥٧ عربياً.

ومع ظهور سحب الحرب العالميـة الثانيـة، لجـأت الحكومـة البريطانيـة الى اتباع تكتيكات جديدة جوهرها التسـويف والتمييـع، فـأطلقت، في السـابع مـن كـانون الاول (ديسـمبر) ١٩٣٨، سـراح بعـض المعتقلـين الفلسـطينيين وبعـض المنفيين من زعماء فلسطين الى سيسل وروديسيا، ودعت الى مؤتمر يعقد في لندن ويضم الوكالة اليهودية وزعماء عرب فلسطين والحكومات العربيـة. وتم افتتـاح مؤتمر لندن في السابع من شباط (فـبراير) ١٩٣٩، واسـتمر حتـى اواسـط آذار (مارس) ١٩٣٩، ولكنه فشل في التوصل الى تسوية ترضي الاطـراف المختلفـة. وفي ايار (مايو) ١٩٣٩، اصدر مكدونالد (وزير المستعمرات البريطاني آنـذاك) الكتاب الابيض، الذي تعهد فيه بمنح فلسـطين الاسـتقلال بعـد عشـر سـنوات، وحظر بيع الاراضي في بعض مناطق فلسطين مع تقييده في مناطق أخرى، ووقف الهجرة بعد ادخال ٧٥٠٠٠ يهودي الى فلسطين خلال السنوات الخمس التالية لصدور الكتاب الابيض. ورفض الصهاينة الكتاب الابيض المذكور، كما رفضته اللجنة العربية العليا، في حين قبله كل من الامير عبد الله وحزب الدفاع.

وصعدت حكومة الانتداب اساليب القمع الـتي مارسـتها ضـد الثـوار، إذ كانت بريطانيا تهدف الى إسكات كل الجبهات التي تقاتل فيها، حتى يتسنى لهـا التفرغ للخطر النازي، فضاعفت حمـلات مطـاردة العرب، وتوسـعت في نسـف منازلهم، واعتقال «المشـبوهين»، واعـدام حملـة السـلاح. في حـين خـاض الثـوار

معاركهم غير آبهين بمحاولات قياداتهم السياسية لعقد تسوية مع الانجليز. في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٩ وحده، خاض الثوار ٥٤ اشتباكاً عسكرياً ضد المستعمرين الانجليز والعصابات الصهيونية، اسفرت عن مقتل ٢٢٠ من الاطراف الثلاثة المذكورة. وفي فترة ٢٠ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٣٨ - ٢٠ شباط (فبراير) ١٩٣٩، وقع ٣٤٨ حادث اغتيال، و ١٤٠ حادث تخريب، و ١٩٠ حادث خطف، و٢٣ حادث سطو، وانفجرت تسعة ألغام و ٣٢ قنبلة، وخسر الانجليز في هذه المدة ١٨ قتيلاً و ٢٩ جريحاً.

ثم تناقص الزخم الثوري الفلسطيني تحت الضربات الشرسة المتلاحقة للقوات الانجليزية والصهيونية، وبعد غياب معظم القيادات العسكرية والسياسية للثورة اما في المنفى او السجن او باستشهادهم (قائد الثورة العسكري عبد الرحيم الحاج محمد استشهد في آذار ١٩٣٩)، وبسبب افتقار الثوار الشديد للسلاح والذخائر، مقابل قوات انجليزية وصهيونية مدربة ومجهزة بالسلاح الحديث والذخائر الوفيرة. ولقد زاد من صعوبات الثورة قيام السلطات الفرنسية في سوريا ولبنان بدعم سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين ومساعدتها في مطاردة الثوار. ويرجع السبب في هذا التحول الذي أصاب الموقف الفرنسي، إلى ظهور سحب الحرب العالمية الثانية، وتزايد الخطر النازي، اللذين دفعا الحكومة الفرنسية الى طلب ود الانجليز لمواجهة الخطر الجديد، وجعلاها تتخلى عن تجاهلها لنشاط قيادة الثوار في لبنان وسوريا، وضرب طوق صارم على حدودهما مع فلسطين، بشكل جعل الاتصال بين الثوار ومن تبقى من قياداتهم في سوريا ولبنان صعباً للغاية.

وهناك عامل آخر ساعد في توقف الثورة، وهو قيام الثورة المضادة،

والمتمثلة في قيادة حزب الدفاع بتشكيل عصابات اجرامية من عناصر اخرجتها سلطات الانتداب خصيصاً لهذه الغاية من سجونها، واطلق قادة حزب الدفاع على تلك العصابات اسم «فصائل السلام»، واقترفت هذه العصابات العديد من الجرائم البشعة ضد الاهالي العرب ونسبتها الى الثوار، بهدف تشويه الثورة وتنفير الجماهير الفلسطينية منها. ومع تسلل الضعف الى جسم الثورة، انتقلت «فصائل السلام» الى ممارسة اعمالها علناً، فأخذت تتعقب الثوار وتفرض الاتاوات على الفلاحين.

ومع انتهاء العام ١٩٣٩، انتهت الثورة، عدا أعمال متفرقة صغيرة متباعدة زمنياً وجغرافياً. وتركت الثورة وراءها ٥٠٣٢ قتيلاً عربياً، منهم ١١٢ نفذت فيهم حكومة الانتداب احكام الاعدام، وبلغ عدد القتلى من المستوطنين اليهود ٤١٥ قتيلاً. واصيب ١٤٧٦٠ عربياً بجروح مختلفة، وبلغ عدد المعتقلين العرب ٨٩٥٨ معتقلاً، وصدرت على نحو ألفين منهم أحكام بالسجن لمدد متفاوتة، وهدمت الحكومة أكثر من خمسة آلاف منزل يمتلكها العرب. وبلغت الاعمال الثورية في العام ١٩٣٨ وحده ـ وحسب احصاءات الحكومة البريطانية ـ ٥٧٠٨ حوادث، منها ٩٨٦ هجوماً على الشرطة والجيش، و ٧٢٠ هجوماً على المواصلات البرية، و ٣٤١ حادث تخريب في السكك الحديدية، وعشرة حوادث تفجير في انابيب شركة نفط العراق، التي توصل النفط من العراق الى حيفا، و ٤٣٠ اغتيالاً ومحاولة اغتيال، و ٦٥١ حادث هجوم على المستوطنات اليهوية.

وفي أعقاب الثورة، أعربت عناصر بورجوازية عربية فلسطينية عن ميلها لمهادنة الاستعمار البريطاني، وأخذ حجم هذه العناصر يتسع، حتى شكلت تياراً

وكتلة في الحركة السياسية الفلسطينية. وقد تشكل هذا الاتجاه السياسي كنتيجة لفشل الثورة وتسلل اليأس الى نفوس قطاعات واسعة من البورجوازية العربية الفلسطينية، مما جعلها تميل لمهادنة الاستعمار والتعامل معه، مادام الكفاح المسلح لم ينجح في تحقيق الأهداف التي قامت من أجلها، كما ان الاستعمار البريطاني اضطر للتعامل مع البورجوازية العربية الفلسطينية، وتقديم التسهيلات لها، غداة نشوب الحرب العالمية الثانية، في العام ١٩٣٩. وجاء هذا الاسلوب البريطاني الجديد ثمرة للضرورة، حيث كانت القوات البريطانية في الشرق الأوسط بحاجة الى معدات ادارية وتموين من المنطقة نفسها، خاصة وان سفنها المحملة بهذه المعدات كانت عرضة للغواصات والطائرات الحربية الألمانية. وشددت البورجوازية العربية الفلسطينية من اتجاهاتها التهادنية بعد بروز الاتحاد السوفياتي كقوة عالمية في أعقاب الحرب العالمية الثانية. ويعتبر بروز هذا الاتجاه المهادن، وتراجع الحركة الوطنية الفلسطينية خطوات واسعة الى الوراء. من أهم نتائج ثورة ١٩٣٦.

النضال الفلسطين
والحرب العربية الاسرائيلية الاولى
ـ ١٩٤٨ ـ

الأسباب التي أدت إليها :

في ٢٨ نيسان (ابريل) ١٩٤٧، عقدت الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة جلسة لمناقشة طلب بريطانيا الموجه الى الأمين العام للأمم المتحدة والذي تعلن فيه تخليها عن الانتداب، وتم تأليف لجنة دولية للتحقيق وضعت تقريرها بعد أربعة أشهر وفيه توصياتها وهي: ١ ــ ضرورة انهاء الانتداب على فلسطين ومنحها الاستقلال في أعقاب فترة انتقال قصيرة تكون السلطة أو السلطات المحلية فيها مسؤولة أمام الأمم المتحدة ويكون النظام الأساسي للدولة، أو الدولتين، والدستور، قائمة على أسس ديمقراطية تمثيلية تحترم فيها مبادىء حقوق الانسان، وحقوق الأقليات، ويحافظ فيها على وحدة اقتصادية لجميع أجزاء فلسطين، ٢ ـ إبقاء الصفة الدينية لجميع الأماكن المقدسة، ٣ ــ اعتماد الوسائل السلمية فقط لاقرار أي حل واستبعاد القوة والتهديد، ٤ ــ تقسيم فلسطين الى دولة عربية وأخرى يهودية.

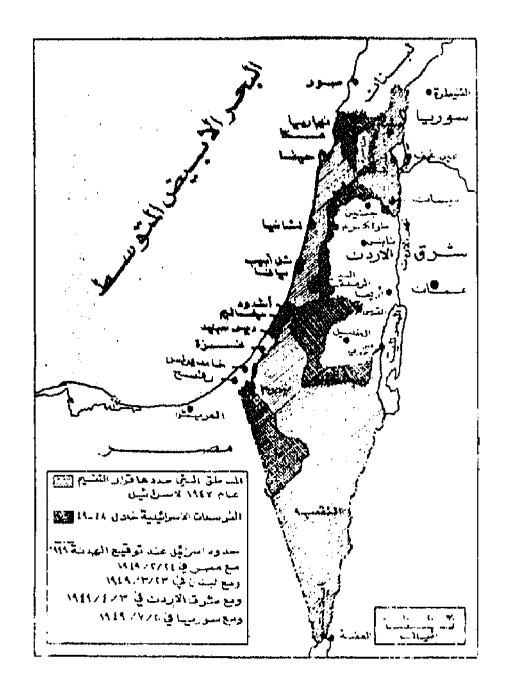
وقد اختلف الأعضاء في مدى العلاقة بين هاتين الدولتين، فقدمت اللجنة مشروعين للدولتين المقترحتين في فلسطين، عرف الأول بمشروع الأكثرية

وعرف الثاني بمشروع الأقلية. وكان مشروع الأكثرية يقضي بتقسيم فلسطين الى ثلاث مناطق ١ ـ المنطقة العربية: وتتألف من الجليل الغربي، ومنطقة نابلس الجبلية، والسهل الساحلي الممتد من أسدود حتى الحدود المصرية، بما في ذلك منطقة الخليل وجبل القدس وغور الأردن الجنوبي وتبلغ مساحة هذه المنطقة اثني عشر ألف كيلومتر مربع يقطنها ٦٦١ ألف نسمة منهم ١١ ألف يهودي و ٦٥٠ ألف عربي، ويملك اليهود فيها مائة كيلومتر مربع فقط،بينما يملك العرب الباقي، ٢ ـ المنطقة اليهودية: وتتألف من الجليل الشرقي، ومرج بن عامر، والقسم الأكبر من السهل الساحلي ومنطقة بئر السبع والنقب، وتبلغ مساحة هذه المنطقة التي تعتبر أخصب أراضي فلسطين ١٤٢٠٠ كيلومتر مربع، ويقطنها ٩٩٠ ألف نسمة منهم ٥٣٠ ألف يهودي، و٤٦٠ ألف عربي، ويملك العرب ثلثي مجموع مساحة أراضي هذه المنطقة وعقاراتها. وأوصت الأكثرية بإنشاء دولتين مستقلتين في هاتين المنطقتين بعد مرحلة انتقال حددت بسنتين، تتولى بريطانيا خلالهما ادارة فلسطين تحت إشراف الأمم المتحدة. كما أوصت بضرورة قبول ١٥٠ ألف مهاجر يهودي للدولة اليهودية خلال فترة الانتقال، وإذا زادت هذه الفترة يسمح بادخال ٦٠ ألف يهودي في كل سنة، وأوصت كذلك بإنشاء اتحاد اقتصادي وجمركي في المرافق العامة بين الدولتين. ٣ ـ الأماكن المقدسة: وتشمل مدينة القدس ومنطقتها، وتوضع تحت نظام الوصاية الدولية، ويعين مجلس الوصاية للأمم المتحدة حاكماً لهذه المنطقة من غير العرب واليهود، وكان يقطنها ١٥٠ ألف عربي و ١٠٠ ألف يهودي.

أما مشروع الأقلية فقد اكد على أن تكون الحكومتان العربية واليهودية مستقلتين استقلالاً ذاتياً، وتتألف منهما دولة اتحادية باسم دولة فلسطين، يتولى

إدارة الشؤون السياسية والاقتصادية والعسكرية فيها مجلس اتحادي يتولى انتخاب رئيس دولة واحدة، ويشرع دستوراً واحداً، ويقرر رعوية فلسطينية واحدة، ويعالج شؤون الهجرة اليهودية الى المنطقة اليهودية فقط، على أن تكون في نطاق قدرة البلاد على الاستيعاب.

وهكذا اتفقت الاقلية والاكثرية على تقسيم فلسطين، وعلى انشاء دولة اسرائيل. وكان اختلافهما فقط في تحديد العلاقة بين الدولتين. فالأكثرية أرادته تقسيماً يتوافق ورغبة بريطانيا ومشاريعها القديمة، بينما ارادته الأقلية تقسيماً ضمن دولة فلسطينية اتحادية. وقد أوصى الفريقان ببقاء الادارة البريطانية خلال الفترة الانتقالية لتتولى، تحت إشراف الأمم المتحدة، ادخال المهاجرين اليهود.



قرار التقسيم (١٩٤٧) والتوسع الإسرائيلي

واستقبل اليهود قرار الأكثرية بالارتياح ولو أنهم تظاهروا بالمعارضة الشكلية لعدم شمول دولتهم كامل فلسطين، وكذلك فعلت الولايات المتحدة، وراحت بالاشتراك مع الصهيونية تعد العدة لانجاح المشروع في الأمم المتحدة. أما بريطانيا فقد تظاهرت بالصمت والحياد، وان كانت الدوائر الاميركية والصهيونية قد أشاعت آنذاك بأنها تريد ضم منطقة النقب الى شرقي الأردن لضمان الاستراتيجية. وأثار قرار اللجنة بشقيه ثائرة العرب ومخاوفهم، فعقدت

الاجتماعات الرسمية والشعبية في فلسطين وفي كل بلد عربي، واتخذت عدة مقررات واجراءات لمجابهة تقسيم فلسطين. وبعد أن قدمت اللجنة تقريرها، عقدت الأمم المتحدة في ٢٣ ايلول (سبتمبر) ١٩٤٧، جلسة خاصة لدراسة التقرير.

وقررت الهيئة العامة إحالة تقرير اللجنة على هيئة خاصة ألفتها لهذا الغرض، وتمثلت فيها كل الدول الأعضاء، وسمح لمندوب فلسطيني عربي وآخر يهودي بطرح وجهات نظرهما أمامها. وقدمت هذه الهيئة الثانية مشروعاً يتلخص بانشاء حكومة مركزية واحدة تتولى مرحلياً ادارة عموم فلسطين، على أن يتم الجلاء الانكليزي عن البلاد خلال سنة واحدة، ولا يبدأ الا بعد قيام هذه الحكومة. وفي خلال هذه الفترة توقف الهجرة اليهودية بصورة كاملة، وتبقى قوانين الأراضي سارية المفعول على أن تعالج مشكلة اليهود بمتقضى اتفاقيات دولية. وبعد ذلك تجري الحكومة المؤقتة انتخابات عامة لجمعية تأسيسية تضع دستوراً ديمقراطياً يضمن وحدة فلسطين واستقلالها، وتمتع جميع رعاياها بالحقوق والواجبات.

طرح هذا المشروع على التصويت في ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧، وسقط بالأكثرية (وكانت الدول العربية قد اعتمدت هذا المشروع وأيدته).

وفي ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧، عرض مشروع الاكثرية ففاز بأكثرية الأصوات. وفي ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) طرح مشروع التقسيم للاقتراع فقبل بأغلبية ٣٣ صوتاً وعارضه ١٣ صوتاً.

وجاء قرار التقسيم صدمة عنيفة للعرب فقد وجدوا أنفسهم فجأة وحيدين في المعركة دون حلفاء، بعد أن اتفقت دول العالم على تقسيم فلسطين

وقيام اسرائيل، فأعلنوا بطلان القرار لمخالفته ميثاق المنظمة، وهددوا بمقاومته بالقوة. وكان عرب فلسطين أسرع من غيرهم في مقاومة القرار، فهاجموا القوات الانكليزية واليهودية على حد سواء في جميع أنحاء فلسطين، واشتبكوا في مصادمات ومعارك دامية مع المستعمرين والغزاة، رغم ضعف تنظيمهم وبدائية تسليحهم. وعمت المظاهرات جميع انحاء العالم العربي. وفي غمرة الهياج والانتظار، دعت الجامعة العربية الى اجتماع يعقد في القاهرة يوم ٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٨، حضره رؤساء وزارات الدول العربية، وأعلن في ختام الاجتماع بيان جاء فيه:

ان الحكومات العربية لا تقر قرار الأمم المتحدة، وتعتبر التقسيم باطلاً من أساسه، وهي تقف الى جانب استقلال فلسطين وسيادتها، وستتخذ من التدابير الحاسمة ما هو كفيل باحباط مشروع التقسيم وخوض المعركة من أجل ذلك.

كان هناك، وقبل الوصول الى هذا القرار، اجتماع قد عقد في صوفر (لبنان) في ١٦ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٧، تقرر فيه تقديم أقصى ما يمكن من الدعم العاجل لأهل فلسطين من سلاح ومال ورجال في حالة تقرير التقسيم. كما كان قد تقرر في مؤتمر عاليه (لبنان) في ١٥ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٤٧ تقديم ما لايقل عن عشرة آلاف بندقية مع ما تحتاج اليه من ذخيرة الى أهل فلسطين، وتأليف لجنة عسكرية لاعداد وتنظيم الدفاع عن عروبة فلسطين. فكان كل ما أضافه مجلس الجامعة العربية على قراراته السابقة هو تقدير عدد الرجال الذين يجب ارسالهم الى فلسطين بثلاثة آلاف متطوع، تتولى لجنة الجامعة العربية العسكرية توزيعهم على جبهات فلسطين.

خلال هذه الفترة من الصراع السياسي، أكملت القوة اليهودية في فلسطين استعداداتها لتنفيذ المخططات الصهيونية، واستطاعت تكوين عدة منظمات عسكرية هي: الهاغاناه (٨٠ ألفاً)، الأرغون (١٥٠٠ ــ ١٦٠٠ مقاتل)، شتيرن (١٥٠٠ ـ ٢٠٠٠ مقاتل)، البالماخ (٣٥٠٠ مقاتل). وكانت هذه المنظمات المختلفة متفقة في اساليب عملها على تحويل المدن والمستوطنات الى قلاع قوية من الناحية الدفاعية، وإحاطة العمل في المستوطنات بنطاق من السرية المطلقة، وبجعلها تحقق الاكتفاء الذاتي في التسلح والمواد التموينية للدفاع عن نفسها لمدة طويلة. وبفضل هذا التنظيم، وبدعم من سلطات الانتداب، أمكن تطوير التسلح عند الصهاينة، وأمكن إقامة مصانع لانتاج رشاشات (ستن) البريطانية، ومدافع الهاون عيار ٢ و ٣ بوصة وذخائرها، وقاذفات اللهب الخفيفة، ومدافع بيات المضادة للدروع، واستطاعت هذه المصانع أن تنتج حتى عشية الحرب العربية الاسرائيلية الأولى (١٩٤٨) ١٠٠ رشاش خفيف يومياً (ارتفعت بعد نيسان (ابريل) ١٩٤٨ الى ٢٠٠ رشاش يومياً، و ٤٠٠ ألف طلقة عيار ٢٣ مم للرشاشات (شهرياً)، و ١٥٠ ألف قنبلة يدوية ميلز، و٣٠ ألف قذيفة هاون ٣ بوصة. ومقابل هذه القوة الصهيونية وقف جيش الجهاد المقدس (٨ ــ ١٠ آلاف)، وجيش الانقاذ (٣ ــ ٤ آلاف مقاتل)، وقوات المتطوعين المصريين (قوات النمر التي بلغت سرية مشاة)، ومجموعات المناضلين الفلسطينيين الثابتين في القرى والمدن، كما تقرر أن ترابط قوات من جيوش الدول العربية على حدود فلسطين دون دخولها، والاكتفاء بدعم الفلسطينيين ومساعدة المجاهدين عند الضرورة بالذخائر والضباط وبعض العناصر الفنية حتى يتم جلاء البريطانيين عن البلاد.



المجاهد عبد القادر الحسيني مع لفيف من مقاتلي جيش الجهاد المقدس

ولقد وقع بعد اعلان قرار التقسيم في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ حوادث وصدامات دامية اشتركت فيها المنظمات الصهيونية من جهة، والقوات غير النظامية العربية من جهة أخرى.

وقد ضمت تلك القوات :

(١) جيش الانقاذ أو قوات الانقاذ :

هو جيش المتطوعين العرب الذي تشكل في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٧ بمبادرة من الجامعة العربية، للدفاع عن عروبة فلسطين ومساندة

مناضليها، وبقي يقاتل في فلسطين حتى تشرين أول (اكتوبر) ١٩٤٨، ثم سحب إلى جنوبي لبنان لإعادة تنظيمه، وانتقل بعد.ذلك إلى سورية ثم قامت الجامعة العربية بحله في أيار (مايو) ١٩٤٩.

وشهدت فلسطين في نهاية الاربعينات تنفيذ المخطط الصهيوني ــ الامبريالي، في إقامة وطن قومي يهودي فوق الارض العربية في جزء من فلسطين. وكانت السنوات التي سبقت قيام اسرائيل (١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨) سنوات تأهب واستعداد وتعبئة وتدريب وتنظيم لليهود بينما كانت سنوات ضياع للعرب، بسبب سياسة الأنظمة القائمة آنذاك، وضعف الحركة العربية الوطنية التي كانت تصفيتها إحدى مهمات الاستعمار القديم.

وكانت السيطرة البريطانية واضحة وملموسة من خلال الامتيازات والاحتكارات الاقتصادية التي حصلت عليها في هذه الاقطار مثل نفط العراق ومنتجاته الزراعية، وقطن مصر وقناة السويس، كذلك فقد تم لبريطانيا اخضاع منطقة الخليج العربي والشواطىء الشرقية والجنوبية للجزيرة العربية لنفوذها المباشر، فيما كانت السعودية، واليمن مضطرتين بحكم أوضاعهما، إلى الخضوع لضغوط بريطانيا العظمى التي كانت آنذاك في عداد الدول الكبرى. وكانت السعودية قد قامت بفتح الباب واسعاً أمام شركات النفط الاميركية منذ الثلاثينات لاستغلال واستثمار الكنوز الدفينة فيها. وفي فلسطين قامت بريطانيا الى جانب اعمال القتل، والاعتقال والمطاردة والنفي التي مارستها ضد الشعب الفلسطيني وقياداته الوطنية، بفتح باب الهجرة الصهيونية لفلسطين، وسهلت لهم سبل الاستقرار والسيطرة الاقتصادية، كما تم تدريب آلاف الصهاينة في معسكرات بريطانيا وقواعدها، فساعدت بذلك على إرساء اسس «الدولة

اليهودية» التي أصبح اعلان قيامها مطلب الحركة الصهيونية وشعارها منذ مؤتمر بلتيمور في ايار ١٩٤٢.

كانت سوريا ولبنان البلدان الوحيدان اللذان نجحا في الحصول على استقلالهما عام ١٩٤٦، ولكنهما بقيا ضمن دائرة المطامع البريطانية، ولم يتخلصا من المؤامرات التي كانت تحيكها بريطانيا أو عملائها في المنطقة.

وفي الوقت الذي كانت به الأوضاع السياسية سائدة في المنطقة العربية، كانت القوى السياسية في الغرب تشهد تزاحماً وتنافساً على اكتساب الحركة الصهيونية التي أصبحت نيويورك مركز تواجدها الاساسي بدل لندن.

وفي ٢ نيسان (ابريل) ١٩٤٧ احيلت قضية فلسطين الى الأمم المتحدة للبت فيها على ضوء التطورات الجديدة. فشكلت الامم المتحدة لجنة دولية لدراسة هذه القضية وتقديم المقترحات بشأنها وبعد صدور تقريري اللجنة الدولية، اجتمع مجلس الجامعة العربية في عاليه بلبنان من ٧ ـ ٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٧، خلال عرض قضية فلسطين أمام هيئة الامم المتحدة، وكان جدول اعماله يتضمن دراسة ما يجب اتخاذه من اجراءات للوقوف في وجه المؤامرة على عروبة فلسطين. وقد عقد هذا المؤتمر في غياب ممثلي فلسطين ومن وراء ظهر حركتها الوطنية، إلا أن مفتي فلسطين فاجأ المؤتمرين بأن دخل عليهم محدثاً أزمة بين الوفود انتهت بقبول حضوره، وفي مقدمتها اعلان حكومة عربية تتكلم باسم عرب فلسطين.

وكانت أهم قرارات مجلس الجامعة العربية «تأليف لجنة عسكرية من ممثلي الدول العربية لدرس القضية الفلسطينية من الناحية العسكرية ومعاونة أهل فلسطين في الدفاع عن أنفسهم وكيانهم، وذلك بالاشراف على ادارة العمل

وتنظيمه وصرف الاموال التي تخصصها الدول العربية لمعاونة أهل فلسطين». وتشكلت هذه اللجنة برئاسة اللواء الركن اسماعيل صفوت (العراق) وعضوية العقيد محمود الهندي (سورية) والمقدم الركن شوكت شقير (لبنان) وصبحي الخضراء (فلسطين) ولم ترسل مصر، والاردن، والسعودية، واليمن، أحداً من رجالها العسكريين ليمثلوها في اللجنة.

وفي ٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٧ قدمت اللجنة العسكرية تقريرها الاول الى مجلس الجامعة، وقد تضمن تأكيداً أن لدى العدو في فلسطين، منظمات وتشكيلات سياسية وعسكرية وادارية، وفي وسعها أن تتحول بسرعة الى حكومة، وأن لديها قوة كبيرة من الرجال والعتاد والسلاح قدرت بحوالي ٦٥ ـ ٧٥ ألف مقاتل تابعين للمنظمات الصهيونية الارهابية. وشدد التقرير على خطورة مصير شعب فلسطين خاصة اولئك الذين يقطنون في المناطق التي يشكل اليهود غالبية فيها، ولهذا طلبت اللجنة في تقريرها بوجوب المباشرة فوراً بتسليح عرب فلسطين وتدريبهم وتنظيمهم، وطلبت امدادهم بعشرة آلاف بندقية ورشاش مع المواد الهندسية اللازمة لبناء التحصينات في المدن والقرى العربية. وفتح باب التطوع أمام العرب للمشاركة في الكفاح في فلسطين، وحشد الجيوش العربية على حدود فلسطين لتكون جاهزة للتدخل في حال انسحاب بريطانيا، حتى لايبقى ميزان القوى لصالح العدو.

وكان الرأي يميل يومذاك الى انه يجب أن يترك للفلسطينيين انفسهم عبء الدفاع عن بلادهم، على أن تزودهم الحكومات العربية بما يحتاجونه من عتاد وسلاح، ولكن هذه السياسة لم تكن لترضي البريطانيين الذين سارعوا بالضغط لتغيير مضمون هذه السياسة، والعمل على جعل قضية فلسطين بيد الحكام

العرب. وبرز على الصعيد العربي تياران اساسيان لمعالجة قضية فلسطين، دعا اولهما الى وجوب قبول العرب بتسوية سياسية يتفق عليها مع الانكليز، وتقضي بقبول تقسيم فلسطين الى دولتين عربية ويهودية، وذلك انطلاقاً من «عدم قدرة العرب على مواجهة الانكليز، وبالتالي القبول بالحلول الواقعية».

وكان الموقف الثاني يرفض الاتجاه الاول بقوة ويرى فيه انحرافاً وتنازلاً عن حقوق شعب فلسطين في وطنه، ويؤكد على وجوب اعلان استقلال فلسطين. وأن الطريق الوحيد لذلك هو المقاومة المسلحة والقتال، وأن على شعب فلسطين يقع العبء الاساسي في هذه المعركة، وكان على رأس هذا الموقف القيادات الوطنية الفلسطينية وفي مقدمتها الحاج أمين الحسيني والوطنيون العرب، وكافة القوى التي أعلنت مباشرة بعد قرار التقسيم تشكيل «قوات الجهاد المقدس» بقيادة عبد القادر الحسيني.

وقد جاء قرار تشكيل جيش الانقاذ ليحتل موقفاً وسطاً بين التيارين، فقد اتخذت اللجنة العسكرية التابعة للجامعة العربية قرار تشكيل الجيش في تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٤٧، وذلك بموافقة عبد الرحمن عزام، الامين العام للجامعة آنذاك.

وقد اعتبرت بريطانيا تشكيل جيش الانقاذ شراً لا بد منه، وامتصاصاً للحالة الثورية العارمة التي شهدتها الساحة العربية من غليان جماهيري ورفض لقرارات التقسيم. واعتبره العرب عملاً وطنياً خارقاً. وسارع المتطوعون من مختلف بقاع الوطن العربي الى الانضمام لجيش الانقاذ ليشاركوا شعب فلسطين قتاله، فقد وصل الى فلسطين اكثر من (١٥٠٠) مقاتل من الاردن، وشاركوا في معارك القدس وباب الواد والجليل، وحاول مثل هذا العدد الالتحاق بجيش

الانقاذ من المغرب وتونس وليبيا والجزائر، ولدى وصولهم الى مصر، الحقتهم حكومة النقراشي بقوات المتطوعين في جنوب فلسطين، والى جانب هذا الاندفاع الجماهيري، فقد انتظم في صفوف جيش الانقاذ العشرات من قيادات الحركة الوطنية آنذاك، وقد ترك العديد من الضباط السوريين وحداتهم للانضمام الى جيش الانقاذ، وحاولت هيئة الضباط الاحرار بقيادة جمال عبد الناصر المشاركة في الكفاح المسلح ولكن حكومة النقراشي وقفت في طريقها.

اتخذت اللجنة العسكرية قرية قدسيا القريبة من دمشق مقراً لها، وقد انضم بعد ذلك طه الهاشمي الى عضوية اللجنة العسكرية بصفة خبير، ثم كمفتش عام لجيش الانقاذ، وذلك بناء على اقتراح قدمه الرئيس السوري شكري القوتلي الى عبد الرحمن عزام، المشرف على اللجنة العسكرية. وبدأت اللجنة بالاتفاق مع وزارة الدفاع السورية على فتح معسكر قطنا قرب دمشق لاستقبال المتطوعين العرب وتدريبهم من قبل ضباط سوريين افرزتهم قيادة جيشهم لهذا الغرض. وقد برزت مشكلة صعبة لدى محاولة اللجنة تعيين قائد لجيش الانقاذ، اذ كان الرئيس القوتلي يضغط لتعيين فوزي القاوقجي، وذلك لاعتبارات محلية وعربية، بينما كان مفتي فلسطين يعارض ذلك بشدة. وعند احتدام القتال بين الفلسطينيين والصهاينة، حسم الموضوع، وعين فوزي القاوقجي قائداً للجيش في أوائل كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٧، بعد مرور شهرين من تأليف اللجنة.

ولم تكن استراتيجية الجيش واضحة ودقيقة، ويمكن اعتبار اسباب تشكيل جيش الانقاذ، الى جانب الاستعراضات العسكرية والتلويح بالقوة بعد فشل الدبلوماسية العربية، الوعاء الذي يستطيع احتواء الحالة الثورية العربية العامة التي بدأت تعي واقعها على ضوء بداية ضياع فلسطين.



فوزي القاوقجي مع جنود جيش الإنقاذ في فلسطين

وكانت قيادات جيش الانقاذ الملحقة مباشرة بالجامعة العربية تتشكل على النحو التالي، على رأس الهرم العسكري كان المفتش العام لقوات المتطوعين (طه الهاشمي)، تليه اللجنة العسكرية برئاسة اللواء اسماعيل صفوت، والعضوية العاملة فيها لمندوبي العراق وسورية ولبنان وفلسطين، ولم ترسل بقية الدول العربية مندوبيها الى اللجنة، والصف الثالث في القيادة هو القيادة الميدانية، أي قائد الجيش (فوزي القاوقجي)، ويليه مباشرة قادة الكتائب (كان اسمها آنذاك الأفواج) ثم قادة السرايا وكان للقيادة الميدانية عملياً منطقتان مستقلتان.

إذ كانت غالبية قطعات الانقاذ بقيادة القاوقجي في المنطقة الوسطى

وتشمل مناطق نابلس وطولكرم وجنين، وامتدت حتى حدود منطقة القدس، وقد اتخذ (جبع) مقراً لقيادته في آذار (مارس) ١٩٤٨.

وكانت هناك المنطقة الشمالية حيث عملت مجموعة وحدات بقيادة المقدم أديب الشيشكلي (سوريا) ومقر قيادته في قرية الصفصاف. وبقي هذا الاستقلال قائماً حتى وصول القاوقجي الى المنطقة الشمالية في حزيران (يونيو) ١٩٤٨، حيث الحقت به كافة القوات، واتخذ مقراً لقيادته قرية عيترون في جنوبي لبنان، أما قيادات الافواج فكان لكل فوج مركز قيادة في منطقة انتشار سراياه. ولقد افتقد جيش الانقاذ الى هيئة اركان عامة، مع انه كان يوجد مع القاوقجي عدد من الضباط الاداريين الذين كانوا يرافقونه في كافة تنقلاته، ويشرفون على الامداد والتموين والشؤون الادارية الاخرى.



المقدم أديب الشيشكلي الذي قاد مجموعة وحدات سوريا في جيش الإنقاذ الفلسطيني

وكانت اوضاع اللجنة العسكرية في دمشق افضل نسبياً من الناحية التنظيمية، بسبب وجود مجموعة من الضباط والرتباء الذين تطوعوا من الجيش

السوري ودوائر الحكومة. وقد انعكس هذا الوضع غير المنظم على طبيعة العلاقة بين قيادات الافواج، وقائد الميدان، وبين هذا القائد والمفتشية العامة في دمشق، وكثيراً ما كان يحصل تناقض، وتعترض القيادة على تصرفات بعض قادة الافواج، ولذلك فقد طالبت القيادة بحل بعض الافواج، كما انه برزت بعض الخلافات بين القاوقجي واللجنة العسكرية، فبينما كان القاوقجي يصر على تسمية جيشه «جيش الانقاذ» كانت اللجنة العسكرية تطلق عليه اسم «قوات الانقاذ». وهناك خلافات اساسية مثل حادثة مرور فوج اليرموك من سوريا الى فلسطين عن طريق الاردن في ١٩٤٨/١/٢٢ إذ طلب الهاشمي أن يمر الفوج من الاردن دون استئذان الحكم الاردني، ولكن القاوقجي خالفه وطلب إذناً بالمرور، كذلك فقد سجل العديد من حوادث تجاوزات اللجنة العسكرية للقاوقجي، كالاتصال بقادة الافواج دون علمه واعطائهم التعليمات وأثرت هذه الأمور بطبيعة الحال على نمط العلاقات الدنيا بين الافواج والقيادة، وبين السرايا والفوج.

وكانت جامعة الدول العربية تمول جيش الانقاذ عن طريق لجنة الخبراء الماليين التي كان يرأسها أحمد عبد الغفار باشا، ولم تكن هناك ميزانية محددة لجيش الانقاذ، كما أنه كان يصعب تحديد ميزانية سنوية او شهرية بسبب التفاوت الواضح بين نفقات كل شهر بالنسبة للشهور الاخرى.

وكانت المفتشية العامة تدفع عن (طريق دائرة المحاسبة فيها) الرواتب الى الجنود في اماكن تواجدهم.

بلغ عدد مقاتلي جيش الانقاذ في حزيران (يونيو) ١٩٤٨، حوالي أربعة آلاف منهم ١٥٠ فلسطيني.

ولم يكن هذا الرقم ثابتاً بل كان معرضاً للزيادة والنقصان. وكان الجيش موزعاً الى مجموعتين:

١ ـ مجموعة المنطقة الوسطى بقيادة فوزي القاوقجي وتألفت من:

ـ فوج اليرموك الاول، قاده المقدم محمد صفا (سوريا)، وقد دخل فلسطين في ٢٢ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٨، واتخذ مراكز له في منطقة جنين، بيسان، وخاض عدة معارك أهمها معركة الزراعة في شباط (فبراير) ١٩٤٨، ثم انتقل الى الجليل في اوائل حزيران (يونيو) ١٩٤٨.

ـ فوج القادسيه، قاده المقدم مهدي صالح العاني (عراقي)، دخل فلسطين في شباط (فبراير) ١٩٤٨، وكان بتصرف القيادة في جبع. شارك في معارك مشمار هاعيمك، وباب الواد، والقدس، ثم اعيد تنظيمه ودمجه بفوج اجنادين وسمي فوج اجنادين بقيادة العاني، وقد اشترك الفوج الجديد بالدفاع عن منطقة ترشيحا في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٨.

ـ فوج الحسين، قاده الرائد الطيار محمود هندي (سوري)، وقد دخل الى منطقة المثلث ثم ما لبث أن اعفيت قيادته ووزعت سراياه على الافواج الاخرى.

ـ فوج حطين، قاده النقيب مدلول عباس (عراقي)، وقد دخل فلسطين في آذار (مارس) ١٩٤٨ وتمركز في منطقة طوباس، شاركت سراياه في معارك مشمار هاعيمك والقدس. وانتقل الى الشمال في اوائل حزيران (يونيو) حيث تحمل عبء القتال في الشجرة والناصرة ونزلت به خسائر كبيرة واصابات

عديدة شملت كل ضباطه تقريباً. فقد استشهد النقيب هرمز شابو والشاعر الفلسطيني الملازم عبد الرحيم محمود وجرح قائده مدلول عباس جراحاً بليغة كما جرح الملازم كرز ديري.

- فوج اليرموك الثالث، قاده الرائد عبد الحميد الراوي (عراقي)، وقد دخل منطقة القدس ورام الله في نيسان (ابريل) ١٩٤٨ واشترك في معارك باب الواد، والقدس.

- فوج اجنادين، قاده النقيب ميشال العيسى (فلسطيني)، واشترك في معارك يافا وباب الواد ثم انتقل الى الشمال.

- فوج العراق، قاده المقدم عادل نجم الدين (عراقي)، وقد دخلت معظم مراتب هذا الفوج الى يافا. وتولى نجم الدين قيادة حاميتها المحلية مع وحداته في ١٩٤٨/٢/١٦. وبقي فيها حتى ١٩٤٨/٤/٣٠ حيث ترك المدينة دون اذن قيادته ودون أن يسلم مسؤولياته فيها الى خلفه النقيب ميشال العيسى.

وقد تواجد في المنطقة الوسطى ايضاً عدة سرايا، مثل السرية اللبنانية التي كان يقودها النقيب حكمت علي. وقد جرى توسيع هذه السرية عندما انتقلت الى الجليل لتصبح فوجاً، بقيادة النقيب حكمت علي، وشارك هذا الفوج في معارك صغيرة اهمها كفرمندا، واشترك في الدفاع عن السموعي وكفرعنان.

وكانت هناك سرية الفراتيين التي قادها النقيب خالد مطرجي وقد وصلت هذه السرية الى المنطقة الوسطى في ١٩٤٨/٢/٣ وبقيت فيها حتى ١٩٤٨/٥/٢٤، وكانت زرعين اولى معارك هذه السرية في منطقة السامرة في

١٩٤٨/٢/٢٣، ثم نقلت السرية الى الجبهة السورية، وفي اول تموز (يوليو) الى الجليل، وبقيت حتى نهاية تشرين الاول (اكتوبر)١٩٤٨، وقد اشتركت في معارك ترشيحا والمغار وسعسع والمناره في المناطق الشمالية. وكانت هناك سرية منكو الاردنية التي اشتركت في معركة باب الواد. وسرية اسود الشهباء التي قاتلت في القدس، وقد الحقت بهذه الافواج بطارية ونصف من المدفعية بقيادة النقيب مأمون البيطار ومعه الملازم الاول عفيف البزري وسليمان الحلو، وكان تعداد بطارية المدفعية يتراوح بين ٨٠ الى ١٢٠ جندياً ومعهم اربعة مدافع حسب الترتيب الفرنسي في سورية.

٢ ـ مجموعة المنطقة الشمالية وكان يقودها المقدم أديب الشيشكلي وتتألف من:

ـ فوج اليرموك الثاني بقيادة الشيشكلي، وقد دخلت هذه القوة المنطقة الشمالية عن طريق لبنان في ١٩٤٨/١/٢٣، وفي شهر شباط (فبراير) توزع على المناطق التالية: صفد بقيادة الملازم الاول احسان كمالماز، وعكا بقيادة الملازم عدنان مراد، والمالكية بقيادة الملازم الاول فتحي الاتاسي، والصفصاف بقيادة الملازم الاول محمد جديد غريب. وفي شهر نيسان (ابريل) افرزت قيادة الجيش السوري بطارية مدفعية مع الملازم الاول فائز القصري والملازم وديع نعمة.

والى جانب قوات الشيشكلي كان هناك فوج جبل العرب الذي قاده الرائد شكيب وهاب، وتمركز في منطقة شفا عمرو قرب الناصر، ولم يرتبط هذا الفوج بالشيشكلي اذ كان له شيء من الاستقلالية، والحق بالمقدم الشيشكلي المفارز التالية: المفرزة العراقية بقيادة الملازم حسين عبد اللطيف، المفرزة

الحموية، بقيادة الملازم صلاح الشيشكلي، المفرزة الشركسية بقيادة الملازم جلال برقوق، المفرزة الادلبية بقيادة الرئيس عبد الغفار، المفرزة الاردنية بقيادة الرئيس ساري فنيش، السرية السورية النظامية بقيادة الملازم عثمان حاجو، المفرزة اللبنانية بقيادة الملازم الاول محمد زغيب، حامية عكا بقيادة خليل كلاس، المفرزة البدوية بقيادة الملازم محسن يعيش، مفرزة مجدل شمس الدرزية، واخيراً التحقت المفرزة اليوغوسلافية بقيادة الرئيس الاول شوقي اليوغوسلافي، وفصيل مدفعية بقيادة الملازم فائز القصري.

وقد أعيد تنظيم قوات الانقاذ كلها في الشهر الثالث من العام ١٩٤٨ على أساس ألوية هي:

لواء اليرموك الاول بقيادة المقدم محمد صفا، ولواء اليرموك الثاني بقيادة المقدم أديب الشيشكلي، ولواء اليرموك الثالث بقيادة مهدي صالح العاني والفوج العلوي بقيادة غسان جديد.

لقد افتقرت قوات جيش الانقاذ الى الكوادر العسكرية والتنظيمية والادارية، فلم يتوفر نصف الحد الادنى المطلوب من الضباط والرتباء، فمثلاً لم يتواجد في الفوج الواحد اكثر من اربعة الى خمسة ضباط. وكذلك فقد انعدم وجود الوعي السياسي في هذه القوات ـ رغم تمتعها بالحماسة السياسية ـ مما أفقدها شرطاً أساسياً من شروط الانتصار. وقد كان واضحاً تدني مستوى التدريب والانضباط والانسجام داخل الوحدات، وقد وصل بعض المتطوعين الى ميادين القتال دون أي تدريب، وربما يكون الاسراع في تشكيل الجيش هو العامل الاساسي الذي لم يمنح قيادته فرصة لتدريب المتطوعين التدريب الكافي.

ومن أصعب المشاكل التي عاناها جيش الانقاذ كما عانتها كل الجيوش

العربية، قضية التسليح التي أثرت على مصير الجهاد. وكانت الاسلحة في جيش الانقاذ خليطاً من انواع مختلفة من البنادق الانكليزية والفرنسية والبلجيكية ومن نزر قليل من مدافع الهاون المختلفة العيارات وقليل من الرشاشات المختلفة، مع بعض المصفحات التي غنمها الجيش من الصهاينة. وكانت الاسلحة على قلتها غير متناسقة في انواعها ولم تكن مصنفة بحيث يسلح الفوج بنوع واحد من السلاح. كذلك فقد كانت الذخيرة قليلة، وكان هذا الوضع المتردي يعكس حالة الجيوش العربية قاطبة التي لم يكن تسليحها افضل من تسليح الانقاذ، على الرغم من أن بعض هذه الجيوش كان لديها سلاح مخزون، لو استخرج لعوض بعض مساوىء التسليح في وحدات الانقاذ.

أما الشؤون الادارية والتموين فقد اشرف عليها شباب من غير العسكريين، معظمهم ممن عملوا في الميدان الوطني في سورية. وقد زود الجيش السوري هذا المرفق بالعديد من الرتباء ووضع تحت تصرفه مخازن ومستودعات، وكان التموين يتم من المخازن أو محلياً. وقد شهد هذا المرفق الكثير من النواقص، فبسبب فقدان الخيام والاغطية الكافية كانت الوحدات تضطر للاقامة في القرى. ولقد أنشأت اللجنة العسكرية دائرة صحية خاصة، وعينت لها الطبيب امين روحية الذي أسس مستشفى في نابلس يضم ٢٠٠ سرير، وبقي هذا المستشفى يستقبل الجرحى حتى انسحبت قوات الانقاذ الى الشمال فسلم الى القوات العراقية، وقد أنشأ روحية مستشفى ميدان في الرامة ثم نقله الى ترشيحا في أيلول (سبتمبر) ١٩٤٨. كما كان لقوات جيش الانقاذ محكمة عسكرية يرأسها ضابط حقوقي متطوع، تنظر في قضايا المخالفات الداخلية او قضايا المواطنين في المناطق التي يتواجد فيها الجيش.

خاض جيش الانقاذ مجموعة من المعارك في المنطقتين الوسطى والشمالية، ومن أهم المعارك التي خاضها: الزراعة، ومشمار هاعيمك، ونيفي يعقوب، وباب الواد والقسطل والقدس وحيفا ويافا والمطلة والمنارة وجدين والهراوي والنبي يوشع والشجرة ورامات يوحانان وطبريا وصفد وعكا. وكان تكتيكه في القتال مزيجاً من تكتيك القوات النظامية وتكتيك حرب العصابات. ولقد لوحظ في عدد من المعارك وجود ثغرات تتعلق بالحشد والمرونة وادارة القتال والتنسيق مع المجموعات العربية المسلحة. كما لوحظ من جانب آخر ارتفاع مستوى رباطة الجأش، والجرأة والاقدام لدى المقاتلين، رغم افتقارهم للتدريب الجيد والتسليح المطلوب.

بعد سقوط الجليل ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٨ بيد الصهاينة، اضطر جيش الانقاذ للانسحاب من شمال فلسطين، الى جنوب لبنان. وقد بدت حالته سيئة جداً وبحاجة ماسة لإعادة التنظيم من جديد على ضوء الاحداث التي شهدتها المنطقة.

وبدلاً من إعادة تنظيم كافة القوى العربية المقاتلة نظراً لنجاح الصهيونية في اجتزاء الارض العربية وإقامة الكيان الصهيوني، فقد بدأت الكيانات العربية حينذاك التمهيد لتوقيع اتفاقات الهدنة وإنهاء القتال.

وانطلاقاً من هذا المفهوم العام للأوضاع فقد استدعى الامين العام لجامعة الدول العربية القاوقجي الى القاهرة في ١٩٤٨/١١/٢٢ بحجة البحث معه في إعادة ترتيب الانقاذ، وهناك أبلغه أن مهمة جيش الانقاذ القتالية قد انتهت، وكلف على أثر ذلك العقيد انور بنود (من الجيش السوري) بقيادة وحدات

الانقاذ، فأعاد تشكيل بقاياه بثلاثة افواج حملت اسم لواء اليرموك. وبقيت هذه القوة في جنوب لبنان، ثم انتقلت في اواخر آذار (مارس) ١٩٤٩ الى سورية، وفي اوائل ايار (مايو) ١٩٤٩ وبعد أن بدأت الدول العربية توقع اتفاقات الهدنة الدائمة في رودس، صدرت الأوامر من المفتشية العامة لقوات الانقاذ، بتوجيه من الامانة العامة للجامعة العربية، بتسريح هذه القوة وانهاء مهمتها وجرى فعلاً منذ ذلك التاريخ حلها رسمياً.

(٢) جيش الجهاد المقدس :

اما جيش الجهاد المقدس فقد تشكل الجهاد المقدس في فلسطين نتيجة لتلاقي عدة تنظيمات سرية شبه عسكرية، في الفترة الواقعة بين ٢٥ و ٣٠ نيسان (ابريل) ١٩٣٦، لتوحيد جهودها، وتنظيم نضالها ضد الاستعمار البريطاني والحركة الصهيونية، بهدف الحفاظ على عروبة فلسطين. وقد كانت هذه المنظمات تعمل بمعرفة القيادة الوطنية الفلسطينية وتوجيهها، إلا أن الامكانات العسكرية والمادية المحدودة لهذه المنظمات كانت تؤثر على أعمالها تشتد وتهدأ حسب الظروف.

ففي شهر آذار (مارس) عام ١٩٣٦ تأزمت الاوضاع في فلسطين وشملت الاضطرابات كافة المدن والمرافق الحيوية، واستمرت حتى ١٩ نيسان (ابريل) عام ١٩٣٦.

وعلى أثر ذلك تشكلت اللجان القومية في جميع المدن الفلسطينية للإشراف على الاضراب وشد أزر القائمين به، وتنادت الاحزاب الوطنية،

شعوراً منها بالخطر المحدق على البلاد، من أجل توحيد الجهود وتشكيل هيئة موحدة تمثل إرادة الشعب الفلسطيني وتعبر عن آماله وأمانيه، وكان ذلك يوم ٢٥ نيسان (ابريل) في دار اللجنة القومية في القدس. وقد انبثقت عن هذا الاجتماع اللجنة العربية العليا التي ضمت تسعة أشخاص يمثلون مختلف الأحزاب الفلسطينية، واسندت رئاستها الى سماحة مفتي فلسطين محمد أمين الحسيني.

وكان أول قرار لهذه اللجنة هو دعوة الشعب الى مواصلة الإضراب، وإعلان الكفاح حتى تبدل الحكومة البريطانية سياستها، وتعدل عن خطتها الرامية الى تحقيق وعد بلفور وإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، عن طريق تشجيع الهجرة، ومنح الصهاينة تسهيلات كبيرة لاغتصاب الأراضي ومزاحمة السكان العرب على ممتلكاتهم. وقد كان لهذا القرار أثره في نفوس قادة المنظمات السرية، شبه العسكرية، التي قررت بدورها توحيد جهودها وتنظيم صفوفها، أسوة بالأحزاب السياسية. وبعد عدة اجتماعات، اتصفت بالايجابية والحماس، ثم الاتفاق على توحيد كافة المنظمات في جيش واحد، اطلق عليه اسم «جيش الجهاد المقدس»، وذلك في الثلاثين من نيسان (ابريل) عام ١٩٣٦، وقد اسندت قيادته الى القائد عبد القادر الحسيني. وتعبيراً عن مباركة اللجنة العربية العليا لتشكيل جيش الجهاد المقدس، فقد أخذت على عاتقها مهمة الانفاق على هذا الجيش والإشراف على تسليحه وتطويره، وأوعزت الى فروعها في البلاد، ومناصريها في الخارج، كي يجمعوا التبرعات ويتصلوا بالمسؤولين العرب طلباً للمعونة والسلاح.

ولكن الظروف لم تمهل قيادة جيش الجهاد المقدس كي تتمكن من تدريب المتطوعين وتزويدهم بالاسلحة والذخائر اللازمة لأي مواجهة محتملة مع الاعداء، فدعا عبد القادر الحسيني اعضاء مجلس القيادة وزعماء المجاهدين الى عقد اجتماع في زاوية تقع داخل ساحة الحرم المقدسي الشريف، في أول أيار (مايو) ١٩٣٦، حيث تدارس المجتمعون الاوضاع المستجدة في البلاد، وتشكلت لديهم قناعة تامة «بأن الحكومة البريطانية لن تبدل موقفها، ولن تدخل أي تعديل على سياستها الظالمة، وانها مصممة على تحقيق خطتها التي تستهدف تهويد فلسطين وإزالة طابعها العربي. لأجل هذا ولقصد الدفاع عن فلسطين وحماية شعبها وصيانة عروبتها، اتخذ المجتمعون قراراً بوجوب التمرد والعصيان على الحكم البريطاني، والقيام بثورة مسلحة عامة، وبتفويض عبد القادر الحسيني ومكتب القيادة العامة للتنظيم في القدس إعلان بدء هذه الثورة في الظرف الذي يرونه مناسباً.

وإزاء إصرار بريطانيا على تحديها للعرب، و سماحها للهجرة اليهودية بالاستمرار، ونظراً لعدم جدوى المظاهرات والاحتجاجات والبرقيات في حمل الحكومة البريطانية على تبديل سياستها، فقد عقد مجلس قيادة التنظيم السري لجيش الجهاد المقدس، اجتماعاً طارئاً في القدس قبل ظهر ٦ أيار (مايو) برئاسة عبد القادر الحسيني للبحث في الوضع، والنظر في تنفيذ القرار الذي اتخذه المجلس في أول أيار (مايو) بإعلان الثورة في الظرف المناسب. ونتيجة للمداولات التي دارت في هذا الاجتماع، والاتصالات التي جرت مع الزعامة السياسية، تقرر إعلان الثورة في السابع من أيار (مايو) عام ١٩٣٦.

وهكذا بدأت ثورة فلسطين الكبرى في عام ١٩٣٦. فعلى أثر صدرو القرار بإعلان الثورة وتعميمه على المجاهدين خرج عبد القادر الحسيني في منتصف ليل ٦ ـ ٧ أيار (مايو)، ومعه عدد من رجال جيش الجهاد المقدس، الى أماكن جبلية كانت قد اختيرت من قبل لتكون قواعد للمجاهدين ومراكز لانطلاقهم. وفي فجر السابع من أيار (مايو) اطلق عبد القادر الحسيني الرصاصة الاولى ايذاناً ببدء الثورة، وذلك في قرية «بيت سوريك» (شمال غربي القدس) وانقض المجاهدون على ثكنة للجيش البريطاني بالقرب منها، ودمروا مركز الرادار فيها، ثم انطلقوا الى منطقة القسطل لقطع طريق المواصلات الرئيس بين يافا والقدس. وفي الوقت نفسه اندفعت قوات الجهاد المقدس من قواعدها في بتير وقالونيه وعين كارم وساريس وابوديس وقطنه وصوبا والعيسوية وغيرها من قرى قضاء القدس لمهاجمة ثكنات الجيش ومراكز الشرطة وحرس المعسكرات اليهودية، في حين انطلقت فرق التدمير التابعة للجهاد المقدس لنسف الجسور وبعض طرق المواصلات، وزرع الالغام تحت الخط الحديدي، وعلى الطرقات التي كان من المتوقع وصول النجدات العسكرية البريطانية عبرها، وتقويض أعمدة الهاتف والبرق وقطع الاسلاك... أما في مدينة القدس نفسها، فقد انطلقت فصائل المجاهدين وخلاياهم المخصصة للعمل داخل المدينة ومهاجمة مراكز الجيش والشرطة، وإشعال النيران في دوائر الحكومة وزرع الالغام في المناطق المحيطة بها وفي الاحياء اليهودية. ووقعت في سائر أنحاء فلسطين أعمال مماثلة لتلك التي قام بها المجاهدون في منطقة القدس.

وكان لهذا النضال المسلح اصداؤه الواسعة في البلاد العربية، اذ سرعان ما انضم اليه المتطوعون والمجاهدون من ابناء سورية والعراق ولبنان وشرقي

الاردن، وكان معظمهم يحسن استعمال الاسلحة، نظراً لخدمته العسكرية السابقة. وهكذا اشتد أزر جيش الجهاد المقدس، وتمكن من خوض عدة معارك ناجحة ضد المستعمرين الانكليز والصهاينة.

وعندما توقفت الثورة، إثر تدخل الملوك والرؤساء العرب، لم يلق جيش الجهاد المقدس سلاحه، وانما لجأ الى اسلوب جديد في العمل، وهو إنشاء الخلايا السرية داخل البلاد وخارجها، وتزويد المتطوعين بالسلاح والذخيرة والمال، استعداداً لخوض معارك جديدة متوقعة مع القوات الانكليزية والصهيونية.

وبعد اغتيال حاكم لواء الجليل البريطاني أندروز في ٢٩ ايلول (سبتمبر ١٩٣٧) في مدينة الناصرة، استأنف الفلسطينيون ثورتهم، وشملت هذه المرة كافة المدن والمرافق الحيوية في البلاد. وقد سيطرت قوات الثورة وجيش الجهاد المقدس على القدس القديمة وبيت لحم وبئر السبع واللد وجنين وغيرها من المدن الرئيسية، بالاضافة الى عشرات القرى المجاورة لها. واستمرت الثورة حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية، حيث قطعت بريطانيا على نفسها وعداً بإنصاف الفلسطينيين وتحقيق مطالبهم، مقابل إيقاف العمليات العسكرية.

كان جيش الجهاد المقدس، بسبب ظروف نشأته وتكوينه، يتألف من عدة تشكيلات خاصة، حسب ظروف العمل والمهمات المنوطة بكل منها، ومن أهم هذه التشكيلات: أ ـ الفصائل المقاتلة: وتضم الفلسطينيين والمتطوعين العرب، ومهمتها نشر الثورة، وقطع طرق المواصلات، ومواجهة أعمال الإرهاب الصهيوني. وكانت الهيئة العربية العليا تساهم في تمويل وتسليح هذه الفصائل التي كان يتراوح عدد كل واحدة منها بين ٨ ــ ١٠ مقاتلين من مستويات

عسكرية متباينة، ب ـ المجاهدون المرابطون: وتتكون تنظيماتهم من المواطنين المقيمين في القرى، للدفاع عن قراهم، والتصدي لهجمات العدو. وقد قدر عددهم بأكثر من ١٨ ألف مجاهد متوسطي التدريب والتسليح، ج ـ فصيل التدمير : وكان هذا الفصيل يتألف من الاختصاصيين بعمليات النسف والتدمير. وقد شهد هذا الفصيل تطوراً نوعياً بفضل من انضم اليه من العناصر المدربة والجنود الفلسطينيون الذين خاضوا غمار الحرب العالمية الثانية الى جانب القوات البريطانية، د ـ فصيل الاغتيال: وكان عموده الفقري من العناصر الفلسطينية المتحمسة، ومهمته الاساسية اغتيال الخونة، وباعة الأرض لليهود، والعناصر الانكليزية المعادية لعروبة فلسطين. وقد احدث هذا الفصيل ارهاباً فكرياً قوياً في البلاد، خاصة بعد اغتيال حاكم الجليل. ولم تنج من عملياته الشخصيات الفلسطينية المتعاملة مع الانكليز، او التي يشك بولائها للشعب الفلسطيني وقضيته النضالية.

اعتمد جيش الجهاد المقدس على مصادر مختلفة لتأمين السلاح. فكان يشتري البعض ويتلقى البعض الآخر كتبرعات من الدول العربية المتعددة، مما أدى الى عدم توحيد السلاح والذخيرة، الأمر الذي اضعف القوة العسكرية للجيش، وخلق المشاكل والصعوبات الإدارية لتزويد الفصائل المختلفة بالذخيرة وقطع التبديل، إضافة الى ضعف الجهاز الفني المختص بالتخزين والتوزيع والصيانة والتصليح. وقد حصل جيش الجهاد المقدس، بوسائل مختلفة، على اسلحة متعددة الانواع بعضها مصنوع قبل الحرب العالمية الأولى. وأهمها: ٥٣٩٦ بندقية مختلفة الصنع (بما فيها بعض البنادق الألمانية والبلجيكية)، ٣٦٤ رشيشة (رشاش قصير) توميغن وستن، ٣٠٩ مسدسات من أنواع مختلفة، ٣١٩

رشاشاً خفيفاً انكليزياً، ١٤٦٧٤٠ قنبلة يدوية (دفاعية وهجومية)، ١٨٠ رشاشاً، ٣٢ مدفع هاون فرنسي وانكليزي، ١٩٠ قاذفاً صاروخياً مضاداً للدبابات، ٣٨٦٧ لغماً من انواع مختلفة ضد الآليات والافراد، ٣٣٠٠٠ صاعق عادي، ٨٠٠٠ كلغ متفجرات معظمها بارود أسود، ٦١٠٢٢١٦ طلقة بندقية (كان قسم منها غير صالح للاستعمال)، ٥٦٦٢٥٧ طلقة رشاش خفيف، ٢٦٧١١٨ طلقة رشاش، ٤٢٤٢ طلقة مسدس، ٦٧٥٤٤ قذيقة مدفع ضد الآليات، ١٢٤٨٣ قذيقة هاون من عيارات مختلفة، بالاضافة الى بعض التجهيزات العسكرية.

وكانت قيادة جيش الجهاد المقدس تشكو من قلة الامكانات المادية المتوفرة، وعدم توفر وسائط الاتصالات السلكية واللاسلكية بشكل منتظم، وندرة وسائل النقل الضرورية لدفع النجدات من قرية الى اخرى عند الحاجة، وعدم توفر الكوادر الفنية من عسكريين ومدنيين. ولقد أدت كل هذه الاسباب إلى جعل قوات جيش الجهاد المقدس تمر بمواقف يصعب حلها حتى على القوات النظامية التي تفوقها عدداً وعتاداً. ومع هذا فقد تمكنت وحداته من خوض عدة معارك ناجحة بالقياس الى الامكانات الضئيلة المتوفرة لها، وسعة منطقة انتشارها.

وكانت قوات جيش الجهاد المقدس موزعة على سبع مناطق رئيسية تغطي معظم الأراضي الفلسطينية قبل احتلالها، وهي:

أ ـ منطقة القدس، وتضم قواتها ٤ سرايا متحركة، و ٤ سرايا تدمير، ووحدة طبية، وعدة مفارز دفاعية موزعة في انحاء القدس. وكانت المهام الموكلة الى هذه السرايا هي الدفاع عن القدس وضواحيها، حيث كانت تتمركز في

الشيخ جراح، وباب الزاهرة، والقلعة، وقرية ابودبس، وصور باهر، وبيت صفافا، والقلمون، وديـر أبوثـور، والبقعة، والمنطقـة الممتـدة مـن القـدس حتـى الشيخ جراح وسلوان ووادي سواحرة والطور.

ب ـ منطقة بيت لحم، وتضم قواتها ٥ سرايا متحركة، وعدة مفارز دفاعية، وفصيل فدائيين. وكانت هذه القوات مكلفة بالدفاع عن المناطق التالية: بيت لحم، وبيت جالا، وجبل المكبر، والقاهرية، وأرنا العروب، والجبعة، وصوريف، وبيت عامر، ودوره، وترقومية، وبيت عولا، وضراس، ونوبا، ووادي القف، وبطا، والسموع، وبني نعيم.

جـ ـ منطقة رام الله، وتضم قواتها سريتين متحركتين، و ٦ سرايا من المتطوعين. وكانت هذه القوات موزعة على خط يمتد من شعفاط شمالي القدس الى باب الواد على طريق «يافا ـ القدس»، حتى يصل الى طير بني صعب، وتدخل ضمن هذا الخط الأماكن والقرى التالية: شعفاط، والنبي شمويل، وبيت فوريك، وعين كارم، وقالونيا، والقسطل، وبدو يالو، وباب الواد، وبين تول، ودير العرب، وسريس، وبيت محسير، والأطرولة.

د ـ المنطقة الغربية الوسطى، وتضم قواتها ٣ سرايا متحركة، و٣ سرايا تدمير، ووحدتين طبيتين، وبين ٢٠ و ٢٥ مفرزة، و ٣ فصائل تدمير. وقد تم توزيع هذه القوات بشكل تتمكن معه من الدفاع عن يافا والرملة واللد والمجدل ووادي الصرار، ولذا فقد قسمت الى عدة جبهات هي: جبهة مدينة يافا، وجبهات القرى الواقعة الى الغرب من مدينة يافا، وجبهات مدينة اللد والقرى المحيطة بها، وجبهات الرملة وقراها، وجبهات المجدل والقرى المحيطة بها.

هـ ــ المنطقة الجنوبية، وتضم قواتها ٣ سرايا متحركة، وعدة مفارز دفاعية، وفصيل تدمير واحد. وكانت هذه القوات تتوزع على المدن والقرى التالية: غزة، والمطار، وجبل منطار، والبريج، وعراق سويدان، ونقطة جمارك البحر، وخان يونس، ودير البلح، والمجدل، وبئر السبع.

و ـ المنطقة الغربية، وتضم قواتها عدة مفارز لايتجاوز عدد افرادها عن سريتين كاملتين، أما مناطق دفاعها فكانت تشمل: قلقيلية، وطولكرم، وجنين، وبيادر عدس، وجت، ودير الغصون، وعلار، وقاقون، وزيتا، وشويكة، ويافا، وعنبتا، وكفر اللد، والطيبة، وأم الفحم، وصانور، وقرى اللجون، وفقوعة، وزرعين ورمانة.

ز ـ المنطقة الشمالية، وتضم قواتها ٤ سرايا متحركة، و ٣ سرايا تدمير، ووحدة طبية، وبين ٣٠ و ٣٥ مفرزة، و ٤ فصائل تدمير. وتشمل اماكن عمليات هذه القوات المناطق التالية: حيفا، وعكا، والناصرة، وطبريا، وبيسان، وصفد، بالإضافة الى اكثر من مائة قرية عربية موزعة في لواء الجليل. أما الاعمال التي قام بها جيش الجهاد المقدس في كافة ثوراته وانتفاضاته، سواء كان ذلك بمفرده ام بالاشتراك مع المجاهدين بمبادراتهم الذاتية، وقوات جيش الانقاذ فيما بعد، فقد كانت في غالبيتها من نوع حرب العصابات، كقطع طرق القوافل الانكليزية والصهيونية، والإغارات الليلية على معسكرات الجيش البريطاني والمستعمرات اليهودية. وكانت أعنف مواقع المواجهة هي معركة الخضر (١٩٣٦) التي استشهد فيها المجاهد السوري سعيد العاص، وجرح خلالها القائد عبد القادر الحسيني، فاعتقله الانكليز وهو بين الموت والحياة ونقلوه الى

المستشفى. إلا أن رفاقه من فصائل الفدائيين قاموا بعملية فدائية على المستشفى وتمكنوا من انقاذه ونقله إلى دمشق، فعولج هناك من جراحه.

ومن أشهر المعارك التي خاضها جيش الجهاد المقدس، معركة القسطل التي استشهد فيها القائد عبد القادر الحسيني في ٨ نيسان (ابريل) ١٩٤٨.

وقد تولى قيادة الجهاد المقدس بعده ابن عمه خالد شريف الحسيني.

ثم شارك جيش الجهاد المقدس ـ وبعض عناصره احياناً ـ في معظم المعارك مع جيش الانقاذ، فخاض غمار المعارك في شوارع القدس واحيائها كالقطعون والشيخ جراح وذلك في آذار (مارس) ونيسان (ابريل) ١٩٤٨، وفي القسطل من ٤ الى ٨ نيسان (ابريل) ١٩٤٨، وفي كفار عصيون ٢٧ نيسان (ابريل) ١٩٤٨؛ وفي الحي اليهودي ضمن القدس القديمة في ٢٦ ـ ٢٨ أيار (مايو) ١٩٤٨. ولقد قامت فصائل التدمير التابعة لجيش الجهاد المقدس بعدة عمليات نسف مشهورة، من بينها: نسف محلة المونتفيوري وشارع بن يهودا، ونسف دار الوكالة اليهودية وعمارة جريدة البالستاين بوس (Palestine Post)، ونسف شارع هاسوليل، ونسف معمل السبيرتو الواقع عند مدخل يافا، ونسف عمارة حزبون التي كانت تقطع طريق يافا ـ الرملة ـ القدس، ونسف معمل الجير (الكلس) الواقع قرب مستعمرة بتاح تكفا، ونسف عمارة المطاحن في حيفا، وغيرها من عمليات التدمير المشهورة داخل الاحياء اليهودية.

ونظراً لما قد يشكله بقاء جيش الجهاد المقدس من خطر على الخطة الرامية الى تهويد فلسطين، وضم القسم الباقي الى شرق الاردن، فقد صدر أمر بحل جيش الجهاد المقدس من عمان في ١٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٩، إلا أن

وحداته بقيت مرابطة في بعض الخطوط الامامية، على أمل استئناف القتال، الى أن أتاها أمر من الهيئة العربية العليا في القاهرة، فانقطعت عن العمل نهائياً في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٩، وانتهى بذلك دور جيش الجهاد المقدس كقوة مقاتلة في فلسطين. ولقد قدم هذا الجيش خلال مرحلة كفاحه المسلح الخسائر التالية: ٣٠٠٠ شهيد في ثورة ١٩٣٦، و ٨٠٠٠ شهيد و ١٥٠٠ جريح في فترة ١٩٤٧ - ١٩٤٨.

لقد كان جيش الجهاد المقدس من طلائع العمل النضالي العربي التي انبثقت تنظيماتها من صميم الشعب الفلسطيني، وكان في جوهره اول مظهر من مظاهر القوات الشعبية التي تحمل في داخلها بعض سمات الجيش الشعبي شبه النظامي. ولو توفرت لهذا الجيش القيادات الكفوءة (على مستوى المناطق)، والامكانات المادية المطلوبة (التسليح والمعدات وأجهزة الاشارة والتموين) لكان بوسعه أن يكون نواة قوة شعبية ثورية فلسطينية مؤهلة للتطور والنمو خلال النضال المسلح ضد الاستعمار والصهيونية.

هذا وكان البريطانيون خلال فترة الصدامات التي سبقت ما قبل الحرب يتظاهرون بالوقوف على الحياد ويدعمون عملياً المنظمات الارهابية الصهيونية ويزودونها بالسلاح والذخائر. وفي ١٩ آذار (مارس) ١٩٤٨ عقد مجلس الأمن جلسة استمع فيها الى قرار لجنة التقسيم، وجاء فيه «استحالة العمل وسط القوة والعنف»، وذكر أن السبيل الوحيد أمام هيئة الأمم المتحدة لمعالجة قضية فلسطين هو «ارسال جيش دولي لتنفيذ التقسيم بالقوة أو اهماله نهائياً». وأمام هذا الموقف ونتيجة لمقاومة العرب المتصاعدة، قامت أكثر الدول حماسة لمشروع التقسم بالتخلي عن مشروعها، واعلن المندوب الأمريكي سحب حكومته

لتأيدها لقرار التقسيم، واقترح وضع فلسطين تحت الوصاية، وإعادة القضية للأمم المتحدة، ودعوة الطرفين الى هدنة في فلسطين. وعقدت الجامعة العربية اجتماعاً في نيسان (ابريل) ١٩٤٨ قررت فيه رفض اقتراح وضع فلسطين تحت الوصاية الدولية، وجاء في قرارها الذي أبلغ إلى الأمم المتحدة «ان الوصاية الدولية نظام مؤقت سيزيد اليهود خلاله قوة، ويعطيهم وقتاً لتأمين تفوق لهم على تفوق العرب الحاضر».

واشترطت الجامعة العربية أيضاً لقبول الهدنة في فلسطين الشروط التالية: ١ ـ حل الهاغاناه، ٢ ـ وقف الهجرة الى فلسطين، ٣ ـ تجريد اليهود من السلاح.

وفي الوقت نفسه رفضت الوكالة اليهودية نظام الوصاية الدولية، لأن قرار التقسيم أصبح وثيقة دولية. واشترطت لقبول الهدنة ان لا يكون في اقرارها ما يحول دون قيام الدولة اليهودية. وأمام هذا الموقف اتخذ مجلس الأمن في شهر آذار (مارس) القرار التالي: «١ ـ إعادة القضية للجمعية العامة لإعادة النظر فيها على ضوء التطورات الجديدة، ٢ ـ دعوة العرب واليهود الى عقد هدنة في فلسطين وتعيين قناصل اميركا وبلجيكا وفرنسا في القدس للاشراف على تنفيذ اقتراح الهدنة، ٣ ـ دعوة الجمعية العمومية الى دورة استثنائية خاصة تعقد في ١٦ نيسان (أبريل) ١٩٤٨ للنظر مجدداً في قضية فلسطين» ولقد فشلت لجنة الهدنة في مهمتها، وأبرقت الى مجلس الأمن باعلان عجزها عن أداء المهمة الموكولة اليها. وخلال هذه الفترة كانت بريطانيا تتابع تنفيذ سياستها لإقامة الكيان عملياً.

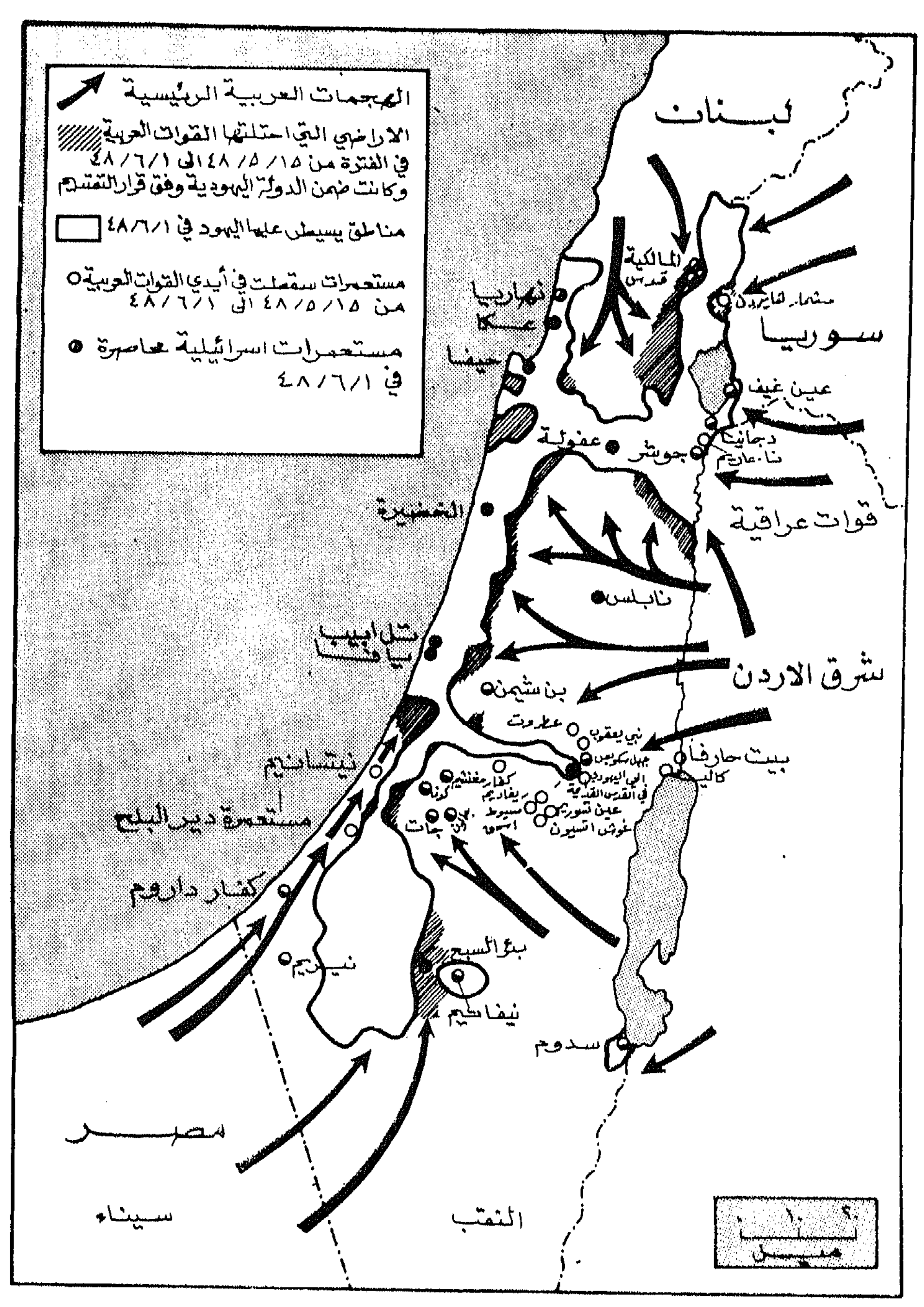
وعلى الرغم من نداء مجلس الأمن باعادة قضية فلسطين للجمعية العمومية من أجل بحثها مجدداً، وعلى الرغم أيضاً من نداء المجلس الموجه اليها في

١٧ نيسان (أبريل) ١٩٤٨ للبقاء في فلسطين كدولة منتدبة تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة حتى يتم الوصول الى حل جديد للمشكلة.

التآمر البريطاني :

وعلى الرغم من المجازر التي اجتاحت جميع انحاء فلسطين في أعقاب فشل جهود لجنة الهدنة الثلاثية، فقد أصرت بريطانيا على تنفيذ قرارها القاضي بالانسحاب نهائياً من فلسطين بتاريخ أقصاه يوم ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨. كانت بريطانيا واثقة من نجاحها في اقرار التقسيم في النهاية، حتى بعد قرار مجلس الأمن الأخير، وحتى بعد تغير موقف بعض الدول من قرار التقسيم وانقلابها عليه. ولكنها كانت تشك بقدرتها وقدرة الأمم المتحدة على تنفيذ التقسيم مع وجود المقاومة العربية العنيدة والمتصاعدة. ولذلك، ومن أجل التغلب على العقبات، وضعت بريطانيا مخططاً جديداً يتلخص في تمكين العصابات اليهودية من الاستيلاء على اكبر عدد من القواعد والمواقع والمعسكرات البريطانية في فلسطين اثناء وجودها وبدعم منها، وتأمين الوسائل الضرورية لإرغام العرب على الجلاء عن المناطق التي رأت بريطانيا أنها ضرورة لقيام الدولة اليهودية ولتحقيق سلامتها، وانتزاع قيادة الكفاح العربي من الشعب الفلسطيني ومن هيئاته الوطنية ونقله الى قيادة يمكن لبريطانيا توجيهها والهيمنة عليها وعلى تصرفاتها. وتنفيذاً لهذا المخطط بدأت بريطانيا انسحابها خلال الفترة بين ١٩ شباط (فبراير) ١٩٤٧ و ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨. ولم تتم عملية الانسحاب من المناطق العربية واليهودية بوقت واحد، وانما بدأت بالجلاء عن المناطق اليهودية، فجلت أول ما جلت عن منطقة تل أبيب ثم عن المدن والقرى التي يقطنها اليهود. وكات تسلم سلطات الادارة في هذه المناطق الى

الوكالة اليهودية، كما تسلمها أو تتخلى لها عن المعسكرات والمطارات ومستودعات الذخيرة التي كانت تحتل الأهمية الأولى في فلسطين خلال تلك الفترة. وبذلك هيأت بريطانيا لليهود فرصة تشكيل أداة ادارية وعسكرية قبل ستة أشهر على الأقل من انسحابها الكامل عن فلسطين، وأصبحت هذه الادارة تسيطر فعلاً على عدد من المعسكرات الحربية البريطانية والمطارات والقلاع والمراكز مع جميع ما في هذه الأماكن من تجهيزات ومعدات وأسلحة وذخائر. أما في المناطق العربية فقد ظلت جميع القوات البريطانية حتى آخر أيام الموعد المحدد وهي تمارس جميع صلاحياتها ضد الشعب العربي الفلسطيني، وضد استعداداته العسكرية للدفاع عن نفسه ضد الهجمات المنظمة التي أخذ الصهاينة بشنها ضد العرب، وقاومت ادخال الأسلحة الى المناطق العربية كما قاومت دخول المتطوعين من البلاد العربية الى فلسطين. وحدثت خلال هذه الفترة، وتحت حماية الانتداب البريطاني مجموعة من المذابح الارهابية كان لها دور كبير في تفتيت الروح المعنوية للمقاومة، واثارة الرأي العام العربي مما دفع الحكومات العربية الى اتخاذ قرارها في ١٢ نيسان (أبريل) ١٩٤٨ بدخول الجيوش العربية فلسطين لتحريرها. وبدأ العمل لحشد القوات على الجبهات الرئيسية بحيث أصبح ميزان القوى كالتالي مصر ١٠٠٠٠ جندي على جبهة سيناء مقابل ٦٥٠٠ صهيوني، القدس والممر ٧٥٠٠ عراقي وأردني مقابل قوة مماثلة من الصهاينة، في الشمال ٣٠٠٠ مقاتل سوري وألف لبناني و ٢٠٠٠ من جيش الانقاذ مقابل ٥٠٠٠٠ صهيوني وهذا يشير الى توفر تعادل في ميزان القوى من الناحية البشرية. وعلاوة على ذلك فانه لم تكن هناك مخططات لتنسيق عمل القوات العربية في حين كانت قيادة القوات الصهيونية موحدة. وعلى هذا فقد حدد لكل جيش عربي هدف يصل اليه في وقت معين على أن تصدر الأوامر بعد ذلك حسب الموقف.



التحركات الأولى للجيوش العربية من ٥/١٦ إلى ١٩٤٨/٦/١

مخطط القوات العربية :

وكانت مخططات القوات وأهدافها عشية ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨ كالتالي:

١ ـ الجيش المصري. ويتم حشده على الحدود في منطقة العريش بهدف الاستيلاء على غزة، وتكلف البحرية المصرية بواجب مراقبة السواحل الفلسطينية وفرض حصار عليها بالتعاون مع القوات الجوية التي تضطلع بواجب دعم القوات الأرضية اثناء عملياتها.

٢ ـ الجيش الأردني. ويعمل على دعم قواته المرابطة في جسر الشيخ ياسين لتأمين الدفاع عنه. ويدفع قواته لاحتلال نابلس بقوة لواء مشاة واحتلال رام الله بقوة لواء ميكانيكي مع الاحتفاظ بقوة لواء ميكانيكي كاحتياط في منطقة خان الأحمر.

٣ ـ الجيش العراقي. ويتم حشده في المنطقة بين اربد والحدود بمهمة التقدم على محور اربد ـ جسر المجامع وتطهير المنطقة من المستعمرات الصهيونية واحتلال رأس جسر عبر الاردن في منطقة جسر المجامع.

٤ ـ الجيش السوري. وحدد له واجب التقدم على محور الحمة ـ سمخ وانشاء رأس جسر عبر نهر الاردن.

٥ ـ الجيش اللبناني. ويحتشد في رأس الناقورة بهدف الاستيلاء على منطقة نهاريا وتطهير المنطقة الكائنة بين الحدود والمستعمرات الصهيونية الموجودة فيها.

قوات العدو الصهيوني :

وبالمقابل، كان الصهاينة قد أكملوا تنظيمهم وتسليحهم، فتكون لديهم عشرة ألوية اقليمية، تم توزيعها على النحو التالي:

١ ـ في الشمال، ثلاثة ألوية وهي: (يفتاح) أحد ألوية البالماخ، وكان هو وكل المستعمرات في المنطقة تحت قيادة «ييغال آلون»، وبعد ذلك تحت قيادة «هولاه كوهين»، ولواء (غولاني) وهو اللواء الأول من ألوية (الهاغاناه) الذي يقوده «موشي مونتاج» ونائبه «ن.جولان»، ويسيطر على طبريا ووادي الأردن، ثم اللواء الثاني للهاغاناه بقيادة «موشي كارميل» الذي أصبح فيما بعد قائداً للجبهة الشمالية.

٢ ـ في الوسط، قوة لوائين وهما: لواء الكسندروني (ثالث لواء من ألوية الهاغاناه) بقيادة «دان ايفن» الذي يسيطر على جبهة (ناتانيا) ولواء كيرياتي، (رابع ألوية الهاغاناه) بقيادة «مخائيل بن جال» الذي كان يسيطر على (تل أبيب) والمنطقة المحيطة بها.

٣ ـ في الجنوب، قوة لوائين وهما: لواء جفعاتي (اللواء الخامس للهاغاناه) بقيادة «شيمون أفيدان» ويسيطر على جبهة (راحابوت ـ أسدود) ولواء النقيب (هانيجف) التابع للبالماخ بقيادة «ناحوم ساريح» ويسيطر على أقصى الجنوب.

٤ ـ منطقة القدس وفيها ثلاثة ألوية: لواء عنسيوني بقيادة «دافيد شالتيل» في منطقة القدس، ولواء (هاري ايل) في ممر القدس، واللواء السابع التابع لهاغاناه والذي شكل للهجوم على (اللطرون). وأسندت قيادته الى «شالوم شامير».

العوامل التي أثرت على الموقف العسكري :

هنا من الضروري الاشارة الى نقطتين هامتين: أولاهما تتعلق بالعوامل التي أثرت على الموقف العسكري، ومنها تحديد موعد بدء العمليات الحربية مسبقاً بجلاء القوات البريطانية يوم ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨، مما أعاق كل أثر للمباغته. وكانت الجيوش العربية ذاتها تعاني من مشكلات عديدة، اذ كان بعضها خاضعاً للاستعمار. فقادة الجيش الاردني من البريطانيين، وجيشا مصر والعراق خاضعان لبنود معاهدتين تقيدان تحركاتهما. وكان الجيش السوري والجيش اللبناني حديثي التكوين وضعيفين في عددهما وتسليحهما. وكان الجيش السعودي والجيش الأردني ضعيفين في عددهما وتسليحهما أيضاً. وكان الاستعمار البريطاني يتحكم بموارد التسلح. والنقطة الثانية هي المقررات التي اعلنتها الجامعة العربية في ١٢ نيسان (أبريل) ١٩٤٨ وفيها: ١ ـ اعتبار الجيوش العربية الوسيلة الوحيدة الصالحة لحماية عرب فلسطين وانقاذ عروبتها، ٢ ـ حل جميع المنظمات العسكرية الشعبية في فلسطين وايقاف نشاطها وابعادها عن ميدان المعركة، ٣ ـ عزل جميع الأحزاب والهيئات السياسية الفلسطينية عن مباشرة معالجة قضية فلسطين أو الاشتراك في العمليات العسكرية وترك معالجة القضية كاملة للجامعة العربية أو الجيوش العربية، ٤ ـ وضع خطة عسكرية مشتركة لجميع تحركات الجيوش العربية في فلسطين، وتكوين هيئة قيادة عامة واعتبار القائد الأعلى للجيش الأردني رئيساً لهذه الهيئة، ٥ ـ إعلان حالة الطوارىء والأحكام العرفية في البلاد العربية بغية حماية المجهود الحربي ومؤخرة الجيوش الزاحفة الى فلسطين، ووضع التشريعات القاسية لضرب الحركات الوطنية تحت شعار مكافحة النشاط الهدام وجواسيس الصهيونية. وبذلك

استطاعت بريطانيا احكام قبضتها على تحرك القوات والسيطرة على الموقف والقضاء على كل معارضة.

دخلت الجيوش العربية أرض فلسطين مع منتصف ليل ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨، وكانت تطورات الأعمال القتالية على الجبهات ـ رغم نقاط الضعف كلها ـ تسير بصورة جيدة على النحو التالي:

المرحلة الأولى ١٥ / ٥ ـ ١٩٤٨/٦/١١

الجبهة المصرية: كانت بداية العمليات على الجبهة المصرية الهجوم على مستعمرة الدنجور التي تقع على مرتفع يهيمن على طريق رفح ـ غزة، والتي تبعد مسافة ٥كم تقريباً شرق الطريق. وقد هدفت القوات المصرية من احتلالها، حماية محور امدادها وتقدمها. وتم تدمير المستعمرة بنيران المدفعية بينما كانت القوات الرئيسية من مشاة ومدفعية ومدرعات تتقدم في اتجاه غزة، وقامت قوات خفيفة بمحاصرة المستعمرة. وفي مسار يوم ١٥ دخلت القوات المصرية مدينة غزة. وفي فجر يوم ١٦ أيار (مايو). تابعت القوات تقدمها فاصطدمت بمستعمرة (مفار ديروم) الواقعة الى الجنوب من غزة وعلى بعد منها بمسافة ١٦ كم تقريباً. فتم تركيز نيران المدفعية عليها وخصصت قوات المتطوعين لحصارها وتابعت القوات عملها حيث اخذت المدفعية بالتعامل مع مستعمرات العدو الموجودة أمام غزة وهي (بيري وبيرون أسحق، واللاسلكي). وفي هذا اليوم ذاته قامت القوات الجوية المصرية بقصف مستعمرة الدنجور ومطار بتاح تكاف، وميناء تل أبيب. في يوم ١٧ أيار (مايو). صدرت الأوامر الى قوات المتطوعين ـ بقيادة المقدم أحمد عبد العزيز ـ بالتقدم الى بئر السبع عن طريق غزة ـ بئر السبع. فقامت بالتنفيذ

واصطدمت بمقاومة شديدة في كل بركة العمارة، ولكنها تمكنت من التغلب عليها ونجحت في اقتحام المواقع الدفاعية المحيطة بالمدينة ودخلتها بعد ظهر يوم ١٩ أيار (مايو). وفي الوقت ذاته، تقدمت القوات المصرية شرقي بلدة رفح واحتلت العوجه ومنطقة العسلوج بقوات صغيرة، ثم احتلت بئر السبع، بعد أن سيطرت عليها قوات المتطوعين، واتصلت القوات المصرية شمالاً بالمتطوعين في بلدة الخليل. وتابعت القوات المصرية بعد ذلك تقدمها على المحور الساحلي حيث اصطدمت بمستعمرة دير سنيد (ياد مردخاي) التي تهيمن على طريق الساحل بين غزة والمجدل، وتم تنظيم الهجوم ضد دير سنيد بقوة الكتيبة الأولى للمشاة وبطاريتي مدفعية عيار ٢٥ رطل وسرية مصفحات وعدد من الطائرات. وفي يوم ١٩ أيار (مايو) ١٩٤٨، بدأت الكتيبة الأولى هجومها ونجحت في احتلال موقع (فيلبوكس) القائم الى جنوب المستعمرة والمهيمن عليها ولكن عندما حاول جنود المشاة اختراق النقطة ذاتها، صدوا عنها بعد تكبيدهم خسائر فادحة. ونتيجة لهذا الفشل أعادت القيادة المصرية تنظيم قواتها، وزجت في المعركة الكتيبة الاولى والثانية مشاة، وكتيبة مدفعية، وسرية مصفحات ودبابة. وقد لقي الهجوم فشلاً أولياً، فأعيد تنظيمه ثانية. وعند الوصول الى انهاك المقاومة ليلاً، قرر القائد متابعة المعركة وأمكن في النهاية السيطرة على المستعمرة ورفع العلم المصري فوقها يوم ٢٤ أيار (مايو) ١٩٤٨.

وفي الوقت الذي كانت فيه الكتيبة الثانية تخوض معركتها ضد دير سنيد، كلفت الكتيبة الأولى مشاة بالتقدم الى المجدل، في يوم ٢٢ أيار (مايو). واستطاعت الكتيبة أن تسلك طريقاً جانبية، وأن تصل الى المستعمرة وتحتلها دون مقاومة. وفي يوم ٢٤ ايار (مايو) تم احتلال مدينة عراق سويدان. وبذلك

سيطرت القوات المصرية على الطريق المؤدية الى المستعمرات اليهودية الجنوبية. ويعتبر هذا أول عمل قامت به القوة المصرية لعزل المستعمرات الموجودة في النقب. وكانت الخطوة التالية هي احتلال اسدود، وقد تم تنظيم الهجوم ضدها بهدف تخفيف الضغط عن الجيش الأردني الذي كان يجابه هجمات قوية على محور باب الواد ـ اللطرون. وفي يوم ٢٩ أيار (مايو) تحرك اللواء الثاني (وكان يضم الكتائب الأولى والثانية والتاسعة) في اتجاه اسدود، على ان تبقى الكتيبة الأولى في الجدل. ووصلت القوات السائرة اسدود صباح يوم ٢٩ أيار (مايو)، واحتلت مواقع دفاعية شمالي البلدة بحوالي ٤ كيلومترات، ووصلت المقدمة ظهر اليوم ذاته بعد أن عمل المهندسون على إزالة الألغام المزروعة على محاور الاقتراب. وعندما وصلت الكتيبة الثانية الى ارتفاع مستعمرة نيتسانيم فتحت عليها نيران الرشاشات واشتبكت معها بعض الوقت، ثم استمرت الكتيبة في التقدم حتى دخلت أسدود دون مقاومة. وفي اليوم التالي هاجمت طائرتان اسرائيليتان المصريين ونجحت المدفعية المصرية في اسقاط احداها من طراز مسر شميت. وفي يومي ٢٩ و ٣٠ أيار (مايو) فتحت المدفعية المصرية نيرانها على مستعمرتي نجبا وبيرون إسحاق، كما هاجمت القوات الجوية المصرية المستعمرات الجنوبية ومستعمرة رحابوت ودوروت للحد من نشاطها، وقصف ميناء تل أبيب. وفي يوم ٣٠ أيار (مايو) قامت القوات الاسرائيلية بهجوم مضاد على المواقع المصرية في أسدود، غير أنه صد ببسالة، فركن العدو الى الانسحاب تاركاً خلفه عدداً كبيراً من القتلى. ثم قامت القوات الاسرائيلية بهجوم مضاد ثان على اسدود في اليوم الأول من حزيران (يونيو)، غير أنه رد على أعقابه متكبداً خسائر فادحة. وفي ٢ حزيران (يونيو) ١٩٤٨، طلبت قيادة

الجيش المصري من قواتها في فلسطين احتلال خط المجدل ـ الفالوجا ـ بيت جبرين ـ الخليل، وخط أسدود ـ قسطينه بهدف فصل المستعمرات الجنوبية في النقب عن منطقة شمال فلسطين، وارغام هذه المستعمرات على الاستسلام بعد منع الامدادات عنها من الشمال. فصدرت الأوامر الى الكتيبة الأولى بالتقدم شرقاً لاحتلال الفالوجا وبيت جبرين. وبذلك اندفعت القوات شرقاً لمسافة أربعين كيلومتراً من المجدل ونجحت في احتلال المواقع المحددة لها قبل ان تتمكن القوات الاسرائيلية من الوصول اليها. كما قامت بعض الوحدات بعد ذلك باحتلال دير نحاس وترقوميه بعد أن طردت العدو منها، ثم تابعت تقدمها في اتجاه الخليل لتأمين الاتصال بين المجدل والخليل.

في يوم ٣ حزيران (يونيو) قامت القاذفات المصرية بشن غارة على مستعمرات ريشون ليزيون وجان بافين ومطار تل أبيب ومحطة توليد الكهرباء فيها، كما استمرت القوات الجوية في معاونة الجيش الأردني في الجبهة التي كان يعمل فيها. ومن الواضح هنا ان القيادة المصرية قد غيرت اتجاهها فعوضاً عن التوجه شمالاً حتى تل أبيب تركز الجهد الرئيسي نحو الشرق على محور المجدل ـ عراق سويدان ـ الفالوجا ـ بيت جبرين، وذلك بسبب خضوع القيادة المصرية لعدد من العوامل منها الضغوط الدولية لإيقاف القتال، مما حمل هذه القيادة على الاسراع في اكتساب اكبر عدد من المواقع، ومنها أيضاً الرغبة في تحقيق الاتصال بين القوات المصرية النظامية وقوة الفدائيين بقيادة أحمد عبد العزيز التي كانت تتلقى تموينها حتى الآن عن طريق محور طويل وصعب يمتد من العوجه حتى بيت لحم عبر بئر السبع، وثالثها الرغبة في دعم عراق سويدان التي كانت تحتل مواقع هامة تلتقي عندها الطرق التي تربط النقب مع شمال فلسطين. وكانت نتيجة

المرحلة الأولى على الجبهة المصرية أن نجح المصريون في ارغام العدو على الخروج تماماً من جنوب فلسطين. وكانت العمليات الأخيرة لهذه المرحلة هي عمليات نيتسانيم ونجبا.

كانت مستعمرة نيتسانيم نقطة ارتكاز تنطلق منها القوات الاسرائيلية للهجوم على القوات المصرية في اسدود، مما يجعل استمرار احتلال العدو لهذه المستعمرة مصدر تهديد دائم وخطر كبير على القوات المصرية.

وضعت خطة الهجوم للاستيلاء على نيتسانيم بحيث يتم تنفيذها على مرحلتين، يتم في الأولى تقدم المشاة المدعمة بالدبابات الخفيفة لاحتلال الجانب الأيمن من المستعمرة. وفي المرحلة الثانية يتم التقدم من الجانب الأيسر للمستعمرة واحتلال باقي أجزائها.

وفي صباح يوم ٧ حزيران (يونيو) ١٩٤٨ تقدمت الدبابات مقتربة من الجانب الأيمن للمستعمرة واشتبكت مع الاسرائيليين بالنيران حتى تمكنت من اسكات جميع مواقع الأسلحة، ثم تقدمت المشاة خلف الدبابات وقامت بفتح ثغرات في الأسلاك الشائكة المحيطة بالمستعمرة واحتلت مواقع الأسلحة وأرغمت العدو على الانسحاب الى الجهة اليسرى من المستعمرة، وتبع ذلك قيام المشاة والدبابات بسحق المقاومة في الجهة اليسرى. وحوالي الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهر اليوم ذاته، تم الاستيلاء على المستعمرة بعد أن تكبد الاسرائيليون خسائر جسيمة، وأمكن أسر ١٢٠ جندياً. وبالاستيلاء على مستعمرة (نيتسانيم) تم تأمين القوات المصرية الموجودة بأسدود من العزل عن باقي القوات. وقام العدو بعد ذلك بثلاث محاولات لاسترجاع المستعمرة في

يومي ٩ و ١٠ وليل ٩ ـ ١٠ حزيران (يونيو) وانتهت جميع المحاولات بالفشل وتكبد العدو خسائر فادحة.

وكانت المعركة الضاربة الثانية هي معركة (نجبا) حيث كانت هناك مستعمرة اسرائيلية بالقرب من مدينة المجدل على جانب طريق المجدل ـ بيت جبرين ـ القدس. وكانت هذه المستعمرة تهدد التحركات المصرية. وعلاوة على ذلك فقد كانت عملية تأمين أجنحة القوات المصرية في المجدل وخط المواصلات في أسدود وفتح الطريق أمام كل تحرك من المجدل شرقاً في اتجاه بيت جبرين والقدس للاتصال بالجيش الأردني، كل ذلك يفرض بالضرورة احتلال مستعمرة نجبا.

في أول حزيران (يونيو) ١٩٤٨. صدرت الأوامر الى كتيبة مشاة، ومعها كتيبة دبابات خفيفة (لوكست)، وفصيلة من المناضلين العرب، وبطاريتي مدفعية ميدان، وبطارية مدفعية مضادة للطائرات بالهجوم على مستعمرة نجبا. وبدأت المدفعية بقصف المستعمرة من منطقة المجدل. وفي يوم ٢ حزيران (يونيو) تابعت المدفعية تركيز نيرانها بشدة على المستعمرة، وتقدمت الموجة الأولى للهجوم، وفتح المناضلون ثغرة في سياج الاسلاك الشائكة ولكنها لم تكن كافية، فقامت إحدى الدبابات بفتح ثغرة ثانية تقدمت منها داخل المستعمرة وتبعتها باقي الدبابات حيث اشتبكت مع المعاقل ودمرت بعضها. وتمكنت عناصر المشاة الأمامية من احتلال موقع أسلحة واحدة ولم تتمكن باقي الفصيلة من متابعة الدبابات لشدة النيران. وفي الفجر تقدمت الموجة الثانية وأحكمت اغلاق الثغرة، وكان واجبها استغلال نجاح الموجة الأولى واحتلال القطاع الأيمن من

المستعمرة. ونظراً لاستخدام العدو للمدافع المضادة للمدرعات (بيات) فانها لم تتمكن من دخول المستعمرة.

وفي العاشرة صباحاً صدرت الأوامر بالانسحاب بعد أو وصلت معلومات تفيد بأن الاسرائيليون يحشدون قوات كبيرة للقيام بهجوم مضاد على الجانب الأيمن. وبدأ العدو بفتح النار من مدافع الهاون على الدبابات، فانسحبت القوات المشتركة في العملية تحت ستار نيران الدبابات، ثم انسحبت هذه تحت ستارة دخانية. وتمت عملية الانسحاب في الثانية والنصف بعد الظهر، وعادت كل القوة الى المجدل.

خلال هذه العمليات كانت قوات أحمد عبد العزيز (الفدائيون) قد وصلت جنوبي القدس بحوالي سبعة كيلومترات، واحتلت جنوبي القدس بحوالي سبعة كيلومترات، واحتلت بيت لحم. واستطاعت في يوم ٢٤ أيار (مايو) ١٩٤٨ تحقيق الاتصال مع القوات الأردنية.

الجبهة الأردنية: بدأت المعارك بين العدو والمناضلين العرب في القدس الجديدة يوم ١٥ أيار (مايو). وحوصر اليهود في الحي اليهودي من القدس القديمة، في حين أنهم استولوا على مواقع الجيش البريطاني (مركز البوليس والسجن المركزي والبنك ومختلف الأبنية الرسمية في المسكوبية). وفي يوم ١٩٤٨/٥/١٧ وصلت طلائع القوات الأردنية (الفيلق العربي) الى القدس واحتلت شارع المصرارة خارج السور، كما تقدمت الى باب الخليل. وفي يوم ٥/١٨ تتابع وصول القوات الأردنية ومعها المصفحات التي تمركزت في حي الشيخ جراح مقابل كنيسة (نوتردام). وظل الحي اليهودي يدافع ضد الهجمات

الأردنية حتى استسلم وأسر الجيش الأردني الرجال من اليهود، بينما سلم الشيوخ والنساء والأطفال الى قيادة الهاغاناه يوم ٢٨ أيار (مايو) ١٩٤٨.

وفي ٤ حزيران (يونيو) هاجم العدو حي الشيخ جراح، واستمر الهجوم حتى ٩ حزيران (يونيو)، ولكن هذا الهجوم انتهى بالفشل. وفي الشمال، أخلى الاسرائيليون مستعمرة عطروت يوم ١٦ أيار (مايو) بينما احتل جيش الانقاذ مستعمرة نبي يعقوب على طريق رام الله، ثم اتجهت القوات الاسرائيلية لفتح طريق تل أبيب ـ القدس، وفك الحصار عن الاحياء اليهودية في القدس الجديدة.

وفي ٢٦ أيار (مايو) هاجم العدو اللطرون فصدته القوات الأردنية، واستمرت هذه المحاولات حتى ٣٠ أيار (مايو)، حيث استولى الاسرائيليون على باب الواد. وفي ٦ حزيران (يونيو) حولوا اتجاههم نحو فتح طريق جديد يتجنب اللطرون ويمتد من باب الواد الى دير محيش ويسمى (طريق بورما). وفي يوم ٩ حزيران (يونيو) كرر الاسرائيليون هجومهم على القدس وعلى حي الشيخ جراح لفك الحصار عن جبل المكبر، ولكن هذا الهجوم مني بالفشل.

الجبهة السورية: قام الجيش السوري بالهجوم المتفق عليه في الوقت المحدد من ١٥ أيار (مايو) وزج قوة لواء واحد في سمخ على الضفة الجنوبية لبحيرة طبريا، وتقدم نحو ١٠ كيلومترات ووصل الى دغانيا وتوقف لأن قواته كانت لا تسمح بالتقدم بين المستعمرات. وبينما كانت الطائرات السورية تضرب المستعمرات القائمة في وادي الاردن تساندها الطائرات العراقية، كانت الطائرات المعادية تقصف قرية حارم السورية ومعسكر الجيش السوري في تل الأقصر وحشوده في الحمة وفي ضواحي أم قيس. واستخدم الجيش السوري في

اليوم الذي احتل فيه سمخ ١٥ مصفحة و ١٠ دبابات وحاملة برن، واقتصر في هجومه على الدبابات تساندها المدافع من بعيد، بينما كانت المشاة في جهات الكرنتينا وعند مفترق الطريق جنوب سمخ. وفي الساعة السادسة من صباح ١٨ أيار بدأ الاسرائيليون انسحابهم من المدينة تاركين عدداً من القتلى بينهم ٣ من القادة أحدهم قائد الحامية والثاني قائد النجدة. وكانت المدفعية السورية تدمر التحصينات وتقصف محاور تقدم قوات الدعم الاسرائيلية الى سمخ، مثل محور سمخ ـ دغانيا، ومحور سمخ الى مستعمرات فيكيم ومنها الى مسعده. وشعار هاغولان. وهذا ما جعل الانسحاب من سمخ صعباً تكبد العدو خلاله خسائر فادحة. وعندما سقطت سمخ بيد السوريين رحلت العائلات الاسرائيلية عن المستعمرات القائمة في وادي الاردن، بينما راح الشباب اليهودي يجتمعون للدفاع عن المستعمرات. واستمر الصراع بعد ذلك، واستخدم الاسرائيليون مدافع الهاون على نطاق واسع، وتمكنوا من تدمير إحدى المصفحات السورية التي كانت تتقدم نحو دغانيا بمحاذاة شاطىء بحيرة طبريا، كما دمروا مصفحة اخرى عندما وصلت الى ابواب المستعمرة، وأحرقوا ثالثة بعد أن نجح رجالها في الوصول الى قلب دغانيا. وطرأ عطل على مصفحتين وقعت إحداهما بيد العدو، الأمر الذي جعل السوريين يبطؤون في تقدمهم بالمشاة، ولكنهم تابعوا قصف المستعمرة بالمدفعية والرشاشات الثقيلة التي يضعونها على سطح عمارة البوليس في سمخ، فكان الاسرائيليون يردون عليها بمدافع الهاون ٣ بوصة.

العمليات في قطاع الجيش العراقي (القطاع الأوسط): في يوم ١٥ أيار (مايو) هاجم لواء عراقي مستعمرة (جيشر) وتوقف أمامها، وانسحب الرتل الأول العراقي في يوم ٢٠ أيار (مايو) من جسر المجامع الى السامرة. وأحضر

قوات دعم جديدة من العراق. وفي ٢٨ أيار (مايو) هاجم الاسرائيليون بقوة لوائي مشاة من العفوله، وفي ٢ حزيران (يونيو) قام الجيش العراقي بهجوم مباغت على العدو، وأوقع في صفوفهم خسائر فادحة غير أن الأوامر صدرت إلى القوات العراقية بعدم استثمار الظفر والمطاردة. وبالفعل تم التوقف في انتظار موعد الهدنة الأولى، وتقدمت قوات من المناضلين الفلسطينيين واستردت القرى العربية غرب منطقة جنين، وبقي الوضع على حاله حتى انتهاء الهدنة حيث عاود المناضلون الهجوم على العدو وانضمت اليهم القوات العراقية؛ واستولت على المواقع الاسرائيلية في منطقة جنين الغربية.

ان العرض السابق يظهر ان الجيوش العربية نجحت خلال الأيام الأولى من الحرب في السيطرة على اقسام كبرى من فلسطين، فكانت الخطوط الامامية المصرية تصل شمالاً حتى مدينة بيت لحم ومستعمرة تلبيوت في ضواحي القدس الجنوبية، والى الغرب حتى حدود منطقة يافا الجنوبية. وسيطر الجيش المصري سيطرة تامة على منطقة النقب الجنوبي وخليج العقبة بأكمله وحتى أطراف البحر الأحمر الشمالية. وسيطر الجيش السوري وجيش الانقاذ على الجليل بأكمله حتى جنوب بحيرة طبريا، ما عدا المستعمرات في الجليل الشرقي. وكان الجيش اللبناني يقف غير بعيد عن عكا. وكانت خطوط جيش الانقاذ الامامية تمتد الى جنوب قرى مدينة الناصرة. وسيطر الجيش العراقي على قلب فلسطين وأحدق بتل أبيب، وكانت خطوطه الأمامية من الشمال الى ما وراء مدينة جنين ومن الغرب بيارات طولكرم وقلقيلية على بعد ثمانية أميال من ساحل البحر المتوسط. واحتل الجيش الأردني غور الأردن الجنوبي ومنطقة القدس والقدس القديمة ومنطقة رام الله واللد والرملة حتى التقى بالجيش العراقي في الشمال وبالجيش المصري في الجنوب والغرب.

وكان من السهل على الجيوش العربية احتلال المناطق القليلة الباقية من أرض فلسطين والتي احتلها الاسرائيليون أثناء وجود القوات البريطانية، لاسيما وأنهم لم يقوموا خلال هذه الفترة بتنظيم مقاومة جديدة وفق خطة استراتيجية واضحة بسبب قناعتهم بعدم جدية المعركة من ناحية، وبسبب اعتقادهم الثابت بنجاح معركتهم السياسية المدعومة من بريطانيا وأميركا بصورة خاصة. ولهذا كان موقفهم سلبياً، وتمثل بالدفاع في المستعمرات وراء التحصينات، وحتى هذه المقاومة لم تكن منظمة في إطار نظام دفاعي موحد، مما ساعد الجيوش العربية على اجتياح المناطق المحددة لها بسرعة. ولكن سرعان ما توقفت اندفاعة الجيوش العربية، وفي الواقع فقد توقف الجيشان الأردني والعراقي منذ أيام القتال الأولى عند حدود المواقع المحددة لهما ودون تجاوزها الى المنطقة المخصصة للصهاينة في قرار التقسيم. وتردد الجيش الأردني كثيراً قبل أن يستجيب للنداءات العربية في مدينة القدس التي اعتبرها قرار التقسيم دولية. واستغل العدو هذا الاعتبار، وابتعاد الجيوش العربية عنها في أول مراحل القتال، فأخذ في احتلالها شارعاً بعد شارع، وحياً بعد حي، مع تضييق الخناق على آخر الأحياء العربية. التي تجمعت فيها قوى المجاهدين الفلسطينيين. وعندما اضطرت الحكومة الأردنية، تحت ضغط اعتبارات مختلفة، لنجدة العرب فيها، اكتفت باحتلال المدينة القديمة فقط، على الرغم من سيطرتها على منطقة القدس بكاملها، وعلى الرغم من اندفاع الجيش الأردني لاحتلالها وقدرته التامة على ذلك وحماسته الكبيرة لتنفيذ هذا الواجب. وكذلك فقد توقف الجيش اللبناني، ولم يحقق أي تقدم يذكر بسبب اصطدامه بسلسلة من المستوطنات المركزة على الحدود الشمالية، في حين اصطدم الجيش السوري بتحصينات خط ايدن القوي على الحدود السورية الفلسطينية، والذي سلمه الانكليز الى الصهاينة قبل جلائهم.

الهدنة الأولى (٦/١١ - ١٩٤٨/٧/٩)

خلال مرحلة القتال الأولى، وفي غمرة الذهول من تصرفات بعض الجيوش العربية، وتوقف بعضها الآخر واتخاذه موقف الدفاع دون سبب واضح، وجد قادة العدو أنفسهم في موقف العزلة بعد أن سيطرت الجيوش العربية على جميع انحاء فلسطين، فاستنجد هؤلاء القادة بأميركا التي اعلنت «بأن الحالة في فلسطين تهدد السلم وتنذر بالخطر»، وأسرعت إلى مجلس الأمن مطالبة إياه بالتدخل السريع والحاسم لايقاف القتال ولو بالقوة وتطبيق العقوبات. وكذلك أسرعت بريطانيا، وعملت على اتخاذ اجراءات مزدوجة ضد العرب وضد تدخلهم العسكري في فلسطين، فمن جهة راحت تنذر الدول العربية بوقف القتال فوراً وتهددها ان هي استمرت في عملياتها العسكرية، ومن جهة اخرى فقد لجأت الى مجلس الأمن مطالبة بتدخله، واحتياطاً لكل موقف مضاد من حليفاتها العربية تحت تأثير ضغط الدول العربية الأخرى وشعوبها، أكملت اجراءاتها بابلاغ الدول العربية المرتبطة معها بمعاهدات انها ستوقف فوراً تزويدها بالسلاح والعتاد ان لم تستجب لنداء وقف القتال.

الموقف عند بداية الهدنة الأولى

وكان مجلس الأمن قد قرر منذ ٢٢ أيار (مايو) ١٩٤٨، بناء على اقتراح

بريطاني، توجيه نداء بوقف القتال في فلسطين خلال ٣٦ ساعة تبدأ من منتصف ليل اليوم نفسه. وقد رفض العرب هذا النداء بمذكرة وجهها أمين الجامعة العربية الى مجلس الأمن، فاستمرت أميركا ومعها بريطانيا في ممارسة الضغوط على مجلس الأمن وعلى الدول العربية مع الاستمرار بالتهديد، مما دفع مجلس الأمن الى توجيه الدعوة لإيقاف القتال لمدة أربعة أسابيع وفق مشروع بريطاني يتضمن وعداً بعدم ارسال متطوعين أو أسلحة أو اعتدة الى فلسطين خلال هذه الفترة، وانذار المخالف بتطبيق العقوبات العسكرية والاقتصادية ضده.

في الثاني من حزيران (يونيو) ١٩٤٨، ابلغت الجامعة العربية مجلس الأمن عن موافقة الدول العربية على قراره، مع أملها بأن يتمكن الوسيط الدولي الكونت برنادوت الذي عينه المجلس منذ ١٤ أيار (مايو) ١٩٤٨، ولجنة الهدنة التي عينها قبل ذلك في ٢٢ نيسان (أبريل) ١٩٤٨، من إيجاد حل عادل لقضية فلسطين. وكان الاسرائيلون قد وافقوا على نداء الهدنة فور صدوره، مع التأكيد على رفض كل حل يتعارض مع واقع دولتهمَ الجديدة.

وفي صباح ١١ حزيران (يونيو) توقف القتال في فلسطين لمدة أربعة أسابيع (وهو التوقف الذي عرف باسم الهدنة الأولى).

ماذا افادت اسرائيل من الهدنة :

لم يكن لدى اسرائيل خلال المرحلة الأولى من الحرب اكثر من ١١ طائرة للتدريب والرياضة من نوع «تايغر»، ولهذا فقد ركزت جهدها للافادة من فترة الهدنة لشراء الطائرات المقاتلة، وطلب الدعم من الطيارين اليهود في جيوش

العالم للالتحاق باسرائيل. ونجحت القيادة الاسرائيلية في عقد صفقة مع تشيكوسلوفاكيا لشراء طائرات «سبيتفاير» و «مسر شميت»، ووصل الى اسرائيل ٢٠ طائرة، علاوة على ٢٠ طائرة تم نقلها على شكل قطع غيار. ونجح المندوبون السريون وعملاء اسرائيل في شراء ٣ قلاع طائرة من طراز (ب ـ ١٧) من أميركا وهي قلاع مجهزة بحوالي ١٠ ـ ١١ مدفعاً علاوة على قدرتها على إلقاء ٤ اطنن من القنابل. وفي مجال التسلح للقوات الارضية حصلت اسرائيل على أسلحة من تشيكوسلوفاكيا وهي ١٠ آلاف بندقية، و٤٥٠ مدفعاً رشاشاً، و ٦ مدافع عيار ٦٥مم، ومجموعة مدفعية ٧٥مم. وقد عملت اسرائيل على استنفار جميع امكاناتها وتعبئة جميع مواردها البشرية للحرب.



مدفع أردني ٢٥ رطل في المعركة

ماذا عن القوات العربية ؟

وعلى الصعيد نفسه حاولت بعض الدول العربية ــ سوريا خاصة ــ الحصول على الأسلحة، واستطاعت عقد صفقة مع تشيكوسلوفاكيا بقيمة ١١ مليون دولار لشراء ٨ آلاف بندقية وعشرة ملايين طلقة وكمية من القنابل اليدوية ومختلف انواع الذخائر.

واحيطت هذه الصفقة بمجموعة من المؤامرات انتهت بنقل الاسلحة في مياه جزر الدوديكانيز الى سفن اسرائيلية واغراق الباخرة الايطالية (جيرو) التي كانت تنقل الأسلحة.

اثر هذه التدابير تطور موقف اسرائيل، وأصبح بامكانها الانتقال من مرحلة الدفاع الثابت الى الهجوم خلال المرحلة الثانية من الصراع. ولقد حاولت القوات العربية تطوير موقفها ــ وبصورة خاصة القوات المصرية ــ فتقدمت قيادة القوات المصرية، في أعقاب الموافقة على الهدنة الأولى، بمذكرة الى رئاسة الجيش تطلب فيها رفع القوة الى فرقة مشاة كاملة ومجموعة لواء مشاة مستقل، مع زيادة حجم القوات المدرعة لتكوين مجموعة مدرعة كاملة، ودعم الموقف الاداري بجميع عناصره.

وعملت قيادة الجيش على تلبية بعض المتطلبات، فأرسلت كتيبة مشاة وكتيبة مدافع رشاشة من كتائب الاحتياط وسرايا مهندسين، واكملت بقية اسلحة الدعم للفرقة بحيث أصبحت القوات المصرية بعد فترة قصيرة تضم فرقة مشاة كاملة مع أسلحة الدعم والوحدات الادارية الضرورية للفرقة. وقد

حددت واجبات القوات المصرية خلال فترة الهدنة بتأمين خط المواصلات وتطهير المستعمرات المشرفة عليها ثم العمل بعد ذلك بحيث تصبح القوات المصرية مستعدة للتقدم نحو جنوب تل أبيب، في نفس الوقت الذي تكون فيه بقية الجيوش العربية مستعدة لاجراء مثل هذا التقدم من جانبها.

ولم تلتزم القيادة الاسرائيلية بمقررات هيئة مجلس الأمن، واستغل الاسرائيليون فترة الهدنة الأولى لتحسين موقفهم الحربي وإعادة تنظيم قواتهم مما مكنهم من مجابهة الجيوش العربية في المرحلة الثانية من الحرب بكفاءة. وفي هذا المجال قام الاسرائيليون باحتلال الخط الدفاعي المواجه للخط الذي وصلت اليه القوات المصرية، مع تأمين تموين المستعمرات الجنوبية والمواقع المعزولة إما بالطائرات أو بأرتال العربات، والتسلل عبر الخط المصري بين المجدل والخليل، مع الحصول احياناً على تصريح بذلك من لجنة الهدنة. واتخذت اسرائيل التدابير الضرورية لفتح ثغرة في الخط المصري المجدل ـ الخليل عند استئناف القتال لاعادة الاتصال مع المستعمرات الجنوبية والاستعداد لتطهير طريق القدس ـ بئر السبع ـ العسلوج. وقامت باستطلاع المواقع المصرية وذلك عن طريق ارتال التموين أو الطائرات بحجة ارسال تموين للمستعمرات الجنوبية. وتحقيقاً لهذه الغاية. قام الاسرائيليون في يوم ١١ حزيران (يونيو) ـ وهو نفس يوم إعلان الهدنة ـ بالهجوم على بلدة العسلوج، ولم تكن بها قوات عسكرية مصرية كبيرة، واحتلوا البلدة فعلاً، واستغلوا تعليمات وقف القتال للاحتفاظ بموقعهم فيها. وتقدمت قوات اسرائيلية عسكرية اخرى فاحتلت قرية الجسير شمال الفالوجا، وبلدة عبدس شمال بت عفة، والتبة ٦٩ (تبة الخيش) عند تقاطع الطرق بجوار (عراق سويدان)، وبلدة جوليس على تقاطع الطريق الشرقي وطريق (المجدل ـ

فسطينه) وطردت أهالي هذه البلاد منها، وجهزت بذلك خطاً دفاعياً في مواجهة الخط المصري، وأخـذت تنظـم تحصيناتهـا ومواقعهـا. وفي ١٤ حزيـران (يونيـو) احتلت بعض المصفحات الاسرائيلية بلدة كوكبـا بعـد أن طـردت الأهـالي منهـا وذلك استعداداً لفتح الطريق جوليس - كوكبا - الحليقات عند استئناف القتـال. وفي الوقت ذاتـه كـانت تتكـرر الاشـتباكات بالنـيران بـين القـوات الاسـرائيلية والقوات العربية على مختلف الجبهـات، وكـان هـدف هـذه الاشـتباكات تغطيـة اعمـال دوريـات الاسـتطلاع الاسـرائيلية، ورفـع الـروح المعنويـة لأفـراد المستوطنات. وفي نهاية شهر حزيران (يونيو) أخلى الانكليز ميناء حيفا. مع أنهم كانوا قد أعلنوا أن انسـحابهم النهـائي منـه سيكون في شـهر آب (اغسـطس). ولكنهم انسحبوا منه أثناء الهدنة، ومكنوا الاسرائيليين من الاستيلاء عليه.

وعلـى الرغـم مـن تعهـدات مجلـس الأمـن ودولـه الكـبرى بحظـر ارسـال الأسلحة والمتطوعين الى أي من الطرفين خلال فترة الهدنة، بادر الاسرائيليون الى جلب المتطوعين ونقلهم الى فلسطين، في حين وقفت كل الدول الكبرى في وجـه كل محاولة عربية للحصول على السلاح. وطبقـت معظـم دول العـالم بتأثـير مـن بريطانيا وأمريكا، قرار حظر إرسال الأسلحة الى البلدان العربية بكل دقة، حتـى أن الأسلحة التي كان من المقرر ارسالها لبعض الدول العربيـة مـن بريطانيـا وفـق نصوص المعاهدات والاتفاقات، أوقف ارسالها وحجـزت في الموانـيء البريطانيـة. وخلال هذه الفترة كان الوسيط الدولي الكونت برنادوت يمـارس دور الوسـاطة ويضع مقترحاته للعرب واليهود مشترطاً قبولها من الطرفين لتكون أساساً عمليـاً للتسوية النهائية.



جنود الجيش الأردني في المقدس القديمة

وقد رفض العرب واليهود على السواء هذه المقترحات والتوصيات. فرفضها العرب لأنهم رأوا فيها اصراراً على تقسيم فلسطين وعلى استمرار الهجرة اليهودية اليها، الأمر الذي عارضوه دائماً وثاروا ضده وحاربوه مطالبين باستقلال فلسطين وقيام حكومة واحدة على أسس ديمقراطية صحيحة. ورفضها اليهود لأنهم رأوا فيها حداً لأطماعهم ومخططاتهم التوسعية، لأنها غيرت في شكل دولتهم كما حددوها وأرادوها في مرحلتها الأولى، فقد شعروا بعد وقوف دول الاستعمار الى جانبهم علناً في فترة الحرب وخلال مدة الهدنة ما شجعهم

على تكوين قناعة بالفوز وتحقيق مطالبهم كلها خلال هذه المرحلة. ولكن محاولتهم فشلت. وانتهى الأمر الى تجدد الصراع.

المرحلة الثانية (٧/٩ ـ ١٩٤٨/٧/١٨) الجبهة المصرية:

بدأت العمليات على الجبهة المصرية في المرحلة الثانية بقيام المصريين، في ٧ تموز (يوليو) ١٩٤٨، بمحاولة احتلال بيت دوراس الواقعة جنوب شرق أسدود، وكان يوجد حولها تجمعات للعدو في منطقة السوافير الغربية والسوافير الشرقية. واستطاعت قوات الهجوم اقتحام المستوطنة. ولكن حدث خطأ في اطلاق الشهب المتفق عليها فانسحبت القوة المهاجمة وعاود العدو احتلالها.

وفي ٨ ـ ٩ تموز (يوليو) دفعت سرية سعودية لاحتلال المرتفعات المحيطة ببلدتي كوكبا والحليقات. ثم قامت كتيبة المشاة الثانية بهجوم على بلدة كوكبا ومعها سرية دبابات وبعض السيارات المدرعة وحققت قوات الهجوم مباغتة تامة، ونجح المصريون بالاستيلاء على البلدة وتطهيرها في الساعة السابعة من صباح يوم ٩ تموز. ثم تابع قائد كتيبة الهجوم تطوير عمليته، وأسرع لاحتلال الحليقات. وبعد قتال مرير استمر ساعتين تقريباً انسحبت القوة المعادية. وفي يوم ٩ تموز تابع المصريون هجومهم للاستيلاء على كفار ديروم الواقعة على جانب طريق رفح ـ غزة أمام بلدة دير البلح. وفي الساعة الثانية من بعد ظهر يوم ٩ تموز (يوليو)، احتلت كتيبة المشاة الثالثة قواعد الهجوم ومعها جماعتا مدافع هاون ٣ بوصه، وجماعتا مدافع ٦ رطل، وجماعة اقتحام، وجماعتا مدافع رشاشة متوسطة، وفصيلة مدافع مضادة للدبابات عيار ٦ رطل، ووحدة مدفعية ميدان خفيف ٣,٧ بوصه، ومدفعان بوفرز ٤٠ مم. كما اشترك مع هذه القوة ٨٢ من المتطوعين. وبدأ الهجوم ليلاً وامكن الانتهاء من عملية الاستيلاء على

المستعمرة وتطهيرها في يوم ١٠ تموز (يوليو). وقد اجريت محاولات لاحتلال بيت عفه وعبديس ونجبا، وتكبد المصريون خسائر فادحة، ولكن الاسرائيليون أفادوا من تحصين مواقعهم ودعمها، ففشلت محاولات الهجوم، ولم تنجح سوى محاولة الاستيلاء على بيت عفة. وقامت القوات الاسرائيلية بتنظيم هجوم قوى لاستعادة بيت عفة في ظهر يوم ١٤ تموز (يوليو) ولكن هذا الهجوم احبط بقوة، واعادوا محاولتهم في ليل ١٥ تموز (يوليو)، وفشلت هذه المحاولة ايضاً. فأعادوا تنظيم قواتهم وطلبوا دعماً جديداً. وفي يوم ١٧ تموز (يوليو)، تعرضت القوات المصرية للقصف المركز والشديد طوال النهار. وقبل منتصف الليل بقليل قام الاسرائيليون بهجومهم مستخدمين قاذفات اللهب الخفيفة للمرة الأولى.

وسقطت بعض المواقع. ولكن القوات المصرية اعادت سد الثغرة. فقام العدو بهجوم جديد امكن احباطه. وانتهت المعركة في فجر يوم ١٨ تموز (يوليو)، بأسر أربعة وقتل ٥٦ مقاتلاً صهيونياً، وغنم ٥٥ بندقية، وأربعة مدافع بيات، وقاذفتي لهب، واثنتي عشر مدفعاً رشاشاً، وكمية كبيرة من القنابل اليدوية. كما استمرت القوات المصرية بحصار مستعمرة الدنجور، وحاولت الاستيلاء على مستعمرة بيرون اسحاق، ولكن القوات انسحبت بعد أن وصلتها بسبب التهديد بهجوم مضاد للقوات الاسرائيلية. كما جرت محاولة احتلال مستعمرة العسلوج في ١٧ تموز (يوليو)، ولكن المحاولة توقفت عند حدود السيطرة على المستعمرة بالنيران من التلال المجاورة. وقد حاولت القوات الاسرائيلية الاستيلاء على الفالوجا في مساء يوم ١٧ تموز (يوليو) ١٩٤٨، بيد أن محاولتها فشلت أمام عتاد القوات المصرية ومقاومتها الضاربة، ولكن القوت الاسرائيلية نجحت في الوصول الى كراتيا واحتلالها.

الجبهة الأردنية: بدأت هذه المرحلة باستيلاء الاسرائيليين على اللد والرملة. وكانت القوات العربية المدافعة عن اللد لا تزيد عن ٧٥ مقاتلاً من جيش الجهاد المقدس، و ٦٥٠ مقاتلاً من مجاهدي القرى المجاورة، و ٤٠ جندياً من الجيش العربي الاردني. في حين حشد الاسرائيليون قوة ٥٠٠٠ مقاتل، اكثرهم من وحدات الصاعقة (البالماخ) مزودين بأحدث الأسلحة، وكانت كل وحداتهم متحركة مما زاد من مرونتها ونجاح مناوراتها لعزل المدينة بعد تطويقها.

واستمرت المعركة يومين خسر فيها العرب ١٣٠٠ قتيل، استشهد منهم ٨٠٠ في ساعات القتال الأولى علاوة على ٤٢٦ شهيداً قتل اكثرهم في المساجد.

ودخل الاسرائيليون اللد مساء ١١ تموز (يوليو) وفي يوم ١٣ تموز ارغم الاسرائيليون بقية السكان العرب على الهجرة. وكان فيها اكثر من ٥٠ ألفاً. وبعد سقوط اللد بساعتين بدأت معركة الرمله، وكانت بها سرية من الجيش العربي الأردني، ولكن هذه السرية غادرت الرملة مساء ١١ تموز (يوليو) كما غادرها المجاهدون في منتصف الليل، ودارت رحى المعركة بين ٥٠٠ جندي مشاة اسرائيلي مع ٤ عربات تحمل رشاشات (برن) وبين فصيلة فقط من الجيش العربي الاردني كانت تحتل عمارة البوليس يدعمها ٥٠ مناضلاً، وقد فشل الهجوم الاسرائيلي الأول نتيجة للمقاومة العربية العنيفة، وترك المهاجمون عرباتهم المدرعة وجرحاهم فوق أرض المعركة. وفي ١٢ تموز (يوليو) تقدمت نجدات كبيرة من الاسرائيليين فطوقت الرمله، وانسحبت بقية القوة الاردنية ودخل العدو الرمله صباح ١٢ تموز (يوليو) وطرد معظم سكانها العرب.

وكانت عملية تسليم اللد والرملة عاملاً حاسماً في مسيرة الأعمال القتالية للمرحلة الثانية من الحرب. فالمدينتان لا تبعدان عن تل أبيب اكثر من خمسة عشر كيلومتراً، وتشكلان موقعاً استراتيجياً هاماً. ولقد أهمل غلوب باشا، القائد الانكليزي للقوات الاردنية، عن عمد تحصينها وحشد القوات الكافية فيهما. وكان من نتائج سقوط المدينتين كشف ميمنة الجيش المصري وتهديدها بطريق غير مباشر. وعلاوة على ذلك، فقد حصل العدو على محور مضمون للاتصال مع القدس مع الاستيلاء على قاعدة جوية هامة (قاعدة اللد). وكان لسقوط المدينتين بالاضافة الى ذلك أثر نفسي تمثل في احباط الروح المعنوية للمقاتلين العرب على الجبهات جميعها.

الهدنة الثانية (١٨/٧/١٩٤٠ حتى توقف العمليات الحربية على الجبهة المصرية في ٧/١/١٩٤٩)

في هذه الفترة كان الصراع السياسي مستمراً وتقدمت أمريكا بمشروع هدنة ثانية، وفرضتها على اعتبار ان الوضع في الشرق الاوسط يشكل خطراً على السلم. ووجهت انذاراً بفرض العقوبات الاقتصادية على من ينتهك الهدنة. ووافقت الجامعة العربية على الهدنة الثانية التي بدأت في ١٨ تموز (يوليو) ١٩٤٨. لكن القيادة الاسرائيلية لم تحافظ على شروط الهدنة وقامت بخرقها، فنظمت هجوماً على الفالوجا في ٢٧ - ٢٨ تموز (يوليو) ١٩٤٨. وفشل هذا الهجوم ايضاً. ونظمت القيادة الاسرائيلية هجوماً للاستيلاء على عراق المنشية في ليل ٢٧ تموز (يوليو) وكان نصيبه الفشل. فأخذت في وضع مخطط جديد من أجل فتح الطريق الى الجنوب (النقب) وقامت بتنفيذ (عملية الضربات العشر) و

(عملية عين) في الجنوب كما نظمت عملية ضد جيش الانقاذ في الشمال (الجليل الاعلى) عرفت باسم عملية (حيرام).

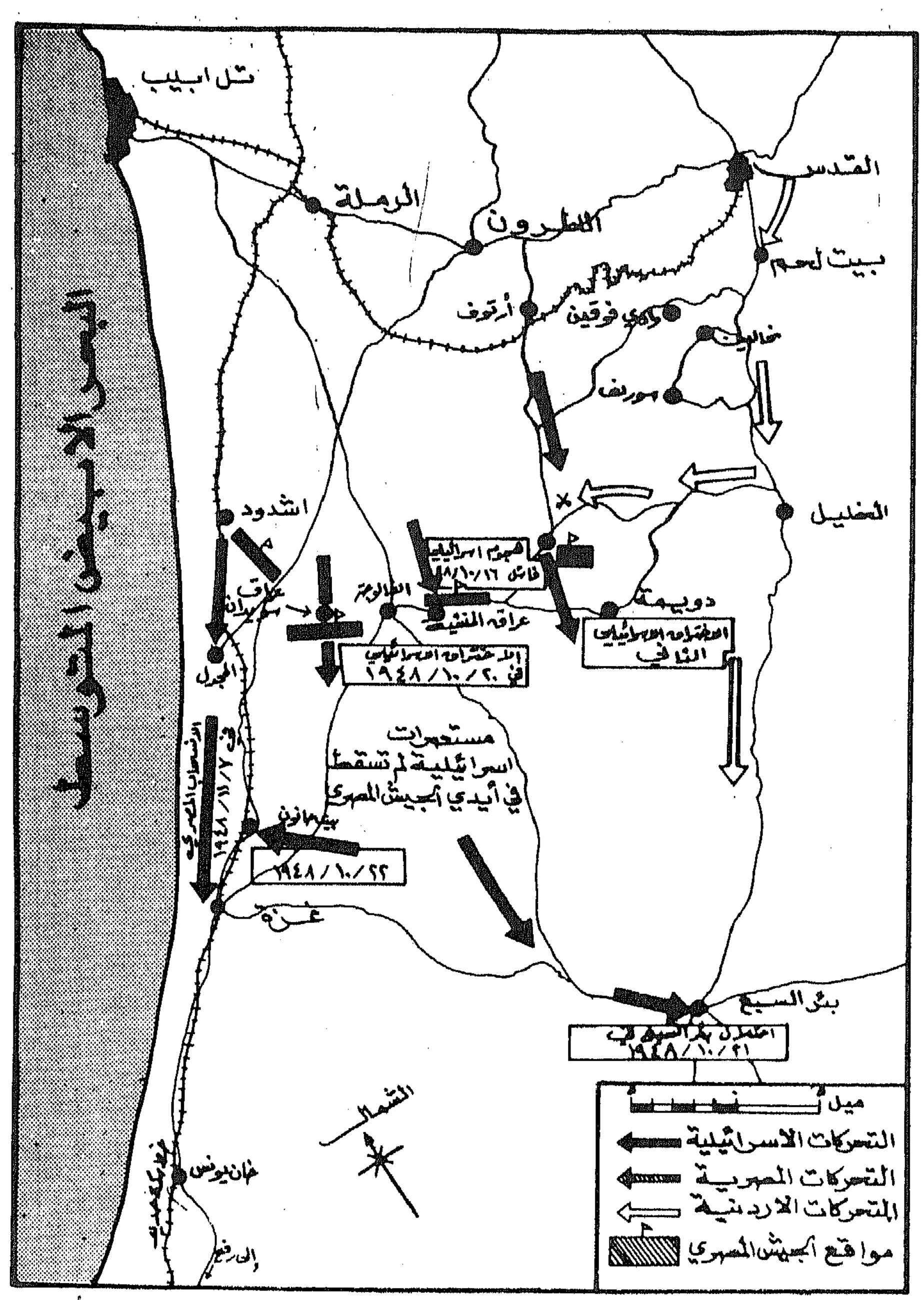
العمليات الاسرائيلية بعد الهدنة الثانية :

أ ـ عملية الضربات العشر :

قامت اسرائيل بعد الهدنة الثانية بمجموعة عمليات على الجبهة المصرية أدت إلى احتلال النقب والوصول إلى إيلات على خليج العقبة.

كان الهدف من هذه العملية فتح الطريق الى النقب. وتحديد مواقع انتشار القوات المصرية واستثمار نقاط الضعف في تنظيماتها الدفاعية حتى اقصى الحدود وعزلها عن موارد امدادها وقطع طرق انسحابها وضرب المراكز الادارية. وقد استطاعت عملية الضربات العشر تحقيق هذه الاهداف كلها وتم تنفيذها في الفترة بين ١٥ ـ ٢١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٨.

عند ابتداء الهدنة الثانية، في ١٩٤٨/٧/١٨، كانت القوات المصرية لا تزال مسيطرة على مواقعها في الجنوب مشكلة حاجزاً بين المستعمرات الجنوبية في النقب وبين المستعمرات في شمال فلسطين. وذلك عن طريق فرض سيطرتها على محاور التحرك الساحلية الى الشمال من اشدود وإمساكها بمحور العوجا والعسلوج وبيت لحم ومحور مجدل ـ بيت جبرين. ووضعت القيادة الاسرائيلية مخططها للقيام بهجمات مباغتة، مع توجيه هجمات مباشرة ضد كل نقطة تحتلها القوات المصرية. وفي ١٥ تشرين الاول (اكتوبر) قامت القوة البحرية الاسرائيلية بضرب مطار العريش وبعض الاهداف الاخرى مثل: غزة، بين



عملية الضربات العشر ضد الجيش المصري من ١٠/١٥ إلى ٤٨/١١/٢١

حانون، المجدل، الفالوجا، مع تركيز الضربات ضد القوات الجوية المصرية لوضعها خارج المعركة والحد من فاعليتها. وبذلك اصبحت محاور امداد القوات المصرية مهددة. كما اصبحت حركة القوات مقيدة وامكن بذلك عزل قوات مصرية كبيرة وحرمانها من الاشتراك في المعركة. وفي الوقت ذاته انطلقت قوات اسرائيلية للسيطرة على التلال التي لم يحتلها المصريون في منطقة بيت جبرين، وفي صباح يوم ١٠/١٦ وعلى الرغم من عدم حدوث اشتباك قوي مع القوات المصرية، فان محاور تحرك القوات المصرية اصبحت مقطوعة في الشمال ومهددة في الغرب، ثم انطلقت القوات المدرعة والميكانيكية الاسرائيلية نحو عراق المنشية والتل القديم، ودارت المعركة مع المدفعية، واستطاع المصريون تدمير عدد من الدبابات فاضطرت المشاة الاسرائيلية الى الانسحاب. واستمر الصراع بعد ذلك حول الدفاعات المصرية عند التلال المختلفة. وفي ليل ١٦ ــ ١٧ استطاع الاسرائيليون اقتحام بعض المواقع والاشتباك مع المصريين بقتال عنيف والاشتباك بالايدي وامكن للاسرائيليين في النهاية السيطرة على المرتفع ١١٣ مع عدد من المرتفعات الاخرى. وخلال هجوم هذه الليلة كانت قوات اسرائيلية اخرى تهاجم التلال جنوب غرب القدس لتدمير الجناح الايمن المصري. وفي يوم ١٠/١٧ قام المصريون بهجوم مضاد قوي وحاسم بهدف اعادة الاتصال بين المجدل ومنطقة الفالوجه، واستطاع الاسرائيليون مقاومة الهجوم المصري واحباطه بفضل تفوقهم في التسلح. وخلال اليومين التاليين، وبينما كانت القوات المصرية تعزز مواقعها عند عراق سويدان وحتى عراق المنشية، وهي المنطقة التي عرفت باسم جيب الفالوجة، كانت القوات الاسرائيلية قد نجحت في احتلال الحليقات في ليل ١٩ ــ ٢٠ تشرين، واصبح

بامكان القوات الاسرائيلية التدفق نحو الجنوب الذي بقي معزولاً عن الشمال منذ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٧. وحشدت اسرائيل في هذه المنطقة قوة لواء للمحافظة على الاتصال بين النقب وشمال اسرائيل. امام هذا الموقف اضطرت القوات المصرية الى اخلاء منقطة المجدل بعد ان اصبحت محاورها مهددة. وتابعت القوات الاسرائيلية هجماتها لتضييق الحصار على المصريين واقتطاع اجزاء جديدة والسيطرة على بيت لحم. وعندما سقطت عراق سويدان في قبضة القوات الاسرائيلية يوم ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٨ كان جيب المقاومة المصري قد فقد في الواقع اقوى نقطة يمكنه الاستناد اليها.

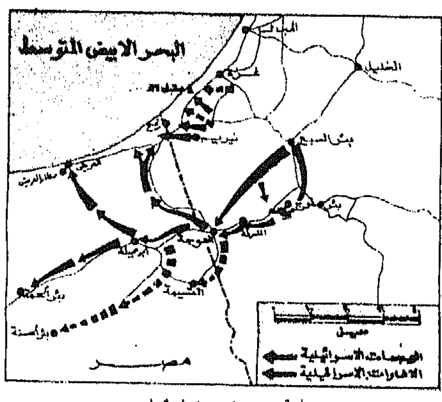
ب ـ عملية عين :

اصبحت اوضاع القوات المصرية بعد تدهور الموقف تعتمد على التنظيم دفاعياً. بحيث يستند الجناح الايسر على الطريق الساحلي بعد غزة، في حين يستند الجناح الأيمن الى طريق العوجة ـ الخليل حتى بئر العسلوج جنوب غرب بئر السبع. وكانت اجنحة القوات المصرية تلتقي عند محور طريق رفح ـ العوجه. والذي يمر جزئياً في الحدود المصرية، ويتفرع عنه بعد ذلك والى مسافة من جنوبي الطريق الذي يصل العريش بأبى عجيله. وعلاوة على ذلك فقد كانت هناك القوات المعزولة في جيب الفالوجه، وعلى الرغم من ان موقف القوات المصرية لم يعد يسمح بممارسة اعمال هجومية، الا ان قوات الجيش المصري بقيت محافظة على مواقع جيدة.

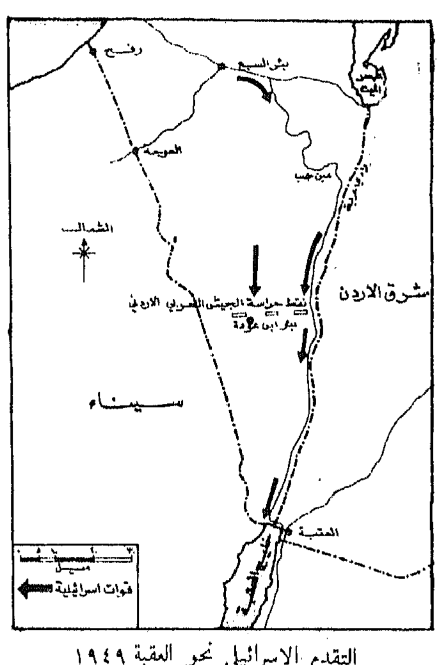
وقد وضعت اسرائيل مخططها للهجوم على القوات المصرية بطريقة تشابه مخطط هجوم اللنبي (١٩١٧)، وتتلخص في دفع القوات المصرية من الجنوب، والضغط عليها، مع توجيه الضربة القوية اليها من الشمال، مع تجميد اكبر قوة

مصرية في القطاع الغربي، ثم العمل على تدمير الجناح الايمن المصري او ارغامه على الانسحاب، وفي يوم ٢٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٨ قامت القوات الجوية الاسرائيلية بهجمات مركزة على المواقع المصرية في رفع وغزة وخان يونس، ثم فتحت النيران لتدمير المدفعية المصرية على امتداد الجبهة. وفي الليلة ذاتها احتلت القوات الاسرائيلية المرتفعات التي لا تبعد اكثر من ثمانية اميال جنوبي غزة، مهددة بقطع محور طريق رفح ـ غزة، فقامت القيادة المصرية بتنظيم هجوم مضاد قوي مع تعزيز مواقعها في مواجهة القوات الاسرائيلية التي اخذت تهدد منطقة رفح ـ غزة. وعلى الرغم من نجاح المصريين في طرد القوات الاسرائيلية من المرتفع ٨٦، بعد قتال ضار، إلا ان هذه العملية كانت خداعية بحيث استطاع الهجوم الاسرائيلي من القطاع الشرقي تحقيق المباغتة التامة. واضطرت القوات المصرية للتراجع عن طريق بئر السبع ـ العوجة واخلاء العوجة ذاتها. واستخدمت القوات الاسرائيلية طريقاً رومانياً قديماً يصل الى ما وراء العوجة، وبذلك امكن لها تحقيق المباغتة العملياتية. وبهذه الطريقة اصبحت لدى القيادة الاسرائيلية الورقة السياسية التي تستطيع ان تساوم بها لابتزاز مواقف تدعم من مكانة اسرائيل فوق الارض العربية المحتلة، واصبح بامكانها التصرف بحرية للوصول الى خليج العقبة وإيلات.

عملية عين ١٩٤٨



عملية « عين » ١٩٤٨



التقدم الإسرائيلي نحو العقبة ١٩٤٩

جـ ـ عملية احتلال الجليل أو عملية حيرام :

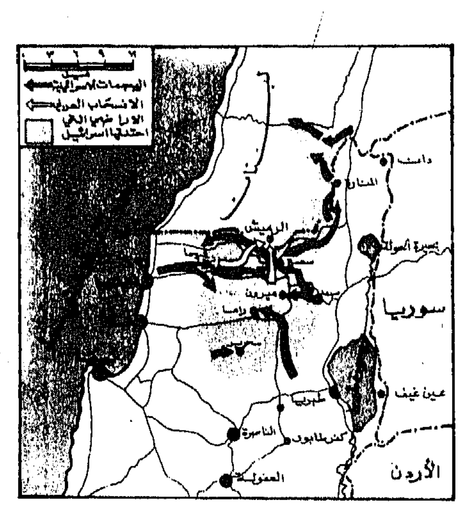
بعد انسحاب جيش الانقاذ بقيادة فوزي القاوقجي الى الجليل الاعلى انتشر على شكل مستطيل يحتل جبهة طولها ١٥ كم وعمقها ١٠ كم، وعندما اشتدت هجمات القوات الاسرائيلية على القوات المصرية، قرر القاوقجي القيام بعملية هجوم على المنارة (فوق وادي الحولة، وعلى ارتفاع ٢٥٠٠ قدم عن سطح البحر). ولكن اسرائيل طبقت اسلوب العمل على الخطوط الداخلية، ووضعت خطتها على اساس عزل جيش الانقاذ عن قاعدة تموينه في لبنان، والقيام بهجمات خداعية على قوات القاوقجي لمنع التعاون فيما بينها، وتوجيه ضربة رئيسية الى احد الالوية والانتقال بعد ذلك إلى الالوية الاخرى. وفي ليل ٢٨ تشرين الاول (اكتوبر) بدأت العملية التي يطلق عليها الاسرائيليون اسم

عملية حيرام، وعلى الرغم من المقاومة الضارية والقتال العنيد فقد نجحت القوات الاسرائيلية في احتلال الجليل الاعلى، واخراج جيش الانقاذ من فلسطين.

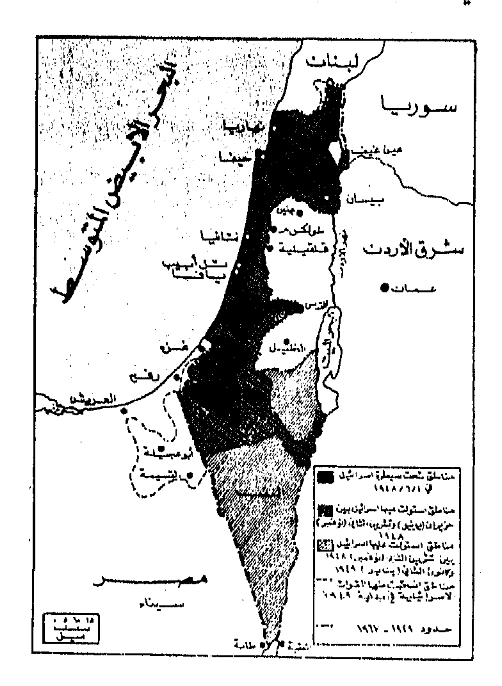
كان الموقف على الجبهات العربية سيئاً نتيجة لتمزق الجبهات. وبدأ معها ظهور مشكلة اللاجئين العرب. فقد قدر عدد المهاجرين بسبعمائة ألف، تجاوز منهم ٢٥٠ ألف حدود فلسطين، وتشرد الباقون في المدن والقرى التي كانت لا تزال آمنة.

خلال هذه الفترة، كانت الجهود الدولية تبذل لايقاف الصراع على الجبهة المصرية. وفي يوم ٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٨، اصدرت القيادات أوامرها بايقاف اطلاق النيران لجميع القوات اعتباراً من ظهر اليوم نفسه، ولكن القوات الاسرائيلية لم تلتزم ايضاً بهذا القرار فعملت ثلاث قطع. بحرية اسرائيلية على اغراق السفينة المصرية (فاروق) يوم ٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٨، ولم يمض على ايقاف اطلاق النار أكثر من ساعات قليلة. كما قامت بعملية حيرام ضد جيش الانقاذ المذكورة آنفاً. وبالإضافة إلى هذه العملية، فقد قام الإسرائيليون بعد وقف القتال ـ في الفترة الواقعة بين تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٨ وكانون الثاني (يناير) ١٩٤٩ ـ بعملية اتجهت من بئر السبع لاحتلال النقب والوصول إلى خليج العقبة، بغية فتح منفذ حيوي على البحر الأحمر، وانتهت العملية بالوصول إلى قرية أم الرشراش المصرية، التي غدت فيما بعد ميناء «إيلات».

وكان الكونت برنادوت يعمل خلال القتال الذي دار لوضع حل يقبل به الطرفان اساساً للتسوية.



عملية "حيرام" التي نفذها الإسرائيليون ضد جيش الإنقاذ في العام ١٩٤٨



المناطق التي احتلها الإسرائيليون في حرب ١٩٤٨، وفي الفترة التي تلت الهدنة الثانية حتى كانون الثاني (يناير) ١٩٤٩

وعندما تأكد استحالة قبول العرب لأي حال ينطوي على تقسيم فلسطين، واستحالة موافقة اليهود على أي اقتراح لا يعترف بدولتهم في فلسطين، أعد مقترحات جديدة بعث بها بتقرير مفصل من مدينة القدس في يوم ١٧ ايلول (سبتمبر) ١٩٤٨.

ولكن لم تمض سوى ساعات على ارسال تقريره حتى اغتاله اليهود بحجة محاباته للعرب. وعندما نشر تقريره يوم ٢٠ ايلول (سبتمبر) اتضح انه اقترح تنفيذ تقسيم فلسطين الى دولتين احداهما عربية والاخرى يهودية يجري تحديدهما وفق قرار الامم المتحدة مع عدد من التعديلات. واستمر الصراع السياسي بعد ذلك حتى انتهى الأمر بعقد اتفاقات هدنة مؤقتة في (رودس).

كانت عمليات المرحلة الأولى من الحرب العربية ـ الاسرائيلية الاولى ناجحة. ورغم جميع المعوقات والظروف غير المتكافئة فقد حارب فيها العرب هجومياً، في حين قاتل اليهود دفاعياً. وتميزت المرحلة الثانية بوقوف العرب دفاعياً وانتقال اليهود للعمل هجومياً على الخطوط الداخلية، والانتقال من جبهة الى جبهة بحرية تامة مع ترك ستارة وقائية على الجبهات التي يتم الدفاع عنها. وقد ركزت القوات الاسرائيلية ضربتها ضد الجيش المصري، واستطاعت حصاره في الفالوجه، واستطاعت تنفيذ مناوراتها بنجاح نتيجة لتشكيلها قوة لوائين مدرعين ولواء مشاة محمولة، وخاضت القوات العربية خلال هذه المرحلة معارك ضارية. ولكن القيود التي فرضتها القيادات السياسية أعاقت مسيرة الاعمال القتالية، كما ان النقص في التسلح والامداد بالذخائر كان لهما الدور الحاسم في إعاقة الاعمال القتالية. وفي جميع الأحوال، فقد هيمن الطابع

السياسي على الصراع العربي الاسرائيلي الأول، بحيث طغت النتائج السياسية للصراع على دور الأعمال القتالية وحجبتها بصورة شبه تامة.

ولقد كان من نتيجة هذه الحرب ضياع جزء من فلسطين تفوق مساحته القسم المخصص لانشاء الدولة اليهودية في قرار التقسيم. وترسيخ اقدام اسرائيل في قلب الوطن العربي. وتحولها الى قاعدة استعمارية أعاقت تطور العالم العربي ووحدته، وجعلت الاستقرار في منطقة الشرق الاوسط قلقاً وقابلاً للانفجار. وادت هزيمة الانظمة والجيوش العربية في هذه الحرب الى تصاعد النقمة الجماهيرية، واندلاع الثورات والانقلابات للاطاحة باسباب الهزيمة كمدخل للتحرير.

المراجع

مراجع الجزء الثالث

ثورة الحرية	عدنان العطار
صالح العلي ثائراً وشاعراً	حامد حسن
مذكرات نجيب عويد	المتحف الحربي ـ دمشق قاعة الوثائق
مذكرات يوسف السعدون	
جريدة الف باء	العدد ١٥٤٩
مذكرات فهمي المحايري	
وثائق الخارجية البريطانية	
دمشق تحت القنابل	اليس بولو
جريدة المقتبس	للاستاذ محمد كردعلي الاعداد ٤٥١٧
مجلة بيروت المساء	مذكرات سلطان الاطرش عن معركة بعلبك
فخري البارودي	نهال صدقي
شكري القوتللي	عبد اللطيف اليونس
العرب من وراء اللهب	عبد الغني الأسطواني
الموسوعة العسكرية	
دائرة المعارف الإسلامية	

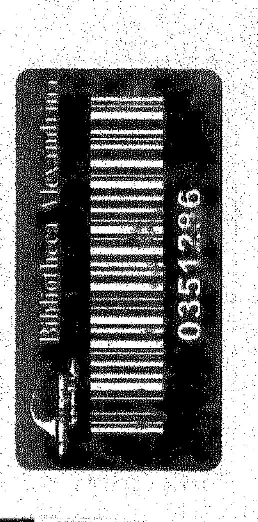
مراجع الجزء الرابع

الملوك العرب	أمين الريحاني
الاستعمار البريطاني في حرب الجزيرة العربية	محمد كمال عبد الحميد
عمان وإمارات الخليج العربي	حمدي حافظ ومحمد الشرقاوي
حكومة الكويت	دائرة المطبوعات والنشر ــ سجل الكويت اليوم، لمحات في جغرافية الكويت وتاريخها. حافظ وهبة
قضية البحرين بين الماضي والحاضر	يونس الفلكي
المجلة المصرية للقانون الدولي	
الحقيقة حول أمين باشا	فينا أفندي حسان
المفاوضات السرية العربية الإسرائيلية "الجزء الأول"	حسنين هيكل
تاريخ الخليج العربي	جلال يحي
الموسوعة العسكرية	

المحتويات

فهرس الجزء الثالث

فهرس الجزء الرابع


Bibliotheca Alexandrina
0351296